الوحي والعلوم في القرن الواحد والعشرين

الحفاظ على البيئة من منظور القرآن والسنة والوسطية والاعتدال من منظور القرآن والسنة

تحرير:

الأستاذ الدكتور محمد أبو الليث الخيرآبادي

الدكتور عصام التجاني محمد إبراهيم

المحررون المشاركون

الدكتور أحمد المجتبى بانقا

الأستاذ الدكتور محمد خليفة حسن

الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا

حقوق الطبع

حقوق الطبع محفوظة لقسم دراسات القرآن والسنة، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا. لا يسمح بإعادة طبع أو تصوير أي جزء من هذا الكتاب، بأي شكل من الأشكال الإلكترونية، أو الآلية بما في ذلك التصوير، أو النسخ، أو التسجيل الصوتي، أو التخزين الإلكتروني، إلا بموافقة خطية مسبَّقة من رئيس قسم دراسات القرآن والسنة، ويستثنى من ذلك التصوير لهدف إجراء البحوث العلمية، على أن يشار عند الاستشهاد به للناشر.

الطبعة الأولى: ١٤٣٦هـ – ٢٠١٥م

ISBN: 978-967-418-393-6

الناشر:

دار الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا للنشر IIUM Press

IIUM Press, International Islamic University Malaysia

P.O. Box 10, 50728 Kuala Lumpur, Malaysia

Phone (+603) 6196-5014, Fax (+603)-6196-6298

Website: http://iiumpress.iium.edu.my/bookshop

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس الأبحاث

١– محور الحفاظ على البيئة من منظور القرآن

١.	**أثر القيم التربوية والمورثات الفنية لبناء الشخصية للمجتمع للمحافظة على البيئة** د. إلهام بنت صدقة بن سليمان جان	٢-١٩
٢.	**الحفاظ على البيئة ومواردها في منظور السنة النبوية** د. محمد أحمد محمد عبد العال الشرباني	٢٠-٤١
٣.	**القيم البيئية الإسلامية** د. مزنة صالح إبراهيم الزميع	٤٢-٥٩
٤.	**أنواع الماء في القرآن الكريم ودلالاتها العلمية** د. ليث سعود جاسم فاتن محمد الجدي	٦٠-٧٤
٥.	**حزمة محفزات قرآنية وسنية في استثارة الحس البيئي** محمد سنيني	٧٥-٩٥
٦.	**ملامح من حفظ البيئة الوجودي والعدمي في القرآن الكريم والسنة النبوية** د. عمار بن عبد الله ناصح علوان	٩٦-١٠٨
٧.	**منظور القرآن الكريم في الحفاظ على البيئة** ناصر بن محمد بن صالح الصائغ	١٠٩-١٢٦
٨.	**منظور القرآن الكريم والسنة الشريفة في الحفاظ على البيئة وانعكاسه على مناهج التربية الإسلامية** د. ميمونة بنت درويش الزدجالية	١٢٧-١٤٦
٩.	**منظور القرآن والسنة في الحفاظ على البيئة** د. عبد الباسط بن عبد الرحيم بن حسين محمود	١٤٧-١٦٥
١٠.	**منهج حماية البيئة والمحافظة عليها في السنة النبوية** أ. د. خير الدين سيب	١٦٦-١٨٥
١١.	**ندرة الموارد وعلاقتها بحفظ البيئة دراسة مقاصديّة في ضوء القرآن الكريم** د. حسن بن إبراهيم الهنداوي	١٨٦-٢٠٧

٢- محور الوسطية والاعتدال من منظور القرآن والسنة

١٢.	**أزمة المنهج الوسطي بين التطرف والمداهنة** د. نجم عبد الرحمن خلف د. ساجدة حلمي سمارة	٢٠٩-٢٢١
١٣.	**السنة النبوية والوسطية والاعتدال: المذهب المالكي نموذجاً** د. فتحي جمعة محمد عربيي	٢٢٢-٢٢٩
١٤.	**العلاقة الجدلية بين الوسطية والخطاب الإسلامي المعاصر: دراسة تحليلية مقارنة** د. سيكو مارافا توري	٢٣٠-٢٤٥
١٥.	**الوسطية في الإسلام: العلامة القرضاوي نموذجا** وليد أبو النجا	٢٤٦-٢٥٧
١٦.	**الوسطية في القرآن ودور الأسرة في تفعيل الوسطية في حياة الأبناء** د. حنان محمد قاضي الحازمي	٢٥٨-٢٧٣
١٧.	**الوسطية في الكتاب والسنة ودورها في الترجيح الفقهي** حسام الدين خليل فرج محمد	٢٧٤-٢٩٦
١٨.	**الوسطية في دعوة المسلم الجديد والتعامل معه** د. سليمان بن عبد الله الحبس	٢٩٧-٣٠٧
١٩.	**الوسطيَّة من منظور الكتاب والسنة** أ. د. عارف علي عارف أردوان مصطفى إسماعيل	٣٠٨-٣١٦
٢٠.	**الوسطية والاعتدال في سيرة النبي ρ** د. لمياء بنت سليمان الطويل	٣١٧-٣٣١
٢١.	**الوسطية والاعتدال في ضوء القرآن والسنة** د. محمد مصطفى أحمد شعيب	٣٣٢-٣٥٠
٢٢.	**الوسطية والاعتدال في فكر الحافظ الذهبي من خلال كتبه** د. هاني أحمد فقيه	٣٥١-٣٦٠
٢٣.	**الوسطية والاعتدال في منظور القرآن والسنة** خالد بن هندي بن خليف الحربي	٣٦١-٣٧٤
٢٤.	**أهمية القرآن الكريم ومكانته في التأسيس لعلم نقد الكتاب المقدس** أ.د. محمد خليفة حسن	٣٧٥-٣٨٩
٢٥.	**بعض المعاني المنسية للوسطية الإسلامية في المدارس والجامعات العربية: مقارنة بالتجربة التعليمية اليابانية** د. خير الدين خوجة الكوسوفي	٣٩٠-٤٠٥

٢٦.	**الغلو في فقه الجهاد** مجد مكي	٤٠٦-٤٢٣
٢٧.	**صورة التدين الوسط في القرآن الكريم** مصدق مجيد خان	٤٢٤-٤٣٩
٢٨.	**ملامح الاعتدال والوسطية من خلال زواج النبي ρ من امرأة كانت يهوديّة: دراسة قرآنيّة** أ. د. حمود بن عوض بن محمد السهلي	٤٤٠-٤٤٨
٢٩.	**منظور القرآن والسنة في الوسطية والاعتدال** مالك حسين شعبان حسن	٤٤٩-٤٦٤
٣٠.	**وسطية الإسلام في معاملة غير المسلمين في نصوص القرآن والسنة** د. خالد بن سليم الشراري	٤٦٥-٤٨١
٣١.	**وسطية المعاملة والأخلاق في القرآن الكريم دراسة موضوعية تطبيقية لواقع المجتمع الماليزي – ولاية ترنجانو (نموذجًا)** سراج محمد محمود آدم	٤٨٢-٤٩٧

بين يدي الكتاب

يتضمن هذا الكتاب ٣١ بحثا تدور حول موضوع الحفاظ على البيئة، والوسطية والاعتدال من منظور القرآن والسنة. وقد بذل الباحثون أثناء دراستهم لهذين الموضوعين مجهودات فائقة، كل سعى إلى معالجة المشكلة الأساسية التي تعاني منها الكائنات الحية بمختلف أقسامها وأنواعها، ألا وهي مشكلة تلوث البيئة. فأصحاب الأوراق كلهم متفقون على أن للإسلام السبق في حماية البيئة وصيانتها من التلوث والفساد. وعلى هذا قدموا لنا ضوابط وإرشادات قيمة للحفاظ على البيئة ومواردها المختلفة المائية، البشرية، والنباتية، الحيوانية، والبيئة العامة. أما من ناحية الوسطية والاعتدال فقد قام الباحثون ببيان أهمية الوسطية ومكانتها، وأشاروا إلى أن الوسطية تعد من أهم مزايا المنهج الإسلامي في كل الأمور، ولها دور فعال في نجاح حياتنا اليومية.

فبعد ثمانية سنوات مضت على مؤتمرنا الدولي الأول الذي عقدناه بعنوان "مناهج تفسير القرآن الكريم وشرح الحديث الشريف" في ٢١-١٤٢٧/٦/٢٢هـ الموافق ١٧-٢٠٠٦/٧/١٨م، جاء مؤتمرنا الدولي الثاني هذا الذي ننظمه بالاشتراك مع مركز القرضاوي للوسطية الإسلامية والتجديد، وتبيان، حول موضوع: (الوحي والعلوم في القرن الواحد والعشرين) في ٢٢-١٤٣٦/٥/٢٤هـ الموافق ١٣-٢٠١٥/٣/١٥م.

ومن حسن حظ هذا المؤتمر أنه بعد الإعلان عن تاريخ عقده بدأت طلبات المشاركة تتهافت علينا من كل جانب، ومن كل حدب وصوب، من الأردن، وإندونيسيا، وإيران، والبحرين، وبروناي، وتونس، والجزائر، ودبي، والسعودية، والسودان، والإمارات، والعراق، وعمان، وقطر، وليبيا، وماليزيا، ونيجيريا، وغيرها حتى وصل عددها إلى ٢٤٧، قُبِل وطُبِع منها ١٥٥ بحثا فقط، إضافة للبحوث الأخرى المقبولة باللغتين الإنجليزية والملايوية التي طبعت في كتاب منفصل، ليتجاوز العدد الكلي ٢٠٠ بحثا.

وهذه الكثرة الكاثرة من البحوث إن دلت على شيء فتدل على أن عنوان المؤتمر ومحاوره كان فيهما نوع من الجدة والطراوة، وكيف لا، فهو يتعلق بالقرآن والسنّة اللذين هما مصدران أصليان للتشريع الإسلامي، ولذلك اعتنى العلماء المسلمون على مرّ العصور بدراستهما، وبيان ما تضمّناه من تشريعات وأخلاق وعقائد. ولكن جانبا مهما من جوانبهما في حاجة ماسة إلى دراسته للوفاء بمتطلبات هذا العصر، من علوم الطبّ، والإدارة، والاقتصاد، والسياسة، والحساب، وغير ذلك من العلوم الإنسانية والتطبيقية. فمن هذا المنطلق، رأى القسم عقد هذا المؤتمر إسهاماً منه في التأصيل الإسلامي للعلوم الإنسانية والتطبيقية، وأسلمة المعارف الإنسانية المكتسبة، وتنزيل معارف الوحي والتراث الإسلامي على القضايا الحياتية المعاصرة للمسلمين.

والبحوث المنشورة تتمحور حول الموضوعات الآتية:

١. أسلمة العلوم الإنسانية والتطبيقية.

٢. الإعجاز العلمي في القرآن والسنة.
٣. قضايا معاصرة في دراسات القرآن والسنة.
٤. مقاصد القرآن والسنة.
٥. الأنظمة والمؤسسات المالية من منظور القرآن والسنة.
٦. الحفاظ على البيئة من منظور القرآن والسنة.
٧. الوسطية والاعتدال من منظور القرآن والسنة.
٨. تسليح المرأة والشاب المسلم لمواجهة التحديات المعاصرة من منظور القرآن والسنة.
٩. تنوع الأجناس والأديان من منظور القرآن والسنة.

وقد برهنت بعض الأبحاث على أن أساليبها تحولت من أسلوب التقليد إلى التحديث والتجديد شكلا ومضمونا، وهذا بشير خير لمستقبل المؤتمرات إن شاء الله.

والجدير بالذكر أن اللجنة العلمية للمؤتمر ارتأت أن تجعل جميع الأبحاث العربية المقبولة في المؤتمر على نمط واحد، من حيث علامات الترقيم للآيات، والأحاديث، والنصوص الأخرى، وكتابة المصادر والمراجع في الهامش والفهارس ، فخَصَّصت أساتذة لذلك العمل، ولقراءتها، وتصحيحها، وتحكيمها تحكيمًا وُدِّيًّا، فنشكر لهم أجزل الشكر وأوفى الامتنان.

كما نتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساعدنا معنويا أو ماديا، خاصة كلية العلوم وعميدها الأستاذ الدكتور قمرالزمان يونس، ومركز الأسلمة ومديره الأستاذ المشارك الدكتور حزيزان مد نون، ومركز وحدة الأمة ومديره الأستاذ الدكتور وليد فكري فارس، وجميعهم بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

ولا يفوتنا أن نلهج بشكرنا العظيم وامتناننا الغالي لمعالي داتو سري الأستاذة الدكتورة زليحا قمر الدين مديرة الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، وسعادة الأستاذ الدكتور إبراهيم محمد زين عميد كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، وسعادة الأستاذ المساعد الدكتور محمد شاه جاني رئيس قسم دراسات القرآن والسنة، والدكتور عصام التجاني محمد إبراهيم مدير المؤتمر، والدكتورة روضة الفردوس فتح يس مقررة المؤتمر، وسعادة الأستاذ الدكتور محمد خليفة حسن رئيس مركز القرضاوي للوسطية الإسلامية والتجديد بكلية الدراسات الإسلامية في قطر – جامعة حمد بن خليفة، وسعادة الأستاذ الدكتور محمد بن سريع السريع رئيس مجلس إدارة الجمعية العلمية السعودية للقرآن الكريم وعلومه (تبيان) على دعمهم المتواصل لإنجاح هذا المؤتمر، ورعايتهم الشاملة لكل صغير وكبير من أموره.

وأخيرا، وليس آخرا، نرجو من الله العلي القدير أن نكون قد وفقنا نحن أساتذة القسم، وكليتنا، ومركز القرضاوي للوسطية، وتبيان في إسعاف طلبة العلم بأحدث البحوث وأرقاها. وبالله التوفيق.

أ. د. محمد أبو الليث الخيرآبادي

رئيس التحرير

١- محور

الحفاظ على البيئة من منظور القرآن والسنة

أثر القيم التربوية والمورثات الفنية لبناء الشخصية للمجتمع للمحافظة على البيئة

د. إلهام بنت صدقة بن سليمان جان[1]

ملخص البحث:

كان لانتشار ظاهرة الغزو التكنولوجي والمعلوماتي التي أثرت في الثقافة العالمية ككل، وفي الثقافة المحلية بشكل خاص، وأصبح الإنسان مهمته عرض أساس أخلاقي جديد، وقيم تستند إلى مبدأ إزاحة الحواجز بين الشعوب والتفكير، وذلك مما دفع الإنسان إلى الانشقاق عن مورثهم من التقاليد الفنية، وتبني منهج العالمية، وينعكس ذلك الأثر بطبيعة الحال على سير الشخصية والمجتمع وبناء الحضارة برمتها، فما هي آثار القيم الإسلامية في بناء الشخصية وبناء المجتمع للمحافظة على البيئة؟ سأسلك في الإجابة على السؤال الطريقة التالية: إزاحة الحواجز والقيود التي تفرض على الإنسان المسؤولية لبناء الشخصية للمجتمع، وللمحافظة على البيئة وإتاحة الفرصة لما يمكن أن تلعبه الصدفة فيما يحدث للمحافظة على البيئة التي يفرضها الموضوع، وليس العكس. ونتيجة لذلك يبدأ الإنسان بموضوع المحافظة على البيئة من صفة الدوام ومن الحدود المكانية والزمانية، فاعتمدوا على المحافظة على البيئة من الطبيعة من مباني معمارية ... إلخ، فما هو الموقف اليوم تجاه أثر القيم التربوية والمورثات الفنية لبناء الشخصية للمجتمع للمحافظة على البيئة. فقد اعتنى المسلمون الأوائل بأسلمة مختلف العلوم والمعارف الإنسانية من منطلق أن الحكمة ضالة المسلم أنى وجدها أخذها، وأيضا من منطلق مواكبة العصر. ومن هنا اتجه البحث في توضيح دور ومسؤولية أثر القيم التربوية والمورثات الفنية لبناء الشخصية للمجتمع للمحافظة على البيئة. وبمعنى آخر وضوح العلاقة التي تعكس فردية الإنسان واهتمامه بقضايا للمحافظة على البيئة من جانب، وإطار أثر القيم التربوية والمورثات الفنية لبناء الشخصية للمجتمع من جانب آخر، ومن هنا نحدد أن أهداف البحث هي: الكشف عن مسؤولية ودور أثر القيم التربوية والمورثات الفنية لبناء الشخصية للمجتمع للمحافظة على البيئة، وتوضيح أهم السمات التي تحدد طبيعة المسؤولية في قضايا للمحافظة على البيئة للكشف عن أهمية المحافظة على البيئة ومدى فاعلتها، ولتحقيق تلك الأهداف وضعت الباحثة منهج البحث هو المنهج الوصفي التحليلي الذي يتم من خلاله جمع الإطار النظري، والمنهج التجريبي والمجال البشري ونتائج البحث المتوقعة.

---

[1] أستاذ الرسم والتصوير المساعد، جامعة الطائف، المملكة العربية السعودية، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م.

المبحث الأول: مصطلحات البحث:

١) أثر القيم التربوية.

٢) تعريف التربية.

٣) المورثات الفنية.

٤) بناء الشخصية للمجتمع.

٥) المحافظة على البيئة.

المطلب الأول: تعريف أثر القيم التربوية:

إن الدراسة العلمية لمفهوم القيمة تجري ضمن خطين متوازيين، هما:

١) المنظور الفلسفي التجريدي، الذي يجعل نصب عينيه ضبط وتحديد الخصائص البنائية للقيم أي معناها العام وخصائصها التجريدية.

٢) المنظور الإجرائي، ويهدف إلى تحديد الخصائص الوظيفية للقيم، أي وظائفها وكيفية قياسها.

يعرف نديم علاء الدين القيمة بأنها: "حكم يصدره الإنسان على الأشياء، وينبع منه الاعتراض والاحتجاج على الوجود كما هو قائم ومفروض، ومن سعي الإنسان لتحويل هذا الوجود وفق ما ينبغي أن يكون، ولذلك فإن القيمة مفهوم له امتداد يطول مختلف مجالات نشاط الإنسان، ويتعدد تبعًا لفاعليته، والقيمة نظراً لهذا التعدد، تصبح إمكانًا، بسبب تنوع القيم وتنوع الفعل الإنساني"[٢].

ويعرف كر لنجر القيمة بأنها: تنظيم الاعتقادات والاختيارات بالاستناد إلى مراجع تجريدية أو مبادئ، وإلى عادات سلوكية أو أنماط، وإلى غايات الحياة، وتعبر القيم عن أحكام أخلاقية، عن أوامر، عن تفضيل عادات وأنماط للسلوك. وإننا نعتبر من قبيل القيم كل ما يهمنا بشكل أساس تحقيقه، وكل ما يهب معنى لحياتنا"[٣].

وواضح الطابع الذاتي الذي يهيمن على هذا التعريف وافتقاده للمعايير الموضوعية، فالحياة هنا مفهوم فضفاض. ويعرف ارسونز القيمة بأنها: "عنصر في نسق رمزي مشترك يعتبر معيارًا أو مستوى للإختيار بين بدائل التوجيه التي توجد في الموقف. فكأن القيم هنا تمثل معايير عامة وأساسية يشارك فيها أعضاء المجتمع وتسهم في تحقيق التكامل وتنظيم أنشطة الأعضاء"[٤].

---

[٢] نديم، **أوقاف**.

[٣] كر، **أوقاف**.

[٤] ارسونز، **أوقاف**.

ويعرف روكتش القيمة بقوله: "هي معتقد واحد ذو خط في الدوام يحمل في فحواه تفضيلاً شخصياً أو اجتماعيًا لغاية معينة من غايات الوجود،أو لضرب معين من ضروب السلوك الموصلة إلى هذه الغاية"[٥].

إننا إذا أنعمنا النظر في التعاريف الأربعة التي أمامنا، وجدنا عناصر مشتركة تتردد فيها، فالقيمة في التعريفين الأول والثاني تعبر عن نفسها في مختلف مجالات النشاط الإنساني، كما أنها من خلال التعاريف الأربعة عبارة عن مقياس أو معيار يمكن من الاختيار بين البدائل أو الغايات المتصلة بالوجود وبين ضروب السلوك المختلفة الموصلة إلى الغاية.

وعنصر آخر مهم ورد في أحد هذه التعاريف للقيمة، وهي أنها "تسهم في تحقيق التكامل وتنظيم أنشطة الأعضاء"، ويرتبط بهذا العنصر كون القيمة تستند إلى مراجع تجريدية أو مبادئ، بمعنى أنها نسق ينطلق من رؤية فلسفية، ومن هنا فالقيمة انطلاقًا من هذه الموضوعات، تختلف من حيث طبيعتها وعمقها وإمكانياتها في التأثير لدى التحول إلى أنماط سلوكية في دنيا الواقع، وهذا ما سوف نتبين مدى مصداقيته من خلال الدراسة التي نحن بصددها، والتي تستهدف المقارنة بين نسقين من القيم التربوية والمادية، ولعل من المفيد أن نقول هنا بأن هذه الخاصية الآنفة الذكر، أي خاصية الانطلاق من مراجع تجريدية، هي الحد الفاصل بين القيم والعادات، أي أن القيم تتفق مع العادات والاتجاهات في كونها دوافع وطاقات للسلوك، تتأثر بالسياق الثقافي للمجتمع، وعلى أن مصطلح العادة يشير في مفهومه السيكولوجي إلى حركة نمطية بسيطة تجلب اللذة لمن يقوم بها، أي إنها مجرد سلوك متكرر لفرد معين بطريقة تلقائية في مواقف محددة، في حين أن القيمة تتضمن تنظيمات أكثر تعقيدًا من السلوك المتكرر وأكثر تجريدًا، كما أنها تنطوي على أحكام معيارية للتمييز بين الصواب والخطأ والخير والشر، وهذا كله لا يمكن توافره في العادة.

المطلب الثاني: تعريف التربية:

هنا تفيد كلمة التربية في اللغة: التنمية، يقال تارة ربّاه أي نماه، ربى فلانًا أي غداه ونشّأه. ربى بمعنى نمى قواه الجسمية والخلقية، وتربى تنشأ وتغذى وتثقف[٦]. وقد عرف د. جميل صليبا التربية بقوله: "التربية هي تبليغ الشيء إلى كماله، أو هي كما يقول المحدثون، تنمية الوظائف النفسية بالتمرين حتى تبلغ كمالها شيئًا فشيئًا، تقول: ربيت الولد إذا قويت ملكاته ونميت قدراته وهذبت سلوكه، كي يصبح صالحًا للحياة في بيئة معينة وتقول: تربى الرجل إذا أحكمته التجارب ونشأ نفسه بنفسه"[٧]. ويعرف د. محمد لبيب النجيحي التربية بأنها: "عملية إعداد المواطن الذي يستطيع التكيف مع المجتمع الذي ينشأ

[٥] روكتش، **معجزة البناء القيمي للشخصية**.

[٦] بن مسعود، **القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر، أزمة القيم وإشكالية التخلف الحضاري أسباب ومظاهر الأزمة**.

[٧] صليبا، **جميل صليبا المعجم الفلسفي، الجزء الأول**.

فيه"[٨]. ولذلك فهي تعمل على تشكيل الشخصية الإنسانية تشكيلاً يقوم على أساس ما يسود المجتمع من تنظيمات سياسية واجتماعية واقتصادية، ولهذا كان لا بد للإطار الثقافي الذي يقوم عليه المجتمع من أن يحدد أبعاد العملية التربوية، واتجاهاتها، بحيث لا تخرج عن هذا الإطار إلا تطويرًا له وتقدمًا به في عملية زيادة آخذه بيد المجتمع نحو مستقبل أفضل.

المطلب الثالث: تعريف المورثات الفنية:

ويعرف التراث على أنه بعض التقإلد الموروثة بكل فروعها، ويشير أيضاً إلى التقاليد والعادات والمراسم والأساطير والطقوس والمأثورات وغيرها، كما يعرف على أنه ما تركه الأجداد من السلف إلى الخلف من نشاط إنساني متنوع، وأحيانًا تشير بعض المعاجم اللغوية إلى أنه البناء الثقافي الذي يتميز بالامتداد التاريخي والجغرافي الذي يعبر عن مجموعة من العناصر أو السمات الثقافية المترابطة التي تستمر في البناء عبر فترة زمنية طويلة نسبياً[٩]. وينبغي علنا معارضة هذه الأفكار في تعريف التراث، حيث أن التراث من وجهة نظرنا هو قراءة للمستقبل، وعند وقوفنا على هذا التراث دون النظر فيه فإننا لن نتحرك، لذلك لابد من أجل صياغة رؤية جديدة مستقبلية أن نخضع هذا التراث لتأويل جديد والذات المبدعة للفنان هي التي تغوص وتعاود الغطس حتى تصل إلى مكامن الموروث الأصيل من التراث وقيمه ومقوماته على النحو الذي ذكره هيجل مسبق[١٠]. وعند هربرت ريد يعرف على أنه نشاط إنساني ينبثق من جسد الفرد والمجتمع. كما دعت هذه الدراسة إلى تعاون يكون مشتركاً بين كل من الفنان والمؤرخ الاجتماعي والسيكولوجي والمربي والإنسان كمبتكر، بهدف الوصول إلى إنسان أفضل في عصر ابتكاري[١١] إن كلمة التراث يقابلها في الإنجليزية مصطلح héritage وله معاني كثيرة أحيانا للإشارة إلى الثروة وإلى الميراث أو الموروث، والحق أن التراث هو ميراث الإنسانية، وأن تراث الأمة هو ثروتها الحضارية، وهو عماد الهواية والطابع والتراث مثل كمثل جبل الجليد بعضة ظاهر وجله كامن.

المطلب الرابع: تعريف بناء الشخصية للمجتمع:

عرف بعضهم الشخصية: "بأنها وحدة متكاملة الصفات والمميزات، الجسمية والعقلية والاجتماعية والمزاجية التي تبدو في التعامل الاجتماعي للفرد، والتي تميزه عن غيره من الأفراد تمييزًا واضحًا، فهي تشمل دوافع الفرد وعواطفه وميوله واهتماماته وسماته الخلقية وآراءه ومعتقداته، كما تشمل عاداته الاجتماعية وذكاءه ومواهبه الخاصة ومعلوماته وما يتخذه من أهداف ومثل وقيم اجتماعية"[١٢]. وقد عرفت مجلة علم

---

[٨] النجيحي، **أوقاف**.

[٩] جان، **المؤثرات الثقافية والبيئة لفن التصوير بالمملكة العربية السعودية على الفنانات السعوديات**.

[١٠] هيجل، **فلسفة هيجل**.

[١١] هربرت، **الفن**.

[١٢] بن مسعود، **القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر، أزمة القيم وإشكإلة التخلف الحضاري أسباب ومظاهر الأزمة**.

النفس (المجلد الأول، العدد الأول) الشخصية بأنها: "نظام متكامل من مجموعة من الخصائص الجسمية والوجدانية النزوعية والإدراكية التي تعين هوية الفرد وتميزه عن غيره من الأفراد تمييزًا بينًا"[١٣].

المطلب الخامس: تعريف المحافظة على البِيئة:

البيئة: البيئة هي الأشياء التي من حولنا والتي تؤثر على بقاء الكائنات الحية على سطح الأرض والتي تشمل الماء والهواء والتربة والمعادن والمناخ والكائنات أنفسهم[١٤].

البيئة لُغةً: المكان والمنزل، والإسم البِيئة، والباءة، والمباءة، وتُطْلَق على منزل القوم، حيث يَتَبَوَّؤُونَ من قِبَل وادٍ، أو سَنَد الجبل، ومنه المباءة: مَعْطِن الإبل؛ حيث تُنَاخُ في الموارد أو المراح الذي تبيت فيه.

البِيئة في الإسلام: كلمةٌ جامِعَةٌ تشمل جميع مناحِي الحياة، وقد تتَّسع البيئة لِتَشْملَ الأرض التي تقلُّنا والسَّماء التي تظلُّنا، وقد تضيق لِتَخُص بيت الإنسان، وموقع عمله، وسُكناه، وهي باختصارٍ: "كلُّ شيءٍ يحيطُ بالإنسان، مِن مَوْجُودات، من ماء، وهواءٍ، وكائنات حَيَّةٍ، وجمادات، وهيَ المجالُ الطَّبيعي الذي يُمارِس فيه الإنسان حياته، ونشاطاته المختلفة؛ لِيُحَوِّلها إلى "بيئةٍ مشيدة"، التي في خانتها البِيئة الأخلاقيَّة والاجتماعيَّة، والاقتصاديَّة، والسِّياسيَّة، والتِّكنُولوجيَّة"[١٥]. ولِلْبِيئة نظامٌ دقيقٌ مُتَوازنٌ، صَنَعَهُ خالقٌ عظيمٌ، ومُدَبِّرٌ حَكِيمٌ، ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل:88]. ولكن جاءتْ يد الإنسان لِتَعْبَثَ بِكُلِّ جميل في البِيئة، وتُهَدِّد الأخضر وإلابس، فكان ذلكَ الشَّبح المُدَمِّر، الذي يُسَمِّيه القرآن الكريم "الإفساد"، وتسمِّيه العُلُوم المعاصِرة بـ"التَّلَوُّث".

المبحث الثاني: المنهج الوصفي التحليلي الذي تم من خلاله جمع الباحثة الإطار النظري:

(١) آثار القيم التربوية في الشخصية الإنسانية:

القيم التربوية لا تقوم على فراغ وإنما على أساس رؤية شمولية للكون، وبقدر ما تكون الرؤية كاملة في بنائها، منبثقة من العلم الشامل بحقيقة الإنسان والكون والحياة، بقدر ما يكون نسق القيم القائم علىها مستجيبًا لأشواق الإنسان ولحبه العميق للحق والفضيلة، ومن هنا فكل نسق من القيم قائم على غير التصور التربوي الإسلامي للكون والإنسان والحياة، مصيره الفشل والسقوط والواقع الذي عانته وتعانيه البشرية خير شاهد على هذا الأمر وأن الصراع بين القيم التربوية المادية والقيم التربوية الإسلامية، أثبت سقوط الأولى وذبولها كما أثبت تألق الثانية وارتقاءها، وأنها ملاذ الإنسان لتحقيق إنسانية سامية ومجتمع رفيع، وإن أول شيء تثمره القيم التربوية في الشخصية الإنسانية في البناء الشخصي للإنسان المسلم هو تقوية صلته بالله عز وجل، إلى الدرجة التي تجعله يراقبه في السر والعلن، في كل حركاته وسكناته، فهو لا يقدم على شيء إلا وهو يراعي حرمة الله ويرجو له وقارًا، ومعنى ذلك أن المسلم في

[١٣] مجلة علم النفس.

[١٤] الموسوعة، **البيئة**.

[١٥] ابن رشد، **الاعدادية**.

علاقته بربه، يستشعر الخشية والخوف منه، في نفس الوقت الذي يتوجه إليه بالرجاء، وذلك الخوف وهذا الرجاء يملآن قلبه بشعور عارم من التحرر من جميع المخاوف؛ لأنه يشعر بقوة أن الله وحده هو مالك أمره ومقرر مصيره، وإليه يرجع الأمر كله، هو الذي يملك تبارك اسمه أن يضره وأن ينفعه، أما غيره فأسباب عرضية ليس لها من الأمر شيء، وهكذا فإن المسلم الذي يتشبع بقيم الإسلام يتحرر من الشعور بالخوف على الحياة، أو الخوف على الرزق، أو الخوف على المكانة والمركز، فالحياة بيد الله، ليس لمخلوق قدرة على أن ينقص هذه الحياة ساعة أو بعض ساعة: ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا﴾ [التوبة:٥١]. إن من الآثار الواضحة لصلة الإنسان بربه، ذلك التركيز لفكر الإنسان وجهوده وطاقاته حول محور واحد هو الولاء لله ولرسوله وملة الإسلام فهذا التركيز هو الدرع الواقي من التشتت والانشطار الذي يضرب الذات بعنف في غياب الإيمان بالله.

(٢) أثر المورثات الفنية لبناء الشخصية الإنسانية:

لا شك أن المحافظة على المورثات الفنية يعتبر محافظة على الهوية والشخصية التي تميزنا عن غيرنا، وقد نكون في عصرنا الحاضر أكثر حاجة إلى التأكيد على المورثات الفنية لبناء الشخصية للمجتمع في ظل التغيرات العصرية والهجمة الغربية على مناهجنا وثقافتنا الإسلامية والعربية، ولذلك جاء هذا البحث ليوضح دور المورثات الفنية لبناء الشخصية للمجتمع للمحافظة على البيئة، فالعقيدة الإسلامية وما قام على أساسها من فلسفة، كان لها دورها الذي ساد العالم، فكان للعقيدة الإسلامية تأثير ملموس في النشاط الفني، الذي جعلته يكتسب تلك الشخصية الفريدة التي تميز الفن الإسلامي عن فنون الحضارات الأخرى حيث ساهمت العقيدة مساهمة فعالة، في توجيه انتباه الفنان إلى ما في ملك الله وملكوته من عجائب ذاخرة، وآيات تدعو إلى التأمل مما كان له الأثر في إبداعه الفني، وهنا لابد من توجيه سلوك الطفل بما يتناسب مع عاداته وتقاليده، وخاصة هذا الطفل الذي ينشأ في بيئة إسلامية، حيث يجد أبويه يقرآن القرآن ويقيمان الصلاة، ويصومان رمضان، وغير ذلك من الشعائر الدينية، وهل هذا الطفل يجد من يهتم به من هذه الصور، التي يتأثر بها من أبويه لتؤكد قيم وروح التربية والمورثات الفنية الإسلامية بالربط بين تعبيراته وبين جوهر العقيدة الإسلامية، ومن خلال اصطحاب الطفل إلى المشاعر الدينة والمساجد ليصلي ويتعبد في بيوت الله في بقاع الأرض، فإنه لَشيءٌ يرسخ في مفهوم الطفل البيئة الدينة، ويحافظ عليها منذ نعومة أظفاره شكل رقم (١)، وتسبت في مكنونه عندما يقوم الطفل بتدوينها في مخزونة البصري، وتخرج مخرجاتها ليطرحها على كراسته، ويقوم برسمها وتلوينها ووضع التصميم حسب رؤيته للواقع المرئي.

"أن التربية والمورثات الفنية تنبع من شخصية المسلم الذي يحفظ كتاب الله ويعبد الآلة الواحد ليرجع له ويسجد له ويتخذه وحداً هو الله؛ لأن التوجيه والتربية لهما أثر في نفس الطفل، فقد خلق الله سبحانه وتعالى الناس مختلفي الطباع والأمزجة لحكمة يريدها سبحانه، لكي تتنوع الحياة البشرية، ولا

يكون الناس نسخة واحدة متكررة، "فالتنوع سمة أصلية خص بها الله الإنسان، حتى تكون جوانب الحياة البشرية متعددة، وهكذا تتعدد الوظائف في المجتمع"[١٦]. ساعدت أركان الإسلام الخمس على طرح تراث فني متميز ببعض الخصائص الجمالية التي ساهمت في تكوين القيم الفنية التي تأثرت بمبادئ العقيدة الإسلامية لتحدد علاقة الارتباط الوثيق بين الفن ودور أركان الدين الإسلامي، فالركن الأول شهادة لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله: تعد هذه الشهادة مدخل الإسلام، أتؤمن بالله، وتصف الذات الإلهية بما وصفا به نفسه في كتابه وسنة نبيه ﷺ. فهو تعالى الموصوف بكل كمال منزه عن نقص "ليس كمثله شيء"، فاجتنب المسلمون تصوير الأرواح، وحلت الزخارف الهندسية والنباتية مكاناً رفيعاً في تشكيل الفراغ، بأسلوب يدفعنا إلى ذكر الله دائما في تسبيح يعتمد على التكرار، الذي جسده لنا الفنان في تكرار الوحدات الزخرفية بإيقاعات مختلفة تملأ الفراغ، وتظهر هذه الظاهرة أيضا في فنون الأطفال باعتبارها سمة فطرية يتصف بها فن الطفل. والركن الثاني إقامة الصلاة: أن الصلاة شاملة، ونقصد بالشمول أنها الجماعة في انتظام صفوفها والكل متجه إلى القبلة متخطياً حدود الزمان والمكان، كيف يكون ذلك وهناك اختلاف بين الجميع؟ لأن الصلاة صلة بين المسلم وربه، فيمكن أن نقول بين المطلق والمحدود، وبين الأرض والسماء؛ فإن تنظيم المصلين في صفوف متتالية في الصلاة كان منطلقا إلى تنظيم الزخارف الهندسية والنباتية والكتابية في إطارات وكنارات متوازية منتظمة مع التكرار السائد لوحدات الزخرفة المختلفة، استوحاها الفنان المسلم من وقوف المصلين في الصفوف المتجاورة التي تتلاصق، ولا تسمح بمرور شيء في خشوع وإجلال، مما دعا الفنان المسلم إلى ملء الفراغات بالعناصر الزخرفية المختلفة، لتحقق الوحدة الفنية من خلال التنوع لملأ الفراغات بالزخارف الإسلامية. وأما الركن الثالث إيتاء الزكاة: فتعد الزكاة رباطا اقتصاديا واجتماعيا له نظام رياضي دقيق وفق قواعد شرعية مفروضة من الخمس إلى الربع العشر، وهي ليست عملية حسابية صماء، ولكن قاعدة لها جسم وروح، حيث قال تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلوتك سكن لهم والله سميع علم﴾ [التوبة:١٠٣]. تأكد ذلك في استخدام نظام النسبة والتناسب في تشكيل الفراغ بأشكال زخرفيه متنوعة مثل الزخارف النباتية والهندسية والكتابية، التي لها نسب رياضية محسوسة بإيقاعات مختلفة في اتزان، نجد فيه النسب تتساوى أحيانا، وتارة أخرى تختلف لتحقيق القيم الجمالية لملأ الفراغ. أما الركن الرابع الذي هو صوم شهر رمضان: فيعد عبادة تجسد الصلة بين المسلم والظواهر الكونية، مثل ظاهرة شروق وغروب الشمس، والصلة بين المسلم وخالق هذا الكون من خلال تربية الضمير والرقابة الذاتية التي تمثل العامل الأساسي أثناء وقت الصوم، بالإضافة إلى الربط بين النفس وقيمة الكرم أثناء هذا الشهر، فركن الصوم من الأركان التي لها أثر كبير في تشكيل الفنان المسلم للزخارف الإسلامية في إبداع

[١٦] الأهواز، **التربية في الإسلام**، ص١٩.

وإتقان، يتصف بالجودة التي تدفعنا إلى الإحساس بقيمة الجمال، كأننا في عالم بلا حدود من خلال التشكيل المتقن للوحدات الزخرفية في الفراغ. والركن الخامس الحج لمن استطاع إله سبيلا: تعتبر عبادة الحج ركنا من أركان الإسلام التي يغلب عليها عنصر الحركة في الطواف والسعي، مع عنصر السكون في المبيت والوقوف بعرفة، حيث استطاع الفنان المسلم أن يستوحي من عنصري الحركة والسكون إيقاعات متنوعة، في تشكيل الزخارف الإسلامية، التي تتصف بالحركة اللانهائية مع الاستمرارية في تكوينات زخرفيه إسلامية تؤكد حركة الطواف حول الكعبة، التي لا تنقطع في استمرارية ينبثق منها نور الإيمان الكامن في أعماق الحجاج والمعتمرين بملابسهم البيضاء التي تشع نورا، فيرسمون بأجسادهم معاني تجسد وحدة المكان والزمان، في صورة مجردة تملأ الفراغ.

برع الفنان المسلم في إبداع الزخارف الهندسية ذات الأشكال النجمية المتنوعة، التي يمكن أن نرجعها إلى أنه استوحاها من حركة الطواف حول الكعبة، التي تعد المركز المحوري الذي يدور حوله الحجاج فى حركة دائرية من بداية اتجاه الحجر الأسود في إشعاع يمثل شكل النجمة، التي تشع النور بأشكال مختلفة، كأنها خطوط هندسية تشبه أضلاع النجمة في خطوط مستقيمة، تمثل عنصر السكون لملأ الفراغ، عند الانتقال من مساحة تحددها الإطارات الهندسية، تعطي لنا الإحساس بمضمون السكون على حدود المساحات ذات الزخارف المتنوعة، مثل مساحة تشمل على زخارف بأشكال هندسية، ثم يليها مساحة أخرى بزخارف نباتية، وتتوازى معها مساحة بزخارف كتابية أحيانا أخرى في تكوينات مركبة تجمع بين كل الزخارف في مساحة تحتوي على حركة لا نهاية في استمرارية يحددها إطارات تمثل ظاهرة السكون.

ونجد "أن منهج التربية الإسلامية يسعى إلى إعداد هذا الإنسان الصالح بمعناه الإنساني الشامل الذي لا يفصل بين المضمون والشكل في سلوكه وأعماله حتى تصلح حياته في الأرض".

(٣) دورنا في بناء الشخصية للمجتمع:

إذا كان سبب تخلف وانحطاط المجتمع راجعًا إلى تفكك شبكته الاجتماعية وذوبان عناصرها الثقافية والتربوية، فإن المخرج من التخلف يكمن في إعادة بناء تلك الشبكة الاجتماعية، والمدخل إلى ذلك البناء هو "جعل الأمة تعيش المرحلة الروحية التي تكون فيها العلاقات الاجتماعية أكثر كثافة، وهو ما يعبر عنه القرآن الكريم بالبنيان المرصوص"[١٧]. فلابد لنا من التكاتف والتلاحم في أبسط الظروف وأصعبها كما في الصلاة نقف جنبا إلى جنب، فكل الموروثات الفنية لها أثر كبير على بناء الشخصية الإنسانية؛ فإن حافظ الإنسان على موروثه الفني حافظ على مجتمعه وبيئته، وإذا استمر في نقل هذا المورث الفني إلى الأبناء ثم إلى الأسرة، ومن ثم إلى المجتمع، أصبحت البيئة في مأمن وسلام، ولكل مجتمع

[١٧] قطب، **منهج التربية الإسلامية**، ج٢.

من المجتمعات موروثه الفني لبناء الشخصية الإنسانية، إلا أن الوحدة النسبية للسلوك والأنماط الفكرية التي تربط بين أرجاء الوطن العربي من الخليج إلى المحيط ساهمت في وجود نوع من التواصل الإنساني بين الأفراد وبين الجماعات ذات السمات والخصائص المشتركة عملية الإبداع وإعادة الإبداع التي يقوم بها الإنسان معبراً عن المجموعة المتجانسة التي يرتبط بها وعن سماتها الجماعية، وهو ما يمكن أن نسميه الموروث الشعبي أو الفني"[١٨].

المحافظة على البيئة تأخذ أشكالاً مختلفة، والجميع يتحدث عن إيجاد الآلية التي ترتقي بالقوانين البيئية التي تتناغم مع سلوكيات يومية، وهناك أمور كثيرة تلعب دوراً كبيراً في إيجاد الخلل الحاصل بالتوازن البيئي، حيث تخريب العقول له أكبر الخلل في حياة الأطفال، وتخلق خللاً واضحاً في البيئة بشكل عام، ومن الدلالة على هذه التأثيرات وما لها من أثر سلبي على حياة الأطفال في المستقبل، ويجب أن ندرك ذلك منذ نشأة الطفل، وأن الأطفال في مراحل مبكرة من أعمارهم يحتاجون إلى معرفة القيم التربوية والموروثات الفنية لبناء الشخصية في المجتمع، ومن خلال مجالات الحرف اليدوية والرقصات الشعبية والألعاب والبيئة وغيرها يزيد من ارتباطهم بوطنهم وأمتهم، وإن مستقبل التربية والموروثات الفنية مرتبط ببناء الأطفال "لأن الأطفال هم المستقبل، وبقدر حبهم للفنون والموروثات الفنية وممارستها في حياتهم اليومية سوف يخلق منهم عشاقاً لها قادرين على استلهامها في أعمال فنية عصرية، فذلك يضمن لها البقاء والخلود كما يؤكد على الارتباط بها مستقبلاً"[١٩]، لإدراك الوظيفة الحقيقة لدور الفن، والمورثات الفنية في المحافظة على البيئة تمر بثلاث مراحل تطور: الأولى هي مرحلة النقل والمحاكاة، والمرحلة الثانية مرحلة رسم النماذج الطبيعية المصنوعة، المرحلة الثالثة مرحلة التعبير الحر المطلق، وكانت مرحلة التعبير الحر المطلق مرحلة جديدة في تعلم الرسم أواخر سنة ١٩٣٦، عقب انعقاد مؤتمر باريس الدولي لتعلم الرسم، حيث ناقش هذا المؤتمر الأساليب التي يتبعها الأطفال للتعبير عن بعض القصص الخيالية، ومن بعدها بدأ المعلمون يقلعون عن تقديم النماذج الطبيعية والمصنوعة لمحاكاتها، بل قدموا للأطفال قصص القرآن والأساطير التاريخية للتعبير عنها، للتعرف على مميزات رسوم الأطفال في المراحل الأولى من العمر، وأصبح تدريس الرسم نابعا منهم يعبر عنهم محطماً لما كان عليه من تحفيظ قواعد المنظور والظل والنور، حيث حاول المعلم أن يظهر ما يميز رسوم الأطفال من سمات مثل حرية وتلقائية التعبير الفني، ففتحت آفاق جديدة لمجالات التربية والمورثات الفنية والفنون، منها الرسم والأشغال الفنية والتشكيل المجسم بخامة الصلصال والخشب والجلود والورق الملون وغيرها، ويعتبر التراث العمراني والمورثات أو التراث هو "التجسيد المتميز لثقافة المجتمع في حقبة من الزمن، وهو ذلك المخزون ذو القيمة الذي يميزه الثبات والاستمرار والذي يجمع بين جنباته القيم الجمالية والروحية، بالإضافة إلى كونه حقيقة مادية قائمة

[١٨] بن نبي.

[١٩] عبد الغفار، **الموروث الشعبي في العالم العربي وعلاقته بالإبداع الفني والفكري**، ص١-٣.

فرضت قبولها واحترامها لدى المجتمعات، فالتراث من الوجهة الثقافية يمثل المرجع والدليل المادي القائم على خصوصية ثقافة المجتمع ووحدة ملامحه الإنسانية والفكرية وأبعاده التاريخية، ومن الوجهة البيئية يمثل التراث المرآة الصادقة التي تعكس أبعاد المكان وسماته وملامحه البيئية"[٢٠].

وأصبحت القيم التربوية والمورثات الفنية تعتني بفنون الأطفال، وتهتم بهم في المدرسة والنادي من خلال وسائل الإعلام المرئية والمسموعة، ولم يعد مفهوم القيم التربوية والمورثات الفنية يقتصر في الوقت الحاضر على المنهج الموضوعي للمادة، بل اتسع المجال واتضحت الثقافة الفنية، من خلال الاهتمام بالتربية الجمالية وأهم الأهداف الرئيسية للقيم التربوية والمورثات الفنية، وهذا ما تصبو إليه في تنميت الذوق الجمالي للمواطنين، لكي يستطيعوا من خلاله أن يتعرفوا على لغة الأشكال ويقرأوها ويتأثروا بها ويتعاملوا معها في حياتهم لتبني شخصية للمجتمع كي تحافظ عليه وتحافظ على بيئته من خلال رسم وتشكيل وتلوين إذا تعد الأشكال والألوان والأحجام كيان البيئة المادي الذي يحيط بالإنسان من أشياء خالقها الخالق سبحانه وتعالى، تدعو إلى التفكير والتأمل مثل البحار والجبال والأشجار، فنجد الألوان والأشكال المختلفة والمتنوعة وأيضا ما صنعه الإنسان في شكل العمائر والحدائق والملابس ومختلف أنواع الأشياء المحيطة بالإنسان، تجعله يعيش في سعادة.

إن كل شيء يحيط بالإنسان من خلق الله سبحانه وتعالى وما شكلته يد الإنسان يخضع لمقومات القيم التربوية والمورثات الفنية لبناء الشخصية للمجتمع، فهي إحدى أدوات التطوير لأنها توثر وتساعد الإنسان على تحريره من انفعالاته المكبوتة، ومن عزلته إلى الخارج، إن التأمل في خلق الله سبحانه وتعالى ليرى الجمال في كل شيء، يسهم في الكشف والبحث عن قيم جديدة تساعد على دفع عجلة التقدم إلى الأمام، وتعد مرحلة الطفولة هي البناء الأساس لنمو شخصية الطفل. فالطفولة تتميز بسرعة النماء والارتقاء، لأن الأطفال هم جيل المستقبل، حيث يتطور ويتجدد دورهم بناءً على ما يقدم إليهم من توجيهات وخدمات مختلفة يستقبلوها للمحافظة على البيئة. "فلا شك أن الطفل حينما يمارس أعماله الفنية يستدعي خبراته السابقة، وهو بذلك يقوي ذاكرته بممارسة الأعمال الفنية وقدرته الخيالية التي يكون لها في المستقبل دور كبير في بناء أفكاره وإبداعاته والإتيان بكل ما هو جديد"[٢١]. يعد السلوك الفني ظاهرة طبيعية له بعض الظروف الضرورية لازمة لحدوثه، وأن لكل سلوك لابد من دافع وراءه، ولا يوجد سلوك دون دافع أو دون قصد، واعتبر أن هذا السلوك الفني يتحرك بفعل دوافع لا شعورية، ثم تحدد دافع التعبير الفني للأطفال، وذلك لمعرفة دوافع الطفل وحاجاته النفسية، بالإضافة إلى حاجته الجمالية، التي يجب إشباعها للتحقيق التوافق النفسي والصحة النفسية[٢٢]. يُسلط الضوء على الاحتفاظ

[٢٠] نفس المصدر.

[٢١] المهرجان الوطني الثالث للتراث والثقافة.

[٢٢] عبد الغفار، **الموروث الشعبي في العالم العربي وعلاقته بالإبداع الفني والفكري**، ص٦.

بالمورثات الفنية للحفاظ على البيئة مثل مهنة الطباعة وجمالية الخط العربي اليدوي بالعديد من المهن التي ما زالت تحفظ التراث البيئي بأمانة رغم التطور الهائل في هذا المجال. "ويأتي الحفاظ على هذا التراث في مهنة الطباعة أجهزة الكمبيوتر، فيما استخدام الوسائل البدائية، لتوفير مال على الزبائن، خصوصاً إذا كان اللون الأسود هو الطاغي على العمل بعيداً عن زركشة الألوان"[٢٣]. ومن هنا ما زال الموروث البيئي محفوظ طالما أن هناك من يهتم له منذ النشأة الأولى ومنذ الصغر، فإن أطفالنا لابد وأن يتشبعوا به منذ الطفولة أكثر وأكثر، فهم مولودون على الفطرة من البداية. ولقد أثبتت رسومات الأطفال بأن البيئة في عوالمهم ومخزونهم البصري وفي بصيرتهم التي فطرهم عليها رب العالمين.

المبحث الثالث: المنهج التجريبي والمجال البشري وعرض وتحليل بعض من اعمال الأطفال الفنية عن البيئة ونتائج البحث المتوقعة:

وعلى الرغم من اتساع أرض الإسلام، فإن الوحدة الحضرية ما زالت الحقيقة الأساس التي تعنيها العقيدة الإسلامية التوحيدية، يتمثل ذلك في اتجاه عمارات المدينة نحو القبلة أو نحو الجنوب بحسب موقعها الجَغْرافي في مشرق العالم الإسلامي أو مغربه، وفي عدم ارتفاع البيوت عن مستوى المسجد بمآذنه وقبابه، فهي من طابقين لا يعلو منزل على آخر، لكي لا يقتحم الجيران حرمة بعضهم، وتبدو واجهات البيوت متقشفة اعترافاً بفضيلة التواضع: ﴿ولاَتَمْش في الأرضِ مَرَحاً﴾ [لقمان:٣٧] على عكس داخل البيوت، ﴿ودانيةً عليهم ظلالُها وذُللت قطوفُها تذليلاً﴾ [الإنسان:١٤]. وتبقى رئة المدينة من الحدائق موزعة داخل البيوت في الأقنية، وقد عكست أحلام سكان المنزل بالفردوس الموعود للصالحين في الفناء الداخلي، بأشجاره المثمرة ورياحينه وفسيفسائه ونوافيره، يبقى حقيقة فردوسية لانرى لها نظيراً في غير العمارة الإسلامية فالمقياس الإنساني الذي قامت المدينة والمسكن على أساسه، فرض شروط الثوابت البيئية: المناخ والتلوث والمعيشية: الراحة والأمن والدين والثقافة والأخلاق، لتكون المدينة وعاء إنسانياً إسلامياً، وغلافاً حضارياً يحدد ملامح الهوية الإسلامية، التي حددت سِمَة عمران المدن الإسلامية. وإن البيئة الموجودة من حولنا لها أهمية كبيرة للحفاظ على صحتنا، وكذلك على المنظر الجمالي، لذلك لابد من وجود علم يعمل على دراستها الذي يسمى بعلم البيئة. "الذي له علماء مختصون يعملون على اهتمامهم بالكائنات الحية والعلاقات التي تكونها مع البيئة، لذلك يتمكن الفنان في البيئة من فهم كيفية تأثير البيئة الطبيعية في الأشياء الحية من خلال الدراسات التي يقومون بإجرائها"[٢٤]، والتي يتمكنون خلالها من تقدير حجم المشكلات التي تنشأ من بعض الظواهر البيئية، فيقوم الفنان بتدريب الأطفال على المشاهدة، فيتم الحفظ لكل ما هو في البيئة من خلال المخزون البصري تخزين كل الصور عن الحياة والبيئة والتراث والمورثات، ومن ثم إخراجها خلال ورش العمل شكل رقم (٢-٦). يضاف إلى ذلك

[٢٣] المهرجان الوطني الثالث للتراث والثقافة.

[٢٤] عوض، **دراسات بيئية**.

تخزين الطفل في مخزونة البصري صورا عن المشاعر المقدسة من المساجد ودور العبادة والطواف والسعي في بيت الله الحرام، وتظل كل صورة في ذاكرة الطفل إلى أن يشيب، فكل زيارة لبيت الله الحرام، وكل ما يشاهدة في البيئية الطبيعية والعمرانية، وكل ما في الحياة الأسرية، يعكس مخرجات الطفل عند تشكيلة لعمل فني مجسم أو مسطح من خلال اللوحة الفنية التي تتم بيد طفل اليوم ورجل وزوجة المستقبل شكل رقم (٢-٣-٤-٥-٦) التي عبر بها عن الدين الوطن المليك عن الانتماء للوطن الأسرة الحياة، وإن القيم التربوية والمورثات الفنية من أهم ما يوثر على بناء الشخصية الإسلامية للطفل، وذلك من خلال القيام بمجموعة من النشاطات ليعبر من خلالها الطفل للتنفيس عن بعض الانفعالات لينقل أفكاره بقدر المستطاع، فهنا الطفل يقوم بتفريق المخزون البصري أو يتم عن طرق مختلفة وبمرحل عدة، وهنا يأتي تحليل بعض الأعمال للأطفال في جميع المراحل التي ترسم خط سير وفكر الطفل من ما استقاه من قيم تربوية ومورثات فنية، وقامت على بناء شخصيته في المجتمع، ورسم من مجتمعه، وبهذا حافظ على بيئته بطريقة تحفظ هذا الإرث العظيم، والمراحل هي:

المرحلة الأولى: مرحلة النقل والمحاكاة لتنمية قدرتهم على النقل والمحاكاة، دون الاعتبار لقدرتهم الفردية وطريق استخدام الأمشق كوسيلة هامة لتعليم الفن، حيث يقوم المتعلم برسم خطوط ذات بعدين مصدرها فنون التراث والمورثات الفنية مثل الزخرفة العربية.

المرحلة الثانية: مرحلة رسم النماذج الطبيعية المصنوعة تطور الرسم في مرحلة رسم النماذج الطبيعية المصنوعة من محاكاة الأمشق إلى الرسم المباشر من الطبيعة، حتى لا ينقل عن الآخرين؛ لأن النقل من الأمشق فيه شيء من الجمود، الذي لا يتفق مع الاعتراف بالفروق الفردية والتلقائية فى التعبير، "فكان الفنان التشكيلي يعرض النماذج الطبيعية أمام المتعلمين من الأطفال مثل بعض الفواكه والخضروات كالبرتقال أو الرطب أو الجزر، وبعض النماذج المصنوعة من الأواني أو لعب الأطفال أو الأكواب أو الصناديق، وكان الهدف من ذلك هو تدريب المتعلمين من الأطفال على رسم النماذج ومحاكاتها وفقا لما يراه أمامه مع الالتزام بقواعد المنظور والظل والنور، مع استخدام المجسمات الزجاجية كوسيلة للتطبيق ومحاكاة ما يشاهده من النماذج المصنوعة والطبيعية في البيئة المحلية"[٢٥]، وفي الاستفادة منها لتحقيق تعريف الطفل الناشئ بكل المكنونات الدينية والبيئية والطبيعية وتعلم الأطفال المهن المورثة والمتوارثة من الأجداد للأحفاد، وننقلها من جيل إلى جيل كما في الشكل رقم (٧-٨).

المرحلة الثالثة: مرحلة التعبير الحر المطلق يقدم للأطفال قصص القران الكريم والقصص النبوي الشريف والأساطير التاريخية للتعبير عنها، للتعرف على مميزات رسوم الأطفال فى المراحل الأولى من العمر، وأصبح تدريس الرسم نابعا منهم يعبر عنهم محطماً لما كان علبه من تحفيظ قواعد المنظور والظل

[٢٥] الشال، **فلسفة الفن والتربية الفنية**.

والنور، حيث حاول المدرب الفنان التشكيلي أن يظهر ما يميز رسوم الأطفال من سمات مثل حرية وتلقائية التعبير الفني، وأن خصائص التعبير الفني عند الطفل شكل رقم (٩-١٠-١١-١٢-١٣) أي إن مراحل التعبير الفني عند الأطفال لها خصائص متعددة يمكن تحديدها في التلقائية، والمبالغة، والحذف والإضافة والتسطيح والشفافية والجمع بين الزمان والمكان في حيز واحد، والجمع بين مسطحات مختلفة في حيز واحد الوضع المثالي، وظاهرة التكرار، وتعتبر هذه الخصائص هي صفات أساسية في رسوم الأطفال وتحديدها.

السمات السائدة في رسوم الأطفال:

١. **التلقائية:** تعد التلقائية من أهم المميزات التي تميز رسوم الأطفال لأنها نابعة من شخصية الطفل لتؤكد ذاتيته التي تعبر عن رغبته الخاصة.

٢. **المبالغة:** تعتبر من الخصائص التي تجسد فكرة الطفل عن مضمون يريد أن يؤكده حيث يهتم في التعبير الفني بالمبالغة في بعض أجزاء دون أجزاء أخرى في التعبير عن المبالغة والحذف، وهي سمة السنوات الأولى في حياة الطفل، فيبالغ في رسم الأب، فمثلا يجعله أكبر من المنزل.

٣. **الحذف والإضافة:** تقوم هذه الخاصية على أن الطفل يعبر عن ما يدور بداخله عن طريق حذف بعض العناصر ولا يهتم بها، ويضيف ما يريد إن يؤكده في التعبير.

٤. **خط الأرض:** تتمثل هذه الخاصية في تخيل الطفل ذلك الخط الذي يصف عليه عناصر رسمه، وقد نجد التعبير الواحد فيه أكثر من خط للأرض متكرر مع إعادة رسم العناصر، وذلك نتيجة لأنه يرسم ما يعرفه وليس ما يراه.

٥. **التسطيح:** تعتبر هذه الخاصية من الخواص الهامة التي يلجأ إليها الطفل إلى التسطيح لغرض ما لإبراز كل ما يعرفه عن الشيء الذي يرسمه دون أن يخفى أجزاء أخرى يغلب التعبير التسطيحي، "كلما تقدم في السن زاد إدراكه للنسب بين الأشياء الطفل له نفسية تفوق نفسية الإنسان البالغ في الحساسية والشعور، ويعبر عنها بشكل إرادي أو لا إرادي، وأكثر وسيلة يعبر بها عن شعوره هي الرسم"[٢٦].

٦. **الشفافية:** تعد هذه الخاصية من الخصائص التي يمارس الطفل الشفافية في التعبير، وكأن كل شيء أمامه مصنوع من زجاج شفاف، يظهر ما بداخله دون قيود، بل يبرز ما يريده من أفكار تجول بخاطرة فى التعبير.

[٢٦] فهمي، **الثقافة والتجدد**.

٧. **الجمع بين الزمان والمكان في حيز واحد:** تقوم هذه الخاصية على أن يلجأ الطفل إلى الجمع بين الزمان والمكان في تعبيره دون قيود أو فواصل بل يرسم الأحداث على التوالي في موضوع واحد عند التعبير.

٨. **الجمع بين مسطحات مختلفة فى حيز واحد:** تؤكد هذه الخاصية على أن الطفل يعبر عن الحقائق التي يعرفها دون أن يراها في الواقع، فيرسم شخصاً: وجهه من الجانب، وجسمه وقدمه من الأمام، أن يجمع بين أكثر من وضع لعنصر الواحد في التعبير.

٩. **التكرار فى الرسوم:** "تعتبر هذه الخاصية من الخواص الرئيسية التي تجعل الطفل ينطلق دون ملل أو قيود فحين يجيد رسم بعض الأشكال يقوم بتكرارها في الحيز كله دون التزام بالمساحة عند التعبير"[٢٧].

فالطفل هو مرآة عاكسة لكل ما يشاهدة في حياته من صغره حتى يكبر ويعبر عنها من طفولته حتى يصير رجلا، وهو الفنان التشكيلي الذي يخط منذ الحظة الأولى لشخابيط قلمه على الورق والجدران وكل ما وقعت عليه عيناه ووصلت إليه يداه، فهو الرسام والمصور والناقل للتراث والموروث من خلال تحريك يديه وقلمه وفرشاته.

أهداف أثر القيم التربوية والمورثات للمجتمع للمحافظة على البيئة:

١. للقيم التربوية أثر لتنمية القدرة المعرفية ودقة الملاحظة والتأمل فيما خلق الله سبحانه وتعالى عند الأطفال من خلال التعرف على بعض أسرار الكون.

٢. المورثات الفنية تنمي الإحساس بالجمال والنظام في مخلوقات الله بما يدفع الطفل إلى التسبيح بالله الخالق الواحد، إن الله جميل يحب الجمال.

٣. تدريب حواس الطفل على الاستخدام الغير محدود للمحافظة على البيئة.

٤. تنمية وجدان الطفل على التعبير عن طريق الفن بالمورثات الفنية.

٥. تنمية قدرة الطفل على التعبير عن طريق الفن والبيئة.

٦. مساعدة الأطفال على التنفيس عن انفعالاتهم.

٧. تأكيد ذاتية كل طفل مع مساعدة على الشعور بالثقة بالنفس.

٨. حل مشكلة وقت الفراغ عند الأطفال بشكل مثمر وفعال.

٩. تدريب الأطفال على استخدام بعض الأدوات والتعرف على بعض خامات البيئة وطبيعتها.

---

[٢٧] شاهين، **كتاب الذكاء ورسوم الأطفال**.

١٠. الاستغراق في العمل الفني يعود الأطفال على الهدوء والنظام ودقة الملاحظة والصبر الجميل.

١١. المشاركة الإيجابية للأطفال في تجميل البيئة.

١٢. توسيع آفاق الطفل من خلال تذوق عناصر البيئة.

١٣. زيادة الارتباط للطفل بتراثه الفني وأصالته العريقة.

١٤. حث الطفل على قيمة التعاون ومساعدة الآخرين والمحافظة على البيئة.

١٥. أن يكتسب الطفل اتجاهات سلوكية سليمة وتزويده بالثقافة الفنية.

١٦. إتاحة الفرصة للطفل للتعبير عن شخصيته بأسلوب علمي يساعده على تأكيد ذاته.

١٧. تنمية القدرة على فهم المدركات البصرية أثناء التعبير الفني.

١٨. إعداد الطفل من أجل جمهور فنان له واعٍ بالرؤية الفنية.

١٩. تنمية قدرة الطفل على الإبداع لتفهم الفن ويكون الناقد الفنان.

٢٠. إن ممارسة الطفل للفن تساعده على أن يعلن عن آرائه دون التأثر بحقائق العلوم التي لا تتقبل التعبير وإبداء الآراء ومن خلال الطفل يتم تحقيق الحفاظ على البيئية ويصبح جيلا لمجتمع محافظ على بيئته.

النتائج:

١. وقد توصلت الباحثه إلى إزاحة الحواجز والقيود التي تفرض على الإنسان المسؤولية لبناء الشخصية للمجتمع وللمحافظة على البيئة.

٢. وتوصلت الباحثه إلى إتاحة الفرصة لما يمكن أن تلعبه الصدفة فيما يحدث للمحافظة على البيئة الذي يفرض الموضوع وليس العكس.

٣. توصلت الباحثة أن للقيم التربوية والمورثات الفنية أثرا كبيرا على الحفاظ على البيئة.

٤. كما توصلت الباحثة أن الفنان المسلم ملء الفراغات بالعناصر الزخرفية المختلفة لتحقق الوحدة الفنية من خلال التنوع لملأ الفراغات بالزخارف الإسلامية.

٥. كما توصلت الباحثة أن رسوم الأطفال حققت الحفاظ على البيئة من خلال ارتباطهم بالدين الإسلامي.

٦. أيضا توصلت الباحثة إلى أن أثر القيم التربوية والمورثات الفنية على الأطفال أدى إلى ربطهم أركان الدين الإسلامي والمشاعر المقدسة في رسوماتهم التي حققت الحفاظ على البيئة.

التوصيات:

١. توصي الباحثه بحماية القيم التربوية والمورثات الفنية من الهجمة العالمية التي يواجهها من خلال ما يسمى "بالعولمة" أو ثقافة الأجنبي، وتأثير وسائل الإعلام الحديثة في ذلك كالفضائيات والإنترنت.

٢. توصي الباحثه بتدوين الموروث الفني من خلال المحافظة على البيئة والتأكيد على الدور الذي تقوم به للمحافظة عليه.

٣. توصي الباحثة إلى حث الأفراد على استلهام المورث الفني لبناء الشخصية للمجتمع للمحافظة على البيئة.

٤. توصي الباحثة بالاطلاع الدائم لأطفالنا بعمل مكتبة خاصة بالبيئة لاستمرارية الحفاظ عليها.

٥. كما توصي الباحثة بعمل متحف خاص بالبيئة لكي تكون مرجع دائم للأطفال والأجيال القادمة.

٦. كما توصي الباحثة بعمل جناح خاص بإنتاج الأطفال من المورثات الفنية وعرضها عرضا دائما كي تشجع الاستمرارية في الحفاظ على البيئة.

الصور:

شكل رقم (١) تصوير المصورة الفوتوغرافية الهام جان في الحرم خاص للبحث١٥/٨/١٤٣٥هـ.

شكل رقم (٢) (٣) (٤) (٥) (٦) تصوير المصورة الفوتوغرافية الهام جان بورشة عمل خاصة للبحث في شهر رمضان المبارك ١/٩/١٤٣٥هـ.

شكل رقم (٧) (٨) (٩) (١٠)تصوير المصورة الفوتوغرافية الهام جان في احتفالات جدة التراثية في خاص للبحث.

شكل رقم (١١) تصوير المصورة الفوتوغرافية اميرة الرفاعي.

شكل رقم (١٢) (١٣) (١٤) (١٥) تصوير المصور الفوتوغرافي محمد الحربي.

شكر رقم (١)

شكر رقم (٢)

شكر رقم (٣)

شكر رقم (٤)

شكر رقم (٥)

شكر رقم (٦)

شكر رقم (٧)

شكر رقم (٨)

شكر رقم (٩)

شكر رقم (١٠)

شكر رقم (١١)

شكر رقم (١٢)

شكر رقم (١٣)

شكر رقم (١٤)

شكر رقم (١٥)

المصادر والمراجع

١. نديم، علاء الدين، **أوقاف**، الإدارة العامة للوقاف.

٢. كر لنجر، **أوقاف**، الإدارة العامة للوقاف.

٣. ارسونز، **أوقاف**، الإدارة العامة للوقاف.

٤. روكتش، **معجزة البناء القيمي للشخصية**.

٥. بن مسعود، عبد المجيد، **القيم الإسلامية التربوية والمجتمع المعاصر، أزمة القيم وإشكالية التخلف الحضاري أسباب ومظاهر الأزمة**، تحقيق عمر عبيد حسنه.

٦. صليبا، جميل، **جميل صليبا المعجم الفلسفي**، الجزء الأول.

٧. النجيحي، محمد لبيب، **أوقاف**، الإدارة العامة للوقاف.

٨. جان، الهام صدقة سليمان، **المؤثرات الثقافية والبيئة لفن التصوير بالمملكة العربية السعودية على الفنانات السعوديات** (مصر: جامعة حلوان، كلية التربية الفنية، رسالة ماجستير، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٣م).

٩. هيجل، **فلسفة هيجل**.

١٠. هربرت ريد، **الفن**.

١١. بن مسعود، عبد المجيد بن مسعود، تقديم عمر عبيد حسنه.

١٢. مجلة علم النفس، المجلد الأول، العدد الأول.

١٣. الموسوعة العربية العالمية، **البيئة**، النسخة الإعلامية، ٢٠٠٩).

١٤. ابن رشد، **الاعدادية ابن رشد**.

١٥. الأهواز، أحمد فؤاد، **التربية في الإسلام**، (دار المعارف، ١٩٦٨).

١٦. قطب، محمد، **منهج التربية الإسلامية**، (دار الشروق، ١٩٨٦).

١٧. بن نبي، مالك بن نبي.

١٨. عبد الغفار، أحمد، **الموروث الشعبي في العالم العربي وعلاقته بالإبداع الفني والفكري**، (المهرجان الوطني الثالث للتراث والثقافة، الندوة الثقافية الكبرى، ١٩٨٧م).

١٩. حنفي، عبلة ابراهيم، كلية التربية الفنية، ١٩٨٩م.

٢٠. عبد العزيز، مصطفى محمد، **سيكولوجية التعبير الفني عند الأطفال**، (القاهرة: دار الانجلو المصرية: ط٢).

٢١. زعيتر، سامر، **اللواء**.

٢٢. عوض، أحمد عوض، **دراسات بيئية**، (مصر: كلية الفنون التطبيقية، جامعة حلوان، ٢٠٠١م).

٢٣. الشال، عبد الغني النبوي، **فلسفة الفن والتربية الفنية**، (١٩٥٦م).

٢٤. فهمى، فوزى، **الثقافة والتجدد**، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، ١٩٩٧م).

٢٥. شاهين، معتز، **كتاب الذكاء ورسوم الأطفال**، (صفوت فرج، دار الثقافة ١٩٩٢م).

٢٦. http://www.startimes.com/?t=13405596

الحفاظ على البيئة ومواردها في منظور السنة النبوية

د. محمد أحمد محمد عبد العال الشرباني[٢٨]

ملخص البحث:

أرسل الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم برسالة الإسلام رحمة للعالمين، ومن ضمن ذلك البيئة التي تحيط بالإنسان من الماء والهواء والحيوان والنبات وغيره، وعالمية الإسلام، وخلوده، صلاحيته لكل زمان ومكان تجعله مواكباً لكل القضايا، والمشكلات المعاصرة والمستجدة على مر العصور والأزمان، والعالم يعيش اليوم مخاطر بيئية كبيرة تتمثل غالباً في مخاطر تلوث البيئة، والخشية من نفاذ الموارد البيئية، وهذا كله ناتج من سوء تعامل الإنسان مع بيئته، وعدم الحفاظ على مواردها، والسنة النبوية تمثل التطبيق العملي للوحي الإلهي بما لها من البيان والتفصيل للقرآن، فكيف نظرت السنة النبوية للبيئة ومواردها، وما هي الضوابط التي وضعتها والإرشادات التي ذكرتها للمحافظة على البيئة، وحسن التعامل الرشيد معها. فمن هنا يهدف البحث إلى: ١- بيان نظرة السنة النبوية للبيئة، مواردها والضوابط التي وضعتها للحفاظ عليها؛ ٢- والتأصيل الإسلامي لقضية من القضايا المعاصرة بتنزيل النصوص النبوية على قضية المحافظة على البيئة ومواردها. معتمدا على المنهجين الوصفي والاستنتاجي في معالجة موضوع البحث.

المقدمة:

الحمد لله نستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وبعد!

فلا شك أن تنزيل معارف الوحي على القضايا الحياتية المعاصرة، تأصيلها إسلامياً من الأهمية بمكان لتفعيل دور معارف الوحي القرآني والنبوي في حل المشكلات والقضايا المستجدة، ومنها قضية المحافظة على البيئة ومواردها بما يؤكد صلاحيته لكل زمان ومكان، العالم كله يعيش مشكلات بيئية خطيرة ناتجة عن طغيانه، واستغلاله غير الرشيد للموارد البيئية، واستنزافه وإتلافه، وتلويثه لبعضها الآخر مما أدى إلى إحداث خلل في التوازن البيئي، تفاقمت الأخطار المحدقة بالبيئة ومواردها، وبدأ الاهتمام الحقيقي بالحفاظ على البيئة ومواردها ووضع قوانين لحمايتها في منتصف القرن العشرين، وظهر بالتحليل والدراسة أن أغلب المشكلات البيئية الحديثة ترجع في أصلها إلى عوامل سلوكية، وأخلاقية، مما يجعلنا ندهش لحداثة التدابير العالمية لمواجهة هذه التحديات، وعلاج تلك المشكلات البيئية الخطيرة، وقد كان للإسلام السبق في جعل المحافظة على البيئة ومواردها قيمة من القيم الأساسية للحضارة الإسلامية، والإسلام وهو

---

[٢٨] أستاذ مساعد بكلية بمانج الإسلامية، السلطان أحمد شاه (KIPSAS)، ماليزيا.

الدين الشامل للحياة ديناً، دنيا، سياسة، اجتماعاً، اقتصاداً وبيئة، غير ذلك اشتمل على الحلول الناجعة لكل المشكلات المعاصرة، ومنها الحفاظ على البيئة ومواردها، قد اشتملت السنة النبوية وهي البيان التفصيلي للقرآن الكريم، والأصل الثاني للإسلام على الضوابط والإرشادات الفكرية والأخلاقية والسلوكية اللازمة للحفاظ على البيئة ومواردها فمن بحث في القرآن الكريم والسنة النبوية وجد الاهتمام بالبيئة ومواردها في تنظيم العلاقة بين الإنسان وبيئته من خلال نظرية التسخير، الاستخلاف، والأمانة، المسئولية في الحفاظ على البيئة ومواردها، وعمارتها، وتنميتها، ضمن ضوابط وإرشادات تسهم إسهاما كبيراً في الحفاظ على البيئة ومواردها وحل كثير من المشكلات المتعلقة بها.

والبحث الموسوم ب"الحفاظ على البيئة ومواردها في منظور السنة النبوية "مكون من مقدمة، وثلاثة مباحث، خاتمة، لمبحث الأول: عريف مفهوم البيئة لغة واصطلاحاً، المبحث الثاني: ظرة السنة النبوية للبيئة ومواردها، المبحث الثالث: لضوابط والإرشادات التي وضعتها السنة النبوية للمحافظة على البيئة ومواردها، والخاتمة: فيها أهم نتائج البحث والتوصيات.

المبحث الأول

تعريف مفهوم البيئة لغة واصطلاحاً

أولاً: تعريف البيئة لغة: الْمنزل، وَالْحَال، وَيُقَال: بيئة طبيعية، وبيئة اجتماعية، وبيئة سياسية، "تبوأ": الْمَكَان وَبِه نزله وَأَقَام بِهِ[٢٩]. وبوأهم منزلاً: نزل بهم إلى سند جبل. وأبأت بالمكان: قمت به.وبوأتك بيتاً: اتخذت لك بيتاً ... وإنه لحسن البيئة أي هيئة التبوء. والبيئة والباءة والمباءة: المنزل، .. وباءت ببيئة سوء: أي بحال سوء؛ وإنه لحسن البيئة؛ وعم بعضهم به جميع الحال[٣٠].

فتدور كلمة البيئة في معاجم اللغة العربية على النزول، والحلول في المكان، وتهيئة المكان، والمنزل الذي يتخذه الإنسان لعيشه والرجوع إليه، والأحوال التي يكون عليها الإنسان حسنة أو سيئة.

ثانياً: مفهوم البيئة (Environment) في الاصطلاح: الوسط أو المجال المكاني الذي يعيش فيه الإنسان فيتأثر به، ويؤثر فيه"[٣١].

وقد عرف مؤتمر استوكهلم عام ١٩٧٢م البيئة بقوله: إن البيئة هي مجموعة من النظم الطبيعية والاجتماعية، الثقافية التي يعيش فيها الإنسان، الكائنات الأخرى، التي يستمدون منها زادهم، ويؤدون فيها نشاطهم"[٣٢]. وهذا التعريف للبيئة بمفهومها الواسع (everything that surrounds man) بأنها: كل ما يحيط بالإنسان شامل للبيئة الطبيعية، والبيئة البشرية، البيئة الطبيعية: تشمل كل ما يحيط بالإنسان من

[٢٩] مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، ج١، ص٧٥.

[٣٠] ابن منظور، **لسان العرب**، ج١، ص٣٨-٣٩.

[٣١] عبد المقصود، **البيئة والإنسان علاقات ومشكلات**، ص٧-٨.

[٣٢] مرسي، **الإسلام والبيئة**، ص١٩.

ظواهر، وأشياء حية، غير حية، ولا يكون له دخل في وجودها، كالمناخ، والتضاريس، الضوء، والتربة، والمعادن في باطن الأرض، والنباتات الطبيعية، والحيوانات[٣٣].

أما البيئة البشرية، تسمى أيضا البيئة الحضارية: فتشمل الإنسان وكل انجازاته، الثقافية، والاجتماعية والاقتصادية، التي أوجدها داخل بيئته الطبيعية[٣٤].

بيد أن البيئة بهذا المعنى ليست مرادفة للطبيعة المادية فتشمل المؤثرات النفسية والحضارية والثقافية مما قد لا يكون مناسباً للمقصود بالبيئة في بحثنا، ويمكن تعريف البيئة في بحثنا بأنها: "المحيط المادي الذي يعيش فيه الإنسان بما يشمل من ماء، وهواء، وفضاء، وتربة، وكائنات حية، ومنشآت أقامها لإشباع حاجاته"[٣٥].

ومن الواضح أن هذا المفهوم يوسع من تعريف البيئة ليشمل الموارد الصناعية من المنازل والسيارات والطرق والمصانع، وغير ذلك من أشياء من صنع الإنسان التي تؤمن حاجاته، وهي في الأصل من بيئته الطبيعية، بجانب الموارد الطبيعية، جسد الإنسان، حواسه المادية، هذا المفهوم مقبول إسلامياً، فالمسخرات لا تقتصر فقط على الموارد الطبيعية، وإنما تشمل ما صنعه الإنسان، مما يؤمن حاجاته الإنسانية.

المبحث الثاني

نظرة السنة النبوية للبيئة ومواردها

لقد حفلت السنة النبوية بالكثير من الأحاديث التي تقدم نظرة كلية وتصوراً شاملاً للبيئة ومواردها، فالبيئة بكل ما فيها من سماء، وأرض، وشمس، وقمر، جبال، بحار، أنهار، معادن، ماء، وهواء، ونبات، وحيوان، غير ذلك في منظور السنة النبوية جزء من هذا الكون البديع الذي خلقه الله عزوجل ينبغي التفكر فيه والمحافظة عليه، هو سبحانه وتعالى المالك الحقيقي، سخره لمنفعة الإنسان، والقيام بمصالحه، وقد شرف الله هذا الإنسان على جميع المخلوقات، سخر له ما في السماوات والأرض جميعاً، وهومستخلف فيها لعمارتها، تنميتها، منع الإضرار بها، وهو مسئول عن ذلك، أمور بشكر هذه النعم والمحافظة عليها.

المطلب الأول: تسخير البيئة للإنسان، واستخلافه فيها، واعتبارها نعمة من الله تعالى.

وهي نظرية جاءت بها الآيات القرآنية، الأحاديث النبوية، ويقوم عليها الفكر الإسلامي وهي اعتبار البيئة ومواردها في الحقيقة لله عز وجل، آية من آياته ينبغي التفكر فيها والحفاظ عليها، وهو سبحانه وتعالى الذي سخر هذه البيئة، ومواردها لمنفعة بني الإنسان، وتحقيق مصالحهم، وعمارتها،

---

[٣٣] عبد المقصود، **البيئة والإنسان**، ص٧-٨.

[٣٤] المرجع السابق.

[٣٥] مرسي، **الإسلام والبيئة**، ص١٩.

وإصلاحها وفق شريعته سبحانه وأوامره قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنَ وَسَخَّرَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٢-٣٤]. فهذه البيئة من بديع صنع الله عزوجل الخالق وآية من آياته ينبغي التفكر فيها، وتسخيرها نعمة تستوجب الشكر والمحافظة عليها، وإحسان التعامل معها.

قال ابن عاشور: "التسخير: حقيقته التذليل والتطويع، وهو مجاز في جعل الشيء قابلاً لتصرف غيره فيه"[٣٦].

وجاء في السنة ما يعلم، ويربي المسلمين، ويؤكد لهم على معنى تسخير الله عزوجل للبيئة ومواردها، وحبها، اعتبارها من النعم التي تذكر فتشكر، ويحافظ عليها روى مسلم بسنده أَنَّ ابْنَ عُمَرَ رضي الله عنهما عَلَّمَهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إِلَى سَفَرٍ، كَبَّرَ ثَلَاثًا، ثُمَّ قَالَ: «﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف:١٣-١٤]، اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ فِي سَفَرِنَا هَذَا الْبِرَّ وَالتَّقْوَى وَمِنَ الْعَمَلِ مَا تَرْضَى، اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَيْنَا سَفَرَنَا وَاطْوِ عَنَّا بُعْدَهُ، اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ، وَكَآبَةِ الْمَنْظَرِ، وَسُوءِ الْمُنْقَلَبِ فِي الْأَهْلِ وَالْمَالِ». وَإِذَا رَجَعَ قَالَهُنَّ، وَزَادَ فِيهِنَّ: «آيِبُونَ، تَائِبُونَ، عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ»[٣٧].

فقوله: «﴿سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا، وَمَا كُنَّا له مقرنين﴾» فيه الثناء على الله بتسخيره للمركوبات، التي تحمل الأثقال والنفوس إلى البلاد النائية، والأقطار الشاسعة، واعتراف بنعمة الله بالمركوبات. وهذا يدخل فيه المركوبات: من الإبل، ومن السفن البحرية، والبرية، والهوائية. فكلها تدخل في هذا. فهذه المراكب، كلها وأسبابها، وما به تتم وتكمل، له من نعم الله وتسخيره. يجب على العباد الاعتراف لله بنعمته فيها، وخصوصاً وقت مباشرتها، وفيه: تذكر الحالة التي لولا الباري لما حصلت وذللت في قوله: ﴿وما كنا له مقرنين﴾ أي مطيقين، لو رَدَّ الأمر إلى حولنا وقوتنا، لكنَّا أضعف شيء علماً، وقدرة وإرادة، ولكنه تعالى سخر الحيوانات وعلَّم الإنسان صنعة المركوبات. فعلى الخلق أن يشكروا الله، إذ علمهم صناعة اللباس الساتر للعورات، ولباس الرياش، ولباس الحرب وآلات الحرب. وعلمهم صنعة الفلك البحرية والبرية والهوائية، وصنعة كل ما يحتاجون إلى الانتفاع به، وأنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس متنوعة"[٣٨].

---

[٣٦] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١٣، ص٢٣٥.

[٣٧] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج٢، ص٩٧٨، رقم١٣٤٢.

[٣٨] آل سعدي، **بهجة قلوب الأبرار**، ص١٩٦.

واعتبار الإنسان مستخلفاً في هذه البيئة ومواردها، أمينا عليها عبر القرآن الكريم عنه إذ قال تعالى: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ [الحديد:٧]، الله هو مالك البيئة ومواردها؛ لأنه خالقها، ميسر وسائل اكتسابها، والإنسان أمين ووكيل فيها، فيجب عليه أن يتقيد بأوامر المالك، وينزل على حكمه ويخضع لتوجيهاته في شكر نعمته وحفظها وتنميتها، وهذا ما أكدته وفصلته السنة النبوية روى مسلم بسنده عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِي ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ» وَفِي حَدِيثِ ابْنِ بَشَّارٍ: «لِيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ»[٣٩].

قال القاري: "«الدنيا حلوة» بضم المهملة «خضرة» بفتح المعجمة وكسر الضاد. وفي رواية: رطبة أي: طيبة مزينة في عيونكم وقلوبكم، إنما وصفها بالخضرة؛ لأن العرب تسمي الشيء الناعم خضراً، ولتشبهها بالخضروات في سرعة زوالها. «وإن الله مستخلفكم فيها» أي: اعلكم خلفاء في الدنيا أي: نتم بمنزلة الوكلاء في التصرف فيها، إنما هي في الحقيقة لله تعالى «فينظر كيف تعملون» أي: تتصرفون أو معناه جاعلكم خلفاء من كان قبلكم، قد أعطى ما في أيديهم إياكم فينظر كيف تعتبرون بحالهم وتتدبرون في مآلهم"[٤٠].

فالإنسان مستخلف على البيئة ومواردها، أميناً عليها، ونسبتها إليه مجازية للتصرف والتدبير، فإذا لم يحسن إدارتها، على وفق أوامر الله عز وجل فقد خان الأمانة، لا شك أن هذا المنظور للبيئة ومواردها يحول دون طغيان الإنسان، استكباره وإفساده، و إتلافه للموارد البيئية التي سخرها له الله عزوجل.

المطلب الثاني: المحافظة على البيئة وصيانتها من التلوث شعبة من الإيمان

جعل النبي ﷺ المحافظة على البيئة وحمايتها من التلوث شعبة من شعب الإيمان روى مسلم بسنده عن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ -أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ- شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»[٤١].

قال القاري: "أدناها أي أقربها منزلة، و دونها مقداراً، مرتبة بمعنى أقربها تناولاً، أسهلها تواصلاً من الدنو بمعنى القرب فهو ضد فلان بعيد المنزلة أي رفيعها... أو من الدناءة أي أقلها فائدة ؛لأنها دفع أدنى ضرر إماطة الأذى أي إزالته، هو اسم لما يؤذى به كشوكة أو حجر أو قذر"[٤٢].

---

[٣٩] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج٤، ص٢٠٩٨، رقم٢٧٤٢.

[٤٠] القاري، **مرقاة المفاتيح**، ج٥، ص٢٠٤٤.

[٤١] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج١، ص٦٣، رقم٥٨.

[٤٢] القاري، **مرقاة المفاتيح**، ج١، ص٧٠.

فكلمة الأذى تعم كل ما يضر، يؤذي الناس من الحجارة، والشوك، والمياه الملوثة، والقاذورات، ويدخل ضمنه حماية البيئة ومواردها، والمحافظة عليها من التلوث، وإزالته أيا كان قدره شعبة من شعب الإيمان.

قال العيني: "اعلم أن الشخص يؤجر على إماطة الأذى، كل ما يؤذي الناس في الطريق، وفيه دلالة على أن طرح الشوك في الطريق والحجارة والكناسة والمياه المفسدة للطرق، كل ما يؤذي الناس يخشى العقوبة عليه في الدنيا والآخرة، لا شك أن نزع الأذى عن الطريق من أعمال البر، أن أعمال البر تكفر السيئات، وتوجب الغفران"[٤٣].

المطلب الثالث: المسئولية عن حسن إدارة البيئة ومواردها، الاعتدال في استغلالها، وجعلها وسيلة للخير والنفع لا غاية يتكالب عليها

جاءت السنة النبوية، التعبير بفريضة حسن إدارة البيئة ومواردها، منع الإفساد فيها وإصلاحها في قوله ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، إذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، فليرح ذبيحته»[٤٤]. وهذا يدل على وجوب الإحسان في كل شيء حتى ينتفع بكل شيء من البيئة ومواردها على أحسن وجه. وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ فَالْإِمَامُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه»[٤٥]، يعني كل مؤتمن، وملتزم إصلاح، ورعاية ما تحت نظره، ويده، محاسب على ذلك.

فعَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ»[٤٦].

وكذلك يسأل عن كل شيء في حياته، فنهى عن إضاعة المال بأي شكل من الأشكال بصرفه في غير وجوهه المشروعة، وتعريضه للتلف، ويدخل ضمن المال كل ما ينتفع به من الموارد البيئية من الماء والهواء والنبات والحيوان وغيره، يدل على ذلك ما جاء عن المغيرة بن شعبة ﷺ قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ كَرِهَ لَكُمْ ثَلَاثًا قِيلَ وَقَالَ وَإِضَاعَةَ الْمَالِ وَكَثْرَةَ السُّؤَال»[٤٧]. قال القاضي عياض: "قوله:

---

[٤٣] العيني، **عمدة القاري**، ج١٣، ص٢٣.

[٤٤] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج٣، ص١٥٤٨، رقم١٩٥٥، عن شداد بن أوس ﷺ.

[٤٥] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٩، ص٦٢، رقم٧١٣٨.

[٤٦] أخرجه الترمذي في **سننه**، ج٤، ص٦١٢، رقم٢٤١٧، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

[٤٧] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٢، ص١٢٢، رقم١٤٧٧.

«وإضاعة المال» قال مالك: هو إنفاقه فيما حرم الله، وقيل إنفاقه في الباطل والسرف، قيل ترك القيام على ماله وإهماله، قيل: لمال هنا ما ملكت اليمين من الحيوان كله لا يضيعون فيهلكون"[٤٨].

وجاء التنبيه على جعل البيئة ومواردها وسيلة للخير والنفع لا غاية يتكالب عليها، ويتحارب من أجلها، وتكون مصدراً للفساد، والضرر، والهلاك في قول النبي ﷺ لأصحابه: «أَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ فَوَ اللَّهِ مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[٤٩]. فيذم ما يكون مقصداً للفساد، وقصد الضرر بالآخرين سواء للبشر أو لغيرهم من المخلوقات قد نهى عنه النبي ﷺ وحذر من التعادي والتحارب لتحصيل هذه الموارد البيئية، وأخبر أن هذا يكون سبباً للهلاك والدمار.

وبهذا يظهر أن البيئة ومواردها في منظور السنة النبوية تخضع لنظرية التسخير والاستخلاف، فالبيئة جزء من هذا الكون البديع الذي خلقه الله عزوجل، سخره لمنفعة الإنسان، جعل الله ﷻ فيه الإنسان خليفة أميناً عليه، هو مسئول عن ذلك محاسب عليه، ينبغي عليه المحافظة على البيئة ومواردها بعمارتها، وتنميتها، وإصلاحها، ومنع الإفساد، والإضرار بها، والتوسط والاعتدال في استغلالها.

المبحث الثالث

الضوابط والإرشادات التي وضعتها السنة النبوية للمحافظة على البيئة ومواردها

حفلت السنة النبوية بالكثير من الأحاديث التي وضعت ضوابط وإرشادات للحفاظ على البيئة ومواردها المختلفة المائية، البشرية، والنباتية، الحيوانية، والبيئة العامة، ومن أهم واخطر المشكلات البيئية التي تواجه مجتمعنا، وتهدد حاضره، ومستقبله التلوث، وقد طغت هذه القضية على كافة قضايا البيئة، لما لها من آثار تدميرية على الإنسان، والبيئة، تعددت تعاريف مفهوم التلوث لعموميته، ويمكن أن نقول: أنه تغير يطرأ على أي مكون من مكونات البيئة مثل: الماء، الهواء، التربة مما يجعلهما غير صالحة للاستخدام المحدد لها، ذلك نتيجة لإضافة مواد غريبة، أو لزيادة كميات بعض المواد في البيئة عن حدودها الطبيعية[٥٠].

وقد وضعت السنة النبوية الضوابط الوقائية للمحافظة على سلامة البيئة، ومواردها من التلوث والإفساد.

وأيضاً من المشكلات البيئية الحديثة الخطيرة الخلل في التوازن البيئي من ازدياد، و نقصان غير طبيعي وغير معتاد لعنصر، ولمورد من موارد الطبيعة، وإنه من غير المتعذر إدراك أن الإسراف والتبذير، أو الاستغلال الجائر للموارد البيئية يؤدي إلى الإخلال بالنسب والمقادير التي قدرها الله تعالى بين مفردات

---

[٤٨] عياض، **مشارق الأنوار**، ج٢، ص٦٢.

[٤٩] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٤، ص٩٧، رقم٣١٥٨، عن عمرو بن عوف الأنصاري ﷺ.

[٥٠] عطية، **مواجهة الإسلام للتحديات المتصلة بالبيئة**، ص٦١-٦٣.

تلك الموارد، وهو ما يستتبع تدهورها، والحد من إنتاجها، وينعكس سلبياً على حياة الإنسان، والكائنات الأخرى"[٥١].

وعلاج هذه المشكلة بما وضعته السنة النبوية من ترشيد استخدام هذه الموارد البيئية بالوسطية، والاعتدال وعدم الإسراف، ضافة إلى التشجيع على تنمية الموارد البيئية، حمايتها من الفقدان والهلاك.

وتفصيل هذه الضوابط والإرشادات النبوية للمحافظة على البيئة ومواردها فيما يأتي:

المطلب الأول: المحافظة على سلامة البيئة، وصيانة مواردها من التلوث والإفساد

أولاً: المحافظة على سلامة البيئة المائية بالنهي عن البول فيها، كل ما ينجسها أو يغير طبيعتها:

نهى النبي ﷺ عن البول في الماء الراكد للحفاظ على سلامة البيئة المائية من التلوث، ويتبع ذلك حماية البيئة العامة؛ لئلا ينجس الماء، يقذره، ما يغير طبيعته فلا يستفاد منه في طهارة، أو نظافة، أو شرب أو غير ذلك، وهذا مما يستنزف الموارد المائية، يفسد سلامتها، ويلوثها بما يضر الصحة، يقاس عليه كل مفسد، ومنجس للمياه مما يغير طبيعتها مما يقذر، أو يضر كالغائط، أو المواد الكيماوية، أو المخلفات الصناعية وغيرها، وهذا ضابط وقائي فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رسول الله ﷺ: «لاَ يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ فِي المَاءِ الدَّائِمِ الَّذِي لاَ يَجْرِي، ثُمَّ يَغْتَسِلُ فِيهِ»[٥٢]. وعن جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «أنه نهى أن يبال في الماء الراكد»[٥٣]. وقد فصل هذه المسألة الإمام النووي فقال: البول فيه منهي عنه سواء أراد الاغتسال فيه، أو منه أم لا والله أعلم، وأما الدائم فهو: الراكد، وقوله ﷺ: «الذي لا يجري» تفسير للدائم وإيضاح لمعناه، ويحتمل أنه احترز به عن راكد لا يجري بعضه كالبرك ونحوها، وهذا النهي في بعض المياه للتحريم، في بعضها للكراهة، ويؤخذ ذلك من حكم المسألة فإن كان الماء كثيراً جارياً لم يحرم البول فيه لمفهوم الحديث، ولكن الأولى اجتنابه، وإن كان قليلاً جارياً فقد قال جماعة من أصحابنا: يكره، والمختار: أنه يحرم ؛لأنه يقذره، وينجسه على المشهور من مذهب الشافعي وغيره، يغر غيره فيستعمله مع أنه نجس. والتغوط في الماء كالبول فيه وأقبح، وكذلك إذا بال في إناء ثم صبه في الماء، وكذا إذا بال بقرب النهر بحيث يجري إليه البول، فكله مذموم قبيح منهي عنه على التفصيل المذكور ولم يخالف في هذا أحد من العلماء"[٥٤].

ولا يخفى علينا في الوقت الحاضر أهمية منع هذا العمل الضار، وخاصة منع التبول في الماء الراكد حتى لا يتلوث الماء، ويكون مصدراً خصباً لانتشار الجراثيم، والأوبئة، الأمراض الفتاكة، مرتعاً لتكاثر

---

[٥١] المرجع السابق، ص٣٩-٤٣.

[٥٢] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج١، ص٥٧، رقم٢٣٩.

[٥٣] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج١، ص٢٣٥، رقم٢٨١.

[٥٤] النووي، **المنهاج**، ج٣، ص١٨٧-١٨٨.

الحشرات الضارة، خصوصاً إذا أعيد استخدام الماء الملوث[٥٥]. وقد وجد المتخصصون أن التبول والتبرز في الماء يؤدي إلى الإصابة بطفيل الدودة الكبدية التي تؤدي إلى في النهاية إلى موت الإنسان[٥٦].

وهكذا وضعت السنة النبوية هذا الضابط المهم للحفاظ على سلامة البيئة المائية من التلوث، النهي عن البول في الماء، كذا كل ما كان في حكمه من مفسد، وملوث للموارد المائية هو من السلوكيات القبيحة المنهي عنها؛ لأنه يحرم الآخرين من الاستفادة بهذه النعمة العظيمة، يعرض صحة الآخرين للخطر.

وما يؤسف له أن الدول المتقدمة من أكثر الدول إفساداً للبيئة المائية عن طريق صرف مياه المجاري، والمخلفات الصناعية في الأنهار والبحار، تقلدها في ذلك الدول النامية مما يستدعي وضع قوانين رادعة لمثل هذا الفساد، التلويث للبيئة المائية التي حثتنا السنة على الحفاظ عليها طاهرة نظيفة غير ملوثة.

ثانياً: المحافظة على سلامة البيئة البشرية باتخاذ التدابير للوقاية من الأمراض بالحجر الصحي والتحذير من خطورة انتقال الجراثيم:

منعت السنة النبوية الدخول على الأرض التي وقع بها الوباء، وكذلك نهت عن الخروج من تلك الأرض الموبوءة، هو ما يعرف بالحجر الصحي، هذا ما طبقه عمر بن الخطاب وأصحاب النبي ﷺ فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عَامِرٍ أَنَّ عُمَرَ ﷺ خَرَجَ إِلَى الشَّأْمِ، فَلَمَّا كَانَ بِسَرْغَ[٥٧] بَلَغَهُ أَنَّ الوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّأْمِ فَأَخْبَرَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ عَوْفٍ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا، فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ»[٥٨]. وأخرج البخاري في صحيحه بسنده عن إِبْرَاهِيمَ بْنَ سَعْدٍ، قَالَ: سَمِعْتُ أُسَامَةَ بْنَ زَيْد ﷺ، يُحَدِّثُ سَعْدًا ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا مِنْهَا»[٥٩].

الطاعون هو المرض العام، والوباء الذي يفسد به الهوى فتفسد به الأمزجة، ومن معنى الحديث: إذا بلغكم وقوعه ببلد، ومحلة فيحرم عليكم الدخول إليها؛ لأن الإقدام عليه تهور وجرأة على خطر، وإيقاع النفس في معرض التهلكة والعقل يمنعه، والشرع يأباه، وإذا وقع الطاعون، و الوباء في مكان، أنتم فيه فيحرم عليكم الخروج منها ؛لأنه فرار من القدر، وهو لا ينفع، والثبات تسليم لما لم يسبق منه اختيار فيه[٦٠].

---

[٥٥] السكري، **البيئة من منظور إسلامي**، ص٤٦.

[٥٦] عبد الحليم، **الطب الوقائي**؛ والشحات، **البيئة في الإسلام**، ص١٠١-١٠٣.

[٥٧] سرغ، بالغين، والعين لغة فيه: وهو أوّل الحجاز وآخر الشام بين المغيثة وتبوك. ينظر: الحموي، **معجم البلدان**، ج٣، ص٢١١.

[٥٨] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٧، ص١٣٠، رقم٥٧٢٨.

[٥٩] نفس المصدر.

[٦٠] المناوي، **فيض القدير**، ج١، ص٣٨٣.

قال ابن حجر: ذكر العلماء في النهي عن الخروج حكماً منها: ن الطاعون في الغالب يكون عاماً في البلد الذي يقع به، إذا وقع فالظاهر مداخلة سببه لمن بها فلا يفيده الفرار؛ لأن المفسدة إذا تعينت حتى لا يقع الانفكاك عنها كان الفرار عبثاً فلا يليق بالعاقل"[٦١].

وهذا من اتخاذ التدابير في الوقاية من الأمراض، ومنع انتشارها، وتأصيل شرعي، وأخلاقي للحجر الصحي.

ونهى النبي ﷺ عن التنفس في إناء الشرب[٦٢]. والحديث الثاني عن أنس، قال: «كان رسول الله ﷺ يتنفس في الشراب ثلاثاً»[٦٣] وترجم له الإمام النووي بباب كراهة التنفس في نفس الإناء، واستحباب التنفس ثلاثاً خارج الإناء، فالحديث الأول محمول على أول الترجمة، والثاني على آخرها.على ما ترجم له النووي[٦٤].

قال ابن حجر: "جاء في النهي عن النفخ في الإناء عدة أحاديث، كذا النهي عن التنفس في الإناء ؛لأنه ربما حصل له تغير من النفس، إما لكون المتنفس كان متغير الفم بمأكول مثلا، و لبعد عهده بالسواك والمضمضة، أو لأن النفس يصعد ببخار المعدة، والنفخ في هذه الأحوال كلها أشد من التنفس"[٦٥].

كما أمر النبي ﷺ بتغطية أوعية الشراب، ألا تترك مفتوحة للحشرات، والميكروبات والأتربة.

عن جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «غطوا الإناء، وأوكوا السقاء، فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء، لا يمر بإناء ليس عليه غطاء، أو سقاء ليس عليه وكاء[٦٦]، إلا نزل فيه من ذلك الوباء»[٦٧].

ثالثاً: المحافظة على سلامة البيئة الحيوانية بالحجر الصحي ومنع مخالطة الصحيح للمريض:

منع المخالطة بين الحيوان الصحيح المعافى، المريض بمرض معد، من الضوابط التي وضعتها السنة النبوية للوقاية، وعدم نقل الأمراض، تقليل انتشارها قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يُورِدَنَّ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحٍّ»[٦٨].

قال العيني: "قوله: «لا يوردن» بنون التأكيد للنهي عن الإيراد وفي رواية مسلم: لا يورد، بلفظ النفي وهو خبر بمعنى النهي، ومفعول: لا يوردن محذوف تقديره: لا يوردن ممرض ماشية على ماشية

---

[٦١] ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، ج١٠، ص١٨٥-١٨٩.

[٦٢] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج٣، ص١٦٠٣، رقم٢٠٢٧.

[٦٣] نفس المصدر.

[٦٤] النووي، **المنهاج**، ج١٣، ص١٩٨.

[٦٥] ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، ج١٠، ص٩٢.

[٦٦] وكاء هُوَ خيط الْقِرْبَة الَّذِي تشد بِهِ وَاسْتعْمل فِي كل مَا يرْبط بِهِ. ينظر: عياض، **مشارق الأنوار على صحاح الآثار**، ج٢، ص٢٨٦.

[٦٧] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج٣، ص١٥٩٦، رقم٢٠١٤.

[٦٨] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٧، ص١٣٨، رقم٥٧٧٠.

مصح. قوله: «ممرض» بضم الميم الأولى وسكون الثانية وكسر الراء وبالضاد المعجمة، وهو اسم فاعل من الإمراض من أمرض الرجل إذا وقع في ماله آفة، والمراد بالممرض هنا الذي له إبل مرضى. قوله: «على مصح» بضم الميم وكسر الصاد المهملة وتشديد الحاء، وهو الذي له إبل صحاح، والتوفيق بين الحديثين بما قاله ابن بطال وهو: أن لا عدوى، إعلام بأنها لا حقيقة لها، وأما النهي فلئلا يتوهم المصح أن مرضها من أجل ورود المرضى عليها، فيكون داخلاً بتوهمه ذلك في تصحيح ما أبطله النبي ﷺ من العدوى. وقال النووي: المراد بقوله: «لا عدوى» يعني: ما كانوا يعتقدونه أن المرض يعدي بطبعه، ولم ينف حصول الضرر عند ذلك بقدرة الله تعالى وجعله، وبقوله: «لا يوردن» الإرشاد إلى مجانبة ما يحصل الضرر عنده في العادة بفعل الله وقدره، وقيل: النهي ليس للعدوى بل للتأذي بالرائحة الكريهة ونحوها"[٦٩].

وفي هذا إرشاد إلى المحافظة على البيئة الحيوانية من انتقال الأمراض وتوجيه لوقايتها من الأمراض والحجر على المريضة منها ؛ لئلا تصيب الصحيحة فيجب أن يحافظ على تلك الكائنات الحيوانية برعايتها رعاية بيطرية متخصصة، ومتابعتها حتى لا تقع تلك الآفات فيها.

رابعاً: الحفاظ على سلامة المكونات البيئية العامة من التلوث، التحذير من الاعتداء عليها:

رغبت السنة النبوية في المحافظة على نظافة الطرق والشوارع والمساجد والمباني العامة، ونزع كل ما يؤذيها أو يلوثها فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ»[٧٠].

قال ابن بطال: قال المهلب: "إماطة الأذى، كل ما يؤذى الناس في الطرق مأجور عليه، وفيه: أن قليل الأجر قد يغفر الله به كثير الذنوب، وقد قال النبي ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»[٧١]. وفيه: دليل أن طرح الشوك في الطريق والحجارة والكناسة والمياه المفسدة للطرق، وكل ما يؤذى الناس تخشى العقوبة عليه في الدنيا والآخرة"[٧٢].

وفي المقابل رهبت السنة النبوية من كل تعدي علي البيئة العامة من طرق، وظل، ومسجد أو بناء وغيره، تلويثها أو تقذيرها، وكل ما يبطل الانتفاع بها فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «اتَّقُوا اللَّعَّانَيْنِ» قَالُوا: وَمَا اللَّعَّانَانِ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: ÷الَّذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ النَّاسِ، أَوْ فِي ظِلِّهِمْ»[٧٣].

---

[٦٩] العيني، **عمدة القاري**، ج٢١، ص٢٨٨.

[٧٠] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج١، ص١٣٢، رقم٦٥٢.

[٧١] سبق تخريجه.

[٧٢] ابن بطال، **شرح صحيح البخاري**، ج٦، ص٦٠٠.

[٧٣] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج١، ص٢٢٦، رقم٢٦٩.

قال النووي: "المراد اتقوا فعل اللعانين أي صاحبي اللعن وهما اللذان يلعنهما الناس في العادة والله أعلم. قال الخطابي وغيره من العلماء: المراد بالظل هنا مستظل الناس الذي اتخذوه مقيلاً ومناخاً ينزلونه ويقعدون فيه...وأما قوله ﷺ «الذي يتخلى في طريق الناس» فمعناه يتغوط في موضع يمر به الناس، وما نهى عنه في الظل والطريق لما فيه من إيذاء المسلمين بتنجيس من يمر به ونتنه واستقذاره"[٧٤]؛ لأن في فعل ذلك إبطال لمنفعة الناس بما يحتاجون إليه من مكونات البيئة العامة من الطرق، والشوارع وظل الأشجار، ويدخل فيه كل الأماكن العامة، في ذلك منع لتلويث البيئة وإفسادها، وحث على المحافظة على نظافتها.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى نُخَامَةً فِي القِبْلَةِ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ حَتَّى رُئِيَ فِي وَجْهِهِ، قَامَ فَحَكَّهُ بِيَدِهِ فَقَالَ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ فِي صَلاَتِهِ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّهُ، أَوْ إِنَّ رَبَّهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ القِبْلَةِ، فَلاَ يَبْزُقَنَّ أَحَدُكُمْ قِبَلَ قِبْلَتِهِ، وَلَكِنْ عَنْ يَسَارِهِ أَوْ تَحْتَ قَدَمَيْهِ» ثُمَّ أَخَذَ طَرَفَ رِدَائِهِ، فَبَصَقَ فِيهِ ثُمَّ رَدَّ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ، قَالَ: «أَوْ يَفْعَلُ هَكَذَا»[٧٥]. وعن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «البُزَاقُ فِي المَسْجِدِ خَطِيئَةٌ وَكَفَّارَتُهَا دَفْنُهَا»[٧٦].

قال النووي: "قال أهل اللغة المخاط من الأنف، البصاق والبزاق من الفم، والنخامة وهي: النخاعة من الرأس أيضاً، ومن الصدر. واعلم أن البزاق في المسجد خطيئة مطلقاً سواء احتاج إلى البزاق، ولم يحتج بل يبزق في ثوبه، فإن بزق في المسجد فقد ارتكب الخطيئة، عليه أن يكفر هذه الخطيئة بدفن البزاق...واختلف العلماء في المراد بدفنها فالجمهور قالوا: لمراد دفنها في تراب المسجد، رمله، حصاته إن كان فيه تراب، ورمل، وحصاة ونحوها، وإلا فيخرجها"[٧٧]. وهذا حتى لا يكون البصاق سبباً لنقل الأمراض وتلويث البيئة، ما فعله النبي ﷺ في رداءه يشبه الآن البصق في مناديل الجيب، م التخلص منها.

المطلب الثاني: ترشيد استخدام الموارد البيئية بالاعتدال، عدم الإسراف حفاظاً عليها من الاستنزاف

أولاً: الأمر بالوسطية والاعتدال في استغلال البيئة ومواردها بشكل عام، والنهي عن الخروج عن حد الاعتدال إلى الإسراف الذي يستنزف موارد البيئة:

فالإسلام دين الوسطية والاعتدال في كل جوانب الحياة الدينية والدنيوية فلا إفراط ولا تفريط، لاإسراف ولا تقتير، وقد أثنى الله على المؤمنين بالوسطية وعدم الإسراف في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا

[٧٤] النووي، **المنهاج**، ج٣، ص١٦١.

[٧٥] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج١، ص٩٠، رقم٤٠٥.

[٧٦] المرجع السابق، ج١، ص٩١، رقم٤١٥.

[٧٧] النووي، **المنهاج**، ج٥، ص٣٨-٤١.

أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان:٦٧]. ونهى النبي ﷺ عن الإسراف حتى في الأكل والشراب واللباس فقال ﷺ: «كُلُوا وَاشْرَبُوا وَتَصَدَّقُوا وَالْبَسُوا، ا لَمْ يُخَالِطْهُ إِسْرَافٌ أَوْ مَخِيلَة»[٧٨].

فقد أباح الله الانتفاع من طيبات البيئة ومواردها، ولكن دون الخروج عن حد الاعتدال، فالإسراف في أي شيء تضيع لما أنعم الله به على الإنسان، وإفساد له، والاعتدال يساعد على دوام الانتفاع بها، وعدم تبديدها فيما لا ينفع، وهذا من حسن التدبير، والحفاظ على البيئة، ومواردها من الاستنزاف وعدم التوازن.

ثانياً: ترشيد استخدام الموارد المائية بالاعتدال وعدم الإسراف في استخدامها: كان النبي ﷺ قدوة عملية في المحافظة على الماء، عدم الإسراف في استخدامه حتى في طهارة الغسل والوضوء، فكان يكفيه القليل من الماء، علم أصحابه ذلك فعن أنس ﷺ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَغْسِلُ، أَوْ كَانَ يَغْتَسِلُ، بِالصَّاعِ إِلَى خَمْسَةِ أَمْدَادٍ، وَيَتَوَضَّأُ بِالْمُدِّ»[٧٩]. قال ابن بطال: إنما ذلك إخبار عن القدر الذي كان يكفيه ﷺ لا أنه حد لا يجزئ دونه، وإنما قصد به التنبيه على فضيلة الاقتصاد وترك السرف. والمستحب لمن يقدر على الإسباغ بالقليل أن يقلل ولا يزيد على ذلك؛لأن السرف ممنوع في الشريعة"[٨٠].

وفعل النبي ﷺ وهو الأكمل خلقة وأتمها، يرد على من يقول أن هذا المقدار قليل لا يكفيه أخرج البخاري بسنده عن أبي جعفر، أنه كان عند جابر بن عبد الله هو وأبوه وعنده قوم فسألوه عن الغسل، فقال: «يكفيك صاع»، فقال رجل[٨١]: ما يكفيني، فقال جابر: «كان يكفي من هو أوفى منك شعرا، وخير منك»[٨٢].

قال العيني: فيه بيان ما كان السلف عليه من الاحتجاج بفعل النبي والانقياد إلى ذلك، وفيه جواز الرد على من يماري بغير علم إذ القصد من ذلك إيضاح الحق والإرشاد إلى من لا يعلم، وفيه كراهية الإسراف في استعمال الماء وفيه استحباب استعمال قدر الصاع في الاغتسال"[٨٣].

ويفهم من ذلك الفعل النبوي الكريم الإرشاد إلى الاقتصاد، ترشيد استخدام الموارد المائية إلى حد الكفاية، ومنع الإسراف واستنزاف الموارد المائية لأي سبب كان.

---

[٧٨] أخرجه ابن ماجه في **سننه**، ج٤، ص٦٠٠، رقم٣٦٠٥، وقال محققه: إسناده حسن؛ وأحمد في **المسند**، ج١١، ص٢٩٤، رقم٦٦٩٥، وقال محققه: إسناده حسن؛ والحاكم في **المستدرك**، ج٤، ص١٥٠، رقم٧١٨٨، بزيادة وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه ووافقه الذهبي.

[٧٩] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج١، ص٥١، رقم٢٠١.

[٨٠] ابن بطال، **شرح صحيح البخاري**، ج١، ص٣٠٣.

[٨١] أبو جعفر هو محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب المعروف بالباقر، أبوه هو زين العابدين، المراد بالرجل: الحسن بن محمد بن علي بن أبي طالب الذي يعرف أبوه بابن الحنفية ﷺ. ينظر: العيني، **عمدة القاري**، ج٥، ص٢١٠.

[٨٢] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج١، ص٦٠، رقم٢٥٢.

[٨٣] العيني، **عمدة القاري**، ج٥، ص٢١١.

ثالثاً: ترشيد استخدام موارد البيئة الحيوانية حفاظا عليها من الاستنزاف: من دقيق ما جاء في السنة النبوية للمحافظة على الموارد الحيوانية، وترشيد استخدامها قول رَسُولُ اللهِ ﷺ لمضيفه من الأنصار الذي أراد إكرامه فأخذ المدية لذبح شاة «إِيَّاكَ، الْحَلُوبَ»[٨٤].

قال المناوي: "أي احذر ذبح شاة ذات لبن فعولة بمعنى مفعولة يقال: ناقة حلوب أي هي مما يحلب"[٨٥].

وبهذا يربي رسول الله ﷺ الأمة على قيمة المحافظة على الموارد البيئية التي أنعم الله ﷻ بها علينا مع النظر إلى مصلحة المجتمع مع المصلحة الخاصة، شاة غير حلوب تغني عن الحلوب التي ينتفع بها صاحبها والمجتمع، ورعاية هذه القيمة له مردود عظيم على الأمة كلها في الحفاظ على مواردها البيئية من الاستنزاف غير الضروري، بل إنه ﷺ يذهب إلى أكثر من هذا فيجيز لأصحابه الانتفاع بجلد الميتة، ويرشدهم إلى استثمارها بعد الدبغ والتطهير، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: وَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ شَاةً مَيِّتَةً، أُعْطِيَتْهَا مَوْلاَةٌ لِمَيْمُونَةَ مِنَ الصَّدَقَةِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلَّا انْتَفَعْتُمْ بِجِلْدِهَا؟» قَالُوا: إِنَّهَا مَيْتَةٌ: قالَ: «إِنَّمَا حَرُمَ أَكْلُهَا»[٨٦].

المطلب الثالث: التشجيع على تنمية الموارد البيئية، حمايتها من الفقدان والهلاك

جاءت السنة النبوية بالإرشاد إلى تنمية البيئة ومواردها، وإصلاحها، عمارتها، وحمايتها، ومنع إهلاكها، أو إفسادها في نصوص كثيرة منها ما يذكر فيما يأتي:

أولاً: تنمية البيئة النباتية ومواردها والتشجيع على الغرس والزراعة: حثت السنة النبوية على المحافظة على البيئة النباتية ومواردها بالترغيب في الغرس، والزرع، وتنمية الأرض، وجعل ثواب ذلك الأجر الجزيل، الثواب الدائم فعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، وَيَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ، أَوْ إِنْسَانٌ، أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ»[٨٧]. قال النووي: "في هذا الحديث فضيلة الغرس، فضيلة الزرع، وأن أجر فاعلي ذلك مستمر مادام الغراس والزرع، وما تولد منه إلى يوم القيامة"[٨٨].

وفي ذلك ضابط لتوازن النظام البيئي، وجعله أكثر استقراراً بالزراعة، وفيه إرشاد إلى صيانة الجزء من البيئة، وهي ما يخرج من الأرض من الحبوب، والخضروات، والفواكه من الإتلاف أو الإهمال.

وحثت السنة النبوية على المساهمة في المحافظة على البيئة و مواردها إلى آخر لحظات هذه الدنيا.

---

[٨٤] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج٣، ص١٦٠٩، رقم٢٠٣٨.

[٨٥] المناوي، **فيض القدير**، ج٣، ص١١٩.

[٨٦] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٢، ص١٢٢، رقم١٤٩٢.

[٨٧] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج٣، ص١١٨٩، رقم١٥٥٣.

[٨٨] النووي، **المنهاج**، ج١٠، ص٢١٣.

روى أحمد وغيره عن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ»[٨٩]. قال المناوي: "والحاصل أنه مبالغة في الحث على غرس الأشجار، وحفر الأنهار لتبقى هذه الدار عامرة إلى آخر أمدها المحدود المعدود المعلوم عند خالقها"[٩٠].

ثانياً: عمارة الأرض الموات وإحياءها: عملت السنة المشرفة على التشجيع على تنمية الأرض والبيئة، والاستفادة من مواردها، وخيراتها بعمارتها، واستصلاحها خاصة البور منها التي لا حياة فيها لما في ذلك من زيادة الرقعة الزراعية، ويترتب عليه زيادة الموارد البيئية المختلفة النباتية والحيوانية وغيرها، جعلت السنة جزاء من فعل ذلك أن تصبح ملك له، قد عرف ذلك في الفقه الإسلامي بـ"إحياء الموات" أو "عمارة الموات". قال الإمام البخاري في صحيحه، بابُ مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَوَاتًا وَرَأَى ذَلِكَ عَلِيٌّ فِي أَرْضِ الخَرَابِ بِالكُوفَةِ مَوَاتٌ وَقَالَ عُمَرُ: «مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيِّتَةً فَهِيَ لَهُ» ... عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَعْمَرَ أَرْضًا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ فَهُوَ أَحَقُّ»، قَالَ عُرْوَةُ: «قَضَى بِهِ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي خِلاَفَتِهِ»[٩١].

وروى الترمذي بسنده عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيِّتَةً فَهِيَ لَهُ»[٩٢].

قال ابن حجر: "قوله باب من أحيا أرضا مواتا، بفتح الميم والواو الخفيفة، قال القزاز: الموات الأرض التي لم تعمر شبهت العمارة بالحياة، وتعطيلها بفقد الحياة، وإحياء الموات أن يعمد الشخص لأرض لا يعلم تقدم ملك عليها لأحد فيحييها بالسقي أو الزرع أو الغرس أو البناء، فتصير بذلك ملكه سواء كانت فيما قرب من العمران أم بعد سواء أذن له الإمام في ذلك أم لم يأذن، هذا قول الجمهور، عن أبي حنيفة لا بد من إذن الإمام مطلقاً، عن مالك فيما قرب، ضابط القرب ما بأهل العمران إليه حاجة من رعي ونحوه"[٩٣].

وأخرج مالك فقال: أَخْبَرَنَا هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ، وَلَيْسَ لِعِرْقٍ ظَالِمٍ حَقٌّ» و عَنِ ابْنِ شِهَابٍ، عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ»[٩٤].

---

[٨٩] أخرجه أحمد في **المسند**، ج٢٠، ص٢٩٦، رقم١٢٩٨١؛ والمقدسي في **المختارة**، ج٧، ص٢٦٢، رقم٢٧١٢، وقال محققه: إسناده صحيح.

[٩٠] المناوي، **فيض القدير**،ج٣، ص٣٠.

[٩١] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٣، ص١٠٦، رقم٢٣٣٥.

[٩٢] أخرجه الترمذي في **سننه**، ج٣، ص٥٧، رقم١٣٧٩، وقال: هذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

[٩٣] ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري**، ج٥، ص١٨-١٩، والزرقاني، **شرح موطأ مالك**، ج٤، ص٦٤.

[٩٤] أخرجه مالك في **الموطأ**، ج١، ص٢٩٥، رقم٨٣٣ و٨٣٤.

ثالثاً: حماية البيئة النباتية بالتحذير الشديد من إتلاف الأشجار عبثاً، أو قطع الأشجار التي يستظل بها خاصة في البيئات الصحراوية، والغابات: عن عبدِ الله بنِ حُبْشِيٍّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قَطَعَ سِدْرَةَ صَوَّب اللهُ رأسَهُ في النارِ»[٩٥].

وسئل أبو داود، عن معنى هذا الحديثِ، فقال: هذا الحديثُ مختصرٌ، يعني: «مَن قَطَع سدرةً في فلاةٍ يَستظِل بها ابنُ السبيلِ والبهائمُ، عَبَثاً وظلماً بغير حَق يكونُ له فيها، صوَّبَ اللهُ رأسَه في النار»[٩٦].

قال القاري: "الْحُكْمُ غَيْرُ مُخْتَصٍّ بِهَا بَلْ عَامٌّ فِي كُلِّ شَجَرٍ يَسْتَظِلُّ بِهِ النَّاسُ وَالْبَهَائِمُ بِالْجُلُوسِ تَحْتَه"[٩٧] ويستفاد منه الإرشاد إلى الحفاظ على الأشجار، ومنها أشجار الغابات والصحراء، فالشجرة التي يستظل بها الناس، والبهائم وغيرها من المرافق العامة التي يجب المحافظة عليها، ويدخل ضمن ذلك شجر الغابات الذي بقطعه الجائر تنقرض كثير من البيئات الحيوانية، والطيور البرية، ويحدث عدم التوازن البيئي الذي ينتج عنه أضرار كثيرة للحياة على الأرض كالجفاف والتصحر ؛فلذلك كان التحذير الشديد من قطعها إلا بقدر كما إذا كانت الفائدة العامة أكبر، و بحيث يزرع غيرها مكانها مما يقوم بفائدتها نفسها.

رابعاً: الحث على رعاية البيئة الحيوانية والترهيب من الإضرار بها أو إهلاكها دون فائدة:

جاءت السنة النبوية بالإرشاد إلى ضرورة رعاية البيئة الحيوانية، الرفق بها، واتخاذ كافة التدابير لحمايتها من الهلاك والفقدان، ومنع الإضرار بها، ورغبت في ذلك بالثواب الجزيل، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «بَيْنَا رَجُلٌ بِطَرِيقٍ، اشْتَدَّ عَلَيْهِ العَطَشُ، فَوَجَدَ بِئْرًا، فَنَزَلَ فِيهَا، فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ، فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ، يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فَقَالَ الرَّجُلُ: لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الكَلْبَ مِنَ العَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي، فَنَزَلَ البِئْرَ فَمَلأَ خُفَّهُ مَاءً، فَسَقَى الكَلْبَ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَإِنَّ لَنَا فِي البَهَائِمِ لَأَجْرًا؟ فَقَالَ: «فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ»[٩٨].

قوله «يلهث» أي يخرج لسانه من العطش. قوله «الثرى» بفتح الثاء المثلثة التراب. قوله «فشكر الله له» أي جزاه الله فغفر له. قوله: «في كل ذات كبد» أي في إرواء كل حيوان أجر والرطوبة كناية عن الحياة[٩٩].

قال ابن بطال: "في هذه الأحاديث الحض على استعمال الرحمة للخلق كلهم كافرهم، ومؤمنهم، ولجميع البهائم والرفق بها، وأن ذلك مما يغفر الله به الذنوب، ويكفر به الخطايا، فينبغي لكل مؤمن عاقل

---

[٩٥] أخرجه أبو داود في **سننه**، ج٧، ص٥٢٣، رقم٥٢٣٩، وقال محققه: حسن لغيره. وصححه الألباني في **صحيح الجامع الصغير**، ج٢، ص١١٠٤، رقم٦٤٧٦.

[٩٦] أخرجه أبو داود في **سننه**، ج٧، ص٥٢٣.

[٩٧] القاري، **مرقاة المفاتيح**، ج٥، ص١٩٨٤.

[٩٨] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٣، ص١٣٢، رقم٢٤٦٦.

[٩٩] العيني، **عمدة القاري**، ج٣٢، ص١٩١.

أن يرغب في الأخذ بحظه من الرحمة، ويستعملها في أبناء جنسه، فى كل حيوان، فلم يخلقه الله عبثًا، وكل أحد مسئول عما استرعيه وملكه من إنسان، أو بهيمة لا تقدر على النطق، وتبيين ما بها من الضر، وكذلك ينبغي أن يرحم كل بهيمة، وإن كانت في غير ملكه، ألا ترى أن الذي سقى الكلب الذي وجده بالفلاة لم يكن له ملكًا فغفر الله له، بتكلفة النزول في البئر، وإخراجه الماء في خفه، وسقيه إياه، وكذلك كل ما في معنى السقي من الإطعام، ألا ترى قوله عليه السلام: «ما من مسلم غرس غرسًا فأكل منه إنسان أو دابة إلا كان له صدقة»[١٠٠]. مما يدخل في معنى سقى البهائم، وإطعامها التخفيف عنها في أحمالها وتكليفها ما تطيق حمله، فذلك من رحمتها والإحسان إليها، ومن ذلك ترك التعدي في ضربها، وأذاها وتسخيرها في الليل، وفى غير أوقات السخرة"[١٠١].

وفي المقابل لهذا الترغيب الترهيب من الإضرار بالحيوان، ومنع قتله دون منفعة، أو الاستهانة بحياته، أو التمثيل به، وأنه مسئول عن ذلك، وقد يكون ذلك سبباً لدخول جهنم والعياذ بالله حتى أنه ليسأل عن العبث والإضرار بأي حيوان دون فائدة حتى يسأل عن قتل الحيوان الصغير دون فائدة عن عَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَخْبَرَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا مِنْ إِنْسَانٍ يَقْتُلُ عُصْفُورًا فَمَا فَوْقَهَا بِغَيْرِ حَقِّهَا إِلَّا سَأَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا حَقُّهَا؟ قَالَ: «حَقُّهَا أَنْ يَذْبَحَهَا فَيَأْكُلَهَا وَلَا يَقْطَعَ رَأْسَهَا فَيَرْمِيَ بِهِ»[١٠٢]. عن عمرو بن الشريد قال سمعت الشريد يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ «مَنْ قَتَلَ عُصْفُوراً عَبَثاً، عجَّ إِلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَقُولُ: يَا ربِّ إن فُلاَناً قَتَلَنِي عَبَثاً، وَلَمْ يَقْتُلْنِي مَنْفَعَة»[١٠٣].

"والحديثان يدلان دلالة قوية على احترام كل ذي روح من الطير والحيوان، منع قتله لغير حاجة ولا منفعة معتبرة، كما يرشدان إلى المحافظة على موارد الثروة، وعدم تبديدها باللهو والعبث، أي لغير منفعة اقتصادية.. بالإضافة إلى ما يدل عليه الحديثان من المحافظة على البيئة بكل ما فيها من الكائنات الحية، التي أصبح التقدم التكنولوجي خطرا عليها"[١٠٤].

وعن سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ، يَقُولُ: مَرَرْتُ مَعَ ابْنِ عُمَرَ فِي طَرِيقٍ مِنْ طُرُقِ الْمَدِينَةِ فَإِذَا فِتْيَةٌ قَدْ نَصَبُوا دَجَاجَةً يَرْمُونَهَا قَالَ: فَغَضِبَ وَقَالَ: «مَنْ فَعَلَ هَذَا؟» فَتَفَرَّقُوا فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: "لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ

---

[١٠٠] سبق تخريجه.

[١٠١] ابن بطال، **شرح صحيح البخاري**، ج٩، ص٢١٩-٢٢٠.

[١٠٢] أخرجه الحاكم في **المستدرك**، ج٤، ص٢٦٤، رقم٧٥٧٤، وقال: ذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ ووافقه الذهبي؛ وابن حنبل في **المسند**، ج١١، ص١١٠، رقم٦٥٥١.

[١٠٣] الهيثمي، **زوائد ابن حبان**، ج٣، ص٣٩٩، رقم١٠٧٧، وقال محققه: إسناده جيد؛ وابن حبان في **صحيحه**، ج١٣، ص٢١٤، رقم٥٨٩٤؛ وأحمد في **المسند**، ج٣٣، ص٢٢٠، رقم١٩٤٧٠؛ والنسائي في **السنن**، ج٧، ص١٧٠، رقم٤٤٤٦.

[١٠٤] القرضاوي، **دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي**، ص١٦٤.

يُمَثِّلُ بِالْحَيَوَانِ"[١٠٥]. وعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «دَخَلَتْ امْرَأَةٌ النَّارَ فِي هِرَّةٍ رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ»[١٠٦].

قال النووي: "قوله ﷺ: «تأكل من خشاش الأرض» بفتح الخاء المعجمة، وهي هوامها وحشراتها. وقيل: غار الطير... الصواب المصرح به في الحديث أنها عذبت بسبب الهرة، هو كبيرة ؛لأنها ربطتها وأصرت على ذلك حتى ماتت، الإصرار على الصغيرة يجعلها كبيرة كما هو مقرر في كتب الفقه وغيرها"[١٠٧].

المطلب الرابع: تدريب المسلم على الحفاظ على البيئة ومواردها بتشريع المحميات الطبيعية الشرعية

شرع الله عز وجل الحرم للبيئة الحيوانية والنباتية في مكة المكرمة، والمدينة المنورة فحرم صيد الحيوانات وقتلها، كذلك قطع النباتات، وفي ذلك تدريب للمسلم على احترام البيئة الحيوانية والنباتية والمحافظة عليها، وتوفير الأمان لها، وفرض جزاء على المتعدين عليها. فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ، فَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلاَ تَحِلُّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَإِنَّمَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، لاَ يُخْتَلَى خَلاَهَا[١٠٨]، وَلاَ يُعْضَدُ شَجَرُهَا[١٠٩]، وَلاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، وَلاَ تُلْتَقَطُ لُقَطَتُهَا، إِلَّا لِمُعَرِّفٍ». وَقَالَ العَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِلَّا الإِذْخِرَ، لِصَاغَتِنَا وَقُبُورِنَا؟ فَقَالَ: «إِلَّا الإِذْخِرَ».

وَعَنْ خَالِدٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ، قَالَ: هَلْ تَدْرِي مَا لاَ يُنَفَّرُ صَيْدُهَا؟ هُوَ أَنْ يُنَحِّيَهُ مِنَ الظِّلِّ يَنْزِلُ مَكَانَهُ"[١١٠]. وقد استثني الإذخر لحاجة الناس إليه كما استثني في حديث آخر بعض الحيوانات التي تضر بالناس كما جاء في حديث عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «خَمْسٌ فَوَاسِقُ يُقْتَلْنَ فِي الْحَرَمِ الْفَأْرَةُ وَالْعَقْرَبُ وَالْحُدَيَّا وَالْغُرَابُ وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ»[١١١].

عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ، وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ مَا بَيْنَ لَابَتَيْهَا، لَا يُقْطَعُ عِضَاهُهَا، وَلَا يُصَادُ صَيْدُهَا»[١١٢].

قال النووي: "قال أهل اللغة وغريب الحديث: اللابتان الحرتان واحدتهما لابة، وهي: الأرض الملبسة حجارة سوداء، وللمدينة لابتان شرقية وغربية وهي بينهما. قوله ﷺ: «لا يقطع عضاهها ولا يصاد صيدها» صريح في الدلالة لمذهب الجمهور في تحريم صيد المدينة وشجرها، وسبق خلاف أبي

---

[١٠٥] أخرجه الحاكم في **المستدرك**، ج٤، ص٢٦٤، رقم٧٥٧٥، وقال: "هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ"، ووافقه الذهبي.

[١٠٦] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٤، ص١٣٠، رقم٣٣١٨؛ ومسلم في **صحيحه**، ج٤، ص٢٠٢٢، رقم٢٢٤٢.

[١٠٧] النووي، **المنهاج**، ج٦، ص٢٠٧.

[١٠٨] بِفَتْح الْخَاء مَقْصُور هُوَ العشب الرطب..وَمعنى ذَلِك كُله لَا يقطع وَلَا يحصد. ينظر: عياض، **مشارق الأنوار**، ج١، ص٢٣٩.

[١٠٩] أَي لَا تقطع أَغْصَانهَا وَأَصله من قطع الْعَضُد. المصدر السابق، ج٢، ص٩٦.

[١١٠] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٣، ص١٤، رقم١٨٣٣.

[١١١] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٤، ص١٢٩، ٣٣١٤.

[١١٢] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج٢، ص٩٩٢، رقم١٣٦٢.

حنيفة. والعضاه: القصر وكسر العين وتخفيف الضاد المعجمة كل شجر فيه شوك، واحدتها عضاهة، وعضيهة والله أعلم"[١١٣].

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبعد! فقد كشف لنا البحث أن السنة النبوية تزخر بنظرية واضحة في التعامل مع البيئة ومواردها مع وضعها للضوابط والإرشادات للحفاظ على البيئة ومواردها، يمكن من خلالها الوقاية من بعض المشكلات البيئية الحديثة، ومعالجة المشاكل القائمة مما يؤكد أهمية تفعيل تراثنا النبوي في حياتنا اليومية، وقضايانا المعاصرة.

وهذه أهم النتائج والتوصيات التي توصلت إليها من خلال البحث:

١- إن السنة النبوية تقدم تصوراً شاملاً ونظرية كلية لعلاقة الإنسان ببيئته تقوم على التسخير والاستخلاف ومن ثم المسئولية عن عمارة البيئة، وحسن إدارة مواردها، الاعتدال في استغلالها، منع تلويثها، و استنزافها.

٢- حفلت السنة النبوية بالضوابط والإرشادات الوقائية للمحافظة على سلامة البيئة، صيانة مواردها المختلفة المائية، البشرية، والحيوانية، والنباتية، والعامة من التلوث والإفساد كما في النهي عن البول في الماء الراكد، كل ما يلوثه، واتخاذ التدابير للوقاية من الأمراض، انتقال الجراثيم كتشريع الحجر الصحي عند حصول الوباء، ومنع اختلاط الصحيح بالمريض، والترغيب في المحافظة على نظافة الطرق والأماكن العامة، التحذير من تلويثها أو الاعتداء عليها، مع ربط ذلك بالإيمان والثواب والعقاب.

٣- اعتنت السنة النبوية بحل مشكلة التوازن البيئي بوضع الضوابط والإرشادات التي تحقق التوازن البيئيوتحافظ على الموارد من الاستنزاف بترشيد استخدامها، الأمر بالوسطية والاعتدال في استغلالها، النهي عن الإسراف، والتشجيع على تنمية الموارد البيئية، وحمايتها من الفقدان والإتلاف، ما في التشجيع على الغرس والزرع، عمارة الأرض الموات، التحذير من قطع الأشجار خاصة في البيئات الصحراوية، الغابات، والترغيب في رعاية البيئة الحيوانية، واتخاذ التدابير المختلفة لحمايتها، تشريع المحميات الطبيعية الشرعية.

٤- إن المحافظة على البيئة ومواردها، عدم تلويثها، و استنزافها لا يمكن أن يتحقق إلا عبر نظرية متكاملة من التربية الإيمانية، والسلوكية، الأخلاقية، ما يقوي الوازع الديني في النفوس فلا تحتاج إلى مراقبة، وقوانين.

من أهم توصيات البحث:

[١١٣] النووي، **المنهاج**، ج٩، ص١٣٥-١٣٦.

١- أهمية تفعيل معارف الوحي، والتراث النبوي في حل المشكلات الحياتية، القضايا المعاصرة والتأصيل لها عبر البحوث الأكاديمية، إنشاء مراكز متخصصة تجمع بين العلوم العصرية المؤصلة، تحقيق ودراسة السنة النبوية للقدرة على الربط بينهم، ومعالجة المستجدات في حياة الأمة، وتحقيق النهضة الإسلامية المنشودة.

٢- ربط المناهج والمقررات الدراسية بالعلوم العصرية المؤصلة بعلوم الوحي لزرع اليقين والثقة بأن الإسلام دين العلم، وصلاحيته لكل زمان ومكان.

المصادر والمراجع:

١. ابن بطال، علي بن خلف بن عبد الملك بن بطال، **شرح صحيح البخاري**، تحقيق أبو تميم ياسر بن إبراهيم، (الرياض: مكتبة الرشد، ط٢، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣).

٢. ابن حبان، محمد بن حبان البستي، **الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان**، ترتيب الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق وتخريج شعيب الأرنؤوط، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٨، ١٠١٤هـ/١٩٨٨).

٣. ابن حنبل، أحمد بن محمد بن حنبل، **المسند**، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون، (مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١).

٤. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر، **تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد (التحرير والتنوير)**، (تونس: الدار التونسية، د.ط، ١٩٨٤).

٥. ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، **سنن ابن ماجه**، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون، (دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩).

٦. ابن منظور، محمد بن مكرم بن على، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، ط٣، ١٤١٤هـ).

٧. أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق السِّجِسْتاني، **سنن أبي داود**، تحقيق شعَيب الأرنؤوط ومحَمَّد كامِل قره بللي، (دار الرسالة العالمية، ط١، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩).

٨. آل سعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، **بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار**، تحقيق عبد الكريم بن رسمي، (مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢).

٩. الألباني، محمد ناصر الدين بن الحاج نوح، **صحيح الجامع الصغير وزياداته**، (المكتب الإسلامي، د.ت.).

١٠. البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، **الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه**، تحقيق محمد زهير بن ناصر، (دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ).

١١. الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة الترمذي، **الجامع الكبير (سنن الترمذي)**، تحقيق بشار عواد معروف، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، د.ط، ١٩٩٨).

١٢. الحاكم، محمد بن عبد الله بن محمد النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠).

١٣. الحموي، ياقوت بن عبد الله الحموي، **معجم البلدان**، (بيروت: دار صادر، ط٢، ١٩٩٥).

١٤. الزرقاني، محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني، **شرح الزرقاني على موطأ مالك**، تحقيق طه عبد الرءوف سعد، (القاهرة: كتبة الثقافة الدينية، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣).

١٥. السكري، على على، **البيئة من منظور إسلامي**، (الإسكندرية: منشأة معارف، د.ط، د.ت.).

١٦. الشحات، ابراهيم محمد منصور، **البيئة في الإسلام**، (دار النهضة العربية، د،ت.).

١٧. عبد الحليم، ابتسام، **الطب الوقائي**، (مقال منشور بمجلة منبر الإسلام، سنة ١٣٩٦هـ).

١٨. عبد المقصود ، زين الدين، **البيئة والإنسان علاقات ومشكلات**، (الإسكندرية: منشأة المعارف، ط١، ١٤٠١هـ/١٩٨١).

١٩. العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار المعرفة، د.ط، ١٣٧٩هـ).

٢٠. عطية، ضياء الدين محمد، **مواجهة الإسلام للتحديات المتصلة بالبيئة**، (رابطة الجامعات الإسلامية).

٢١. عياض، ابن موسى بن عياض اليحصبي، **مشارق الأنوار على صحاح الآثار**، (المكتبة العتيقة ودار التراث).

٢٢. العيني، محمود بن أحمد بن موسى، **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت.).

٢٣. القاري، الملا علي بن سلطان، **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، (بيروت: دار الفكر، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢).

٢٤. القرضاوي، يوسف، **دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي**، (مكتبة وهبة، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥).

٢٥. مالك، ابن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي، **الموطأ**، برواية محمد بن الحسن الشيباني، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، (المكتبة العلمية، ط٢، د.ت.).

٢٦. مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى/ أحمد الزيات/ حامد عبد القادر/ محمد النجار)، **المعجم الوسيط**، (دار الدعوة، د.ط، د.ت.).

٢٧. مرسي، محمد، **الإسلام والبيئة**، (الرياض: أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، د.ط، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩).

٢٨. مسلم، تبن الحجاج أبو الحسن القشيري، **المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت.).

٢٩. المقدسي، ضياء الدين محمد بن عبد الواحد، **الأحاديث المختارة**، دراسة وتحقيق ا.د. عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، (بيروت: دار خضر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٣، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠).

٣٠. المناوي، عبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين، **فيض القدير شرح الجامع الصغير**، (مصر: المكتبة التجارية الكبرى، ط١، ١٣٥٦هـ).

٣١. النسائي، أحمد بن شعيب النسائي، **سنن النسائي** بشرح السيوطي وحاشية السندي، ضبط وتصحيح وترقيم عبد الوارث محمد علي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥).

٣٢. النووي، أبو زكريا محيي الدين يحي بن شرف النووي، **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٣٩٢هـ).

٣٣. الهيثمي، علي بن أبي بكر، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨).

٣٤. الهيثمي، علي بن أبي بكر، **موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان**، تحقيق حسين سليم أسد الدّاراني وعبده علي الكوشك، (دمشق: دار الثقافة العربية، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠).

القيم البيئية الإسلامية

د. مزنة صالح إبراهيم الزميع*

ملخص البحث:

تحتل البيئة مكانة مهمة في إطار الأخلاقيات الإسلامية التطبيقية في حياتنا، وبالعودة إلى تعاليم الإسلام، نرى أن كم كبير من النصوص الشرعية من القرآن الكريم وسنة نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام تولي البيئة اهتمامًا واضحًا وتركز على أهمية احترام الطبيعة وجميع المخلوقات. وموضوع الاهتمام بالبيئة موضوع أصيل في التراث الإسلامي، فاحترام الطبيعة والحفاظ عليها يعد شكل من أشكال عبادة خالقها سبحانه وتعالى. ويهدف البحث إلى معرفة القيم البيئية ودلالاتها من منظور إسلامي، وتنمية الوعي البيئي لدى الإنسان المسلم، وعملية التأصيل الإسلامي للممارسات التربوية في مجال التربية البيئية. وعرض أهم القيم البيئية الإسلامية لتعمل على ترسيخ السلوك البيئي على هدي من الشريعة الإسلامية. وإبراز قيم الإسلام التي توجب حماية البيئة وصيانتها من التلوث والاستخدام السيئ لموارده. واستخلاص القيم الإسلامية التي تنظم علاقة الإنسان بالبيئة ليعكسها في سلوكه تجاها. وتوضيح حتمية المحافظة على مصادر البيئة، وضرورة حسن استغلالها لصالح الإنسان، حفاظاً على حياته الكريمة، ورفع مستوى معيشته.

المقدمة:

مفهوم البيئة:

البيئة لغة اسم مشتق من الفعل الماضي "باء" و"بوأ" ومضارعه "يبوء"، وأشهرُ معانيه التي تهمنا يرجع إلى الفعل "باء" الذي مضارعه "يتبوّأ " بمعنى ينزل ويقيم، وأبأتُ المكان أي أقمتُ فيه.

تطلق البيئة اصطلاحاً على المكان الذي يقيم فيه الإنسان وغيرُه[١١٤]، جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً﴾ [الأعراف:٧٤]، وقال تعالى: ﴿وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئا﴾ [الحج:٢٦].

فمفهوم البيئة في الإسلام هو مفهوم شامل، فهي تعني الأرض والسماء والجبال وما فيها من مخلوقات وعلاقات ومؤثرات وظواهر مختلفة بما فيها الإنسان وما يحيط به من دوافع وعواطف وغرائز.

* قسم الدراسات الإسلامية، كلية الآداب، جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن بالرياض، المملكة العربية السعودية.

[١١٤] ابن منظور، **لسان العرب**، ج١، ص٣٦؛ ومجموعة من المؤلفين، **المعجم الوسيط**، ج١، ص٧٣.

لذا تنقسم مكونات البيئة إلى قسمين: مكونات طبيعية كالماء والهواء والأرض والجبال والوديان ونحوها، ومكونات حية تشمل الإنسان والحيوان والنبات.

فالارتباط قوي بين مختلف مكوناتها، يقول الله تعالى: ﴿إنّ الله فالِقُ الحَبِّ والنَّوَى يُخرِجُ الحَيَّ مِنَ المَيِّتِ ومُخرِجُ المَيِّتِ مِنَ الحَيِّ ذلِكُمُ اللهُ فأنّى تُؤفِكُونَ * فالِقُ الإصباحِ وجَعَلَ اللَّيلَ سَكَناً والشَّمسَ والقَمَرَ حُسبانا ذلكَ تَقدِيرُ العَزِيزِ العَلِيم * وهوَ الذي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومُ لِتَهتَدوا بِها في ظُلُماتِ البَرِّ والبَحرِ قَد فَصَّلنَا الآياتِ لِقَومٍ يَعلَمُون * وهوَ الذي أَنشَأَكُم مِن نَّفسٍ واحِدَةٍ فَمُستَقَرٌ ومُستَودَعٌ قَد فَصَّلنا الآياتِ لِقَومٍ يَفقَهُونَ * وهوَ الذي أنزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فأخرَجنا بِهِ نَبَاتِ كُلِّ شيءٍ فَأخرَجنا مِنهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنهُ حَبّاً مُّتراكِباً ومِنَ النَّخلِ مِن طَلعِها قِنوَانٌ دانِيَةٌ وجَنّاتٍ مِن أعنَابٍ والزَّيتُونَ والرُّمَّانَ مُشتَبِهاً وغَيرَ مُتَشابِهٍ انظُرُوا إلى ثَمَرِهِ إذا أثمَرَ ويَنْعِهِ إنّ في ذلِكُم لآياتٍ لِّقَومٍ يُؤمِنُونَ﴾ [الأنعام:٩٥-٩٩].

فشرع الله في كتابه وسنة نبيه ضوابط شرعية لحماية البيئة والمحافظة عليها، قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦] ويقول أيضًا: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:٨٥].

ولما كانت عناصر البيئة متنوعة ومتعددة بحيث يصعب بحث واحد بهذا الحجم أن يحيط بها، فقد رأيت الكتابة عن منهج الإسلام في حماية البيئة والمحافظة عليها بصورة مختصرة.

المبحث الأول:قيم التكليف والاعتقاد

إنّ الإسلام يقر بوحدانية الله عزّ وجل، والتوحيد هو مصدر الفكر والفعل الإنساني، وبذلك يصبح التوحيد المبدأ الهادي في الدين والأخلاق والسلوك الاجتماعي، كما يعد مفهوم الصالح العام في الإسلام مدلولاً هاماً لمفهوم التوحيد، والإيمان بالله هو إيمان بالرقابة الدائمة على الإنسان وعلى تصرفاته، وهذه الرقابة تحفز الالتزام والمسؤولية.

لذا جعل الإسلام حماية البيئة ونظافتها من الإيمان، قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[١١٥]، وقال رسول الله ﷺ: «بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخره، فشكر الله له فغفر له»[١١٦].

فاستخلف الله الإنسان في الأرض، ليستمتع بكل ما فيها وَفْق شرع الله، ومن ثَمَّ يجب على الإنسان أن يحفظ أمانة الاستخلاف، فيراعي التوسط والاعتدال، ولا يفسد في الأرض، ويحرص الإسلام على مبدأ مهم، ألا وهو عمارة الأرض والسعي فيها بجد ونشاط[١١٧]، ويأمر بالتعاون على البر والتقوى،

[١١٥] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج١، ص٦٣، رقم٣٥.

[١١٦] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٣، ص١٣٥، رقم٢٤٧٢.

[١١٧] حمامة، **قضايا البيئة من منظور إسلامي**، ص١.

وعدم التعاون على الإثم والعدوان، ويحرص الإسلام أشد الحرص على المحافظة على ثروات الأرض المختلفة قال الله في كتابه العزيز: ﴿وهوَ الذي جَعَلَكُم خَلائِفَ الأرضِ وَرَفَعَ بَعضَكُم فَوقَ بَعضٍ دَرَجاتٍ لِيَبلُوَكُم في ما آتاكُم إنّ رَبَّكَ سَرِيعُ العِقابِ وإنّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيم﴾ [الأنعام:١٦٥]. والغاية من الاستخلاف هو الاختبار، قال رسول الله ﷺ: إنّ الدنيا حلوة خضرة، وإنّ الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الله[١١٨].

فالإنسان وصي ومسؤول عن رعاية مخلوقات الله، وإذا كان يستطيع استخدام هذه الأمانة لمنفعته، إلا أنّه لا يملك السيادة المطلقة، وسيدفع الإنسان الثمن في الدنيا والآخرة في حال أساء استخدام الأمانة.

قال الله تعالى: ﴿وابتَغِ فِيما آتاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيا وأحسِن كَما أحسَنَ اللهُ إليكَ وَلا تَبغِ الفَسادَ في الأرضِ إنّ اللهَ لا يُحِبُّ المُفسِدِينَ﴾ [القصص:٧٧] وإنّ الإيمان بالآخرة أحد أركان الإيمان، وهذا له اثر في علاقة الإنسان بالبيئة، وتفكيره في الوجود ككل، والإسلام يدعو إلى التمتُّع بها والانتفاع بما فيها، ولكن دون إفسادها، وإنّ الالتزام بتحقيق استخلافها شرط للنجاة من العذاب في الآخرة[١١٩].

إنّ مبدأ العقاب والثواب موجود في الإسلام، وهذا دافع قوي للإنسان لينطلق في عمله من مبدأ الحلال والحرام، والعدل والإصلاح، والحياة الأخرى لا تعد هي المحدد والموجه لطبيعة الحياة على الأرض فحسب، بل إنّ الحياة الأخرى تعطي معنى للحياة الدنيا، قال الله تعالى: ﴿أفَحَسِبتُم أنّما خَلَقناكُم عَبَثاً وأنّكُم إلَينا لا تُرجَعُون﴾ [المؤمنون:١١٥].

المبحث الثاني: قيم المحافظة

أمره الله بالحفاظ على البيئة بالمحافظة على العناصر الطبيعية الأساسية وحمايتها، لأنه خلق مواردها الطبيعة وثرواتها بقدر وتوازن، قال تعالى: ﴿إنا كل شيء خلقناه بقدر﴾ [القمر:٤٩]، وقال: ﴿وأنبتنا فيها من كل شيء موزون﴾ [الحجر:١٩].

وقد دعا الإسلام للمحافظة على الطاقة وترشيد استهلاكها، وأمر بالاحتياط والوقاية من كل أذى يلحق بالإنسان أو ما حوله، ويدل على ذلك قول جابر بن زيد: سمعت جابر بن عبد الله يقول: قال رسول الله ﷺ: «أَطْفِئُوا المِصَابِيحَ بِاللَّيْلِ إِذَا رَقَدْتُمْ، وَغَلِّقُوا الأَبْوَابَ، وَأَوْكُوا الأَسْقِيَةَ، وَخَمِّرُوا الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ»[١٢٠].

---

[١١٨] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج٤، ص٢٠٧٨، رقم٢٧٤٢.

[١١٩] وهبي، **الإسلام والبيئة**.

[١٢٠] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٨، ص٦٥، رقم٦٢٩٦.

وفي رواية: «غطوا الإناء وأوكؤوا السقاء، فإنّ في السنة ليلة ينزل فيها وباء، لا يمر بإناء ليس عليه غطاء أو سقاء، وليس عليه وكاء، إلا ونزل فيه من ذلك الوباء»[١٢١].

كما دعا الإسلام إلى المحافظة على الطعام وعدم إهداره والإسراف فيه:

فسبحان الله تعالى الذي جعل عدم الإسراف عبادة يُثاب المؤمن عليها عندما أمرنا بذلك، يقول تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:٣١]، ولو طبق الناس هذه الآية بعدم الإسراف بتناول الطعام لاجتنبوا الكثير من الأمراض البدنية للمسرف، والنفسية للمحتاج.

كما ذكر العلماء فوائد للاعتدال في الطعام وعدم الإسراف منها: صفاءُ القلبِ، وإيقاظُ القريحة، وإنفاذ البصيرة، والانكسارُ والذلُ وزوالُ البَطَرِ، أن لا ينسى بلاءَ الله وعذابه، ولا ينسى أهلَ البلاء، فإن الشبعانَ ينسى الجائعَ، والشبع دافعُ للنومِ، فإنَّ مَن شَبِع كثيرًا شرب كثيرًا، ومن كثر شربُه كثرَ نومه، وفي كثرةِ النومِ ضياعُ العمر وفوت السعي لعمارة الأرض والعمل للآخرة[١٢٢]،كما كشف الأطباء عن عدة أمراض تصيب الجسم جراء الإفراط في الطعام.

وتؤكد السنة النبوية على أهمية المحافظة على الطعام فعن جابر ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: «وإذا وقعت لقمة أحدكم فليأخذها فليمط ما كان بها من أذى، وليأكلها ولا يدعها للشيطان»[١٢٣]،وعن جابر ﷺ أيضاً، أنّ رسول الله ﷺ أمر بلعق الأصابع والصحفة، وقال: «إنّكم لا تدرون في أي طعام البركة»[١٢٤]، فهذه الأحاديث تدفع المسلم على الحرص على عدم البذخ والتبذير في الأطعمة.

وقد أخذ يسعى لتطبيق عدم السرف والعقوبة عليه غير المسلمين في عصرنا الحاضر، لأنهم أدركوا أهمية ذلك، وقد روى لنا أحد المبتعثين إلى ألمانيا،البلد الصناعي الذي ينتج أعلى العلامات التجارية الذي يتوقع أن مواطنيها يعيشون في رغد وحياة فاخرة، فأورد القصة،يقول: عندما قدمت إليها كان رتب لي زملائي دعوة في أحد المطاعم، في مدينة هامبرغ وكان هناك زوجين على طاولة بينهما طبقين وعلبتي مشروب فقط، وفيه عدد من السيدات كبيرات السن، فدخلنا وكنا جياع فطلبنا كمية من الطعام فأكلنا وغادرنا المكان وبقي حوالي ثلث الطعام في الأطباق، ولم نكد نصل إلى باب المطعم إلا وبصوت ينادينا وإذا بكبيرات السن يتحدثن عنا إلى مالك المطعم، وعندما تحدثوا معنا فهمنا أنهم يشعرون بالاستياء لإضاعة الكثير من الطعام، وقال لهم صديقي لقد دفعنا ثمن ما طلبنا، وهذا لا يعنيكن،فاتجهت إحداهن للهاتف وطلبت أحدهم،فوصل رجل بزي رسمي، قدم نفسه على أنه ضابط من مؤسسة التأمينات

---

[١٢١] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج٣، ص١٥٩٦، رقم٢٠١٤.

[١٢٢] الغزالي، **إحياء علوم الدين**، ج٣، ص٨٤.

[١٢٣] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج٣، ص١٦٠٧، رقم٢٠٣٤.

[١٢٤] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج٣، ص١٦٠٧، رقم٢٠٣٤.

الاجتماعية، وحرر لنا غرامة مالية،وقال الضابط بلهجة حازمة "اطلبوا كمية الطعام التي يمكنكم استهلاكها...المال لك لكن الموارد للمجتمع[١٢٥].

وبدأت الصحوة في بعض الدول العربية لحفظ النعمة، بأنشاء بنوك الطعام، كبنك الطعام المصري، وبنك الطعام الخيري السعودي،دورها حفظ الفائض من الأطعمة والقضاء على الحاجة للطعام، بتوزيعه على المستفيدين، ونشر ثقافة المحافظة على النعم إعلامياً وفي المدارس والجامعات، فنحن بحاجة إلى تغيير عاداتنا السيئة، بحيث يكون الاقتصاد بالطعام جزء من حضارتنا ورقينا.

الحفاظ على الهدوء ونقاوة الغلاف الجوي: حيث ربى الله سبحانه وتعالى المسلمين على تجنب التلوث الضوضائي،سابقاً بذلك التربية البيئية الحديثة، وحذرنا من الصوت المرتفع بلا حاجة، ورغبنا في خفض الصوت بعداً عن الإزعاج فكان من تربية لقمان لابنه في قوله تعالى: ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان:١٩].

وفي هذا تربية للأجيال وتنفير للمسلمين من ارتفاع الصوت، وربط ذلك بصوت الحمير ليصبح مثيراً شرطياً للبعد عن القدر المطلوب في الصوت، ولقد سبق القرآن في التنبيه لخطورة هذا التلوث من جهة وبناء الذوق العام في التعامل من جهة أخرى، فعلم الله سبحانه وتعالى المسلمين غض صوتهم عند رسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢]، وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:١١٠].

المحافظة على ما يتعلق بالمرافق العامة: نهى الرسول ﷺ أن يساء إلى كل ما ينتفع به الناس، قال: «اتقوا الملاعن الثلاثة» قيل: ما الملاعن يا رسول الله؟ قال: «أن يقعد أحدكم في ظل يُستظل فيه، أو في طريق، أو في نقع ماء»[١٢٦] أي يقضي حاجته، وقد نص على هذا صريحاً في رواية أبي داود، إذ قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الملاعن الثلاثة: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل»[١٢٧]، أي لا يعرض المرء نفسه لأن ينال الناس منه، فيلعنوه بسبب إيذائه لهم بإفساد ما يمكن أن ينتفعوا منه، كظل يستظلون فيه من شدة الحر، ووهج الشمس، أو سبيل يطرقونه في ذهابهم وإيابهم، أو مورد ماء ينتفعون به، فيفسدها عليهم من لا خلاق له، واللعن: البعد من الرحمة[١٢٨].

كذلك قوله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الطُّرُقَاتِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا لَنَا بُدٌّ مِنْ مَجَالِسِنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ» قَالُوا: وَمَا حَقُّهُ؟ قَالَ:

---

[١٢٥] **جريدة الشرق الأوسط**، السبت ١٧/رجب/ ١٤٣٢هـ.

[١٢٦] أخرجه أحمد في **مسنده**، ج٤، ص٤٤٩، رقم٢٧١٥، وحسنه الألباني.

[١٢٧] أخرجه ابن ماجه في **سننه**، ج١، ص١١٩، رقم٣٨٢.

[١٢٨] الخطيب، **حماية الإسلام للبيئ**.

«غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَذَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَالْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنْ الْمُنْكَرِ»[١٢٩]، فوُضِع الإسلام لذلك ضوابط وشروط حفاظاً على حقوق المارة بالطريق.

حث الإسلام على إماطة الأذى عن الطريق، قال ﷺ: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنْ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الْإِيمَانِ»[١٣٠]، ورغب في ذلك حماية للمارة حيث وعد كل من ساهم في نظافة المحيط بالرحمة والمغفرة والأجر العظيم، في حين وعد كل من خالف توجيهاته في هذا المجال بالطرد من رحمته، وقال: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ»[١٣١].

ما يتعلق بالحفاظ على الثروة المائية: مما شدد رسولنا الكريم ﷺ على التحذير منه دعوته للمحافظة على سلامة البيئة، ويتجلى ذلك في حديثه الداعي إلى المحافظة على نقاوة المياه وطهارتها، وعدم إلقاء القاذورات والمخلفات والبقايا فيها، باعتبار أن الماء أساس الحياة، وهذا ما يعرف بالطب الوقائي في الإسلام، مما جاءت أوامره ﷺ ناهية عن أن يُبال في الماء الراكد، ذكر ذلك ﷺ في قوله: «لا يبولن الرجل في الماء الدائم ثم يغتسل منه»[١٣٢] وقال: «إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثاً، فإنه لا يدري أين باتت يده»[١٣٣]، عن ابن عمر أن النبي ﷺ مر بسعد وهو يتوضأ فقال: «ما هذا السرف؟» فقال: أفي الوضوء سرف!! قال: «نعم، وإن كنت على نهر جار»[١٣٤].

وقال ﷺ: «لَا يَغْتَسِلْ أَحَدُكُمْ فِي الْمَاءِ الدَّائِمِ وَهُوَ جُنُبٌ» فَقَالَ: كَيْفَ يَفْعَلُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ؟ قَالَ: يَتَنَاوَلُهُ تَنَاوُلًا[١٣٥]، ونهيه ﷺ عن الشرب في فم السقا نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ اخْتِنَاثِ الْأَسْقِيَةِ[١٣٦]، لأن ذلك يُنْتِنه ويفسد الصحة، لذلك يقول الأطباء في العصر الحاضر: الأنفلونزا، والدفتريا، والتيفوئيد، والسيلان، والزهري، هذه الأمراض تنتقل عن طريق الشفتين واللعاب[١٣٧]. فقد أخرج مسلم من حديث أنس ﷺ: كان النبي ﷺ يتوضأ بالمد، ويغتسل بالصاع إلى خمسة أمداد[١٣٨]، وهو ﷺ أول من دعا الناس إلى عدم الإسراف في الماء وقدوتهم في ذلك.

---

[١٢٩] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٨، ص٥٠، رقم٦٢٢٧.

[١٣٠] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج١، ص٦٣، رقم٣٥.

[١٣١] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج٧، ص١٥٢١، رقم١٩١٤.

[١٣٢] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج١، ص٢٣٥، رقم٢٨٢.

[١٣٣] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج١، ص٢٣٣، رقم٢٧٨.

[١٣٤] أخرجه ماجه في **سننه**، ج١، ص١٤٧، رقم٤٢٥.

[١٣٥] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج١، ص٢٣٦، رقم٢٨٣.

[١٣٦] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج٣، ص١٦٠٠، رقم٢٠٢٣.

[١٣٧] النابلسي، **الحفاظ على البيئة في ضوء الإسلام، التوفير وترشيد الاستهلاك إيمان حضارة**.

[١٣٨] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج١، ص٢٥٨، رقم ٢٥٨.

وفي حال تلوث مياه البحار، فإنّ الأحياء البحرية والأسماك سوف تنقص أو تنفق قال تعالى: ﴿وهوَ الذي سَخَّرَ البَحرَ لِتَأكُلُوا مِنهُ لَحماً طَرِيّاً وتَستَخرِجُوا مِنهُ حِليَةً تَلبَسُونَهَا وتَرَى الفُلكَ مَوَاخِرَ فِيهِ ولِتَبتَغُوا مِن فَضلِهِ ولَعَلَّكُم تَشكُرُونَ﴾ [النحل:١٤]، وقال تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾ [الروم:٤١] الآية الأولى في بيان النعم التي أودعها سبحانه في البحر، والثانية التحذير من إفساد هذه النعم.

المحافظة على البيئة بما يتعلق بالثروة النباتية: نبهت الشريعة الغراء على فضل الله على عباده بوجود الثروة النباتية قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ* يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:١١-١٠].

فوجه ﷺ إلى عدم احتجاز الأراضي قال: «مَنْ كَانَتْ لَهُ أَرْضٌ فَلْيَزْرَعْهَا، أَوْ لِيَمْنَحْهَا أَخَاهُ»[١٣٩].

وحث ﷺ على التشجير بقوله: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ»[١٤٠]، وأمر باستصلاح الأراضي لقوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ أَعْمَرَ أَرْضًا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ فَهُوَ أَحَقُّ»[١٤١]، ومن بليغ ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام: «إِنْ قَامَتْ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ لَا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ»[١٤٢] فمثل هذه النصوص تحث على عمارة البيئة وإحيائها.

فهو ما تسعى وتدعو إليه الشعوب والدول اليوم لمكافحة التصحر الذي نهى عنه تعالى بقوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥] "إهلاكه الزرع" إحراقه، "والنسل" المراد بها كل من سلك سبيله في قتل كل ما قتل من الحيوان الذي لا يحل قتله بحال، والذي يحل قتله في بعض الأحوال إذا قتله بغير حق[١٤٣].

المحافظة على الثروة الحيوانية: من يطالع تعاليم ديننا الإسلامي الحنيف يجده قد اهتم بالثروة الحيوانية بجميع أصنافها، ووضع ضوابط للحفاظ عليها فحين نرى النبي ﷺ يخبر عن دخول امرأة النار في هرة حبستها لا هي أطعمتها ولا تركتها تأكل من خشاش الأرض، ويخبر في نفس الوقت عن بغي دخلت الجنة من أجل أنها سقت كلبا، وحين يحرم الإسلام ذبح الطير أو الحيوان إلا لمنفعة، وهذا من

---

[١٣٩] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج٣، ص١١٧٨، رقم١٥٤٤.

[١٤٠] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٨، ص١٠، رقم٦٠١٢.

[١٤١] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٣، ص١٠٦، رقم٢٣٣٥.

[١٤٢] أخجه أحمد في **مسنده**، ج٢٠، ص٢٩٦، رقم١٢٩٨١.

[١٤٣] الطبري، **جامع البيان**، ج٣، ص٥٨٣.

أجل صور المحافظة على الثروة الحيوانية فكأنها دعوة عنوانها لا للإتلاف، فتتجلى عناية الإسلام بتلك الثروة من ناحيتين:

الأولى: أنها كائنات حية تحس وتتألم لها حاجات وضروريات، لهذا كانت رعايتها ابتغاء وجه الله، وطلباً لمرضاته، فهو من المثل الأخلاقية العليا.

الثانية: أنها ثروة للإنسان وموردا هاماً من موارد البيئة كما قال تعالى: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل:٥-٧]، فيجب المحافظة عليها، والحذر من ضياعها واعتبر تعطيل تلك الثروة من أعمال الشرك، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لاَّ يَطْعَمُهَا إِلاَّ مَن نَّشَاء بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَّ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاء عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام:١٣٨][١٤٤].

ومن الواضح أن كل ما خلقه الله تعالى فهو لحكمة وبميزان دقيق، وإن لم نكتشف أبعاد ذلك،حيث في الصين: مثلاً تشاهد العصافير بكثرة هائلة حتى أنها أخذت تنافس الإنسان في جمع البذور والحبوب، فأمَرَ ماتسي تونغ في أحد الأعوام بإبادة العصافير، فأبيدت بصورة وحشية وغير رحيمة، وفي العام التالي شاهدوا إصابة البذور بالتسوس، وبعد اكتشاف الأخصائيين لأسباب هذا المرض ظهر لهم أن العصافير كانت تضر بالبذور من جانب، لأنها كانت تأخذ غذاءها منها ولكنها في الوقت نفسه كانت تقضي على الحشرات والديدان التي تؤثر على هذه البذور.

وهناك مثال آخر من الاتحاد السوفياتي، فالمعروف عن الذئب أنه يفترس الأغنام والأرانب والحيوانات الأليفة الأخرى المفيدة للإنسان، خاصة في غابات المناطق المعتدلة الباردة، ولذا قامت السلطات في موسكو وفي بولونيا بمحاولة القضاء على الذئاب، وظهر بعد أن قلَّت أعداد الذئاب بشكل كبير أن الأمراض السارية بدأت تنتشر وبشكل سريع بين الحيوانات ذات الفراء، والتي كانت تتغذّى على لحومها الذئاب.

وأدت هذه الأمراض من جانبها إلى خسائر كبيرة، ونتيجة للدراسات تبيّن أن قلّة أعداد الذئاب بشكل كبير هو المسؤول عن انتشار الأمراض بين هذه الحيوانات، ذلك لأن الذئب يمسك بالطريدة بعد أن يطاردها ركضاً، فالحيوانات الضعيفة تسقط ضحية تحت أنياب الذئاب، أما القوية منها والسليمة فإنها تتخلص من أنياب الذئاب، ولذا قرر الخبراء في موسكو وبولونيا الحفاظ على الذئاب التي تقوم بالقضاء على الحيوانات المريضة، التي تسبب نشر الوباء بين الحيوانات[١٤٥]... والأمثلة كثيرة.

---

[١٤٤] القرضاوي، **رعاية البيئة في شريعة الإسلام**، ص٢٠.

[١٤٥] حيوانات انقرضت بسبب التلوث.

فدول العالم اليوم أقامت هيئات لحماية الحياة الفطرية، تعمل الهيئة على تطوير وتنفيذ خطط للتصدي للأخطار المحدقة بالحياة الفطرية في البر والبحر، وإعادة تأهيل الأنواع التي انقرضت من البرية،والأنواع المهددة بخطر الانقراض، مستهدفة إعادة التوازن البيئي.

المحافظة على سلامة المجتمعات من الأوبئة والأمراض: دعا الإسلام إلى الحجر الصحي المعروف اليوم، فقد نهى النبي ﷺ عن قدوم المريض على الصحيح،كما أن قدوم الصحيح الخارج من الأرض الموبوءة سبب لنقل المرض مع سلامة الخارج، فمن البديهي أن قدوم المريض على الأصحاء سبب لنقل المرض إذا شاء الله ذلك، لذا يقول الرسول ﷺ: «لا يوردن ممرض على مصح»[١٤٦]، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ذَكَرَ الطَّاعُونَ، فَقَالَ: «بَقِيَّةُ رِجْزٍ، أَوْ عَذَابٍ أُرْسِلَ عَلَى طَائِفَةٍ مِنْ بني إسرائيل، فَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَلَسْتُمْ بِهَا فَلَا تَهْبِطُوا عَلَيْهَا»[١٤٧]، وهذا أيضاً تأكيد على أمرين هامين هما: انتقال العدوى من المريض إلى الصحيح إذا شاء الله، وحصر المرض ومنع انتقاله إلى الآخرين.

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا عَطَسَ غَطَّى وَجْهَهُ بِيَدِهِ أَوْ بِثَوْبِهِ وَغَضَّ بِهَا صَوْتَهُ[١٤٨]، وأرشدنا ﷺ إلى قاعدة صحية تتمثل في منع انتشار الرذاذ الذي يخرج بسبب العطاس الذي يكون سبباً في تلوث الهواء والمكان، ويكون سبباً في نقل المرض[١٤٩].

فالدول الصناعية تقوم الآن بمبدأ الحماية الشخصية لعمالها عند إصابة أحدهم بالزكام بوضع قناع، مع أن الإسلام قد رسم هذه الحماية والعناية بالإنسان للحيلولة دون انتشار المرض بآداب نبوية وتوجيهات صحية.

من الحفاظ على الصحة في البيئة حرم الإسلام جماع الحائض والنفساء حفظاً لصحة الإنسان، وجاء الطب الحديث ليكشف لنا مكنونات النهي الشرعي عن مجامعة الحائض والنفساء، حيث يتميز قُبل المرأة بوجود الوسط الحافظ وهي مادة تتكون بعد الحيض والولادة أي في أوقات الطهر، وذلك بفضل حمض اللبن الذي تركبه العصيبات اللبنية الألفية، والموجودة جبلة في مهبل المرأة، يعمل على قتل الجراثيم، إضافة إلى وجود السدادة المخاطية المتكونة من مخاط عنق الرحم فتغلق فوهة العنق في أوقات الطهر، وتحول دون دخول الجراثيم بفعلها الميكانيكي.

---

[١٤٦] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٧، ص١٣٨، رقم٥٧٧٠.

[١٤٧] أخرجه الترمذي في **سننه**، ج٣، ص٣٧٠، رقم١٠٦٥.

[١٤٨] أخرجه الترمذي في **سننه**، ج٥، ص٨٦، رقم٢٧٤٥.

[١٤٩] **مجلة البحوث الإسلامية، قدوم المريض على الصحيح**، ص٣٧٥.

ففي أثناء الحيض والولادة يزول ذلك المخاط الذي يشكل سدا منيعاً ضد الجراثيم، حيث يزول مع الدم النازل، إضافة إلى أن الدم السائل يحول وسط المهبل من حامض إلى قلوي، فيعطل بدوره عمل العصيبات اللبنية، وبالتالي تنخفض مقاومة الأعضاء التناسلية بشكل كبير.

إضافة إلى وجود جرح نازف في الرحم، مكان الغشاء المخاطي المنسلخ يتصل مباشرة مع الدوران الدموي فيزيد من خطورة أي التهاب[١٥٠].

النهي عن البصاق على الأرض، البصاق هو اللعاب الحامل لكثير من الجراثيم والميكروبات، ولهذا يعمد الأطباء إلى تحليله لتشخيص نوع المرض، مثل مرض السل مثلاً فإن من طرق تشخيصه تحليل بصاق المريض.

لهذا جاء النهي عن البصاق في الأماكن التي يتخللها الناس كالمساجد وغيرها، بقول الرسول ﷺ: «البصاق في المسجد خطيئة وكفارتها دفنها»[١٥١]، فنهى ﷺ عن البصاق في الأماكن التي يباشرها المسلم بيديه عند سجوده وتلتصق بها ملابسه وأطرافه حماية للبيئة من انتشار الأوبئة.

منع التلوث بلعاب الكلب، حيث يحمل لعاب الكلب جراثيم ممرضة تفتك بالإنسان، لهذا جاء الإرشاد النبوي بتنظيف الوعاء الذي يلغ فيه الكلب بغسله سبع مرات إحداهن بالتراب يقول عليه السلام: طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أولاهن بالتراب[١٥٢]، وقد أثبت الطب الحديث أن الجراثيم والميكروبات التي يحملها لعاب الكلب ممرضة، ولا يمكن التخلص منها إلا بالتراب مهما وضع من المطهرات الحديثة[١٥٣].

فلحماية البيئة من انتشار الأمراض أمر النبي ﷺ المسلمين بتخصيص يد للأكل والمصافحة، ويد لمباشرة الأذى والخلاء، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كَانَتْ يَدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الْيُمْنَى لِطَهُورِهِ وَطَعَامِهِ، وَكَانَتْ يَدُهُ الْيُسْرَى لِخَلائِهِ، وَمَا كَانَ مِنْ أَذًى[١٥٤] وقالت: إِنْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَيُحِبُّ التَّيَمُّنَ فِي طُهُورِهِ إِذَا تَطَهَّرَ، وَفِي تَرَجُّلِهِ، إِذَا تَرَجَّلَ، وَفِي انْتِعَالِهِ إِذَا انْتَعَلَ[١٥٥، ١٥٦].

المبحث الثالث: قيم البعد عن الفساد

الفساد نوعان: فساد معنوي يتعلق بالظلم والبغي والمنكر... إلخ، وفساد مادي في الأرض ذاتها في مائها وهوائها وتُربتها، والشق الأخير هو الذي يعبر عنه اليوم بتلوث البيئة، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا

---

[١٥٠] مجلة البحوث الإسلامية، ص١٧٨.

[١٥١] أخرجه النسائي في **سننه**، ج٢، ص٥٠، رقم٧٢٣.

[١٥٢] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج١، ص٢٣٤، رقم٢٧٩.

[١٥٣] **مجلة البحوث الإسلامية**، ص٣٧٢ .

[١٥٤] أخرجه أبو داود في **سننه**، ج١، ص٩، رقم٣٣.

[١٥٥] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج١، ص٢٢٦، رقم٢٦٨.

[١٥٦] الصاوي، **من إعجاز القرآن والسنة في الطب الوقائي والكائنات الدقيقة الوقاية من انتشار الأمراض والأوبئة**.

تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦]، ويقول أيضًا: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[الأعراف:٨٥][١٥٧].

فمن محاربة الشريعة للفساد:

تحريمها الرِّبا: فقال تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة:٢٧] فالمسلم مكلف شرعاً بالسعي لكسب المال الحلال من طرقه المشروعة، فالرِّبا يقضي على مبدأ التعاون في المجتمع ويساعد على تفشي الأمراض الأخلاقية، ويؤدِّي إلى تركُّز الأموال في أيدي قلّة من البشر، والغنى بدون حق، والفقر الإجباري، ويؤدِّي الرِّبا إلى زيادة تكاليف المنتجات وبالتالي ارتفاع السلع والخدمات.

تحريمها الإسراف والترف والاكتناز: فحفظ المال مقصد يحتاج إلى وقفة متأنية، لعلاقته الوطيدة برعاية البيئة والحفاظ على مقدراتها.

أمر الإسلام المسلم بإنفاقه على نفسه وأهله، دون سرف أو إقتار، وأداء حقه الشرعي في مصارفه المقررة وذلك لتحقيق التوازن المادي بين أفراد المجتمع، قال تعالى: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام:١٤١].

الحجر على السُّفهاء صيانة لأموال المجتمع، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا﴾ [النساء:٥]، في هذه الآية إشارتان بليغتان في النهي عن التبذير:

الأولى- قوله تعالى أموالكم ليلفت الأنظار إلى أن مال السفيه، هو مال الأمة.

الثانية- قوله تعالى: ﴿التي جعل الله لكم قياما﴾ أي أن الأموال جعلها الله لتقوم عليها مصالحكم فيجب المحافظة عليها وعدم إعطائها للسفيه.

ويقول النبي ﷺ: «إن الله كره لكم ثلاثا: قيل وقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال»[١٥٨]، فإضاعة المال غالبا يكون على أيدي السفهاء[١٥٩].

تحريم القمار والاحتكار والغش في المعاملات؛ لأنّها تؤدِّي إلى تراكم الثروة في أيدي قلة من الناس، حيث أن ذلك يؤدي إلى عدم التوازن المادي في البيئة.

حفظ العقل يحمي من الفساد في البيئة، فلأنه مناط التكليف، يحرم كل ما من شأنه إدخال الخلل عليه، وهذا يرتبط ارتباطاً وثيقاً برعاية البيئة والحفاظ على نقائها، فقد ثبت علمياً أن التلوث الإشعاعي والتلوث الصوتي لهما أثر خطير ومباشر على خلايا المخ، وقد يبكر في الإصابة بمرض الزهايمر.

---

[١٥٧] حمامة، **قضايا البيئة من منظور إسلامي**.

[١٥٨] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٢، ص١٢٤، رقم١٤٧٧.

[١٥٩] العمر، **كلوا واشربوا ولا تسرفوا**.

فمن حفظ البيئة أن نحافظ على التفكير السوي في الإنسان الذي يوازن بين المصالح والمفاسد، ولا يتعامل مع البيئة تعامل المخمور السكران، أو المخدر التائه، الذي ألغى عقله باختياره، فلم يعد يعرف ما ينفعه مما يضره دل على ذلك قوله تعالى في تحريم الخمر: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة:٩٠]، ومن السنة «كُلُّ شَرَابٍ أَسْكَرَ فَهُوَ حَرَامٌ»[١٦٠].

لذا جاءت الشريعة الإسلامية بتحريم المخدرات والمسكرات: لقد أثبت العلم أضرار المخدرات والمسكرات على صحّة الإنسان، ولا تتوقف أضرارها عند هذا الحد، بل تصيب عقل الإنسان وماله ودينه، لذلك فإنّ تحريم الإسلام للمخدرات والمسكرات لم يأتِ عن عبث، بل يأتِ نموذجاً إسلامياً فذاً لحماية الإنسان من الوقوع في التهلكة والرذائل وحماية بيئة الإنسان الاجتماعية والطبيعية من كل عوامل الفساد.

تحريم الزنا من قيم البعد عن الفساد: حفظا للنسل ومحافظة على الفروج والأعراض وصحة الأنساب، ويواجه هذا المقصد الضروري تحدياً سافراً من المفسدين في الأرض، وملوثي البيئة التي فطر الله الناس عليها، فالعبث بالجينات الوراثية، وتجارب الاستنساخ البشري، وإباحة الزواج المثلي، ونحو ذلك يعد تحدياً خطيراً للتوازن البيئي، وقد اعتبر القرآن الكريم قوم لوط من المفسدين في الأرض لتغييرهم فطرة الله في الخلق: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت:٢٨-٣٠][١٦١].

محاربة الفقر والدعوة إلى العمل: يعد مشكلة اجتماعية خطيرة، تؤدِّي إلى مشكلات أخرى كثيرة صحية ونفسية وثقافية وعلمية، كذلك يؤدِّي الفقر إلى انعدام الأمن والخلافات والاقتتال، وخاصة في ظل انعدام العدل والتكافل الاجتماعي، فهو فتنة عظيمة، حيث استعاذ رسول الله ﷺ، منه قال: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر»[١٦٢].

فالفقر يعود لأسباب كثيرة، منها الكسل وعدم السعي للعمل والإسراف والتبذير، أو إلى أسباب اجتماعية كسوء توزيع الثروة في المجتمع، وسوء استغلال الموارد الطبيعية، والحروب والظلم والقهر، أو لأسباب طبيعية،كالكوارث والفيضانات والزلازل والبراكين والأوبئة وغيرها، فهذه أمور تؤدي إلى عدم التوازن في البيئة.

---

[١٦٠] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٧، ص١٠٥، رقم٥٥٨٥.

[١٦١] الألفي، **البيئة والمحافظة عليها**، ص٦.

[١٦٢] أخرجه أبو داود في **سننه**، ج٤، ص٣٢٤، رقم٥٠٩٠.

فالإسلام شرع ما يحارب الفقر قبل وقوعه وذلك بالحث على العمل' قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك:٥] والأمر بالكسب الحلال ولو بالمهن البسيطة قال ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ حَبْلَهُ فَيَحْتَطِبَ عَلَى ظَهْرِهِ خَيْرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَأْتِيَ رَجُلًا فَيَسْأَلَهُ أَعْطَاهُ أَوْ مَنَعَهُ»[١٦٣]، وقال: «إنَّ أطيَبَ ما أكَلَ الرجلُ من كسبِه»[١٦٤]، لأن العمل مجهود شرعي يقوم به الإنسان لتحقيق عمارة الأرض، التي استُخْلِفَ فيها، والاستفادة مما سخره الله فيها،لينفع نفسه وبني جنسه.

مَّا إذا ضاقت الحال، ولم يجد الإنسان عملاً، وأصبح فقيرًا محتاجًا، فعلاج الإسلام حينئذ لهذه المشكلة هو أن يَكْفُل الأغنياءُ الموسرون أقاربهم الفقراء، قال تعالى: ﴿فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ [الروم:٣٨]، وإذا عجز الأقارب الأغنياء عن سدِّ حاجة الفقراء جاء دَوْرُ المجتمع ككلٍّ، متمثِّلاً في الزكاة التي فرضها الله للفقراء من أموال الأغنياء، أو من كفالة الخزانة الإسلامية العامّة للفقراء وذوي الحاجات "ما يعرف بالضمان الاجتماعي.

أقرّ الإسلام إلى جانب الزكاة صدقة الفطر والفدية والأضحية والكفارات، حيث جعل الإسلام كفارة الكثير من الذنوب إطعام الفقراء والمساكين، ويعد هذا مورداً كبيراً لمشاريع التكافل الاجتماعي، وكذلك الصدقات الاختيارية والإحسان الفردي.

النهي عما يفسد الجو أو يولد خطر على البيئة وقاطنيها: كفساده بالدخان والأتربة والغبار ونحوها من مداخن تنفث السموم، وروائح مختلفة، وغير ذلك من ودفن النفايات النووية، والتجارب النووية في أعماق البحار التي تؤذي الأحياء المائية، أو في جوف الصحراء التي تلف ما حولها بأعمدة الرمال وآثار التفجير، التي لا يعلم آثارها الوخيمة إلا الله عز وجل.

لذا أمر الشرع بالاحتياط والوقاية من كل أذى يلحق بالإنسان، أو ببيئته: قال رسول الله ﷺ: «أطفئوا المصابيح إذا رقدتم، وغلقوا الأبواب، وأوكوا الأسقية، وخمروا الطعام والشراب»[١٦٥]، ففي بقاء اشتعال المصابيح زيادة في تصاعد غاز الفحم، الذي يسيء للإنسان وللبيئة وبخاصة أثناء النوم، فأمر بإطفائها، وأمر بإغلاق الأبواب منعاً للهوام وغيرها، وأمر بتغطية أوعية الماء والطعام، مخافة التلوث بما لا تحمد عقباه، وكل هذه أسس وأصول في حماية البيئة، وفي الوقاية مما يسيء للإنسان[١٦٦].

المبحث الرابع: قيم الاستغلال

---

[١٦٣] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٢، ص١٢٣، رقم١٤٧٠.

[١٦٤] أخرجه ابن ماجه في **سننه**، ج٢، ص٧٢٣، رقم٢١٣٧.

[١٦٥] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٨، ص٦٥، رقم٦٢٩٦.

[١٦٦] الألفي، **مقاصد الشريعة في المحافظة على البيئة**.

سخر الله تعالى مكونات البيئة لكي تساعد الانسان على أداء رسالته في تعمير الأرض، حيث يقول تعالى: ﴿الله الذى خلق السماوات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار. وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار﴾ [إبراهيم:٣٢-٣٣].

ويدعو النبي ﷺ إلى الحفاظ على المصادر الطبيعة والتعامل معها على أنها ملكية عامة للناس جميعا، يشتركون في الحفاظ عليها ويشتركون أيضا في الانتفاع بها، فيقول رسول الله ﷺ: «المسلمون شركاء في ثلاث: الماء والكلأ والنار»[١٦٧،١٦٨].

تحتوي البيئة الطبيعية ضمن مكوناتها على مجموعة من الموارد الطبيعية الضرورية للإنسان، والكائنات الحية الأخرى، فيعمل الإنسان على استغلال تلك الموارد لبناء تقدمه وحضارته، إلا أن استغلاله المفرط لهذه الموارد يتم بطرق خاطئة، الأمر الذي أدى إلى اختلال التوازن البيئي، وأضر البيئة بشكل عام[١٦٩].

حيث أدى التقدم الصناعي إلى التوسع في استخراج كثير من الموارد الطبيعية واستهلاكها، خصوصاً تلك الموارد غير المتجددة مثل: الفحم، والبترول، وبعض الخامات المعدنية، والمياه الجوفية.

إضافة إلى إزالة أجزاء كبيرة من الغابات التي تعتبر مأوى الحياة البرية، فأضر ذلك بها، وقلل من أعدادها بدرجة كبيرة، كذلك أدت الزيادة السكانية المستمرة إلى زيادة استهلاك المياه العذبة، خاصة في الزراعة، مما ينذر بقلة موارد المياه في المستقبل[١٧٠]، التي تؤثر على الإنتاج النباتي والحيواني.

المبحث الخامس: قيم الجمال

إن الله تعالى أودع الجمال في البيئة، سواء في الطبيعة أو في البشر، فلابد بالمحافظة على ذلك الجمال الذي يكمن بيد الإنسان نفسه، فنحن بحاجة إلى فرد يحب الجمال في نفسه وفي غيره وحيثما يكن فهو يساعد على أن تكون البيئة جميلة ونظيفة.

وذلك بالحرص على النظافة سواء نظافة المكان الذي يعيش فيه، أكان بيته أو مدينته، أو نظافة بدنه وهيئته، لأن النظافة أساس كل تقدم ورقي، وعنوان للحضارة، ومظهر من مظاهر الإيمان، لقوله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان»[١٧١].

فالإسلام كله خير ونفع للناس، كما قال الرسول ﷺ «فالله عز وجل طيب لا يقبل إلا طيباً»[١٧٢].

---

[١٦٧] أخرجه أبو داود في **سننه**، ج٢، ص٨٢٦، رقم٢٤٧٢.

[١٦٨] يونس، **علاقة الإنسان والبيئة في الإسلام تقوم على الوسطية والتسخير**.

[١٦٩] الجمال، **الحماية القانونية للبيئة**، ص٤٩.

[١٧٠] زهران، **الإسلام والبيئة**، ص٣٢.

[١٧١] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج١، ص٢٠٣، رقم٢٢٣.

عن سعيد بن المسيب ﷺ قال: قال ﷺ «إن الله طيب ويحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أفنيتكم، ولا تشبهوا باليهود»[١٧٣].

ثم أمر الله سبحانه المسلم أن يكون جميلا، ولا سيما في مواطن العبادة، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٣١].

ودعا الرسول ﷺ إلى حسن الهيئة، وإصلاح الشأن، قال ﷺ: «إنكم قادمون على إخوانكم فأصلحوا رحالكم، وأصلحوا لباسكم، حتى تكونوا كأنكم شامة بين الناس»[١٧٤].

وقال: «حَقٌّ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ، أَنْ يَغْتَسِلَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ يَوْمًا يَغْسِلُ فِيهِ رَأْسَهُ وَجَسَدَهُ»[١٧٥]، وقال: «مَنْ كان له شعر فليكرمه»[١٧٦].

ومن الحث على الجمال والمحافظة عليه ما رواه أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ «خمس من الفطرة: الاستحداد، والختان، وقص الشارب، ونتف الإبط، وتقليم الأظافر»[١٧٧]، لتبقى هيئة المسلم نظيفة براقة كما خلقها تعالى، وجاء الترغيب في الرائحة الطيبة فكان رسول الله ﷺ يتطيب ويحب الطيب ويأمر باستعماله، عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: «حبب إلي من الدنيا الطيب والنساء وجعلت قرة عيني في الصلاة»[١٧٨].

وكذا يكمن الجمال في البيئة بجمال الأنعام والدواب، وهو مرئي بالأبصار، موافق للبصائر، ومن جمالها كثرتها[١٧٩]، قال تعالى: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل:٥]، فذكر الجمال وسط الفوائد المادية كأنه واحد منها، وفي هذا إشارة إلى أن الجانب الجمالي لا يقل أهمية عن الجوانب النفعية المادية[١٨٠].

من الجمال البيئي الزراعة للأشجار والزهور، وتزيين المدن والشوارع بها، وتعليم الأبناء وتثقيف العامة بأهمية المحافظة عليها في الأماكن العامة والخاصة، مع توعيتهم بأهمية زراعة الأشجار والزهور ليتذوقوا الجمال ويحرصوا عليه.

---

[١٧٢] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج٢، ص٧٠٣، رقم١٠١٥.

[١٧٣] أخرجه الترمذي في **سننه**، ج٥، ص١١١، رقم٢٧٩٩.

[١٧٤] أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ في **مسنده**، ج٢٩، ص١٦٣، رقم١٧٦٢٤.

[١٧٥] أخرجه البخاري في **صحيحه، ج٢، ص٥**، رقم٨٩٧.

[١٧٦] أخرجه **أبو داود في سننه، ج٤، ص٧٦، رقم٤١٦٣**.

[١٧٧] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج١، ص٢٢١، رقم٢٥٧.

[١٧٨] أخرجه النسائي في **سننه**، ج٧، ص٦١، رقم٣٩٣٩.

[١٧٩] ابن العربي، **أحكام القرآن**، ج٣، ص١١٨.

[١٨٠] الحيا، **الجمال في القرآن**.

فالجمال يكمن في مكونات الطبيعة من خضرة، ومياه تجري، وطيور تغرد، فتأثيرها إيجابي في علاج الاكتئاب، حيث يبعث في القلب البهجة والنشاط والحيوية،قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل:٦٠]، فلا بد من حماية هذا الجمال في الطبيعة وحمايته في الأبدان وصيانته كما خلقه الله.

فقد ادركت كثير من الدول ضرر وجود النفايات، واهمالها حتى تختلط بتربة البيئة وخاصة غير العضوية منها، لزيادة نسبة المواد الكميائية في التربة يؤدي لكثرة السموم، مما يؤثر على سلامة المنتجات الزراعية والحيوانية، وبالتالي على صحة الإنسان، فعملت بعض الدول الأوربية بسن قوانين تحد من تأثير النفايات على البيئة، منها على سبيل التمثيل لا الحصر التشجيع على أعادة تدوير النفايات، وتقليل الضرائب على الشركات التي تستخدم المواد العضوية في منتجاتها.

الخاتمـــــة:

النتائج:

١- إنّ حماية البيئة أصبحت قضية عالمية تهم كل البشر، فالتلوث البيئي لا يعرف الحدود، وبالتالي إنّ تدهور البيئة سينعكس على جميع البشر، علماً أنّ الإنسان هو الذي سبَّب الأضرار في بيئته التي يعيش فيها وإذا أراد العيش في بيئة نظيفة، فعليه أن يُطبِّق المثل القائل: "الوقاية خير من العلاج".

٢- الإسلام قد حرّم كل ما من شأنه أن يضرّ بالبيئة تحريماً تشريعياً،ليلتزم المسلم ذلك، فالدين الإسلامي بأوامره وتوجيهاته السامية قد سبق الغرب فيما ينادون إليه اليوم لحماية البيئة، والمحافظة عليها، فلو أحسنّا التمسك بديننا الإسلامي وتعاليمه وتبعنا جميع القواعد والأساسيات التي حث عليها فإننا بدون شك سوف نعيش عيشة هنيئة مطمئنة وبمشيئة الله.

٣- حد الاعتدال وحد الاتزان هو حد الإسلام الذي يجب أن نلتزم به في كل سلوكياتنا البيئية وغيرها.

٤- القدوة الحسنة تساعد على نشر الوعي تجاه البيئة، فعلى الآباء أن يكونوا قدوة في السلوك والتعامل الرشيد مع عناصر ومكونات البيئة.

٥- نشر الوعي البيئي الذي يتمثل في مساعدة الافراد والجماعات على اكتساب الوعي والتفاعل مع البيئة ومشكلاتها وبناء المواطن الايجابي الواعي.

٦- غرس روح المشاركة الايجابية والعمل على تطوير الشعور بالمسئوولية، وضرورة المساهمة في وضع الحلول الملائمة للمشاكل البيئة المختلفة.

٧- الحرص على تطور المناهج التعليمية، بوضع برامج في القيم البيئية والتعليم البيئي.

٨- ابراز الآثار السيئة لسوء استغلال المصادر الطبيعية، وما قد يترتب على هذه النتائج من آثار اقتصادية واجتماعية ونفسية، وتؤخذ بعين الاعتبار للعمل على تفاديها.

٩- الإكثار من الصناعات" صديقة البيئة "ودعمها بكافة الطرق الممكنة.

هذا ونسأل الله أن يمنحنا بيئة آمنة صحية سليمة.

المصادر والمراجع:

١. ابن العربي، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر المعافري الاشبيلي المالكي، **أحكام القرآن، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلَّق عليه** محمد عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، **ط٣**، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

٢. ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، **السنن، تحقيق:** محمد فؤاد عبد الباقي، (دار إحياء الكتب العربية، فيصل عيسى البابي الحلبي).

٣. ابن منظور، محمد بن أبي الكرم، **لسان العرب**، إعداد وتصنيف يوسف الخياط، (بيروت: دار لسان العرب).

٤. أبو داود، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني، **السنن**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، (**بيروت**: المكتبة العصرية).

٥. أحمد، ابن حنبل أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، **المسند**، تحقيق شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد، وآخرون، **إشراف** د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، (مؤسسة الرسالة).

٦. الألفي، محمد جبر، **البيئة والمحافظة عليها من منظور إسلامي**، (الرياض: المعهد العالي للقضاء)

٧. البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل الجعفي، **الصحيح، تحقيق:** محمد زهير بن ناصر الناصر، (دار طوق النجاة، **ط١**، ١٤٢٢هـ).

٨. الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك أبو عيسى، **السنن، تحقيق وتعليق:** أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة عوض (مصر: مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، **ط٢**، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م).

٩. الجمال، سمير، **الحماية القانونية للبيئة**، (القاهرة: دار النهضة العربية، ٢٠٠٧م).

١٠. حمامة، حسني حمدان الدسوقي، **قضايا البيئة من منظور إسلامي**.

١١. زهران، محمود، **الإسلام والبيئة**، (القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ٢٠٠٠م).

١٢. سمارة، محمد أحمد الخضي نواف أحمد، **القيم البيئية من منظور إسلامي**، (المملكة العربية السعودية: جامعة جازان، مركز التطوير التربوي؛ والأردن: جامعة مؤتة، ٢٠٠٩م).

١٣. الصاوي، عبدالجواد، **من إعجاز القرآن والسنة في الطب الوقائي والكائنات الدقيقة الوقاية من انتشار الأمراض والأوبئة الهيئة العالمية للإعجاز العلمي في القرآن والسنة.**

١٤. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، **جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق** أحمد محمد شاكر (مؤسسة الرسالة، **ط١**، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

١٥. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد الطوسي، **إحياء علوم الدين**، (بيروت: دار المعرفة).

١٦. القرضاوي، يوسف، **رعاية البيئة في شريعة الإسلام**، (عمان: مؤسسة آال البيت الملكي، ١٤٣١هـ).

١٧. مجلة البحوث الإسلامية، **الوقاية الصحية في الإسلام**، (العدد الحادي والسبعون، الإصدار: من ذو القعدة إلى صفر السنة ١٤٢٤هـ).

١٨. مسلم، ابن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، **الصحيح، تحقيق**: محمد فؤاد عبد الباقي، (**بيروت**: دار إحياء التراث العربي).

١٩. مصطفى، إبراهيم؛ والزَّيات، أحمد حسن؛ والقادر، حامد عبد؛ والنجار، محمد علي؛ **المعجم الوسيط**، (إستانبول: المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، مقدمة الطبعة الثانية، د.ت.).

٢٠. النابلسي، محمد راتب، **الحفاظ على البيئة في ضوء الإسلام**، خطبة التوفير وترشيد الاستهلاك إيمان حضارة.

٢١. النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي، **السنن الصغرى، تحقيق**: عبد الفتاح أبو غدة (**حلب**: مكتب المطبوعات الإسلامية، **ط٢**، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

أنواع الماء في القرآن الكريم ودلالاتها العلمية

د. ليث سعود جاسم[١٨١] فاتن محمد الجدي[١٨٢]

ملخص البحث:

إن أهمية الماء ودوره في وجود واستمرار الحياة على الأرض، قد أغرى كثيراً من العلماء لإجراء التجارب والأبحاث العلمية للكشف عن مكونات الماء وأسراره ومصادر وروده، وعلى الرغم من كثرة البحوث العلمية التي قامت على الماء ودورته في الطبيعة، ووجوه الإعجاز العلمي للآيات القرآنية التي تحدثت عنه، إلا أن الألفاظ القرآنية لا يزال في محتواها الشيء الكثير من الناحية اللغوية والدلالية، فقد يحوي اللفظ القرآني الواحد أكثر من معنى، ويتحمل في سياقه دلالات إضافية، تجعل منه منجماً لحقائق علمية كشف عنها العلم الحديث بآلياته المتطورة في البحث. يهدف البحث إلى إبراز دقة وجزالة وغنى اللفظ القرآني، وإعجازه البلاغي، ثم ربط دلالات الألفاظ القرآنية المنطوقة والمفهومة، بما تم اكتشافه في البحوث العلمية الحديثة، فيما يتعلق بأنواع الماء المذكورة في القرآن الكريم تحديداً، وفي ذلك ما فيه من الآيات البينات على أن القرآن الكريم وحي إلهي، وليس من قول البشر، كما أنه محفوظ بحفظ الله تعالى له من التبديل والتحريف. واتبع فيه منهج التفسير الموضوعي التحليلي الذي يقضي بجمع كل الآيات المتعلقة بالموضوع، ووضعها على مائدة البحث العلمي، واستعراض أقوال العلماء القدامى والمحدثين في هذه المسألة، ومناقشتها والترجيح بينها؛ للخروج بمعرفة شمولية حول ما جاء في القرآن الكريم بهذا الخصوص، واستنتاج علاقات رابطة بين هذه الآيات، قد تؤدي للكشف عن المزيد من أسرار هذا الكتاب المعجز.

مقدمة:

الحمد لله الذي جعل من الماء كل شيء حي، وخلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، المبعوث رحمة للعالمين.

إن أهمية الماء ودوره في وجود الحياة واستمرارها، لدافع قوي يدعونا إلى مزيد البحث والتأمل في هذه المادة الفريدة، خصوصاً عندما نعلم أن الماء بلفظه الصريح قد ذكر في القرآن الكريم ٦٣مرة، وذكر بألفاظ أخرى في مواضع عديدة، تتناول قضايا أساسية في حياتنا، كبدايات الخلق، وإحياء الأرض، وإخراج النبات وغيرها، وفي هذا البحث الموجز سنتناول قضية واحدة من هذه القضايا، ألا وهي أنواع الماء في القرآن الكريم، ولا توجد في هذه القضية بحوث كثيرة، على الرغم من كثرة البحوث حول الماء

---

[١٨١] الأستاذ المشارك، بقسم دراسات القرآن والسنة، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

[١٨٢] طالبة دكتوراه بقسم دراسات القرآن والسنة، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

بصفة عامة، وقد نُشرت مقالة للدكتور عبد الدائم كحيل، حول أنواع المياه بين العلم والقرآن، قسم فيها الماء إلى ثلاثة أنواع فرات وأجاج وطهور، وتوجد بعض المنشورات التفسيرية التي تناولت أجزاءً من القضية في سياقها، خصوصاً فيما يتعلق بالإعجاز العلمي، كتفسير الآيات الكونية للدكتور زغلول النجار، وبعد البحث والتأمل تبين وجود جوانب عديدة في أنواع الماء لم تنل حظها من التحليل والتعريف، ولعل هذا البحث سيلقي الضوء عليها، والذي سيكون في مقدمة وثلاث مباحث وخاتمة.

مفهوم أساسي:

انطلاقاً من أن القرآن عربي، ونزل بلغة العرب، فيكون الاعتماد على معنى اللفظ في اللغة العربية شيئاً أساسياً في التفسير؛ ولذلك فلفظ الماء في اللغة العربية، يدل على المعنى المعروف المتبادر للذهن عند الإنسان العربي، والتعريفات القديمة للماء ركزت على بعض الخصائص الظاهرية للماء، ولم تتعرض للتركيب الكيميائي لعدم توفر آلياته في ذلك الوقت، بينما ذكرت التعريفات الحديثة التركيبة الكيميائية للماء، فكانت أكثر دقة في التعريف، ولتوضيح المقصود سأعرض تعريفين للماء: قديم وحديث للمقارنة، فأما القديم فقد عرّف الكفوي (ت١٠٩٤هـ) الماء في كلياته قائلاً: "الماء: هو جسم رقيق مائع به حياة كل نام"[١٨٣]، وأما في المعاجم الحديثة كالمعجم الوسيط، فتعريف الماء هو: "الماء سائل عليه عماد الحياة في الأرض، يتركب من اتحاد الهيدروجين والأكسجين بنسبة حجمين من الأول إلى حجم من الثاني، وهو في نقائه شفاف لا لون له ولا طعم ولا رائحة"[١٨٤].

إذاً المكونات الأساسية للماء هي الهيدروجين والأكسجين بنسبة ٢: ١، هذه التركيبة هي التي تعطي للماء خصائصه الفريدة، وهي موجودة في كل نوع من أنواع الماء الآتي ذكرها في البحث؛ وذلك حتى ينطبق عليها لغوياً لفظ الماء، إذاً من أين تأتي أنواع الماء؟ تأتي من وجود مواد مضافة إلى الماء، سواء كانت أملاح أو معادن أو غيرها، مذابة أو مختلطة بالماء بنسب متفاوتة، فمثلاً: ماء البحر به نسبة عالية من الأملاح تميزه عن باقي أنواع الماء، وكذلك الماء الفرات به نسبة من المعادن تكسبه هذا الطعم المميز، وهكذا ...

وقبل الشروع في المباحث، سنعرض بعض هذه الأنواع التي خلص البحث إليها بعد استقراء مواضع ورود الماء في القرآن الكريم، ومن هذه الأنواع ما يلي:

١- الماء الذي كان قبل خلق السموات والأرض، والذي ورد ذكره في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:٧].

٢- الماء الذي هو أصل في تكوين كل شيء حي والوارد ذكره في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:٣٠].

---

[١٨٣] الكفوي، **الكُليات**، ص٨٧٣.

[١٨٤] مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، ص٨٩٢.

٣- الماء الذي خلق الله منه البشر الأول، الوارد ذكره في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان:٥٤].

٤- ماء الأرض سواء كان مياه جوفية أو مياه سطحية، كالوارد ذكره في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان:٥٣].

٥- **الماء المنزل من السماء،** كالوارد ذكره في قوله تعالى: قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:٤٨].

٦- الماء الذي هو السائل المنوي الذي يتخلّق منه الإنسان، الوارد ذكره في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات:٢٠].

٧- الماء الذي هو أنواع السوائل المنوية التي يخلق منها دواب الأرض المختلفة والوارد ذكرها في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور:٤٥].

٨- الماء في الآخرة والوارد ذكره في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف:٥٠].

ويمكن تصنيف هذه الأنواع في مجموعات تالية:

المجموعة الأولى: أنواع الماء التي لم يدرك كنهها العلماء.

المجموعة الثانية: أنواع الماء الموجودة في الأرض والمنزلة من السماء.

المجموعة الثالثة: أنواع الماء التي يخلق منها المخلوقات الحية من الإنسان والحيوان.

وسنبين بالشرح والتحليل في الصفحات الآتية طبيعة كل مجموعة من هذه المجموعات، التي تناولتها آيات القرآن الكريم، ودلالاتها العلمية.

المبحث الأول

أنواع الماء التي لم يدرك كنهها العلماء

لا زالت بعض أنواع الماء المذكورة في القرآن الكريم يلفها الغموض، ولم تنل حظها الكافي من التفسير من قبل علمائنا، إما لأنهم غفلوا عنها ظناً منهم أن معناها واضح، أو أنه لم يحن بعد زمان الكشف عن حقيقتها، من هذه الأنواع؛ الماء الذي كان عليه عرش الرحمن، والماء الذي جعل الله منه كل شيء حي، والماء الذي جعل الله منه البشر الأول، وأخيراً الماء في الجنة، وسنتناول ذلك بالشرح والتحليل لهذه الأنواع، وما يستنبط من دراستها دراسة موضوعية وبالله التوفيق.

المطلب الأول: الماء الذي كان عليه عرش الرحمن:

بعد البحث والنظر في كتب التفسير، وتتبع أقوال العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:٧]، فلم نجد ـفيما اطلعنا عليه من المصادرـ من تعرض إلى تبيين نوع هذا الماء الذي كان عليه العرش، هل هو ماء فرات، أم أجاج، أم طهور، أم أي نوع آخر، بل كان أغلب المفسرين يركزون على ذكر أن الماء كان موجوداً قبل خلق السموات والأرض، مستدلين بالحديث الصحيح الوارد في ذلك، ومن هؤلاء العلماء الحافظ ابن كثير حيث يقول في تفسيره: "يخبر تعالى عن قدرته على كل شيء، وأنه خلق السموات والأرض في ستة أيام، وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك، كما قال الإمام أحمد: حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش، عن جامع بن شَدَّاد، عن صفوان بن مُحْرِزْ، عن عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: «اقبلوا البشرى يا بني تميم». قالوا: قد بشرتنا فأعطنا. قال: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن». قالوا: قد قبلنا، فأخبرنا عن أول هذا الأمر كيف كان؟ قال: «كان الله قبل كل شيء، وكان عرشه على الماء، وكتب في اللوح المحفوظ ذكر كل شيء». قال: فأتاني آت فقال: يا عمران! انحلت ناقتك من عقالها. قال: فخرجت في إثرها، فلا أدري ما كان بعدي"[١٨٥]. ثم قال ابن كثير: "وهذا الحديث مخرج في صحيحي البخاري ومسلم[١٨٦] بألفاظ كثيرة؛ فمنها: قالوا: جئناك نسألك عن أول هذا الأمر فقال: «كان الله ولم يكن شيء قبله[١٨٧] -وفي رواية: (غيره)[١٨٨] -وفي رواية: (معه)[١٨٩] -وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كلّ شيء، ثم خلق السموات والأرض»"[١٩٠].

وهناك من العلماء من صرح بأن هذه الآية مما قصرت عنه الأفهام، كما ورد هذا عن ابن عاشور، حيث ذكر وعدد مراتب عشرة للتشابه في القرآن وأسبابها، وكانت الآية السابقة تقع في المرتبة الرابعة للتشابه، فقال ما نصه: "رابعتها: معانٍ قَصُرت عنها الأفهام في بعض أحوال العصور، وأودعت في القرآن ليكون وجودها معجزة قُرآنيَّة عند أهل العلم في عصور قد يضعف فيها إدراك الإعجاز النظمي، نحو قوله: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [يس:٣٨]، ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر:٢٢]، ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ [الزمر:٥]، ﴿ئج ئح ئم ئى ئي بج بح بخ بم﴾ [النمل:٨٨]، ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾

---

[١٨٥] أحمد، **المسند**، ج٣٣، ص١٠٨، رقم١٩٨٧٦.

[١٨٦] لم أجده في صحيح مسلم.

[١٨٧] البخاري، **الصحيح**، كتاب التوحيد، باب ﴿وكان عرشه على الماء﴾، ج٦، ص٢٦٩٩، رقم٦٩٨٢.

[١٨٨] البخاري، **الصحيح**، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه﴾، ج٣، ص١١٦٦، رقم٣٠١٩.

[١٨٩] لم أجده في البخاري.

[١٩٠] ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٤، ص٣٠٦.

[المؤمنون:٢٠]، ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور:٣٥]، ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:٧]، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ﴾ [فصلت:١١]، وذكرِ سَدِّ يأجوج ومأجوج"[١٩١].

وكما نعلم أن كثيراً من معاني هذه الآيات قد كشف عنها العلم الحديث، ولذلك يصح أن نتساءل: ما هي طبيعة هذا الماء الذي كان عليه عرش الرحمن، والذي كان موجوداً قبل خلق السموات والأرض؟ هل هو ماء الحياة أم ماء آخر؟ ولأنه قد جاء معرّفاً بـ(أل) الجنسية التي تفيد استغراق الأنواع والخصائص، هل يمكن أن نقول: إن هذا الماء هو الماء الأصل؟ هل هو الماء الذي يحوي كل العناصر المكونة للكون فلا يمكن وصفه بملوحة ولا عذوبة؟ الله أعلم، تبقى هذه الآراء مطروحة حتى يأذن الله تعالى بكشفها للناس.

المطلب الثاني: الماء الذي هو أصل تكوين كل شيء حي:

إن قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنبياء:٣٠] قد شغل أذهان العلماء من مفسرين وباحثين، وكتبوا فيه جملة من الأبحاث العلمية، وسنركز على التحليل اللغوي والدلالي للآية، ومن ثم نربط بين ما ينتجه التحليل وما أثبتته الأبحاث العلمية، ولعل من المفيد بدايةً استعراض بعض أقوال المفسرين القدامى في تفسير الآية:

قال الطبري: "وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾، يقول تعالى ذكره: وأحيينا بالماء الذي ننزله من السماء كلّ شيء.كما حدثنا ابن عبد الأعلى، قال: ثنا محمد بن ثور، عن معمر، عن قتادة: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾، قال: كلّ شيء حيّ خُلق من الماء."[١٩٢]، وقال ابن كثير: "وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ أي: أصل كل الأحياء منه"[١٩٣].

فالطبري فسر الآية بأن الماء سببٌ للحياة، وابن كثير فسرها بأن الماء أصل كل الأحياء، وعند وضع الآية الكريمة على مائدة التفسير والبيان، نجد أننا بحاجة بعد توفيق الله تعالى إلى تدقيق النظر في عدة مسائل، منها: ما المعنى الدقيق للفعل جعل، وما الفرق بينه وبين الفعل خلق؟ ما معنى (من) في الآية؟ وما المراد بكلمة حي أو ما المفهوم القرآني للحياة في الآية؟ ثم عن أي نوع من أنواع الماء تتحدث الآية؟ حول هذه المسائل سيجري الحديث في السطور الآتية:

المسألة الأولى: تحديد معنى (جَعَل) مهم جداً في تفسير معنى الآية، وقد ذهب فريق من العلماء إلى أنها في هذه الآية بمعنى (خَلَق)، وليس كذلك، فبين جعل وخلق فرق دقيق في المعنى، وبالرجوع إلى أهل اللغة وجدنا أن ابن فارس يقول عن الفعل (جعل): "الجيم والعين واللام كلمات غير مُنْقاسة، ولا

---

[١٩١] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣، ص١٥٩.

[١٩٢] الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج١٨، ص٤٣٤.

[١٩٣] ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٥، ص٣٣٩.

يشبه بعضها بعضاً"[١٩٤]، وهذا يعني أن الفعل (جعل) يجمع أكثر من معنى مختلف، فذهبت إلى أهل غريب القرآن لأرى ماذا يقولون في المسألة، فوجدت الراغب الأصفهاني قد أبدع وأفاض في تحصيل معاني الفعل جعل، حيث قال رحمه الله: "جعل: لفظ عام في الأفعال كلها، وهو أعمّ من فعل وصنع وسائر أخواتها، ويتصرّف على خمسة أوجه؛ **الأول**: يجري مجرى صار وطفق فلا يتعدى، نحو جعل زيدٌ يقول كذا، قال الشاعر:

فقد جَعَلت قلوص بني سهيل من الأكوار مرتعها قريب

والثاني: يجري مجرى أوجد فيتعدى لمفعول واحد نحو قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام:١]، ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾ [النحل:٧٨]، **والثالث**: في إيجاد شيء من شيء وتكوينه منه نحو: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ [الشورى:١١]، ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡجِبَالِ أَكۡنَٰنٗا﴾ [النحل:٨١]، ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ فِيهَا سُبُلٗا﴾ [الزخرف:١٠]، **والرابع**: في تصيير الشيء على حالة دون حالة نحو: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا﴾ [البقرة:٢٢]، وقوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلٗا﴾ [النحل:٨١]، ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا﴾ [نوح:١٦]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾ [الزخرف:٣]، **والخامس**: الحكم بالشيء على الشيء حقاً كان أو باطلاً فأما الحق فنحو قوله تعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [القصص:٧]، وأما الباطل فنحو قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلۡحَرۡثِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ نَصِيبٗا﴾ [الأنعام:١٣٦]، ﴿وَيَجۡعَلُونَ لِلَّهِ ٱلۡبَنَٰتِ سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ [النحل:٥٧]، ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُواْ ٱلۡقُرۡءَانَ عِضِينَ﴾ [الحجر:٩١]"[١٩٥].

إذاً فالفعل جعل على خمسة معانٍ، تتمثل في الإيجاد والتصيير، وليس فيها معنى الخلق، أما الفعل خلق "فالخلق أصله التقدير المستقيم ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا احتذاء"[١٩٦]، ولذلك تجد في القرآن أن الجعل يكون بعد الخلق وليس العكس، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعۡفٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ ضَعۡفٖ قُوَّةٗ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٖ ضَعۡفٗا وَشَيۡبَةٗۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡقَدِيرُ﴾ [الروم:٥٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾ [الحجرات:١٣]، ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةٗ فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ٣٨ فَجَعَلَ مِنۡهُ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة:٣٨-٣٩]، ومن ذلك نستنتج أن الفعل (جعل) يفيد إيجاد حدث في الشيء بعد خلقه.

المسألة الثانية: حرف الجر (من) يستعمل في اللغة للتعبير عن عدة معان، لعل من أشهرها: ابتداء الغاية، والتبعيض، وبيان الجنس، والتعليل وغيرها، والراجح أن معنى (من) في هذه الآية هو الابتداء، لأن الحديث قبل الآية وبعدها كان عن بدايات الخلق، والتعبير بـ(كل شيء حي)، يشير إلى البداية العامة لكل المخلوقات الحية، فالأنسب –والله أعلم– أن تكون (من) هنا للابتداء.

---

[١٩٤] ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج١، ص٤٦٠.

[١٩٥] الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، ص٩٤.

[١٩٦] المصدر السابق، ص١٥٧.

المسألة الثالثة: مفهوم الحياة في القرآن، هل الحياة وصف لكل مخلوق له روح أم أن الحياة وصف لا يختص بذوات الأرواح فقط؟ حول هذا المعنى ورد في الطبري ما نصه: "فإن قال قائل: وكيف خصّ كل شيء حيّ بأنه جُعِل من الماء دون سائر الأشياء غيره، فقد علمت أنه بالماء يحيا الزروع والنبات والأشجار، وغير ذلك مما لا حياة له، ولا يقال له حيّ ولا ميت؟ قيل: لأنه لا شيء من ذلك إلا وله حياة وموت، وإن خالف معناه في ذلك معنى ذوات الأرواح في أنه لا أرواح فيهنّ وأن في ذوات الأرواح أرواحاً، فلذلك قيل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾"[١٩٧].

إذاً فالحياة بمعناها المادي تشمل كل شيء اتصف بالنمو أو الحركة أو الإحساس أو الإدراك، ولذلك فهي لا تقتصر على ذوات الأرواح فقط، بل تشمل الأرض وما فيها من مخلوقات، والآيات القرآنية الدالة على ذلك كثيرة، وقوله تعالى: ﴿كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ يعزز هذا المفهوم لأن كلمة شيء لها معنى واسع في الدلالة.

المسألة الرابعة: لا يوجد في الآية الكريمة ما يدل على تخصيص نوع معين من الماء، غير ورود لفظ الماء معرفاً بأل الجنسية، التي تفيد الاستغراق للأنواع والخصائص المائية، فإذا أضفنا إلى ذلك دلالة السياق للآيات التي سبقت الآية الكريمة، والتي تشير إلى بدايات الخلق، حيث قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:٣٠-٣٢]، نخلص إلى نتيجة مفادها أن هذا الماء ذا طبيعة خاصة، وإن كان جنس الماء المعروف متواجداً فيه، إلا أنه الماء الذي كان قبل بدء الحياة.

تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ ودلالاتها العلمية:

بالنظر إلى ما سبق من تحليل لغوي ودلالي لمفردات الآية الكريمة، يظهر لنا تفسيرها كما يلي:

يخبرنا ربنا (تعالى)، أنه صيّر من الماء بدايةً لكل شيء حي، حيث (من) هنا تفيد الابتداء، وهذا يتفق مع الحقائق العلمية التي تقول: "إن الله تعالى خلق كل صور الحياة الأرضية الباكرة في الماء؛ لأن الأوساط المائية في بدء خلق الأرض كانت أنسب البيئات لاستقبال الحياة، ودراسات بقايا الحياة في صخور الأرض تشير إلى أن الحياة المائية استمرت على الأرض قرابة ٣٣٦٠ مليون سنة (في الفترة من ٣٨٠٠ مليون سنة مضت إلى ٤٤٠ مليون سنة مضت) قبل خلق أول نباتات على اليابسة"[١٩٨].

المطلب الثالث: الماء الذي خُلق منه البشر الأول:

---

[١٩٧] الطبري، **جامع البيان**، ج١٨، ص٤٣٤.

[١٩٨] النجار، **تفسير الآيات الكونية للقرآن الكريم**، ج٢، ص١٢٠.

اختلفت أقوال العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان:٥٤]، فمن قائلٍ أن المقصود بالماء هنا هو النطفة أي المني، ومن هؤلاء العلماء الطبري[١٩٩] وابن كثير[٢٠٠]، ومن قائلٍ أن المقصود بالماء هنا هو الماء الذي خلق منه آدم عليه السلام، ومن هؤلاء العلماء الرازي[٢٠١] في كلامه عن كيفية خلق آدم عليه السلام، ومنهم من قال كلا المعنيين يصح التفسير به، ومن هؤلاء البيضاوي[٢٠٢] والألوسي[٢٠٣]، وأرجح أن المراد بالماء هنا هو الماء الذي خلق منه آدم عليه السلام للاعتبارات التالية:

١. الآيات التي سبقت هذه الآية كانت تتحدث عن الماء بأنواعه، المطر والماء العذب والماء المالح، فمن المناسب أن يكون الحديث عن ماء من جنس الماء المذكور وليس النطفة، وهذه الآيات هي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْيِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾﴾ [الفرقان:٤٨-٥٢].

٢. الماء في هذه الآية معرّف بأل، بينما الماء في الآيات الأخرى والذي المراد به النطفة جاء دائماً نكرة، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة:٨]، وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات:٢٠]، ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ [الطارق:٦]، فدلّ ذلك أن الماء هنا غير الماء هناك.

٣. أل التعريف هنا للجنس، أي الماء المعروف وليس النطفة، قال الآلوسي: "هو الماء الذي خمر به طينة آدم عليه السلام وجعله جزءاً من مادة البشر لتجتمع وتسلس وتستعد لقبول الأشكال والهيئات، فالمراد بالماء الماء المعروف وتعريفه للجنس"[٢٠٤].

٤. كلمة بشراً هنا نكرة، ومن أغراض التنكير في اللغة الدلالة على الوحدة، فلو كان المراد بالماء هنا النطفة، والمراد بـ(بشراً) البشرية كلها لم يستقم المعنى؛ لأن آدم وحواء وعيسى عليهم السلام لم يخلقوا من نطفة، ولا يوجد في الآية ما يدل على التقييد أو الاستثناء، أما إذا أريد بالماء ما خالط التراب فكان طيناً، والبشر هو آدم عليه السلام، استقام المعنى بلا إشكال.

٥. قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ﴾ [الفرقان:٥٤]، "أي قسمه قسمين ذوي نسب أي ذكوراً ينسب إليهم وذوات صهر أي إناثاً يصاهر بهن"[٢٠٥]، وقال في آية أخرى تتحدث عن النطفة: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن

---

[١٩٩] الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج١٩، ص٢٨٤.

[٢٠٠] ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٦، ص١١٧.

[٢٠١] الرازي، **التفسير**، ج٨، ص٢٢٦.

[٢٠٢] البيضاوي، **أنوار التنزيل، وأسرار التأويل**، ج٤، ص١٢٦.

[٢٠٣] الآلوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، ج١٩، ص٣٥.

[٢٠٤] الآلوسي، **روح المعاني**، ج١٩، ص٣٥.

[٢٠٥] الآلوسي، المصدر السابق، ج١٩، ص٣٦.

﴿يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَىٰ﴾ [القيامة: ٣٦ – ٣٩]، الآية في سورة الفرقان جاء فيها الفعل (فجعله) الهاء تعود على البشر الذي هو آدم، أي فجعل آدم ذكراً وأنثى، وهذا حقيقي؛ لأن حواء خلقت من آدم نفسه بدون واسطة، بينما الآية في سورة القيامة جاء الفعل (فجعل منه) يعود على المني، أي من بعض المني يتخلق الذكر والأنثى، وهذا التفسير ينسجم مع الحقائق العلمية، إذن فالماء في الآية السابقة من سورة الفرقان ليس المراد به المني ولا النطفة، وفي هذا يقول الآلوسي: "وقيل: معنى جعل آدم نسباً وصهراً خلق حواء منه وإبقاؤه على ما كان عليه من الذكورة"[٢٠٦] .

٦. في تعقيب الآية جاء قوله تعالى: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان:٥٤]، للدلالة على القدرة الربانية الأزلية باستخدام الفعل (كان)، وتنكير وتنوين لفظ (قدير) للدلالة على بالغ القدرة حيث جعل البشر الواحد (آدم) زوجين مختلفين في الجنس، ولاشك أن خلق آدم وحواء أعظم من خلق بقية البشر، وأدلّ على بالغ قدرة الله عزّ وجل.

بعد هذه الإشارات يترجح عندي التفسير القائل بأن نوع الماء المذكور في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ [الفرقان:٥٤]، هو الماء الذي خالط التراب حتى أصبح طيناً، فخلق منه آدم عليه السلام، ولا يقصد بالماء في هذه الآية النطفة أو المني.

المطلب الرابع: الماء في الجنة:

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ ۚ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف:٥٠]، تذكر الآية جانباً من الحوار الذي سيدور بين أصحاب النار وأصحاب الجنة، حيث يستغيث أصحاب النار بأصحاب الجنة طالبين منهم أن يفيضوا عليهم من الماء الذي عندهم، أو يفيضوا عليهم مما رزقهم الله في الجنة، لفظ الماء جاء معرفاً بـ(أل)، يعني أن أصحاب النار لا يطلبون أي ماء بل ماء معيناً، والفصل بـ(أو) بين الماء والرزق يشعر أن هذا الماء ماء مخصوص؛ لأن الماء يدخل ضمن نعيم الجنة التي رزق الله عباده المؤمنين، فلماذا كان الفصل بـ(أو) التي تفيد الاختلاف في المعنى، لم نجد الإجابة فيما اطلعنا عليه من التفاسير، ولكنا وجدناها في كتب الحديث الشريف، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا فَإِنَّهُمْ لاَ يَمُوتُونَ فِيهَا وَلاَ يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ نَاسٌ أَصَابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِمْ – أَوْ قَالَ: بِخَطَايَاهُمْ – فَأَمَاتَهُمْ إِمَاتَةً، حَتَّى إِذَا كَانُوا فَحْمًا، أُذِنَ بِالشَّفَاعَةِ فَجِيءَ بِهِمْ ضَبَائِرَ[٢٠٧] ضَبَائِرَ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهَارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ! أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحِبَّةِ تَكُونُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ»[٢٠٨]. قال النووي في شرح الحديث: "وأما معنى الحديث فالظاهر –والله

[٢٠٦] الآلوسي، المصدر السابق، ج١٤، ص١٢٢.

[٢٠٧] الضبائر: الجماعات المتفرقة واحدها ضبارة. ينظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج٤، ص٤٧٩.

[٢٠٨] مسلم، **الصحيح**، ج١، ص١١٨.

أعلم- من معنى هذا الحديث أن الكفار الذين هم أهل النار، والمستحقون للخلود لا يموتون فيها ولا يحيون حياة ينتفعون بها ويستريحون معها، كما قال الله تعالى: ﴿لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها﴾، وكما قال تعالى: ﴿ثم لا يموت فيها ولا يحيى﴾ وهذا جارٍ على مذهب أهل الحق أن نعيم أهل الجنة دائم، وأن عذاب أهل الخلود في النار دائم، وأما قوله ﷺ: «ولكن ناس أصابتهم النار ...» إلى آخره، فمعناه أن المذنبين من المؤمنين يميتهم الله تعالى إماتة، بعد أن يعذبوا المدة التي أرادها الله تعالى، وهذه الإماتة إماتة حقيقية يذهب معها الإحساس، ويكون عذابهم على قدر ذنوبهم ثم يميتهم، ثم يكونون محبوسين في النار من غير إحساس، المدة التي قدرها الله تعالى، ثم يخرجون من النار موتى قد صاروا فحماً، فيحملون ضبائر كما تحمل الأمتعة، ويلقون على أنهار الجنة، فيصب عليهم ماء الحياة، فيحيون وينبتون نبات الحبة في حميل السيل في سرعة نباتها وضعفها، فتخرج لضعفها صفراء ملتوية، ثم تشتد قوتهم بعد ذلك، ويصيرون إلى منازلهم، وتكمل أحوالهم"[٢٠٩].

وفي حديث آخر: عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُهَا لَا يَمُوتُونَ وَلَا يَحْيَوْنَ، وَأَمَّا أُنَاسٌ يُرِيدُ اللَّهُ بِهِمْ الرَّحْمَةَ فَيُمِيتُهُمْ فِي النَّارِ، فَيَدْخُلُ عَلَيْهِمْ الشُّفَعَاءُ، فَيَأْخُذُ الرَّجُلُ أَنْصَارَهُ فَيَبُثُّهُمْ -أَوْ قَالَ: فَيَنْبُتُونَ- عَلَى نَهَرِ الْحَيَاءِ -أَوْ قَالَ: الْحَيَوَانِ، أَوْ قَالَ: الْحَيَاةِ، أَوْ قَالَ: نَهَرِ الْجَنَّةِ- فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحَبَّةِ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ» قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَا تَرَوْنَ الشَّجَرَةَ تَكُونُ خَضْرَاءَ، ثُمَّ تَكُونُ صَفْرَاءَ -أَوْ قَالَ: تَكُونُ صَفْرَاءَ- ثُمَّ تَكُونُ خَضْرَاءَ» قَالَ: فَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ بِالْبَادِيَةِ"[٢١٠].

في الحديثين السابقين وردت الإشارة إلى ماء خاص، هو ماء الحياة أو ماء الحيوان، وهذا بالضبط ما يريده أهل النار، ليس مجرد ماء لإرواء العطش بل هو ماء يجعلهم أحياء، ولذلك أجابهم أهل الجنة بأنه محرم عليهم، لأن أهل النار لا يموتون فيها ولا يحيون.

المبحث الثاني

ماء الأرض والماء المنزل من السماء

وسيكون هذا المبحث في مطلبين، نتناول في الأول: أنواع مياه الأرض وطبيعتها، وفي الثاني: الماء المنزل من السماء وطبيعته ودلالاته العلمية.

المطلب الأول: مياه الأرض:

[٢٠٩] النووي، **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، ج٣، ص٣٧.

[٢١٠] أحمد بن حنبل، المسند، ج١٧، ص٥٩، رقم ١١٠١٦

من أبرز أماكن وجود المياه في الأرض البحار، والبَحْرُ في اللغة: "خلاف البرِّ. يقال: سمِّي بحراً لعُمقه واتساعه. والجمع أَبْحُرٌ وبِحارٌ وبُحورٌ. وكلُّ نهرٍ عظيمٍ بَحْرٌ"[٢١١]، "وأصل البحر كل مكان واسع جامعٍ للماء الكثير، هذا هو الأصل، ثم اعْتُبِر تارةً سعته المُعايَنة، فيقال: بَحَرْتُ البعير شَقَقْتُ أُذُنه شقّاً واسعاً، ومنه سُمِّيَتِ البحيرة"[٢١٢].

ومعنى البحر في القرآن يماثل معناه اللغوي، فالبحر هو بحر الملح، وكذلك النهر العظيم، وقد ورد في القرآن الكريم ذكر نوعين من المياه تجري في البحار، وهما الماء العذب الفرات، والماء الملح الأجاج، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾ [الفرقان:٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر:١٢].

الماء العذب الفرات:

هو ماء الأنهار العظيمة، كنهر النيل، ونهري دجلة والفرات، ومعني العذب: الحلو الطيب البارد والفرات: هو أَشَدُّ الماء عُذوبةً، من فرتَ الشيء أي شقَّه، فكأنه فرت العطش[٢١٣]، والسائغ: من ساغ الشراب في الحلق إذا سهل انحداره[٢١٤].

الماء الملح الأجاج

وهو ماء البحار المالحة، ومعنى الملح الماء الذي فيه الطعم المعروف من أصل خلقته كماء البحر، وهو يختلف عن الماء المالح وهو الذي أذيب فيه الملح فتغير طعمه، والملح الأجاج أي الذي جمع بين شدة الملوحة والمرارة ، فلا يستساغ شرابه ، مأخوذ من أجيج النار، فكأنه يحرق الحلق من شدة ملوحته.

لاوقد يتسأل القارئ للقرآن لماذا وصف الماء العذب بالفرات السائغ الشرب، ولم يكتفي بوصفه بالعذب فقط؟ ولماذا وصف الماء الملح بالأجاج، ولم يقتصر على وصفه بالملح فقط؟ يجيب أحد الباحثين في هذا الموضوع عن هذا التساؤل فيقول: "لقد وجدتُ بأن علماء المياه عندما يتعاملون مع الماء لا يكتفون بإطلاق صفة العذوبة أو الملوحة على الماء. فكل المياه التي نراها على الأرض سواء في الأنهار أو البحيرات أو مياه الآبار جميعها تحوي أملاحاً بنسبة لا نكاد نشعر بها، ولكنها لا تغيب عن الله تعالى وهو خالقها!؛ لذلك جاء البيان الإلهي بصفة ثانية وهي (فرات) أي مستساغ المذاق بسبب انحلال بعض المعادن والغازات فيه والتي تعطي الماء طعمه المعروف. وبالمقابل نجد أن صفة (ملح) لا تكفي

---

[٢١١] الجوهري، **الصحاح**، ج١، ص٣٢.

[٢١٢] الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، ص٣٧.

[٢١٣] ابن منظور، **لسان العرب**، ج٢،ص٦٥،

[٢١٤] ينظر: الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، ص٢٤٩.

لوصف ماء البحر بشكل دقيق فأتبعها الله تعالى بصفة ثانية وهي (أجاج) أي زائد عن الحد، وهذه الكلمة من فعل (تأجّج) أي زاد وبالغ"[٢١٥].

المطلب الثاني: الماء المنزل من السماء:

وهذا نوع آخر من المياه يحدثنا عنه القرآن، أنه الماء المنزل من السماء، وهو يتميز عن غيره بأنه طاهر، خالٍ من الأملاح، مطهر لغيره، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَىۡ رَحۡمَتِهِۦۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:٤٨]، "والطَّهور بفتح الطاء من أمثلة المبالغة في الوصف بالمصدر كما يقال: رجل صَبور. وماء المطر بالغ منتهى الطهارة؛ إذ لم يختلط به شيء يكدره أو يقذره، وهو في علم الكيمياء أنقى المياه لخلوه عن جميع الجراثيم فهو الصافي حقاً. والمعنى: أن الماء النازل من السماء هو بالغ نهاية الطهارة في جنسه من المياه، ووصف الماء بالطهور يقتضي أنه مُطهّر لغيره؛ إذ العدول عن صيغة فاعل إلى صيغة فَعول لزيادة معنى في الوصف، فاقتضاؤه في هذه الآية أنه مطهّر لغيره اقتضاء التزامي ليكون مستكملاً وصف الطهارة القاصرة والمتعدية"[٢١٦].

وهذا المعنى اللغوي له مدلوله العلمي الذي يؤكده، حيث يقول المختصون عن ماء المطر: إنه "يستطيع نزع الأوساخ من على جلد الإنسان أكثر من الماء العادي، لذلك يعتبر هذا الماء مادة معقمة ومطهرة تستخدم في الطب. وهو خالٍ من الفيروسات والبكتريا، وهو أيضاً ماء يمتلك خاصية امتصاص المعـــادن

والغازات والغبار وأي مادة تصادفه بنسبة كبيرة، لذلك هو مادة مطهرة للجوّ أيضاً"[٢١٧] .

المبحث الثالث

أنواع الماء المنوي الذي يخلق منها الإنسان والحيوان

وهذا المبحث ستكون من مطلبين، الأول: عن الماء الذي يخلق منه الإنسان أي (النطفة البشرية)، والثاني: عن الماء الذي تخلق منه دواب الأرض أي (النطف الحيوانية).

المطلب الأول: الماء المنوي الذي يخلق منه الإنسان:

ورد ذكر خلق الإنسان من الماء المنوي، في القرآن الكريم ٣ مرات، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ [السجدة:٨]، وقال: ﴿أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ﴾ [المرسلات:٢٠]، وقال تعالى: ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ﴾ [الطارق:٦].

---

[٢١٥] الكحيل، **أنواع المياه بين العلم والقرآن**، ص٣، ٤.

[٢١٦] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١٩، ص٤٧، ٤٨.

[٢١٧] الكحيل، **أنواع المياه بين العلم والقرآن**، ص٨.

ومن الملاحظ من الآيات السابقة أن السائل المنوي قد سماه القرآن الكريم ماءً، مع أنه في شكله الخارجي لا يشبه الماء، وسبب هذه التسمية كشف عنها العلم الحديث؛ بدراسته لمكونات السائل المنوي البشري، ويمكن تلخيص هذه الأسباب في الآتي:

١. الماء هو المكون الرئيسي للسائل المنوي، حيث يحتوي هذا السائل على حوالي ٩٠% من مكوناته ماء.

٢. باقي مكونات السائل المنوي على اختلافها تذوب في الماء؛ لقدرته العالية على إذابة أغلب المواد بدرجات متفاوتة.

٣. يمتاز الماء بخاصية فريدة، وهي قدرته على إذابة المواد دون التفاعل معها، وبذلك يسمح للمواد المذابة فيه بالمحافظة على خصائصها[٢١٨].

للأسباب السالفة الذكر وغيرها، كان أصدق الأسماء إطلاقاً على السائل المنوي هو الماء، فسبحان الله العظيم. وقد وصف القرآن الماء المنوي، بوصفين هما: مهين، ودافق.

فأما مهين: فمعناه ضعيف، قال ذلك ابن عباس، ومجاهد، والطبري[٢١٩]، وابن كثير[٢٢٠]، وغيرهم، ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم:٥٤].

وأما دافق: فالدفق يقول فيه ابن فارس: "الدال والفاء والقاف أصل واحد مطردٌ قياسهُ، وهو دفع الشيء قُدُماً"[٢٢١]. والدفق هنا جاء صفة للماء المنوي نفسه، وفي ذلك دلالة علمية دقيقة، حيث أثبت العلم الحديث أن الحيوية والحركة المتدفقة شرط أساسي يجب توفره في ماء الرجل وماء المرأة حتى يحدث الإخصاب[٢٢٢].

المطلب الثاني: أنواع الماء التي خلقت منها الدواب:

وردت الإشارة إلى خلق دواب الأرض من الماء في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [النور:٤٥]، والدابة: يقول الراغب: "الدب والدبيب مشي خفيف ويستعمل ذلك في الحيوان وفي الحشرات أكثر ، ويستعمل في الشراب والبلى ونحو ذلك مما لا تدرك حركته الحاسة ، ويستعمل في كل حيوان وإن اختصت في التعارف بالفرس"[٢٢٣]، ولفظ الماء هنا جاء نكرة، وهذا يفيد العموم، ويعني أن

---

[٢١٨] لمزيد من المعلومات ينظر: دسوقي عبد الحليم، **الماء الدافق تركيبه خصائصه**.

[٢١٩] الطبري، **جامع البيان**، ج٢٠، ص١٧٢.

[٢٢٠] ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٥، ص٤٦٦.

[٢٢١] ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ج٢، ص٢٨٦.

[٢٢٢] لمزيد من المعلومات ينظر: جونسون والزنداني، **وصف التخلق البشري .. مرحلة النطفة**.

[٢٢٣] الراغب الأصفهاني، **المفردات**، ص١٦٤.

كل دابة خلقت من ماء (نطف) جنسها، على اختلاف أنواع الدواب، سواء أكانت هذه الدواب تمشي على بطنها كالديدان والثعابين، أو كانت تمشي على رجلين كالإنسان والطيور، أو كانت تمشي على أربع كالأنعام.

الخاتمـــة:

استعرضنا فيبحثنا بعض أنواع الماء التي ذكرت في القرآن الكريم، وقد صنفناها في ثلاث مجموعات: الأولى: أنواع الماء التي لم يدرك كنهها العلماء. والثانية: أنواع الماء الموجودة في الأرض والمنزلة من السماء. والثالثة: أنواع الماء التي يخلق منها المخلوقات الحية من الإنسان والحيوان.

وتبين من خلال الدراسة الموضوعية التحليلية أن ميدان البحث في أنواع الماء لازال مفتوحاً، وأن الدلالات العلمية للمعاني اللغوية للآيات تساهم في بيان المقصود، وتدل على مصدرية القرآن الربانية، وتدعو المسلمين إلى المزيد من البحث اللغوي والعلمي، وقد حاولنا في بحثنا هذا الإشارة إلى هذا الموضوع المهم والثري علمياً، حيث إمكانية الإحاطة بأنواع الماء في القرآن لا يتسع لها المقام، فضلاً عن قصور الأفهام، ومن هنا كان واجب المسلمين التعاون والتدارس والتباحث فيما بينهم، لخدمة هذا الكتاب العظيم، والكشف عن أسراره، وتبليغه للعالمين.

المصادر والمراجع:

١. ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، (تونس: دار سحنون، د.ط، ١٩٩٧م).

٢. ابن فارس، أبو الحسن أحمد، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (دمشق: دار الفكر، ط١، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).

٣. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، (السعودية: دار طيبة، ط٢، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

٤. ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، ط١، د.ت).

٥. أحمد، بن محمد بن حنبل، **المسند**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م).

٦. الآلوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت).

٧. البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله، **الصحيح**، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، (بيروت: دار ابن كثير، ط٣، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

٨. البيضاوي، ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر، **أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، د.ت).

٩. جونسون، مارشال، والشيخ عبد المجيد الزنداني، **وصف التخلق البشري .. مرحلة النطفة**، بحث منشور على موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة،
٧٧٧.php?fun=artview&id=٢http://quran-m.com/container
١٠. الجوهري، إسماعيل بن حماد، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار، (بيروت: دار العلم للملايين، ط٣، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).
١١. دسوقي عبد الحليم، **الماء الدافق تركيبه خصائصه**، بحث علمي منشور على موقع موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، ٣١٨.php?fun=artview&id=٢http://quran- m.com/container
١٢. الرازي، محمد فخر الدين، **التفسير**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ط، د.ت).
١٣. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: محمد سيد كيلاني، (بيروت: دار المعرفة، د.ط، د.ت).
١٤. الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٢٤٠هـ/٢٠٠٠م).
١٥. الكحيل، عبد الدائم، **أنواع المياه بين العلم والقرآن**، مقالة منشورة في موقع الدكتور عبد الدائم الكحيل للإعجاز العلمي في القرآن والسنة، .comvhttp://www.kaheel
١٦. الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني، **الكُليات**، تحقيق: د.عدنان درويش، محمد المصري، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م).
١٧. مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م).
١٨. مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج، **الصحيح**، (بيروت: دار الجيل، د.ط، د.ت).
١٩. النجار، زغلول، **تفسير الآيات الكونية للقرآن الكريم**، (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ط١، ١٤٢٨هـ /٢٠٠٧م).
٢٠. النووي، أبو زكريا يحي بن شرف بن مري، **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٣٩٢هـ).

حزمة محفزات قرآنية وسنية في استثارة الحس البيئي

محمد سنيني*

ملخص البحث:

إن الأزماتِ التي يتعرض لها مناخنا وبيئتنا لا تقل خطرا عما يتعرض له الاقتصاد العالمي من هزات واضطرابات، وما يكابده من اختلالات، بل ومن صدامات مجتمعية، وفي سبيل التخفيف من آثار الأزمة المالية العالمية، ورسم نظام اقتصادي جديد يحمل مناعة لأي هزات محتملة تعالت أصوات من كبار صناع القرار وخبراء الاقتصاد إلى ضرورة تلقيح الاقتصاد العالمي بجملة من المبادئ الأخلاقية، والتفتح على الشرائع السماوية، وفي مقدمتها شريعتنا الغراء. إن ذلك التلقيح وذلك التفتح لا بد أن ينتقل بنفس اللهجة، وبنفس القوة والوتيرة، وربما أكبر من ذلك إلى معالجة أمننا البيئي، ليترسخ في وجدان وذاكرة أجيالنا: بأنّ الأرض لها حقوق علينا؛ حقوق أملتها شريعتنا، والقيم الإنسانية المشتركة، إنه بالقدر الذي نوفي للأرض حقوقها علينا بالقدر الذي نرث به أمننا البيئي.

المطلب الأول: الشكر والأمانة

أولا: الشكر

يأتي الشكر في مقدمة الْقِيَمِ التي تستحضر في مقابلة نعم الله وآلائه التي لا تحصى؛ يقول سبحانه:﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل:١٨]، ومع كل ذلك فإنه سبحانه لسعة غفرانه ورحمته يرضى منا باليسير من الشكر مع إنعامه الكثير، ويقول أيضا:﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:١٠]، كما أنه جلت قدرته يعلم طبيعة تكويننا، ومدى جحودنا لنعمه وعدم قدرتنا على الوفاء بشكر كل آلائه ؛ فيقول تعالى:﴿وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٤].

إن قوله سبحانه: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ورد في سياق تعداد نعمه سبحانه حتى سميت سورة تلك الآية بسورة النّعم؛ فذكر جلت قدرته في أولها أصول النعم وقواعدها، وفي آخرها متمماتها ومكملاتها مع تأكيده سبحانه على تسخيرها لنا؛ فيقول سبحانه: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٤) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ

---

* جامعة البليدة٢، الجزائر.

لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ(١٧)﴾ [النحل].

إن عناصر البيئة الرئيسة جلبت في تلك الآيات من ماء ونبات وحيوان، ومن ظواهر طبيعية ومن نواميس كونية، وتكررت فيها مقاصد خلقها من التسخير والاهتداء بها على وحدانيته سبحانه وكمال قدرته.

كل ذلك التسخير لتلك العناصر، وكل ذلك الامتنان يحمل ذوي العقول والفكر على شكر المنعم بها سبحانه والثناء عليه بجميل الصفات، ومن الشكر الوقوف في وجه كل من يعبث بتلك العناصر، ويهدد حياة كوكبنا، ومن جهة أخرى أن يوضع ذلك التسخير في نصابه وفي حده المعقول بالمحافظة عليها وحمايتها من كل ضرر[٢٢٤]؛ فإن منزلة الشكر من أعلى المنازل؛ فهو غاية الرب من عبده؛ يقول تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة:١٧٢]، ويقول: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢]، ويقول سبحانه: ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت:١٧]، وإن من قواعده أن تعترف بنعمه سبحانه وتثني عليه بها، وأن لا تستعملها فيما يكره[٢٢٥]؛ فإن من شكر النعم هو استخدامها فيما خلقت له؛ وهو ما يعين الناس على تحقيق أهدافهم الدنيوية والأخروية؛ وهو الذي يؤدي إلى حفظ النعم، بل زيادتها ونمائها وفق سنن الله تعالى[٢٢٦].

إن ذلك التسخير لا يقف عند ذلك الحد، بل يعم الأرض جميعا والسماوات؛ يقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج:٦٥]، ويقول عز وجل: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]؛ ويقول تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:١٣]، ويقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا

---

[٢٢٤] السرطاوي، **البيئة والبعد الإسلامي**، ٣٩.

[٢٢٥] ابن قيم الجوزية، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، ج٢، ص١٨٤.

[٢٢٦] القرضاوي، **رعاية البيئة في شريعة الإسلام**، ٣٤.

فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان:٢٠].

وتُستدعى وتُستصحب الدعوة للشكر في مقابلة منّته سبحانه وسعة فضله لما أغدق علينا من مجمل عناصر البيئة وظواهرها الطبيعية؛ يقول سبحانه: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٣٣) وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (٣٤) لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٣٥)﴾ [يس]، ويقول عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٧٣)﴾ [يس]، ويقول تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الروم: ٤]، ويقول سبحانه: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [فاطر: ١٢]، ويقول تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الجاثية:١٢]، ويقول جلت قدرته: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠)﴾ [الواقعة]، ويقول تعالى: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [القصص:٧٣].

أَمِنْ الشكر أن تقابل تلك النعم بالإفساد؟، كلا والله؛ يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة:١٢:٢٠٥]، ويقول عز وجل: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٧٤].

أَمِن الشكر أن يلوث باطن الأرض بالنفايات النووية؟

أمِن الشكر أن نسعى جاهدين لاستخراج الوقود الصخري من نفط وغاز دون أخذ الاحتياطات اللازمة والكفيلة بحماية المياه الجوفية من كل تكدير؟، وقد نبه صلى الله عليه وسلم على اجتناب أدنى تلويث للابتعاد على ما هو أكبر منه؛ فقال: «إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء ...»[٢٢٧] ، قال الحافظ ابن حجر: "هذا النهي للتأديب لإرادة المبالغة في النظافة؛ إذ قد يخرج مع النفس بصاق أو مخاط أو بخاري رديء؛ فيكسبه رائحة رديئة؛ فيتقذر هو أو غيره عن شربه"[٢٢٨]، كما أن السنة نصت على اتقاء أشكال من الملوثات ليقاس عليها ما يدخل في معناها؛ من ذلك حديث «اتقوا اللعانين.قالوا:

[٢٢٧] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الوضوء، باب الاستنجاء باليمين، ج١، ص٢٥٣، رقم١٥٣.

[٢٢٨] ابن حجر، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ج١، ص٢٥٣.

وما اللّعّانان يا رسول الله؟ قال: الذي يتخلى في طريق الناس أو ظلهم»[٢٢٩]، وحديث: «اتقوا الملاعن الثلاثة: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل»[٢٣٠]، والذي يتحصل من جملة هذه الأحاديث ست مواضع منهي عن التبرز فيها: قارعة الطريق والظل والموارد ونفع الماء والأشجار المثمرة وجانب النهر.

أَمِنْ الشكر أن يلوث هواء كوكبنا بانبعاث CO2؟؛ وقد بلغ في سنة ٢٠١٣ مستوى قياسيًّا ما محصله 40 مليار طن حسب الحصيلة السنوية لـ"Global Carbon Project(GCP)"[٢٣١].

كما أن انبعاثات الكربون إذا لم يحد منها خلال١٥سنة أخرى، فقد تتضاعف التكاليف الأولية للحد من الاحترار العالمي ثلاثة أضعاف[٢٣٢].

إن ذلك التلوث حسب تقرير لمنظمة الصحة العالمية نشر في أواسط شهر أكتوبر ٢٠١٣ يفيد أنه كان سببا في سرطان الرئة، وأن قرابة ١٣٣ ألف نسمة توفوا في سنة ٢٠١٠ باستنشاقهم للهواء الملوث، بل أكثر من ذلك فقد ذكرت المنظمة العالمية للأرصاد الجوية حسبما ذكر الموقع المتخصص http://www.futura-sciences.com/ في٢٠١٣/١٠/٠٩ أن التلوث الجوي يودي بحياة ٢،٣ مليون نسمة كل سنة، وأنه يتسبب في أمراض قلبية عدة، وبعد هذا التقرير بأيام سارع الاتحاد الأوروبي إلى ضرورة إيجاد ميكانيزمات تحد من انبعاث CO2، وتخفيف انبعاثه من المركبات من ١٢٠ غرام/كيلومتر إلى ٩٥غ/كلم بحلول ٢٠٢٠.

كما أن فرنسا سارعت منذ سنة ٢٠٠٨، وللتخفيف من انبعاثCO2 إلى تشجيع اقتناء المركبات الأقل دفعا لهذا الملوث؛ وذلك بإحداث ما اصطلح عليه"Bonus écologique"، ونظرا للتكلفة الباهظة لهذا المشروع؛ والذي بلغ ١،٤٥ مليار أورور خلال خمس سنوات، حازت السيارات الكهربائية والهجينة الأفضلية في ميزانية ٢٠١٤[٢٣٣].

أَمِنْ الشكر أن يصل تلوث الهواء بالجسيمات الاصطناعية الناجمة عن المصادر البشرية؛ كانبعاثات السيارات ومحطات الطاقة؛ والذي أدت إلى وفرة الهباء الاصطناعي إلى حدّ أن يبدِّل عكس السحاب لأشعة الشمس؟؛ فيحرم كوكبنا من دفء ضوء الشمس[٢٣٤].

أَمِنْ الشكر أن نستمر في زيادة ارتفاع الاحتباس الحراري؟؛ والذي دفع خبراء المناخ بندوة عقدت باستوكهولم في ٢٧ سبتمبر ٢٠١٣ إلى إطلاق تحذيرات صُدّرت بعنوان عريض في الوسائط الإعلامية

---

[٢٢٩] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الطهارة، باب النهي عن التخلي في الطريق والظلال، ص١٣١، رقم٢٦٩.

[٢٣٠] أخرجه أبو داود في **سننه**، كتاب الطهارة، باب المواضع التي نهي عن البول فيها، ج١، ص٥٤، رقم٢٦. وحسنه الألباني.

[٢٣١] www.globalcarbonproject.org، تاريخ المعاينة: ٢٠١٣/١١/١٩.

[٢٣٢] مجلة NATURE-الطبعة العربية-، العدد ١٤(نوفمبر، ٢٠١٣)، ص١٥.

[٢٣٣] www.dossierfamilial.com ، تاريخ المعاينة:٢٠١٣/١٠/٣١.

[٢٣٤] http://www.nature.com/nature/journal/v502/n7472/full/502413e.html،تاريخ المعاينة:٢٠١٣/١٢/04.

المختلفة"PLANET ON RED ALERT"؛ وقد ورد في تلك التحذيرات أنه: في ٢٠١٣ ارتفعت نسبة تدخل الإنسان في حدوث الاحتباس الحراري إلى ٩٥% بعد أن كانت ٩٠% في ٢٠٠٧، و٦٦% في ٢٠٠١، كما أنه في سنة ٢١٠٠ سترتفع درجة الأرض ب٤،٨درجات، وسيزيد منسوب مياه البحار والمحيطات ما بين ٢٦ إلى ٨٢ سنتمتر، وقد حذر هؤلاء الخبراء أن تلك التغيرات ستحدث أضرارا جد جسيمة من جفاف وفيضانات وكوارث في الدول الفقيرة، وحتى الدول الغنية لن تسلم من تلك التغيرات؛ فمدنها الساحلية ستصبح عرضة لأن تغمر بمياه البحار والمحيطات[٢٣٥].

أَمِنْ الشكر أن نشارك في تغيير مناخنا تغييرا لا عهد لنا به؟، وما زال إعصار الفلبيين في نوفمبر ٢٠١٣، وما خلّف من آثار مدمرة على الحرث والنسل حاضرا في الأذهان؛ والذي نعتته الأمم المتحدة بأنه تحذير للكرة الأرضية من التغير المناخي.

أَمِنْ الشكر أن نسكت لما يحدث لمعالم الأرض وتضاريسها من انتهاكات؟؛ كما هو حاصل للمحيط المتجمد، وللغابات، وقد وبخ النبي صلى الله عليه وسلم تلك التصرفات؛ فقال: «... ولعن الله من غيّر منار الأرض»[٢٣٦]، وفي رواية: «... ملعون من غير تخوم الأرض»[٢٣٧]؛ أي حدودها وأعلامها؛ مثل أنهارها وبحارها، وغاباتها وجبالها[٢٣٨]، ومعالمها التي يُهتدى بها، ويحفظ بها تنوعها وتوازنها البيئي، ومن معالمها؛ سقفها من فضائها الخارجي، وطبقة أوزنها، وتضاريسها الطبيعية.

إن ذلك التلوث بكل أشكاله، وذلك الانتهاك لمنارات الأرض ومعالمها يدخل في كفران نعمة التسخير وما يستدعيه من شكر لا يستبعد أن يدخل في قوله تعالى:﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦][٢٣٩]، كما لا يستبعد أن يتناوله قوله سبحانه: ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَّرِيدًا (١١٧) لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا (١١٨) وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا (١١٩)﴾ [النساء]؛ فتغيير خلق الله في الآية الأولى يحمل على عمومه؛ قال ابن عطية في هذه الآية:"وملاك تفسير هذه الآية: أن كل تغيير ضار فهو في الآية، وكل تغيير نافع فهو مباح"[٢٤٠].

---

[٢٣٥] www.lemonde.fr، تاريخ المعاينة:٢٠١٣/٠٩/٢٧.

[٢٣٦] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله ولعن فاعله، ص٨١٩-٨٢٠، رقم١٩٧٨.

[٢٣٧] أخرجه الإمام أحمد في **مسنده**، ج٣، ص٣٦٧-٣٦٨، رقم١٨٧٥.

[٢٣٨] ومن ذلك ما قامت به منظمة تعني بالبيئة بألمانيا بأن أجبرت شركة قامت بإنشاء طريق سيار بعد أن غيرّت ملامح جبلين ملتصقين؛ أجبرتها على بناء جسر يربط بين ما تبقى بين الجبلين لغرض أن تمر الحيوانات بين ضفتي الجبلين، كما كانت تفعل سابقا.

[٢٣٩] القرضاوي، **رعاية البيئة**، ص٢٩.

[٢٤٠] ابن عطية الأندلسي، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ج٢، ص١١٥.

إن من صور شكر نعمة التسخير أن نسعى لإحياء الأرض، وعمارتها؛ فقد قال صلى الله عليه وسلم: «من أحيا أرضا ميتة فهي له»[٢٤١]، وقال ﷺ: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها، فليفعل»[٢٤٢]، وفي هذا أكبر دليل على مدى تشوف الشرع الحنيف إلى عمارة الأرض، وديمومة عناصرها البيئية، ويؤكده قوله صلى الله عليه وسلم:«ما من مسلم يغرس غرسا، أو يزرع زرعا فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة»[٢٤٣]، كما أن كل الدواب سواء مما يتملك أو لا يتملك داخلة فيه، وعلة الخير المتعدي تقوي إرادة العموم[٢٤٤].

ولتعميم ذلك الإحياء حمل بعضهم قوله صلى الله عليه وسلم: «من أحيا أرضا ميتة فهي له» على العموم؛ فيدخل فيها الذمي، وكل من له حق المواطنة[٢٤٥]، وبدون إذن الحاكم[٢٤٦]، وزاده تأكيدا اتفاق جماهير الفقهاء على مشروعية إحياء الموات والمزارعة والمغارسة والمساقاة، كما أنهم نصوا على أن من أحيا مواتا، وعجز عنه؛ فإن ذلك يوجب إخراجه من يده، ولا يمنع منه عامة المسلمين؛ فيبقى عاطلا، وليس كملكه[٢٤٧]، وقضى به عمر رضي الله عنه على بلال رضي الله عنه[٢٤٨]، كما ذهب بعضهم إلى إجبار إمرار الماء في أرضه ليسقي به أرض جاره[٢٤٩]، قال ابن الرامي: "ولا ينبغي لمن له أرض بيضاء أن يمنع جاره أن يجري الماء في أرضه؛ لأنه مما لا يضره، وينفع جاره"[٢٥٠]، بل ذهبوا إلى أكثر من ذلك في سبيل ذلك الإحياء لما حكموا في"الرجل يكون له ماء يسقي به، وفيه فضل عنه، فيغرس قوم غرسا على فضل ذلك الماء بعطيته منه، فيريد صاحب الماء أن يقطعه عنه، فقالوا: ليس له ذلك"[٢٥١].

ثانيا: الأمانة:

إن من أعلى الوظائف التي خلق الإنسان لأجلها وظيفة الاستخلاف؛ يقول سبحانه:﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ

---

[٢٤١] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الحرث والمزارعة، باب من أحيا أرضا مواتا، ج٥، ص١٨.

[٢٤٢] أخرجه الإمام أحمد في **مسنده**، ج٢٠، ص٢٩٦، رقم١٢٩٧١.

[٢٤٣] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الحرث والمزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، ج٥، ص٣، رقم٢٣٢٠؛ مسلم في **صحيحه**، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع، ص٦٣٥، رقم١٥٥٢.

[٢٤٤] ابن أبي جمرة، **بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها شرح مختصر صحيح البخاري**، ج٤، ص١٥٩-١٦٠.

[٢٤٥] القرافي، **الذخيرة**، ج٥، ص١٥٨-١٥٩.

[٢٤٦] القرافي، **الذخيرة**، ج٦، ص١٥٦-١٥٧؛ ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ج٥، ص١٨.

[٢٤٧] الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إقريقية والأندلس والمغرب**، ج٨، ص٣٥.

[٢٤٨] أبو عبيد القاسم بن سلام، **الأموال**، ص٣٦٨.

[٢٤٩] وعليه قضاء عمر رضي الله عنه للضحاك بن خليفة على محمد بن مسلمة. انظر: مالك بن أنس، **الموطأ**، ج٤، ص٣٤؛ ابن الرامي، **كتاب الإعلان بأحكام البنيان**، ص٤١٠.

[٢٥٠] ابن الرامي، **كتاب الإعلان بأحكام البنيان**، ص٤١٠.

[٢٥١] الونشريسي، **المعيار**، ج٨، ص١٩.

بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠]، ويقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الفاطر:٣٩]، ويقول عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام:١٦٥]، ويقول أيضا: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:٦٢].

إن استخلاف الإنسان يعني تحميله جملة من الفضائل ؛كالمسؤولية والحرية، والتلاؤم مع سنن الله ونواميس كونه، كما أنه عز وجل أفصح عن معنى الاستخلاف بإضافة مفهوم الأمانة عليه؛ يقول تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢].

إن التناغم مع سنن الله ونواميس كونه، ومراعاة أداء الأمانة في وظيفة الاستخلاف؛ كل ذلك يستدعي صيانة كوكب الأرض، وما فيه من عناصر بيئية، ويحتم كذلك حمايتها من كل ضرر.

إنه بالقدر الذي تتلاءم فيه طبيعة الإنسان مع السنن الكونية وتسخرها لخدمته، بالقدر الذي تظهر فيه علامات السلامة العامة، والنظرة السليمة، والعيش تحت مظلة من السلوكيات الخلاقة[٢٥٢].

إن تولية ظهرنا لكلية المحافظة على الكون بمفهومه الواسع، وتفاعلنا غير الصحيح مع الكون، وما تعانيه البشرية من تلوثات، ومجاعات، وتهديد بنفاد المسخرات الإلهية – حسب البناء الفلسفي للنظرية الاقتصادية المادية – إنما هو نتاج نقضنا لتلك الأمانة.

إن الأمانة ليست مقصورة على حفظ الودائع، بل هي واسعة الدلالة؛ فهي ترمز إلى معان شتى، مناطها جميعا شعور المرء بتبعته في كل أمر يُوكل إليه، وإدراكه الجازم بأنه مسئوول عنه[٢٥٣].

إن ذلك المناط يدخل في تلك المعاني الأرض بكل ما فيها من ماء، وهواء، ونبات وحيوان، ظاهرها وباطنها؛ فكل عناصرها عواري استأمن الله الناس عليها، طلب منهم أن يحفظوها، وينتفعوا بها ضمن المنهج الذي رسمه لهم مالكها الحقيقي، فإذا تصرفوا بها على غير ما أوصى به الله، فقد خانوا ما استأمنهم الله عليه[٢٥٤].

إن من العواري والودائع أن يحفظ للأرض تنوعها وتوازنها البيئي، ولعل في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠] تلميح قوي إلى ذلك، فإن كلمة ﴿كل﴾ تفيد التعميم؛ أي احمل في

---

[٢٥٢] السرطاوي، **البيئة والبعد الإسلامي**، ص١٢.

[٢٥٣] محمد الغزالي، **خلق المسلم**، ص٤١.

[٢٥٤] حبنكة الميداني، **الأخلاق الإسلامية وأسسها**، ج١ص، ٦٥٦.

السفينة من كل شيء، تطلبه حياة الناجين من جميع أصناف النباتات والحيوانات، حتى الخنزير كان ضمن ما حمله نوح عليه السلام؛ لأن كل كائن له مهمة، وليس مهمة الكائنات فقط أن يأكلها الإنسان[٢٥٥]، هذا فضلا على ضرورة مراعاة نواميس الأرض، وما أودع الله فيها من ظواهر وسنن كونية، كما أن في نهيه صلى الله عليه وسلم عن إخصاء البهائم[٢٥٦] تنبيه على ضرورة استمرار ذلك التوازن، وتقوى بقوله صلى الله عليه وسلم من رواية أخرجها الإمام أحمد في مسنده[٢٥٧]: «من أحيا أرضا ميتة، فله منها-يعني أجرا- وما أكلت العوافي منها، فهو له صدقة»، -العوافي من الوحش والطير والسباع-.

المطلب الثاني: الإحسان والرحمة

إن شخصية الفرد المسلم المندفعة بغريزة التطلع إلى المعرفة؛ فإن أول ما يواجهها هذا الكون، وما فيه من موجودات، فيثير فيها داعية الفكر؛ فتجعل تلك الموجودات على اختلاف أصنافها مجالا للحركة الفكرية، فبعد تصنيفها، والتعرف على خصائصها، والتساؤل على أسبابها حتى تربط بعضها بعض بأوجه مختلفة؛ فينشأ عن كل ذلك ترابط بين تلك الكائنات وشخصية الفرد على نسبة واحدة[٢٥٨].

إن ذلك الترابط سرعان ما يرقى إلى درجة الانسجام مع الكون كله، كيف لا، والفرد المسلم يرى فيه أنه آية من آيات الله، وأنه حافل بالنعم، وأنه مسخر له وفي خدمته، كما يرى فيه أنه يشترك معه في كونه من مخلوقيته لله تعالى؛ يسجد لله، ويسبحه[٢٥٩]، بل عناصره لها نظامها وقانونها، ولها مهمتها، ودورها في الطبيعة؛ إنها أمم؛ قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأنعام:٣٨]، وقال صلى الله عليه وسلم: «قرصت نملة نبيا من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أنْ قرصتَك نملةٌ أحرقتَ أمةً من الأمم تُسبح الله»[٢٦٠].

إن تلك نظرة للكون لا ترمي بالكون في خانة أعداء الإنسان الذي يريد قهره، بل على العكس تجعل منه مصدرا لتنمية ذوقه الجمالي؛ يقول ربنا سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٢]، ويقول تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦)﴾، إلى أن يقول من سورة نفسها: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٨]، ويستمر ذلك الشحن بالجماليات من سورة النعم؛ فيقول

---

[٢٥٥] الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، ج١١، ص٦٤٧١.

[٢٥٦] أخرجه الإمام أحمد في **مسنده**، ج٨، ص٣٨٨، رقم٤٧٦٩.

[٢٥٧] أخرجه الإمام أحمد في **مسنده**، ج٢٢، ص١٧٠، رقم١٤٢٧١.

[٢٥٨] محمد الفاضل بن عاشور، **روح الحضارة الإسلامية**، ص٢٧.

[٢٥٩] القرضاوي، **رعاية البيئة**، ص٣٤.

[٢٦٠] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الجهاد، ج٦، ص١٥٤، رقم٣٠١٩؛ مسلم في **صحيحه**، كتاب السلام، باب النهي عن قتل النمل، ص٩٢٢، رقم٢٢٣٧.

سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل:١٤]، ويقول سبحانه: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ [الصافات:٦]، ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر:١٦]، ويقول أيضا: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾ [الملك:٥].

إن ذلك الذوق الجمالي جعله القرآن مقدما حتى على المتاع؛ فقال عز وجل: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ﴾ ([الرعد:١٧]، وفي اقتران الذوق الجمالي مع النفع الاقتصادي؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾ [النمل:٦٠]، وقوله سبحانه: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥]، وقوله جلت قدرته: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق:١٠] رفع له، وتعلية من قيمته مع ما سلف من تقديمه على المتاع.

إن ذلك الذوق الجمالي، وما ناله من قيمة مضافة؛ والذي يغذي به الإنسان مشاعره ووجدانه؛ وهو يستمده من تدبره وتفكره في الكون وترابطه معه، ومن عناصره البيئية جدير بأن يجعل في معادلة اتجاه الحضارة؛ يقول بن نبي: "إن الإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بالذوق الجمالي، بل إن الجمال هو الإطار الذي تتكون فيه أية حضارة ..."، ثم صاغ هذه المعادلة: مبدأ أخلاقي+ذوق جمالي= اتجاه حضارة[٢٦١].

إذا الكون وبكل عناصره البيئية، وهو على خلقته التي فطر الله عليه، أو قل إذا كانت البيئة السليمة لها كل هذا الحضور في بناء أحد أهم تكوينات النفس الإنسانية، وكون ذلك طرفا في معادلة الإقلاع الحضاري ألا يُعض عليها بالنواجذ؟، ألا يرتقي ذلك الترابط بينها وبين الإنسان إلى منزلة المودة والمحبة!.

إن تلك المنزلة نطق بها الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم؛ حيث قال:«هذا أحد جبل يحبنا ونحبه [٢٦٢]؛ فأي أنس بالبيئة أو إيناس لها أوضح مما دل عليه هذا التعبير النبوي الجميل![٢٦٣].

وتجذر ذلك الإيناس في حنين الجذع إليه صلى الله عليه وسلم[٢٦٤]، كما أن في تكنيته لعبد الرحمن بن صخر بأبي هريرة رضي الله عنه؛ فكان يناديه بقوله: «يا أبا هرّ»، «يا أبا هريرة»[٢٦٥]، وفي شكوى البعير له صلى الله عليه وسلم من حديث عبد الله بن جعفر، قال: أردفني رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

[٢٦١] مالك بن نبي، **شروط النهضة**، ص١٠١.

[٢٦٢] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الجهاد، باب من غزا بصبي للخدمة، ج٦، ص٨٦-٨٧، رقم٢٨٩٣؛ مسلم في **صحيحه**، كتاب الحج، باب فضل المدينة،....ص٥٣٨، رقم١٣٦٥.

[١] القرضاوي، **رعاية البيئة**، ٣٠.

[٢٦٤] أخرجه الإمام أحمد في **مسنده**، ج٥، ص٣٩٩-٤٠٠، رقم٣٤٣٠.

[٢٦٥] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الأطعمة، باب قوله تعالى﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [البقرة:١٧٢] ج٩، ص٥١٧، رقم٥٣٧٥.

خلفه ذات يوم، فأسر إلي حديثا لا أحدث به أحدا من الناس، وكان أحب ما استتر به رسول الله صلى الله عليه وسلم لحاجته هدفا أو حائش نخل. قال: فدخل حائطا لرجل من الأنصار، فإذا جمل فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم حنّ وذرفت عيناه، فأتاه النبي صلى الله عليه وسلم، فمسح ذِفراه، فسكت، فقال:«من رب هذا الجمل، لمن هذا الجمل ». فجاء فتى من الأنصار فقال: لي يا رسول الله. فقال:«أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؛ فإنه شكى إلي أنك تجيعه وتُدْئِبُه»[٢٦٦]، ففي كل ذلك إجلاء لعلاقة استئناس الحيوان بالإنسان كعكسها، وتتقوى تلك الرابطة في التسلي به[٢٦٧]، وخاصة إذا بدأت في الصغر، وشب عليها؛ يشهد لذلك ما جاء في حديث أنس رضي الله عنه؛ أنه قال: كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم، أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا، وَكَانَ لِي أَخٌ يُقَالُ لَهُ أَبُو عُمَيْرٍ، –وقال أحسبه فَطِيمًا– وَكَانَ إِذَا جَاءَ قَالَ:« يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ» نُغَرٌ كَانَ يَلْعَبُ بِهِ[٢٦٨].

كما أن ذلك الترابط وذلك الانسجام بين الإنسان وعناصر البيئة رفعتهما السنة النبوية بأن جعلت مكونات البيئة جارا للإنسان؛ كما هو ظاهر في رواية عنه صلى الله عليه وسلم؛ أنه قال: «نعم الجار البحر: هو الطهور ماؤه، الحل ميته»[٢٦٩]، بل إن الشرع راعى تلك الصحبة الكائنة بين الإنسان وبين عناصر البيئة؛ فرتب عليها طهارتها؛ فقال صلى الله عليه وسلم في الهرة: «إنها ليست بنجس، إنها من الطّوّافين والطّوافات عليكم»[٢٧٠].

إذا كانت عناصر البيئة بكل ذلك الثقل في حياة الإنسان؛ إنها مُعلمه، إنها جاره، ومن الطوافين والطوافات عليه؛ إنها خادمه؛ إنها تؤنسه، ويؤنسها، بل تحبه، وتبكي عليه إذا فارقها[٢٧١]، ويُسقى بدعائها في الجفاف والقحط، كما في قوله صلى الله عليه وسلم: «خَرَجَ سُليمانُ عليه السلام يَسْتَسْقي فَرَأَى نَمْلَةً مُستلقيةً على ظهْرها رافعة قوائمها إلى السماء تقُولُ: اللّهُمَّ إنا خلقٌ منْ خلْقِكَ ليْس بنا غِنى عنْ سُقياكَ، فقال: ارْجِعُوا فقد سُقيتم بدعوةِ غيركم»[٢٧٢]، ألا تستحق تلك العناصر أن يكرمها، أن يحسن إليها، وأن يرحمها ويرفق بها، ويجتهد في صيانتها، وفي نمائها وحمايتها من كل ضرر!

---

[٢٦٦] أبو داود في **سننه**، كتاب الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم، ص٢٨٩، رقم٢٥٤٩. وقوله:«تدئبه»؛ أي تتعبه.

[٢٦٧] ابن بطال، **شرح صحيح البخاري**، ج٩، ص٣٥٢.

[٢٦٨] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الأدب، باب الكنية للصبي وقبل أن يولد، ج١٠، ص٥٨٢، رقم٦٢٠٣.

[٢٦٩] ابن عبد البر، **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، ج٢٣، ص١٥.

[٢٧٠] أخرجه أحمد في **مسنده**، ج٣٧، ص٢١١، رقم٢٢٥٢٨، ويقاس على الهرة باقي الحيوانات الأليفة مثل الكلب الذي يجوز اتخاذه ونحوه بجامع التطواف.

[٢٧١] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج١٩، ص١٢٣؛ والشعراوي، **تفسير الشعراوي**، ج١٤، ص٨٩٦٤-٨٩٦٥ عند قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ [الدخان:٢٩].

[٢٧٢] أخرجه الحاكم في **المستدرك على الصحيحين**، ج١، ص٣٢٥-٣٢٦.

إن ذلك الإحسان، وتلك الرحمة والرفق تجلت في نصوص نبوية، وترجمت أفعالا تنبض حضارة وإنسانية، وتعكس مدى أحقية عناصر البيئة على الإنسان السوي.

إن تلك النصوص حفزت داعي الإحسان والرحمة بأن رتبت عليها شكر الله ومغفرته، وكفرت بها ذنوبا عظاما؛ فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال:كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فانطلق لحاجته؛ فرأينا حمرة معها فرخان فأخذنا فرخيها؛ فجاءت الحُمَّرة؛ فجعلت تفرش، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «من فجع هذه بولدها، ردوا ولدها إليها»، ورأى قرية نمل قد حرقناها فقال: «من حرق هذه »، قلنا نحن. قال: «إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار»[٢٧٣].

ومرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعير قد لحق ظهره ببطنه؛ فقال: «اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة»[٢٧٤]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بينما رجل يمشي بطريق، اشتد عليه العطش، فوجد بئرا فنزل فيها فشرب، ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله له، فغفر له». فقالوا : يا رسول الله! وإن لنا في هذه البهائم لأجرا فقال :«في كل ذات كبد رطبة أجر»[٢٧٥]، والتصدير بـ"كل" علامة على انسحابه إلى كل الحيوانات[٢٧٦]، وفي صحيح مسلم؛ قال صلى الله عليه وسلم: «بينما كلب يُطيف بركية قد كاد يقتله العطش، إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل، فنزعت موقها، فاستقت له به، فسقته إياه، فغفر لها به»[٢٧٧]، بل بلغ الإحسان إلى الحيوان حتى في حالة ذبحه؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبح، وليحد أحدكم شفرته، وليرح ذبيحته»[٢٧٨].

كما أن السنة نهت عن كل صور العبث بالبهائم والتنكيل بها، وطرحت فاعلها في سلة المطرودين من رحمة الله؛ وما ذلك إلا لغياب معاني الرفق والرحمة؛ كالنهي على أن تُصبَر[٢٧٩]؛ فعن ابن عمر رضي الله عنه: أنه مر بفتيان من قريش قد نصبوا طيرا وهم يرمونه، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من

---

[٢٧٣] أخرجه أبو داود في **سننه**، كتاب الجهاد، باب في كراهية حرق العدو بالنار، ص٣٠١، رقم٢٦٧٣.

[٢٧٤] أخرجه أبو داود في **سننه**، كتاب الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم، ص٢٨٩، رقم٢٥٤٨.

[٢٧٥] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، ج٥، ص٤٠-٤١، رقم٢٣٦٣؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها، ص٩٢٣، رقم٢٢٤٤.

[٢٧٦] ابن بطال، **شرح صحيح البخاري**، ج١، ص٢٦٨؛ ابن أبي جمرة، **بهجة النفوس**، ج١، ص١٥٥.

[٢٧٧] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب السلام، باب فضل سقي البهائم المحترمة وإطعامها، ص٩٢٣، رقم٢٢٤٥.

[٢٧٨] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الصيد والذبائح، باب الأمر بإحسان الذبح،....ص٨٠٩-٨١٠، رقم١٩٥٥.

[٢٧٩] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة، ج٩، ص٦٤٢، رقم٥٥١٣؛ مسلم في **صحيحه**، كتاب الصيد والذبائح، باب النهي عن صبر البهائم، ص٨١٠، رقم١٩٥٦. و"أن تصبر"؛ أي تحبس لترمى حتى تموت.

نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر: من فعل هذا؟ لعن الله من فعل هذا، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن من اتخذ شيئا فيه الروح غرضا»[٢٨٠]، كما نهت عن التحريش بينها[٢٨١]، ونهت عن وسمها، وضربها في وجهها؛ فقد جاء عن جابر رضي الله عنه، قال: «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الضرب في الوجه، وعن الوسم في الوجه»[٢٨٢]، وفي رواية: أن النبي صلى الله عليه وسلم مر عليه حمار قد وسم في وجهه، فقال: «لعن الله الذي وسمه»[٢٨٣]، بل نهت عن لعنها؛ بوب مسلم في صحيحه: باب النهي عن لعن الدواب وغيرها[٢٨٤].

ولما انعدمت الشفقة والرحمة جاء الوعيد جد شديد على تعذيب الحيوان، وقتله؛ ففي حديث ابن عمر رضي الله عنه، أن «رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار، لا هي أطعمتها وسقتها؛ إذ حبستها؛ ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»[٢٨٥].

إن فقهاء الشريعة راعوا تلك المعاني السامية من الإحسان والرحمة وجودا وعدما في حفظ الحيوان؛ فأوجبوا النفقة على مالكه، فإن أبى المالك للحيوان النفقة عليه أو عجز حُكم عليه بإخراجه عن ملكه ببيع أو صدقة أو هبة[٢٨٦]، وقد نص ابن عبد البر في كافيه على أنه: "يجبر الرجل على أن يعلف دوابه أو يرعاها إن كان في رعيها ما يقوم بها أو يبيعها أو يذبح ما يجوز ذبحها، ولا يترك يعذبها بالجوع وغيره"[٢٨٧]، قال ابن عرفة: "لازم هذا القضاء عليه؛ لأنه منكر، وتغيير المنكر واجب القضاء به"[٢٨٨].

وتعدى ذلك حتى إلى الشجر؛ فقالوا:"من كان له شجر ضيعها بترك القيام بحقها، فإنه يؤمر بالقيام فيها، فإن لم يفعل، فإنه مأثوم، ويقال له: ادفعها لمن يخدمها مساقاة لجميع الثمرة"[٢٨٩].

---

[٢٨٠] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الذبائح والصيد، باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة، ج٩، ص٦٤٣، رقم٥٥١٥؛ مسلم في **صحيحه**، كتاب الصيد والذبائح، باب النهي عن صبر البهائم، ص٨١٠، رقم١٩٥٨.

[٢٨١] أخرجه أبو داود في **سننه**، كتاب الجهاد، باب في التحريش بين البهائم، ص٢٩٠، رقم٢٥٦٢.

[٢٨٢] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن ضرب الحيوان في وجهه ووسمه فيه، ص٨٧٧، رقم٢١١٦.

[٢٨٣] أخرجه مسلم، **صحيحه**، كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن ضرب الحيوان في وجهه ووسمه فيه، ص٨٧٧، رقم٢١١٧.

[٢٨٤] مسلم، **صحيح مسلم**، ص١٠٤٣.

[٢٨٥] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، ج٥، ص٤١، رقم٢٣٦٥؛ مسلم في **صحيحه**، كتاب السلام، باب تحريم قتل الهرة، ص٩٢٢، رقم٢٢٤٢.

[٢٨٦] الصاوي، **حاشية على الشرح الصغير للدردير**، ج٣، ص٦٢٢.

[٢٨٧] ابن عبد البر، **الكافي في فقه أهل المدينة**، ص٢٩٩.

[٢٨٨] الحطاب، **مواهب الجليل لشرح مختصر خليل**، ج٤، ص٢٠٧.

[٢٨٩] الحطاب، **مواهب الجليل لشرح مختصر خليل**، ج٤، ص٢٠٨.

ومن غريب ذلك ما ذكره الصاوي في أن الهرة العمياء تحب نفقتها على من انقطعت عنده حيث لم تقدر على الانصراف[٢٩٠]، وهو موافق لما نقله البرزلي حيث قال: "ونزلت مسألة؛ وهي: أن قطّاً عَمِي، وفرغت منفعته؛ فاستُفْتِيَ فيها شيخنا الإمام ابن عرفة؛ فأفتى: بوجوب إطعامه، وأن لا يقتل، وكذلك ما أيس من منفعته لكبَرٍ أو عيب"[٢٩١]، وارتفع دافع الإحسان والرحمة إلى درجة أن المقبل على الصلاة إذا خشي من استعماله الماء لصلاته عطش حيوان، ولو كلبا، ولو في المستقبل، أنه ينتقل إلى التيمم[٢٩٢].

ولا تقف تلك المحفزات إلى هذا الحد، بل تجاوزت عتبة الإبهار والتميز والسبق؛ فصححوا الوصية للحيوان إذا فسرت بصرفها في علفه[٢٩٣]، بل ذهبوا إلى أكثر من ذلك لما قالوا بصحة الوقف على الحيوان والوقف على الحيوان الموقوف عليه[٢٩٤].

كما شهد تاريخنا في بعض الحواضر الإسلامية ترجمة حية لذلك الإحسان، ولتلك الرحمة؛ فتجلى كل ذلك في تحبيسهم على الحيوان الهرم الذي تخلى عنه صاحبه، والوقف على القطط، وعلى العمياء منها، والمكسورة والجريحة يقدم لها الطعام والعلاج، وتعدى ذلك إلى المؤسسات الاستشفائية الوقفية حيث كانت تقدم العناية للحيوانات الجريحة أو المضرورة كطائر اللقلاق؛ فيداوى ويطعم، ومن صورها الباهرة: أن مدينة فاس عرفت بلادا موقوفة على شراء الحبوب برسم الطيور حتى تلتقطها كل يوم من المرتفع المعروف بكدية البراطيل عند باب الحمراء داخل باب الفتوح[٢٩٥].

ولترسيخ ذلك الإحسان وتلك الرحمة إلى نهايتهما؛ شددوا القول عند فقدهما؛ فذكر ابن فرحون المالكي عن ابن القاسم حرمة التفرقة بين البهائم وصغارها في البيع[٢٩٦]، كما منعوا أصحاب البهائم من إذايتها، والعنف عليها؛ كإثقالها بالأحمال التي لا تستقل بها، وإرهاقها في سرعة المشي بالضرب والزجر الشديد؛ فهذا منكر يجب تغييره، ولا حجة لهم في كونها من ملكهم[٢٩٧]، ونص ابن أبي جمرة عند شرحه لحديثه صلى الله عليه وسلم: «كلُّ سلامى من الناس عليه صدقة، كلَّ يوم تطلع فيه الشمس: يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها -أو يرفع عليها متاعه صدقة-، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة»[٢٩٨] على أن

---

[٢٩٠] الصاوي، **حاشية الصاوي على الشرح الصغير**، ج٣، ص٦٢٢.

[٢٩١] البرزلي، **جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكّام**، ج١، ص٦٤٥.

[٢٩٢] الدردير، **الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك**، ج١، ص٢٦٦.

[٢٩٣] النووي، **روضة الطالبين**، ج٥، ص١٠١.

[٢٩٤] عبد القادر بن عزوز، **مدى مشروعية الوقف على الحيوان في الفقه الإسلامي، مجلة أوقاف**، العدد ١٦ (مايو ٢٠٠٩): ص٦٤.

[٢٩٥] بن عزوز، **مدى مشروعية الوقف على الحيوان**، ص٦٧-٦٨.

[٢٩٦] ابن فرحون، **درة الغواص في محاضرة الخواص**، ص٢٤٠.

[٢٩٧] الونشريسي، **المعيار**، ج٢، ص٥٠١.

[٢٩٨] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الجهاد، باب من أخذ بالركاب ونحوه، ج٦، ص١٣٢، رقم٢٩٨٩.

المحمول عليه لا يكلف ما لا يطيق؛ لأن الإعانة على ذلك لا تجوز[٢٩٩]؛ لأن في ذلك تعاون على إسقاط الإحسان والرحمة، كما لاحظوا أنهما يتنافيان مع صيد الحيوان بقصد حبسه للفرجة عليه؛ فاعترى ذلك الصيد مع أنه مباح الحرمة[٣٠٠].

إن ذلك الإحسان، وتلك الرحمة المنقطعي النظير بالبهائم لم يأتيا عن نظر مجرد، بل لما للبهائم من مرتبة في سُلّم المقاصد المرعية؛ فقد ضُمت تلك المرتبة إلى حفظ النفوس[٣٠١]؛ فقدموا بناء على ذلك حفظ الحيوان على حفظ المال؛ فقد نقل القرافي عن الطرطوشي في مسألة خوف أهل السفينة من الغرق، وأنهم لا يخلصون إلا بطرح ما فيها من الأثقال: أنه يبدأ بطرح الأمتعة ثم البهائم[٣٠٢]، وركن إلى هذا القول العز بن عبد السلام[٣٠٣]؛ فأنت ترى تقديمهم إلقاء الأموال قبل الحيوان؛ لما للحيوان من حرمة تسبق حرمة الأموال، وبلغ ابن أبي جمرة بتلك المرتبة إلى أوجها لما أدخل إحياء البهائم وإنقاذها عند شرحه لحديثه صلى الله عليه وسلم: «أَنَّ رَجُلًا رَأَى كَلْبًا يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَشِ، فَأَخَذَ الرَّجُلُ خُفَّهُ، فَجَعَلَ يَغْرِفُ لَهُ بِهِ حَتَّى أَرْوَاهُ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ، فَأَدْخَلَهُ الجَنَّةَ»[٣٠٤] في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢][٣٠٥].

المطالب الثالث: كف الأذى وتوقي الإسراف

إن دفع الأذى والضرر كلية من كليات شريعتنا؛ كلية تتقاسم مع القيم الإنسانية المشتركة؛ كلية تنبئ عن ذم الأذى؛ فتنهى عن إيقاعه ابتداء، وعن إيقاعه على وجه المقابلة لمثله؛ إنها تؤسس للتسامح؛ لأن يكون الفرد مُسالما، محتضنا للرفق في أمره كله؛ قال صلى الله عليه وسلم: «إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله»[٣٠٦]، وفي رواية: «يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه»[٣٠٧]، وقال صلى

---

[٢٩٩] ابن أبي جمرة، **بهجة النفوس**، ج٣، ص١٤٢.

[٣٠٠] النفراوي ، **الفواكه الدواني شرح على رسالة ابن أبي زيد القيرواني**، ج١، ص٤٥٧.

[٣٠١] الونشريسي، **المعيار**، ج٢، ص٥٠١.

[٣٠٢] القرافي، **أنوار البروق في أنواء الفروق**، ج٤، ص٩.

[٣٠٣] العز ابن عبد السلام، **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، ج١، ص٧٣.

[٣٠٤] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب المساقاة، باب فضل سقي الماء، ج٥، ص٤٠-٤١، رقم٢٣٦٣؛ مسلم في **صحيحه**، كتاب السلام، باب فضل سقي الحيوانات المحترمة وإطعامها، ص٩٢٣، رقم: ٢٢٤٤.

[٣٠٥] ابن أبي جمرة، **بهجة النفوس**، ج١، ص١٥٥.

[٣٠٦] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الأدب، باب الرفق في الأمر كله، ج١٠، ص٤٤٩، رقم٦٠٢٤؛ مسلم في **صحيحه**، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام،...ص٨٩٣، رقم٢١٦٥.

[٣٠٧] أخرجه مسلم في **صحيحه** ، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، ص١٠٤٣، رقم٢٥٩٣.

الله عليه وسلم: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شانه»[٣٠٨]، وقال أيضا: «تحرم – النار– على كل قريب هين لين سهل»[٣٠٩].

إن قوله صلى الله عليه وسلم: «لا ضرر، ولا ضرار»[٣١٠]؛ وهو يؤصل لتلك الكلية الكبرى؛ كلية لا يختص مجالها بالفروع الفقهية، بل يتعداه إلى الحس الأخلاقي؛ كلية تعم كل التصرفات؛ فتدخل عناصر البيئة في هذه الكلية؛ فيمنع الإضرار بها، بل يجب كف الأذى عنها، وبذل ما يبقيها؛ وقد عول بعضهم، وهو يرى وجوب بذل الماء الفاضل عن حاجته مجانا لسقي بهائم وزرع غيره[٣١١]؛ بحيث يفضي منعه إلى منع الكلأ على قوله ﷺ: «لا يمنع فضل الماء ليمنع به الكلأ»[٣١٢].

إن كف الأذى عن البيئة يبدأ من تنقيتها وتطهيرها، وما لحق بها من أضرار، وقد يتلمس ذلك في قوله صلى الله عليه وسلم: «بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك على الطريق فأخذه، فشكر الله له فغفر له»[٣١٣]، يعضده حديث: «الإيمان بضع وسبعون، أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ...»[٣١٤] ، وحديث أبي برزة قال: قلت: يا نبي الله! علمني شيئا، أنتفعُ به، قال: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين»[٣١٥]، وما مرّ من قوله صلى الله عليه وسلم: «... ويميط الأذى عن الطريق صدقة».

إن قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِّنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾ [هود:٤٨] يشي بأن أذى عناصر البيئة من أمم الوحوش والطيور والحيوانات والدواب والنباتات، والسعي إلى المس بدورها وإلى التسبب بانقراضها يتنافى مع جملة ﴿وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ﴾؛ فإن كلمة ﴿وَبَرَكَاتٍ﴾ جاءت لتدل أن ما يحمله نوح من كل زوجين اثنين يحتاج إلى بركات الحق سبحانه ليتكاثر[٣١٦] تكاثرا طبيعيا ليقوم بدوره الأساسي في دورات الطبيعة والتوازن البيئي.

---

[٣٠٨] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ،كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، ص١٠٤٣، رقم٢٥٩٤.

[٣٠٩] أخرجه الترمذي في **سننه**، كتاب صفة القيامة، ج٤، ص٦٥٤، رقم٢٤٨٨.

[٣١٠] أخرجه ابن ماجة في **سننه**، كتاب الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره، ج٢، ص٧٨٤، رقم٢٣٤٠.

[٣١١] ابن قدامة، **المغني شرح مختصر الخرقي**، ج٦، ص٣٧٧–٣٧٨؛ ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ج٥، ص٣٢.

[٣١٢] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الحرث والمزارعة، باب من قال: أن صاحب الماء أحق بالماء حتى يُروى ج٥، ص٣١، رقم٢٣٥٣؛ مسلم في **صحيحه**، كتاب المساقاة، باب تحريم بيع فضل الماء الذي يكون بالفلاة ويحتاج إليه لرعي الكلأ، ص٦٤٠، رقم١٥٦٦.

[٣١٣] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب المظالم، باب من أخذ بغصن وما يؤذي الناس في الطريق فرمى به، ج٥، ص١١٨، رقم٢٤٧٢؛ مسلم في **صحيحه**، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق، ص١٠٥٢، ورقم١٩١٤، وفيه«فأخرّه».

[٣١٤] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها،...ص٤٨، رقم٣٥.

[٣١٥] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق ص١٠٥٢، رقم٢٦١٨.

[٣١٦] الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، ج١١، ص٦٤٨٦–٦٤٨٨.

لقد تعاملت شريعتنا بشدة مع من يؤذي البيئة؛ كمن يقطع شجرا عبثا، أو لغير فائدة، أو يؤدي إلى إفنائها؛ فجاء عنه صلى الله عليه ويسلم، أنه قال: «من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار»[٣١٧]. سئل أبو داود عن معنى هذا الحديث، فقال: "هذا الحديث مختصر يعنى من قطع سدرة في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثا وظلما بغير حق يكون له فيها صوب الله رأسه في النار"[٣١٨].

إن كف الأذى عن البيئة لم يغب عن وصية خليفة رسول الله أبي بكر الصديق رضي الله عنه لأمراء الجيش؛ هذا في الحرب، فكيف بحال السلم؛ حيث جاء فيها: "وإني موصيك بعشر ..."، وذكر منها: "..ولا تقطعن شجرا مثمرا، ولا تخربن عامرا، ولا تعقرن شاة ولا بعيرا إلا لمأكلة، ولا تحرقن نحلا، ولا تغرقنه ..."[٣١٩].

لقد تفطن فقهاؤنا لذلك الأذى؛ فنص ابن رشد في مسألة القنوات والمراحيض والكراسي التي تصب في النهر: "الحكم بهذا الضرر واجب والقضاء به لازم، وعلى الحاكم أن ينظر في ذلك إن اتصل به الأمر بعد ثبوته عنده، ويأمر بتغيره"[٣٢٠]، كما أن قاضيا بالقيروان في القرن الثامن منع الميازيب التي تسيل بماء الغسالات، وعزّر من لم يسدها، وشُهر به في الزقاق[٣٢١].

إن تلك التنقية، وذلك التطهير يتناول الغابات، والبحار، والمحيطات، والأنهار، والهواء، وباطن الأرض وظاهرها؛ إنها أصبحت مسارات للإنسان من جهة، ويضمن استمرارها والمحافظة عليها عدم حدوث هزات عنيفة في التغير المناخي، وعدم طرو تلوث يعصف بالأخضر واليابس من جهة أخرى.

إن كل أذى يلحق بيئتنا إلا وله تبعات قرب الزمن أم بعد؛ إن بعض التجارب النووية، وقد مر عليها أكثر من نصف قرن ما زالت آثارها السلبية على البيئة ماثلة للعيان، كما أن بعض تصرفاتنا التي لا نلقي لها بالاً؛ كرمي الأكياس البلاستيكية في الطبيعة أصبحت تشكل أذى للبيئة يستمر لقرون[٣٢٢]؛ أذىً اعترى المحيطات، وأنهار العالم، مسببا فيضانات في مدن العالم النامي[٣٢٣].

إن صحة كوكبنا بكل ما فيه مهددة بالنفايات؛ إن الشخص الأمريكي المتوسط يرمي ما يعادل وزنه من القمامة شهريا، ومع ازدياد سكان العالم، وميلهم أكثر إلى الحضر تضاعف إنتاج النفايات عشر

---

[٣١٧] أخرجه أبو داود في **سننه**، كتاب الأدب، باب في قطع السدر، ص٥٦٢، رقم٥٢٣٩.

[٣١٨] أبو داود، **السنن**، ص٥٦٢.

[٣١٩] أخرجه مالك بن أنس في **موطئه**، باب الجهاد، النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو، ج١، ص٥٧٧، رقم١٢٩٢.

[٣٢٠] الونشريسي، **المعيار**، ج٣، ص٢٧-٢٨، وج٦، ص٤٤١-٤٤٢.

[٣٢١] ابن الرامي، **كتاب الإعلان بأحكام البنيان**، ص٣٨٤-٣٨٦.

[٣٢٢] www.vedura.fr، تاريخ المعاينة: ٢٠١٣/١٢/٠٤.

[٣٢٣] دانيال هورنويج، پريناز بهادا–تاتا، وكريس كنيدي، **يجب وقف نمو معدلات النفايات في هذا القرن**، **مجلة** NATURE– **الطبعة العربية–**، العدد ١٥ (ديسمبر ٢٠١٣): ص٤٦.

مرات مقارنة بالقرن الماضي، وبحلول عام ٢٠٢٥ سوف يتضاعف حجم النفايات، لقد أصبحت النفايات من أكثر الملوثات للبيئة بما فيها غازات الاحتباس الحراري[٣٢٤].

لا تقف تلك التهديدات لوحدها في وجه سلامة بيئتنا، بل ثمة تصرف مذموم غزا حياتنا، وعلاقاتنا مع بيئتنا؛ إنه الإسراف؛ لقد حذرت شريعتنا منه حتى في حال العبادة؛ فقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ بسعد، وهو يتوضأ، فقال: «ما هذا السَّرَفُ يا سعد» قال: أفي الوضوء سَرَفٌ؟، قال: «نعم، وإن كنت على نهر جار»[٣٢٥]، وجاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم يسأله عن الوضوء؟، فأراه ثلاثا ثلاثا؛ قال: «هذا الوضوء، فمن زاد على هذا، فقد أساء وتعدّى وظلم»[٣٢٦]، بإتلافه الماء بلا فائدة[٣٢٧]، بل كان صلى الله عليه وسلم يتوضأ بالمدّ، ويغتسل بالصاع إلى خمسة أمداد[٣٢٨]، وأنه صلى الله عليه وسلم توضأ، فأُتِيَ بإناء فيه ماء قدر ثلثي المد[٣٢٩]، وهذا كله يدل على توجيه أمته، ولو في العبادة أن تجتنب الإسراف في هذا العنصر الحيوي، وهذه سابقة لما يعرف اليوم بـ"اقتصاد البيئة"[٣٣٠].

---

[٣٢٤] هورنويج، بهادا—تاتا، وكنيدي، **يجب وقف نمو معدلات النفايات**، ص٤٦.

[٣٢٥] أخرجه الإمام أحمد في **مسنده**، ج١١، ص٦٣٦-٦٣٧، رقم٧٠٦٥.

[٣٢٦] أخرجه الإمام أحمد في **مسنده**، ج١١، ٢٧٧، رقم٦٦٨٤.

[٣٢٧] العظيم آبادي، **عون المعبود شرح سنن أبي داود**، ج١، ص٢٢٩.

[٣٢٨] أخرجه البخاري في **صحيحه**،كتاب الوضوء، باب الوضوء بالمد، ج١، ص٣٠٤، رقم٢٠١؛ مسلم في **صحيحه**، كتاب الحيض، باب القدر المستحب من الماء في غسل الجنابة...، ص١٤٨، رقم٣٢٥.

[٣٢٩] أخرجه أبو داود في **سننه**، كتاب الطهارة، باب ما يجزئ من الماء في الوضوء، ص٣٤، رقم٩٤.

[٣٣٠] جاء في الموقع المتخصصwww.futura-sciences.com ، تاريخ المعاينة:٢٠١٣/٠٤/١٣:"

Comment économiser l'eau chez soi ?

Préoccupation vitale dans certains pays, l'accès à l'eau en France est en général facile et peu coûteux. Mais avec le développement des consciences écologiques et l'augmentation régulière des factures d'eau, trouver des astuces pour économiser l'eau chez soi devient impératif. En voici quelques-unes.

Économiser l'eau en arrosant les plantes le matin:

Il est préférable d'arroser les plantes au niveau des racines, tôt le matin ou en soirée pour limiter l'évaporation de l'eau. Privilégier des plantes peu gourmandes en eau et installer un récupérateur d'eau de pluie (une cuve autonome ou bien raccordée aux gouttières) est une solution. Pour garder l'humidité des sols, les espaces autour des plantes peuvent être paillés.

Salle de bains et WC : la douche plutôt que le bain:

La salle de bain et les WC sont un poste important des dépenses d'eau. Il est pourtant facile d'économiser plusieurs mètres cubes d'eau, en remplaçant un ancien modèle de toilettes par des WC à double débit, qui offrent le choix entre une chasse de 3 ou de 6 litres. La douche, de 20 à 60 litres, est à préférer au bain, d'environ 150 litres. De plus, installer des mitigeurs thermostatiquespermet de ne plus perdre de temps (et d'eau) à régler la température au robinet.

De l'électroménager à faible consommation énergétique et hydrique:

À l'achat de nouveaux appareils électroménagers, il est conseillé d'être attentif à leur consommation énergétique et hydrique. Lors de l'utilisation des lave-linge et lave-vaisselle, il vaut mieux qu'ils soient pleins pour les faire fonctionner. Pour encore plus d'économies, on peut installer des réducteurs ou économiseurs d'eau sur les robinets et pommeaux de douche : pour le même confort (puissance du jet), le débit utilisé est amoindri.

Couper l'eau quand on se brosse les dents:

Enfin, n'oublions pas de couper l'eau pendant le brossage des dents, le savonnage des mains ou le lavage de la vaisselle. De plus, restons attentif à la moindre fuite, en comparant les chiffres du compteur d'eau entre le matin et le soir.

إن قوله تعالى في قصة نوح عليه السلام: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ [هود:٤٤]، يومي إلى ذم الإسراف في الماء، ويقاس على ذلك باقي عناصر البيئة، ويقوي ذلك قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام:١٤١]، قال عطاء بن أبي رباح في هذه الآية: "نهوا عن الإسراف في كل شيء"، وصوبه ابن جرير الطبري في تفسيره[٣٣١].

خاتمة:

يأبى هَمُّ البيئة وأشجانها إلا أن يكون حاضرا بقوة في "قمة الإليزي من أجل السلام والأمن في إفريقيا"، والمنعقدة بباريس يومي ٦، و٧ ديسمبر٢٠١٣ وبمشاركة ٥٣ وفدا إفريقيا، وفرنسا، وممثلي الأمم المتحدة، الاتحاد الإفريقي، الاتحاد الأوروبي، صندوق النقد الدولي، البنك العالمي، والبنك الإفريقي للتنمية.

إن ذلك الهم ترجم في البيان الختامي لتلك القمة؛ فنص على ضرورة السعي للحد من الارتفاع الحراري للأرض، كما دعت القمة إلى ترقية برنامج إيجابي لمجابهة التغير المناخي مع تهئية كل الظروف، بما فيها التمويلية لإنجاح هذا البرنامج.

إن ذلك البيان لم يغفل دعوة كل الفاعلين إلى ضرورة مضاعفة الإجراءات، ومنها التشريعية التي ترمي إلى بلوغ الهدف العام المرجو بلوغه في المعاهدة التي ستنعقد بباريس سنة ٢٠١٥(COP 21) حول التغير المناخي[٣٣٢].

إن التشريعات، المعاهدات، المواثيق، الحملات الانتخابية وغيرها في المحافظة على البيئة وحمايتها بلغت حد التخمة، ومع كل ذلك لا يمر يوم إلا وتتعرض بيئتنا إلى مزيد من الأضرار؛ أضرار في الهواء، في باطن الأرض وظاهرها، في مياهها، في أنهارها، في بحارها، محيطاتها، في غاباتها.

إن تلك الأضرار سواء الآنية أو الاستشرافية دفعت بـ"حقوق البيئة" أو قل "حقوق الأرض" إلى أن تزاحم"حقوق الإنسان" في المحافل، بل أصبحتا توأمين يذكران جنبا إلى جنب.

إن التحذيرات الصادرة من خبراء البيئة، ومن خبراء المناخ، ومن المنظمات المهتمة بالبيئة لم تلق بعد آذانا صاغية بما فيه الكفاية بدأ من صناع القرار، وانتهاء بالمواطن البسيط.

لقد آن الأوان أن يُلتفت إلى المشاعر، إلى العواطف، إلى القيم الإنسانية المشتركة، إلى الحس الأخلاقي، إلى استثارته، إلى تحفيزه، إلى تفعليه، وإلى الاستنجاد به، لعل كل ذلك يربي فينا الخوف على بيئتنا كالخوف على أنفسنا وأموالنا.

---

[٣٣١] الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، ج١٢، ص١٧٤، و١٧٦.

[٣٣٢] – www.elysee.fr، تاريخ المعاينة: ٢٠١٣/١٢/٠٧.

لقد آن الأوان أن تلقح تلك الترسانة القانونية والتشريعية بتركيز عال بحقنات أخلاقية؛ تملأ بشكر الخالق سبحانه، وتوفية أمانة الاستخلاف على وجهها، وتصبغ بالإحسان والرحمة، ويغرس فيها معان تذم الأذى والإسراف.

لقد آن الأوان أن تربى الأجيال على تلك المعاني السامية في رعاية البيئة، ولتحتضن المنظومة التعليمية، وخاصة في الأطوار الأولى برنامجا يرفع التربية إلى الصدارة، ولتتبع بزيارات ميدانية لعناصر البيئة حتى يشب الطفل على علاقة حميمية بها؛ فينشأ لديه حرص على حمايتها، ويدرك أنها ركن أساسي في بقائه، وبقاء كوكبه.

لا مناص من خوض هذه التعبئة؛ إنها ملاذنا في إنقاذ بيئتنا، في حماية صحة كوكبنا، بل في حماية بقاءنا على أرضنا، كما لا غنى أن يُفعّل دور الأسرة والمسجد، وسائر دور العبادة الأخرى، والوسائط الإعلامية بمختلف أنواعها في تكوين تربية بيئية؛ تكوين لا يفتر، لا يقتصر على المناسبات، بل وفق خطة ممنهجة متكاملة؛ واضحة المعالم والأهداف.

المصادر والمراجع:

١. ابن أبي جمرة، عبد الله الأندلسي، **بهجة النفوس وتحليها بمعرفة ما لها وما عليها شرح مختصر صحيح البخاري**، (بيروت: دار الجيل، د.ط، د.ت).

٢. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، **مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د، ط، ١٩٩٩م).

٣. ابن بطال، علي بن خلف بن عبد الملك، **شرح صحيح البخاري**، (الرياض: مكتبة الرشد، د.ط، د.ت).

٤. ابن جرير الطبري، أبو جعفر محمد، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، د,ط، د.ت).

٥. ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، (يروت: دار المعرفة، د,ط، د,ت).

٦. ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله، **الكافي في فقه أهل المدينة**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٧م).

٧. ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبدالله القرطبي، **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، (المحمدية- المغرب-: مطبعة فضالة، د.ط، ١٩٨٢م).

٨. ابن عطية، عبد الحق بن غالب الأندلسي، **المحرر الوجيز**، (بيروت: دار الكتب العلمية، د,ط، ٢٠٠١م).

٩. ابن فرحون، إبراهيم برهان الدين، **درة الغواص في محاضرة الخواص**، تحقيق: محمد أبو الأجفان، عثمان بطيخ، (بيروت: مؤسسة الرسالة، د.ط ١٩٨٥م).

١٠. ابن قدامة، أبو محمد عبد الله بن أحمد، **المغني شرح مختصر الخرقي**، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، عبد الفتاح محمد الحلو،(الرياض: دار عالم الكتب، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٩٧م).

١١. ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، **السنن**، تحقيق: محمد فؤدا عبد الباقي، (القاهرة: دار إحياء التراث العربي، د.ط، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م).
١٢. أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، **السنن**، (الرياض: بيت الأفكار الدولية، د.ط، د.ت).
١٣. أحمد بن حنبل، **المسند**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١ ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).
١٤. البخاري، محمد بن إسماعيل، **الجامع الصحيح**، (بيروت: دار المعرفة، د.ط، د.ت).
١٥. البرزلي، أبو القاسم بن أحمد البلوي ، **جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام**، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، د.ط، ٢٠٠٢م).
١٦. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، **السنن**، تحقيق: إبراهيم عطوه عوض، (القاهرة: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط١، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م).
١٧. الحاكم، أبو عبد الله النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، (بيروت: دار المعرفة، د.ط، د.ت).
١٨. حبنكة الميداني، عبد الرحمن حسن، **الأخلاق الإسلامية وأسسها**، (دمشق: دار القلم، د.ط، ١٩٩٩م).
١٩. الحطاب، أبو عبد الله محمد، **مواهب الجليل لشرح مختصر خليل**، (بيروت:دار الفكر، د.ط، ١٩٨٧م).
٢٠. دانيال هورنويج، پريناز بهادا–تاتا، وكريس كنيدي، "**يجب وقف نمو معدلات النفايات في هذا القرن**"، (مجلة NATURE–الطبعة العربية–، العدد ١٥، ديسمبر، ٢٠١٣م).
٢١. الدردير، أبو البركات أحمد بن محمد، **الشرح الصغير على أقرب المسالك إلى مذهب الإمام مالك**، (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي، د.ط، د.ت).
٢٢. السرطاوي، فؤاد عبد اللطيف، **البيئة والبعد الإسلامي**، (عمّان: دار الميسرة، د.ط، ١٩٩٩م).
٢٣. الشعراوي، محمد متولي، **تفسير الشعراوي**، (القاهرة: مطابع أخبار اليوم، د.ط، دت).
٢٤. الصاوي، أحمد بن محمد المالكي، **حاشية على الشرح الصغير للدردير**، (القاهرة: مطبعة عيسى البابي الحلبي).
٢٥. عبد القادر بن عزوز، **مدى مشروعية الوقف على الحيوان في الفقه الإسلامي**، (مجلة أوقاف، العدد ١٦، مايو، ٢٠٠٩م).
٢٦. عبد الله الّداودي، "**كتاب الإعلان بأحكام البنيان تصنيف المعلم أبي عبد الله محمد بن إبراهيم اللخمي، شهر بابن الرامي التونسي**"، (مجلة الفقه المالكي والتراث القضائي بالمغرب، الأعداد: ٢، ٣، ٤، سبتمبر، ١٩٨٢م).
٢٧. العز، أبو محمد ابن عبد السلام، **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، (بيروت: مؤسسة الريان، د.ط، ١٩٩٠م).
٢٨. العظيم آبادي، أبو الطيب شمس الحق، **عون المعبود شرح سنن أبي داود**، (المدينة المنورة: المكتبة السلفية، ١٩٦٨م).
٢٩. الغزالي، محمد، **خلق المسلم**، (القاهرة: نهضة مصر، د.ط، ٢٠٠٥م).
٣٠. الفاضل بن عاشور، محمد، **روح الحضارة الإسلامية**، (الرياض: دار العالمية للكتاب، د.ط، الإسلامي، ١٩٩٢م).
٣١. القاسم بن سلام، أبو عبيد، **الأموال**، (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، د.ط. ١٩٨١م).

٣٢. القرافي، أحمد بن إدريس، **الذخيرة**، (بيروت: عالم الكتب، د.ط، د.ت).
٣٣. القرافي، أحمد بن إدريس، **أنوار البروق في أنواء الفروق**، (بيروت: عالم الكتب، د.ط، د.ت).
٣٤. القرضاوي، يوسف، **رعاية البيئة في شريعة الإسلام**، (القاهرة: دار الشروق، د.ط، ٢٠٠١م).
٣٥. القرطبي، محمد بن أحمد، **الجامع لأحكام القرآن**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، د.ط، ٢٠٠٦م).
٣٦. مالك بن أنس، **الموطأ**. تحقيق: بشار عواد، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٤٧هـ/١٩٩٧م).
٣٧. مالك بن نبي، **شروط النهضة**، (دمشق: دار الفكر، د.ط، ١٩٨٦م).
٣٨. مجلة NATURE-الطبعة العربية-، (العدد ١٤، نوفمبر، ٢٠١٣م).
٣٩. مسلم، ابن الحجاج القشيري النيسابوري، **الصحيح**، (الرياض: بيت الأفكار الدولية، د.ط، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م).
٤٠. النفراوي، أحمد بن غنيم الأزهري، **الفواكه الدواني شرح على رسالة ابن أبي زيد القيرواني**، (بيروت: دار المعرفة).
٤١. النووي، أبو زكريا يحي بن شرف، **روضة الطالبين**، (الرياض: دار عالم الكتب، د.ط، ٢٠٠٣م).
٤٢. الونشريسي، أحمد بن يحي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إقريقية والأندلس والمغرب**، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، د.ط، ١٩٨١م).

رابعا: مواقع الإنترنت

- www.dossierfamilial.com
- www.elysee.fr
- www.futura-sciences.com
- www.globalcarbonproject.org
- www.lemonde.fr
- www.nature.com
- www.vedura.fr

ملامح من حفظ البيئة الوجودي والعدمي
في القرآن الكريم والسنة النبوية

د. عمار بن عبد الله ناصح علوان[٣٣٣]

ملخص البحث:

رسخّ القرآن الكريم حفظ البيئة بنوعيه في نفوس المؤمنين في مواضع شتى وفي مناسبات عدة، ففي سورة وفي عدالة الإنسان في النظرة إلى شريكيه (الحيواني والنباتي) في العيش على الأرض. فالله قد جعل كل دابة تدب على الأرض أمة أمثالنا، فقد جاء في السنة: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها»، وهي شارحة القرآن، واجتهادات الفقهاء متماشية مع مفهوم الآية الكريمة. وفي قصة نوح أمر صريح من الله تعالى بحفظ النوع الحيواني من الانقراض، وهذا الأمر متماشٍ مع العدل الرباني ألا تباد الحيوانات شريكة الإنسان على الأرض بجريرة معاصي الإنسان. والجديد الذي سوف يضيفه هذا البحث الوحدة الموضوعية في حفظ البيئة في سورة الرحمن. ويهدف هذا البحث إلى تأسيس الحفظ البيئي بنوعيه في الإسلام، ودرء الشبهات حول ذلك. مستخدما المنهج الاستقرائي الاستنباطي من خلال النظر في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

شرح مصطلح البيئة ومراده في هذا البحث:

بادي ذي بدء هل لفظة "البيئة" لفظة مترجمة من اللغة الإنجليزية (Environment) أم هي عربية خالصة؟ رأى الدكتور حسن الربابعة أن لفظة البيئة عربية خالصة، ودلل على ذلك بالآتي:

البيئة لغة اسم مشتق من الفعل الماضي "باء" و"بوأ" ومضارعه "يبوء"، وأشهرُ معانيه التي تهمنا يرجع إلى الفعل باء الذي مضارعه "يتبوّأ" بمعنى ينزل ويقيم، كما هو في أساس البلاغة[٣٣٤] وفي معاجم اللغة كاللسان[٣٣٥]، والقاموس المحيط[٣٣٦]، تحديد معنى البيئة بمعنى المنزل الطيِّب، فتقول: نزل في مباءتهم بمعنى أناخوا إليهم في المباءة وهي معاطنها.

وفي لسان العرب بوّأهم منزلاً يعني نزل بهم إلى سند جبل، وأبأتُ المكان أي أقمتُ فيه. وتبوآ لقومكما بيوتاً في مصر أي اتخذا، وقيل من معاني تبوّأ بمعنى أصلح المكان وهيّأه ليتخذه الإنسان مكاناً، وتبوأ بمعنى نزل ومباءة الغنم معطنها الذي تنام فيه.

---

[٣٣٣] محاضر أول في كلية الشريعة والقانون، جامعة السلطان الشريف علي الإسلامية.

[٣٣٤] الزَّمخشري، **أساس البلاغة**، مادة "بوأ".

[٣٣٥] ابن منظور، **لسان العرب**، مادة "بوأ".

[٣٣٦] الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، مادة "باء".

والبيئة: هي اسم، واستباءه اتخذه مباءة، وتبوّأت منزلاً بمعنى نزلته وحللت فيه.

وفي الصحاح للجوهري: المباءة منزلُ القوم في كلِّ موضع، ويقال في كل منزل ينزله القوم[٣٣٧]. ثم استدل الباحث بآيات قرآنية ذكرت فيها لفظة بوأنا ومشتقاتها[٣٣٨].

والبيئة في الاصطلاح: يمكن أن نجعل لتعريف البيئة نوعين من التعاريف:

التعريف الأول: التعريف الإجمالي وتعريفي لها: البيئة هي كل ما أحاط بالإنسان وأثّر فيه.

التعريف الثاني : وهو التعريف التفصيلي: قسّم أهل الاختصاص البيئة إلى نوعين:

- **النوع الأول**: العناصر الحية. وهي عديدة تشمل الإنسان، والنبات والحيوان، وتعيش هذه العناصر على اختلاف أشكالها، في نظام حركي متكامل، كل عنصر يتأثر بالعناصر الأخرى، ويؤثر فيها، ويؤدي دوراً خاصاً به، ويتكامل مع أدوار العناصر الأخرى، ويأتي الإنسان على قمة هذه العناصر فينسق بينها ويسخرها لخدمته.

- **النوع الثاني**: العناصر غير الحية: وأهمها الماء والهواء والتربة، وكل عنصر منها يشكل محيطاً خاصاً به، فهناك المحيط المائي ويشمل كل ما على الأرض من مصطلحات مائيةوهناك المحيط الجوي أو الهوائي ويشتمل على غازات وجسيمات وأبخرة وذرات معادن. وأخيراً هناك المحيط اليابس أو الأرضي ويشمل الجبال والهضاب والتربة. ويلاحظ أن هذه الأوساط أو المحيطات ترتبط ببعضها البعض، وبمكونات العالم الحي، أو العناصر الحية السابق ذكرها، بعلاقات متكاملة متوازنة والاختلال الذي يلحق بالتوازن البيئي يتأتى من ازدياد أو نقصان، غير طبيعي، لعنصر من عناصر النظام البيئي، الذي يحكم كل بيئة من تلك البيئات، بفعل تأثير خارجي، كتلوث الماء، أو الهواء، أو التربة، أو انقراض بعض النباتات أو الحيوانات أو غيرها ويمثل الإنسان أحد العوامل الهامة في هذا النظام البيئي، بل هو يعتبر من أهم عناصر الاستهلاك التي تعيش على الأرض، ولذلك فإن الإنسان إذا تدخل في هذا التوازن الطبيعي دون وعي أو تفكير، فإنه يفسد هذا التوازن تماماً[٣٣٩].

وعلى هذا التعريف التفصيلي يدخل أمر الله الناس ألا يطغوا في الميزان الذي يدخل فيه كل شيء خلقه الله تعالى في الوجود. ومن نظر إلى المقاصد الشرعية والتوجيهات والأوامر النبوية يجدها تنصب حول هذا المعنى وترشد المكلفين إليه.

ترسيخ مفهوم حفظ البيئة بنوعيه (الوجودي والعدمي) في القرآن:

جاءت العديد من الآيات في القرآن الكريم –فضلا عن سورة الرحمن– ترسخ مفهوم حفظ البيئة بنوعيه (الوجودي، والعدمي)، والترسيخ يتم من خلال أمرين:

---

[٣٣٧] الجوهري، **الصحاح**، مادة "بوأ". ينظر: الربابعة، **مقالة مفهوم البيئة في القرآن الكريم**.

[٣٣٨] سلامة، **البيئة وحقوق الإنسان في القوانين الوطنية والمواثيق الدولية**.

[٣٣٩] شحاتة، **التلوث فيروس العصر**، ص١٧.

الأمر الأول: ترسيخ مفهوم الحفظ البيئي في القرآن الكريم: ويتضمن التأكيد على حق مخلوقات الله تعالى العيش مع الإنسان جنبا إلى جنب، وأنها أمم أمثالنا لها حق البقاء والتناسل في الحياة ما بقيت للإنسان حياة في هذا الكوكب، فيجب على الإنسان العدل معها وألا تظلم من الإنسان وجاء أمر إلهي صريح لنبي الله نوح بحفظ النوعي البيئي بشقيه: الحيواني والنباتي في سفينته بعد الطوفان الذي عمّ المعمورة بسبب معاصي الإنسان ولا جريرة للحيوان والنيات أو الجماد بأن تهلك أو تفنى. وفي سورة الرحمن بيّن الله تعالى أن الأرض لم تضع فقط للإنسان، بل وضعت للأنام –وهي كل نسمة مخلوقة– وهذه الآيات وأمثالها يمكن أن تدرج تحت مسمى: "فلسفة الحفظ البيئي في القرآن الكريم.

الأمر الثاني: ترسيخ حفظ البيئة عن كل ما يعدمها: جاءت كثير من الآيات القرآنية تنهي عن جميع أنواع الفساد في الأرض –كما سيأتي في سورة البقرة– و جاء أيضا الأمر بعدم الطغيان في ميزان الله تعالى الذي وضعه الله تعالى في توازن بيئة الكون–كما في سورة الرحمن–. وهذا كله من أجل أن تحفظ بيئة الأرض عما يفسدها ويخرجها عن نظامها وتوازنها.

بيان العلاقة بين العدل مع البيئة والفساد في الأرض:

العدل مع البيئة يعني احترام سنن الله في ناموسه الذي وضعه لكافة المخلوقات، فالله تعالى لم يضع الأرض للإنسان فقط، بل لجميع المخلوقات التي فيها روح، كما سيأتي في تفسير ابن عباس رضى الله عنهما والفساد تعريفه هو الاختلال وعدم الانتظام[٣٤٠] والعدل هو الانتظام. والمتأمل يلحظ أن سورة البقرة –وهي أول سورة ترتيبا في القرآن الكريم– قد ذكر فيها مادة الفساد في مواضع عدة ففي بداية السورة بيّن الله صفات المنافقين وكانت أهم صفاتهم الإفساد في الأرض. قد يستدرك مستدرك لماذا قدّم الله تعالى بيان معان الافساد في الأرض على معان العدل مع البيئة؟

الجواب في هذا –والله تعالى أعلم– أن الفساد في الأرض التي بينته الآية ﴿ليهلك الحرث والنسل﴾ [البقرة:٢٠٥]، وهلاك الحرث والنسل معلوم آثاره لكل من له أدنى بصيرة بخلاف العدل مع البيئة الذي قد يجهل محاسنه لدى بعض الناس.

تفسير الآية : ﴿وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل﴾ [البقرة:٢٠٥].

---

[٣٤٠] جاء في الموسوعة القرآنية للأبياري حرف الفاء: "الفساد خروج الشيء عن الاعتدال، قليلا كان الخروج عنه أو كثيرا، ويضاده الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة، يقال: فسد فسادا وفسودا، وأفسده غيره، قال تعالى: ﴿لفسدت السماوات والأرض﴾ [المؤمنون:٧١]، ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ [الأنبياء:٢٢]، ﴿ظهر الفساد في البر والبحر﴾ [الروم:٤١]، ﴿والله لا يحب الفساد﴾ [البقرة:٢٠٥]، ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض﴾ [البقرة:١١]، ﴿ألا إنهم هم المفسدون﴾ [البقرة:١٢]، ﴿ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل﴾ [البقرة:٢٠٥]، ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها﴾ [النمل:٣٤]، ﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾ [يونس:٨١]، ﴿والله يعلم المفسد من المصلح﴾ [البقرة:٢٢٠]".

جاء في تفسير السمعاني: فيه نزلت الآية أيضا[٣٤١]؛ فإنه خرج من عند النبي فرأى حمارا فعقره، ومر بزرع فأحرقه فهذا معنى قوله: ﴿سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل﴾. فالحرث: الزَّرْع. والنسل: ولد كل دَابَّة الراغب"[٣٤٢].

تحدث الشيخ يوسف القرضاوي عن أنواع الإفساد في الأرض: يشمل الإفساد المادي بتخريب العامر، وإماتة الأحياء، وتلويث الطّاهرات، وتبديد الطّاقات، واستنزاف الموارد في غير حاجة ولا مصلحة، وتعطيل المنافع وأدواتها. كما تشمل الإفساد المعنوي، كمعصية الله تعالى، ومخالفة أمره، والكفر بنعمته، والتمرُّد على شريعته، والاعتداء على حرماته، وإشاعة الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وترويج الرذائل، ومحاربة الفضائل، وتقديم الأشرار، وتأخير الأخيار، وتجبُّر الأقوياء على الضعفاء، وقسوة الأغنياء على الفقراء[٣٤٣].

الآيات القرآنية التي جاءت بحفظ النوع البيئي:

جاءت آيتان في موضعين من القرآن الكريم التي أمر الله فيها نبيه نوح –عليه السلام– بحفظ الأنواع من كل زوجين اثنين:

- الآية الأولى: ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [المؤمنون:٢٧].
- الآية الثانية: ﴿قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [هود:٤٠].

والآيتان السابقتان تفيدان العموم لحفظ مخلوقات الله تعالى في الأرض (الحيوان والنبات والجماد)، ولا تخص الحيوان فقط؛ لأن لفظة "كل" في العربية تفيد العموم والاستغراق، وهذا الفهم يوافق تفسير ابن عباس رضي الله عنهما. قال ابن عباس: وحمل فيها من كل زوجين اثنين. قال ابن عباس: فكان أول ما حمل الذرة[٣٤٤]. وجاء في تفسير الطبري: وحمل فيها من كل زوجين اثنين مما فيه الروح والشجر[٣٤٥]. وهذا الشمول والاستغراق بأمر الله تعالى لنوح عليه السلام بحفظ من كل زوجين اثنين نستطيع أن نفهم منه سر التغاير بين صيغة الأمرين في سورة المؤمنين، وهو اسلك ومعناه الدخول، فمعنى الآية –كما جاء في تفسير الهداية في بلوغ النهاية–: فادخل في الفلك، يقال: سلكته في كذا وأسلكته أدخلته[٣٤٦]. وهذا الأمر ينصرف إلى جميع ما يدب على اليابسة؛ إذ يتطلب من نوح عليه السلام إدخالهم في السفينة. أما الحمل

[٣٤١] هو الأخنس بن شريق حليف بني زهرة. ينظر: السمعاني، **التفسير**، ج١، ص٢٧.

[٣٤٢] السمعاني، **التفسير**، ج١، ص٢٨.

[٣٤٣] القرضاوي، **الركائز الإسلامية لرعاية البيئة**، ص٧.

[٣٤٤] الماوردي، **النكت والعيون**، ج٢، ص٤٤٣.

[٣٤٥] الطبري، **التفسير**، ج١٥، ص٣١٤.

[٣٤٦] الطبري، **التفسير**، ج٧، ص٤٩٦.

فيعود إلى الأنواع التي لا تدب إلى الأرض مثل الأشجار وسائر أنواع النبات، بل حتى الجماد –كما سبق في تفسير ابن عباس رضي الله عنهما– فلا بد لنوح عليه السلام من حملها إلى السفينة.

تفسير الآية ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون﴾ [الأنعام:٣٨].

جاء في تفسير عبدالرازق الصنعاني عن معمر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾ [الأنعام:٣٨]، يقول: "الطير أمة، والإنس أمة، والجن أمة"[٣٤٧].

وأكثر كتب التفاسير صبت تفسيرها على معنى الجزاء والحشر لتلك المخلوقات لأثر ورد عن أبي هريرة رضى الله عنه في قوله تعالى: ﴿إلا أمم أمثالكم﴾ [الأنعام:٣٨]، قال: "يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة البهائم، والدواب، والطير، وكل شيء، فيبلغ من عدل الله يومئذ أن الله يأخذ للجماء من القرناء". قال: "ثم يقول: كوني ترابا". قال: "فلذلك يقول الكافر: ﴿يا ليتني كنت ترابا﴾ [النبأ:٤٠][٣٤٨] مع أن تفسير ابن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن، قد رأى أن موتها حشرها[٣٤٩]. لكن يهمنا من معان هذه الآية هو أن الله تعالى أراد إخبارنا أن هذه المخلوقات التي خلقها الله أمم أمثالنا –نحن البشر– لها حق العيش في الأرض ولا ينبغي لها أن تباد من وجه الأرض أو أن تنقرض حتى لو أضرت بعضها بالانسان، ولا يقال إن هذا الفهم متكلف ليواطئ موضوع البحث. فهذا الفهم له ما يؤيده من السنة النبوية، عن عبد الله بن مغفل، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لولا أن الكلاب أمة من الأمم لأمرت بقتلها، فاقتلوا منها الأسود البهيم»[٣٥٠]. فالنبي محمد صلى الله عليه وسلم قد همّ أن يأمر بقتل الكلاب التي كانت تؤذي الناس بنباحها على الآمنين، لكنه انصرف عن ذلك صلى الله عليه وسلم بأن الكلاب أمة من الأمم –كما في مفهوم الآية السابق – فإذا يفهم من الآية أن كل ما يدب على الأرض أو طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالنا لها حق العيش في الأرض. قال الإمام الخطابي تعليقاً على قوله ﷺ: «لولا أن الكلاب أمة لأمرت بقتلها...» معنى هذا الكلام أن النبي ﷺ كره إفناء أمة من الأمم، وإعدام جيل من الخلق، لأنه ما من خلق لله عز وجل إلا فيه نوع من الحكمة، وضرب من المصلحة، يقول إذا كان الأمر على هذا ولا سبيل إلى قتلهن كلهن، فاقتلوا شرارهن، وهي السود البهم، وأبقوا ما سواها لتنتفعوا بهن في الحراسة[٣٥١].

---

[٣٤٧] عبد الرزاق، **التفسير**، ج٢، ص٤٩.

[٣٤٨] عبد الرزاق، **التفسير**، ج٢، ص٤٦.

[٣٤٩] الطبري، **التفسير**، ج١١، ص٣٤٦.

[٣٥٠] أخرجه أبو داود في **سننه**، ج٢، ص١٢٠، رقم٢٨٤٥؛ والترمذي في **سننه**، ج٤، ص٧٨، رقم١٤٨٦؛ وابن حبان في **صحيحه**، ج١٢، ص٤٧٣. وقال الترمذي: "حديث حسن صحيح".

[٣٥١] الخطابي، **معالم السنن شرح سنن أبي داوود**، ج٤، ص٢٨٩.

ويؤيد المعنى السابق حديث آخر عن أبي هريرة، عن رسول الله ﷺ: «أن نملة قرصت نبيا من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح؟»[٣٥٢]. وعنه أيضا: أن رسول الله ﷺ قال: «نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة فلدغته نملة، فأمر بجهازه، فأخرج من تحتها، ثم أمر ببيتها، فأحرق بالنار، فأوحى الله إليه: فهلا نملة واحدة»[٣٥٣].

فالله قد عاتب نبيا من أنبيائه على حرقه قرية من النملة أو مجمعا من النمل ليعلم الله المؤمنين العدل في العقوبة حتى الحيوان، بل مع أصغر ما يدب من مخلوقات الله، فإذا أوذيت منها فاقتل ما أوذيت ولا تتعدى العقوبة إلى إبادة قرية من النمل. جاء في تفسير القرطبي: روى مسلم من حديث أبي هريرة عن رسول ﷺ: «أن نملة قرصت نبيا من الأنبياء فأمر بقرية النمل فأحرقت..» وفي طريق آخر: «فهلا نملة واحدة». قال علماؤنا: يقال إن هذا النبي هو موسى عليه السلام، وإنه قال: يا رب تعذب أهل قرية بمعاصيهم وفيهم الطائع. فكأنه أحب أن يريه ذلك من عنده، فسلط عليه الحر حتى التجأ إلى شجرة مستروحا إلى ظلها، وعندها قرية النمل، فغلبه النوم، فلما وجد لذة النوم لدغته النملة فأضجرته، فدلكهن بقدمه فأهلكهن، وأحرق تلك الشجرة التي عندها مساكنهم، فأراه الله العبرة في ذلك آية: لما لدغتك نملة فكيف أصبت الباقين بعقوبتها! يريد أن ينبهه أن العقوبة من الله تعالى تعم فتصير رحمة على المطيع وطهارة وبركة، وشرا ونقمة على العاصي. وعلى هذا فليس في الحديث ما يدل على كراهة ولا حظر في قتل النمل، فإن من آذاك حل لك دفعه عن نفسك، ولا أحد من خلقه أعظم حرمة من المؤمن، وقد أبيح لك دفعه عنك بقتل وضرب على المقدار، فكيف بالهوام والدواب التي قد سخرت لك وسلطت عليها، فإذا آذاك أبيح لك قتله. وروي عن إبراهيم: ما آذاك من النمل فاقتله. وقوله: "ألا نملة واحدة" دليل على أن الذي يؤذي يؤذى ويقتل، وكلما كان القتل لنفع أو دفع ضرر فلا بأس به عند العلماء. وأطلق له نملة ولم يخص تلك النملة التي لدغت من غيرها، لأنه ليس المراد القصاص، لأنه لو أراده لقال ألا نملتك التي لدغتك، ولكن قال: ألا نملة مكان نملة، فعم البرئ جاني بذلك، ليعلم أنه أراد أن ينبهه لمسألته ربه في عذاب أهل قرية وفيهم المطيع والعاصي. وقد قيل: إن هذا النبي كانت العقوبة للحيوان بالتحريق جائزة في شرعه .. وأما شرعنا فقد جاء من حديث ابن عباس وأبي هريرة النهي عن ذلك. وقد كره مالك قتل النمل إلا أن يضر ولا يقدر على دفعه إلا بالقتل. وقد قيل: إن هذا النبي إنما عاتبه الله حيث انتقم لنفسه بإهلاك جمع آذاه واحد، وكان الأولى الصبر والصفح، لكن وقع للنبي أن هذا النوع مؤذ لبني آدم، وحرمة بني آدم أعظم من حرمة غيره من الحيوان غير الناطق، فلو انفرد له هذا

[٣٥٢] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج٤، ص١٧٥٩.

[٣٥٣] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٣، ص١٢٠٦، رقم٣١٤١؛ ومسلم في **صحيحه**، ج٤، ص١٧٥٩، رقم٢٢٤١.

النظر ولم ينضم إليه التشفي الطبعي لم يعاتب. والله أعلم. لكن لما انضاف إليه التشفي الذي دل عليه سياق الحديث عوتب عليه[٣٥٤].

انطلاقا من المنهج القرآني في العدل مع البيئة. لا غرابة أن ينزل علينا قرآنا يتلى إلى يوم القيامة يقص علينا خبر نملة مع سيدنا سليمان عليه وسلم ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا..﴾ [النمل:١٨-١٩] وما ذلك إلا ليعلمنا الله تعالى حرص هذه الحشرات على الحياة -كحرصنا على الحياة- ولها الحكمة في حرصها على حياة بني جنسها ألا تباد من طارئ قد نزل في واديهم ولها البيان التام وحسن التعليل.

الوحدة الموضوعية في حفظ البيئة في سورة الرحمن:

﴿الرَّحْمنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسانَ * عَلَّمَهُ الْبَيانَ * لشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ * وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ * وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ * أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ * وَالْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ * فِيها فاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ * وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحانُ * فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ﴾ [الرحمن:١-١٣].

سورة الرحمن من أكثر السور التي نبّهت المسلم إلى أهمية حفظ لبيئة ذلك إنها اشتملت على عدة معان في العدل مع البيئة.أكثر مايلاحظ في بداية السورة إن كلمة الميزان قد تكررت ثلاث مرات متتابعة فما هو تفسير الميزان الذي تكرر في بداية السورة؟

فسّر كثير من المفسرين المتقدمين والمتأخرين كمجاهد وقتادة الميزان بالعدل[٣٥٥].

ففي بداية السورة افتتحت الآية بلفظة الرحمن لما ذلك من أثر على نفسية المؤمن وعقله.. ثم بينت السورة تعليم الله للقرآن الذي ينطلق منه المؤمن تفكير المؤمن في الكون وكل ما حوله من مخلوقات..، ثم خص خلق الإنسان بمزيد اختصاص باعتباره خليفة في أرضه ومنّ عليه بنعمة البيان، فبهذه النعمة يستطيع الانسان التواصل مع الله -أولا- ومع أجيال كاملة منذ الخليقة وبالبيان -أيضا- يتواصل الإنسان مع البيئة حوله من كواكب ونجوم، ثم بيّن الله إن الشمس والقمر كلها على وفق حساب دقيق فليس في الأكوان حركة إلا محسوبة ولا قانونا إلا مقدرا..فليس هناك فوضى أو عبثية في الخلق بعد ذلك بيّن الله إلى جزء من بيئة الله في خلقه وهو النجم —وهو الذي لا ساق له من النبات[٣٥٦]. والشجر – انظر رحمك الله- كيف قابل بين الشمس والقمر وهي البيئة الخارجية للإنسان، وبين البيئة الداخلية في

[٣٥٤] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج١٣، ص١٧٤.

[٣٥٥] النيسابوري، **رغائب القرآن ورغائب الفرقان**، ج٣، ص٢٠٣.

[٣٥٦] الطبري، **التفسير**، ج١١، ص٢٢.

كوكبنا الأخضر النجم –وهو النبات الذي لا ساق له– والشجر الذي له ساق[٣٥٧] بعد ذلك بيّن الله تعالى إن السماء رفعها ووضع الميزان وهو العدل، ثم يأتي أمر الله تعالى للعالمين ألا يطغوا في هذا الميزان الذي قامت به السماوات والأرض والذي فيه التوازن البيئي في خلق الله في سمائه وأرضه وفي كل ذي نسمة وعبر بلفظة الطغيان لأن الطغيان ضد العدل، ولا يأتي إلا من فعل الإنسان الذي يعبث ويفسد في خلق الله لا من قوانين الله في الخلق وتوازن هذا الخلق فيحتمل الإنسان نتائج هذا الطغيان جراء جشعه وطمعه اللذان هما أساسا كل الشرور التي تقع في الأرض وبمحيط الأرض وهذا ماحصل للإنسان في عصرنا الحاضر من الاحتباس الحراري وانقراض بعض الحيوان وشح في الموارد.. لأن فعل لا تطغوا مشتق من كلمة الطغيان قال ابن فارس: "الطاء والغين والحرف المعتل أصل صحيح منقاس، وهو مجاوزة الحد في العصيان"[٣٥٨]، وكلّ شيء يجاوز الحد فقد طغى، مثلما طغى الماء على قوم نوح قال سبحانه إنا لما طغى الماء حملناكم الجاريةوردت كلمة (طغى) ومشتقاتها في تسعة وثلاثين موضعاً من القرآن الكريم، وبصيغ وتصريفات مختلفة: طغى، يطغى، أطغى، تطغوا، طغوا، أطغيته، طغيان، طغوى، طاغية، طاغوت، طاغين.

ويمكن القول بأن هذه المعاني يجمعها شيء واحد وهو: المعني اللغوي: "مجاوزة الحد" لكلمة الطُّغيان، مع عدم إغفال السياق في كل سورة لأنه يحدد المقصود منه، فالطغيان في هذه الآية هو الطغيان في موازين خلق الله تعالى الذي وضعه بعد خلق السماء.

ولما كان الميزان الحسي وهو الميزان اليومي في معاملات الناس، أكد الله تعالى ضرورة العدل فيه في عددة آيات بل سمّى صورة كاملة –وهي المطففين– وأمر الله صراحة ألا يبخس الناس أشياءهم، لما للعدل في السلعة أثر بالغ على التوازن البيئي لو قيل هذا تكلف ظاهر في الخروج عن مضامين الآيات! قلت: لو نظر الإنسان إلى أهم السلع الحيوية في عصرنا لقال أربع: النفط والذهب والقمح والأرز. فما قامت حرب الخليج الثانية إلا من جراء نزول سعر برميل النفظ إلى أقل من تسعة دورلات[٣٥٩]! وأيضا الذهب إما أن ينخفض انخفاضا لا يعطى حقه أو يرتفع ارتفاعا يصرف الناس عن اقتنائه –وأيضا– القمح ومن أقبح ما يدمر البيئة أنه يلقى بملايين الأطنان في البحار لكيلا ينزل سعره في الأسواق بينما ملايين يتضوعون جوعا في أفريقيا وغيرها من أنحاء المعمورة! وهناك الملايين من المزارعين يغبون في محاصليهم الزراعية من قبل الشركات الكبيرة، فيزهدون في الزراعة فترك المساحات الخضراء مواتا جراء البخس في بضاعتهم وعدم العدل في الميزان الذي وضعه الله عزوحل.

---

[٣٥٧] نفس المرجع.

[٣٥٨] ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مادة طغى

[٣٥٩] الموسوعة الحرة، **حرب الخليج الثانية**.

بعد ذلك أخبر الله تعالى في سورة الرحمن أن الأرض وضعها للأنام –الأنام كل ما فيه روح– وليس للإنسان فقط.جاء في تفسير فتح بيان في مقاصد القرآن ﴿والأرض وضعها للأنام﴾ [الرحمن:١٠] أي: خفضها مدحوة، وبسطها على الماء لجميع الخلق، مما له روح وحياة، ولا وجه لتخصيص الأنام بالإنس والجن، قال ابن عباس رضى الله عنهما: للأنام للناس، أي لأجل انتفاعهم بها، وعنه قال: كل شيء فيه روح[٣٦٠].

إذا الأرض –كوكبنا الأخضر– لم توضع فقط للإنسان، بل وضعت لكل ذي نسمة في الأرض، فلا يحتكر الانسان موارد الأرض كلها ويظن أنها له فقط، بل تشارك فيه سائر المخلوقات.

وهكذا تأتي بقية آيات سورة الرحمن مترادفات لتؤكد جميل خلق الله في الأرض وأكثر ما يحبب الإنسان في هذا الكون الفاكهة المتنوعة في الشكل واللون والطعم فقدم الله ذكر الأسمى والأجمل وهي الفاكهة على ذكر الضروري وهي الحبوب ثم ذكر –أيضا– الريحان لتكتمل الصورة الجملية في نفس الإنسان فيحترم هذا الكون وقوانينه، فلا يطغى فيه بعد ذلك بيّن الله تعالى أن الإنسان خلق من طين مما يعني أن طينة الأرض مخلوقة من نفس طينة آدم ليراعي الإنسان المخلوقات الزارعية، فعن علي بن أبي طالب ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «أكرموا عمتكم النخلة، فإنها خلقت من الطين الذي خلق منه آدم، وليس من الشجر يلقح غيرها»[٣٦١] فما هذا إلا ليحترم الإنسان النبات والخضرة. بعد هذا جاء بعد قوله تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان﴾ [الرحمن:٣٣] فهذا تحدى من الله تعالى للثقلين: الإنس والجن إنهم محكمون بقوانين الله تعالى في الكون ولا يستطعيون الخروج من قوانينه مهما بلغوا في التطور العلمي، فلن يستطيعوا أن يخرجوا من أقطار السموات والأرض فما عليهم إلا طاعة الله وخوفه واتباع أوامره ليسلموا من العقاب فلايطغوا في ميزان الله، فيعيشوا في سلام وأمان.

البيئة في السنة النبوية:

الناظر في الأحكام الشرعية التي جاءت بحفظ البيئة في السنة النبوية يمكن سبرها إلى نوعين:

النوع الأول: أوامر يومية اعتيادية جاءت بحفظ البيئة مثل عدم البول في الماءالراكد وعدم العبثية في قتل الحيوان وإماطة الأذى عن الطريق وعدم الإسراف في استعمال الماء وإحياء الأراضي الميتة.

فلا أتطرق إلى ما تطرق إليه من قبل بخاصة من قبل العلامة فضيلة الدكتور يوسف القرضاوي في بحثه الفذ "الركائز الإسلامية لرعاية البيئة"[٣٦٢].

---

[٣٦٠] القنوجي، **تفسير فتح مقاصد القرآن**، ج١٣، ص٣١٦.

[٣٦١] أخرجه أبو يعلى في **مسنده**، ج١، ص٣٥٣، وضعفه المحقق، حسين أسد، ولا يضر ضعفه فالحديث في الفضائل.

[٣٦٢] مطبوعات المؤتمر الخامس عشر لأكاديمية آل البيت الملكية، **البيئة في الإسلام**.

لكن سوف أتتطرق إلى مسائل لم ينبه الباحثون إليها –حسب إطلاعي– فالسنة بحر زاخر بالتعليمات التي تحافظ على البيئة، فما على الباحثين سوى التشمير والتنقيب عنها لأن المسلمين اليوم –للأسف الشديد قد بعدوا كثيرا عن الهدي النبوي–فبقيت كثير من التعاليم النبوية في بطون كتب الحديث النبوي.

البيان النبوي في الحد من الحرائق:

لا شك أن من أهم ما يعدم البيئة هي الحرائق، وللحرائق أسباب متعددة. فحذرت السنة النبوية عن أسباب حرائق تقع في البيئة العربية التي نزل فيها الوحي.

إطفاء السرج حين النوم:

منها حديث سالم عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تتركوا النار في بيوتكم حين تنامون»[٣٦٣]. فهذا الحديث أصل في الوقاية من الحرائق في المنزل بل حتى في المصانع والأماكن العامة.

تعليم النبي الوقاية للأمة بالمنهج الحسي (المرئي) عن تسبب الفئران للحرائق:

جاء في السنة الصحيحة عن ابن عباس قال: "جاءت فأرة فأخذت تجر الفتيلة فجاءت بها فألقتها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم على الخمرة التي كان قاعدا عليها فأحرقت منها مثل موضع الدرهم فقال: «إذا نمتم فأطفئوا سرجكم فإن الشيطان يدل مثل هذه على هذا فتحرقكم»[٣٦٤].

انظر –رحمك الله– كيف علّم سيد الإنسانية أمته بضرر الفواسق "القوارض" بخاصة فصيلة الفئران التي تدخل في الأماكن الضيقة وتسبب الحرائق في البيوت من حيث لا يدري الإنسان.لكن كيف يستوعب العقل البشري هذه الأضرار وهي غائبة عنه؟ فلا بد إذاً من الاستعانة بالمشاهدة الحسية –وهي ضرورة ملحة للتوعية بالأمن الوقائي– لتثبيت المعلومة في تعليم الناس الوقاية ما تسببه القئران من حرائق في البيوت حيث لم يكن في عصر النبوة تصوير ولا إعلام مرئي، فجاءت القدرة الربانية بأن يمثل الفأر للحاضرين ما يقوم به في أعتام الظلام وما يترتب على عمله من حرائق في البيوت فيقضي على النفوس ويدمر البيوت وربما اشتعلت جميع البيوت –وربما–امتدت إلى الحقول والمزارع.وقد يكون هذا البيت على قرب من غابة، فتشتعل الغابة ببرمتها وقد تنقل إلى مساحات شاسعة من الغطاء النباتي.

ولا يستعجل عليّ ناقد فيقول وما يفيد الإسهاب في شرح هذا الحديث وعصرنا الحاضر استغنى فيه عن السرج وعن القناديل بالكهرباء التيز ضمنت السلامة والرفاهية للإنسان! فأقول: لو اطلع الناظر إلى سجلات الدفاع المدني عن أسباب اندلا ع الحرائق في عصرنا التي تشتعل فجأة دون فعل فاعل لرأى كثيرا من تقارير الدفاع المدني ترجع من أسباب الحرائق إلى التماس الكهرباء بسبب قرض الفئران

---

[٣٦٣] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج١٠، ص٢٨٩.

[٣٦٤] العظيم آبادي، **عون المعبود**، ج١٣، ص٤٨٨.

للأسلاك الكهرباء. فقد جاء في احصائيات المركز الوطني إن من أسباب نشوب الحرائق في البيوت والمصانع هو قرض الفئران للأسلاك الكهربائية[٣٦٥].

النوع الثاني :**حفظ البيئة في نوازل الأوبئة**.

وأكثر ما يفسد البيئة الأوبئة النازلة. فقد جعل شرع الإسلام أول حجر صحي يحمى الناس من عدوى انتشار الأوبئة، فالوباء –أعاذنا الله منه–كان في الأزمنة المتقدمة إذا حل بلدة جعلها بلدة أشباح، والوباء يزيد ويكثر وينتشر في المعمورة إذا فر الناس منه إلى مناطق أخرى وروى أسامة بن زيد رضى الله عنهما، أنه سمع سعدا يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «إذا سمعتم بالطاعون[٣٦٦] بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها»[٣٦٧].

ولم يقتصر البيان النبوي في الحجرالصحي لمنع انتشار الأوبئة، بل أمر السنة النبوية بالوقاية منه بغلق الأطعة والأسقية، عن أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم.قال: «غطوا الإناء وأوكوا السقاء فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء لا يمر بإناء ليس عليه غطاء أو سقاء ليس عليه وكاء إلا نزل فيه من ذلك الوباء»[٣٦٨].

أهم نتائج البحث:

– تقسيم تعريف البيئة في الاصطلاح إلى تعريفين: إجمالي، وتفصيلي.

– سورة الرحمن من أكثر السور التي نبهت المسلم إلى أهمية حفظ البيئة ذلك باشتمالها على الآتي:

١– أرشدنا الله تعالى في سورة الرحمن إلى الحفظ الوجودي للبيئة أن الأرض وضعها للأنام –الأنام كل ما فيه روح– وليس للإنسان فقط.

٢– من لوازم حفظ البيئ من العدم مراعاة الميزان الذي وضعه الله ألا يبخسوا الناس سلعهم، فبخسها يؤدي إلى فساد البيئة من حروب، وهجر للزراعة، والزهد في تعمير الأرض.

– أرشدنا الله إن كل مخلوقات التي تدب على الأرض أمم أمثالنا لها حق البقاء في الحياة وعدم الانقراض –وهذا الفهم له شاهده من السنة النبوية–.

– أمر الله تعالى نوحا عليه السلام بحفظ الوجودي للبيئة بأمرين متغايرين: بحمل المخلوقات، وحمل الجمادات حتى الذرة.

---

[٣٦٥] http://www.elc.edu.sa

[٣٦٦] جاء في لسان العرب "الطاعون داء معروف والجمع الطواعين وطعن الرجل والبعير فهو مطعون وطعين أصابه الطاعون.. والطاعون المرض العام والوباء الذي يفسد له الهواء فتفسد به الأمزجة والأبدان أراد أن الغالب على فناء الأمة بالفتن التي تسفك فيها الدماء وبالوباء". انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، مادة طعن، ج١٣، ص٢٥٦.

[٣٦٧] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٢، ص١٨.

[٣٦٨] النووي، **شرح صحيح مسلم**، ج٣، ص١٥٥٦.

– هناك نوعان من الأوامر النبوية في المحافظة على البيئة: أوامر يومية اعتيادية، وأوامر في النوازل البيئية.

– أعطت السنة احترازات كثيرة لمنع الحرائق في البيوت، لما للحرائق من نتائج مدمرة على الإنسان وبيئته.

– حمت السنة النبوية البيئة من الأوبئة بتشريع الحجر الصحي للإنسانية.

التوصيات:

– التوصية بالمحافظة على الحيوانات المنقرضة تحت شعار "ما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم".

– انطلاقا من التوجيه القرآني للبشرية بألا يطغوا في الميزان ويقيموا الوزن بالقسط ولا يبخسوا الميزان.دعوة الأمم المتحدة إلى إنشاء جميعة حماية أسعار السلع الرئيسية وحماية صغار المزارعين من جشع كبار الشركات.

المصادر والمراجع:

١. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، ١٤١٤هـ).

٢. أبو يعلى، أحمد بن علي، **مسند أبي يعلى**، تحقيق أسد حسين سليم، (دمشق: دار المأمون للتراث، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٥م).

٣. الأبياري، إبراهيم بن إسماعيل، **الموسوعة القرآنية**، (القاهرة: مؤسسة سجل العرب، ١٤١٤هـ).

٤. البخاري، أبوعبدالله محمد بن اسماعيل الجعفي، **الجامع الصحيح المسند**، (بيروت: دار ابن كثير، ١٩٨٧).

٥. الرباعية، د. حسن – **مفهوم البيئة في القرآن الكريم**، على الشبكة العنكبوتية. استعيد بتاريخ ١٩-٩-٢٠١٤،

الزمخشري، محمود بن عمر، **أساس البلاغة**، تحقيق عبد الرحيم محمود، (بيروت: دار المعرفة، ١٩٨٢).

٦. السُّعود، راتب، **الإنسان والبيئة، دراسة في التربية البيئيَّة**، (عمان: دار الحامد للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤).

٧. سلامة، حمد عبد الكريم، **البيئة وحقوق الإنسان في القوانين الوطنية والمواثيق الدولية**، مجلة البحوث القانونية والاقتصادية، جامعة المنصورة، العدد١٥، أبريل ١٩٩٤.

٨. السمعاني، أبو المظفر منصور بن محمد، **تفسير القرآن (تفسير السمعاني)**، تحقيق ايراهيم ياسر وغنيم بن غنيم، (الرياض: دار الوطن، ١٤١٨هـ/١٩٩٧).

٩. شحاتة، حسن، **التلوث فيروس العصر**، (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٩٩).

١٠. العظيم آبادي، أبو عبد الرحمن محمد أشرف بن علي، **عون للمعبود شرح سنن أبي داود**، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥هـ).

١١. الفيروزأبادي، مجد الدين، **القاموس المحيط**، بيروت: عالم الكتب، (د.ت).

١٢. القنوجي، أبو الطيب محمد صديق خان، **فتح البيان في مقاصد القرآن**، (لبنان: المكتبة العصرية صيدا، ١٤١٢هـ).

١٣. المؤتمر الخامس عشر لأكاديمية آل البيت الملكية، **البيئة في الإسلام**، (منشورات المؤتمرات).

١٤. مسلم، أبو الحسين ابن الحجاج القشيري، **المسند الصحيح المختصر**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

١٥. الموسوعة الحرة، تحت عنوان **حرب الخليج الثانية**، استعيد بتاريخ ٢٥-٩-٢٠١٤،
http://ar.wikipedia.org/wiki

١٦. النيسابوري، نظام الدين الحسن بن محمد، **غرائب القرآن ورغائب الفرقان**، المحقق عميرات زكريا، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٦هـ).

١٧. http://www.odabasham.net/show

منظور القرآن الكريم في الحفاظ على البيئة

ناصر بن محمد بن صالح الصائغ*

ملخص البحث:

لقد أنزل الله القرآن الكريم على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وخصَّه بهذه الأمة، وجاء القرآن الكريم بمعارف وحقائق للبشرية، ولأهمية البيئة في حياة الناس جاء القرآن الكريم في الحديث عنها والأمر بالحفاظ عليها ومكوناتها. وقد رأيت أن أكتب بحثاً مختصرا في منظور القرآن الكريم في الحفاظ على البيئة؛ للوقوف على الآيات التي تحدثت عن الحفاظ على البيئة، فجاء هذا البحث، هادفا إلى إبراز جانب من جوانب الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، وجانب من جوانب شمولية الدين الإسلامي من خلال بيان حفاظ القرآن الكريم على البيئة، والمساهمة في تنزيل معارف القرآن الكريم على القضايا الحياتية المعاصرة للمسلمين، والتشرف في خدمة كتاب الله، والمساهمة في ربط الأمة به، والنهل من معينه.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء، وسيد المرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلّم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين؛ أمَّا بعدُ:

فإنَّ الله سبحانه وتعالى أنزل القرآن الكريم على نبينا ﷺ، وجعله خاتماً للكتب السماوية ومهيمناً عليها، وأنزله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩]، فجاء القرآن الكريم بمعارف وحقائق للبشرية، وبتوجيهات ربانية، وبمعجزات كونية، ولما للبيئة من أهمية في حياة الناس جاء القرآن الكريم بالحديث عنها، والأمر بالحفاظ عليها وعلى مكوِّناتها.

وقد رأيت أن أكتب بحثاً ـ مختصرا ـ في منظور القرآن الكريم في الحفاظ على البيئة؛ للوقوف على الآيات التي تحدثت عن الحفاظ على البيئة، فوقع اختياري على موضوع: (منظور القرآن الكريم في الحفاظ على البيئة).

المبحث الأول: في بيان مفهوم البيئة، وبيان شمولية القرآن الكريم:

في هذا المبحث أُبين أمرين: مفهوم البيئة، وشيئاً من شمولية القرآن الكريم:

فالبيئة لغة: اسم مشتق من الفعل الماضي: (بَاءَ)، و(بَوَّأَ)، ومضارعه: (يَبُوءُ)، وأشهرُ معانيه ـ الذي يعنينا هنا ـ بمعنى ينزل ويقيم. وتبوّأت منزلاً بمعنى نزلته وحللت فيه، والبيئةُ، والباءةُ، والمباءَةُ: المنزل[٣٦٩].

---

* أستاذ مشارك قسم الدراسات الإسلامية، كلية العلوم والآداب بالرس جامعة القصيم المملكة العربية السعودية.
nasser576@hotmail.com

[٣٦٩] ابن منظور، **لسان العرب**، ج١، ص ٣٩؛ والفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، ج١، ص١٠٩.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ﴾ [يوسف:٥٦] أي: "يتخذ من أرض مصر منزلاً حيث يشاء بعد الحبس والضيق"[٣٧٠].

وفي المعجم الوسيط:" البيئة: المنزلُ، والحالُ. ويقال: بيئةٌ طبيعيَّةٌ، وبيئةٌ اجتماعيَّةٌ, وبيئةٌ سياسيَّة"[٣٧١]. والبيئة اصطلاحاً: هي:" المحيط الذي يوجد فيه الإنسان، وما فيه من عوامل وعناصر تؤثر في تكوينه وأسلوب حياته"[٣٧٢] ويؤثر فيها"[٣٧٣]. وعرف المؤتمر العالمي الأول البيئة، والذي عقدته الأمم المتحدة في استوكهولم عام ١٩٧٢م بأنَّها: "كل شيء يحيط بالإنسان"[٣٧٤].

أمّا القرآن الكريم ـ وإن كان قد سبق إلى لفت أنظار الناس للبيئة ـ؛ فإنه لم يستخدم كلمة (البيئة) للتعبير عن المحيط والمكان الذي يعيش فيه الإنسان، وينتفع بما فيه من مسخرات . وإنما وردت مشتقات كلمة البيئة في القرآن الكريم في أكثر من آية بمعان أخرى مثل: تهيئة المكان المناسب والصالح، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ [يونس:٩٣]، وقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران:١٢١]، أو تأتي بمعنى: الوضع غير الصالح أو الحالة غير المرغوب فيها، كقوله تعالى: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة:٦١]، وقوله: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ [المائدة:٢٩]. فلم ترد كلمة البيئة في القرآن للدلالة على المحيط والمكان الذي يعيش فيه الإنسان، وإنما تحدَّث القرآن الكريم عن عدد من عناصر البيئة كخلق الكون، وتحدث عن الماء مصدر الحياة، وعن البحار والمحيطات، وعن السحب والمطر، وعن الرعد والبرق، وعن الجبال والأنعام، وغيرها من مكونات وعناصر البيئة .

واستخدم القرآن الكريم بديلا عن كلمة البيئة مثلا: كلمة الأرض، حيث ذكرت في القرآن الأرض [٣٩٠] مرةً في مناسبات مختلفة ركز فيها على مجموعة من الحكم والغايات، قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [ق:٧]، واستخدم كلمة السماء والسموات في القرآن [٣١١] مرة، وكذلك استخدم عناصر الأرض والسماء، وما تسمى بـ (الجامدة والسائلة والغازات المختلفة) في آيات كثيرة.[٣٧٥] فالقرآن الكريم إذن لم يرد فيه لفظة البيئة بالمفهوم الذي ذكرناه.

وكان القرآن الكريم خلال تنزلاته على قلب النبي ﷺ خلال ثلاثة وعشرين عاما، يعرِّف البيئة ـ بمفهومها الحالي ـ بأنها آية من آيات الله ويدعو للتأمل والنظر فيها، مما يجعلنا نشعر بوجوده وقدرته سبحانه مع كل شيء في هذا العالم، وكل ما في الوجود هو انعكاس لقدرته وعلمه وجلاله وجماله.

---

[٣٧٠] الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، ج١٣، ص٢٢٠.

[٣٧١] مجموعة من العلماء، **المعجم الوسيط**، ج١، ص٧٥.

[٣٧٢] أرناؤوط، **التلوث البيئي وأثره على صحة الإنسان**، ص٢٣٢-٢٣٣.

[٣٧٣] محمد الفقي، **البيئة: مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث، رؤية إسلامية**، ص٨.

[٣٧٤] الحمد، **البيئة ومشكلاتها**، ص٢٤-٢٥.

[٣٧٥] انظر: غانم، **الإسلام وحماية البيئة من التلوث**، ص١٢.

والقرآن الكريم قد سبق الدراسات المعاصرة في لفت الأنظار إلى البيئة والحرص عليها، حيث اهتم القرآن بالإنسان وبيئته بصورها المتنوعة وأشكالها المتعددة.

وهذا ما يدلُّ على شمولية القرآن، حيث تضمَّن القرآن الكريم تشريعًا كاملاً لِمُختلف مناحي الحياة؛ فهو تبيانٌ لكلِّ شيء، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل :٨٩]' وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام:٣٨] ؛ ولهذا جعله الله للناس كلِّهم: دُستورًا هاديًا وشافيًا، وجعله خالدًا دائمًا على مرِّ الزمان والأجيال.

قال الشوكاني رحمه الله: "فإن القرآن العظيم قد اشتمل على الكثير الطيب من مصالح المعاش والمعاد، وأحاط بمنافع الدنيا والدين، تارة إجمالًا، وتارة تفصيلًا، وتارة عمومًا، وتارة خصوصًا، ولهذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ [الأنعام:٣٨]، ويقول عز وجل: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس:١٢]، ويقول تبارك وتعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل:٨٩] . ونحو ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى"[٣٧٦].

المبحث الثاني: أهداف الحديث عن حماية البيئة في القرآن الكريم:

عرفنا في المبحث السابق أن في القرآن الكريم آيات كثيرة تحدثت عن البيئة، وكيفية التعامل معها، وأن القرآن الكريم سبق الدراسات المعاصرة التي اهتمت بالبيئة مؤخرًا. وفي هذا المبحث أبين بعض الأهداف التي تجعلنا نتحدث عن حماية البيئة في القرآن الكريم. فمن تلك الأهداف:

١. بيان شمولية القرآن وأنه صالح لكل زمان ومكان، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، وقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ [الأنعام:٣٨]، فالقرآن الكريم، فيه كل ما يحتاجه الناس في حياتهم، مشتملا على الكثير من مصالح المعاش والمعاد، محيطا بمنافع الدنيا والدين. ومن ذلك اشتماله على الكثير من الآيات التي تشير إلى البيئة، وتضع الأسس والمبادئ التي يجب أن يتعامل الإنسان بها مع الطبيعة، ومع أخيه الإنسان للمحافظة عليها؛ حيث إنه مستخلفٌ عليها.

٢. بيان شيءٍ من إعجاز القرآن، فالذي تكلَّم بالقرآن ـ سبحانه وتعالى ـ هو موجد البيئة، وخالق المخلوقات كلها، ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [الرعد:١٦]؛ لذا فحينما يتحدث القرآن عن أي جزء من أجزاء البيئة ومكوناتها، فهو عالم بها وبأسرارها واحتياجاتها، محيط بها سبحانه وتعالى؛ لأنه هو الذي أوجدها؛ فيظهر إعجاز القرآن في الإخبار عنها والحديث عن أسرارها.

٣. تنمية الوعي البيئي لدى الإنسان المسلم، عن طريق تزويده بالرؤية الصحيحة المستمدة من القرآن الكريم عن البيئة ومكوناتها.

---

[٣٧٦] الشوكاني، **إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات**، ص٤.

٤. إظهار اهتمام القرآن الكريم بالبيئة، مما يكون دعوة للمسلمين وغير المسلمين إلى النهل من معين القرآن الكريم، والاهتداء بهديه، وتقريبه إليهم.

٥ . تعتبر حماية البيئة من أهم المشكلات التي تحتاج إلى حل، والقرآن الكريم من الحلول لها[٣٧٧].

المبحث الثالث: بيان حفاظ القرآن الكريم على البيئة:

تزايدت المخاطر التي تتعرض لها البيئة، وانتشر الفساد البيئي؛ لذا تزايدت النداءات لحماية البيئة، حتى صارت المحافظة على البيئة قيمة من قيم الحضارة المعاصرة، والقرآن الكريم . سبق الجميع في الاهتمام بالبيئة، وله نظرة خاصة عنها، فقد جاء في القرآن الكريم . من عدة أوجه . الأمر بالحفاظ عليها، والاعتناء بها، وفي هذا المبحث أسطر مطالب يتبين من خلالها أوجه حفاظ القرآن الكريم على البيئة وهي:

المطلب الأول: تكريم القرآن الكريم للبيئة:

كرَّم القرآن الكريم البيئة، ورفع مكانتها، ومن أبرز صور هذا التكريم:

١) أن الله سبحانه وتعالى جعل البيئة محلاً للتأمل والتفكر في صنع الخالق سبحانه، وجعلها دالة على وجوده وقدرته، وأمر بالتفكر والتأمل فيها، قال تعالى : ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام:١١]، وقال سبحانه: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية].

٢) أن الله رفع شأن بعض البيئات، فقدَّس بعض الأماكن الأرضية، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران]، وقال سبحانه لموسى عليه السلام حين أراد أن يكلمه: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [طه:١٢]، قال الطبري ـ رحمه الله ـ: "أمَرَهُ اللهُ تعالى ذِكرُهُ بخلعِ نعلَيهِ ليباشرَ بقدميه بركةَ الوادي، إذْ كان وادياً مُقَدَّسًا"[٣٧٨].

٣) أن الله أقسم ببعض مكونات البيئة، وبما أودع فيها من أسرار خلقه الحكيم، قال تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ [الشمس]، وقال سبحانه: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]. فالقسم في القرآن قد يكون لبيان شرف المقسم به، وقد يكون القسم لتوجيه النظر إلى الآيات الكونية، والمشاهد الطبيعية، للتوصل منها إلى خالقها، والتأمل فيها تأملا يبين مبلغ نعمتها. ونقل السيوطي ـ رحمه الله ـ عن أبي القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ أنه قال: " القَسَمُ بالشيء لا يخرج عن وجهين، إما لفضيلة، أو لمنفعة.

---

[٣٧٧] الدغيثر، **الحفاظ على البيئة من منظور إسلامي**، ص ٥ .

[٣٧٨] الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**،ج ١٦ ص ٢٥.

فالفضيلة، كقوله تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ﴾ [التين]، والمنفعة كقوله تعالى: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيۡتُونِ﴾ [التين:١]"[٣٧٩].

٤) جاء في القرآن الكريم تسمية عدد من السور القرآنية بأسماء تنتمي للبيئة، مثل: أسماء بعض الحيوانات: (البقرة، الأنعام، الفيل، العاديات)، وأسماء بعض الحشرات: (النحل، النمل، العنكبوت)، وأسماء بعض النباتات: (التين)، وأسماء بعض المعادن: (الحديد)، وأسماء بعض الظواهر الطبيعية: (الرعد، النجم، الفجر، الشمس، الليل، الضحى، العصر). وأسماء بعض الأماكن: (الطور، البلد، الأحقاف). فهذه التسميات للسور القرآنية، تجعل المسلم مرتبطًا بالبيئة وليس ببعيد عنها.

٥) أنَّ الله سبحانه عرض الأمانة على بعض مكونات البيئة: السماء والأرض والجبال، وهي عظيمة الخلق، قبل عرضها على الإنسان، فأَبَينَ أن يحملنها وأشفقن منها، والأمانة: التكليف، وقبول الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إن قام بذلك أثيب، وإن تركها عوقب، فحملها الإنسان، إنه كان ظلوما جهولا. قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا﴾ [الأحزاب:٧٢] [٣٨٠].

وهذه الصور توضح شيئا من تكريم القرآن الكريم للبيئة. ويذكر د. محمود عكَّام في بحثٍ له عن البيئة في القرآن والسنة، والذي أمضى في إعداده أكثر من ثلاث سنوات: " أن أكثر من سبعمائة آية قرآنية تناولت البيئة ومكوناتها " [٣٨١]. فهذه الصور لتكريم القرآن للبيئة، وتكرار الحديث عنها في القرآن، يدلان على ضرورة المحافظة عليها، والاعتناء بها؛ لما لها من ذكر وتكريم.

المطلب الثاني: استشعار أن الإنسان مستخلف في الأرض

جاء في القرآن الكريم تذكير لبني آدم بأنهم مستخلفون في الأرض، قال تعالى: ﴿بم بى بي تج تح﴾ [الأنعام:١٦٥]، وقال سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر:٣٩]، وقال سبحانه: ﴿وَيَجۡعَلُكُمۡ خُلَفَآءَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [النمل:٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة:٣٠]. والخليفة: الفعيلة، من قولك: خلف فلانٌ فلاناً، إذا قام مقامه فيه بعده، فهو فعيل بمعنى فاعل، والتاء فيه للمبالغة، والمراد به آدم عليه السلام؛ لأنه كان خليفة من الله في الأرض، وقيل: آدم وذريته؛ لأنه يخلف بعضهم بعضا في عمارة الأرض، واستغنى بذكره عن ذكر ذريته؛ لكونه الأصل. قال ابن عاشور ـ رحمه الله ـ: "والخليفة هنا الذي يخلف صاحب الشيء في التصرف في مملوكاته...فالخليفة آدم وخَلفِيَّتُه قيامُه

---

[٣٧٩] السيوطي، **الإتقان في علوم القرآن**، ج ٤، ص ٤٨.

[٣٨٠] رشوان، **تلوث البيئة وكيف عالجه الإسلام**، ص ٥٩.

[٣٨١] عكام، **البيئة في منظور القرآن الكريم والسنة النبوية**.

بتنفيذ مراد الله تعالى من تعمير الأرض بالإلهام أو بالوحي وتلقين ذريته مراد الله تعالى من هذا العالم الأرضي"[٣٨٢].

فالله سبحانه وتعالى جعل خلافة الأرض لبني آدم كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة:٣٠]، كما استخلف الله نوحا عليه السلام وقومه على الأرض بعد الطوفان: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [يونس:٧٣]، وما زالت الخلافة حتى وصلت إلى أمة محمد ﷺ قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس]. وحينما يكون الإنسان مستخلفا على شيء معين، لا شك أن من أولويات هذا الاستخلاف المحافظة عليه، فمن لوازم الاستخلاف المحافظة على المستخلف عليه وإصلاحه؛ لذا فإن الملائكة الكرام حينما أخبرهم سبحانه وتعالى أنه جاعلٌ في الأرض خليفة قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، "فقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ دليل على أنهم علموا أن مراد الله من خلق الأرض هو صلاحها وانتظام أمرها، وإلا لما كان للاستفهام المشوب بالتعجب موقع، وهم علموا مراد الله ذلك من تلقيهم عنه سبحانه، أو من مقتضى حقيقة الخلافة، أو من قرائن أحوال الاعتناء بخلق الأرض وما عليها على نظم تقتضي إرادة بقائها إلى أمد"[٣٨٣].

والاستخلاف: يعني إدارة الأرض والبيئة عموما والمحافظة عليها، وليس التصرف فيها كأنه ملك لها، وتعني الانتفاع بها دون التصرف والإتلاف بوجه غير مشروع، وبما أنه مستخلف عليها فهو أمين عليها ويجب المحافظة على تلك الأمانة، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢].

المطلب الثالث: استشعار تسخير البيئة للإنسان:

البيئة وما فيها من مكونات سخرها الله لبني آدم، وتسخيره سبحانه البيئةَ للإنسان؛ ليعيش عيشة راقية، ويظفر بحياة طيبة؛ من أجل أن تعينه على أداء وظيفته التي خُلق من أجلها، وهي عبادة الله وحده. وقد جاء في القرآن الكريم آيات كثيرة تشير إلى تسخير البيئة للإنسان، ويجعلها الله منَّة لعباده.

فقد سخر الله الأرض وما فيها، فقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [طه:٥٣]، وقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النبأ:٦].

---

[٣٨٢] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١، ص٣٩٩.

[٣٨٣] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج١، ص٤٠٣.

كما سخر الله سبحانه البحار والأنهار وثرواتها، فقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [الجاثية:١٢]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [النحل:١٤]، وقال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ﴾ [إبراهيم:٣٢].

وسخر الأنعام وغيرها من المخلوقات، فقال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ [يس:٧١]، وقال: ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ [النحل:٥].

وسخر الرياح، فقال سبحانه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ [الروم:٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ [الفرقان:٤٨].

وسخر الأشجار والنباتات، فقال سبحانه: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ [يس:٣٣]، وقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ [الأنعام: ٩٩]، وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ﴾ ﴿لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [النحل][٣٨٤].

والآيات كثيرة في القرآن التي تذكِّر الإنسان بتسخير البيئة له، واستشعار الإنسان بأن البيئةَ مسخرةٌ له تدفعه للحفاظ عليها، كما تدفعه إلى استثمارها في الوجه المشروع، لكي تعينه على أداء رسالته في تعمير الأرض، وتحقيق الهدف الذي خلق الإنسان من أجله.

المطلب الرابع: النهي عن الفساد والإفساد البيئي:

الفساد: مصدر فَسَدَ يَفْسُدُ ويَفسِدُ وفسُدَ فَسادًا، وهو نقيض الصلاح. قال الراغب الأصفهاني - رحمه الله - : "الفساد: خروج الشيء عن الاعتدال، قليلا كان الخروج عنه أو كثيرًا، ويضادُّه الصلاح"[٣٨٥]. فكل اعتداء على الدين، أو العقل، أو المال، أو العرض، أو النفس فهو إفساد.

وجاءت آيات كثيرة تحذر من الفساد، فقد تكررت كلمة الفساد في القرآن أكثر من أربعين مرة، وأغلب تلك النصوص القرآنية جاء الفساد فيها مرتبطاً بذكر الأرض[٣٨٦].

ومن تلك الآيات ما نص فيها على النهي عن الإفساد في الأرض عموما، قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦ و٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة:١١]، وقال تعالى في خمسة مواضع من القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة:٦٠، الأعراف: ٧٤، هود:٨٥، الشعراء:١٨٣، العنكبوت:٣٦]. وفي قوله تعالى:

---

[٣٨٤] خالد محمود، **البيئة والتلوث من منظور إسلامي**، ص٧١. ٧٩.

[٣٨٥] الراغب، **مفردات ألفاظ القرآن**، ص٦٣٦، مادة فسد.

[٣٨٦] فؤاد، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، مادة ف س د، ص٥١٨.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦ و٨٥]، دليل على أن الأرض جعلها الله صالحة لا خلل فيها، وأنها منشأة على نظام بديع، ومهيأة لخليفته فيها وهو الإنسان. كما دلت على أن الإفساد في كلّ جزء من الأرض هو إفساد لمجموع الأرض. وفيها: "نهيٌ عن كل فسادٍ قلّ أو كثر بعد صلاحٍ قلَّ أو كثر. فهو على العموم على الصحيح من الأقوال. وقال الضحاك ـ رحمه الله ـ: معناه لا تُعَوِّروا[٣٨٧] الماء المَعِين، ولا تقطعوا الشجر المثمِر ضِراراً"[٣٨٨].

ومن تلك الآيات ما أوضحت أن الله لا يحب الفساد، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥]، وأنه سبحانه لا يحب المفسدين قال تعالى: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ئج ئح ئم ئى ئي بج﴾ [القصص:٧٧].

وأخبر سبحانه في القرآن الكريم أن الفساد في الأرض سبب لهلاك الأمم، قال تعالى: ﴿فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾﴾ [الفجر:١٢-١٣]، وقال سبحانه: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل:١٤].

ورتب عقوبات دنيوية وأخروية على المفسدين في الأرض، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة:٣٣]، وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥]، إلى غير ذلك من الآيات.

والفساد والإفساد في الآيات السابقة له صور متنوعة وأشكال متعددة، يختلف الحكم عليه باختلاف نوعية الفساد. إلا أن كل عمل يؤدي إلى فساد الحياة يعتبر فسادا ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥]. وقد أشار القرآن الكريم إلى أن الأرض كانت ملوثة فأصلحها الله، ونهى عن إفسادها بعد إصلاحها، قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ﴾ [الأعراف:٥٦ و٨٥].

وحذر سبحانه من فساد البيئة وإفسادها، قال تعالى : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ ئج ئح ئم ئى ئي بج بح بخ بم بى بي تج تح﴾ [الروم:٤١]، "والظاهر من الآية ظهور ما يصح إطلاق اسم الفساد عليه، سواء كان راجعاً إلى أفعال بني آدم من معاصيهم واقترافهم السيئات، وتقاطعهم وتظالمهم وتقاتلهم، أو راجعاً إلى ما هو من جهة الله سبحانه بسبب ذنوبهم، كالقحط وكثرة الخوف والموتان ونقصان الزرائع ونقصان الثمار. والبرُّ

---

[٣٨٧] عَوَّرْت عيونَ المياه: إذا دفنتها وسددتها. ابن منظور، **لسان العرب** ج٤، ص٦١٤، مادة عور.

[٣٨٨] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج٧، ص٢٢٦.

والبحر هما المعروفان المشهوران...ويكون معنى البرُّ: مدن البرِّ، ومعنى البحر: مدن البحر، وما يتصل بالمدن من مزارعها ومراعيها"[٣٨٩].

وتوعد الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم من يفسد في الأرض بعد إصلاحها، ومن ذلك أن يلوث بيئتها عدوانا عليها، وانحرافًا بها عمَّا خلقها الله عليه بالعذاب الشديد، وأنه يوشك أن ينزل بهم كما نزل بعاد، وثمود وفرعون: ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ [الفجر: ٦ – ١٣]، و﴿ٱلْفَسَادَ﴾ في الآية : "سوء حال الشيء ولحاق الضر به، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥،]، وضد الفساد الصلاح، قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ﴾ [الأعراف: ٥٦ و ٨٥]، وكان ما أكثروه من الفساد سبباً في غضب الله عليهم، والله لا يحب الفساد فصب عليهم العذاب " [٣٩٠].

وجاء في القرآن الكريم ربط الفساد في الأرض بالقتل، قال تعالى : ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ﴾ [المائدة: ٣٢]، " وقد اختلف في هذا الفساد المذكور في هذه الآية ماذا هو؟ فقيل: هو الشرك، وقيل: قطع الطريق. وظاهر النظم القرآني أنه ما يصدق عليه أنه فساد في الأرض، فالشرك فسادٌ في الأرض، وقطع الطريق فسادٌ في الأرض، وسفك الدماء، وهتك الحرم، ونهب الأموال فسادٌ في الأرض، والبغي على عباد الله بغير حق فساد في الأرض، وهدم البنيان وقطع الأشجار، وتغوير الأنهار فساد في الأرض، فعرفت بهذا أنه يصدق على هذه الأنواع أنها فساد في الأرض"[٣٩١].

وفي ربط الفساد بالقتل في هذا الآية إشارة إلى أن الفساد في الأرض قد يؤدي إلى الفتك والقتل والموت، وهذا ما يعيشه العالم المعاصر اليوم.

وقد جاء القرآن الكريم بالنهي عن الفساد بجميع صوره، وحث على أن يكون الفرد مراقبا لنفسه وأن يكون قدوة حسنة في تصرفاته وأعماله وسلوكياته، بل عزز هذا الأمر وجعل هناك رقابة خارجية على هذا السلوك من مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران]، وفي هذا المبدأ دعم لسبل الخير ونبذ للفساد عموما، ومن ذلك الفساد البيئي.

المطلب الخامس: الدعوة إلى عمارة الأرض والحث على إحياء البيئة والمحافظة عليها:

---

[٣٨٩] الشوكاني، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**،ج٤، ص٢٢٨ .

[٣٩٠] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٣٠، ص٣٢٢.

[٣٩١] الشوكاني، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**،ج٢، ص٣٣.

جاء القرآن الكريم بالدعوة إلى عمارة الأرض، قال تعالى: "﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١]، قال الجصاص ـ رحمه الله ـ: "وقوله: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ يعني أمركم من عمارتها، بما تحتاجونه إليه، وفيه الدلالة على وجوب عمارة الأرض للزراعة والغراس والأبنية"[٣٩٢]. وقد جعل الله الأرض ذلولًا يمكن الإفادة منها، والعمل عليها، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك:١٥]، أي أن الله هو الذي جعل لنا الأرض ذَلُولاً سهلة ليّنة نستقرّ عليها، ولم يجعلها خشنة بحيث يمتنع علينا السكون فيها والمشي عليها، فامْشُوا في نواحيها وجوانبها. "واستدل بالآية: على ندب التسبب والكسب"[٣٩٣]. وحث القرآن الكريم على ضرورة العمل والكسب، وبذل الجهد، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة:١٠]، أي "إذا فرغتم من الصلاة فانتشروا في الأرض للتجارة والتصرف في حوائجكم، ﴿وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي من رزقه. وكان عِراك بن مالك إذا صلّى الجمعة انصرف فوقف على باب المسجد فقال: اللَّهُمّ إني أجبت دعوتك، وصلّيت فريضتك، وانتشرت كما أمرتني، فارزقني من فضلك وأنت خير الرازقين"[٣٩٤]. فالقرآن الكريم دعا الناس إلى العمل، وحثهم عليه وحتم عليهم أن يكونوا ايجابيين في حياتهم يتمتعون بالجد والنشاط؛ ليفيدوا ويستفيدوا، وكره لهم الحياة السلبية، قال تعالى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ [القصص:٧٧]، كما جعل الله سبحانه الأرض مليئة بالنعم والخيرات؛ لأجل أن يعيش الإنسان في رفاهية وسعة، قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس:٣٣-٣٥]، ولن يظفر الإنسان بهذه النعم إلا بالعمل والجد والكسب. وقال ﷺ حاثًا على العمل تأييدا لما جاء في القرآن: «ما أكل أحدٌ طعاماً قطُّ، خيراً من أن يأكل من عَمَل يَدِه، وإنَّ نبيَّ الله داود عليه السلام كان يأكلُ من عَمَل يَدِه»[٣٩٥]، ومن المعروف أن نبي الله داود عليه السلام كان يصنع الحديد كما أخبرنا القرآن الكريم عنه في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ [الأنبياء:٧٩-٨٠]، وقال ﷺ: «لأن يحتطبَ أحدُكم حُزْمَةً على ظهره، خيرٌ له من أنْ يَسألَ أحدًا، فيُعطيَهُ أو يمنَعَهُ»[٣٩٦]، وقال ﷺ: «إن

[٣٩٢] الجصاص، **أحكام القرآن**، ج٣، ص١٦٥.

[٣٩٣] الآلوسي، **روح المعاني**، ج٢٩ ص١٥.

[٣٩٤] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج١٨، ص١٠٨.

[٣٩٥] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، الحديث ٢٠٧٢، ص٣٩١.

[٣٩٦] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب البيوع، باب كسب الرجل وعمله بيده، ص٣٩١، رقم٢٠٧٤.

قامت الساعةُ، وفي يد أحدكم فَسِيْلَةٌ؛ فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها»[٣٩٧]، وقال ﷺ: «ما من مُسلم يغرِسُ غرساً أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طيرٌ، أو إنسانٌ، أو بهيمةٌ، إلا كانَ لهُ به صَدقة»[٣٩٨]. قال النّوويُّ ـ رحمه الله ـ في شرحه لهذا الحديث: "في هذه الأحاديث فضِيلةُ الغَرْسِ وفضِيلةُ الزَّرعِ، وأنّ أجرَ فاعلي ذلكَ مُستَمِرٌّ ما دامَ الغَرسُ والزّرع وما تولّدَ منهُ إلى يومِ القيامةِ"[٣٩٩].

وهذه النصوص وغيرها تحث المسلم إلى السعي للعمل عموما، ومن ذلك العمل في إحياء البيئة والحفاظ عليها. بل إن كل نشاط إنساني صحيح، يبتغي به فاعله وجه الله سبحانه فهو داخل في العبادة ومن ذلك إحياء البيئة، فمن أحيا البيئة مريدا بذلك وجه الله، أثابه الله عليه، قال ﷺ: «إنَّما الأعمالُ بالنِّيَّات، وإنما لكلِّ امرئٍ ما نَوَى»[٤٠٠].

ولما كان الإنسان أهم عنصر من عناصر البيئة، بل إن البيئة نفسها مسخرة لخدمته، وهو خليفة الله في الأرض دون غيره من سائر المخلوقات، فقد جاء القرآن بإعلاء قيمته، والحفاظ عليه، ونهى عن قتل النفس الحرام، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:١٥١، الإسراء:٣٣]. وجعل الله ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ﴾ [المائدة:٢]. ومن أوجه محافظة القرآن الكريم على البيئة وحمايتها أنه شرع عقوبات توقع على من يتعدى على الحياة البرية وهو مُحْرِم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ﴾ [المائدة:٩٥]. كما حدد مناطق معينة كمحميات طبيعية لتكون نموذجا في الحفاظ على الحياة البرية. فجاء في القرآن النهي عن التعدي على الحياة البرية في مكة، حيث يقول تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ [المائدة:٩٦].

كما حث القرآن على التطهر في آيات كثيرة، كالتطهر للصلاة، والتطهر بعد الحيض، والتطهر من الجنابة، وأخبر سبحانه أنه يحب المتطهرين، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]. والتطهر في الآية يشمل الطهارة الحسية والطهارة المعنوية، والطهارة الحسية فيها حماية للبيئة من التلوث.

المطلب السادس : النهي عن الضرر والإضرار البيئي:

كلمة ضرر: تدلّ على نفس النقص، وكلمة ضرار: تدلّ على الضرر الصادر عن الفاعل عن تعمّد وقصد، أو للتشبّث ببعض الذرائع الواهية، وقد ورد في القرآن الكريم النهي عن الضرر والضرار في مواضع

---

[٣٩٧] أخرجه البخاري في **الأدب المفرد**، باب اصطناع المال، ح٤٧٩. وصححه الألباني في **صحيح الأدب المفرد**، ج١، ص١٨١، ح٣٧١. وأخرجه أحمد في **مسنده**، ج ٣، ص١٨٣. والفسيلة: الصغيرة من النخل. ابن منظور، **لسان العرب**، ج١١، ص٥١٩.

[٣٩٨] أخرجه البخاري في **صحيحه**،كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أُكل منه، ص٤٣٦، رقم٢٣٢٠؛ ومسلم في **صحيحه**،كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع، ص٦٣٤، رقم١٥٥٢.

[٣٩٩] النووي، **شرح صحيح مسلم**، ج١٠، ص١٨١.

[٤٠٠] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله، ص٢١، رقم١.

كثيرة، سواء نُصَّ فيها على رفع الضرر أو يفهم هذا من خلال الحكم. ومن المصرح فيها بلفظ نفي الضرر على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ [البقرة:٢٨٢]، وقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا﴾ [البقرة:٢٣١]، وقوله تعالى: ﴿لَا تُضَآرَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ﴾ [البقرة:٢٣٣]، وقوله: ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا عَلَيْهِنَّ﴾ [الطلاق:٦]، ومن غير ما صُرِّح فيها بذلك: النهي عن قتل الناس، والتعدي عليهم، وأخذ حقوقهم، والاستطالة في أعراضهم إلى غير ذلك مما هو معلوم ضرورة، وكذلك الأمر بدفع الضرر بقتل القاتل، ورجم الزاني، وقطع يد السارق.

وهذه الآيات وغيرها، تثبت قاعدة كلية من أهم قواعد الشرع، وهي: (لا ضرر ولا ضرار)، والقاعدة هي نصُّ حديث نبوي صحيح ونصه: عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لا ضرر ولا ضرار، من ضارَّ ضاره الله ومن شاقَّ شاق الله عليه»[٤٠١]. ونفي الضرر في الحديث يفيد عدم وجود الضرر فيما شرعه الله لعباده من الأحكام، وأما نفي الضرار: فيفيد نهي المؤمنين عن إحداث الضرر أو فعله. وقاعدة لا ضرر ولا ضرار تفيد أنه لا ضرر يقع على الشخص، كما أنه لا يقع منه ضرر على أحد، والمعنى أن الشريعة كما تمنع حصول الضرر عليه، فهي تمنع حصول الضرر منه، فتحقق المصلحة للجميع، وتفيد القاعدة أيضاً، أن من أراد الإضرار بغيره، إما بإيقاع الضرر عليه مباشرة، أو من حيث منع وصول النفع إليه من غير ضرر يقع عليه أنه ممنوع منه. لذا فمن أراد إيقاع ضرر بالبيئة، أو الضرار بأي شكل من الأشكال وجب منعه. قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦ و٨٥].

المطلب السابع: الحث على عدم استنزاف الموارد البيئية:

الموارد البيئية: هي المواد والظاهرات الطبيعية التي لا دخل للإنسان في وجودها، ولكنه يعتمد عليها في حياته ويتأثر بها ويؤثر فيها. وتنقسم الموارد البيئية إلى قسمين:

١. موارد غير متجددة: تتضمن الموجودة في البيئة على هيئة رصيدٍ ثابت وما يؤخذ منه لا يعوض.

٢. موارد متجددة: تتضمن الموارد التي تتجدد ذاتيا مجموعة من مختلف مصادر الطاقة.

واستنزاف الموارد البيئية هو الإكثار من استهلاك الموارد البيئية والذي يؤدي بدوره إلى انقراضها. فالموارد المتجددة تتعرض للاستنزاف إذا ما استغلت بدرجة أكثر من قدراتها التجديدية أو التعويضية، أما الموارد غير المتجددة تتعرض للاستنزاف إذا ما أفرطنا في استغلالها بما يعجل بسرعة استنزافها ويجردها عن وظيفتها، بل قد تختفي تماما من البيئة ونخسرها كمورد، وعدم استنزاف الموارد وصيانتها يعتبر جزء أساس

[٤٠١] حديث صحيح، أخرجه الحاكم في **المستدرك** ج ٢،ص ٥٧، والبيهقي في سننه، ج٦، ص٦٩، قال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه"، وروي أيضا من حديث عبد الله ابن عباس، وعبادة بن الصامت، وعائشة، وأبي هريرة، وجابر بن عبد الله، وثعلبة بن مالك رضي الله عنهم . وصححه الألباني في السلسة الصحيحة ج١، ص٤٩٨ . ٥٠٣، ح٢٥٠.

لحماية البيئة. وجاء القرآن الكريم مؤكدا النهي عن استنزاف الموارد البيئية، فحرَّم الإسراف والتبذير قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا﴾ [الإسراء:٢٧]، وقال: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام:١٤١]، وجاء في السنة النبوية بشكل أخص النهي عن نوع من الإسراف البيئي، وهو الإسراف في الماء فعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِسَعْدٍ وَهُوَ يَتَوَضَّأُ فَقَالَ:مَا هَذَا السَّرَفُ يَا سَعْدُ؟ قَالَ: أَفِي الْوُضُوءِ سَرَفٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى نَهْرٍ جَارٍ»[٤٠٢].وأمر الله بالاعتدال في الإنفاق والاستهلاك، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء:٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧]، والإسراف: تجاوز الحد في الاستهلاك الحلال، والتبذير هو الإنفاق في الحرام. وجاء في القرآن الكريم حجر من يضيع المال أو يضعه في غير موضعه، قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء:٥]، "والسفهاء يجوز أن يراد به اليتامى ... ويجوز أن يراد به مطلق من ثبت له السفه، سواء كان عن صغر أم عن اختلال تصرّف ...، وهذا هو الأظهر؛لأنّه أوفر معنى وأوسع تشريعا"[٤٠٣].

المطلب الثامن : محافظة القرآن الكريم على التوازن البيئي:

التوازن البيئي هو: بقاء عناصر أو مكوّنات البيئة الطبيعية على حالها كما خلَقها الله، دون تغيير جوهري يُذكَر. وذلك أن الله خلق البيئة وفق نظام بيئي دقيق يكفل وجود الحياة واستمرارها.

وجاء في القرآن الكريم الإشارة إلى خلق الله للكون، وأنه سبحانه أحسن خلقه وأتقنه، قال تعالى: ﴿بى بي تج تح تخ تم تى﴾ [النمل:٨٨]، وقال: ﴿تم تى تي ثج ثم ثى ثي جح جم﴾ [طه: ٥٠]، وقال سبحانه: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى]. كما أشار القرآن الكريم في عدد من الآيات إلى أن الله خلق كل شيء بقدر وتوازن لا خلل فيه ولا نقص، مما يدعو إلى المحافظة عليه وعدم إخلال هذا التوازن الدقيق، قال تعالى: ﴿تح تخ تم تى تي﴾ [القمر:٤٩]، وقال: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ ۝١٩ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾ [الحجر]، وقال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢]. فالبيئة من صنع الله الذي أتقن كل شيء، خلقت في توازن متقن وبمقدار محدد لكل عناصرها من ماء وهواء وتربة وجبال، وهذه الآيات وغيرها تشير إلى وجوب المحافظة على هذا التوازن البيئي الذي أوجده الله، وإفساد التوازن البيئي معارض لسنة الله في إيجادها، كما أنه مخالف لمفهوم الاستخلاف على الأرض.

---

[٤٠٢] أخرجه أحمد في **مسنده**،ج٢، ص٢٢١؛ وابن ماجه في **سننه**،كتاب الطهارة، باب ما جاء في القصد في الوضوء،ح ٤٢٥،ص٥٨، وكان الشيخ الألباني رحمه الله قد ضعفه في ضعيف سنن ابن ماجه، ثم حسنه في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ح٣٢٩٢.

[٤٠٣] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٤، ص٢٣٤.

المطلب التاسع: إشعار مسؤولية الفرد والمجتمع تجاه البيئة:

المسؤولية في الإسلام: تعني أن المسلم المكلف مسؤول عن كل شيء جعل الشرع له سلطانًا عليه، أو قدرة على التصرف فيه، بأي وجه من الوجوه، سواء كانت مسؤولية شخصية فردية أم مسؤولية متعددة جماعية. والمسؤولية الفردية: تعني أن الفرد مسؤول عن نفسه، وعن ما يصدر منها من أقوال وأفعال، فهي مسؤولية كل فرد عن نفسه وجوارحه وبدنه، والمسؤولية الجماعية: تنبع من حِسٍ جماعي بالالتزام تجاه قضية ما أو نحوها. لذا أكد القرآن الكريم على أن كل إنسان مسؤول عن نفسه، وأنه محاسب على أعماله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ﴾ [الأنعام:١٦٤]، وقال سبحانه: ﴿ثم ثى ثي بج بح بخ﴾ [النجم:٣٩]، والقرآن يصرّح أن كل إنسان سيسأل يوم القيامة، وبناءً على نجاح الإنسان بتأدية هذه المسؤولية يتحدّد مصيره.فكل إنسان سيسأل عما استرعاه حفظ أم ضيع كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿بح بخ بم بى﴾ [الصافات:٢٤]، فالفرد بل المجتمع عموما مسؤول عن البيئة التي يعيش فيها، وعليه مسؤولية الحفاظ عليها من التلوث، والحرص على تجميلها بالغرس والزرع والتعمير، وعدم التعدي على مواردها بالائتلاف أو الإهدار أو الإسراف. قال تعالى بعد أن أمر باستثمار بعض موارد البيئة: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة:٦٠]، وقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦، ٨٥].

المطلب العاشر: الحث على إتباع شرع الله لما ينتج عنه من صلاح للبيئة:

جاء في القرآن الكريم الدعوة للإيمان بالله وطاعته، وبين سبحانه أن من آثار توحيد الله وطاعته صلاح الأرض، وحلول البركات، واستمرار الخيرات، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾[المائدة:٦٦]، "يعنى ذلك: كثرة الرزق النازل عليهم من السماء، والنابت لهم من الأرض"[٤٠٤]. "والمراد بالأكل الانتفاع مطلقاً، وعبر عن ذلك به لكونه أعظم الانتفاعات ويستتبع سائره"[٤٠٥]. وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦]، "والبركات: جمع بركة، والمقصود من الجمع تعددها، باعتبار تعدد أصناف الأشياء المباركة ... وجُماع معناها هو الخير الصالح الذي لا تبعة عليه في الآخرة فهو أحسن أحوال النعمة"[٤٠٦]. وقال سبحانه: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ [الجن:١٦]. أي "وأن لو استقام القاسطون على طريقة الإسلام، وعدلوا إليها، واستمروا عليها، ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ أي: كثيراً. والمراد بذلك سعة الرزق"[٤٠٧].

---

[٤٠٤] ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج ٣، ص ١٤٨ .

[٤٠٥] الألوسي، **روح المعاني**، ج ٦ ص ١٨٥ .

[٤٠٦] ابن عاشور، **التحرير والتنوير**،ج٩، ص٢١.

[٤٠٧] ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**،ج٨، ص٢٤٢.

"وقال عمر ﷺ في هذه الآية:" أينما كان الماء كان المال، وأينما كان المال كانت الفتنة"[٤٠٨]. فمعنى: ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم﴾لوسَّعنا عليهم في الدنيا، وضرَبَ الماء الغَدَق الكثير لذلك مثلاً؛ لأن الخير والرزق كله بالمطر يكون، فأقيم مقامه"[٤٠٩].

فالقرآن الكريم أبان أن طاعة الله سبب لصلاح الأرض، وحلول البركات فيها، واستمرار خيراتها. وعليه فطاعة الله سبب لحفظ البيئة.

المطلب الحادي عشر: التحذير من معاصي الله لما تسببه من فساد بيئي:

لزوم شرع الله سبب لصلاح الأرض وخروج خيراتها ـ كما سبق بيانه ـ، فكذلك الخروج عن شرع الله وارتكاب معاصيه سبب لفساد البيئة، وربما تسببت في إتلاف عدد من مكوناتها.

وقد أشار القرآن الكريم إلى أن الله قد سخر البيئة للإنسان، وهذا الأصل إلا أنه سبحانه قد يسخرها على الإنسان بسبب فعله، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة]، وقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۖ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف:٢٤]. وجاء في القرآن الإخبار بأن الله أتلف عددا من البيئات الجميلة بسبب كفر أصحابها، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ]، روى الطبري ـ رحمه الله ـ في تفسيره عن ابن زيد ـ رحمه الله ـ قال: "ولم يكن يُرى في قريتِهم بعوضةٌ قطُّ، ولا ذُبابٌ، ولا بُرْغوثٌ، ولا عَقْربٌ، ولا حَيَّةٌ، وإنْ كانَ الركبُ ليَأتون وفي ثيابهم القَمْلُ والدَّوابُّ، فما هم إلَّا أن يَنْظروا إلى بيوتِهم، فتمُوتَ الدوابُّ. قال: وإن كان الإنسان ليَدخُلُ الجنتَين، فيُمسِكُ القُفَّةَ[٤١٠] على رأسه، فيخرُجُ حين يخرُجُ وقد امتلأت تلك القُفَّةُ من أنواع الفاكهة، ولم يتناول منها شيئاً بيدِه. قال: والسَّدُّ يسقيها"[٤١١]. ثم كفروا نعمة الله تعالى فعاقبهم بذلك: "فهذا الذي صار أمر تَيْنك الجنتين إليه، بعد الثمار النضيجة، والمناظر الحسنة، والظلال العميقة، والأنهار الجارية، تبدَّلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسِّدْر ذي الشوك الكثير والثمر القليل. وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله، وتكذيبهم الحق، وعدولهم عنه إلى الباطل"[٤١٢]. وضرب الله في القرآن الكريم للمشركين مثلاً برجلين جعل الله لأحدهما جنتين، أي

---

[٤٠٨] أخرجه الطبري في **تفسيره** عن عمرو بن عبد الحميد الآملي، قال: ثنا المطلب بن زياد، عن التيمي به. وأخرجه ابن أبي الدنيا في **إصلاح المال**، رقم٣٩ من طريق المطلب بن زياد عن السدي عن عمر به.

[٤٠٩] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج١٩، ص١٨.

[٤١٠] القُفَّة : الزبيل، يتخذ من خوص ونحوه . يجتنى فيه الرطب وغيره. ابن منظور، **لسان العرب**، ج ٩، ص ٢٨٧، مادة قفف.

[٤١١] الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، ج١٩، ص٧.

[٤١٢] ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**،ج٦، ص٥٠٨.

بستانين من أعناب، محفوفتين بالنخيل المحدّقة في جنباتهما، وفي خلالهما الزروع، وكل من الأشجار والزروع مثمر مقبل في غاية الجودة، والأنهار متفرقة فيهما هاهنا وهاهنا. فلما كفر بنعمة الله أتلف الله ماله كله بأن أرسل على الجنة والزرع حُسبانا من السماء، فأصبحت صعيداً زلقاً، وهلكت أنعامه وسُلبت أمواله، أو خسف بها بزلزال أو نحوه. قال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ٣٢ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا﴾ [الكهف] إلى أن قال: ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصۡبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيۡهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُشۡرِكۡ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ٤٢﴾ [الكهف]. وضرب الله مثلا لكفار قريش بأصحاب الجنة، وهي البستان المشتمل على أنواع الثمار والفواكه، فلما كفروا نعمة الله، أصابتها آفة سماوية، فأصبحت كالليل الأسود، فحرموا خير جنتهم بذنبهم. قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ١٧ وَلَا يَسۡتَثۡنُونَ ١٨ فَطَافَ عَلَيۡهَا طَآئِفٞ مِّن رَّبِّكَ وَهُمۡ نَآئِمُونَ ١٩ فَأَصۡبَحَتۡ كَٱلصَّرِيمِ﴾ [القلم] . وغيرها من القصص والأخبار في القرآن الكريم.

كما حذر سبحانه من المعاصي والذنوب؛ لما تحدث من أنواع الفساد في البيئة، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ ئج ئح ئم ئى ئي بج بح بخ بم بى بي تج تح﴾ [الروم:٤١] .

كما جاء في القرآن الإخبار بإهلاك عدد من الأمم، بأنواع العذاب والعقوبات، التي سببت في تغيير بعض مكونات البيئة. وأختم بنقل كلام لابن قيم الجوزية في الجواب الكافي حيث يقول . رحمه الله .: "ومن آثار الذنوب والمعاصي: أنها تُحدث في الأرض أنواعاً من الفساد في المياه والهواء، والزرع، والثمار، والمساكن، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ ئج ئح ئم ئى ئي بج بح بخ بم بى بي تج تح﴾ [الروم:٤١] ... ومن تأثير معاصي الله في الأرض: ما يحل بها من الخسف والزلازل، ويمحق بركتها، ... وكذلك شؤم تأثير الذنوب في نقص الثمار وما ترى به من الآفات. وقد ذكر الإمام أحمد في مسنده في ضمن حديث قال: وجدت في خزائن بعض بني أمية، حنطة، الحبة بقدر نواة التمرة، وهي في صرة مكتوب عليها:(كان هذا ينبت في زمن من العدل)، وكثير من هذه الآفات أحدثها الله سبحانه وتعالى بما أحدث العباد من الذنوب. وأخبرني جماعة من شيوخ الصحراء أنهم كانوا يعهدون الثمار أكبر مما هي الآن، وكثير من هذه الآفات التي تصيبها لم يكونوا يعرفونها، وإنما حدثت من قرب"[٤١٣].

الخاتمة:

وبعد هذا التطواف في موضوع: (منظور القرآن الكريم في الحفاظ على البيئة)، أضع خاتمة لهذا البحث، وأسطر فيه أهم نتائجه، وهي:

١. معرفة أن البيئة هي: المحيط الذي يوجد فيه الإنسان، وما فيه من عوامل وعناصر تؤثر في تكوينه وأسلوب حياته.

[٤١٣] ابن قيم الجوزية، **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي**، ص٥٨.

٢. التعرف على منظور القرآن الكريم عن البيئة، وأوجه حفاظ القرآن عليها.

٣. سَبَقَ القرآنُ الكريم الدراسات المعاصرة في لفت أنظار الناس للبيئة، والدعوة للحفاظ عليها.

٤. لم يستخدم القرآن لفظة: (البيئة) للتعبير عن المحيط الذي يوجد فيه الإنسان، وإنما استخدم لفظة: الأرض، وغيرها من مكونات وعناصر البيئة.

٥. شمولية القرآن؛ حيث تضمن تشريعات كاملة لمختلف مناحي الحياة، ومنها الحفاظ على البيئة.

٦. معرفة خمسة أهداف دعت للتحدث عن حماية البيئة في القرآن الكريم.

٧. تحديد (١١) وجهاً في القرآن الكريم، تدعو تلك الأوجه للحفاظ على البيئة والاعتناء بها. والأوجه هي :تكريم القرآن الكريم للبيئة، استشعار أن الإنسان مستخلف في الأرض، استشعار تسخير البيئة للإنسان، النهي عن الفساد والإفساد البيئي، الحث على عمارة الأرض وإحياء البيئة والمحافظة عليها، النهي عن الضرر والإضرار البيئي، الحث على عدم استنزاف الموارد البيئية، محافظة القرآن الكريم على التوازن البيئي، إشعار مسؤولية الفرد والمجتمع تجاه البيئة، الحث على اتباع شرع الله لما ينتج عنه من صلاح للبيئة، التحذير من معاصي الله لما تسببه من فساد بيئي.

٨. ظهور تكريم البيئة في القرآن الكريم في عدة صور من التكريم، وتسخيرها للإنسان.

٩. بروز جانب من جوانب الإعجاز العلمي في القرآن، بحديثه عن البيئة والدعوة للحفاظ عليها.

١٠. التأكيد على العناية بالبيئة والحفاظ عليها، وأن ذلك مما دعى إليه القرآن الكريم.

١١. أن الأرض جعلها الله صالحة للحياة في خلق بديع ودقة متناهية، لا خلل فيها، فيجب الحفاظ عليها.

١٢. جاء البحث بالإجابة على إشكاليته، وتبين أن القرآن الكريم كرّم البيئة، واعتنى بها، وأنها مسخرة للإنسان، وأمر القرآن الكريم بالحفاظ عليها، والاعتناء بها.

وبعدُ فإني آمل أن أكون قد وفقت فيما قلت وعرضت، كما آمل أن يلاقي البحث قارئاً كريماً، يقبل صوابه، ويصوّب خطأه، ويعفو عن زلله، والحمد لله رب العالمين. تم بحمد الله وتوفيقه.

المصادر والمراجع:

١. ابن القيم، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي**، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر).

٢. ابن حنبل، أحمد بن حنبل، **المسند**، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر).

٣. ابن عاشور، الإمام محمد الطاهر بن عاشور، **التحرير والتنوير**، (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م).

٤. ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي السلامة (دار طيبة، ط١ ١٤١٢هـ).

٥. ابن ماجه، محمد بن يزيد بن ماجه القزويني، **السنن**، (الرياض: بيت الأفكار الدولية، ١٤١٩هـ)
٦. ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأفريقي المصري، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، ط٣، ١٤١٤هـ).
٧. أرناؤوط، محمَّد السيد، **التلوث البيئي وأثره على صحة الإنسان**، (القاهرة: مكتبة الأسرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب) .
٨. الألباني، محمد ناصر الدين، **صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري**: (السعودية: مكتبة الدليل، ط ٣، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م).
٩. الألباني، محمد ناصر الدين، **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، (الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ١٤١٥هـ) .
١٠. الألوسي، محمود شهاب الدين الحسيني الألوسي، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).
١١. البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، **الصحيح المسند**، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، (الرياض: بيت الأفكار الدولية).
١٢. الحمد، رشيد، وصباريني محمد سعيد، **البيئة ومشكلاتها**، (الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ١٩٧٩).
١٣. الجصاص، أبوبكر أحمد بن علي الرازي، **أحكام القرآن**، (بيروت: دار الكتاب العربي).
١٤. الخضير، محمد أحمد، **القيم البيئية من منظور إسلامي**، (مجلة الزرقاء للبحوث الإسلامية، مجلد٩عدد٢، ص٧١٩٠، ٢٠٠٩م).
١٥. الدغيثر، عبدالعزيز بن سعد، **الحفاظ على البيئة من منظور إسلامي**، (الرياض: كتيب المجلة العربية، العدد ١٠٣، ط١٤٢٦هـ).
١٦. رشوان، د.محمد أحمد، **تلوث البيئة وكيف عالجه الإسلام**، (الرياض: مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود، ط١، ١٤١٤هـ)
١٧. السيوطي، جلال الدين، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، (بيروت، المكتبة العصرية، ١٤٠٨هـ).
١٨. الشوكاني، محمد بن علي، **إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد والنبوات**، (بيروت: دار الكتب العلمية)
١٩. الشوكاني، محمد بن علي، **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير**، (مصر: شركة مكية ومطبعة الحلبي).
٢٠. الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق: د.عبدالله التركي، (القاهرة: دار هجر، ط١، ١٤٢٢هـ).
٢١. عبدالباقي، محمد فؤاد، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، (استانبول تركيا، المكتبة الإسلامية، ١٩٨٢م) .

٢٢. عبداللطيف، خالد محمود عبداللطيف، **البيئة والتلوث من منظور إسلامي**، (القاهرة، دار الصحوة للنشر، ١٤١٣هـ).

٢٣. عكام، د.محمود عكام، **البيئة في منظور القرآن الكريم والسنة النبوية**، (بحث منشور على الإنترنت، في موقعه الشخصي).

٢٤. غانم، د. حسين مصطفى، **الإسلام وحماية البيئة من التلوث**، (مكة المكرمة: مطبوعات جامعة أم القرى، ١٤١٧هـ).

٢٥. الفقي، محمد عبد القادر الفقي، **البيئة: مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث رؤية إسلامية**، (القاهرة: مكتبة ابن سينا).

٢٦. الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٢) .

٢٧. القاضي، عبدالواحد إسماعيل، **الإسلام والبيئة**، (القاهرة: دار الاعتصام) .

٢٨. القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، . تصحيح أحمد البردوني وآخرون، (بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر) .

٢٩. مجموعة من العلماء، د. إبراهيم أنيس وعدد من العلماء، **المعجم الوسيط**، (القاهرة: ط٢، ١٣٩٢هـ).

٣٠. مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري، **الصحيح المسند**، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، (الرياض: بيت الأفكار الدولية).

٣١. المومني، طلال محمد، **حماية البيئة من منظور إسلامي**، (المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، مجلد٢، عدد٢، ١٤٢٧هـ).

منظور القرآن الكريم والسنة الشريفة
في الحفاظ على البيئة وانعكاسه على مناهج التربية الإسلامية

د. ميمونة بنت درويش الزدجالية[٤١٤]

ملخص البحث:

يهدف هذا البحث إلى إبراز جانب الاهتمام بالبيئة والحفاظ عليها في القرآن الكريم والسنة المطهرة، وإبراز جهود القائمين على الاهتمام بالبيئة، والاستفادة منها في إعداد مقترح لقائمة بالمفاهيم البيئية التي ينبغي توافرها في مناهج التربية الإسلامية في ضوء القرآن الكريم والسنة المطهرة. والباحثة استخدمت في هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي لملائمته لطبيعة هذا البحث؛ حيث حاولت الإجابة عن أسئلة هذه الدراسة معتمدة في ذلك على ما توافر له من معلومات من خلال الكتب والوثائق والدراسات والمؤتمرات والاتفاقيات التي تناولت موضوع البيئة والتي استطاعت الباحثة الوصول إليها، فضلا عن الرجوع إلى آيات القرآن الكريم والسنة النبوية كمرجع أساسي وأصيل في هذه الدراسة. وكان من أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة الحالية إعداد قائمة مقترحة بالمفاهيم البيئية التي يجب أن تضمن في كتب التربية الإسلامية، تكونت من (٦١) فقرة موزعة على ثمانية مجالات هي: النظام البيئي، وموارد البيئة، والبيئة والسكان، ومشكلات بيئية، والبيئة والاقتصاد، والصحة البيئية، أخلاقيات البيئية، التربية البيئية الإسلامية. وفي ضوء نتائج الدراسة أوصت الباحثة بضرورة الاستفادة من قائمة مفاهيم التربية البيئية التي توصلت إليها الدراسة الحالية، بتضمينها في مناهج التربية الإسلامية في التعليم العام. والعمل على وضع مصفوفة مفاهيمية متكاملة لمفاهيم التربية البيئية تشمل جميع مراحل التعليم العام، استنادا إلى قائمة المفاهيم التي تم التوصل إليها في الدراسة الحالية.

مقدمة:

إن الناظر إلى علاقة الإنسان بالكون الذي هو بيئته المحيطة به من أرض وسماء وما حوتا من مكونات وتفاصيل دقيقة يجد أنها بدأت منذ أن خلقه الله تعالى، واستخلفه في الأرض؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠] ومن منطلق الاستخلاف سخرت للإنسان كل مكونات الكون، وجعلت تحت تصرفه وقيد انتفاعه شريطة المحافظة عليها، والسير وفق المنظومة الكونية المقدرة من الله تعالى، فهو استخلاف مشروط بأداء الأمانة العظمى التي وعد الإنسان بحمل تبعاتها، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا

[٤١٤] قسم المناهج والتدريس، كلية التربية، جامعة السلطان قابوس. maimuna@squ.edu.om

وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب:٧٢] وهو أيضا استخلاف تشريف لقوله تعالى: ﴿وَلَقَد كَرَّمنا بَني آدَمَ وَحَمَلناهُم فِي البَرِّ وَالبَحرِ وَرَزَقناهُم مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلناهُم عَلى كَثيرٍ مِّمَّن خَلَقنا تَفضيلًا﴾ [الإسراء:٧٠].

إلا أن الإنسان رغم هذا التكريم، وهذه النعم المسخرة لمنفعته وتيسير أسباب الحياة له، أخذ يستنزف الثروات المقدرة حتى ينعم بالترف، وأسرف في استغلال ما حوله، فكان ما نرى من تلوث، والكوارث الطبيعية، والمشكلات البيئية المتجددة والمتنامية يوما بعد يوم، متجاهلا مع كل هذا كله تعاليم الله تعالى التي نهته عن الفساد في الكون بكل صوره وأشكاله، قال تعالى: وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ البقرة:٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِلى مَديَنَ أَخاهُم شُعَيبًا قالَ يا قَومِ اعبُدُوا اللَّهَ ما لَكُم مِن إِلهٍ غَيرُهُ قَد جاءَتكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُم فَأَوفُوا الكَيلَ وَالميزانَ وَلا تَبخَسُوا النّاسَ أَشياءَهُم وَلا تُفسِدوا فِي الأَرضِ بَعدَ إِصلاحِها ذلِكُم خَيرٌ لَّكُم إِن كُنتُم مُؤمِنينَ﴾ [الأعراف:٨٥] ويؤكد القرآن الكريم أن مصدر هذا الفساد في الحقيقة من الإنسان نفسه قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

تعريف البيئة لغة واصطلاحا:

البيئة لغة اسم مشتق من الفعل الماضي "باء" و"بوأ" ومضارعه "يبوء"، وأشهر معانيه التي تهمنا يرجع إلى الفعل باء الذي مضارعه "يتبوأ" بمعنى ينزل ويقيم، كما هو في أساس البلاغة[٤١٥]، وفي معاجم اللغة كاللسان[٤١٦]، والقاموس المحيط[٤١٧]. وقد ورد لفظ البيئة في هذه المصادر بمعنى المنزل تارة، وبمعنى المنزل الطيب تارة أخرى، فتقول: نزل في مباءتهم بمعنى أناخوا إليهم في المباءة، وهي معاطنها.

وفي لسان العرب: بوأهم منزلاً يعني نزل بهم إلى سند جبل، وأبأت المكان أي أقمت فيه. وتبوآ لقومكما بيوتاً في مصر أي اتخذا، وقيل من معاني تبوأ أصلح المكان وهيأه ليتخذه الإنسان مكاناً، وتبوأ بمعنى نزل ومباءة العن معطنها الذي تنام فيه.

والبيئة: هي اسم، واستباءه اتخذ مباءة، وتبوأت منزلاً بمعنى نزلته وحللت فيه. وفي الصحاح للجوهري[٤١٨]: (المباءة: منزل القوم في كل موضع، ويسمى كناس الثور الوحشي: مباءة، وكذلك معطن الإبل. وتبوأت منزلاً، أي نزلته، وبوأت للرجل منزلاً وبوأته منزلاً بمعنى، أي هيأته له فيه. واستباءه، أي اتخذه مباءة. وهو ببيئة سوء، أي بحالة سوء، وأنه لحسن البيئة).

---

[٤١٥] الزمخشري، **أساس البلاغة**، ص٣٣.

[٤١٦] ابن منظور، **لسان العرب**، ص٣٦.

[٤١٧] الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، ص٤٣.

[٤١٨] الجوهري، **الصحاح**، ص.٣٦

ويتضح من المعنى اللغوي أن البيئة هي النزول والحلول في المكان الذي يتخذه الإنسان مستقرا لنزوله وحلوله، فكل ما يحيط بالإنسان وسط حيوي (نبات وحيوان و..) وسط فيزيائي (ماء، وهواء وتربة..) يطلق عليه بيئة.

أما في الاصطلاح: تطلق البيئة اصطلاحاً على المكان الذي يقيم فيه الإنسان وغيره، والبيئة هي المنزل والحال، ويقال بيئة طبيعية وبيئة اجتماعية، وبيئة سياسية[٤١٩].

وعرفت بأنها: "مجموع الظروف والعوامل الخارجية التي تعيشها الكائنات الحية وتؤثر في العمليات الحيوية التي تقوم فيها"[٤٢٠]، وعرفت بأنها: "مجموعة النظم الطبيعية والاجتماعية والثقافية التي يعيش فيها الإنسان والكائنات الأخرى والتي يستمدون منها زادهم ويؤدون فيها نشاطهم"[٤٢١].

البيئة في القرآن الكريم والسنة الشريفة:

وفي القرآن الكريم الذي هو هدفنا وعليه يدور البحث الحالي، فقد وردت مشتقات البيئة من فعلها الثلاثي (بوأ)، في تسع سور من سور القرآن الكريم، منها ستٌّ مكية (الأعراف، يونس، النحل، العنكبوت، الزمر، يوسف) وثلاث مدنية (الحج، آل عمران، الحشر)، تكررت عشر مرات، ودلت على معاني مختلفة حسب السياق الذي وردت فيه، وذلك على النحو الآتي: قال تعالى ﴿... وَبَوَّأَكُم فِي الأَرضِ تَتَّخِذونَ مِن سُهولِها قُصورًا وَتَنحِتونَ الجِبالَ بُيوتًا فَاذكُروا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعثَوا فِي الأَرضِ مُفسِدينَ﴾ [الأعراف:٧٤] بوأكم: أسكنكم[٤٢٢]. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَد بَوَّأنا بَني إِسرائيلَ مُبَوَّأَ صِدقٍ وَرَزَقناهُم مِنَ الطَّيِّباتِ فَمَا اختَلَفوا حَتّى جاءَهُمُ العِلمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقضي بَينَهُم يَومَ القِيامَةِ فيما كانوا فيهِ يَختَلِفونَ﴾ [يونس:٩٣]. قيل: هي بلاد مصر والشام استقرت بيد موسى النبي[٤٢٣]. ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج:٢٦] أرشده إليه وسلمه له، وأذن له في بنائه[٤٢٤]. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذينَ هاجَروا فِي اللَّهِ مِن بَعدِ ما ظُلِموا لَنُبَوِّئَنَّهُم فِي الدُّنيا حَسَنَةً وَلَأَجرُ الآخِرَةِ أَكبَرُ لَو كانوا يَعلَمونَ﴾ [النحل:٤١] أي لتنزلنهم[٤٢٥]. وقيل: لتنزلنهم أعالي الجنة[٤٢٦]. وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

---

[٤١٩] مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، ص٧٥.

[٤٢٠] رجاء وحيد، **البيئة**، ص٣٣.

[٤٢١] أحمد عبد الجواد، **التربية البيئية**، ص٣٣.

[٤٢٢] الجلالان، **تفسير الجلالين**، ص١٦٠.

[٤٢٣] الصابوني، **مختصر ابن كثير**، ج١، ص٢٠٦.

[٤٢٤] الصابوني، **مختصر ابن كثير**، ج٢، ص٥٣.

[٤٢٥] الجلالان، **تفسير الجلالين**، ص ٢٧١.

[٤٢٦] الصابوني، **صفوة التفاسير**، ج٢، ص٤٦٦.

[الحشر:٩] أي اتخذوا المدينة منزلاً وسكناً وهم الأنصار[٤٢٧]. وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ [الزمر:٧٤] نتصرَّف فيها تصرف المالك، وننزل فيها حيث نشاء[٤٢٨]. وقوله تعالى: ﴿وَكَذلِكَ مَكَّنّا لِيوسُفَ فِي الأَرضِ يَتَبَوَّأُ مِنها حَيثُ يَشاءُ نُصيبُ بِرَحمَتِنا مَن نَشاءُ وَلا نُضيعُ أَجرَ المُحسِنينَ﴾ [يوسف:٥٦] يتخذ منها منزلاً حيث يشاء، ويتصرف في المملكة كما يريد[٤٢٩]. وقوله تعالى: ﴿وَأَوحَينا إِلى موسى وَأَخيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَومِكُما بِمِصرَ بُيوتًا وَاجعَلوا بُيوتَكُم قِبلَةً وَأَقيمُوا الصَّلاةَ وَبَشِّرِ المؤمِنينَ﴾ [يونس:٨٧] اتخذ لهم بيوتاً للصلاة وللعبادة[٤٣٠]. وفي الحديث الشريف ورد التبؤ بمعنى المنزله والمكان قال رسول الله ﷺ: «إن كذبا علي ليس ككذب على أحد، فمن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار»[٤٣١].

التربية البيئية من المنظور الإسلامي:

وللتربية البيئية تعريفات متعددة، أهمها:

– إنها عملية تهدف إلى توضيح علاقة الإنسان ببيئته الطبيعية وتفاعله معها بكل ما فيها من موارد لتحقيق اكتساب التلاميذ خبرات تعليمية تتضمن الحقائق والمفاهيم والاتجاهات البيئية حول البيئة ومواردها الطبيعية[٤٣٢].

– وأنها عملية تكوين القيم والاتجاهات والمسارات والمدركات اللازمة لفهم وتقدير العلاقات المعقدة التي تربط الإنسان وحضارته بمحيطة الحيوي وتوضيح حتمية المحافظة على مصادر البيئة وضرورة حسن استغلالها لصالح الإنسان حفاظا على حياته الكريمة ورفع مستوى معيشته[٤٣٣].

– أما التربية البيئية من المنظور الإسلامي فتعرف بأنها: "النشاط الإنساني الذي يقوم بتوعية الأفراد بالبيئة وبالعلاقات القائمة بين مكوناتها، وبتكوين القيم والمهارات البيئية وتنميتها على أساس من مبادئ الإسلام وتصوراته عن الغاية التي من اجلها خلق الإنسان، ومطالب التقدم الإنساني المتوازن"[٤٣٤]. وقد أشار بعض المربين إلى مصطلح "التربية البيئية الإيمانية" في إطار ثلاث مكونات هي: "المقومات،

---

[٤٢٧] الصابوني، **صفوة التفاسير**، ج٣، ص٣٥١.

[٤٢٨] الصابوني، **صفوة التفاسير**، ج٢، ص٨٩.

[٤٢٩] الصابوني، **صفوة التفاسير**، ج٢، ص٥٧.

[٤٣٠] الصابوني، **صفوة التفاسير**، ج١، ص٥٩٤.

[٤٣١] البخاري، **الصحيح**، كتاب العلم، باب أثم من كذب على النبي، رقم١٠٧.

[٤٣٢] الريامي، **التربية البيئية ودور السلطنة في المحافظة على البيئة**، ص٢٧.

[٤٣٣] سليم، **التربية والتوعية بقضايا البيئة**، ص٦٤.

[٤٣٤] الصوافي، **القيم البيئية المتضمنة في مقررات الجغرافيا بالمرحلة الإعدادية**، ص١١.

والمجالات، والمبادئ الأخلاقية" حيث تشكل هذه المكونات منظومة أخلاقية بيئية إيمانية توجه سلوك المسلم نحو عمارة الكون والمحافظة على البيئة[٤٣٥].

وبالرغم من الجهود التي تبذلها الكثير من الدول والمتمثلة في إعادة النظر في مناهجها التعليمية وتضمينها مجموعة من المفاهيم المتعلقة بالبيئة والمحافظة عليها، إلا أن هناك قصورا كشفت عنه الدراسات التي اهتمت بهذا الموضوع من حيث توزيع المفاهيم في محتوى المناهج الدراسية؛ كدراسة الهاشمي[٤٣٦] التي توصلت إلى أن معظم مفاهيم التربية البيئية الواردة في كتب التربية الإسلامية بسلطنة عمان تتصل بمجال الأخلاقيات البيئية. وكذلك دراسة السخي[٤٣٧] التي توصلت الى أن معظم مفاهيم التربية البيئية الواردة في كتب التربية الإسلامية بمملكة البحرين تتصل بمجال الأخلاقيات البيئية.في حين توصلت دراسة الفقير[٤٣٨] إلى أن مفاهيم مكونات النظام البيئي احتلت المرتبة الأولى في درجة التوافر من بين المفاهيم البيئية المتضمنة في كتب الجغرافيا للمرحلة الأساسية العليا بالأردن. في حين كشفت دراسات أخرى عن وجود تدني في مستوى الوعي البيئي لدى للتلاميذ؛ كدراسة الفردان[٤٣٩] التي كشفت عن تدني مستوى الوعي البيئي لدى تلاميذ المرحلة الابتدائية بمملكة البحرين.ودراسة الهاشمي[٤٤٠] التي كشفت عن تدني مستوى المعلومات البيئية لدى طلبة كلية التربية بجامعة السلطان قابوس. ودراسة الأغبري[٤٤١] التي أظهرت تدني مستوى الوعي البيئي لدى طلبة الصف الثالث الثانوي الأدبي بالعاصمة صنعاء.

هذا وقد أوصت العديد من المؤتمرات والندوات العالمية والمحلية بضرورة إدخال التربية البيئية ضمن مناهج التعليم المختلفة، وإعادة النظر في المناهج بصفة عامة مما يجعلها أكثر قدرة على إكساب التلاميذ مفاهيم التربية البيئية والتغلب على مشكلاتها وتحقيق التوازن البيئي؛ مثل: مؤتمر روشيلكون الذي عقد بسويسرا عام ١٩٧٢م ومؤتمر استوكهولم الذي عقد عام ١٩٧٢م، وندوة بلغراد عام ١٩٧٥م، والمؤتمر الدولي في تبلسي عاصمة جورجيا عام ١٩٧٧م، ومؤتمر التربية البيئية الذي عقد بموسكو عام ١٩٨٧م، ومؤتمر التربية البيئية الذي عقد بموسكو عام ١٩٨٧م، ومؤتمر الأمم المتحدة حول البيئة عام ١٩٩٢م،

---

[٤٣٥] علي حسين موسى، **التلوث البيئي**، ص٦١.

[٤٣٦] الهاشمي، **تقويم كتابي الثقافة الاسلامية للصفين الحادي عشر بسلطنة عمان في ضوء المفاهيم الإسلامية المناسبة لطلبتيهما**، ص٧٥.

[٤٣٧] السخي، **مفاهيم التربية البيئية المتضمنة في كتب التربية الإسلامية لمرحلة التعليم الأساسي ومستوى اكتساب الطلبة لهذه المفاهيم في نهاية المرحلة بمملكة البحرين**، ص٨١.

[٤٣٨] الفقير، **المفاهيم البيئية المتضمنة في كتب الجغرافيا للمرحلة الأساسية العليا في الأردن**، ص٦٩.

[٤٣٩] الفردان، **الوعي البيئي لتلاميذ المرحلة الابتدائية في ضوء بعض المشكلات البيئية الراهنة التي تواجه مملكة البحرين**، ص٨٦.

[٤٤٠] الهاشمي، **مستوى المعلومات البيئية لدى طلبة كلية التربية جامعة السلطان قابوس واتجاهاتهم نحو البيئة**، ص٨٧.

[٤٤١] الأغبري، **المفاهيم البيئية في كتاب الجغرافية للصف الثالث الثانوي في اليمن ودورها في تعميق الوعي البيئي لدى الطلبة**، ص٦٨.

ومؤتمر قمة الأرض في ريودي جانيرو بالبرازيل عام ١٩٩٢م، والمؤتمر السنوي للجمعية الأمريكية الشمالية للتعليم البيئي عام ١٩٩٣م والمؤتمر الوطني للجمعية الاسترالية للتعليم البيئي علم ١٩٩٧م، ومؤتمر قمة الأرض الثاني الذي عقد في جوهانسبرغ عام ٢٠٠٢م، المؤتمر الإسلامي لوزراء البيئة الولن الذي عقد في جدة ٢٠٠٢م، ومؤتمر ومعرض البيئة والطاقة ٢٠٠٣م في أبو ظبي، والمؤتمر الإسلامي لوزراء البيئة في دورته الثانية المنعقد في جدة عام ٢٠٠٦م، ومؤتمر البيئة العربية وتحديات المستقبل ٢٠٠٨م في المنامة، ومؤتمر البيئة وعلوم البحار ٢٠٠٨م في فاس بالمملكة المغربية[٤٤٢].

وفي ضوء ما تقدم يلاحظ أن الدراسات السابقة قد تناولت مفاهيم التربية البيئية في المناهج الدراسية المختلفة، وتنوعت عينتها لتشمل صفوفا مختلفة. وتختلف الدراسة الحالية عن الدراسات السابقة في أنها جاءت للكشف عن مفاهيم للتربية البيئية نابعة من التصور الإسلامي لمبدأ الخلافة، ومما ورد في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة. ولأهمية التربية البيئية من منظور الإسلام، والحكم على ما يمكن أن تسهم به في مناهج التربية الإسلامية في مجال غرس المفاهيم البيئية نحو إعمار الكون والمحافظة على مقدراته الطبيعية لدى الطلبة جاءت هذه الدراسة.

مشكلة الدراسة:

تتلخص مشكلة الدراسة الحالية في التوصل إلى قائمة بالمفاهيم التربية البيئية التي ينبغي توافرها في مناهج التربية الإسلامية في مراحل التعليم العام، في ضوء القرآن الكريم والسنة المطهرة. وذلك بالإجابة عن الأسئلة الآتية:

١- ما منظور القرآن الكريم للتربية البيئية؟

٢- ما منظور السنة النبوية المطهرة للتربية البيئية؟

٣- ما مفاهيم التربية البيئية التي ينبغي توافرها في مناهج التربية الإسلامية في مراحل التعليم العام، من منظور القرآن الكريم والسنة المطهرة؟

أهداف الدراسة: تهدف الدراسة الحالية إلى:

- إعداد قائمة مقترحة بمفاهيم التربية البيئية لمناهج التربية الإسلامية في التعليم العام.
- تقديم مجموعة من المقترحات لتفعيل التربية البيئية في مناهج التربية الإسلامية.

أهمية الدراسة: تظهر أهمية الدراسة في الآتي:

- تناولها إحدى القضايا المهمة في الميدان التربوي، وهي المفاهيم البيئية التي تقدم للطلبة، والتي تحدد اتجاهاتهم وسلوكياتهم وتصرفاتهم نحو البيئة الطبيعية وعناصرها الحية وغير الحية.

---

[٤٤٢] علية بنت خليفة الهاشمي، **مدى تضمن مفاهيم التربية البيئية في كتب التربية الإسلامية للحلقة الثانية من التعليم الأساسي ومستوى اكتساب الطلبة لها**، ص٦-٧.

- يمكن للدراسة الحالية أن تساعد مخططي مناهج التربية الإسلامية ومؤلفي كتبها لتعرف مفاهيم التربية البيئة التي يمكن تقديمها للطلبة في مراحل التعليم العام، وكيفية تقديمها.
- تعتبر الأولى من نوعها على حد علم الباحثة- التي تضع قائمة للمفاهيم التربوية البيئية التي يجب تضمينها في كتب التربية الإسلامية، من منظور الكتاب والسنة النبوية.

التعريفات الإجرائية لمصطلحات الدراسة:

مفاهيم التربية البيئية: يقصد بمفاهيم التربية البيئية في الدراسة الحالية؛ الصيغ المعرفية والضمنية الواردة في محتوى كتب التربية الإسلامية موضوع الدراسة بما تشمله من حقائق ومفاهيم ومصطلحات ومبادئ وتعميمات متصلة بالبيئة وعلاقة الإنسان بها.

مناهج التربية الإسلامية: هي مناهج التربية الإسلامية المدرسية التي تعتمدها وزارات التربية والتعليم لتدريس الطلبة في مراحل التعليم العام المختلفة.

نتائج الدراسة:

أولا: النتائج المتعلقة بالسؤال الأول:

للإجابة عن سؤال الدراسة الأول والذي نص على: ما منظور القرآن الكريم للتربية البيئية؟ قامت الباحثة بالرجوع للقرآن الكريم، ومراجعة الأدب التربوي والفكر الإسلامي، وبالبحث والدراسة والفهم لآيات القرآن الكريم، فتبين لها أن القرآن الكريم ربى المسلمين على التربية البيئية بمعناها الشامل والمتكامل، وربط الإنسان بالسلوك البيئي الإيجابي برباط وثيق يترتب عليه الحياة الآمنة المطمئنة في الدنيا، والسعادة الأبدية في الآخرة. وفيما يلي بيان لبعض ذلك:

أولاً: خلق الله سبحانه وتعالى الأرض مذللة للإنسان لينة سهلة، وعلَّمنا كيف نستغل مواردها ونعمها الإلهية الاستغلال العلمي الخلقي الأمثل، وربط حياة الإنسان الدنيوية بهذه الموارد، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك:١٥]. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٩].

- فكل شيء في الأرض من مخلوقات حية وغير حية وقوانين تحكمها وعوامل تتحكم فيها، خلقها الله سبحانه وتعالى للإنسان وجعلها سبحانه في خدمة البشرية ومنفعتها.

- وفي هذا دعوة للعمل والاجتهاد واستغلال الموارد الأرضية، وربط هذه الأرزاق بالله سبحانه وتعالى وأن الله إليه المآب والنشور، وفي يوم الحساب يحاسب الإنسان على كل فعل صغيراً كان أو كبيراً صالحاً أم طالحاً ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف:٧]، والعمل في الإسلام بمعناه الشامل والحقيقي يشمل العبادة والأنشطة الأخرى من زراعة وصناعة وتجارة وتربية وتعليم وغير ذلك، وبهذا يلزم الله سبحانه وتعالى الإنسان بالاستغلال الأمثل ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ لتلك الموارد

الأرضية وربطها بالثواب والعقاب والحساب، وبذلك يربي الله سبحانه وتعالى في الإنسان قيمة الحفاظ على الموارد الأرضية، وهنا يتضح الفارق بين التربية البيئية المادية، التي تخترق كل يوم في البيئة الأرضية من أصحاب الحضارات المادية، والتربية البيئية الإسلامية التي ربطت السلوك بالذي يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور.

ثانياً: خلق الله سبحانه وتعالى كل شيء في الكون بالحق وبقدر معلوم وفي أحكام عجيب واتزان معجز ﴿مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾ [الملك:٣].

– ويعلم الله سبحانه وتعالى الإنسان أنه لم يخلق شيئاً في الكون عبثاً أو عشوائياً ، ولم توضع أي شيء في غير موضعه لأن ذلك يتنافى مع حكمة العليم الخبير ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾ [السجدة:٧].

– وقرر القرآن الكريم أن كل شيء خُلق بقدر معلوم ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ [الحجر:١٩].

– وهذا الخلق الموزون يؤدي إلى التوازن الناتج عن التفاعل والتكامل والتنوع والإنتاج قال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ • وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ • وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ • أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ • وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ • وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ • فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ • وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ • فَبِأَيِّ آلَاء ربكما تُكَذِّبَانِ •﴾ [الرحمن:٥-١٣].

– وهذه تربية للإنسان حتى لا ينحرف عن قوانين الله ونظامه الكوني البديع لأن في ذلك ضياعاً للاتزان، يؤدي إلى الهلاك وإفساد النظام الكوني البديع. من هنا يعلم الإنسان ويتعلم أن العدل والاعتدال والاتزان والحسابات العلمية قيم مطلوبة شرعاً من كل إنسان وفي كل شيء في البيئة الأرضية.

– فكمية المياه في الكون محسوبة وثابتة ومقدرة وموزونة﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء بِقَدَرٍ﴾ [المؤمنون:١٨].

ثالثاً: وعلم الله الإنسان أن يمنع أخاه الإنسان من الإفساد في البيئة الأرضية قال تعالى: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:٢٥١].

– وأمرنا الله بالدفاع عن البيئة الأرضية المشيدة وخاصة أماكن التربية والتنشئة وتعديل السلوك بالتعلم قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا﴾ [الحج:٤٠].

– وحذر الله الإنسان من عاقبة سلوكه الخاطئ في النظام البيئي والإفساد في الأرض وأن ما يترتب على ذلك من خلل هو من صنع الإنسان قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران:١٨٢].

– وفي هذا تربية على الإصلاح في البيئة وبيان النتائج السلوك الخاطئ وقد جعل الله سبحانه وتعالى الإصلاح في البيئة من العمل الصالح وعد الله سبحانه وتعالى الإفساد في الأرض من الأعمال السيئة التي

يعاقب عليها العبد في الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الكهف:٧].

– والعمل هنا يشمل كل الأنشطة البشرية من عبادات ومعاملات وتعمير واستثمار وحماية وزراعة وتشجير وتربية وغير ذلك. قال تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ الله إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ الله لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٧٧].

– فإذا أحسن الله إلى الإنسان بالبيئة المتزنة عليه أن يحسن بالحفاظ على مواردها واستغلالها الاستغلال العلمي الأمثل وعدم الإفساد فيها أو الإخلال باتزانها.

– وإذا أحسن الله إلى الإنسان بالعلم البيئي عليه أن يُحسن بتطبيق هذا العلم في الإصلاح والعمل الحسن والبعد عن الإفساد والعمل الفاسد.

– وإذا أحسن الله الإنسان بالقدرة على التعلم البيئي، أحسن الإنسان بالتعلم في مجال البيئة ونشر العلم البيئي الهيئات العلمية المحققة لذلك. والإفساد في الأرض يشمل الإفساد المادي بتخريب العامر وإماتة الأحياء وتلويث الطاهرات وتبديد الطاقات واستنزاف الموارد في غير حاجة أو مصلحة وتعطيل المنافع وأدواتها، كما يشمل الإفساد المعنوي كمعصية الله تعالى ومخالفة أمره والكفر بنعمته والتمرد على شريعته والاعتداء على حرماته وإشاعة الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وترويج الرذائل ومحاربة الفضائل، وتقديم الأشرار وتأخير الأخيار. ومن ذلك ما كان من قوم لوط الذين شذوا عن الفطرة وحادوا عن سواء السبيل، وأتوا فاحشة ما سبقهم بها من أحد من العالمين، حيث أتوا الذكران من العالمين وتركوا ما خلق لهم ربهم من أزواجهم ... فدعا عليهم نبيهم لوط في مرارة وحرقة، إذا قال: ﴿ رب انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [العنكبوت:٣٠]. وهنا نزل بهم العقاب ردعاً لإفسادهم وتربية لمن بعدهم التربية السليمة.

رابعاً: ربى الله سبحانه وتعالى المسلمين على تجنب التلوث الضوضائي سابقاً بذلك التربية البيئية الحديثة، وحذرنا من الصوت المرتفع بلا حاجة، ورغبنا في خفض الصوت بعداً عن الإزعاج فكان من تربية لقمان لابنه ﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان:١٩]. وفي هذا تربية للأجيال وتنفير للمسلمين من ارتفاع الصوت، وربط ذلك بصوت الحمير ليصبح مثيراً شرطياً للبعد عن القدر المطلوب في الصوت.

– وعلم الله سبحانه وتعالى المسلمين غض صوتهم عند رسول الله ﷺ، وأثناء الصلاة قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات:٢]. وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاَتِكَ وَلاَ تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ [الإسراء:١١٠].

– وقد ذم الله سبحانه وتعالى المشركين بقوله: ﴿وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال:٣٥]، أي صفيراً وتصفيقاً وضجيجاً، وهذا السلوك يتنافى مع تربية الخشوع والانضباط عند الاجتماع في البيت الحرام وأماكن تجمع المسلمين وصلاتهم.

خامساً: نفَّر الله سبحانه وتعالى من الإفساد في الأرض بربطه باللعنة وعدم العلم والفهم والتعلم قال الله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ • أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ الله فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾ [محمد:٢٢-٢٣]. وقال تعالى عن هذا الصنف الضال المفسد في الأرض: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ والله لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥].

سادساً: جعل الله سبحانه وتعالى الاعتدال في السلوك وعدم التصنع فيه من الأعمال الصالحة، وبغَّض في السلوك غير المعتدل وغير السوي قال تعالى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان:١٨].

سابعاً: أعلمنا الله سبحانه وتعالى وعلمنا وربانا على أن الفساد في البيئة الأرضية والبيئة البحرية جاء نتيجة للأنشطة البيئية الخاطئة للناس قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم:٤١]. حيث قطعوا الغابات وأهلكوا الحيوانات والكائنات الحية الدقيقة وانتهكوا الحرمات وألقوا بمخلفات سفنهم ومفاعلهم النووية ونفاياتهم الذرية ومخلفات مصانعهم في البر والبحر وما يرتبط بهما من جو مما يترتب عليه فساد كبير لجميع المخلوقات الحية الأرضية والمكونات غير الحية وأفسدوا الدورات الحيوية والفيزيائية والكيماوية التي خلقها الله بقدر معلوم.

ثامناً: ربَّ الله سبحانه وتعالى المسلمين على أهمية النبات للحياة ولفت أنظارهم إلى دورات حياة النبات ومراحل نموه وأهميته في الحياة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الله فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ الله فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [الأنعام:٩٥]. وقال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ الله بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل:٦٠]، ويعدلون: ينحرفون عن الحق إلى الباطل، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:٩٩].

– فقد ربط الله بين الإيمان به ومراحل نمو النبات في هذه الآية في إعجاز معجز ليربط الإنسان بمصدر الحياة على الأرض (النبات)، كما عرف الله عباده بصفاته وأسمائه وقدرته ببيان عظمة خلقه، وأسس العقيدة على هذا الأساس العلمي المتين.

تاسعاً: نبه القرآن الكريم الإنسان إلى أهمية الموارد البيئية ففي سورة النحل نبه على الثروة الحيوانية وما ينتج عنها من (إنتاج حيواني). قال تعالى: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا

تَأْكُلُونَ﴾ [النحل:٥]. وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ [النحل:٦٦]. كما بين سبحانه أهمية النحل قال تعالى: ﴿ وَأَوْحَى ربك إلى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ • ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ ربك ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٨-٦٩]. وبين سبحانه أهمية الثروة البحرية وعلم المسلمين كيف يشكرون هذه النعمة قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:١٤].

– وبين سبحانه أهمية الحديد والنحاس والجبال والشمس والقمر والنجوم وغير ذلك من الموارد البيئية قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالْنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل:١٢].

– وللأهمية الكونية البيئية للماء، وأنه سائل الحياة المعجز، وبين الله سبحانه وتعالى في آيات عديدة أهمية الماء ودورته في الحياة وبين سبحانه أنه خلق الإنسان من الماء، وخلق منه الدواب، وأنه يستخدم في الشرب وسقاية الزرع، ويخرج به ما ينبت في الأرض، ويخرج به الثمار، ويحي به الأرض بعد موتها، ويحي به البلدان، وأنه يستخدم في التطهير، وضرب به الأمثال والآيات في ذلك تصل إلى (٦٣) آية.

عاشراً: نبه الله سبحانه وتعالى المسلمين إلى أهمية المحافظة على الحياة الفطرية والبرية بأن حرم على المسلمين صيد البر وقطع النبات في موسم الحج في أماكن تجمع المسلمين من جميع بقاع الأرض في مكة وغيرها قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقْتُلُواْ الصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاء مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ [المائدة:٩٥]. وقال تعالى: ﴿وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُواْ الله الَّذِيَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المائدة:٩٦].

وهذا تربية للحفاظ على البيئة من الرعي الجائر.

ثانيا: النتائج المتعلقة بالسؤال الثاني:

وللإجابة عن سؤال الدراسة الثاني والذي نص على: ما منظور السنة النبوية المطهرة للتربية البيئية؟ قامت الباحثة بمراجعة الأدب التربوي والفكر الإسلامي، ومن البحث والدراسة والفهم للسنة النبوية المطهرة تبين أن نبينا محمد عليه أفضل صلاة وتسليم ربى المسلمين على التربية البيئية بمعناها الشامل؛ إذ جاءت السنة النبوية المطهرة تطبيقاً عملياً، وتفصيلاً واقعياً لما حواه القرآن الكريم في إعجاز وإيجاز للتربية البيئية، وهذا ما سنبينه فيما يلي[٤٤٣]:

[٤٤٣] موقع الدكتور نظمي خليل أبو العطا، **التربية البيئية من منظور إسلامي**.

أولاً: أعلمنا وعلمنا رسول الله ﷺ أن تنظيف الشوارع والطرقات والحفاظ عليها من الهدى العلمي النبوي، فقال رسول الله ﷺ: «إماطة الأذى عن الطريق صدقة»[٤٤٤]، ويكون ذلك بشق الطرق وتعبيدها وصيانتها ووضع العلامات الإرشادية عليها وتنظيمها وتجميلها والالتزام بحق الطريق برد السلام وكف الأذى عن الطريق بالالتزام بخلق الطريق وسلوكه والسرعة المقررة والالتزام بالعلامات المرورية والإشارات الضوئية، وغض البصر عن المحرمات أثناء الجلوس في الطرقات والمرور فيها.

– عن بريدة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «في الإنسان ستون وثلاثمائة مفصل، فعليه أن يتصدق عن كل مفصل بصدقة»، قالوا: فمن يطيق ذلك يا رسول الله؟ قال: «النخامة في المسجد تدفنها، والشيء تنحيه عن الطريق»[٤٤٥]. وقد انعكست آثار هذه التربية والهدى العلمي النبوي على سلوك المسلمين، وخاصة جيل الصحابة (رضوان الله عليهم) وأبناءهم وتلاميذهم، فعن المستنير بن أخضر بن معاوية عن أبيه قال: كنت مع معقل بن يسار رضي الله عنه في بعض الطرقات، فمررنا بأذى فأماطه –أو نحَّاه– عن الطريق، فرأيت مثله فأخذته فنحيته، فأخذ بيدي وقال: يا ابن أخي! ما حملك على ما صنعت؟ قلت: يا عم! رأيتك صنعت شيئاً فصنعت مثله. فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أماط الأذى عن طريق المسلمين كتبت له حسنة، ومن تقبلت منه حسنة دخل الجنة» رواه الطبراني في الكبير[٤٤٦]، ورواه البخاري في الأدب المفرد بصيغة أخرى[٤٤٧]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك فأخره، فشكر الله له فغفر له»[٤٤٨]. وفي رواية: «لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين»[٤٤٩]. ومن حق الطريق في الإسلام غض البصر وإماطة الأذى كما هو معلوم لنا جميعاً.

ثانياً: أمر رسول الله ﷺ بالمحافظة العملية على البيئة المائية من التلوث، وأرشدنا إلى عدم استخدام الماء الملوث، وربانا على ذلك فقال ﷺ: «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري، ثم يغتسل

---

[٤٤٤] أخرجه البخاري في **الأدب المفرد**، ص١٥٢، رقم٤٢٢.

[٤٤٥] أخرجه أحمد في **مسنده**، ج٥، ص٣٥٤، رقم٢٣٠٤٨؛ وأبو داود في **سننه**، ج٤، ص٥٣١، رقم٥٢٤٤؛ وابن خزيمة في **صحيحه**، ج٢، ص٢٢٩، رقم١٢٢٦؛ وابن حبان في **صحيحه**، ج٤، ص٥٢٠، رقم١٦٤٢.

[٤٤٦] أخرجه الطبراني في **المعجم الكبير**، ج٢٠، ص٢١٦، رقم٥٠٢.

[٤٤٧] أخرجه البخاري، **الأدب المفرد**، ص٢٠٨، رقم٥٩٣. ولفظه: حدثنا عبد الله بن محمد، قال: حدثنا الخليل بن أحمد، قال: حدثنا المستنير بن أخضر، قال: حدثني معاوية بن قرة، قال: كنت مع معقل المزني، فأماط أذى عن الطريق، فرأيت شيئا فبادرته، فقال: ما حملك على ما صنعت يا ابن أخي؟ قال: رأيتك تصنع شيئا فصنعته. قال: أحسنت يا ابن أخي، سمعت النبي ﷺ يقول: «من أماط أذى عن طريق المسلمين كتب له حسنة، ومن تقبلت له حسنة دخل الجنة».

[٤٤٨] أخرجه الترمذي في **سننه**، ج٤، ص٣٤١، رقم١٩٥٨. وقال: "حسن صحيح".

[٤٤٩] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج٤، ص٢٠٢٠، رقم١٩١٤.

فيه»[٤٥٠]. وقال ﷺ: «اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد –ومنها موارد الماء– وقارعة الطريق، والظل»[٤٥١].

– كما حرمت السنة المطهرة الإسراف في استخدام الماء فقد مر رسول ﷺ بسعد بن أبي وقاص وهو يتوضأ، فقال له: «ما هذا الإسراف»؟ فقال: أو في الوضوء إسراف؟ قال: «نعم وإن كنت على نهر جار» رواه ابن ماجه[٤٥٢]. وفي هذا الموقف التربوي التعليمي عملية للمسلمين للحفاظ على الماء من الهدر.

ثالثاً: ربى رسول الله ﷺ المسلمين على الحفاظ على الحيوان والتوازن البيئي والبعد عن إبادة الحيوان حيث قال ﷺ: «نزل نبي من الأنبياء تحت شجرة، فلدغته نملة، فأخرج متاعه من تحتها، ثم أمر ببيتها فأحرق بالنار، فأوحى الله إليه: فهلاً نملة واحدة»[٤٥٣].

– وفي هذا تربية نبوية شريفة، وهدى علمي بيئي في الحفاظ على التوازن البيئي، وعدم إبادة الفونا البيئية.

– كما أمرنا ﷺ بالرفق بالحيوان والحفاظ عليه من الهلاك والتعذيب قال ﷺ: «عذبت امرأة في هرة أوثقتها، فلم تطعمها ولم تسقها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض»[٤٥٤].

– وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «بينا رجل يمشي، فاشتد عليه العطش فنزل بئراً فشرب منها، فخرج منها فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من شدة العطش، قال: لقد بلغ هذا الكلب مثل الذي بلغ بي فملأ خفه ثم أمسكه بفيه، ثم رقى فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له»، قالوا: يا رسول الله! وأن لنا في البهائم أجراً؟ قال: «في كل كبد رطبة أجر»[٤٥٥].

– وفي هذا الموقف التربوي العظيم يجسد الرسول ﷺ المشهد الرائع للعطش والرفق بالحيوان وربط ذلك بمغفرة الله فاستجاب الصحابة (المتعلمون) استجابة عالية للموقف التربوي الممتاز.

رابعاً: نبه الرسول ﷺ المسلمين إلى خطورة مصادر الحريق وعلم المسلمين الأمن والسلامة في البيئة المنزلية فقال: «لا تتركوا النار في بيوتكم حين تنامون»[٤٥٦].

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «غطوا الإناء، وأوكئوا السقاء، وأغلقوا الباب، فأطفئوا السراج؛ فإن الشيطان لا يحل سقاء، ولا يفتح باباً، ولا يكشف إناء، فإن لم يجد أحدكم إلا أن يعرض على إنائه عوداً ويذكر اسم الله؛ فإن الفويسقة تضرم على أهل البيت بينهم»[٤٥٧].

---

[٤٥٠] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج١، ص٩٤، رقم٢٣٦؛ ومسلم في **صحيحه**، ج١، ص٢٣٥، رقم٢٨٢.

[٤٥١] أخرجه أبو داود في **سننه**، ج١، ص٥٤، رقم٢٦.

[٤٥٢] أخرجه ابن ماجه في **سننه**، ج١، ص١٤٧، رقم٤٢٥.

[٤٥٣] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٣، ص١٢٠٦، رقم٣١٤١؛ ومسلم في **صحيحه**، ج٤، ص١٧٥٩، رقم٢٢٤١.

[٤٥٤] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٢، ص٨٣٤، رقم٢٢٣٦؛ ومسلم في **صحيحه** –واللفظ له–، ج٤، ص٢٠٢١، رقم٢٢٤٢.

[٤٥٥] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٢، ص٨٣٣، رقم٢٢٣٤؛ ومسلم في **صحيحه**، ج٤، ص١٧٦١، رقم٢٢٤٤.

[٤٥٦] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٥، ص٢٣١٩، رقم٥٩٣٥؛ ومسلم في **صحيحه**، ج٣، ص١٥٩٦، رقم٢٠١٥.

وهذا هو الهدى العلمي التربوي البيئي ضمان لعدم سقوط الحشرات والفئران في السقاء، وتجنب الحرائق بسبب الفئران والقوارض التي قد تسبب في إحداث الحريق ونقله إلى أقسام وحجرات البيت وسائر والبيوت المجاورة. وقال ﷺ: «طهور أناء أحدكم إذا ولغ الكلب أن يغسله سبع مرات، أولهن بالتراب»[٤٥٨].

وانتقل أثر التدريب والتعلم إلى الصحابة فحافظوا على البيئة، فقد جاء في خطاب تعيين أحد ولاة المسلمين من قبل أمير المؤمنين على أهل قرية: "جئت إليكم لأحكم بينكم بكتاب الله، ولأقم (أنظف وأكنس) لكم الطرقات".

– وقال الفاروق: "لو أن بغلة بالعراق تعثرت لسئل عمر لماذا لم يمهد الطريق".

خامساً: أرشدنا الهدى العلمي التربوي النبوي إلى التربية للأمان الميكروبي بتجنب جراثيم العدوى وخاصة الخطيرة منها، فقال ﷺ: «إذا سمعتم بالطاعون في أرض فلا تدخلوها ولا تخرجوا منها»[٤٥٩]، وهذه تربيــة

إسلامية للحجر الصحي وحصر انتقال العدوى وانتشارها والعمل على رعاية المصابين وعدم تركهم دون رعاية.

سادساً: حرم الإسلام في الحروب استخدام أسلحة الدمار الشامل وحرق الزرع وقتل الماشية والأطفال والنساء، فقد روى أبو داود الوصية التالية للجنود: «بسم الله، وفي سبيل الله، لا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً، ولا امرأة، ولا شيخاً كبيراً»[٤٦٠]. وفي رواية أخرى: «ولا تقطعوا شجراً، ولا تحرقوا زرعاً»[٤٦١]. وهذه تربية بيئية إسلامية سباقة.

يتضح مما سبق أن المفاهيم التربوية البيئية العامة (كصون البيئة والمحافظة عليها ومكافحة تلوثها، وتعميرها، وعدم إهدار مقدراته ... إلخ) متضمنة في كتاب الله وسنة رسوله محمد ﷺ، وقد أولاها الفقهاء وعلماء التفسير والحديث والسيرة عناية كبرى فبينوا أحكامها وآدابها، مما جعل كتب الفقه والحديث والتفسير تزخر بها جميعا، وليس قي ذلك مبالغة، فالقواعد الكلية والعموميات في التربية البيئية موفورة في القرآن الكريم والسنة المطهرة، فأتى النهي عن الإسراف والتلوث بقواعد عامة تستوعب كل تلويث وإسراف في هذا العصر. كما أتت الأوامر بحفظ البيئة ككل (شجر وماء ونبات وهواء وكل ما يحيط بالإنسان ...) بما يستوعب جميع معارف العصر وما استجد فيه.

ثالثا: النتائج المتعلقة بالسؤال الثالث:

---

[٤٥٧] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج٣، ص١٥٩٤، رقم٢٠١٢.

[٤٥٨] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج١، ص٢٣٤، رقم٢٧٩.

[٤٥٩] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٥، ص٢١٦٣، رقم٥٣٩٦.

[٤٦٠] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج٣، ص١٣٥٦، رقم١٧٣١؛ وأبو داود في **سننه**، ج٢، ص٤٤، رقم٢٦١٣.

[٤٦١] المتقي الهندي، **كنز العمال**، ج٤، ص٧٩٨، رقم١١٤١١ ونسبه إلى ابن زنجويه، ولم أجده في الأموال له.

للإجابة عن سؤال الدراسة الثالث والذي نص على: ما مفاهيم التربية الدينية التي يجب توافرها في كتب التربية الإسلامية بمراحل التعليم العام في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية؟ قامت الباحثة ببناء قائمة بالمفاهيم البيئية في ضوء التصور الإسلامي، وذلك بعد الرجوع للقرآن الكريم والسنة الشريفة، ومراجعة الأدب التربوي والفكر الإسلامي، للوقوف على مفاهيم التربية البيئية في ضوء التصور الإسلامي لها. ومن ثم عرضت القائمة في صورتها المبدئية على مجموعة من المحكمين من ذوي الاختصاص في التربية الإسلامية، والمناهج وطرق التدريس، وعلم النفس، وقد أخذت آرائهم ومقترحاتهم بعين الاعتبار مما أسهم في تطوير القائمة والجدول (١) يوضح القائمة في صورتها النهائية.

جدول (١)

قائمة بمفاهيم التربية البيئية الواجب تضمنها في كتب التربية الإسلامية في ضوء القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

م	المفاهيم البيئية الرئيسية ومكوناتها
أولا: مفهوم النظام البيئي، ويشمل:	
١	النظام البيئي وهو نظام خلقه الله في حيز يشمل مكونات حيه وغير حية تتفاعل معا وتؤثر بعضها ببعض.
٢	البيئة الطبيعية في المنظور الإسلامي و تشمل: السماء وما فيها ومن فيها، والأرض وما عليها ومن عليها.
٣	الأرض وهي الكوكب الذي هيأه الله تعالى لمعيشة جميع الكائنات الحية بما فيها الإنسان.
٤	المطر الذي يقدر الله تعالى نزوله نتيجة العلاقات القائمة بين السحب؛ ليكون سببا في ارتواء الأرض، وإخراج الزرع.
٥	دقة النظام الرباني في حركتي الشمس والقمر وانتظامهما ، لتهيئان للمخلوقات الكثير من المنافع .
٦	كل ما في البيئة مخلوق لله تعالى بقدر، وتوازن، وحكمة معينة.
٧	تفاعل مكونات البيئة وتأثيرها المتبادل على بعضها البعض وفقا لنظام الهي متقن يحقق للبيئة توازنها وللحياة استمرارها.
٨	الظواهر الطبيعية وهي الظواهر التي أودعها الله تعالى في الطبيعة ، ولا دخل الإنسان فيها.
٩	فساد التوازن الطبيعي وهو الإفساد الحاصل في بعض الموارد الطبيعية نتيجة مؤثر طبيعي، أو حيوي، أو بفعل الإنسان.
ثانيا: مفهوم موارد البيئة، ويشمل:	
١٠	الموارد الطبيعية وهي مجموعه من المواد التي أوجدها الله تعالى في البيئة والتي يحولها الإنسان بجهده ومعارفه إلى عناصر ثروة.
١١	الموارد الطبيعية نعمة من الله تعالى على الإنسان لها أهميتها في استمرار حياته.
١٢	الموارد الطبيعية الدائمة أوجدها الله تعالى بوفرة مهما يستهلك الإنسان منها (كالهواء، والشمس).

١٣	الموارد الطبيعية المتجددة ميزها الله بخاصيتي الوفرة والتجدد ما لم يتسبب الإنسان في استنزافها (كالنبات، والأسماك، ...).
١٤	الموارد الطبيعية غير متجدد جعل الله تعالى لها مدة بقاء، ويتوقف بقائها على معادلات (كالنفط، والمعادن).
١٥	جعل الله من الماء كل شي حي ؛ فهو من أهم الموارد الطبيعية.
١٦	المخلوقات الحية وبيئتها في تغير دائم.
١٧	الموارد البشرية هي السكان وطاقاتهم الإنتاجية (العقلية والجسمية والوجدانية) التي آتاهم الله تعالى إياها من خلال تفاعلهم مع الموارد الطبيعية.
١٨	الموارد الطبيعية سخرها الله للإنسان والنبات والحيوان، وسوء استغلالها يؤدي إلى أخطار وكوارث تهدد حياة الأجيال القادمة.
ثالثا: مفهوم البيئة والسكان، ويشمل:	
١٩	السكان هم مجموعه من الأفراد يعيشون في زمان معين ومكان محدد وتربط بينهم علاقات دينيه ودنيويه، وتوجد بينهم تفاعلات.
٢٠	العلاقة بين المسلم وبيئته علاقة مشتركه يؤثر فيها ويتأثر بها.
٢١	كل تغيير يقدره الله تعالى على عدد السكان يؤثر على حياة الأفراد وفي بيئتهم ومجتمعهم.
٢٢	الإنسان المسلم قادر على إحداث تغيير ايجابي في البيئة.
٢٣	العلاقة بين المسلم وبيئته علاقة ود احترام، لا عداوة وقهر.
٣٤	عند ضعف العلاقات الاجتماعية في المجتمع المسلم تتدهور البيئة الاجتماعية فيه.
رابعا: مفهوم مشكلات البيئة، ويشمل:	
٢٥	المشكلة البيئية هي كل تغير كمي، أو كيفي بأحد مكونات البيئة؛ مما يخل بتوازنها، ويؤثر بشكل غير مرغوب في مخلوقات الله تعالى.
٢٦	التلوث تعبير عن وجود أية مادة أو طاقه في غير مكانها وكميتها المناسبتين اللتين فطرهما الله تعالى.
٢٧	الكوارث الطبيعية هي كل طارئ خطير يحدث في البيئة ويؤثر في سير حياة المخلوقات وينتج عنها خسائر ماديه وبشريه واسعة النطاق.
٢٨	الصيد الجائر هو الإكثار من صيد الحيوانا، والأسماك، والطيور، بما يخالف ضوابط الشرع، وبشكل مستمر، يؤدي إلى انقراضها.
٢٩	الضوضاء هي الخليط المتنافر في الأصوات، بشكل يتجاوز المقدار الذي خلقه الله تعالى عليه.
٣٠	مشكلة نقص الغذاء هو زيادة معدلات الاستهلاك للغذاء أسرع من زيادة معدلات الإنتاج المحلي منه.
٣١	التصحر هو تحول الأراضي الزراعية أو المراعي إلى أراضي متدهورة غير منتجة، على خلاف ما خلقت عليه.
٣٢	استنزاف الموارد الطبيعي هاو تلويثها يعني الاستغلال السيئ لهذه الموارد خلافا لما أمر الله تعالى مما يشكل تهديدا مباشرا لها.

٣٣	تلويث الهواء بمختلف الوسائل له اثر سلبي على الإنسان والمخلوقات من حوله.
٣٤	ظاهر الانقراض تعني تعرض عدد كبير من النباتات والحيوانات إلى التناقص عن المقدار الذي خلقت عليه، ومن ثم اختفاء أنواعها.
٣٥	الحروب المدمرة ينهي عنها الإسلام، ولها تأثير سلبي على البيئة.
خامسا: مفهوم البيئة والاقتصاد، ويشمل:	
٣٦	بيان أثر الاقتصاد والمعاملات التجارية والإنتاج على البيئة؛ من حيث استخدام البيئة ومكوناتها ومقدراتها.
٣٧	وأثر الاستهلاك والتصريف والإنتاج على مكونات البيئة ومقدراتها.
سادسا: الصحة البيئية، وتشمل:	
٣٨	المحافظة على نظافة مصادر المياة المختلفة سواء كانت طبيعية (البحار، والأنهار، والعيون، والأفلاج ... وغيرها). والمصادر الغير طبيعية مثل: (الآبار، والسدود ... وغيرها).
٣٩	المحافظة على نظافة الطريق بالنهي عن التبول والتبرز في الطريق.
٤٠	المحافظة على نظافة الطريق والنهي عن البصاق في الطريق.
٤١	الحرص على إماطة الأذى عن الطريق.
٤٢	الحرص على نظافة الأفنية والدور.
٤٣	الالتزام بالحجر الصحي لمع انتشار الأمراض في البيئة.
سابعا: مفهوم أخلاقيات البيئية، ويشمل:	
٤٤	من واجب الإنسان المسلم النظر والتأمل بما في البيئة لتقوية إيمانه بالخالق، وزيادة معرفته بالكون.
٤٥	المسلم يتعاون مع بني جنسه لاستثمار الموارد وزيادة إنتاجها خدمه لمجتمعه.
٤٦	يأمر الإسلام الفرد بالمحافظة على صحته ونظافته ونظافة بيئته أرضا وماء وهواء.
٤٧	المحافظة على الموارد البيئية الطبيعية من سوء استخدامها، متمثل في أي سلوك منهي عنه شرعا. يقوم به الإنسان ويلحق الضرر ببيئته ومواردها.
٤٨	يتفاعل الإنسان مع بيئته تنفيذا لرسالته في الحياة المتمثلة في الاستخلاف في الأرض واستثمار وتسخير ما فيها من موارد لصالحه، وصالح المخلوقات الأخرى وفق الضوابط التي رسمها الإسلام.
٤٩	محافظه الإنسان على أخيه الإنسان كمخلوق مكرم وحماية ضرورات حياته الخمس (الدين، والنفس، والعقل، والمال، والعرض).
٥٠	ينبغي علينا احترام التشريعات والقوانين التي تمنع التلوث وتكافحه، وترعى البيئة وتحميها؛ لأنه ذلك واجب ديني.
٥١	ضرورة الاهتمام ببعض فئات المجتمع التي هي بحاجه إلى عناية ورعاية، ومنحها حقوقها التي اقرها الإسلام
٥٢	التكافل الاجتماعي والعمل التطوعي يؤديان إلى تضافر الجهود لتحقيق المصلحة والخير لكل الناس.
٥٣	الرفق خلق إسلامي رفيع يدفعه صاحبه إلى الرأفة بمخلوقات الله تعالى واللين في معاملتها.
٥٤	احترام الأعمال اليدوية من المفاهيم الإسلامية التي تعنى بالمحافظة على البيئة واستثمار مواردها الطبيعية.

٥٥	يرتبط الإنسان ببيئته بعلاقة وئام ووفاق؛ لان كل منهما مخلوق لله تعالى ، ومسير وفق سنته.
٥٦	حملات النظافة من الأنشطة التي تعالج مشكلات البيئة.
٥٧	إتقان العمل يؤدي إلى وفرة الإنتاج وغزارته.
٥٨	المحافظة على الطابع الجمالي والهدوء البيئي أمران يحث عليهما الإسلام.
ثامنا: مفهوم التربية البيئية الإسلامية، ويشمل:	
٥٩	التزود بالمعارف الإسلامية للأوامر المرتبطة بالبيئة، وذلك من حيث الأداء (كغرس الأشجار وحفظ المياه والحفاظ على البيئة ...)
٦٠	التزود بالمعارف الإسلامية للنواهي المرتبطة بالبيئة، وذلك من حيث اجتناب (الإسراف واستنزاف الموارد وتلويث البيئة ...
٦١	الالتزام بأوامر الله عز وجل ورسوله ﷺ وأحكام الدين الإسلامي، وإدارة البيئة من حيث التسخير والاستخلاف الذي يتلاءم مع الوظيفة الإنسانية التي خلق الله الإنسان لأجلها.

توصيات الدراسة:

في ضوء نتائج الدراسة الحالية توصي الباحثة بالآتي:

- الاستفادة من قائمة مفاهيم التربية البيئية التي توصلت إليها الدراسة الحالية، بتضمينها في مناهج التربية الإسلامية في التعليم العام.
- العمل على وضع مصفوفة مفاهيمية متكاملة للتربية البيئية تشمل جميع مراحل التعليم العام، استنادا إلى قائمة المفاهيم التي تم التوصل إليها في الدراسة الحالية.

المصادر والمراجع:

١. ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، **فتح الباري في صحيح البخاري**، (بيروت: دار المعرفة).

٢. ابن ماجه، محمد يزيد القزويني، **السنن**، (القاهرة: دار الريان للتراث).

٣. ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، ط١، ١٩٩٠م).

٤. أبو داود، سليمان بن شعث، **السنن**، (ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).

٥. أحمد عبد الجواد، **التربية البيئية**، (القاهرة: مطبعة الدر العربية، ١٩٩٥م).

٦. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى، **السنن**، تحقيق: محمد شاكر، وغيره، (القاهرة: مطبعة مصطفى الحلبي).

٧. جمعة بن خميس الهاشمي، **مستوى المعلومات البيئية لدى طلبة كلية التربية جامعة السلطان قابوس واتجاهاتهم نحو البيئة**، (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة السلطان قابوس، ٢٠٠٣م).

٨. الجوهري، إسماعيل بن حماد، **الصحاح**، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطاء، (دار العلم للملايين، ط٣، ١٩٨٤هـ).

٩. خالد أحمد حمود السخي، **مفاهيم التربية البيئية المتضمنة في كتب التربية الإسلامية لمرحلة التعليم الأساسي ومستوى اكتساب الطلبة لهذه المفاهيم في نهاية المرحلة بمملكة البحرين**، (رسالة دكتوراة: الجامعة الأردنية، ٢٠٠٧م).

١٠. رجاء وحيد دويدري، **البيئة: مغهومها العلمي المعاصر وعمقها الفكري التراثي**، (دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٤م).

١١. الزَّمخشري، محمود بن عمر، **أساس البلاغة**، تحقيق: عبد الرحيم محمود، (بيروت: دار المعرفة، ١٩٨٢م).

١٢. سعيد بن سلطان الهاشمي، **تقويم كتابي الثقافة الإسلامية للصفين الحادي عشر والثاني عشر بسلطنة عمان في ضوء المفاهيم الإسلامية المناسبة لطلبتيهما**، ر(سالة ماجستير غير منشورة، جامعة السلطان قابوس، ٢٠٠٧).

١٣. سعود بن ناصر الريامي، **التربية البيئية ودور السلطنة في المحافظة على البيئة**، (مجلة رسالة المسجد، ١٩٩٨).

١٤. شاكر اشتيوي الفقير، **المفاهيم البيئية المتضمنة في كتب الجغرافيا للمرحلة الأساسية العليا في الأردن**، (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة مؤته: الأردن، ٢٠٠٥).

١٥. طارق عبد الواحد الأغبري، **المفاهيم البيئية في كتاب الجغرافية للصف الثالث الثانوي في اليمن ودورها في تعميق الوعي البيئي لدى الطلبة**، (رسالة ماجستير غير منشورة. موقع المركز الوطني للمعلومات، اليمن: تاريخ الدخول: ٢٧ سبتمبر ٢٠١٤م).

١٦. http://www.yemen-nic.info/contents/studies/detail.php?ID=1438

١٧. عبد العزيز بن محمد الصوافي، **القيم البيئية المتضمنة في مقررات الجغرافيا بالمرحلة الإعدادية**، (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة السلطان قابوس، ٢٠٠٢).

١٨. علي حسين موسى، **التلوث البيئي**، (بيروت: دار الفكر، ٢٠٠٢م).

١٩. علية بنت خليفة الهاشمي، **مدى تضمن مفاهيم التربية البيئية في كتب التربية الاسلامية للحلقة الثانية من التعليم الأساسي ومستوى اكتساب الطلبة لها**، (رسالة ماجستير، جامعة السلطان قابوس، سلطنة عمان، ٢٠٠٩م).

٢٠. الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٩٩٠م).

٢١. محمد صابر سليم، **التربية والتوعية بقصايا البيئة**، (القاهرة: معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٩١م).

٢٢. مجمع اللغة العربية، **المجمع الوجيز**، (القاهرة، ١٩٩٠م).

٢٣. مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، (إسطنبول: المكتبة الإسلامية، ط٢).

٢٤. محمد فؤاد عبد الباقي، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، (بيروت: دار الفكر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م).

٢٥. موقع الدكتور نظمي خليل أبو العطا، **التربية البيئية من منظور إسلامي** www.nazme.net، تاريخ الدخول: ٢٠١٤/٩/١٢م.

٢٦. نزار عبدالله الفردان، **الوعي البيئي لتلاميذ المرحلة الابتدائية في ضوء بعض المشكلات البيئية الراهنة التي تواجه مملكة البحرين "دراسة ميدانية"**، (رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة البحرين، ٢٠٠٦م).

منظور القرآن والسنة في الحفاظ على البيئة

د. عبد الباسط بن عبدالرحيم بن حسين محمود[٤٦٢]

ملخص البحث:

مما عرفناه في دين الإسلام، أن الله خلق الخلق وهيأ لهم أسباب المعيشة، والبقاء، وأعد لهم بيئة صالحة نافعة، فجعل لهم الأرض قراراً، ولما كان الحفاظ على البيئة أمراً ضرورياً؛ نهى سبحانه عن الفساد في الأرض بجميع أنواعه؛ حفاظاً على البيئة، واستقرار الحياة وطمأنينتها، بل إن الملائكة الأبرار، اعتراهم خوف فخشوا أن تحول البيئة في الأرض من بيئة صالحة إلى بيئة فاسدة فيها الفساد والقتل؛ فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾. فمن هذا المنطلق أحببت أن تكون لي مشاركة في هذا المؤتمر المبارك ببحث مختصر أبين فيه منظور القرآن والسنة في الحفاظ على البيئة. ومشكلة البحث في هذا الموضوع تكمن في: هل اهتم واعتنى القرآن والسنة بالبيئة؟، وما هي الأساليب التي سلكها القرآن والسنة في المحافظة عليها؟ لذا شرعت في كتابته.

المقدمة:

الحمد لله الذي خلق الخلق فأحسن، وشرع الأحكام فأتقن، أحمده سبحانه وأشكره، على جزيل إنعامه، وكريم عطائه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تنجي قائلها من سخطه وعقابه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، ختم الله به الرسل، واصطفاه واتخذه خليلاً وجعل ملته آخر الملل، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم لقائه.

أما بعد! فلا يخفى على كل ذي إنصافٍ، وعدلٍ، ولبٍ وعقلٍ، ما لهذا الدين من المكانة العلية، والمرتبة السامية السوية؛ فهو خاتم الأديان حقاً، ومسك الختام صدقاً، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]. فلا يوجد إنس ولا جان إلا وهو ملزم باتباع هذا الدين، فإن عاند فأعرض أو كذب وكابر فهو متوعد بالعذاب الأليم، والخلود في نار الجحيم، قال ﷺ: «والذي نفس محمد بِيده لا يسمع بِي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصرانِي يموت ولم يؤمن بِالذي أرسلت بِه إلا كان من أصحابِ النار»[٤٦٣]. ولقد امتاز هذا الدين الإسلامي بميزات كاملة، دقيقة متقنة، لا يماثله فيها – ولا في غيرها – أي دين، ولا يشابهه أي نظام؛ فهو كما قال تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ...﴾ [الأنعام:١٦١]. قال ﷺ: «قد تركتكم على البيضاءِ ليلها كنهارِها لا يزِيغ عنها

---

[٤٦٢] أستاذ علوم الحديث المساعد، بجامعة تبوك، الكلية الجامعية بضباء.

[٤٦٣] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، ج١، ص١٣٤، رقم١٥٣.

بعدي إلا هالك»[٤٦٤]. ومن أبرز تلك الميزات: الشمولية والمعاصرة؛ فهو شامل لأمور الدين والدنيا، وصالح لكل زمان ومكان. وإن مما عرفناه في دين الإسلام، أن الله خلق الخلق وهيأ لهم أسباب المعيشة، والبقاء، وأعد لهم بيئة صالحة نافعة، فجعل لهم الأرض قراراً، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ ...﴾ [غافر:٦٤]. وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُواْ إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَالَهَا مِن فُرُوجٍ ۞ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [ق:٦-٧]. وغيرها من الآيات. ولما كان الحفاظ على البيئة أمراً ضرورياً؛ نهى سبحانه عن الفساد في الأرض بجميع أنواعه؛ حفاظاً على البيئة، واستقرار الحياة وطمأنينتها، قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ...﴾ [الأعراف:٥٦]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٧٧]. بل إن الملائكة الأبرار، اعتراهم خوف فخشوا أن تحول البيئة في الأرض من بيئة صالحة إلى بيئة فاسدة فيها الفساد والقتل؛ فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ...﴾ [البقرة:٣٠].

فمن هذا المنطلق أحببت أن تكون لي مشاركة في هذا المؤتمر المبارك ببحث مختصر أبين فيه منظور القرآن والسنة في الحفاظ على البيئة. ومشكلة البحث في هذا الموضوع تكمن في: هل اهتم واعتنى القرآن والسنة بالبيئة؟، وما هي الأساليب التي سلكها القرآن والسنة في المحافظة عليها؟ لذا شرعت في كتابته، وفيه أربعة مباحث تالية:

المبحث الأول

تعريفات مهمة وأنواع

المطلب الأول: تعريفات مهمة

تعريف كلمة منظور:

أنسب معنى من معانيه اللغوية هنا هو: النظر: تقليب البصر والبصيرة لإدراك الشيء ورؤيته، وقد يراد به التأمل والفحص، وقد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص وهو الرَّوِيَّة[٤٦٥]. فعلى هذا يكون المراد بقولنا: من منظور القرآن والسنة، أي: من خلال النظر في الكتاب والسنة، وتأملهما وتقليب البصر في نصوصهما، والله أعلم.

تعريف القرآن:

١ . تعريفه لغة: مصدر مشتق من قرأ، يقال: قرأ، يقرأ، قراءة، وقرآناً، وهو مصدر كالغفران، بمعنى القراءة، ومعنى القُرآن، معنى الجمع، وسمي قُرْآناً؛ لأنه يجمع السُّوَر، فيَضُمُّها[٤٦٦]. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ • فَإِذا قَرَأْناهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَه﴾ [القيامة: ١٧-١٨].

---

[٤٦٤] أخرجه أحمد في **مسنده**، ج٢٨، ص٣٦٧، رقم ١٧١٤٢؛ وابن ماجه في **سننه**، المقدمة، ج١، ص١٦، رقم٤٣؛ والحاكم في **المستدرك**، ج١، ص٩٦. وهو حديث صحيح كما قال الحاكم، ووافقه الذهبي.

[٤٦٥] الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، ص٤٩٧.

[٤٦٦] انظر ابن منظور، **لسان العرب**، ج١، ص١٢٨.

٢ . تعريفه اصطلاحاً: لقد تعددت تعاريف القرآن في الاصطلاح، بسبب اختلاف ما يراه ويعتقده كل معرف له. وأصوب هذه التعاريف وأصحها أن يقال: القرآن كلام الله، غير مخلوق، منه بدأ، وإليه يعود، المنزل على رسوله محمد ﷺ،

المكتوب في المصاحف، المنقول إلينا بالتواتر، المتعبد بتلاوته[٤٦٧].

تعريف السنة:

١ . تعريفها لغة: هي الطريقة، وأصلها من قولهم: سننته بالمسن سناً إذا أمررته عليه[٤٦٨].

٢ . تعريفها اصطلاحاً: قال ابن منظور: وإذا أطلقت في الشرع –يعني السنة– فإنما يراد بها، ما أمر به النبي ﷺ، ونهى عنه وندب إليه، قولاً وفعلاً ، مما لم ينطق به الكتاب العزيز[٤٦٩]. قلت: وهذا الذي ذكره، يشمل تعريف المحدثين، وغيرهم للسنة. والذي يعنينا هنا هو التعرف على معناها عند المحدثين، وعند الفقهاء، فنقول:

أ . تعريف السنة عند المحدثين: يمكننا أن نقول: السنة عندهم يراد بها الحديث المرفوع ، وهو ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خَلقية أو خُلقية، إضافة إلى سيرته العامة ﷺ، وهي الهدي الذي يقابل الكتاب[٤٧٠]. قال ابن رجب –رحمه الله–: والسنة هي الطريق المسلوك، فيشمل ذلك التمسك بما كان عليه هو وخلفاؤه الراشدون من الاعتقادات، والأعمال، والأقوال، وهذه هي السنة الكاملة، ولهذا كان السلف قديماً لا يطلقون اسم السنة إلا على ما يشمل ذلك كله ... وكثير من العلماء المتأخرين، يخص اسم السنة بما يتعلق بالاعتقاد...اهـ[٤٧١].

ب . عند الفقهاء: أما السنة عند الفقهاء، فلها معنى آخر غير المعنى الشامل الذي عند علماء الحديث، فالسنة عندهم كما قال الخطابي: وأما في عرف الفقهاء فإنما يطلقونها على ما ليس بواجب[٤٧٢].

معنى الحفاظ والمحافظة:

الحفاظ والمحافظة، مصدر للفعل حافظ، والمراد: المواظبة على الأمر، والمراقبة، ويقال: حفظ الشيء حفظاً: صانه وحرسه، ومنه: حفظ المال، وحَفِظ العهد: لم يخنه[٤٧٣].

معنى البيئة:

---

[٤٦٧] الجرجاني، **التعريفات**، ص١٤٦. وانظر الشوكاني، **إرشاد الفحول**، ج١، ص١٦٩؛ وعتر، **علوم القرآن**، ص١٠.

[٤٦٨] انظر: الجوهري، **الصحاح**، ج٥، ص٢١٣٨–٢١٤٠؛ وابن منظور، **لسان العرب**، ج١٣، ص٢٢٤– ٢٢٦.

[٤٦٩] انظر ابن منظور، **لسان العرب**، ج١٣، ص٢٢٥.

[٤٧٠] انظر: ابن كثير، **اختصار علوم الحديث**، ص١٤٦؛ والسخاوي، **فتح المغيث**، ج١، ص٩٨؛ وللمعلمي، **الأنوار الكاشفة**، ص٢٠.

[٤٧١] ابن رجب، **جامع العلوم والحكم**، ص٥٩١.

[٤٧٢] الزركشي، **البحر المحيط**، ج٤، ص١٦٣؛ وابن النجار، **شرح الكوكب المنير**، ج١، ص٤٠٣، وج٢، ص١٥٩–١٦٠.

[٤٧٣] الرازي، **مختار الصحاح**، ص٦١؛ وابن منظور، **لسان العرب**، ج٧، ص٤٤٠؛ ومجموعة من الباحثين، **المعجم الوسيط**، ص١٨٥.

أما من حيث اللغة فيقال: البيئة، والباءة، والمباءة[٤٧٤]، هي المنزل، ومنه قوله تعالى: ﴿والذين تبوؤا الدار والإيمـــان﴾ [الحشر:٩]. وفي المعجم: البيئة هي المنزل والحال، يقال: بيئة طبيعية، وبيئة اجتماعية، وبيئة سياسية[٤٧٥].

وأما في الاصطلاح، فيمكننا القول بأن البيئة هي: الإنسان والكائنات الحية الأخرى، الحيوانية والنباتية، وما لا يمكن رؤيته في الطبيعة. أي كل ما يحيط بنا في الطبيعة وما نراه من حولنا وما يقع في المجال الحيوي للأرض، من هواء وماء وتراب وكائنات حية[٤٧٦]. وكل ذلك مسخر لخدمة الإنسان، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ [البقرة:٢٩].

المطلب الثاني: أنواع البيئة:

للبيئة أنواع متعددة، بحسب اختلاف النظرة إليها والمفهوم لها، فالبعض جعلها قسمة ثنائية، قسم: يضم الماء والهواء والأرض، وقسم آخر: يضم الإنسان والحيوان والنبات. والبعض جعل القسمة ثلاثية: بيئة إنسانية وحيوانية ونباتية. والبعض قصر البيئة على الجنس البشري فقط، فقسم البيئة باعتبار ما يحتاج إليه هذا الجنس، فنتج عنه بيئة اجتماعية، وبيئة اقتصادية، وبيئة سياسية[٤٧٧]. وهذا ما سأعتمده اثناء الحديث عن الأساليب الآتية فيما بعد.

المبحث الثاني

الحفاظ على البيئة من منظار إسلامي

المطلب الأول: حكم الحفاظ على البيئة:

لقد جاءت الشريعة يحفظ صلاح البشرية، وأمنها واطمئنانها، بضوابط شرعية، والإنسان في هذه الحياة، شريك للبيئة صلاحها؛ بصلاحه وفسادها؛ بفساده، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ...﴾ [الروم:٤١]. ومن المقرر في القواعد الأصولية: أن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وتقرر: أن حفظ حياة الإنسان، من الضروريات الخمس الواجب حفظها، والحفاظ على البيئة من أكبر ما يحافظ به على حياة الإنسان؛ فمن هنا نعلم يقيناً، أن الحفاظ على البيئة أمر واجب ومتحتم ويدل على ذلك نصوص كثيرة من الكتاب والسنة.

المطلب الثاني: الأدلة على وجوب الحفاظ على البيئة:

أولاً: القرآن:

أ- نصوص فيها النهي عن الفساد في الأرض:

---

[٤٧٤] ابن منظور، **لسان العرب**، ج١، ص٣٦.

[٤٧٥] مجموعة من الباحثين، **المعجم الوسيط**، ص٧٥.

[٤٧٦] أبو دية، **علم البيئية وفلسفتها**، ص٦. وانظر صباريني، **البيئة ومشكلاتها**، ص٢٤-٢٥.

[٤٧٧] انظر المصدرين السابقين؛ ومجموعة من الباحثين، **المعجم الوسيط**، ص٧٥.

١- قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف :٥٦]. قلت: وإن كان المراد بالفساد هو الكفر والمعاصي، إلا أنه يدخل فيه فساد العيش والبيئة. قال ابن كثير -رحمه الله-: ينهى تعالى عن الإفساد في الأرض، وما أضره بعد الإصلاح! فإنه إذا كانت الأمور ماشية على السداد، ثم وقع الإفساد بعد ذلك؛ كان أضر ما يكون على العباد[٤٧٨]اهـ. وقال السعدي -رحمه الله-: فإن المعاصي تفسد الأخلاق والأعمال والأرزاق ...[٤٧٩].

٢- وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٧٧]. فنفى الله سبحانه محبته للمفسدين في الأرض، وهو يشمل كل فساد، سواء كان دينياً أو دنيوياً.

٣- وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود:١١٦]. فبين سبحانه أن من أسباب النجاة من عذابه؛ السعي في نشر الخير بجميع صوره، والمحافظة على فعله، وأن عكس ذلك يوجب العذاب والهلاك، يقول ابن كثير -رحمه الله-: فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير، ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض[٤٨٠].

ب- أن الله أمر بالتعاون على البر والتقوى، ونهي عن التعاون على الإثم والعدوان، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ...﴾ [المائدة:٢]. وحفظ البيئة من التعاون على البر، إذ أن البر كلمة جامعة من معانيها الإحسان، والحفاظ على البيئة داخل في ذلك.

ج- أن أهل الباطل، يعلمون أن الفساد في الأرض جرم يجب القضاء عليه وعلى أهله؛ لذا فإن أتباع فرعون عندما قلبوا الحق باطلاً، والباطل حقاً، وحرضوا فرعون على قتل موسى ومن معه؛ تذرعوا لذلك بذرائع، منها: أن موسى ومن معه، من المفسدين في الأرض -حاشاه عليه السلام- قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ...﴾ [الأعراف:١٧].

ثانياً: من السنة:

أما نصوص السنة التي يمكن أن يستدل بها على النهي عن إفساد البيئة، ووجوب المحافظة عليها، على سبيل المثال:

١- قال ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار»[٤٨١]. وهذا الحديث من القواعد الفقهية الكلية، التي تندرج تحتها قواعد كثيرة، وأما معناه فقد قال ابن عبد البر: وقال الخشني: الضرر الذي لك فيه منفعة، وعلى جارك فيه مضرة،

---

[٤٧٨] ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٦، ص٣٢٤.

[٤٧٩] السعدي، **تيسير الكريم الرحمن**، ج١، ص٢٩٢.

[٤٨٠] ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٧، ص٤٨٨.

[٤٨١] أخرجه أحمد، في **المسند**، ج٣٧، ص٤٣٦، رقم٢٢٧٧٨؛ وابن ماجه، في **السنن**، كتاب الأحكام، باب من بنى في حقه ما يضر بجاره، ج٢، ص٧٨٤، رقم٢٣٤٠. وقد صححه الشيخ الألباني بمجموع طرقه، في **الإرواء**، ج٣، ص٤٨٠.

والضِّرار: الذي ليس لك فيه منفعة، وعلى جارك فيه المضرة...[٤٨٢]اهـ. ووجه الدلالة يتضح بما قاله الشاطبي، حيث قال: فإنه داخل تحت أصل قطعي في هذا المعنى، فإن الضرر، والضرار مبثوث منعه في الشريعة كلها، في وقائع جزئيات، وقواعد كليات... ومنه النهي عن التعدي على النفوس والأموال والأعراض، وعن الغصب والظلم، وكل ما هو في المعنى إضرار أو ضرار، ويدخل تحته الجناية على النفس أو العقل أو النسل أو المال؛ فهو معنى في غاية العموم في الشريعة لا مراء فيه ولا شك...[٤٨٣]اهـ. قلت: وكل ذلك منهي عنه، ويدخل فيه فساد البيئة.

٢- قال ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[٤٨٤]. والمراد: المسلم الكامل الإسلام، وقد قال الحسن البصري: الأبرار هم الذين لا يؤذون الذّر والنمل[٤٨٥]. ووجه الدلالة من الحديث، أنه من لوازم الإسلام أن يسلم الناس من لسان المرء ويده، وسلامة البيئة من سلامة الناس، والعكس صحيح.

٣- قال ﷺ: «من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء»[٤٨٦]. ووجه الدلالة: أن السنة السيئة محرمة، والإفساد في البيئة يعتبر منها، فمن كان سبباً في خرابها وإفسادها، ثم اقتدى به أناس آخرون في فعله ذلك؛ فإنه يتحمل وزراً مثل أوزارهم. قال النووي -رحمه الله-: هذا الحديث صريح في الحث على استحباب سن الأمور الحسنة، وتحريم سن الأمور السيئة[٤٨٧]. وقال في موضع آخر: كل من ابتدع شيئاً من الشر، كان عليه مثل وزر كل من اقتدى به في ذلك العمل، مثل عمله إلى يوم القيامة، ومثله من ابتدع شيئاً من الخير، كان له مثل أجر كل من يعمل به إلى يوم القيامة[٤٨٨].

٤- قال ﷺ: «لعن الله من غير منار[٤٨٩] الأرض»[٤٩٠]. ووجه الدلالة: أن رسول الله ﷺ لعن من يعبث بعلامات الأرض،

---

[٤٨٢] ابن عبدالبر، **التمهيد**، ج٢٠، ص١٥٨.

[٤٨٣] انظر الشاطبي، **الموافقات**، ج٣، ص١٨٥، ١٨٦.

[٤٨٤] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، ج١، ص١١، رقم١٠؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام، ج١، ص٦٥، رقم٤١.

[٤٨٥] ابن بطال، **شرح صحيح البخاري**، ج١، ص٦٢.

[٤٨٦] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة أو سيئة...، ج٤، ص٢٠٥٩، رقم١٠١٧.

[٤٨٧] النووي، **شرح صحيح مسلم**، ج١٦، ص٢٦٦.

[٤٨٨] النووي، **شرح صحيح مسلم**، ج١١، ص١٦٦.

[٤٨٩] منار الأرض: جمع منارة، وهي العلامة تجعل بين الحدين. ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث**، ج٥، ص١٢٧.

[٤٩٠] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الأضاحي، باب تحريم الذبح لغير الله، ج٣، ص١٥٦٧، رقم١٩٧٨.

فيغير معالمها، ويعبث بحدودها؛ ليقتطع من أرض جاره شيئاً[٤٩١]، ويضلل الناس عن الطريق الصحيح، فكله من العبث بالبيئة وإفسادها، فإذا كان هذا التغيير لجزء من أجزاء البيئة، يستوجب اللعن؛ فما بالك بمن يدمرها؟!

المطلب الثالث: أساليب قرآنية ونبوية في الحفاظ على البيئة:

سأكتفي ببيان الأساليب المتعلقة بالأنواع الثلاثة للبيئة (البيئة الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية):

أولاً: الأساليب القرآنية في حفظ البيئة:

١. أسلوب القرآن في الحفاظ على البيئة الاجتماعية: المجتمع هو عبارة عن أُسرٍ وأفراد، يتكون منها المجتمع، والبيئة الاجتماعية عبارة عن العلاقة التي تكون بين أولئك الأفراد فيما بينهم وبين بعضهم الآخر، وبين الأسر فيما بينهم وبين الآخرين، والقرآن بين لنا الأمور التي تكفل المحافظة على تلك البيئة الاجتماعية، على اختلاف طبقاتها، وثقافاتها، ولنأخذ أمثلة من كتاب الله؛ توضح لنا ذلك.

ففي بر الوالدين، وتحريم عقوقهما، نجد أن الله قد نهانا عن ذلك، وشدد في النهي، إذ قرن سبحانه برهما بتوحيده وعدم الإشراك به فقال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء:٢٣].

وفي النكاح الذي به تستقر الأسرة، ويمثل السكن الآمن للرجل والمرأة، والصداق الذي يعطى للمرأة مقابل نكاحها، ويعتبر حقاً مشروعاً من حقوقها؛ يقول تعالى في حق ذلك: ﴿فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء:٢٥]. بل ونجد أن القرآن وضع حلاً للعنوسة والقضاء عليها، بإعطاء الرجل حق التعدد، بشرط أن يتقي الله في ذلك، فيقول تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ...﴾ [النساء:٣]. وفي الطلاق يقول تعالى: ﴿الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ﴾ [البقرة:٢٢٩]. وفي أمر العشرة الزوجية، وتربية الأولاد وإرضاعهم، يقول تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:١٩]. ويقول تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٣٣].

وفي حفظ الأعراض وصيانتها، تعددت الآيات، ففي تحريم السفاح[٤٩٢] واتخاذ الأخدان[٤٩٣] يقول تعالى: ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء:٢٥]. وفي تحريم اللواط، وبيان قبحه وخطره على المجتمع يقول تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ۞ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف:٨٠-٨١]. وفي تحريم القذف، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ

---

[٤٩١] ابن الأثير، **جامع الأصول**، ج١٠، ص٧٦٧.

[٤٩٢] السفاح: الزنا، مأخوذ من سفحت الماء إذا صببته. ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث**، ج٢، ص٣٧١.

[٤٩٣] الأخدان: جمع خدن، وهو المصاحب، وأكثر ذلك يستعمل فيمن يصاب شهوة. الراغب الأصفهاني، **مفردات غريب القرآن**، ص١٤٤.

فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ...﴾ [النور:٤]. وفي حفظ العقول، يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾ [المائدة:٩١]. وفي الحث على العمل الشريف، نجد قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص:٢٥-٢٦]. وفي القضاء على مسألة الفقر، نجد قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ...﴾ [التوبة:٦٠]. وآيات غيرها، تبين لنا أسلوب القرآن في حفظ البيئة الاجتماعية بنظام دقيق متقن، حفظ الله به الحقوق، وصان به الأعراض، وتكوّنت به الأسر، وأعطي كل ذي حق حقه.

٢. أسلوب القرآن في الحفاظ على البيئة الاقتصادية: المال قوام الحياة، وزينتها، قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الكهف:٤٦]. به تقضى كثير من الاحتياجات، وتبنى به المجتمعات، ويقضى به على الفقر، ويحافظ به على البيئة، لهذا كانت العناية بالبيئة الاقتصادية ذات مكانة مهمة، وحساسة، وقد جاء في القرآن ما يبين الاهتمام بها، وحفظها، ولنضرب أمثلة على ذلك؛ ففي البيع والشراء الذي تقضى به مصالح البشر، يقول تعالى: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ [البقرة:٢٧٥]. وفي النهي عن أكل أموال الناس، والاعتداء عليها، يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء:٢٩]. بل جاءت السبل الرادعة لمن يعتدي على الأموال، فقال تعالى في شأن السارق: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة:٣٨]. ولحماية الأموال وغيرها من الحكم؛ حرم الله أكل الربا فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران:١٣٠]. فسبحان من شرع فيسر وأحكم، وحكم فعدل ورحم.

٣. أسلوب القرآن في الحفاظ على البيئة السياسية: ولما كان الأمن والاستقرار في المجتمعات لا يتم إلا بولي أمر؛ أمر الله تعالى بطاعة أولي الأمر في المعروف، ونهى عن الفرقة والاختلاف، وأمر بالاعتصام بحبله المتين، وأمر بصد العدوان، وغير ذلك مما يحفظ البيئة عموماً، والسياسية على وجه الخصوص، ولنذكر أمثلة من القرآن تبين ذلك.

ففي أمر الطاعة لولاة الأمور، والذين لا تستقيم الحياة إلا بهم، ولا تهدأ فوضى المجتمعات إلا بوجودهم؛ يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]. وهي طاعة لأولي الأمر مقيدة بطاعة الله، وفي غير معصيته، كما بين ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «لا طاعة في معصية، إنما الطاعة في المعروف»[٤٩٤].

وفي الأمر بالاجتماع، والنهي عن الفرقة والاختلاف، يقول الله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦]. ومن الأمور التي يدخل فيها حفظ أمن المجتمع سياسياً، قال تعالى في شأن الطائفة الباغية: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ...﴾ [الحجرات:٩]. والآيات في هذا كثيرة، تظهر

[٤٩٤] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب أخبار الآحاد، باب ما جاء في إجازة خبر الواحد، ج٩، ص٨٨، رقم٧٢٥٧؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، ج٣، ص١٤٦٩، رقم١٨٤٠.

لمن تدبرها، وأمعن النظر فيها. وبعد: وإن كانت هذه الآيات المقصود بها من أسلم وآمن، ومتنزلة على واقع المسلمين خاصة؛ إلا أن غير المسلمين في المجتمعات الكافرة يستفيدون منها فائدة لا تقدر بثمن؛ لأنهم يعلمون حقيقة، صدق ديننا، وصلاحه لكل زمان ومكان، ولكن ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل:١٤].

ثانياً: الأساليب النبوية في حفظ البيئة:

١. من الأساليب النبوية في الحفاظ على البيئة الاجتماعية: لم تختلف أساليب السنة عن أساليب القرآن في حفظ البيئة؛ إلا أن الأمثلة فيها أكثر مما جاء في القرآن، فمن الأمثلة ما جاء في السنة من بيان حال المسلمين من حيث ترابطهم وتآخيهم[٤٩٥]. ولعظم أمر التراحم بين الناس، وليكون المجتمع متراحماً، قال ﷺ: «من لا يَرْحم الناس، لا يَرْحمه الله»[٤٩٦]. وفي شؤون المجتمع كله، وبيان مسؤولياته، يقول ﷺ: «كلكم راع ومسؤول عن رعيته ...»[٤٩٧]. وفي شؤون الأسرة التي تعد جزءً مهما في البيئة الاجتماعية، يقول النبي ﷺ: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي»[٤٩٨]. وجاءت عناية السنة بالبيئة الاجتماعية، حتى في طرقات الناس وظلهم، وأماكن جلوسهم، فقد قال ﷺ لبعض أصحابه: «إياكم والجلوس بالطرقات» ثم قال: «إذ أبيتم إلا المجلس، فأعطوا الطريق حقه ... غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر»[٤٩٩]. وحماية البيئة الاجتماعية من التلوث لا تقل أهمية عن الأمور السابقة، لا سيما وأن الناس شركاء في أساسيات الحياة الثلاثة، التي ذكرها رسول الله ﷺ، وهي الماء والكلأ والنار[٥٠٠]. وقد جاء في السنة ما يبين ذلك، فقال ﷺ: «اتقوا اللعانين» قالوا: وما اللعانان يا رسول الله؟ قال: «الذي يتخلى في طريق الناس، أو في ظلهم»[٥٠١]. وقال ﷺ: «لا يبولن أحدكم

---

[٤٩٥] إشارة إلى حديث «ترى المؤمنين في توادهم ...»، أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ج٨، ص١٠، رقم٦٠١١؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم، ج٤، ص١٩٩٩، رقم٢٥٨٦.

[٤٩٦] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ج٨، ص١٠، رقم٦٠١٣؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الفضائل، باب رحمته ﷺ الصبيان والعيال، ج٤، ص١٨٠٩، رقم٢٣١٩. واللفظ لمسلم.

[٤٩٧] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب في الاستقراض ...، باب العبد راع في مال سيده ...، ج٣، ص١٢٠، رقم٢٤٠٩؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل ...، ج٣، ص١٤٥٩، رقم١٨٢٩.

[٤٩٨] أخرجه الترمذي، في **السنن**، كتاب المناقب، باب فضل أزواج النبي ﷺ ، ج٥، ص٧٠٩، رقم٣٨٩٥. من حديث عائشة ﵂، وقال: حسن غريب صحيح. وأخرجه ابن ماجه، في **السنن**، كتاب النكاح، باب حسن معاشرة النساء، ج١، ص٦٣٦، رقم١٩٧٧ من حديث ابن عباس ﵄.

[٤٩٩] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الاستئذان، باب، ج٨، ص٥١، رقم٦٢٢٩؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب اللباس والزينة، باب النهي عن الجلوس في الطرقات ...، ج٣، ص١٦٧٥، رقم٢١٢١.

[٥٠٠] أخرجه أبو داود في **السنن**، كتاب الإجارة، باب في منع الماء، ج٣، ص٣٨٧، رقم٣٤٧٧ وصححه الألباني.

[٥٠١] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الطهارة، باب النهي عن التخلي في الطرق والظلال، ج١، ص٢٦٦، رقم٢٦٩.

في الماء الدائم الذي لا يجري، ثم يغتسل فيه»[٥٠٢].

ومن الأساليب النبوية في المحافظة على البيئة الاجتماعية، تفقد الجيران، وتلمس حاجاتهم[٥٠٣]. وقال ﷺ لأبي ذر رضي الله عنه:

«إذا طبخت مرقاً فأكثر ماءه، ثم انظر أهل بيت من جيرانك، فأصبهم منها بمعروف»[٥٠٤]. ومن الأساليب كذلك في المحافظة على البيئة الاجتماعية، العناية بأمر التشجير والزراعة والغرس[٥٠٥]. والأمثلة كثيرة نكتفي بما ذكرناه.

٢. من الأساليب النبوية في الحفاظ على البيئة الاقتصادية: تقدم في أسلوب القرآن في الحفاظ على البيئة الاقتصادية أن ذكرنا ما يتعلق بالمال وأنه قوام الحياة، وزينتها ... إلخ، وما جاء في السنة من العناية بالبيئة الاقتصادية، لا يقل عما جاء في القرآن، إن لم تكن النصوص أكثر، ولنضرب أمثلة على ذلك فنقول:

أولت التجارة عناية فائقة، واهتماماً كبيراً، فبينت ما يتعلق بأمور البيع والشراء في نصوص كثيرة منها: قوله ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كذبا وكتما محقت بركة بيعهما»[٥٠٦]. وحذرت من غش الناس، حماية لهم وصيانة لحقوقهم ، قال ﷺ: «من غش فليس مني»[٥٠٧]. ومن الأساليب النبوية في حماية البيئة الاقتصادية، النهي عن كل بيع محرم، يسبب الغبن أو الغرر للبائع أو المشتري، ومن ذلك قول النبي ﷺ: «لا يبع حاضر لباد[٥٠٨]، ولا تناجشوا[٥٠٩]، ولا يزيدن على بيع أخيه...»[٥١٠]. وفي السنة حماية للمستهلك الذي لا يتقن البيع والشراء، وإرشاد له بأن يقول عند البيع والشراء، ما يضمن حقه، ويحميه من الغش. فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ، وأخبره بأنه لا

---

[٥٠٢] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الوضوء، باب البول في الماء الدائم، ج١، ص٥٧، رقم٢٣٩؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الطهارة، باب النهي عن البول في الماء الراكد، ج١، ص٢٣٥، رقم٢٨٢. وعند مسلم «يغتسل منه».

[٥٠٣] كما في حديث الوصية بالجار المتفق عليه، أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الأدب، باب الوصاة بالجار، ج٨، ص١٠، رقم٦٠١٥؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب البر والصلة، باب الوصية بالجار ...، ج٤، ص٢٠٢٥، رقم٢٦٢٥.

[٥٠٤] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب البر والصلة، باب الوصية بالجار...، ج٤، ص٢٠٢٥، رقم٢٦٢٥.

[٥٠٥] إشارة إلى حديث أنس رضي الله عنه، «ما من مسلم يغرس غرساً...» أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس ...، ج٣، ص١٠٣، رقم٢٣٢٠؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب المساقاة، باب فضل الغرس والزرع، ج٣، ص١١٨٩، رقم١٥٥٣.

[٥٠٦] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب البيوع، باب البيعان بالخيار ...، ج٣، ص٦٤، رقم٢١١٠؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب البيوع، باب الصدق في البيع، ج٣، ص١١٦٤، رقم١٥٣٢.

[٥٠٧] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ : «من غشنا فليس منا»، ج١، ص٩٩، رقم١٠٢.

[٥٠٨] قال النووي: قال أصحابنا والمراد به أن يقدم غريب من البادية أو من بلد آخر بمتاع تعم الحاجة إليه ليبيعه بسعر يومه فيقول له البلدى اتركه عندى لأبيعه على التدريج بأعلى.اهـ. النووي، **المنهاج**، ج١٠، ص١٦٤.

[٥٠٩] قال الحافظ ابن حجر: النجش بسكون الجيم هو مدح السلعة بما ليس فيها والزيادة في ثمنها وهو لا يريد شراءها بل ليغر غيره. ابن حجر، **فتح الباري**، ج١، ص١٩٣، ج٤، ص٣٥٥.

[٥١٠] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الشروط، باب مالا يجوز من الشروط في النكاح، ج٣، ص١٩١، رقم٢٧٢٣؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب البيوع، باب تحريم بيع الحاضر للبادي، ج٣، ص١١٥٧، رقم١٥٢٢. واللفظ للبخاري.

يحسن البيع والشراء، ويخشى أن يقع ضحية للغش، فقال له رسول الله ﷺ: «إذا بايعت فقل: لا خلابة[٥١١]»[٥١٢]. وفي شأن ما يحفظ الأموال عموماً، ويحميها من أضر شيء عليها، وهو الربا، نجد التحذير الشديد من التعامل به، فقد «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا، ومؤكله، وكاتبه، وشاهديه»، وقال: «هم سواء»[٥١٣]. فهذه نماذج على سبيل المثال، لا الحصر تبين لنا أساليب أساليب السنة في الحفاظ على البيئة الاقتصادية.

٣. من الأساليب النبوية في الحفاظ على البيئة السياسية: من أعظم النعم على المجتمعات، نعمة الأمن والاستقرار، فمجتمع بلا أمن لا قيمة له، ولا يمكن من تحقيق الأمن إلا بولي أمر، يسمع له الناس، ويطيعونه في المعروف، فيحكم ويعدل ويسوسهم بشرع الله. قال ﷺ: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم[٥١٤] الأنبياء ...» ثم قال: «فوا ببيعة الأول فالأول، أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم»[٥١٥]، ولقد حفظت لنا السنة النبوية البيئة السياسية من كل جانب، وإن من أهم جوانبها، استقرار البلاد، فأمرت بلزوم الجماعة، تحت ولاية من تأمر عليها، ولو كان ذلك على حساب ما يكرهه الشخص. ولم تَقْصُر السنةُ النبوية السمعَ والطاعة –في المعروف– على ولي دون ولي؛ بل جعلتها لكل ولي أمر، مهما كان عرقه، أو لونه، أو نسبه، فعن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا، وإن استعمل عليكم عبد حبشي، كأن رأسه زبيبة»[٥١٦]. قال ابن حجر –رحمه الله– واستدل به على المنع من القيام على السلاطين وإن جاروا؛ لأن القيام عليهم يفضي غالباً إلى أشد مما ينكر عليهم[٥١٧]. لذا نجد أن جمع الكلمة على إمام واحد؛ من أكثر ما يصلح البيئة السياسية في البلد الواحد، ويدفع أطماع الحاقدين من بلدان أخرى.

---

[٥١١] لا خلابة: بكسر المعجمة وتخفيف اللام أي لا خديعة. ابن حجر، **فتح الباري**، ج٤، ص٣٣٧.

[٥١٢] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب البيوع، باب ما يكره من الخداع في البيع، ج٣، ص٦٥، رقم٢١١٧؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب البيوع، باب من يخدع في البيع، ج٣، ص١١٦٥، رقم١٥٣٣. واللفظ للبخاري.

[٥١٣] أخرجه مسلم في **صحيحه**، من حديث جابر بن عبدالله ﷺ، كتاب المساقاة، باب لعن آكل الربا ومؤكله، ج٣، ص١٢١٩، رقم١٥٩٨.

[٥١٤] قال النووي: أي يتولون أمورهم كما تفعل الأمراء والولاة بالرعية والسياسة القيام على الشيء بما يصلحه. النووي، **المنهاج**، ج١٢، ص٢٣١.

[٥١٥] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، ج٤، ص١٦٩، رقم٣٤٥٥؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء ...، ج٣، ص١٤٧١، رقم١٨٤٢.

[٥١٦] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام...، ج٩، ص٢٦، رقم٧١٤٢؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء، ج٣، ص١٤٦٧، رقم١٨٣٧.

[٥١٧] ابن حجر، **فتح الباري**، ج٢، ص١٨٧.

المبحث الثالث

صفوة الخلق ومن بعدهم، والحفاظ على البيئة

المطلب الأول: المحافظة على البيئة أمر مستقر عند الرسل عليهم السلام:

أهمية الحفاظ على البيئة أمر مستقر عند الناس عموماً، وعند أنبياء الله ورسله –صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين– على وجه الخصوص؛ فهم دعاة الإسلام والسلام ، والأمن والأمان. فالربا –مثلاً– محرم في جميع الشرائع السماوية، قال تعالى عن اليهود: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:١٦١]. قال ابن كثير –رحمه الله–: أي: أن الله قد نهاهم عن الربا فتناولوه وأخذوه ...[٥١٨]. وقد ذكر لنا القرآن قصصاً عن أنبياء الله ورسله –صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين– تبين لنا حفاظهم على البيئة باختلاف أنواعها، وسأقتصر على أربع قصص، من سورة هود ﷺ؛ خشية الإطالة؛ لأبرهن من خلال بعض آياتها ما أنا بصدد الحديث عنه.

١. نبي الله نوح ﷺ، يقرر التوحيد، ومبدأ العدل والمساواة بين أفراد مجتمعه، وأنه لا فرق بين غني ولا فقير، قال تعالى: ﴿... وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ۞ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِن طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود:٢٩-٣٠]. يقول ابن كثير –رحمه الله–: كأنهم طلبوا منه أن يطرد المؤمنين عنه، احتشاماً ونفاسة منهم أن يجلسوا معهم[٥١٩].

٢. أبو الأنبياء، إبراهيم خليل الرحمن ﷺ، يضرب أروع الأمثلة في إكرام الضيف، الذي يعد من أهم المبادئ في البيئة الاجتماعية، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [هود:٦٩]. كما قال القرطبي –رحمه الله–: والضيافة من مكارم الأخلاق، ومن آداب الإسلام، ومن خلق النبيين والصالحين. وإبراهيم أول من أضاف[٥٢٠].

٣. لوط ﷺ، عاش خائفاً في قومه، بين خيانة زوجته، وفجور قومه، ومع هذا كان يدعوهم إلى توحيد الله، وينهاهم عما كانوا عليه من الفعل الخبيث، والعمل الشنيع، الذي خالفوا به الفطر السوية؛ إذ كانوا يأتون الذكران من العالمين، يهدمون بذلك البيئة الاجتماعية هدماً، قال تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود:٧٨]. فسعى في الإصلاح، للقضاء على ذلك الخبث، الذي يفسد البيئة الاجتماعية إلا أنهم عاندوا وأصروا، فأخذهم العذاب.

---

[٥١٨] ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٤، ص٣٦٨.

[٥١٩] المصدر السابق، ج٧، ص٤٣٢.

[٥٢٠] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج١١، ص١٥٩.

٤. شعيب ﷺ، ينكر على قومه الشرك، وتطفيف المكيال والميزان، وبخس الناس أشياءهم وقطع الطريق، والذي يعد من أكبر العوامل هدماً للبيئة الاجتماعية، قال تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود:٨٥]. قال ابن كثير –رحمه الله–: ينهاهم أولاً عن نقص المكيال والميزان إذا أعطوا الناس، ثم أمرهم بوفاء الكيل والوزن بالقسط آخذين ومعطين، ونهاهم عن العيث في الأرض بالفساد، وقد كانوا يقطعون الطريق[٥٢١]. فلم ينقادوا لأمره، فعاندوا وكابروا؛ فأخذهم العذاب الأليم.

المطلب الثاني: موقف نبينا ﷺ من الحفاظ على البيئة:

أما عن موقف سيد البشر ﷺ من الحفاظ على البيئة، فإن السنة كلها مواقف تُروى في بيان ذلك، ومن أعظم ما يبين ذلك، مساواته ﷺ بين الناس كلهم، في كل شيء، قال ﷺ لذي الخويصرة الخارجي عندما قال له: اعدل، قال ﷺ: «ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل، قد خِبْتَ وخسِرْتَ إن لم أكن أعدل»[٥٢٢]. ومعلوم أنه ﷺ هو أعدل البشر، وأتقاهم لله، وأشدهم خشية له.

وفي إقامة الحدود التي يحفظ بها الأمن في المجتمعات، والتي هي من أهم أسباب الحفاظ على البيئة الاجتماعية، نجد أنه ﷺ يساوي في إقامتها بين الناس وبين أهل بيته –فيما لو وجبت عليهم، حاشاهم ﷺ– فيقول ﷺ: «...وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[٥٢٣]. وما تقدم من الأساليب النبوية في الحفاظ على البيئة يغني عن أعادته هنا، وبالله التوفيق.

المطلب الثالث: الصحابة ودورهم في الحفاظ على البيئة:

سأقتصر على ذكر مثالين فقط، للخليفتين الراشدين، أبي بكر، وعمر رضي الله عنهما؛ يوضحان مدى محافظتهما على البيئة المسلمة ككل.

١. أبو بكر الصديق ﷺ، الخليفة الأول، وأفضل الناس بعد رسول الله ﷺ، قاتل المرتدين، والممتنعين عن دفع الزكاة، فحمى البيئة الاجتماعية من ضياع حق عظيم من حقوقها، وهي الزكاة، التي كانت

---

[٥٢١] المصدر السابق، ج٧، ص٤٦٠.

[٥٢٢] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب المناقب، باب علامات النبوة، ج٤، ص٢٠٠، رقم٣٦١٠؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، ج٢، ص٧٤٤، رقم١٠٦٤.

[٥٢٣] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الأنبياء، باب حديث الغار، ج٤، ص١٧٥، رقم٣٤٧٥؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الحدود، باب قطع السارق الشريف...، ج٣، ص١٣١٥، رقم١٦٨٨.

تؤخذ من الأغنياء؛ فتؤدى إلى الفقراء[٥٢٤]. وفي تجهيز جيش أسامة ﷺ، في وقت عصيب اجتمع فيه وفاة قائد الأمة، ورسول الرحمة ﷺ، مع طمع المنافقين والكافرين في القضاء على الإسلام وأهله، نجده ﷺ؛ يرسل جيش أسامة ﷺ، الذي أمر النبي ﷺ بإنفاذه قبل وفاته ﷺ؛ فكان مما قاله ﷺ: «والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو أن الطير تخطفنا، والسباع من حول المدينة ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين...». قال ابن كثير: فساروا لا يمرون بحي من أحياء العرب إلا أرعبوا منهم، وقالوا: ما خرج هؤلاء من قوم إلا وبهم منعة شديدة ...[٥٢٥]. وهي صورة تمثل حنكة القائد السياسي الموفق في المحافظة على البيئة السياسية، وإدارتها إدارة حكيمة مسددة.

٢. عمر بن الخطاب ﷺ الخليفة الثاني، والفاروق الملهم، كان يقول: "إني أنزلت نفسي من مال الله منزلة مال اليتيم, إن استغنيت عنه استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف"[٥٢٦]. وهذا مثال على حرصه ﷺ على مال المسلمين، والذي يبين مدى حفاظه على البيئة الاقتصادية.

وفي مثال آخر لحفظ أمن المجتمع، والمحافظة على البيئة الاجتماعية، نجد قراره الصارم في حد الخمر، فقد كان الشارب يجلد أربعين جلدة في عهد رسول الله ﷺ، وعهد أبي بكر ﷺ، وصدراً من عهد عمر ﷺ؛ فلما رأى ازدياد عدد السكارى، واستحقارهم بحد الخمر؛ زاد في حدها[٥٢٧]، وقد كان ذلك منه بمشورة من بعض الصحابة ﷺ[٥٢٨]. وقد قال علي ﷺ: "جلد النبي ﷺ أربعين"، وجلد أبو بكر أربعين، وعمر ثمانين، "وكل سنة، وهذا أحب إلي"[٥٢٩]. فما أروعها من أمثلة يجسد الحفاظ على البيئة من ولي أمر المسلمين.

---

[٥٢٤] عن أبي هريرة ﷺ أن أبا بكر قال في مانعي الزكاة: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه. أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، ج٩، ص٩٣، رقم٧٢٨٤؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا ...، ج١، ص٥١، رقم٣٢.

[٥٢٥] ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج٩، ص٤٢١.

[٥٢٦] أخرجه ابن أبي شيبة في **مصنفه**، ج١٧، ص٤٩١، رقم٣٣٥٨٥.

[٥٢٧] انظر أثر عبيد بن عمرو الذي أخرجه عبد الرزاق في **مصنفه**، كتاب الطلاق، باب حد الخمر، ج٧، ص٣٧٧، ١٣٥٤١. قال الحافظ ابن حجر: سنده صحيح. ابن حجر، **فتح الباري**، ج١٢، ص٦٩.

[٥٢٨] أخرجه النسائي في **السنن الكبرى**، كتاب الحد في الخمر، ج٥، ص١٣٧، رقم٥٢٦٩.

[٥٢٩] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الحدود، باب حد الخمر، ج٣، ص١٣٣١، رقم١٧٠٧.

المبحث الرابع
الحفاظ على البيئة واجب على الجميع

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: سعي الدول في الحفاظ على البيئة:

لا شك أنه ما من دولة، نامية ومتقدمة، أو فقيرة متأخرة؛ إلا وهي تسعى لإيجاد كل السبل المشروعة؛ لحماية البيئة، والحفاظ عليها، كل على حسب طاقته ومقدرته، وقد تبلورت تلك الطرق في أساليب متعددة للحفاظ على البيئة، منها:

١. وضع القواعد القانونية، وإبرام المعاهدات والاتفاقيات الدولية، ذات العلاقة بحماية البيئة.

٢. إحداث آليات جديدة متخصصة في حماية البيئة على المستوى الدولي.

أما من ناحية إبرام المعاهدات والاتفاقيات الدولية؛ فإن المنظمات الدولية ساهمت في إعداد مشاريع متعددة لها علاقة بحماية البيئة بشتى صورها، وعرضتها على الدول لمصادقتها وتنفيذها على أرض الواقع، والالتزام بأحكامها، ومن أمثلة هذه المعاهدات:

أ . المعاهدات المتعلقة بحماية البيئة البحرية: تم إبرام العديد منها لمنع تلوث البحار، ومن هذه المعاهدات:

١. اتفاقية لندن لمنع التلوث بزيت النفظ في البحار في عام ١٩٥٤م.

٢. اتفاقية بروكسل الخاصة بالتدخل في أعالي البحار لحالات الكوارث الناتجة عن التلوث بالنفط لعام ١٩٦٩.

٣. اتفاقية حظر تخزين ووضع الأسلحة النووية ذات التدمير الشامل في قاع البحر أو المحيط وفي التربة التحتية لهما (عام١٩٧١م).

٤. الاتفاقية الدولية الخاصة بمنع التلوث الذي تتسبب فيه السفن (اتفاقية لندن لعام ١٩٧٣م). والمعدل ببرتوكول (عام ١٩٧٨م) (ماربول).

٥. الاتفاقية المتعلقة بتطبيق الجزء xi (عام ١٩٩٤م) من معاهدة الأمم المتحدة لقانون البحار (عام ١٩٨٢م).

٦. برتوكول كيوتو (عام ١٩٩٧م) التابع لمعاهدة الأمم المتحدة الإطارية للتغير المناخي(عام ١٩٩٢م.

٧. البروتوكول الخاص بامتيازات السلطة الدولية لقاع البحار، وحصاناتها (عام ١٩٩٨م) ، ويتبع معاهدة الأمم المتحدة لقانون البحار (عام ١٩٨٢م.

ب . المعاهدات المتعلقة بحماية الهواء: من هذه المعاهدات ما يلي:

١. اتفاقية جنيف بشأن حماية العمال من الإشعاعات المؤينة لعام ١٩٦٠.

٢. اتفاقية الفضاء الخارجي لعام ١٩٦٧.

٣. اتفاقية جنيف لعام ١٩٧٧ بشأن الحماية من تلوث الهواء والضوضاء والاهتزازات.

٤. اتفاقية جنيف لعام ١٩٧٩ المتعلقة بتلوث الهواء عبر الحدود.

٥. اتفاقية فينا لحماية طبقة الأوزون عام ١٩٨٥م.

ج . المعاهدات المتعلقة بحماية التربة: من هذه الاتفاقيات ما يلي:

١. اتفاقية الجزائر لعام ١٩٦٨ بشأن الحفاظ على الطبيعة والموارد الطبيعية (الاتفاقية الأفريقية للحفاظ على الطبيعة والموارد الطبيعية).

٢. اتفاقية رامسار[٥٣٠] لعام ١٩٧١ الخاصة بالأراضي الرطبة.

٣. اتفاقية باريس لعام ١٩٧٢ المتعلقة بحماية التراث الثقافي والطبيعي العالمي[٥٣١].

المطلب الثاني: دور المملكة العربية السعودية في الحفاظ على البيئة:

معلوم لدى كل منصفٍ، أن المملكة العربية السعودية –حفظها الله بالإسلام– قائم منهجها على تحكيم شرع الله، دستورها الكتاب والسنة، ملتزمة بما فيهما –والكمال عزيز– عاملة بما فيهما من الأحكام وغيرها، ومن ذلك: حفظ البيئة بشتى أنواعها ، ولا أدل على هذا من إنشائها للمحاكم الشرعية، والمدارس والجامعات، وحفاظها على حقوق الإنسان، إضافة إلى اهتمامها بالبيئة النباتية والحيوانية، والذي اعْتُمِد موضوع حمايتها ضمن النظام الأساسي للحكم وفقاً للمادة (٣٢). وفي عام (١٩٥٠م) أنشأت المملكة المديرية العامة للأرصاد الجوية، ثم تمت إعادة هيكلتها في (١٩٨١م)، حيث أنشأت مصلحة الأرصاد وحماية البيئة كجهاز وطني للبيئة، متضمناً أمور المناخ والأرصاد والطقس، باعتبار أن الغلاف الجوي أحد عناصر البيئة الأساسية، وفي عام (١٩٨٦م) في عهد خادم الحرمين الملك فهد بن عبدالعزيز ــ رحمه الله ــ صدر مرسوماً ملكياً بإنشاء الهيئة الوطنية لحماية الحياة الفطرية، وفي عام (١٩٩٠م) تم إنشاء اللجنة الوزارية للبيئة، تضم اثني عشر وزيراً، يرأسهم صاحب السمو الملكي النائب الثاني لرئيس مجلس الوزراء آنذاك[٥٣٢].

خاتمة البحث:

وفيها أهم النتائج التي تم التوصل إليها، ويمكن إيجازها في النقاط التالية:

١. إثبات شمولية الإسلام لجميع العلوم النافعة، والتي منها العلوم الشرعية والإنسانية والتطبيقية.

٢. أن الحفاظ على البيئة ليس وليد عصور متأخرة؛ بل هو من ضمن آداب الدين الإسلامي.

٣. أن النصوص الشرعية ليست جامدة جافة؛ بل هي صالحة لكل زمان ومكان، ويمكن تنزيلها على القضايا الحياتية بضوابط محددة.

٤. أن العلوم الشرعية ليست بمعزل عن العلوم الطبيعية؛ بل مسيرة لها، وبمثابة الضوء لمن هو في ظلام دامس.

التوصيات:

١. وجوب تحكيم شرع الله في كل الأمور، والرجوع إلى الكتاب والسنة في كل الأحوال.

---

[٥٣٠] هي اتفاقية دولية للحفاظ الاستخدام المستدام للمناطق الرطبة. انظر ويكيبيديا، كلمة (رامسار).

[٥٣١] انظر موقع الأرصاد وحماية البيئة في المملكة العربية السعودية.

[٥٣٢] انظر صحيفة المدينة، الثلاثاء، ٢٠٠٩/١٢/٨م.

٢. إقامة المؤتمرات والندوات النافعة التي تربط الأمور الحياتية بالأمور الشرعية، كهذا المؤتمر.

٣. ضرورة تفعيل نصوص الوحيين في الأمور الحياتية، وتفعيل القوانين، والمعاهدات ــ التي لا تتعارض مع تعاليم الشرع الإسلامي ــ التي لها علاقة بحفظ البيئة بشتى أنواعها.

٤. استحداث مناهج تعليمية تجمع بين النصوص الشرعية والعناية بالبيئة، تضاف إلى المناهج الدراسية في التعليم العام والتعليم الجامعي.

٥. ضرورة تبادل الخبرات بين علماء الشرع وعلماء البيئة، للخروج بمنظومة متكاملة تعنى بالبيئة.

المصادر والمراجع:

٣٢. ابن أبي شيبة، أبو بكر عبدالله بن محمد، **المصنف**، تحقيق محمد عوامة، (جدة: دار القبلة، ط١، ١٤٢٧هـ).

٣٣. ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي ومحمود محمد الطناحي، (بيروت: المكتبة العلمية، ط. ١٣٩٩هـ).

٣٤. ابن الأثير، أبو السعادات مجد الدين المبارك بن محمد الجزري، **جامع الأصول في أحاديث الرسول ﷺ**، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط، (مكتبة الحلواني، مطبعة الملاح، ط١، ١٣٨٩هـ).

٣٥. ابن النجار، تقي الدين أبو البقاء محمد بن أحمد، **شرح الكوكب المنير**، تحقيق: محمد الزحيلي ونزيه حماد، (الرياض: مكتبة العبيكان، ط٢، ١٤١٨هـ).

٣٦. ابن بطال، أبو الحسن علي بن خلف القرطبي، **شرح صحيح البخاري**، تحقيق: أبي تميم ياسر بن إبراهيم، (الرياض: مكتبة الرشد، ط٢، ١٤٢٣هـ).

٣٧. ابن حجر، أبو الفضل أحمد بن علي العسقلاني، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، تصحيح وتعليق سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز، ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي، (بيروت: دار المعرفة، ١٣٧٩هـ).

٣٨. ابن رجب، أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد الحنبلي، **جامع العلوم والحكم**، تحقيق: ماهر الفحل، (بيروت: دار ابن كثير، ط١، ١٤٢٩هـ).

٣٩. ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد الله النمري القرطبي، **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، تحقيق: سعيد أحمد أعراب، (دار قرطبة، ١٣٨٧هـ).

٤٠. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي، تعليق: محمد ناصر الدين الألباني، تحقيق: علي حسن عبد الحميد، (الرياض: مكتبة المعارف، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ).

٤١. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق مصطفى السيد ومحمد رشاد وآخرين، (القاهرة: مؤسسة قرطبة، ط١، ١٤٢١هـ).

٤٢. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر، **البداية والنهاية**، تحقيق: عبد الله التركي، (دار هجر، ط. ت).

٤٣. ابن ماجه، أبو عبدالله محمد بن يزيد القزويني، **السنن**، تحقيق : محمد فؤاد عبدالباقي، (بيروت: دار الفكر، ط. ت).

٤٤. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الإفريقي، **لسان العرب**، (دار صادر، ط. ت).

٤٥. أبو داود، سليمان بن الأشعث السجِسْتاني، **السنن**، تعليق الشيخ الألباني، (الأردن: بيت الأفكار الدولية، ط. ت).

٤٦. أبو دية، د. أيوب، **علم البيئة وفلسفتها**، كتاب إلكتروني من موقع نضوب الموارد.

٤٧. الألباني، محمد ناصر الدين ، **إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل**، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط٢ ، ١٤٠٥هـ).

٤٨. البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي، **الصحيح**، تحقيق: محمد زهير الناصر، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، (القاهرة: المطبعة السلفية، ط١، ١٤٠٠هـ).

٤٩. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة، **السنن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد وإبراهيم عوض، (مصر: مكتبة مصطفى الحلبي، ط٢، ١٣٩٥هـ).

٥٠. الجرجاني، علي بن محمد، **التعريفات**، تحقيق محمد صديق المنشاوي، (القاهرة: دار الفضيلة، ط١، ١٤٠٨هـ).

٥١. الجوهري، إسماعيل بن حماد، **الصحاح**، تحقيق: أحمد عبدالغفور العطار، (بيروت: دار العلم للملايين، ط٣، ١٤٠٤هـ).

٥٢. الحاكم، أبو عبد الله محمد بن عبد الله النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين**، إشراف يوسف المرعشلي، (بيروت: دار المعرفة، ط. ت).

٥٣. الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر، **مختار الصحاح**، تحقيق: محمود خاطر، (بيروت: مكتبة لبنان، طبعة جديدة، ١٤١٥هـ).

٥٤. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، (لبنان: دار المعرفة، ط. ت).

٥٥. الزركشي، بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله، **البحر المحيط في أصول الفقه**، حرره وراجعه: عبدالقادر العاني، وعمر الأشقر، (الغردقة: دار الصفوة، ط٢، ١٤١٣هـ).

٥٦. السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، **فتح المغيث شرح ألفية الحديث**، (لبنان: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٣هـ).

٥٧. السعدي، الشيخ عبد الرحمن بن ناصر، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تحقيق: عبدالرحمن بن معلا اللويحق. (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٣هـ).

٥٨. الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، **الموافقات**، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، (دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ).

٥٩. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد، **إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول**، تحقيق: سامي بن العربي الأثري ، (الرياض: دار الفضيلة، ط١، ١٤٢١هـ).

٦٠. صباريني، محمد سعيد وآخرون، **البيئة ومشكلاتها**، (عالم المعرفة، د. ط. ت).

٦١. عبدالرزاق، أبو بكر بن همام الصنعاني، **المصنف**، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط٢ ، ١٤٠٣هـ).

٦٢. عتر، نور الدين محمد الحلبي، **علوم القرآن الكريم**، (دمشق: مطبعة الصباح، ط١، ١٤١٤هـ).
٦٣. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: عبد الله التركي وآخرون، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٧هـ).
٦٤. مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ١٤٢٥هـ).
٦٥. المدينة، **صحيفة مؤسسة المدينة للصحافة والنشر**. الثلاثاء ٢٠٠٩/١٢/٨م.
٦٦. مسلم بن الحجاج أبو الحسين النيسابوري، **الصحيح**، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ).
٦٧. المعلمي، عبد الرحمن بن يحيى، **الأنوار الكاشفة لما في كتاب أضواء على السنة من الزلل والتضليل والمجازفة**، (بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٢هـ).
٦٨. النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب، **السنن الكبرى**، تحقيق: التركي والأرناؤوط وآخرين، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ).
٦٩. النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف، **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، (القاهرة: المطبعة المصرية، ط١، ١٣٤٩هـ).

منهج حماية البيئة والمحافظة عليها في السنة النبوية

أ. د. خير الدين سيب[٥٣٣]

ملخص البحث:

تعد قضية البيئة ومشكلة تلوثها، من أعقد المشاكل التي تواجه البشرية في زماننا، فالاهتمام العالمي بالبيئة، قد ظهر حديثاً في المؤتمرات والندوات، في الوقت الذي اهتم المنهج الإسلامي برعاية البيئة وحمايتها بكافة أشكالها، ويرجع في أساسه إلى مقاصد الشريعة في حفظ الضرورات الخمس، (حفظ النفس، حفظ النسل، حفظ المال، حفظ العقل، حفظ الدين) وما يترتب عليها من توفر بيئة نقية لصحة الإنسان وعبادته. فقد وضع القواعد والتشريعات التي تضمن استقرارها وسلامتها، والمحافظة على مواردها المختلفة. إذ أنّ من أعظم مقاصدها المحافظة على البيئة ومكوناتها، وجاءت الدراسة لبيان هذا المنهج، مستخدما المنهج الاستقرائي والمنهج الوصفي التحليلي.

مقدمة:

تعد قضية البيئة ومشكلة تلوثها، من أعقد المشاكل التي تواجه البشرية في زماننا، فالاهتمام العالمي بالبيئة، قد ظهر حديثاً في المؤتمرات والندوات، في الوقت الذي اهتم المنهج الإسلامي برعاية البيئة وحمايتها بكافة أشكالها، وتعود أهمية ذلك إلى خلق بيئة سليمة، تحقق الخلافة التي خلق الله الإنسان لأجلها، وكان المنهج الإسلامي واضحاً في بيان رعايته وحمايته لأهم عناصر الكون، والتحذير من إفسادها. وجاءت الدراسة لبيان هذا المنهج، إذ من الواجب على علماء الشريعة أن يهتموا بمثل هذه القضايا التي تهم العالم اليوم، لما لها من أهمية في معالجة القضايا المعاصرة، ووضع القواعد استناداً إلى القرآن والسنة.

إنّ المنهج الإسلامي في حفظ البيئة وسلامتها من التلوث، يرجع في أساسه إلى مقاصد الشريعة في حفظ الضرورات الخمس: (حفظ النفس، حفظ النسل، حفظ المال، حفظ العقل، حفظ الدين) وما يترتب عليها من توفر بيئة نقية لصحة الإنسان وعبادته. فقد وضع القواعد والتشريعات التي تضمن استقرارها وسلامتها، والمحافظة على مواردها المختلفة. إذ أنّ من أعظم مقاصدها المحافظة على البيئة ومكوناتها.

---

[٥٣٣] جامعة تلمسان الجزائر، رئيس اللجنة العلمية لقسم العلوم الإسلامية، مدير مخبر الدراسات الشرعية، رئيس مشروع دكتوراه الدراسات القرآنية والتفسير، ومدير مجلة الاستيعاب للدراسات الشرعية، وعضو رابطة علماء أهل السنة.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية هذه الدراسة في فهم المنهج الإسلامي في المحافظة على البيئة وفي جعله المرتكز الأساس في ذلك، إذ نبحث من خلالها أن يكون لدى الإنسان وعياً بيئياً، وبيان التوجيهات والتعاليم الإسلامية من سوء استغلال البيئة والإخلال بتوازنها وظهور مشكلات عديدة باتت تهدد البشرية وتعرقل مسيرة حركة الحياة على غير ما أمر الله سبحانه وتعالى وتفاقم المشكلات البيئة وتنوعها من تلوث الماء والهواء والتربة والغابات وما صاحبها من اعتداء على طبقة الأوزون، وظهور ظاهرة الاحتباس الحراري بما يهدد المناخ ويعتدي على البيئة في أرضها وسمائها ومائها وما ينجم عنه من كوارث بيئة تعود ضررها على الإنسان.

أهداف الدراسة: كما تسعى هذه الدراسة لتحقيق الأهداف الآتية:

١. بيان منهج الإسلام في معالجة هذه القضية التي أشغلت البشرية، ذلك أن الإسلام قد دعا دعوة صريحة في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، إلى وجوب المحافظة على البيئة، في جميع عناصرها وجعلها، من الواجبات الشرعية، وحرم الإفساد في الأرض بكل صوره.

٢. إبراز دور الإسلام في المحافظة على البيئة والإرشاد إلى المنهج الإسلامي الصحيح الزاخر بالتوجيهات والتشريعات، لنصل إلى بيئة نظيفة وجميلة وخالية من التلوث وإلى بيئة تتمتع بالتوازن البيئي والاستقرار، إذ الانطلاق من هذا المنهج يبعث في النفس حب الالتزام بالمحافظة على البيئة ومكوناتها.

المبحث الأول

معنى البيئة وحمايتها، وأهمية الإهتمام بها في المنهج الإسلامي.

المطلب الأول: مفهوم البيئة وحمايتها من التلوث

مفهوم البيئة:

لغة: تدل كلمة البيئة على النزول والحلول في المكان، ثم أطلقت الكلمة مجازاً على المكان الذي يتخذه الإنسان مستقراً لنزوله وحلوله، أي على: المنزل، والموطن، والموضع. وهي: من باء: أي رجع إليه. فهي مشتقة من الفعل الثلاثي بَوَأَ، ونقول تبوأ المكان أي نزل وأقام به. والبيئة هي المنزل، أو الحال[٥٣٤].

أما في الاصطلاح فهي: الوسط أو المجال المكاني الذي يعيش فيه الإنسان، بما يضم من ظاهرات طبيعية وبشرية يتأثر بها ويؤثر فيها[٥٣٥]. وعرف مؤتمر البيئة، الذي عقد تحت رعاية الأمم المتحدة في استكهولم بالسويد سنة ١٩٧٢م، البيئة بأنها: رصيد الموارد المادية والاجتماعية المتاحة في وقت ما، وفي مكان ما لإشباع حاجات الإنسان وتطلعاته[٥٣٦].

---

[٥٣٤] ابن منظور، لسان العرب،، ج١، ص٣٧.

[٥٣٥] الفقي، **البيئة، مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث (رؤية إسلامية)**، ص١٠.

[٥٣٦] أرناؤوط، **الإنسان وتلوث البيئة**، ص٢٢.

مفهوم الحماية:

لغة: المنع والدفع. يقال: حمى فلانا، أي: منعه ودفع عنه[٥٣٧].

اصطلاحاً: المحافظة على البيئة من كل ما يفسدها أو يضر بها ويمنع تلويثها.

مفهوم التلوث البيئي:

مفهوم التلوث: لغة: مأخوذ من مادة لوث، فقد لثته ولوّثته، ولوث ثيابه بالطين أي لطّخها، ولوث الماء كدّره[٥٣٨].

واصطلاحا: كل تغير كمي أو كيفي في مكونات البيئة الحية وغير الحية، لا تقدر الأنظمة البيئية على استيعابه دون خلل في البيئة ومشكلاتها[٥٣٩]. ونعني بالبيئة الحية (الإنسان والحيوان والنبات)، وغير الحية (الهواء والماء والتربة).

المطلب الثاني: أهمية الاهتمام بالبيئة في المنهج الإسلامي وحكمه الشرعي

أصبحت مشكلة التلوث البيئي (الحية وغير الحية) مشكلة عالمية، يعود أثرها على المجتمعات عامة، فما يحدث في العالم اليوم من حروب، وتلوث، وظهور أمراض عديدة، تدعو بقوة إلى تنظيف البيئة وحمايتها.

ويتميز مفهوم البيئة في الإسلام بشموليته، فهو يضم كل مخلوقات الله من الإنس والجان والبحار والأنهار والجبال والنبات والحيوان والحشرات، وإن هذه المخلوقات سخّرها الله سبحانه وتعالى للإنسان. ولأهمية حماية البيئة، فإنّ مقاصد الشريعة تهدف إلى الحفاظ على صحة الإنسان، وبالتالي فإن أي عمل أو خلل في عناصر البيئة يعود ضرره على صحة الإنسان، يتنافى مع هذه المقاصد، لأن كل ما يضر بالمسلمين وثبت ضرره ثبتت حرمته، فهو مفسد للحياة، والتلوث البيئي يتسبب في حالات كثيرة في إزهاق الأرواح، وقتل الأحياء، ونشر الأوبئة والأمراض التنفسية وأمراض القلب، وسرطان الرئة، إضافة إلى انتشار الأمراض المعدية والفتاكة، وقد شهد العالم ويلات نتجت عن تلوث الهواء، منها تدمير طبقة الأوزون بشكل جزئي، وظاهرة الاحتباس لحراري، التي تهدد المناخ على كرتنا الأرضية، وذلك برفع درجة حرارة جو الأرض، ممّا ينجم عنها آثار لاتحمد عقباها[٥٤٠]. ودرء هذا التلوث واجب شرعي.

إن المتتبع لما جاء في القرآن والسنة النبوية والمتمعن فيهما يجد أن عناصر البيئة المختلفة، قد وردت في نصوص كثيرة، من حيث الدعوة إلى رعايتها وسلامتها، أو التحذير من إفسادها بالإساءة إليها وتلويثها. لأنها وثيقة الصلة بحياة الإنسان واستقراره في جميع شؤون الحياة، مثل المحافظة على الماء وعدم

---

[٥٣٧] مجمع اللغة العربية، **المعجم الوجيز**، ص١٧٣.

[٥٣٨] ابن منظور، **لسان العرب**، ج٢، ص١٨٥.

[٥٣٩] الحميد، **التربية البيئة**، ص١٥٦؛ وعطا الله، **الصحة العامة وحماية البيئة**، ص٦٥١.

[٥٤٠] عطا الله، **الصحة العامة وحماية البيئة**، ص٥٧؛ والحميد، **التربية البيئة**، ص١٤٧.

الإسراف في استخدامه، وعدم تلويثه، والمحافظة على النبات بعدم قطعه إلا للضرورة، وزرعه، والعناية به، والمحافظة على الأشجار، ووجوب رعاية البيئة النباتية. وقد اعتبر الإسلام حماية البيئة ورعايتها مسؤولية الجميع.

وتعد حماية البيئة وصيانة مواردها والحفاظ عليها واجبًا شرعياً، يلزم الفرد المسلم بموجب مسئوليَّته الفرديَّة عن حماية نفسه ومجتمعه وبيئته، فقد شرعت الشريعة الإسلامية القوانين الخاصة بحماية البيئة، من خلال ما تضمنته من أحكام، تتعلق بتحقيق الأمن البيئي، والحفاظ على عناصر البيئة ومكوناتها، وجعلها التزاماً يلتزم به المسلم، ويراقب الله في أدائه، كما حرم الإفساد في الأرض بعد إصلاحها، قال تعالى:

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٧٧].

ونهى النبي ﷺ عن التسبب في وقوع الضرر بالنفس الإنسانية، التي سخرت لها مكونات البيئة، أو إلحاقه بالآخرين، ففي الحديث قوله ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار»[٥٤١]. إسناده صحيح.

ولا شك أن التلوث بكافة صوره ضرر يصيب كل الكائنات الحية، وجاء النهي عنه، والنهي للتحريم، لذا حرم الإضرار بالنفس وبالغير، فتلويث الهواء أو الماء أو غيرهما، بأي نوع من الملوثات الضارة بالبيئة والإنسان، محرم شرعاً لما سبق من أدلة، وسيأتي في باب تحريم الإفساد في الأرض.

ويلزم الشرع الجهة التي قامت بالتلويث تعويض ذلك الضرر، وضمان المتلفات من الأنفس والأموال، التي كان ذلك التلوث سبباً في إتلافها، وعلى الحاكم تطبيق العقوبات الرادعة على محدثي التلوث[٥٤٢]. وقد صدر قرار رقم ١٨٥ (١٩/١١) عن مجلس مجمع الفقه الإسلامي الدولي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي المنعقد في دورته التاسعة عشرة في إمارة الشارقة (دولة الإمارات العربية المتحدة) جمادى الأولى ١٤٣٠هـ، نيسان ٢٠٠٩م بشأن البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي بما يلي:

١) تحريم إلقاء أية نفايات ضارة على أي بقعة من بقاع العالم وإلزام الدول المنتجة لهذه النفايات بالتصرف بها في بلادها وعلى نحو لا يضر بالبيئة.

٢) تحريم كافة الأفعال والتصرفات التي تحمل أية أضرار بالبيئة أو إساءة إليها مثل الأفعال والتصرفات التي تؤدي إلى اختلال التوازن البيئي، أو تستهدف الموارد أو تستخدمها استخداماً جائراً لا يراعي مصالح الأجيال المستقبلية، عملاً بالقواعد الشرعية الخاصة بضرورة إزالة الضرر.

---

[٥٤١] أخرجه ابن ماجه في **سننه**، ج٢، ص٧٨٤، رقم٢٣٤٠؛ وأحمد في **مسنده**، ج١، ص٣١٤؛ ومالك في **الموطأ**، ج٢، ص٧٤٥، رقم١٤٢٩؛ والحاكم في **المستدرك**، ج٢، ص٦٦، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد على شرط مسلم ولم يخرجاه.

[٥٤٢] السحيباني، **أحكام البيئة في الفقه الإسلامي**، ص٢٩٥.

٣) وجوب نزع أسلحة الدمار الشامل على مستوى جميع الدول، وحظر كل ما يؤدي إلى تسرب غازات تساعد في توسيع ثقب طبقة الأوزون وتلويث البيئة، استناداً إلى القواعد اليقينية الخاصة بمنع الضرر.

ومن هنا، فإن حماية البيئة واجب شرعي، والإفساد في الأرض محرم شرعاً، و التلوث يؤدي إلى المفاسد والمضار المحرمة.

المبحث الثاني

المنهج الإسلامي في الحفاظ على البيئة وحمايتها

إنَّ المتتبع والدارس والمتمعن لما جاء في المنهج الإسلامي يجد أن عناصر البيئة المختلفة، قد وردت في نصوص كثيرة من حيث الدعوة إلى رعايتها وسلامتها، والتحذير من إفسادها بالإساءة إليها وتلويثها. فهي حياة الإنسان واستقراره في جميع شؤون حياته، وقد وردت هذه النصوص بوسائل متعددة يتضح من خلالها المنهج الإسلامي. وقد اعتبر الإسلام حماية البيئة ورعايتها بجميع مكوناتها مسؤولية مشتركة بين أفراد المجتمع، ومن استقراء الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تتناول موضوع البيئة والمحافظة عليها نجد المئات من النصوص التي يمكننا بها تحديد المعالم الكبرى للمنهج الإسلامي للبيئة، ومنها: أن الله وحده هو خالق البيئة ومنظمها، وأنَّ هذه البيئة متوازنة ومقدرة ومنسجمة في كيفها وكمها مع بعضها، وهي في أصل وجودها خير كلها. فوضع المنهج الإسلامي الضوابط الشرعية لحماية البيئة، والمحافظة عليها، من خلال المطالب التالية:

المطلب الأول: التذكير بنعم الله واستخلاف الإنسان في الأرض.

إن الله خلق الإنسان وجعله خليفة له في أرضه، فكرمه، وسخر ما في الكون له، وأنعم عليه بنعم وخيرات لا تعد ولا تحصى، وأمره بالمحافظة على هذه النعم والخيرات، إذ بشكر الله عليها تدوم، ومن أهمها: البيئة النظيفة الخالية من التلوث، التي تتطلب المحافظة عليها ليحيا الإنسان حياة طيبة، ويستثمر خيراتها، ويسعد بها ولا يشقى. **إن** القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة قد أوليا اهتماماً كبيراً للبيئة في جميع حالاتها: حية، وجامدة، وأرشدا الإنسان إلى المحافظة عليها، باعتبارها نعماً إلهية، وحذرا من سوء استغلالها، ودعيا إلى الانتفاع بها، والتمتع بطيباتها في حدود الحاجة، وذكر بنعيمها. قال تعالى: ﴿ألَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً﴾ [لقمان:٢٠]، ومن هذه النعم قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنْ الْعُيُونِ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [نوح:١٩].

ومظاهر التسخير وردت في القرآن الكريم في آيات عديدة، منها قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ* وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ* وَآتَاكُم

مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم:٣٢-٣٤] وبالتالي فإن القرآن وضح مسئولية استثمار البيئة وحمايتها وأنها تقع على عاتق الإنسان.

المطلب الثاني: الربط بين الإيمان والعبادة، وسلامة البيئة.

اهتم الإسلام بالبيئة بكل مجالاتها، وجعل حمايتها عبادة وقربى وربط ذلك بالعقيدة ربط المنهج الإسلامي بين عقيدة الإنسان، وتعاليم البيئة، فأصبحت دينا يتقرب به الإنسان إلى خالقه الذي أنعم عليه هذه النعم. وربط ذلك لما له أثر واضح في حياة الفرد وسلوكه، كما اقترنت النظافة والطهارة بالإيمان والعبادة. فالعبادة بمعناها الشامل لا تقتصر فقط على مجرد أداء الشعائر الدينية الروحية من صلاة وزكاة ونحوها، بل حماية البيئة عبادة وقربى، فحسن استغلال البيئة عبادة، والمحافظة عليها وصيانتها، لتستمر إلى ما شاء الله، تنتفع بها البشرية كافة، حتى يرث الله الأرض ومن عليها، عبادة، وإماطة الأذى عن الطريق عبادة وعدم تلويث الماء والهواء عبادة[٥٤٣].

إنّ حماية البيئة في الشريعة الإسلامية أمانة ومسئولية يتطلبها الإيمان، وتقتضيها عقيدة الاستخلاف في الأرض، وإذا كان من ثمرات الإيمان الصادق وآثاره، الإخبات لله تعالي وإخلاص العبادة إليه، فإن من ثمراته أيضاً، القيام بالتكاليف الشرعية، كما أمر الله تعالى فبرعاية البيئة والمحافظة عليها، كما خلقها الله رحمة بالمخلوقات[٥٤٤]. وفي الحديث عن أبي ذرﷺ عن النبي ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتِي، حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا، فَوَجَدْتُ فِي مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا الأَذَى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ، وَوَجَدْتُ فِي مَسَاوِئِ أَعْمَالِهَا النُّخَاعَةَ تَكُونُ فِي الْمَسْجِدِ لاَ تُدْفَنُ»[٥٤٥]. وكلمة الأذى عامة، وعليه فكل ما يؤذي الناس في صحتهم ي، دخل في مفهوم الذي يؤمر المسلم بإزالته والتخلص منه. قال الإمام النووي النووي رحمه الله، "هذه الأحاديث المذكورة في الباب ظاهرة في فضل إزالة الأذى عن الطري، سواء كان الأذى شجرة تؤذي، أو غصن شوك، أو حجرا يعثر به، أو وغير ذلك، وإماطة الأذى عن الطريق من شعب الإيمان فنظافة الثوب والبدن والمكان من علامات الإيمان"[٥٤٦]. فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»[٥٤٧]. كما أن الإحسان إلى البيئة وإماطة الأذى سبب في دخول الجنة، وقد أوضحت السنة النبوية ذلك. فعن المستنير بن أخضر قال: حدثني معاوية بن قرة قال: كنت مع معقل المزني، فأماط أذى عن الطريق، فرأيت شيئا، فبادرته، فقال: ما حملك على ما صنعت يا ابن أخي؟ قال:

---

[٥٤٣] باقادر، **دراسة عن حماية البيئة في الإسلام**.

[٥٤٤] مرسي، **الإسلام والبيئة**، ص٦٤ .

[٥٤٥] أخرجه مسلم في **صحيح مسلم بشرح النووي**، ج١، ص٣٨٨، رقم٥٥٣.

[٥٤٦] النووي **صحيح مسلم بشرح النووي**، ج١، ص٢١٨.

[٥٤٧] أخرجه مسلم في **صحيح مسلم بشرح النووي**، ج١، ص٦٣، رقم٥٨.

رأيتك تصنع شيئا فصنعته. فقال: أحسنت يا ابن أخي! سمعت النبي ﷺ يقول: «من أماط أذى عن طريق المسلمين كتبت له حسنة، ومن تقبلت له حسنة دخل الجنة»[٥٤٨].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: ومعنى كون الإماطة صدقة، أنه سبب في سلامة من يمر بأذى، فكأنه تصدق عليه بذلك فحصل له أجر الصدقة[٥٤٩].

فالعناية بالطريق، وإماطة الأذى بكل أشكاله، من ضرورات الإيمان، كما أن وضع الأذى في الطريق، وتلوث البيئة، أمر يتعارض مع عقيدة الإنسان، ويدلل على عدم اكتمال إيمانه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلاً يَتَقَلَّبُ فِي الْجَنَّةِ، فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظَهْرِ الطَّرِيقِ كانت تؤذي الناس»[٥٥٠]. وفي الحديث بيان وجوب الابتعاد عن إيذاء الناس في طرقاتهم، وجزاء إزالته عند الله، مهما كانت نوعية المزال. فالإحسان إلى البيئة، فيه الفوز والنجاة ودخول الجنة، والإساءة إليها، فيها دخول النار. فالله توعد من لا يتطهر ولا يتنظف ولا يتنزه من بوله ففي حديث ابن عباس رضي الله عنه مر النبي ﷺ بقبرين فقال: «إنهما ليعذبان، وما يعذبان في كبير: أما أحدهما فكان لايستنزه من بوله، وأمّا الآخر فكان يمشي بالنميمة»[٥٥١]، كما جعل الاعتناء بالنظافة سبباً في الرحمة ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه «أن امرأة سوداء كانت تقم المسجد (تنظفه) ففقدها رسول الله ﷺ فسأل عنها بعد أيام فقيل له: إنها ماتت، فقال: هلا آذنتموني؟ فأتى قبرها، فصلى عليها»[٥٥٢]، إسناده حسن. وفي حديث أنس قوله ﷺ: «البصق على الأرض خطيئة وكفارتها دفنها»[٥٥٣].

لقد جاء المنهج الإسلامي في الحفاظ على البيئة، بربطها بعقيدة وعبادة الإنسان، من أجل أن تجعل الجزاء الأخروي دافعاً وباعثاً للنفس الإنسانية على الاستجابة، إذ له أثر كبير على تنفيذ التوجيهات والمبادئ المتعلقة بحماية البيئة.

المطلب الثالث: تحريم الإفساد في الأرض والاعتداء على البيئة.

وردت آيات في كتاب الله تدعو إلى المحافظة على عناصر البيئة وصيانتها، وتبين أن أسباب فساد البيئة ترجع إلى الإنسان نفسه، وإلى تصرفاته وسلوكاته السلبية، وأن أضرار إفسادها تعود على الإنسان. وجاء النهي عن فسادها، قال تعالى: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وأدعوه خوفا وطمعا إن

---

[٥٤٨] أخرجه البخاري في **الأدب المفرد**، ص٣٠٦، رقم٥٩٣؛ والطبراني في **المعجم الكبير**، ج٢٠، ص٢١٦، رقم٥٠٢.

[٥٤٩] ابن حجر، **فتح الباري**، ج٥، ص١١٤.

[٥٥٠] أخرجه مسلم في **صحيح مسلم بشرح النووي**، ج٤، ص٢٠٢١، رقم١٩١٤.

[٥٥١] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج١، ص٣٨٥، رقم٢١٨.

[٥٥٢] أخرجه ابن ماجة في **سننه**، ج١، ص٤٨٥، رقم١٠٢٧.

[٥٥٣] أخرجه مسلم في **صحيح مسلم بشرح النووي**، ج١، ص٣٩٠، رقم٥٥٢.

رحمة الله قريب من المحسنين﴾ [الأعراف:٥٦]، كما بين سبحانه أن الاعتداء على البيئة بما تكسبه أيدي الناس. قال تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾ [الروم:٤١]. ولعل هذا اللفظ الإفساد يدل دلالة واضحة قوية، فهو ابلغ من لفظ التلوث، وأعم، وأقدر على المواجهة، وقد حرصت نصوص الشريعة الإسلامية من القرآن الكريم والسنة النبوية، على العناية والمحافظة عليها، وجعلت ذلك من الإيمان بالله سبحانه وتعالى، لأنَّ البيئة مسخرة للإنسان، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥]. وهكذا نرى أن الله تعالى يعبر عن تلوث البيئة بالفساد، وهي كلمة عامة وشاملة. وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُون﴾ [يونس:٢٣].

وعبر القرآن بلفظ الفساد في الأرض عمّا يصيبها من تلوث وخلل، والفساد في الآيات القرآنية له معان واسعة، حيث يشمل كلَّ اضطراب وخلل يَدْخُل على الشيء فيغيِّر من خواصِّه وطبيعته، ويجعله غيرَ صالح لأداء وظيفته التي خُلق لها، ومِنْ ثَمَّ يكون الفساد شاملاً لكلِّ أنواع التعدِّي على البيئة بكل قطاعاتها المائيَّة والجوِّيَّة والبرِّيَّة[٥٥٤].

فهذه الآيات الكريمة والأحاديث النبوية التي ستأتي في ثنايا البحث قد ربطت ربطاً محكماً بين الإنسان، وسلوكاته وتصرفاته، وبين الأرض إصلاحاً، أو إفساداً، فالمشكلات البيئية لا تعرف الحدود والحواجز فهي قادرة على اختراق الحدود والحواجز، كالتلوث الحاصل للهواء وللماء، وجاء التعبير عنه في الآية ظهر الفساد في البر والبحر. وللفساد صور وأشكال، تكون بإهلاك عناصر البيئة الطبيعية إهلاكا عبثياً، وبتلويث البيئة بما يقذف فيها من عناصر مسمومة، أو تدميرها، أو الإساءة بالإسراف في استخدام عناصرها، والقرآن الكريم قد حذر من الإساءة إلى البيئة والعبث فيها، وحرم ذلك بأي شكل من الأشكال، كما وردت أحاديث فيها بيان وتأكيد عن أن يعتدى على مكونات البيئة، حتى في حالة الحرب، كما يستحق الإنسان اللعن باعتدائه على عناصر البيئة المتنوعة. ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه «قوله صلى الله عليه وسلم: اتقوا اللعانين. قالوا: وما اللعانان يا رسول الله؟ قال: الذي يتخلى في طريق الناس أو في ظلهم»[٥٥٥]. ومعناه: اجتنبوا الأفعالَ التي تُسبِّب لعنَ الناس لفاعلها وسبِّهم له؛ لأنها سبب في ظهور المكاره الصحية وانتشار الأمراض والأوبئة.

---

[٥٥٤] عطية، **مواجهة الإسلام للتحديات المتصلة بالبيئة**، ص٢٠.

[٥٥٥] أخرجه مسلم في **صحيحه**،ج١، ص٢٢٦، رقم٢١٩؛ وأبو داود في **سننه**، ج١، ص٧، رقم٢٥.

وفي حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه . قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اتقوا الملاعن الثلاثة: البَراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل»[٥٥٦]. وله شاهد من رواية ابن عباس: «اتقوا الملاعن الثلاث. قيل: ما الملاعن يا رسول الله؟ قال: أن يقعد أحدكم في ظل يستظل فيه، أو في طريق، أو في نقعِ ماء»[٥٥٧]. والحديث بمجموع طرقه يرتقي إلى درجة الحديث الحسن.

و"الملاعن": جمع ملعنة، وهي مواضع اللعن. وهما الأمران الجالبان للعن، الموارد: المجاري، والطرق إلى الماء، واحدها مورد، يقال: وردت الماء إذا حضرته لتشرب. والورد: الماء الذي ترد عليه[٥٥٨]. "وقارعة الطريق": أي الطريقة التي يقرعها الناس بأرجلهم ونعالهم، أي يدقونها ويمرون عليها. وهي وسط الطريق. "والظل": أي ظل الشجرة وغيرها[٥٥٩].

والحديث برواياته وطرقه وشواهده يدل على تحريم قضاء الحاجة في موارد المياه، أو طرق الناس، أو ظلهم، لما فيه من إيذاء المسلمين بتنجيس من يمر واستقذاره[٥٦٠]. فإذا كان من يؤذي الناس في تبوله وتغوطه، يوجب له اللعن بهذا الفعل، فكيف بمن يحاول أن يتسبب في رمي النفايات السامة والقاذروات وغيرها في البيئة، وهذه أدلة واضحة على تحريم الاعتداء على عناصر البيئة بكل أشكالها.

وفي دراسة الأحاديث المتقدمة نرى أنها ذكرت الظل، والبراز، فالظل يشمل ما ينزل به الإنسان من أجل الراحة والتنزه، كالحدائق والغابات، وهي تحتاج إلى نظافة دائمة لكثرة من يرتاد هذه الأماكن، ويقاس على ذلك كل ما يلقى في الأماكن العامة من قاذورات وأوساخ تلوث البيئة.

وعن حذيفة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من آذى المسلمين في طرقهم، وجبت عليه لعنتهم»[٥٦١]. إسناده حسن. وقد نصت السنة الشريفة على لعن كل من لم يتورع عن الإساءة إلى نظافة الطرقات والمجالس، وإنما استحق اللعنة، لأن من عادة الناس لعن وشتم كل متسبب في إذائهم بنتنه واستقذاره ويؤدي إلى لعنه[٥٦٢].

---

[٥٥٦] أخرجه أبو داود في **سننه**، ج١، ص٧، رقم٢٦؛ وابن ماجة في **سننه**، ج١، ص١١٨، رقم٣٢٨؛ والحاكم في **المستدرك**، ج٢، ص٢٣٧، ثم قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وأقره الذهبي في التلخيص.

[٥٥٧] أخرجه أحمد في **مسنده**، ج١، ص٢٩٩.

[٥٥٨] ابن منظور، **لسان العرب**، ج٣، ص٤٥٦.

[٥٥٩] العظيم آبادي، **عون المعبود في شرح سنن أبي داود**، ج١، ص٤٦ .

[٥٦٠] المصدر السابق، ج١، ص١٣.

[٥٦١] أخرجه الطبراني في **المعجم الكبير**، ج٣، ص١٧٩، رقم٣٠٥٠.

[٥٦٢] الصنعاني، **سبل السلام**، ج١، ص٧٥.

وروى أبو هريرة رضي الله عنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم، ثم يغتسل منه»، وفي رواية بلفظ «الماء الذي لا يجري»[٥٦٣]. وذكر العلماء أن سبب تحريم البول في الماء الراكد، لأنه ينجسه، ويتلف مائيته، ويغرّ غيره باستعماله[٥٦٤]. كما ورد النهي عن أن يبال في الماء الجاري ففي حديث جابر قال: «نهى رسول الله أن يبال في الماء الجاري»[٥٦٥].

وورد التحريم بالاعتداء على عناصر البيئة حتى في حالة الحرب، فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «كان نبي الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث جيشاً من المسلمين إلى المشركين، قال: انطلقوا باسم الله... وفيه: ولا تقتلوا وليدا طفلا، ولا امرأة، ولا شيخا كبيرا، ولا تغورن عينا، ولا تعقرن شجرة، إلا شجراً يمنعكم قتالا أو يحجز بينكم وبين المشركين، ولا تمثلوا بآدمي ولا بهيمة، ولا تغدروا ولا تغلو»[٥٦٦]. وله شاهد من حديث بريدة رضي الله عنها[٥٦٧]، وله شاهد آخر أيضا من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه[٥٦٨]. إسناده حسن لغيره بالمتابعات والشواهد. كما أوصى أبو بكر الصديق رضي الله عنه قائد جيشه إلى الشام بمثله[٥٦٩].

وعلى هذا سار المسلمون في فتوحاتهم في تحريم الاعتداء على عناصر البيئة. وحرم الاعتداء على البيئة النباتية من خلال النهي عن قطع شجرة السدر. فعن عبد الله بن حُبشي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار». وقد سئل أبو داود عن معنى هذا الحديث فقال: من قطع سدرة في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم، عبثا وظلما، بغير حق يكون له فيها، صوّب الله رأسه في النار[٥٧٠]. ولشجر السدر من الفوائد البيئية الكثيرة، يعيش في الصحارى ويتحمل العطش والحر، وبيه يستظل الناس، والاعتداء على مثل ذلك، اعتداء على الإنسان، وما ينتفع به من البيئة. وكتب ابن قيم الجوزية في كتابه الطب النبوي، فصلاً عن الأوبئة التي تنتشر بسبب التلوث الهوائي، والاحتراس منها، أنّ فساد الهواء جزء من أجزاء السبب التام والعلة الفاعلة

---

[٥٦٣] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الوضوء، باب البول في الماء الدائم، رقم٢٣٢، وكتاب الغسل، باب البول في الماء الدائم، رقم٢٣٦؛ ومسلم في **صحيحه**، ج١، ص٢٣٥؛ وأبو داود في **سننه**، كتاب الطهارة، باب البول في الماء الراكد، رقم٦٣.

[٥٦٤] **شرح النووي على مسلم**، ج٣، ص١٨٨.

[٥٦٥] أخرجه ابن ماجه في **سننه**، ج١، ص١٤٧.

[٥٦٦] أخرجه البيهقي في **السنن الكبرى**، ج٩، ص٩٠.

[٥٦٧] أخرجه الطبراني في **المعجم الأوسط**، رقم١٣٥، بإسناد ضعيف.

[٥٦٨] شكور، **الروض الداني إلى المعجم الصغير**، ص٣١١.

[٥٦٩] أخرجه مالك في **الموطأ**، ج٤، ص٤٤٧، رقم٩٦٥.

[٥٧٠] أخرجه أبو داود في **سننه، ج٤**، ص١٤١، رقم٥٢٣٩ .

للطاعون، وأنّ فساد جوهر الهواء هو الموجب لحدوث الوباء، وفساده يكون لاستحالة جوهره إلى الرداءة[٥٧١].

المطلب الرابع: الدعوة إلى النظافة والطهارة بجميع أشكالها.

حثُّ الإسلام على الطهارة والنظافة وجعلها شرطا لصحة العبادة، من صلاة وطواف، وقد اقترنت النظافة والطهارة في الإسلام بالإيمان، واعتبر التلوث نجاسة، فالطهور شطر الإيمان، وجعل الطهارة سبباً لمحبة الله تعالى، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢].

وفي المنهج الإسلامي وجوب المحافظة على البيئة، لتكون نظيفة طاهرة من كل تلوث وإفساد، ولو تتبعنا الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، لوجدنا النصوص الكثيرة الداعية إلى النظافة والطهارة في المكان والإنسان، فطهارة الثياب ونظافة المكان شرطان لقبول العبادة، وأنعم الله علينا بنعمة الماء, وجعلها وسيلة للطهارة قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورا﴾. وقد ورد لفظ "طهر" ومشتقاته في القرآن الكريم أكثر من ثلاثين مرة، وذلك بما شرع الله من أحكام متعلقة بصيانة البيئة من التلوث ما يوجب على الإنسان الطهارة في حياته كلها، ابتداءً من طهارة الجسم إلى طهارة الثوب والآنية والمنزل والأواني والأثاث، وانتهاء بطهارة الشارع والحي والأماكن العامة وكل عناصر البيئة. بل إن من أوائل ما نزل على قلب النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر:٤]. وفي الحديث عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ قال: «إن الله جميل يحب الجمال»[٥٧٢].

فالأمر بالنظافة والترغيب فيها، واضح في شريعة الله، لا يمكن حصرها في مثل هذه الجزيئة، إذ فيها سلامة الإنسان من الأمراض والأسقام، فعن نظافة الجسد عن أبي هريرة رضي ﷺ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خمس من الفطرة الختان[٥٧٣] والاستحداد[٥٧٤]، ونتف الإبط، وتقليم الأظافر، وقص الشارب»[٥٧٥].

وفي الحث على النظافة العامة، من الروائح الكريهة التي تؤذي الآخرين، حديث عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: «كان الناس ينتابون الجمعة من منازلهم من العوالي، فيأتون في العباء، ويصيبهم الغبار، فتخرج منهم الريح، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم إنسان منهم، وهو عندي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لو أنكم تطهرتم ليومكم هذا، وفي رواية: لو اغتسلتم يوم الجمعة»[٥٧٦]. وعن ابْن

---

[٥٧١] ابن قيم الجوزية، **الطب النبوي**، ج١، ص١٢٣.

[٥٧٢] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج١، ص٩٣، رقم١٤٧.

[٥٧٣] قطع قلفة الذكر وهي القطعة التي تكون على أعلى الذكر عند الولاة. ابن منظور، **لسان العرب**، ج١٣، ص ١٣٧.

[٥٧٤] حلق شعر العانة وهو الشعر الذي يكون حول الذكر أو الفرج. ابن منظور، **لسان العرب**، ج٣، ص١٤٠.

[٥٧٥] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج١، ص٣٤٧، رقم٥٨٨٩؛ ومسلم في **صحيحه**، ج١، ص٢٢١، رقم٢٥٧.

[٥٧٦] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٢، ص٤٤٧، رقم٨٦٠؛ ومسلم في **صحيحه**، ج٢، ص٥٨١، رقم٨٤٧.

عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قَالَ: «مَنْ أَكَلَ مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ – يَعْنِي الثُّومَ – فَلاَ يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا»[٥٧٧]، وفي حديث جابر رضي الله عنه في رواية: «من أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزلنا أو ليعتزل مسجدنا وليقعد في بيته»[٥٧٨].

قال الإمام النووي: "يستفاد من هذه النازلة، أنه يستحب لمن قصد المسجد أن يجتنب . ما استطاع . الروائح الكريهة في بدنه وثوبه، وهو ما ينطبق، أيضا على كل من يريد مجالسة الناس، فإنه يتنزل منزلة من أراد المسجد"[٥٧٩].

فهذه أحاديث تبين أهمية حماية البيئة من التلوث بالروائح الكريهة، لذا فالحفاظ على البيئة واجب ديني على كل فرد، كما أنه واجب اجتماعي عام يقوم به كل إنسان، حتى لو جلس في بيته وترك صلاة الجماعة. ويقاس على ذلك جميع الروائح الكريهة التي تؤذي الناس في مجالسهم العامة.

وورد الأمر بنظافة الأواني وتغطيتها وتخميرها وإيكاء السقاء منعاً من تلوثها بالجراثيم المسببة للإمراض والنهي عن اختناث الأسقية. ففي الأحاديث النبوية الأمر بتغطية الأواني وشدها وتخميرها، حتى لا يقع فيها بلاء أو وباء، فيلوثها، فقد وردت بروايات مختلفة تبين وجوب الغطاء وأهمية نظافة الطعام والشراب، والأدوات الشخصية، ففي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «غطوا الإناء، وأوكوا السقاء، وأغلقوا الباب، وأطفئوا السراج، فإن الشيطان لا يحل سقاء، ولا يفتح بابا، ولا يكشف إناء، فإن لم يجد أحدكم، إلا أن يعرض على إنائه عودا، ويذكر اسم الله فليفعل، فإن الفويسقة تضرم على أهل البيت بيتهم»[٥٨٠]، وفي رواية عند مسلم: «فإن في السنة ليلة ينزل فيها وباء، لا يمر بإناء ليس عليه غطاء، أو سقاء ليس عليه وكاء، إلا نزل فيه من ذلك الوباء»[٥٨١]؛ وهذا التعليل منه صلى الله عليه وسلم يشعر بأنّ شرعية التخمير والإيكاء للوقاية من التلوث الذي من شأنه أن يتسبب في الوباء[٥٨٢].

وبين الإمام النووي ما قاله العلماء قي فوائد الأمر بالتغطية، منها: الفائدتان اللتان وردتا في هذه الأحاديث، وهما صيانته من الشيطان، فإن الشيطان لا يكشف غطاء، ولا يحل سقاء؛ وصيانته من الوباء الذي ينزل في ليلة في السنة؛ والفائدة الثالثة، صيانته من النجاسة والقذارة؛ والرابعة صيانته من الحشرات والهوام؛ فربما وقع شيء منها فيه فشربه وهو غافل، أو في الليل فيتضرر به، والله أعلم[٥٨٣].

---

[٥٧٧] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٢، ص٣٩٤، رقم٨٥٣.

[٥٧٨] المصدر السابق، رقم٨٥٤؛ ومسلم في **صحيحه**، ج١، ص٣٩٤، رقم٥٦٤.

[٥٧٩] النووي، **شرح النووي على صحيح مسلم**، ج٦، ص١٣٤.

[٥٨٠] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج١٠، ص٩١، رقم٥٦٢٣؛ ومسلم في **صحيحه**، ج٣، ص١٥٩٤، رقم٢٠١٢.

[٥٨١] أخرجه مسلم، المصدر السابق، رقم٢٠١٤.

[٥٨٢] الشوكاني، **نيل الأوطار**، ج١، ص٨٥.

[٥٨٣] النووي، شرح النووي على مسلم، ج١٣، ص١٨٣.

وورد النهي عن التنفس في الآنية، والنفخ فيها، والشرب من باب الإناء: ففي الحديث عن النبي ﷺ: «إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء، وإذا بال أحدكم فلا يمسح ذكره بيمينه، وإذا تمسح أحدكم فلا يتمسح بيمينه»[٥٨٤]؛ وفي رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن النفخ في الشّرب، فقال رجل: القذاة أرها في الإناء؟ قال: أهرقها، قال: فأني لا أروى من نفس واحد؟ قال: فأبن القدح إذن عن فيك[٥٨٥]. قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

فدلالة الأحاديث على مدى تأثير مثل هذه الأعمال في صحة الإنسان وبيئته.

كما جاء الأمر بالنظافة في جميع أشكالها خوفاً من التلوث، من خلال الدعوة إلى نظافة الأماكن العامة، والحث على تجميل البيئة ونظافة ما بها من طرق وساحات عامة.

وعن عائشة رضي الله عنها: «أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ببناء المساجد في الدور، وأن تنظف وتطيب»[٥٨٦]، إسناده صحيح.

وهذا الخطاب يدل بمنطوقه ومفهومه على أن السلامة الصحية تقتضي الحرص على إيجاد الساحات بين المباني السكنية، والعمل على حماية نظافتها، ومن ثمة فإن أمة القرآن والسنة ينبغي أن تكون أمة النظافة والطهارة، طهارة تعم جميع الأرجاء بما في ذلكم الأحياء السكنية، والفضاءات التجارية، وحدائق التنزه، والشواطئ، والطرقات، وغيرها، فمدينة مزروعة الشوارع بالأشجار المظلة، ومزروعة الممرات بالأزهار ذات الروائح الطيبة، مدينة اجتماعية بمسطحاتها الخضراء، مدينة صحية بروائحها العطرة... وقد دلت الدراسات البيئية المعاصرة على أن تنسيق الأفنية الداخلية في المساكن والمباني العامة، والعناية بالمجال الأخضر وسط المباني السكنية إجراء، وقائي فعال لتنقية الهواء من التلوث... وهو إجراء كفيل بأن يسهم في تيسير سبل التواصل السعيد بين الناس، وإيجاد التقارب الإيجابي بينهم[٥٨٧].

وللحث على النظافة والطهارة والتأكيد على أهميتها جعلته السنة النبوية من باب شكر الله على ما أنعم به من نعم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كلُّ سُلامَى من الناس عليه صدقة، كلّ يوم تطلُع فيه الشمس، قال: تعدل بين الاثنين صدقة، وتعين الرجل في دابته، فتحمله عليها، أو ترفع له عليها متاعه صدقة. قال: والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة تمشيها إلى الصلاة صدقة، وتميط الأذى عن الطريق صدقة»[٥٨٨]، وله شاهد من حديث عائشة بالفاظ متقاربة[٥٨٩]. إضافة إلى الأحاديث المتقدمة في إماطة الأذى وغيره.

---

[٥٨٤] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج١٠، ص٩٥، رقم٥٦٣٠.

[٥٨٥] أخرجه الترمذي في **سننه**، ج٤، ص٣٠٤، رقم١٨٧٨.

[٥٨٦] أخرجه الترمذي في **سننه**، ج٢، ص٤٨٩، رقم٥٩٤؛ وأبو داود في **سننه**، ج١، ص١٢٤، رقم٤٥٥؛ وأحمد في **مسنده**، ج٦، ص٢٧٩.

[٥٨٧] الفقي، **العمارة الإسلامية والبيئة للمهندس**، ص٢١٠.

[٥٨٨] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٣، ص١٠٠، رقم٢٨٩١؛ ومسلم في **صحيحه**، ج٢، ص٦٩٩، رقم١٠٠٩.

المطلب الخامس: إرساء قواعد الطب الوقائي منهجاً للوقاية من الفساد البيئي.

فقد جعل الإسلام من وسائل المحافظة على البيئة، الوقاية من الفساد البيئي، من خلال الحث على النظافة بجميع أشكالها وتحريم الاعتداء عليها، كما سبق في المطلبين السابقين، ويضاف إلى ذلك تشريع الحجر الصحي من خلال إرساء قواعد الطب الوقائي الذي يعد مهماً في حماية النفس، وحماية البيئة، ويعرف الطب الوقائي: بأنه: "العلم المتعلق بمنع انتشار الأمراض وتعزيز الصحة النفسية والجسمية عند الأفراد والجماعات"[٥٩٠].

وفي الحديث النهي عن مخالطة الإنسان السليم لإنسان مريض بمرض معدٍ، وذلك درءا للضرر الذي قد يلحق الإنسان السليم من المريض. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يوردن ممرض على مصح»[٥٩١]، وعن إبراهيم بن سعد قال: سمعت أسامة بن زيد رضي الله عنه يحدث سعدا عن النبي ﷺ قال: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها»[٥٩٢].

فإذا كان هذا هو الحال في منع مخالطة المريض للسليم حتى لا ينقل المرض، فكيف بمن يحاول نقل الأمراض الجرثومية من مكان إلى مكان، أو نقل فيروس مرض معين كالإيدز مثلاً، أو نشر تلوث أو دفن إشعاع نووي في أرض غيره، فإذا كان الأمر بالحجر الصحي على المرض من خروج مريض من أرض المرض، أو دخول سليم إلى أرض المرض محرم، فماذا نقول عن نقل السموم والتلوث الكيمائي والميكروبي الذي تستخدمه الحضارة الحديثة، بعيدة عن القيم والمعاني الإنسانية، في بغيها وعدوانها على الأمم والحضارات الأخرى.

وتعود أهمية الحجر الصحي في كونها من أهم وسائل محاربة الأمراض المعدية و منع انتشارها. وقد صنف الحافظ ابن حجر كتاباً سماه "بذل الماعون في فضل الطاعون" ذكر أحاديث كثيرة حول هذا الموضوع، منها هذا الحديث[٥٩٣].

يظهر بجلاء أن الأحاديث النبوية قد حددت مبادئ الحجر الصحي كأوضح ما يكون التحديد، فهي تمنع الناس من الدخول إلى البلدة المصابة بالطاعون مثلاً، كما أنها تمنع أهل تلك البلدة من الخروج منها[٥٩٤].

---

[٥٨٩] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج٢، ص٦٩٨، رقم١٠٠٧.

[٥٩٠] القضاة، **تفوق الطب الوقائي في الإسلام**، ص١٣-١٤.

[٥٩١] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج١٠، ص٢٥٤، رقم٥٧٥٦؛ ومسلم في **صحيحه**، ج٧، ص٣٨٤، رقم٢٢٢١.

[٥٩٢] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج١٠، ص١٨٩، رقم٥٧٢٨.

[٥٩٣] ابن حجر، بذل الماعون في فضل الطاعون، ص٢٤٧.

[٥٩٤] على البار، **العدوى بين الطب وحديث المصطفى**، ص١٠٠.

المطلب السابع: الأمر بالعناية بالزراعة (جمال الطبيعة) والترهيب من إتلاف النبات.

جاءت الشريعة الإسلامية بالأمر والدعوة إلى الاهتمام والعناية بجمال البيئة وزرعتها وتخضيرها وتشجيرها، والترغيب في إحياء الأرض الميتة والترغيب في الغرس عموما والترهيب من إتلاف الغرس، وتحريم الاعتداء عليها حتى في الحرب.

ففي آيات القرآن الحديث عن الحدائق والبساتين والأشجار الكثيفة وأصناف الأشجار المتنوعة التي هي مهمة للإنسان، تدخل إلى قلبه السرور والبهجة من الحدائق ذات، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل:٦٠]، وقال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج:٥].

واهتمت السنة النبوية بالبيئة وعناصرها، فقد وردت أحاديث تأمر المسلم الاهتمام بأمر البيئة كغرس الأشجار والزرع وحمايتها، وعدم قطعها لغير مصلحة عامة، والدعوة إلى إحياء الأرض الموات. وقد ربط الغرس والزرع بالأجر من الله والصدقة الجارية. وللتشجير والغرس دور مهم في توازن الغازات في الفضاء، فهي تقوم على عملية امتصاص غاز ثاني أكسيد الكربون من الجو خلال عملية التمثيل الضوئي. وتنعكس إيجاباً على نشاط الإنسان والحيوان، وعلى مقاومة الإنسان للأمراض.

ففي حديث أنس رضي الله عنه قوله صلى الله عليه وسلم: «ما من مسلم يغرس غرساً، أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير، أو إنسان، أو بهيمة إلا كان له به صدقة»[٥٩٥]. قال ابن حجر: "فيه فضل الغرس والزرع والحض على عمارة الأرض، وأجر الزارع يستمر، ما دام الغرس أو الزرع مأكولاً منه، ولو مات زارعه، أو غارسه، ولو انتقل ملكه إلى غيره"[٥٩٦].

وفي الدعوة إلى إحياء الأرض الموات، وهي الأرض التي لا يملكها أحد من الناس، ولم تزرع ولم تعمر[٥٩٧].

حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أحيى أرضا ميتة، فله فيها أجر، وما أكلت العافية منها فهو له صدقة»[٥٩٨]. إسناده صحيح.

إن من أكثر الدوافع للنفس البشرية في المحافظة على البيئة والعمل هو الربط ما بين الغرس والزرع وإحياء الأرض الموات والأجر والثواب من عند الله.

---

[٥٩٥] أخرجه البخاري في **صحيحه**،كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، رقم٢١٥٢؛ ومسلم في **صحيحه**، ج٣، ص١١٨٨، رقم١٥٥٢.

[٥٩٦] ابن حجر، **فتح الباري**، ج٥، ص٤.

[٥٩٧] ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث**، ج٤، ص٣٧٠.

[٥٩٨] أخرجه الترمذي في **سننه**، ج٣، ص٦٥٤، رقم١٣٧٨؛ وأحمد في **مسنده**، ج٣، ص٣٠٤، و٣٢٦، و٣٢٨؛ وابن حبان في **صحيحه**، ج١١، ص٦١٣، رقم٥٢٠٢.

وحث النبي صلى الله عليه وسلم على الزراعة في آخر أنفاس الإنسان ورحيله من الدنيا. ففي الحديث قولهﷺ: «إن قامت الساعة، وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها، فليغرسها» ورواية أحمد: «إنْ قامَتْ على أَحَدِكُمُ القِيَامَةُ وفي يَدِهِ فَسْلَةٌ، فَلْيَغْرِسْه»[٥٩٩] والفسيلة: الصغيرة من النخل. والفسل: قضبان الكرم للغرس، وهو ما أخذ من أمهاته ثم غرس، حكاه أبو حنيفة[٦٠٠].

ولذا فإن غرس الأشجار وزرع النبات أمر واجب شرعياً، حتى في آخر رمق من حياته، وحتى إذا تهدده خطر الموت وتأكد حلول الفناء له وللأرض، إذ بغرس الأشجار، يلتزم المسلم بأمر ربه في آخر لحظات حياته، كما جاء الوعيد بالنار، لمن قطع الأشجار لغير حاجة، وتعدى عليها، لما لها من أهمية في حياة الكائنات الحية، ودورها في حفظ التوازن البيئي، عن طاووس بن كيسان، مرسلاً قال صلى الله عليه وسلم: «لا تقطعوا الشجر، فإنه عصمة للمواشي من الجدب»[٦٠١]. مرسلاً وإسناده صحيح. وعن عبدالله بن حبشي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قطع سدرة، صوب الله رأسه في النار»[٦٠٢].

المطلب الثامن: ربط المحافظة على البيئة وحمايتها بالتنمية

جاء المنهج الإسلامي في العديد من الأحاديث الشريفة التي تحث على عمارة الأرض. ففي الحث على الغرس والتشجير والزرع عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إن قامت الساعة، وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع ألا يقوم حتى يغرسها، فليغرسه»[٦٠٣].

كما تحث على العناية بعناصر البيئة الثابتة في حياة الإنسان تلك العناصر التي ترتبط بالتنمية، فعَن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُول اللّه صلى الله عليه وسلم: «أَنّ مما يلحق المؤمن من عمله وحسناته بَعْد موته: علما علمه ونشره، وولداً صالحا تركه، ومصحفاً ورثه، أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن السبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله فِي صحته وحياته، تلحقه من بَعْد موته»[٦٠٤]، إسناده حسن.

ودعا النبي صلى الله عليه وسلم محاربة التصحر بالأمر بالتشجير وإصلاح الأرض وزراعتها وجلب الماء إليها. فعن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من أعمر أرضا ليست لأحد فهو أحق» وقال عروة: قضى عمر ﷺ في خلافته[٦٠٥].

---

[٥٩٩] أخرجه البخاري في **الأدب المفرد**، ج١، ص١٦٨، رقم٤٧٩.

[٦٠٠] ابن المنظور، **لسان العرب**، ج١١، ص٥١٩.

[٦٠١] اخرجه عبد الرزاق في **المصنف**، ج٥، ص٢٠١.

[٦٠٢] سبق تخريجه.

[٦٠٣] سبق تخريجه.

[٦٠٤] أخرجه ابن ماجه في **سننه**، ج١، ص٨٨، رقم٣٦٠٥، ونُقِل عَن ابْن المنذر أَنَّهُ قَالَ: إسناده حسن.

[٦٠٥] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٥، ص٢٣، رقم٢٣٣٥.

المطلب التاسع: تقعيد القواعد الفقهية المتعلقة بالمحافظة على البيئة.

فالمحافظة على سلامة البيئة واجب، ولن يتم إلا بتشريعات تحمي البيئة من إفسادها، وهذا الإفساد حرام، ومن قواعدنا الفقهية، ما أدّى إلى حرام فهو حرام، وهي قاعدة عامة استنبطها علماء المسلمين من القرآن الكريم والسنة النبوية، وهي قواعد تعدّ مفخرة للمسلمين، لكونها قد سبقت التشريعات البيئية المعاصرة وتفوقت عليها. وتحفل كتب الفقه الإسلامي بأمثلة كثيرة، تدل على عناية فقهاء المسلمين بالبيئة، وهذه القواعد منها:

أولاً: قاعدة (الضرر يزال). وتستند هذه القاعدة إلى الحديث «لا ضرر ولا ضرار»[٦٠٦]، إذ لا يجوز أن نلحق الضرر بالآخرين سواء في الحال أو المستقبل، وفي التلوث أضرار جمة، يحرم بها الأضرار. ولا شك أن التلوث بكافة صوره ضرر يصيب كل الكائنات الحية، والنهي للتحريم فأدى إلى تحريم الإضرار بالنفس وبالآخرين.

ثانياً: قاعدة درء المفاسد مقدم على جلب المصالح:

فإذا كان استغلال موارد البيئة لتحقيق منفعة ذاتية ومؤقتة، سوف يتسبب في الإضرار بهذه الموارد وإفسادها، ويتسبب في استنزافها، فلا يُسمَح بها، إذ إن منع الضرر والفساد، يجب أن يقدم على أي منفعة عند استغلال البيئة.

ثالثاً . قاعدة الضرر يزال بقدر الإمكان (ولاسيما الضرر الفاحش). ولولاة الأمور الحق في إجبار من يحدث ضررا في البيوت أو الشوارع أو الأسواق أو البيئة بوجه عام بإزالة الأضرار الناتجة عن أعمالهم وتصرفاتهم، التي قد يترتب عليها الإضرار بالناس أو بالحيوانات أو بجودة البيئة.

رابعاً . **يتحمل الضرر الخاص لدفع ضرر عام:** ومثال ذلك: تقييد استعمال حق المالك في إقامة فرن خبز في سوق البزازين[٦٠٧] . إذ استطاع الفقه الإسلامي أن يتمثل المبادئ والتعاليم التي وضعها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وأن يستخلص منهما المقاصد العامة التي تكفل للبيئة سلامتها، وتلزم الأمة بصيانتها، وتحرم العبث بمواردها. وهذه بعض من القواعد الكثيرة المبثوثة في كتب الفقه وأصوله.

الخاتمة:

بعد هذه الجولة العلمية في المنهج الإسلامي في المحافظة على البيئة وحمايتها نستطيع القول أن النصوص في هذا المنهج كثيرة وواسعة الدلالات والمعاني ولا يمكن لبحث مثل هذا أن يأتي إلا باليسير من ذلك، فالمحافظة على البيئة وما جاء بها من توجيهات هي أوسع من مثل هذا البحث، وإذا تأملنا

---

[٦٠٦] سبق تخريجه.

[٦٠٧] ابن نجيم الحنفي، **غمز عيون البصائر على الأشباه والنظائر**، ج٢، ص١٢٢.

النصوص في هذا المنهج لوجدنا أنها توجيهات واقعية مؤثرة في النفوس البشرية، فقد اهتم المنهج الإسلامي بالبيئة بمفهومها الواسع ومواردها المختلفة سواء أكانت حية أم غير حية، وأظهر أسس التعامل معها بحيث يمكن حمايتها والحفاظ عليها.

وبين أن الحفاظ على البيئة واجب ديني على كل فرد.

ومن أهم النتائج:

١ . أن إصلاح الإنسان وربط حياته على أساس الإيمان والعقيدة هو الموجه الصحيح لحماية البيئة.

٢- أن تطبيق شرع الله في حياة الناس اليوم من أهم ما يضمن سلامة البيئة.

٣- اهتمام المنهج الإسلامي بالبيئة بكل مجالاتها وعناصرها.

٤. أن الإنسان هو الذي يقع على عاتقه مسئولية حماية البيئة ورعايتها بما كلف من خلافة وبما أعطي من تسخير في الأرض.

ومن أهم التوصيات:

١) ضرورة ربط حماية البيئة بالتربية الإيمانية.

٢) دراسة المنهج الإسلامي في حل قضايا التنمية المستدامة المعاصرة في المحافظة على البيئة وثرواتها، وضرورة ترجمة هذه المبادئ إلى اللغات الأخرى لتعريف غير المسلمين بها.

٣) تنمية الوعي البيئي عند الإنسان، من خلال النصوص الشرعية عن البيئة ومكوناتها، بما يحقق دوره المطلوب في الأرض باعتباره خليفة الله في الأرض.

المصادر والمراجع:

١. **القرآن الكريم** برواية حفص عن عاصم.

٢. ابن الأثير، مجد الدين المبارك بن محمد الجزري، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق: طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، (لبنان: دار الفكر).

٣. ابن حبان، محمد البستي، **صحيح ابن حبان**، بترتيب ابن بلبان، علاء الدين علي بن بلبان الفاسي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٤هـ/١٩٣٣م).

٤. ابن حجر، أحمد العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، رقّم كتبه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، (القاهرة: دار الريان للتراث، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

٥. ابن حجر، **بذل الماعون في فضل الطاعون**، تحقيق: أحمد عصام عبد القادر الكاتب، (الرياض: دار العاصمة).

٦. ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أيوب الحنبلي، **الطب النبوي**، تحقيق: سيد إسماعيل، (القاهرة: دار المنار، ط١، ١٩٩٢م).

٧. ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

٨. ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م).

٩. ابن نجيم الحنفي، **غمز عيون البصائر على الأشباه والنظائر للحموي** (أبو العباس، شهاب الدين أحمد بن محمد مكي الحسيني)، (الأستانة: دار الطباعة العامرة).
١٠. أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، **السنن**، تحقيق: محمد محي الدين عبدالحميد، (تركيا: المكتبة الإسلامية).
١١. أحمد، ابن حنبل، **مسند أحمد بن محمد الشيباني**، (المكتب الإسلامي).
١٢. أرناؤوط، محمد السيد، **الإنسان وتلوث البيئة**، (الدار المصرية).
١٣. البار، محمد على، **العدوى بين الطب وحديث المصطفى**، (الدار السعودية، ط٥، ١٤٠٥هـ).
١٤. باقادر، أبو بكر باقادر وزملاؤه، **دراسة عن حماية البيئة في الإسلام**، مجلة البيئة، العدد ٣٣، جمعية حماية البيئة الكويتية ١٩٨٥م
١٥. البخاري، محمد بن إسماعيل، **الصحيح مع فتح البارئ**، (القاهرة: دار الريان، ط١، ١٤٠٥هـ).
١٦. البخاري، محمد بن إسماعيل، **الأدب المفرد**، تحقيق سمير الزهيري (الرياض: مكتبة المعارف، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٨٨م).
١٧. بركات، محمد مراد، **الإسلام والبيئة، رؤية إسلامية حضارية**، (دار القاهرة، ٢٠٠٣م)
١٨. البيهقي، أحمد بن علي بن الحسين، **السنن الكبرى** (مطبعة الهند، ٤٥٨هـ).
١٩. الترمذي، محمد بن عيسى بن سورة، **سنن الترمذي**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، (مصر: شركة مكتبة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، ١٣٩٥هـ/١٩٧٠م).
٢٠. الجوهري، إسماعيل بن حماد، **الصحاح**، تحقيق: أحمد عدالغفور عطار، (الرياض: طبعة الشربتلي، ١٩٨٢، ط١).
٢١. الحاكم، النيسابوري محمد بن عبدالله، **المستدرك على الصحيحين**، (نشر مكتبة المطبعة الإسلامية).
٢٢. الحميد، رشيد الحميد ومحمد سعيد صباريني، **التربية البيئة**، (الكويت: الفلاح، ١٩٨٦م).
٢٣. السحيباني، عبد الله بن عمر بن محمد، **أحكام البيئة في الفقه الإسلامي**، (السعودية: دار ابن الجوزي).
٢٤. شكور، محمد، **الروض الداني إلى المعجم الصغير**، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).
٢٥. الشوكاني، محمد بن علي، **نيل الأوطار**، (بيروت: دار الجيل، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م).
٢٦. الصنعاني، محمد بن إسماعيل، **سبل السلام**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٤، ١٧٨٠هـ/١٩٦٠م).
٢٧. الطبراني، سليمان بن أحمد، **المعجم الأوسط**، تحقيق: د. محمود الطحان، (الرياض: مكتبة المعارف، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م).
٢٨. الطبراني، سليمان بن أحمد، **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي السلفي، (بغداد: مطبعة الأمة).
٢٩. عبد الرزاق، ابن همام الصنعاني، **مصنف عبد الرزاق**، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، (منشورات المجلس الأعلى، ط١، ١٣٩٠هـ).
٣٠. عطا الله، ربيع وآخرون، **الصحة العامة وحماية البيئة**،، (عمان: منشورات جامعة القدس المفتوحة، ٢٠٠٧م).
٣١. عطية، أحمد ضياء الدين، **مواجهة الإسلام للتحديات المتصلة بالبيئة**، (جامعة الأزهر، رابطة الجامعات الإسلامية، ١٩٩٩م).
٣٢. العظيم آبادي، محمد شمس الحق، **عون المعبود شرح سنن أبي داود**، (بيروت: دار الفكر، د.ت).

٣٣. العيني، محمود بن أحمد، **عمدة القارئ شرح صحيح البخاري**، (بيروت، دار الفكر).
٣٤. الفقي، محمد عبد القادر، **البيئة، مشاكلها وقضاياها وحمايتها من التلوث (رؤية إسلامية)**، (القاهرة: مكتبة ابن سينا، ١٩٩٣م).
٣٥. الفقي، محمد عبد القادر، **العمارة الإسلامية والبيئة للمهندس**.
٣٦. القضاة، عبد الحميد، **تفوق الطب الوقائي في الإسلام**، (مكة المكرمة: هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، رابطة العالم الإسلامي، ط٢، ١٤٢١هـ/٢٠٠٢م).
٣٧. مالك، ابن أنس أبو عبد الله الأصبحي، **الموطأ**، (القاهرة: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٩هـ).
٣٨. مجمع اللغة العربية، **المعجم الوجيز**، (القاهرة: وزارة التربية والتعليم، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م).
٣٩. مرسي، محمد، **الإسلام والبيئة**، (مطبوعات أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).
٤٠. مسلم، ابن الحجاج أبو الحسين النيسابوري، **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي (القاهرة: دار إحياء الكتب العربية).
٤١. النووي، يحي بن شرف الدين، **شرح النووي على صحيح مسلم**، (مكتبة الرياض الحديثة، دار الفكر للنشر والتوزيع، ١٤٠٠هـ/١٩٩٠م).
٤٢. الهيثمي، علي بن أبي بكر، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، (القاهرة: دار الريان للتراث، ١٤٠٧هـ).

ندرة الموارد وعلاقتها بحفظ البيئة دراسة مقاصديّة في ضوء القرآن الكريم

د. حسن بن إبراهيم الهنداوي[٦٠٨]

ملخص البحث:

ندرة الموارد تعدّ – خصوصا عند الاقتصاديين – الخطر الأساس الذي يهدد الوجود البشري في هذا العصر. فهذه الندرة تعدّ عند الاقتصاديين معضلة اقتصادية ناتجة عن رغبات الإنسان غير المتناهية مقابل موارد محدودة متناهية، مما يقتضي التعامل معها بحذر، وإيجاد سياسة اقتصادية من شأنها أن تعمل على توزيع الموارد النادرة توزيعا يلبي حاجات الإنسان ورغباته، ويلائم ندرة الموارد وقلتها. والحاصل أنّ مفهوم الندرة من منظور الاقتصاد التقليدي يعني موارد محدودة في العالم مقابل حاجات ورغبات غير محدوة، وسبب ذلك عند الاقتصاديين أن الطبيعة لا توفر موارد كافية لتلبية حاجات الناس ورغباتهم غير المتناهية. بينما نظرة الإسلام التي يمثلها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة لمسألة الندرة نظرة مختلفة تماما عن نظرة الاقتصاد التقليدي لها من حيث مفهومها وأسبابها وطرق معالجة هذه المشكلة الاقتصادية العالمية التي تواجه العالم بأسره. فالقول بالندرة وأن الطبيعة الأم شحيحة، وأن الكون لا يمدنا بالموارد الطبيعية التي نحتاجها كلام يناقض العقيدة أو اتهام للذات الإلهية بالتقصير نحو بني آدم أو على قول الأوائل أن الإله خلق الخلق وتخلى عنه أو أهمله. فإذا كان الأمر كذلك، فالمشكلة ليست في البيئة لتسخير الله ﷻ لها للناس جميعا، فالمشكلة في أخلاقيات الناس وتصرفاتهم في الموارد الطبيعية وطريقتهم في الانتفاع بها بين إدخال الضرر والفساد عليها والتبذير والإسراف في الانتفاع بها. وسيستخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي لبيان النظرة القرآنية المتميّزة لموضوع الندرة وعلاقته بحفظ البيئة، وأنّ تعاليم الإسلام ومبادئه ومقاصدة إذا تم توظيفها توظيفا حكيما قادرة على معالجة مشكلة دعوى الندرة في العالم. فهذا البحث سيناقش مفهوم الندرة من وجهة نظر إسلاميّة مبنية على ما ورد في القرآن الكريم مدعمة بأقوال العلماء القدامى والمحدَثين على حدّ سواء. والقصد من ذلك إبراز النظرة المتفردة للإسلام فيما يتعلق بمسألة الندرة والبيئة، وآداب وآخلاق التعامل مع البيئة بربط ذلك بمقاصد الشريعة وما فيها من آداب وأخلاق.

مقدمة:

[٦٠٨] أستاذ مشارك بقسم الفقه وأصول الفقه بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

إنّ دراسة الاقتصاد دراسة إسلاميّة عميقة لمن الأهميّة بمكان لإبراز هذا الجانب المشرق في شريعة الله الخالدة نظراً لتجاهله أحقابا طويلة وإن بدأت الإنسانية تفيء إليه جماعات وأفراداً. وسبب ذلك ما جربته المجتمعات البشرية من نظم مالية، ومذاهب اقتصادية شتى، ثبت فشلها الواحد تلو الآخر، بل جلبت لها الشّقاء بعد الشّقاء، وركوداً بعد ركود، وتعالج مشكلة فتحل محلها مشكلة أعضل منها، فانتشر الداء وأعضل الدواء. ومما يزيد من أهمية دراسة الاقتصاد من وجهة إسلاميّة أهمية الاقتصاد في حياة المجتمعات فإنه يمثّل عصب الحياة للوجود الإنساني وبه قيام المجتمعات وانهيارها، فرفاهيّة المجتمع وعدمها منوطة بالاقتصاد نموا وازدهارا أو فشلا وانحطاطا. ولذا نجد أن العديد من علماء المسلمين المتخصصين قد أولوا أهمية كبيرة لدراسة النظام الاقتصادي الليبرالي الرأسمالي باعتباره النموذج الأكثر تطوراً وتقدماً وصموداً إذا ما تم مقارنته بغيره من النظم الأخرى مثل النظام الشيوعي. والقصد من ذلك عرض هذه الأنظمة الاقتصادية على الشريعة الإسلامية ومبادئها الخالدة من أجل النظر في مدى ملاءمته وتوافقه معها أو لتقديم بدائل إسلامية بإمكانها تلبية متطلبات الحياة المدنية المعاصرة دون أن يكون هناك أيّ مخالفة للشريعة الإسلاميّة. ولا يعني ذلك إلغاء النظام الاقتصادي نهائياً، بل دراسته دراسة نقدية بناءة فيصحح ما فيه من خلل، وينبذ ما يتعارض مع الشريعة ويؤخذ ما فيه من إيجابيات ومحاسن.

فلا شكّ أن الفقر والإملاق من المشكلات الرئيسة التي يواجهها العالم اليوم، ومن أسبابها ندرة الموارد الاقتصادية الشديدة ومن أهمها ندرة الغذاء والماء. فندرة الموارد وقلتها كانت ذات أثر مباشر في قتل الملايين، لاسيما في القارة الإفريقية. والنُدرة عندما ترد في السياق الاقتصادي أو في كتبهم فيعنون بها قلة الموارد الاقتصادية وندرتها. وعليه، فإنّ ندرة الموارد تعدّ – خصوصا عند الاقتصاديين – الخطر الأساس الذي يهدد الوجود البشري في هذا العصر. فهذه الندرة تعدّ عند الاقتصاديين معضلة اقتصادية ناتجة عن رغبات الإنسان غير المتناهية مقابل موارد محدودة متناهية، مما يقتضي التعامل معها بحذر، وإيجاد سياسة اقتصادية من شأنها أن تعمل على توزيع الموارد النادرة توزيعا يلبي حاجات الإنسان ورغباته، ويلائم ندرة الموارد وقلتها. ومن الأمور التي يقترحها الاقتصاديون أن الإنسان ينبغي أن يختار بعضا من الموارد الضرورية والحاجية لمعيشته لتلبية رغباته، ولا يسعى وراء الحصول على الموارد.

والحاصل أنّ مفهوم الندرة من منظور الاقتصاد التقليدي يعني موارد محدودة في العالم مقابل حاجات ورغبات غير محدوة، فضلا عن الزعم بأنّ الإنسان متّصِف بالجشع والطمع ودائما له رغبات متجددة، وحاجات لا تتوقف عند عدد معيّن. وسبب ذلك عند الاقتصاديين أن الطبيعة لا توفر موارد كافية لتلبية حاجات الناس ورغباتهم غير المتناهية. ولعل هذا الأمر قد وردت الإشارة إليه في قول الرسول ﷺ: «لو كان لابنِ آدمَ واديانِ من مالٍ لابْتغَى وادِيًا ثالثًا، ولا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إلا التُّرابُ،

ويتوبُ اللهُ على مَن تابَ»[٦٠٩]، ففيه إخبار نبوي على الطبع الغالب على بني آدم وهو الحرص على الدنيا والرغبة فيها. فالحاصل أن العالم لا يملك موارد اقتصادية تكفي لسدّ متطلبات الناس جميعاً. فهذا ما يمثّل نظرة الاقتصاديين لمسألة ندرة الموارد وتكييفها من الناحية الاقتصادية. فيلاحظ أنّ "كل مجتمع يمتلك موارد محدودة جدا أو نادرة وذلك إذا ما تمّ مقارنتها بحاجات أفراده التي لا نهاية لها، وذلك في أيّ مجتمع حتى في المجتمعات الغنية اقتصاديا"[٦١٠]. بينما نظرة الإسلام التي يمثلها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة لمسألة الندرة نظرة مختلفة تماما عن نظرة الاقتصاد التقليدي لها من حيث مفهومها وأسبابها وطرق معالجة هذه المشكلة الاقتصادية العالمية التي تواجه العالم بأسره. فهذا البحث المتواضع سيناقش مفهوم الندرة من وجهة نظر إسلاميّة مبنية على ما ورد في القرآن الكريم والسنة النبويّة مدعمة بأقوال العلماء القدامى والمحدَثين على حدّ سواء. والقصد من ذلك إبراز النظرة المتفردة للإسلام فيما يتعلق بمسألة الندرة والبيئة، وآداب وآخلاق التعامل مع البيئة بربط ذلك بمقاصد الشريعة وما فيها من آداب وأخلاق.

تعريف الندرة في الاقتصاد الغربي:

الندرة (**Scarcity**) في اللغة بمعنى قلة الشيء وأنه عزيز في الوجود وشحيح وصعب المنال، ونسبة الحصول عليه ضئيلة جدا[٦١١]. وهي في عالم الاقتصاد لا تبعد كثيرا عن هذا المعنى اللغوي للكلمة، لكنها تصبح مخصصة بموضوع علم الاقتصاد واهتماماته ومن بينها موارد الاقتصاد والتي من بينها الموارد الطبيعية. فتكون الندرة عند الاقتصاديين بمعنى النقص في كميات الموارد الموجودة في العالم، وهي تختلف من منطقة إلى أخرى. أو بعبارة أخرى فالندرة تعني النقص في الموارد الاقتصادية، ويقصد بالموارد الاقتصادية تلك العناصر النافعة للإنسان الموجودة في محيطه؛ بمعنى العناصر التي لها القدرة على إشباع حاجات الإنسان بصورة مباشرة أو غير مباشرة ويتوقف إنتاج المجتمع في بلد ما غالباً على مقدار الموارد المتوفرة لديه. وهذه النُدرة في الموارد الاقتصادية من شأنها أن تحول بين المجتمع وبين التنمية، بل قد تمثّل أهم عائق للتنمية، لذلك تعدّ الندرة مشكلة من مشكلات التنمية الاقتصادية. فالتنمية الاقتصادية ونجاحها يتوقف على مقدار ما ينتجه بلد ما من بضاعة على ما لديها من الموارد الطبيعية، وعلى المؤهلات المتوفرة لاستغلال تك الموارد. وتستلزم التنمية موارد وطاقاتٍ تعبَّؤ لإقامة الاستثمارات التي من خلالها تتحقق عملية التنمية ولا جدال في تنوع تلك الموارد إلى موارد مالية وموارد أو طاقات إنسانية.

---

[٦٠٩] أخرجه البخاري في **الصحيح**، ص١٥٤٢؛ ومسلم في **الصحيح**، ص٨٥٦.

[٦١٠] **Rohlf, William, 2010, *Introduction to Economic Reasons*, Pearson, New York, p. 6.**

[٦١١] ابن فارس، **مقاييس اللغة**، ص٤٣٧.

وعلى ذلك فإن الثروة الطبيعية التي توجد في محيط الإنسان تشمل الأراضي الزراعية، والصالحة للزراعة والرعي، والغابات، والثروة المائية، والثروة المعدنية.

فصفوة القول أنّ مفهوم الندرة من منظور اقتصادي غربي يعني موارد محدودة في العالم، وثروة طبيعية قليلة مقابل حاجات ورغبات غير محدودة، فضلا عن الزعم بأنّ الإنسان متّصِف بالجشع والطمع ودائما له رغبات متجددة، وحاجات لا تتوقف عند عدد معيّن. ولذلك يذكر في الدراسات الاقتصادية أنّ "المشكلة الاقتصادية الأساس التي تواجه الأفراد والمجتمعات على حدّ سواء هي في الحقيقة تتمثل في أنّ رغباتنا تتجاوز قدراتنا على تلبية الرغبات كلّها"[٦١٢]. وسبب ذلك عند الاقتصاديين أن الطبيعة لا توفر موارد كافية لتلبية حاجات الناس ورغباتهم غير المتناهية. فالحاصل أن العالم لا يملك موارد اقتصادية تكفي لسدّ متطلبات الناس جميعاً. فهذا ما يمثّل نظرة الاقتصاديين لمسألة ندرة الموارد وتكييفها من الناحية الاقتصادية.

فالحاصل أن العالم لا يملك موارد اقتصادية تكفي لسدّ متطلبات الناس جميعاً، وأن السبب في ذلك لديهم شحّ الطبيعة وقلة مواردها التي لا تتناسب مع عدد البشر في العالم. فهذا ما يمثّل نظرة الاقتصاديين لمسألة ندرة الموارد وتكييفها من الناحية الاقتصادية، ولذلك اعتبر "جين بول سارتر" (**Jean–Paul Sartre**) أنّ "التطور البشري كلّه – على أقل تقدير إلى حدّ الآن – عبارة عن كفاح مرير ضدّ الندرة الندرة (**Scarcity**)"[٦١٣]. وبناء على هذه المقولة، فإنّ النجاح الاقتصادي في أيّ بلد لا يتحقق إلا إذا تغلّب على معضلة الندرة، أو استطاع أن يتعامل معها بمهارة بحيث لا تكون عقبة أمام التطور الاقتصادي ونموه. ومن ثمّ ندرك أهمية الندرة وخطورتها على الاقتصاد العالمي، بل إنّها تعدّ عند الاقتصاديين معضلة اقتصادية ناتجة عن رغبات الإنسان غير المتناهية والمتزايدة يوما بعد يوم مقابل موارد محدودة متناهية وغير نامية، مما يقتضي التعامل معها بحذر شديد، والعمل على إيجاد نظم وسياسة اقتصادية من شأنها أن تعمل على توزيع الموارد النادرة توزيعا يلبي حاجات الإنسان ورغباته، ويلائم في الوقت نفسه ندرة الموارد وقلتها. ومن الأمور التي يقترحها علماء الاقتصاد والذين يهتمون بمشكلة ندرة الموارد في العالم أن الإنسان ينبغي أن يختار بعضا من الموارد الضرورية والحاجية لمعيشته لتلبية رغباته، ولا يسعى وراء الحصول على الموارد كلّها، فيقدم الأهم فالأهم بين رغباته المعتددة والمتنوعة. فهذا بصورة مختصرة ما يمكن قوله بالنسبة لمعنى الندرة عند علماء الاقتصاد، وما الأمر الذي جعلها مشكلة اقتصادية يصعب مواجهتها والحدّ منها أو تخفيفها بدعوى ندرة الموارد الطبيعية، وأنهم لا يمكلون حلا للزيادة في الموارد الطبيعية وغن كان تنميتها ممكنا.

---

[٦١٢] Rohlf, William, 2010, *Introduction to Economic Reasons*, p. 4.

[٦١٣] Xenos, Nicholas, 1989. *Scarcity and Modernity*, Routledge, London and New York, p. 2.

ندرة الموارد بين المنظور الغربي والإسلامي:

الندرة (Scarcity) في اللغة بمعنى قلة الشيء وأنه عزيز في الوجود وشحيح كما سبق وأن بيّنت ذلك، وهي في عالم الاقتصاد لا تبعد كثيرا عن هذا المعنى اللغوي للكلمة، لكنها تصبح مخصصة بموضوع علم الاقتصاد وهو ذلك الفرع من العلوم الاجتماعية الذي يهتم اهتمام كثيراً بالاستخدامات المتعددة للموارد الاقتصادية لإنتاج السّلع وتوزيعها للاستهلاك في الحاضر والمستقبل بين أفراد المجتمع فتكون الندرة والقلة حينها في الموارد الاقتصادية وشحّها المتصف بالتفاوت شدة وضعفاً من بلد إلى آخر. وتنشأ المشكلة الاقتصادية نتيجة تعدد الحاجات الإنسانية وتزايدها بصورة مستمرة في ظل محدودية (ندرة) الموارد الاقتصادية المتاحة والتي تستخدم لإشباع تلك الحاجات. وتتصف المشكلة الاقتصادية بالعمومية حيث تواجهها كل المجتمعات الإنسانية بغضّ النظر عن طبيعة النظام الاقتصادي ودرجة التقدم الاقتصادي، غير أن حدتها قوة وضعفاً تختلف من دولة إلى أخرى. بل إن مشكلة الندرة قد اهتم بها أيضا علماء الاجتماع نظراً لما بين الاقتصاد والدراسات الاجتماعية من علاقة قوية يكون فيها تأثر وتأثير ايضا. ولذلك، فإنّ كتب علم الاجتماع يبحثون أيضا مشكلة الندرة ويقترحون لها حلولا من ناحية اجتماعية مثل التضامن والتعاون للتخفيف من حدةّ الندرة وتقليل مضارها على أفراد المجتمع، وتحسين مستوى حياة الأفراد، لاسيما الفقراء منهم[٦١٤].

وبناء على ما يراه علماء الاقتصاد أنّ كافة المجتمعات الإنسانيّة تواجه مشكلة اقتصادية تتمثل في ندرة الموارد لديها وقلتها، بينما تتعدد حاجات الناس وتتزايد بصفة مستمرة وتبدو خطورة هذه المشكلة عندما نعرف أن هذه الموارد، حتى في حالة زيادتها تنمو بمعدل يقل كثيراً عن معدل زيادة السكان وحاجاتهم. وهذه الحقيقة معروفة منذ القدم، فقد نبه إليها (مالتس) منذ القرن الثامن عشر حيث قدر ما معناه أنه في الوقت الذي تتخذ فيه الزيادة في السكان شكل المتوالية الهندسية، فإن الزيادة في الموارد تتخذ شكل المتوالية العددية. وعليه، فإذا لم تقم هذه المجتمعات بالتصدي لمشكلة ندرة مواردها وقصورها عن تلبية حاجاتها فقد يأتي وقت تتدهور فيه القدرة الإنتاجية لبعض هذه الموارد. بل وقد يكف بعضها عن العطاء، ولذلك لا مفر أمام هذه الدول من بذل قصارى جهدها في محاولة البحث عن موارد جديدة تستطيع أن تسهم في الارتفاع بمستويات اشباعها أو على الأقل تحافظ عليها. ليس هذا فحسب، وإنما يتعين عليها اولاً وقبل كل شيء أن تحاول استخدام المتاح لديها من الموارد بأكثر الطرق كفاءة من الناحية الاقتصادية بمعنى وصولها إلى التخصيص الأمثل لمواردها يعني تخصيص الموارد، عموماً، تلك الطريقة التي يتم بها توزيعها على استخداماتها البديلة المختلفة بحيث يتحقق في النهاية قدر معين من الإنتاج. فهذا ما يدعيه علماء الاقتصاد التقليدي بالنسبة لمشكلة الندرة واتهام للطبيعة أنها

[٦١٤] See: Turner,Bryan and Chris Rojek, 2001, *society and culture: Principles of Scarcity and Solidarity*, Sage Publications, Canada, pp.68-95.

شحيحة، ولا تدّر علينا بما فيها من خيرات متمثلة في الموارد الطبيعية التي فيها. ولكن عندما ننظر للمجتمعات الغربية وما تتحمله من نفقات باهضة على البحث على إمكانية وجود حياة في كوكب آخر، وما تسّخر له من طاقات من أجل اكتشاف كوكب ما أو الصعود إلى القمر وما في معناها. فلا أظنّ أن دعوى ندرة الموارد الطبيعية، وشح الطبيعة الأم كلام مستقيم، بل هناك استنزاف للطبيعة وخيرات، وسوء إدارة لمواردها، وإنفاق لها في غير موضعها، وتبديد وتبذير، وفي الفقرات الآتية بيان لذلك.

القول بالندرة وأن الطبيعة شحيحة، وأن الكون لا يمدنا بالموارد الطبيعية التي نحتاجها كلام يناقض العقيدة أو اتهام للذات الإلهية بالتقصير نحو بني آدم أو يؤدي إلى القول بأنّ الله خلق الخلق وتخلى عنه أو أهمله. والشواهد على ذلك كثيرة جداً أكتفي بأهمها أو ما يدل دلالة صريحة على ما ذكرته. فعندما نرجع إلى القرآن الكريم والآيات المتعلقة بالخلق، وتكوين الكون سنجد أنّ الله ﷻ قد جعل الأرض منذ خلقها صالحة للحياة كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ * وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾ [الأعراف:١٠-١١]. وفي آية أخرى قال تعالى: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ * وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ * وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [الحجر:١٩-٢٢]. قال الإمام القرطبي: "أي جعلناها لكم قرارا ومهادا، وهيأنا لكم فيها أسباب المعيشة. والمعايش مع معيشة، أي ما يتعيش به من المطعم والمشرب وما تكون به الحياة. يقال: عاش يعيش عيشا ومعاشا ومعيشا ومعيشة وعيشة"[٦١٥].

إذن، فالكون قد هيأه الله للإنسان ليكون صالحا للحياة وزوده بما يقتاتونه فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاء لِّلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاء وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصّلت:٨-١١]. قال السدي: أنبت فيها شجرها. "وقدر فيها أقواتها" قال السدي والحسن: أرزاق أهلها ومصالحهم. وقال قتادة ومجاهد: خلق فيها أنهارها وأشجارها ودوابها في يوم الثلاثاء والأربعاء. وقال عكرمة والضحاك: معنى "قدر فيها أقواتها" أي أرزاق أهلها وما يصلح لمعايشهم من التجارات والأشجار والمنافع في كل بلدة ما لم يجعله في الأخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة والأسفار من بلد إلى بلد"[٦١٦].

---

[٦١٥] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج٤، ص٢٦٥.

[٦١٦] المصدر نفسه، ج٩، ص٢٤٣.

فإذا كان الأمر كذلك، فالمشكلة ليست في الطبيعة كما سيأتي لاحقا لتسخير الله ﷻ لها للناس جميعا، فالمشكلة في تصرفات الناس في الموارد الطبيعية وطريقتهم في الانتفاع بها بين إدخال الضرر والفساد عليها والتبذير والإسراف في الانتفاع بها. فقال تعالى: ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْفِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ * وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٥٦-٥٧]. وقال تعالى في السورة نفسها: ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:٨٥]. فقد نهى الله ﷻ عن كل فساد في الأرض يستوي في ذلك قليله وكثيره بعد صلاح قل أو كثر، وهذا على العموم لأنّ النكرة في سياق النفي تعمّ. فالأرض جعلها الله ﷻ "على نظام صالح بما تحتوي عليه، وبخاصة الإنسان الذي هو أشرف المخلوقات التي جعلها الله على الأرض، وخلق له ما في الأرض، وعزّز ذلك النّظام بقوانين وضعها الله على ألْسِنَةِ المرسلين والصّالحين والحكماء من عباده، الذين أيّدهم بالوحي والخطاب الإلهي، أو بالإلهام والتّوفيق والحكمة، فعلموا النّاس كيف يستعملون ما في الأرض على نظام يحصل به الانتفاع بنفع النّافع وإزالة ما في بعض النّافع من الضرّ وتجنّب ضرّ الضار، فذلك النّظامُ الأصلي، والقانُونُ المعزّزُ له، كلاهما إصلاح في الأرض، لأنّ الأوّل إيجاد الشّيء صالحاً، والثّاني جعل الضّار صالحاً بالتّهذيب أو بالإزالة"[٦١٧].

ولعلّ من أكبر مظاهر الفساد في الأرض تبذير الموارد الطبيعية، وتبديد البيئة في أمور تافهة، ولذلك ورد النهي في شرعنا الحنيف عن الإسراف والتبذير فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ * وَمِنَ الأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشاً كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللّهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأنعام:١٤١-١٤٢]. وقال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:٣١]. فواضح من هاتين الآيتين أنّ الله أباح الاستمتاع بما سخره لنا في الطبيعة، ولكن هذا الانتفاع لا يبلغ حدّ الإسراف، فإذا بلغ حدّ الإسراف قد خرج من الإذن والإباحة إلى النهي والتحريم. ولعل في الحكمة في ذلك أن الإسراف في موارد الطبيعة يؤدي إلى استنزافها وأن لا يبقي الأول لمن يأتي بعده شيئا، فلذلك الانتفاع بالموارد الطبيعية مع توسط بين إسراف وتقتير –وهي صفة من صفات عباد الرحمن– يجعل الفرصة سانحة للجميع لكي يستفيدوا منها. يقول العلامة ابن عاشور في هذا الصدد: "فوجه عدم محبّة الله إيّاهم أنّ الإفراط في تناول اللّذّات والطّيّبات، والإكثار من بذل المال في تحصيلها، يفضي غالباً إلى استنزاف الأموال والشّره إلى الاستكثار منها، فإذا ضاقت على المسرف أمواله تطلب تحصيل المال من وجوه

[٦١٧] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، مج٤، ج٨، ص١٧٤.

فاسدة، ليخمد بذلك نهمته إلى اللّذات، فيكون ذلك دأبه، فربَّما ضاق عليه ماله، فشقّ عليه الإقلاع عن معتاده، فعاش في كرب وضيق، وربَّما تطلّب المال من وجوه غير مشروعة، فوقع فيما يؤاخذ عليه في الدّنيا أو في الآخرة، ثمّ إنّ ذلك قد يعقب عياله خصاصة وضنك معيشة. وينشأ عن ذلك مَلام وتوبيخ وخصومات تفضي إلى ما لا يحمد في اختلال نظام العائلة. فأمَّا كثرة الإنفاق في وجوه البرّ فإنَّها لا توقع في مثل هذا، لأنّ المنفق لا يبلغ فيها مبلغ المنفق لمحبّة لَذّاته، لأنّ داعي الحكمة قابل للتأمّل والتّحديد بخلاف داعي الشّهوة"[٦١٨].

وبالإضافة إلى ذلك، أن الله قد جعل هذه الموارد الطبيعية مودعة في الأرض على ظهرها وفي باطنها، فالأرض هي البيئة الوحيدة التي جعلها الله بحكمته وقدرته صالحة للعيش بالنسبة للإنسان كما هو بيّن من قوله ﴿وجعلنا لكم فيها﴾. ولذلك قال تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ [الأعراف:٢٤-٢٥]. قال الإمام الطبري: "يقول تعالى ذكره: قال الله للذين أهبطهم من سمواته إلى أرضه: ﴿فيها تحيون﴾ يقول: في الأرض تحيون، يقول: تكونون فيها أيام حياتكم، ﴿وفيها تموتون﴾ يقول في الأرض تكون وفاتكم، ﴿ومنها تخرجون﴾ يقول: ومن الأرض يخرجكم ربكم، ويحشركم إليه لبعث القيامة أحياء"[٦١٩]. ومعنى ذلك أنّ البحث عن حياة في كوكب آخر غير الكوكب الأرضي عبث من العبث، فالانفاق الكبير على البحث عن الحياة في القمر أو غيرها من الكواكب الأخرى يعتبر من الإفساد في الأرض بل أخطرها مما يؤدي إلى قلة الموارد واستنزاف خيرات الطبيعة وما تثمره من مال، ونفقته في أمور تعد من الناحية الشرعية مرفوضة. فخالق الكون قد اختار لنا الأرض وجعلها صالح للعيش ففيها نحيا وفيها نموت ومنها نبعث، وقدّر فيها أقواتها، فلماذا إذن البحث عن كوكب آخر لم يجعله الله صالحا للعباد، فلو أنفق الناس موارد الطبيعة كلّها وما في الأرض جميعا ومثله معه ليجعلوا كوكبا آخر صالحا للحياة ما استطاعوا لذلك سبيلا لأنّ الخالق لم يشأ ذلك، والله غالب على أمره ولكن أكثر االناس لا يعلمون. إذن فلا بّد من الاهتمام بالبيئة والحفاظ عليها بدلا من السعي وراء السّراب وإنفاق المال سفها وتبذيرا.

مقصد حماية الموارد البيئية في القرآن الكريم:

إنّ الإنسان يعيش في بيئة تعدّ مهد حياته، ومستقر وجوده من المهد إلى اللحد، وفيها معاشه قبل معاده. ولذا، فليس غريباً أنْ يهتم الإنسان بالبيئة، ويصلح شأنها حتى تستقيم حياته عليها، ويهنأ عيشه. ومن ثمّ، فإننا نجد المجتمعات الإنسانيّة قديماً وحديثاً تهتم بأمر البيئة، وتعمل على حفظها، والمحافظة عليها من أجل استخدامها، والانتفاع بما فيها. وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ ارتباط البيئة بالإنسان ارتباطا وثيقا إذ إن تاريخ البيئة يمتد على طول تاريخ الإنسان نفسه، وتاريخ بداية تكوّن المجتمعات

[٦١٨] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير** مج٤، ج٨، ص١٢٣.

[٦١٩] الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، مج٥، ص٢٤٧.

الإنسانيّة. وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ "علم البيئة" قد "نشأ وتطور بسرعة بفعل ما أصبح يستشعره الإنسان من خطر الفناء لما أصاب البيئة التي هي موئل حياته، وشرط جوده من خراب متفاقم، فذهب يبحث الأمر في علم مستقلّ ليركز العناية بأمر هذا الخطر الدّاهم؛ رصداً للظواهر، وبحثاً عن الروابط والعلاقات، واستكافاً للأسباب، واستشرافاً للحلول التي عسى أن تثني مسيسرة الانزلاق إلى الدّمار البيئي، فيعود الأمر إلى نصابه من العافيّة البيئيّة منذ عرفها الإنسان في نشأته الأولى، فينجر عليها إذن مهمّة التعمير في اطمئنان إلى مستقبلها الآمن"[٦٢٠]. وبناء على ذلك، فإنّ البيئة، وما يحفها من مخاطر، وما يحيط بها من أزمات الأمر الذي جعل من مشكلة البيئة تحدِّياً للعالم بأسره، ولا يختص ببلد دون آخر، مما يقتضي أن تعتني الحكومات، والمنظمات فضلاً عن الهيئات العالميّة بعلاجها، والعمل الجادّ لحلّها كما أشار إلى هذا الأمر المهمّ الدكتور عبد الرشيد متين في كتابه "مدخل للعلوم السياسيّة"[٦٢١].

وأيّا ماكان الأمر، فإنّ المحافظة على النّفس تعدّ مقصدا عظيماً من مقاصد الشريعة الإسلاميّة، بل هي أولى المقاصد بالتقديم بالنسبة للمصالح الدنيويّة[٦٢٢]. فلما كان حفظ النفس مقصداً من مقاصد الشريعة الإسلاميّة فقد شرّع الشارع كثيراً من الأحكام التي من شأنها أنْ تُسهم في حماية هذا المقصد إيجادا، وحفظه سلباً من الهلاك والتلف. وبما أن التفصيل في ذلك ليس من غرضنا هنا، بل سأهتم مما له علاقة بحفظ الموارد الطبيعية والبيئية مما يساهم في حفظ النفس. فمقصد الشارع في حفظ النّفس يمتاز بالتكامل والشمول فلا يكتفي بأن توجد النّفس فحسب، بل قصد إلى إيجادها قويّة سليمة. ومن ثمّ، فقد تولت الشريعة بنفسها بيان ما يصلح لغذاء الجسم من أكل وشرب فجعلته حلالا، وأمرت بطلبه[٦٢٣]، وبالمقابل نهت عن قلّة قليلة أنواع الأكل والشرب، وحرمت طلبها، ومنعت المسلم من الحصول عليها. وإيضاحا لذلك أقول إنّ حفظ النفس لا يتحقق إلا بحماية الكون الذي نعيش فيه، وحفظه من الفساد الهلاك. فلا يمكن أنْ يتحقق خفظ الدين، والأنفس، والنسل، العقل، والمال إلا بحفظ نظام الكون الذي به يتحقق حفظ الحياة، وبذلك يمكن أن تتحقق بقية المصالح تبعا لتحقق حفظ الكون. وبعبارة أخرى، فإنّ حفظ الكون متوفق على حماية البيئة من أن يدخلها أذى أو ضرر حيث إنّ

---

[٦٢٠] النجار، **قضايا البيئة من منظور إسلامي**، ص٩.

[٦٢١] Moten, & Islam. *Introduction to Political Science*, p. 473.

[٦٢٢] تقسم المقاصد الشرعيّة إلى مقاصد دينيّة وأخرى دنيويّة؛ فالمقاصد الدينيّة ويندرج تحتها مقصد المحافظة على الدين، وهو أسّ المقاصد جميعا. وأما المقاصد الدنيوية فيندرج تحتها بقيّة المقاصد الأربعة الأخرى حسب الترتيب المذكور أعلاه، فيكون مقصد حفظ النّفس أول المقاصد الشرعيّة الدنيويّة، وأولاها بالرعاية والتقديم، بحيث إذا وقع تعارض بين مختلف المصالح فتقدم مصلحة النفس على بقيّة المصالح، وتقدم مصلحة الدين على الجميع. انظر: الغزالي، **المستصفى من علم الأصول**، ص٢٦٥.

[٦٢٣] كما قال تعالى: ﴿كُلُوا من الطيِّبات واعملوا صَالِحاً﴾ [المؤمنون:٥١]، فضلاً عما ورد في حديث الرسول ﷺ أنه قال: «طلب الحلال فريضة»، رواه الطبراني في **المعجم الكبير** من طريق ضعيفة، ولكن معناه صحيح يشهد له القرآن الكريم ومبادئ الإسلام الكليّة.

البيئة تعني "كلّ شيء يحيط بالإنسان"[٦٢٤] على سبيل الإجمال، وإذا فصلنا في ذلك نقول إنّها"الإطار الذي يعيش فيه الإنسان، يحصل منه على مقوّمات حياته من غذاء، وكساء، ودواء، ومأوى، ويمارس فيه علاقاته مع أقرانه من بني الإنسان"[٦٢٥].

فالبيئة عبارة عن "الوسط أو المجال المكاني الذي يعيش فيه الإنسان بما يضمّ من ظاهرات طبيعيّة وبشريّة يتأثّر بها، ويؤثّر فيها"[٦٢٦]. وهذه البيئة التي يعيش فيها الإنسان ويتأثر بها ويؤثّر فيها هي الأرض التي فيها حياته ومعاشه. ومن ثمّ، فقد أشار القرآن الكريم إلى أنّ الله ﷻ هو الذي جعل هذا الكون، وصيّره صالحاً للمعاش كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:١٠]. وهذا الأمر اقتضى تزويد البيئة التي نعيش فيها بكل عنصر مساعد على الحياة، ويساهم في حفظها. والله سبحانه وتعالى هو الذي تولى ذلك برحمته وفضله كما في قوله تعالى: ﴿وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ [الحجر:١٩-٢٠]، فضلا عن قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان:٢٠]. والحاصل أنّ هناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تشير إلى أنّ رحمة الله تبارك وتعالى بالعباد اقتضت تزويد البيئة بما يصلح حياة الإنسان، ويقوم بها خير قيام.

وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ البيئة، وما أودعه الله سبحانه وتعالى فيها من وسائل الحياة، وسبل العيش المتنوّعة تعدّ بمثابة آية من آيات الله ﷻ في هذا الكون كما وردت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤]. ثم إنّ الشارع الحكيم نهى عن الفساد، وحرّمه تحريماً باتاً نظراً لما ينتج عن هذا الفساد من تخريب للبيئة، والإضرار بها مما يؤدي إلى ضيق العيش وصعوبته، بل انعدامه أحياناً أخرى. فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]، "وفساد البر يكون بفقدان منافعه وحدوث مضارّه، مثل حبس الأقوات من الزرع والثمار والكلأ، وفي مَوتان الحيوان المنتفع به، وفي انتقال الوحوش التي تصاد من جراء قحط الأرض إلى أرضين أخرى، وفي حدوث الجوائح من جراد وحشرات وأمراض. وفساد البحر كذلك يظهر في تعطيل منافعه من قلّة الحيتان واللؤلؤ والمرجان فقد كانا من أعظم موارد بلاد العرب وكثرة الزوابع الحائلة عن الأسفار في البحر، ونضوب مياه الأنهار والنحباس

---

[٦٢٤] عبد المقصود، **البيئة والإنسان**، ص١١.

[٦٢٥] الحمد وسعيد، **البيئة ومشكلاتها**، ص٢٩.

[٦٢٦] الفقي، **البيئة: مشاكلها وقضاياها**، ص١٠.

فيضانها الذي به يستقي الناس"[٦٢٧]. وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة:٦٠]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٧٧]، وغير ذلك من الآيات القرآنيّة الواردة في الذكر الحكيم بهذا الشأن.

والحاصل من الآيات السّابقة الذكر أنّ للبيئة أهميّة كبرى في تشريعات الإسلام المتنوعة، ومقاصده المتعددة، بل إنّ لها مكانة عليّة في المقاصد التي جاءت الشريعة الإسلاميّة لحفظها وحمايتها. وتظهر هذه الأهميّة في كون المقاصد الضرورية التي جاءت الشريعة لحفظها، وأعني بذلك الدين، والنفس، والنسل، والعقل، والمال لا يمكن أن يتحقق حفظها إلا بحفظ البيئة أولا وقبل كلّ شيء. فلا يمكن أنْ تحفظ النفس حيّة إلا إذا توفرت أسباب الحياة في البيئة، ولذلك أشرت آنفاً أنّ الله تعالى هو الذي خلق الإنسان، وخلق له ما به تتقّوم الأنفس، وتتيسّر لها الحياة، والتي تتمثّل في الكون وما فيه من معايش. ثم إنّ حفظ البيئة من جهة العدم يتمثّل في تحريم كلّ ما يدخل ضرر عليها بتصرّفات الإنسان وفعله حتى يتم حفظ البيئة من حيث الوجود. ولذا، فإنّ على الإنسان أنّ يستفيد من البيئة طيلة حياته، وينتفع بما فيها انتفاعا فيه رفق. وبالإضافة إلى ذلك، فإنه يجب عليه أنْ يحافظ عليها، ولا يحتكرها لنفسه، بل يحافظ عليها، ويقوم بحمايتها لمن يأتي بعده من وجهة نظر إسلاميّة. وبهذا النظر القويم يتحقق حفظ الأنفس الموجودة، ثمّ يتحقق حفظ النسل القادم، بحفظ أنفسهم وحياتهم، وذلك متوقّف على تصرّفات الجيل الحالي تجاه البيئة بأنْ يتركها سليمة من الأضرار، خالية من الفساد. وهذا الأمر هو الذي يتماشى مع مقصد الشارع العظيم، وحكمته التي اقتضت أنّ خلق الكون وما فيه، وتسخيره للناس جميعا، وليس لجيل دون آخر، أو لمجموعة من الناس دون آخرين.

ومن ثمّ، فإنّ على الناس جميعا أنْ يتعاونوا على حفظ البيئة وحمايتها لأنفسهم، ولنسلهم أيضاً، فلا ينتفعون بها هم فحسب، ويستهلكون ما فيها استهلاكاً فيه تبذير، بحيث يبقى النسل بدون بيئة صالحة لحياتهم، ومعاشهم. ومن أجل ذلك حرّم الشارع الحكيم التبذير المتمثّل في الاستخدام الزائد عن الحاجة كثيرا مما يدخل في الترف. فالتبذير يجعل صاحبه أخا للشيطان ومن أوصله التبذير إلى الترف فسق، ومن فسق استحق عذاب الله المعجل بالتدمير الكامل كمال قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾ [الإسراء:١٦]. والسبب في ذلك أنّ الإسراف، والتبذير يؤديان إلى استنزاف البيئة، واحكتار خيراتها في يد قلّة من الناس الأمر الذي يؤدي إلى تدمير البيئة وتخريبها. وعليه، فقد جاء تحريم الإسراف مقترناً باللبيئة وما تثمره من خيرات لقوام حياة الإنسان

[٦٢٧] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، مج٣، ج٦، ص٢٣١.

فيما يتعلّق بمأكله ومشربه فقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفاً أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُواْ حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام:١٤١]. فضلاً عن أنّ الشارع أباح الانتفاع بالبيئة وما فيها، وحرّم الإسراف في هذا الانتفاع، حتى يشترك الناس جميعاً في الانتفاع بها كما في قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:٣١]. ناهيك عن أنّ الشارع الكريم قد اعتبر التبذير من عمل الشيطان، وأنّ القائم بهذا الفعل كأنه أخ للشيطان، وقرين له. القصد من ذلك تنفير الناس من هذا الفعل القبيح، ترهيبهم منه حيث إنّ الإنسان العاقل السَّويّ لا يرضى أنْ يكون للشيطان قريناً، فقال تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً﴾ [الإسراء:٢٦-٢٧].

وأيا ما كان الأمر، فـ"لقد جاء التوجيه إلى التزام القصد في استهلاك مقدّرات البيئة، وعدم التجاوز إلى الإسراف توجيهاً مؤكّداً يندرج به هذا السّلوك في دائرة الحلال والحرام، ذلك فيما يبد فيما ورد في التشريع الإسلامي من نهي مغلّظ عن الإسراف والتّبذير"[٦٢٨] كما سبقت الإشارة إلى ذلك. ومن ثمّ، فليس بمستغربٍ أن تعتبر الشريعة الإسلاميّة الإسراف من باب الإفساد في الأرض بيئتها كما جاء في الحديث عن قوم صالح عليه السّلام الذين أسرفوا في ملاذهم بالاستهلاك المبذّر لمرافق البيئة المتنوعة، فوصفهم الله ﷻ بالإسراف والتبذير، ووصمهم بهذه الصفة المرذولة كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً فَارِهِينَ **فاتقوا الله وَأطِيعُون** وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء:١٤٩-١٥٢]. إذن، فنهي الشارع الحكيم عن الإفساد في الأرض، والتبذير في المأكل والمشرب، والإسراف في ذلك كلّه إنما القصد منه أولا وأخيرا حماية البيئة، والحفاظ عليها حفظاً مستمراً ومتواصلاً حتى يتسنى للناس جميعا الانتفاع بالبيئة التي خلقها الله تبارك وتعالى، وما أودعه فيها من معايش كثيرة، وسبلاً للحياة شتى. وهذا الأمر يدّل دلالة واضحة على أنّ التشريع الإسلامي يهتمّ بأمر البيئة اهتماماً بالغاً مما دعاه إلى سنّ أحكام لحماية البيئة، وآداب لحفظها مثل الانتفاع بما في البيئة من معايش، وخيرات، ومنافع دون إسراف أو تبذير.

ولعلّ من أقوى الأدّلة وأبينها على حرص الإسلام على حماية البيئة وحفظها من أنْ تنتقص من أطرافها، وأنْ يصيبها ضرر تعمّ بلواه الناس جميعاً أنّ الرسول ﷺ حتى في أمور العبادات لم يكن يسرف في استخدام الماء للوضوء والاغتسال، بل "كان يتوضأ بالمدّ ويغتسل بالصّاع" كما في صحيح مسلم، وقال النووي عند تعرضه لشرح هذا الحديث ما نصّه:" وأجمع العلماء على النهي عن الإسراف في الماء ولو كان على شاطئ البحر، والأظهر أنه مكروه كراهة تنزيه، وقال بعض أصحابنا: الإسراف حرام، والله

[٦٢٨] النجار، **قضايا البيئة من منظور إسلامي**، ص٢٨٦.

أعلم [٦٢٩]. فالنهى عن الإسراف في استخدام موارد البيئة التي يحتاجها الناس جميعا، فضلاً عن الحاجة الدائمة المستمرّة لها. إذ يعدّ الماء من أهمّ مقوّمات الحياة، بل إنّ الحياة متوّقفة على الماء سواء بالنسبة للإنسان أو الحيوان أو النبات كما وقعت الإشارة إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقاً فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُون﴾ [الأنبياء:٣٠]. وعليه، فإنّ التشريع الإسلامي ينهى عن الإسراف في استخدام عناصر البيئة ولو كان ذلك في أمور العبادات، وذلك من أجل الحفاظ عليها، وحمايتها من الاستنزاف لمواردها وخيراتها الكثيرة. وسبب ذلك أنّ الإسراف في الشيء، وتبذيره يؤدي في نهاية الأمر إلى نفاده، وانعدامه ولو بعد حين. وبناء على ذلك، يمكن أنْ نتبيّن الحكمة التي قصدها الشارع من تحريمه للإسراف والتبذير لاسيما في المأكل والمشرب، إذ إنّ الغالب أن يكون الإسراف فيهما، وعلاقة ذلك كلّه بحماية البيئة وحفظها.

وحسب اطلاّع الباحث المتواضع في هذا الأمر أنّ أكبر سبب، وأعظمه خطرا على البيئة تتمثل في الإسراف والتبذير. والسبب في ذلك أنّ الإسراف في استعمال عناصر البيئة يؤدي إلى استنزاف الموارد البيئيّة وتبديدها، وهذا بدوره يؤدي إلى التلّوث البيئي مثل تلوّث الهواء، والماء، والتربة وغيرها من الأزمات التي تواجهها البيئة يوما بعد يوم. ويزداد هذا الأمر خطورة إذا علمنا أنّ "الإنسان هو الكائن الحيّ الوحيد الذي يستهلك من الموارد البيئيّة ما يفوق حاجته الحقيقيّة في حفظ حياته وتنميتها. فيصيب بذلك تلك الموارد باستنزاف يخلّ بالتّوازن المتحقق بين مكوّنات البيئة، مما يسبب اضطراباً في النظام البيئي، وهذا هو الوضع القائم في علاقة الإنسان بالبيئة منذ بعض الزمن، فهو في سبيل تحقيق رغباته من الغذاء، والكساء، والسكن، والترفيه يستهلك من موارد البيئة أكثر بكثير من حاجته الحقيقيّة التي في نطاقها يُحفظ التوازن البيئي، وهو ما أصاب ذلك التوازن بالفعل بالاضطراب، وكان مظهراً من مظاهر المشكلة البيئيّة الراهنة"[٦٣٠]. ويظهر استنزاف الإنسان لموارد البيئة المتنوّعة بمظاهر متعددة تبعا لتعدد شهواته، ورغباته، ويستفحل الاستنزاف في تلك المظاهر بقدر ما يستشري الشره إلى إشباع تلك الشهوات. وهذه المظاهر المتعددة لاستهلاك البيئة، واستنزاف خيراتها مهما تعددّت وتنوّعت فيشملها الإسراف والتبذير، وهذا ما يجعل في تحريم الإسراف في كلّ شيء أهميّة كبرى في حفظ البيئة، وحمايتها. وزيادة على ذلك، فإنّ عدم الابتعاد عن الإسراف والتبذير يؤدّيان إلى السلوك العدواني نحو البيئة والاعتداء عليها لإشباع الرغبات التي لا تتوقف عند حدّ معيّن إذا ما ترك لها العنان دون ضبط أو تقييد. ولقد عبّر أحد علماء الغرب الذين لهم اهتمام بموارد البيئة وهو مشفق ومتوجّس خيفة من تصرفات الإنسان المعاصر بقوله:"السلوك العدواني للحصول على المال أو المكان، تدمير الجمال الطبيعي، المعالم

---

[٦٢٩] أخرجه مسلم في **صحيحه**. انظر: النووي، **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجّاج**، ج٣، ص٣٦١.

[٦٣٠] النجار، **قضايا البيئة من منظور إسلامي**، ص٤٨. ولمزيد من التوسّع انظر: قور، **الأرض في الميزان**، ص١١٥. ويعدّ هذا الكتاب الأخير من أهمّ الكتب الغربيّة التي بينت خطورة الأزمات البيئيّة، وعظم ضررها على الأرض والناس جميعا إذا لم يتم تفاديها.

التاريخيّة، تبديد المصادر الطبيعيّة، الأخطار على الصحّة بسبب التكنولوجيا بدون أيّ تفكير. كلّ هذه الخواص لمجتمعنا الحاضر تُسهم في تجريد الحياة هذه من صفاتها الإنسانيّة"[٦٣١]، وباستمراها، واستفحال أمرها تدمر البيئة، وتخرّب معاييش الناس.

وأيا ماكان الأمر، فإنّ الشارع الحكيم قد نبّه الإنسان إلى أنه هو مصدر الفساد بالبيئة، وإدخال الضرر عليها كما سبق أنْ أشرت إلى ذلك سابقاً مع ذكر لبعض آي الذكر الحكيم المتعلقة بهذا الأمر. وبالإضافة إلى ذلك، فقد ورد في سنّة الرسول ﷺ ما يؤكدّ هذا المعنى، ويزيده قوّة إلى قوّة وهو أنّ الرجل الفاجر الذي لا يخشى الله ﷻ، ولا يخافه يدخل ضررا على العباد والبيئة حتى إنّ موته يعدّ راحة لهم كما ورد في الحديث الشريف:"مستريح ومستراح منه العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله تعالى، والعبد الفاجر تستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب". قد ورد هذا الحديث بتفصيل أكثر في مسند الإمام أحمد رحمه الله: عن أبي قتادة قال:"كنا مع النبيّ ﷺ جلوسا في مجلس إذ مر بجنازة فقال رسول الله ﷺ «مستريح ومستراح منه». قال: "فقلنا يا رسول الله ما المستريح؟" قال: «العبد المؤمن يستريح من نصب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله». قلنا: "فما المستراح منه؟" قال: «العبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب»[٦٣٢]. وعليه، فإنّ أعمال العبد الفاجر في التصوّر الإسلامي تؤدّي إلى ضرر بالبلاد وما فيها من شجر ودوّاب مما يحدث فيها فساداً حتى إنّ موت مثل هذا العبد يعدّ مصلحة بسبب زوال الضرر على البيئة والعباد معاً. وعليه، فإنّ الشريعة الإسلاميّة قد قصدت إلى حسم مادّة الفساد والضرر على البيئة وهو الإنسان نفسه، كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]. ولذلك حرّمت الشريعة الإسلاميّة على الإنسان الإسراف والتبذير في كلّ شيء، والابتعاد عن الإفساد في الأرض وبيئتها بعد صلاحها للحياة وإصلاحها بما أودعه الله تعالى فيها من معايش مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الأعراف:١٠]، فضلاً عن قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ﴾ [الحجر:٢٠]. وعليه، فإنّ تحريم الفساد في البيئة أي نوع من الفساد يساهم في حفظ البيئة، وما فيها من معاييش جعلها الله ﷻ رزقاً للعباد تكرما منه وتفضلا على عباده.

والحاصل أنّ الشريعة الإسلاميّة تحرِّم الفساد مطلقاً فيشمل أيّ نوع من الفساد لأنّ ذلك يتنافى مع المقصد الشرعي من خلق البيئة للإنسان، ووجوب حفظها وحمايتها لتتيسر الحياة على الأرض. ناهيك عن أنّ القرآن الكريم قد أشار إلى أنّ الله ﷻ هو الذي أصلح الأرض؛ فجعلها صالحة للحياة تفضلا منه ورحمة، والفساد أيّ فساد كان لأنه يخلّ بمقصد إصلاحها، ولذلك فقد حرمته الشريعة الإسلاميّة

---

[٦٣١] دبو، **إنسانيّة الإنسان، نقد علمي للحضارة الماديّة**.

[٦٣٢] **متفق عليه**. أخرجه البخاري في **صحيحه**، ص١٥٢١؛ ومسلم في **صحيحه**، ص٤٣٥.

تحريما باتا كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦]. "فالإفساد في الأرض المنهي عنه في الآية مقصودا به إدخال الخلل على نظامها النافع بقرينة ما ذُكر من الصّلاح الذي في الأصل"[٦٣٣]. فضلاً عن أنّ هذا النهي عن الفساد في الأرض التي هي موطن البيئة، ومهدها أنها كانت دعوة الرسل أقوامهم إلى الابتعاد عن الإفساد في الأرض كما قال الله عالى على لسان شعيب عليه السّلام: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:٨٥]. ومن ثمّ، فإنّ تشريعات الإسلام المتنوّعة كلّها تحرص حرصا شديدا على حماية البيئة وحفظها، بل توجب ذلك على الناس، ويأثم الناس إذا لم يقوموا بهذا الواجب الشرعي نحو البيئة. "وإذا كانت رعاية البيئة والحفاظ عليها وإصلاحها يحقق مقاصد الشريعة، وضروريتها الخمس، فإنّ إفساد البيئة وتلويثها واستنزاف مواردها والإخلال بتوازنها —وهو ما يعبر عنه إسلاميّا بعبارة (الإفساد في الأرض)– يضيّع هذه المقاصد، ويجني على هذه الضروريات كلّها"[٦٣٤].

علاقة الإنسان بالبيئة في القرآن الكريم:

فإذا تقرر أنّ للبيئة أهميّة كبرى في مقاصد التشريع الإسلامي وأحكامه، بل هي المقصد الأسنى الذي تنبني عليه بقيّة المقاصد فلا دين، ولا حياة، ولا نسل، ولا عقل، ولا مال إذا لم تحفظ البيئة. وبناء على ذلك، فإنّ الشريعة الإسلاميّة تقرر أنه من الواجب على الناس جميعاً أنْ يتعاونوا على حماية البيئة، وحفظها من كلّ ضرر وفساد ليتسنى لهم جميعا الحياة السّعيدة على هذا الكون. ولعلّ من أهمِّ الأمور التي تزيد البيئة أهميّة في التشريع الإسلامي، ورفعة مكانة، وسموّها أنّ البيئة في التصوّر الإسلامي هي صنع الله تعالى وخلقه، وأنه تمّ إصلاحها كاملة، وهذا الصنع والخلق تمّ تسخيره لبني آدم جميعا. وإنّ هذا التصوّر الإسلامي للبيئة له أثر كبير في حماية البيئة، ومساهمة عظيمة في حفظها، ولكن قبل بيان ذلك، وتقريره تجدر الإشارة إلى هذا التسخير، والخلق للبيئة استناداً إلى ما ورد في الذكر الحكيم.

وبناء على ذلك، فقد وردت آيات كثيرة في مواضع متفرقة في شأن البيئة، ومكوّناتها، ولاسيما فيما يتعلّق بوجودها، وقابليّة الانتفاع بها والمتمثّل في عمليّة التسخير الرباني لها. فأما بالنسبة لأصل البيئة ووجودها فقد حسم القرآن الكريم هذا الأمر، وذلك بتكرير الإشارة إلى أنّ هذا الكون وما فيه من معاييش، وعناصر الحياة التي توفرت في البيئة إنما هو خلق الله ﷻ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً

[٦٣٣] النجار، **قضايا البيئة من منظور إسلامي**، ص٧٤.

[٦٣٤] القرضاوي، **رعاية البيئة في شريعة الإسلام**، ص٥٢.

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤]، فضلاً عن ذلك قوله الحقّ تبارك وتعالى: ﴿اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم:٣٢]، وغير ذلك من الآيات الأخرى التي تؤكد المعنى نفسه. وبالإضافة إلى التأكيد على أنّ البيئة خلق الله[٦٣٥]، فإنّ هناك آيات أخرى تشير إلى أنّ هذه البيئة التي من صنع الله وخلقه أنّ الله تعالى بفضله ورحمته قد سخّرها للإنسان كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان:٢٠]، فضلاً عن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل:١٤]، زد على ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج:٦٥].

والحاصل أنّ هناك علاقة بين خلق البيئة وتسخيرها في التصوّر الإسلامي من حيث إنّ الله تعالى هو الخالق للبيئة، وهو المسخّر لها. فإذا تقرر ذلك، فإنّ من الأهميّة بمكان أنْ نبيّن فائدة التسخير في حماية البيئة حفظها من الدّمار والخراب. وعليه، فنقول إنّ خلق البيئة من قبل الله ﷻ لا يجعل الإنسان مستطيعا من الاستفادة منها، بل قد يكون عاجزا في أكثر الأحيان عن الانتفاع بها، والاستفادة منها. والسبب في ذلك راجع إلى أنّ الله هو الذي خلقنا، وكانت إحدى الغايات الكبرى بعد عبادته تتمثّل في عمارة الأرض كما وردت الإشارة اللطيفة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود:٦١]. فلّما كانت غاية الحياة الإنسانيّة السكنى، والتعمير في الأرض، وتعميرها بما يحقق ترقيّة الإنسان، وتنميّة حياته، فإنّ هذه الغاية لا يمكن أنْ تتحقق بدون تسخير البيئة، وتيسير الانتفاع بها.

ومن ثمّ، فقد اقتضت حكمة الله تعالى العليم الخبير بأنْ سخّر البيئة التي خلقها للناس جميعاً حتى يتسنى للإنسان الانتفاع بالبيئة، والارتفاق بما فيها في حياته ومعاشه. ومعنى "تسخير البيئة للإنسان أنّ هذه البيئة مهيّأة في أصل طبيعتها من قِبل صانعها تهيئة مقدّرة بحيث تستجيب للإنسان فيما خُصّ به من مهمّة في الحياة"[٦٣٦]، والتي تتمثّل في عمارة الأرض. وقد سبقت الإشارة إلى الآيات القرآنيّة الدّالة على تسخير الكون وما فيه للإنسان معاشه، ويقترب من معنى التسخير مصطلح التذليل الذي يحمل معنى التيسير، وإزالة الصعوبة عن الشيء. وقد وردت الإشارة إلى معنى تذليل البيئة بتذليل الأرض في قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾

[٦٣٥] المصري، **الإعجاز الاقتصادي للقرآن الكريم**، ص٢٦.

[٦٣٦] النجار، **قضايا البيئة من منظور إسلامي**، ص١٧٩.

[الملك:١٥]. وأضاف الله تبارك وتعالى مع تذليل الأرض تذليل الحيوان ليتم الانتفاع التام بالبيئة وما فيها كما قال تعالى: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [الملك:١٥]. ومن ثمّ، فإن الله تعالى جعل تذليل الأنعام وتسخيرها للعباد نعمة كبيرة حيث أمر الشارع بأن نشكر الله ونحمده على ذلك كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ [الزخرف:١٢-١٣]. والحاصل أنّ رحمة الله اقتضت أنْ يخلق للإنسان بيئة ملائمة لحياته ومناسبة لمعاشه، وبفضله سخّرها له وذللها حتى يتمكن من الانتفاع بها انتفاعا ميسّراً وسهلاً. وهذا الأمر يوضّح لنا العلاقة بين خلق البيئة، وتسخيرها، وتذليلها، والأمر بعمارة الأرض، إذ إنّ خلق البيئة من قبل الله تعالى لا يكفي للانتفاع بالبيئة وما فيها من موارد نظرا لصعوبة ذلك، وتجاوزه لقدرة الإنسان واستطاعته. ونظراً لذلك سخّر الله ﷻ هذا الخلق (البيئة) ويسّره لمنفعة البشر ومصلحتهم، وبذلك حصل المقصود من خلق البيئة لتكون موطناً للناس وفيها معاييشهم، وعليها تقضى مصالحهم.

فقد تقرر مما سبق أنّ الشريعة الإسلاميّة، وتعاليمها الربانيّة توجه الإنسان توجيها للتعامل مع البيئة تعاملا رفيقاً مما يجعله يستفيد منها ومن مواردها، ويحقق صيانتها، وحمايتها من التلف والدّمار. وبالإضافة إلى ما قررناه سلفاً، فإنّ من الأمور المهمّة التي تبرز لنا أهميّة البيئة في التصور الإسلامي، وتظهر مدى مراعاة الشارع لها، والعمل على حفظها، وحمايتها أنّ الله اختار آدم وذريته بوصفهم خلفاء في هذه الأرض. وهذه الحقيقة ورد بذكرها جمل من آي الذكر الحكيم منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠]. وعليه، فإنّ الله ﷻ قد جعل ذرية آدم عليه السلام خلفاء في الأرض كما قال الحقّ تبارك تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل:٦٢]. ثم إنّ هذا الاستخلاف لبني آدم في الأرض قد حمّلهم مسؤوليّة كبرى، ووظيفة عظمى تتمثّل في عمارة الأرض كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود:٦١].

وزيادة على ذلك، فإنّ هذا الاستخلاف الذي تفضل به الله ﷻ سنحاسب عليه جماعات وأفرادا كما وقعت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِينَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٢٩]، وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتاً وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَاراً﴾ [فاطر:٣٩]، فضلا عن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

[الأنعام:١٦٥]، وبالإضافة إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِم لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:١٤]. وبناء على أهميّة هذا الاستخلاف، وخطورة أمره، فقد جاءت الرسالات السّماويّة لتذكير الناس بهذه الوظيفة كما وردت الإشارة إلى ذلك في الآية السّابقة، بل إنّ الأنبياء – عليهم السّلام – قد جعلهم الله تعالى خلفاء في الأرض ليكونوا قدوة خير، وأسوةً حسنة للناس جميعا كما في قوله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص:٢٦]. ناهيك عن الاستخلاف الجماعي حيث إنّ سنة الله تعالى اقتضت أنْ يجعل هذا النوع من الاستخلاف متداول بين الأمم والأقوام حيث يخلف بعضهم بعضاً كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٧٤]. ناهيك عن قوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:٦٩].

وفضلاً عن ذلك، فإنّ المولى ﷻ قد جعل أهل العمل الصالح لهم الأولوية، والأسبقيّة في الاستخلاف، وأنهم أحقّ بها من غيرهم بسبب الإيمان والعمل الصالح كما قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور:٥٥]، ناهيك عن قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلاَئِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ [يونس:٧٣]. والحاصل أنّ الإنسان هو خليفة الله تبارك وتعالى في الأرض، وهذا الاستخلاف ليس عاريا عن أيّ مسؤوليّة أو وظيفة تجعل من الاستخلاف تكليفاً للإنسان، بل إنه صار مكلّفا بسبب هذا الاستخلاف، وهذا التكليف صيّر الإنسان مسؤولا، بل هو المخلوق الوحيد المكلّف في هذا الكون.

ومن ثمّ، فإنّ اختيار الإنسان ليكون خليفة يترتب عليها أنه مكلّف ومسؤول على ما يحدث في هذا الكون، وما يجري فيه من أحداث متتابعة. زد على ذلك أنّ علاقة هذا التكليف بحفظ البيئة، وحمايتها في التصوّر الإسلامي يتمثّل في العلاقة الوظيفيّة بين استخلاف الإنسان، وتسخير البيئة. فـ"البيئة هي المسرح الذي يقوم عليه الإنسان بأداء وظيفته في الحياة، فتكون له إذن علاقة وظيفيّة بالإضافة إلى علاقته الوجوديّة بها، فأداء الإنسان لوظيفته في الحياة يقتضي أنْ يكون للبيئة دور معيّن فيه من جهة ما هي مسرح لذلك الأداء، كما يقتضي أنْ يكون للإنسان تصرّف بيئيّ وفق ذلك الدّور

المعيّن. ومن ثمّ تنشأ العلاقة الوظيفيّة بين الطرفين"[٦٣٧]. وتعتبر هذه العلاقة الوظيفيّة بين استخلاف الإنسان، وتسخير البيئة عنصراً مهمّا من عناصر التصوّر الإسلامي لعلاقة الإنسان بالبيئة.

وبيانا لذلك أقول إنّ حكمة الله ﷻ اقتضت أنْ يستخلف الإنسان في الأرض، وجعلها وظيفة أساسيّة له في الكون، ومن متطلباتها عمارة الكون، وتعميره. ومن تمام حكمة الله تبارك تعالى، ولطف تدبيره، وعظيم منته أنْ خلق هذا الكون، وما فيه من بيئة، وسخرّها للإنسان حتى يتمكن من القيام بوظيفته أحسن قيام، وأن يتيّسر له ذلك. وزياد في تقرير هذا المعنى وإيضاحه أقول إنّ الإنسان قد حمّله الله تبارك وتعالى مسؤوليّة الاستخلاف، فلو لم يسخِّر له البيئة، ويذلل له عناصرها المتنوعة لما استطاع القيام بهذه الوظيفة بوصفه خليفة الله في الأرض، فيكون هذا تكليف بما لا يطاق، وشرع الله يتعالى عن ذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٦]، وقوله تعالى: ﴿لاَ نُكَلِّفُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [الأعراف:٤٢]، فضلاً عن وقوله تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [المؤمنون:٦٢]. وبناء على أنّ الشريعة الإسلاميّة لا تكلّف الإنسان بما يعجز عنه أو يصيبه عنت في القيام به، ولا شكّ أنّ استخلاف الإنسان، وتكليفه بعمارة الكون اقتضى تسخير البيئة له، وتذليلها لخدمة هذا المقصد الأعظم، والغاية المطلوبة.

وأيا ما كان الأمر، فإنّ تسخير البيئة، وتذليلها للإنسان غرضها تيسير مهمته في الأرض، أن يكون قادراً على أداء وظيفته في التعمير. ومن ثمّ، فإنّ تسخير البيئة وارتباطها بالبيئة ارتباطاً من حيث الوجود والعدم يقتضي من الإنسان أن يحافظ على البيئة، ويحميها، ولا تكون تصرّفاته سبباً لهلاكها وفسادها. ولعلّ هذا الأمر جعل الشارع الحكيم يعلّق ظهور الفساد انتشاره في الكون وبيئته بتصرفات الناس أنفسهم كما قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]. وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ دعوة الأنبياء عليهم السّلام قد اشتملت على تحريم الفساد في الأرض، دعت الناس للابتعاد عن ذلك كليّة كما في دعوة شعيب عليه السلام وغيره من الأنبياء، حيث يقول الله تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت:٣٦]. فضلاً عن قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود:٨٥]. وقوله تعالى في قارون الذي بغى في الأرض وأكثر فيها الفساد فقال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٧٧].

[٦٣٧] النجار، **قضايا البيئة من منظور إسلامي**، ص١٧٦.

ويتقرر مما سبق أنّ أكثر الفساد الذي يكون في الأرض إنما يكون في البيئة بتدميرها، واستنزاف خيراتها، وإزالة صلاحها للعيش والحياة. ولذلك حذّر الشارع أيما تحذير من هذا الأمر، واعتبرها من فساد أخلاق الإنسان وتصرّفاته كما وقعت الإشارة إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٤-٢٠٥]. فالفساد في الأرض إنما متعلق بالإفساد في البيئة، وتخريبها، وتدمير ما فيها من موارد وخيرات جعلهما الله تبارك تعالى سببا للحياة. وبعبارة أخرى، فإنّ ذلك يعني "تعطيل لما خلقه الله في هذا العالم لحكمة صلاح الناس"[٦٣٨]، وإصلاح معيشتهم في الحياة الدنيا. ونظير هذه الآية الناهية للناس عن إفساد البيئة، وإتلافها إسرافا وتبذيرا قوله تعالى: ﴿وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة:٦٠]، ناهيك عن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الشعراء:١٨٣].

ولعلّ أهم سبب وراء هذا التحذير الرباني من الفساد في الأرض أنّ إدخال الضرر على البيئة أي نوع من الضرر، يجعلها غير صالحة للحياة الأمر الذي يؤدّي إلى قتل الناس. ولقد تقدّم في أول البحث تقرير أنّ حفظ النفس مقصد عظيم من مقاصد الشارع الكريم، ومن أجله شرعت أحكام متعددة من شأنها أن تحفظ النفس وتحميها. فانظر إلى قوله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة:٣٢]. "فالفساد في الأرض الذي جُعل أحد أسباب قتل النّفس الإنسانيّة بغير حقّ يشمل من بين ما يشمل الفساد الذي يحدثه الإنسان في البيئة فيؤدي إلى هلاك الأنفس، ويكون بذلك من أفسد البيئة فكأنما قتل الناس جميعا، ويتداخل إذن المصير بين الإنسان والبيئة، بحيث يؤدّي هلاكها إلى هلاكه، ولذلك اعتُبر في الآية الإفساد البيئي عملاً غير أخلاقي، وشدّد عليه النكير"[٦٣٩]. وإذا أخذنا بعين الاعتبار في المقابل بمفهوم المخالفة عملا أخلاقيا إحياء الأنفس بالمحافظة على البيئة صالحة للحياة، تنميها في سبيل ذلك. وبناء على ذلك، فقد تقرر أنّ النهي عن الفساد في البيئة إنما هو أمر بالمحافظة عليها وحمايتها من كلّ ضرر في التصّور الإسلامي للبيئة، وكيفيّة حمايتها. والسبب في ذلك عدم الفصل بين صلاح البيئة وحفظها، وصلاح حياة الإنسان فيها، كما أنه لا يمكن الفصل بين إفساد البيئة، التي يترتب عليها فساد حياة الإنسان، انعدامها بانعدام صلاحيّة البيئة للعيش. وهذا الأمر يدل دلالة واضحة على سمو الشريعة

---

[٦٣٨] ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**، ج٢، ص٢٧٠.

[٦٣٩] النجار، **قضايا البيئة من منظور إسلامي**، ص١٩٨.

وتعاليمها حيث جعلت حماية البيئة وحفظها مسؤولية الإنسان، بل إنّ القيام بمهمّة الاستخلاف مبني على ما يبذله من جهد متواصل في حماية البيئة، وذلك بالابتعاد عن كلّ ما فيه إفساد لها أو ضرر عليها.

خاتمة:

النُدرة عندما ترد في السياق الاقتصادي أو في كتبهم فيعنون بها قلة الموارد الاقتصادية وندرتها. وعليه، فإنّ ندرة الموارد تعدّ – خصوصا عند الاقتصاديين – الخطر الأساس الذي يهدد الوجود البشري في هذا العصر. فهذه الندرة تعدّ عند الاقتصاديين معضلة اقتصادية ناتجة عن رغبات الإنسان غير المتناهية مقابل موارد محدودة متناهية، مما يقتضي التعامل معها بحذر، وإيجاد سياسة اقتصادية من شأنها أن تعمل على توزيع الموارد النادرة توزيعا يلبي حاجات الإنسان ورغباته، ويلائم ندرة الموارد وقلتها. ومن الأمور التي يقترحها الاقتصاديون أن الإنسان ينبغي أن يختار بعضا من الموارد الضرورية والحاجية لمعيشته لتلبية رغباته، ولا يسعى وراء الحصول على الموارد. فمفهوم الندرة من منظور اقتصادي يعني موارد محدودة في العالم مقابل حاجات ورغبات غير محدوة، فضلا عن الزعم بأنّ الإنسان متّصِف بالجشع والطمع ودائما له رغبات متجددة، وحاجات لا تتوقف عند عدد معيّن. وسبب ذلك عند الاقتصاديين أن الطبيعة لا توفر موارد كافية لتلبية حاجات الناس ورغباتهم الغير متناهية. بينما نظرة الإسلام التي يمثلها القرآن الكريم للندرة نظرة مختلفة عن نظرة الاقتصاد التقليدي لها من حيث مفهومها وأسبابها وطرق معالجة هذه المشكلة. فالمشكلة ليست في البيئة لأنّ الله جعل فيها معايش الناس، ولكن تعامل الناس مع البيئة، وتصرفاتهم أدت إلى إحداث ضرر كبير فيها، وجعلت فيها مفاسد جلبت للناس مشاق في حياتهم وصعوبات في العيش كانوا في غنى عنهم لو أحسنوا التصرّف في البيئة. ولذلك كانت النظرة القرآنية للبيئة نظرة مقاصدية تجلب نفعا للناس وتدرأ مفسدة عن البيئة، وجعلت لعلاقة بين الإنسان والبيئة علاقة تسخير، وأن الإنسان مستخلف فيها، فيتصرف فيها بمقتضى ما فيه جلب المنافع ودفع المفاسد، وجِماع ذلك كلّه قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:٨٥].

المصادر والمراجع:

١. ابن عاشور، **تفسير التحرير والتنوير**،
٢. ابن فارس، **مقاييس اللغة**،
٣. البخاري، **الصحيح**،
٤. الحمد وسعيد، **البيئة ومشكلاتها**،
٥. دبو، **إنسانيّة الإنسان، نقد علمي للحضارة الماديّة**.
٦. الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**،

٧. عبد المقصود، **البيئة والإنسان**،
٨. الغزالي، **المستصفى من علم الأصول**،.
٩. الفقي، **البيئة: مشاكلها وقضاياها**،
١٠. القرضاوي، **رعاية البيئة في شريعة الإسلام**،
١١. القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**،
١٢. قور، **الأرض في الميزان**،
١٣. مسلم، **الصحيح**،
١٤. المصري، **الإعجاز الاقتصادي للقرآن الكريم**،
١٥. النجار، **قضايا البيئة من منظور إسلامي**،.
١٦. النووي، **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجّاج**.

17. Rohlf, William, 2010*, Introduction to Economic Reasons*, Pearson, New York, p. 6.
18. Xenos, Nicholas, 1989. *Scarcity and Modernity*, Routledge, London and New York, p. 2.
19. See: Turner,Bryan and Chris Rojek, 2001, *society and culture: Principles of Scarcity and Solidarity*, Sage Publications, Canada, pp.68-95.
20. Moten, & Islam. *Introduction to Political Science*, p. 473.

٢ - محور

الوسطية والاعتدال من منظور القرآن والسنة

أزمة المنهج الوسطي بين التطرف والمداهنة

د. نجم عبد الرحمن خلف[1] د. ساجدة حلمي سمارة[2]

ملخص البحث:

المنهج الوسطي يعني الاعتدال في الاعتقاد والفكر، والموقف والسلوك، والنظام والمبادئ، والمعاملة والأخلاق. واليوم يواجه المنهج الإسلامي الوسطي جملة من التحديات؛ من أبرزها مسارب الانحراف عن صراطه ومنهجه، فهما وتنزيلا، واعتقادا وعملا. ومن أبرز هذه المزالق المنحرفة، التي تريد أن تعصف بهذا الجمال والجلال لتحيله إلى خراب ودمار؛ هي: مسارب منهجية التطرف والغلو، والمداهنة والنفاق. فكلاهما ينازعان استقامة الوسطية، ويحاولان جاهدين سلبها وسامها المميز القائم على الاعتدال والتوسط والاستقامة، من غير إفراط ولا تفريط، وهذه هي مشكلة البحث التي أردنا التصدي لها بحثا فيها، وبيانا لأبعادها، وفي تشخيص دائها وعلاجها. وإن من أهم أهداف هذا البحث أن يتنبه الجيل المسلم المعاصر لهذين المسربين الخطيرين المنحرفين عن منهج الوسطية؛ وهما: التطرف والغلو والمداهمة والنفاق، ليكون على وعي كامل بهما، وبما انطويا عليه من المخاطر، وأن يجتهد الجيل المسلم للتصدي لهما وإفشال مكرهما. كما أوضح وأؤصل مفاهيمه ومصطلحاته؛ فإنَّ من المصطلحات التي تحتاجُ إلى إيضاحٍ وتحديدٍ لمفهومها الدقيق مصطلح المداراة، والمداهنة، وبيان الفرق بينهما. فإن كثيرا من المسلمين يخلط بينهما، وإن هذا الخلط خطير على الأفراد والجماعات، وله آثار سلبية كثيرة. وكان من ثمار هذه الدراسة تنبيه الأمة لخطورة هذه المزالق، وكشف عوارها، بوضع الحدود الفارقة التي تزيل اللبس والغموض عن البون الشاسع الواسع بين مصطلح المداراة والملاينة، وبين المداهنة والنفاق. كما شخص البحث الخلل الكبير الذي وقع فيه كثير من أبناء هذه الأمة المتمثل في الإفراط والتفريط، من خلال الوقوع في المتناقضات.

مقدمة:

يواجه المنهج الإسلامي الوسطي اليوم جملة من التحديات؛ من أبرزها مسارب الانحراف عن صراطه ومنهجه، فهما وتنزيلا، واعتقادا وعملا. ومن أبرز هذه المسارب المنحرفة، منهجية التطرف والغلو، والمداهنة والنفاق. وكلا هذين المسربين ينازعان استقامة الوسطية، ويحاولان جاهدين سلبها وسامها المميز القائم على الاعتدال والتوسط والاستقامة، من غير إفراط ولا تفريط، وهذه هي مشكلة البحث التي أردنا التصدي لها بحثا فيها، وبيانا لأبعادها، وفي تشخيص دائها وعلاجها. ومن الأسباب التي تساعدُ على تأصيل المفاهيم، وتزيدها إيضاحا، وتحديداً، وتحريراً هي دقة المصطلحات العلمية التي نستخدمها ونطلقها على مفهومٍ معين، وإنَّ من المصطلحات التي تحتاجُ إلى إيضاحٍ وتحديدٍ هو المفهوم الدقيق لمصطلح المداراة، والمداهنة، وبيان الفرق بينهما. فإن كثيرا من المسلمين يخلط بينهما، وإن هذا الخلط خطير على الأفراد والجماعات، وله آثار سلبية

---

[1] الأستاذ المشارك في كلية دراسات القرآن والسنة، جامعة يوسيم.

[2] الأستاذ المساعد في كلية دراسات القرآن والسنة، جامعة يوسيم.

كثيرة. وقد أولت هذه الدراسة هذا الأمر عناية بالغة، وحددت الفوارق الدقيقة بين مصطلح المداراة والملاينة، وبين المداهنة والنفاق.

والدراسات السابقة في هذا الباب على وجه الخصوص محدودة، وهي فوائد منثورة في بطون الكتب من المصادر والمراجع، كالتفاسير، والشروح الحديثية، ويعض المؤلفات التربوية والأخلاقية. وإن أبكر كتاب تعرض لهذه القضية تسجيلا وتوثيقا، كتاب الحافظ ابن أبي الدنيا البغدادي (ت٢٨١هـ) حيث صنف للجيل المسلم كتابه القيم: "مداراة الناس والصبر على أذاهم"، وهو أول مصنف مستقل مسند مؤصل في موضوعه. وقد استفدنا منه مادة طيبة أعانتنا على حسن فهم ما كان عليه السلف الصالح في منهجية التمييز بين المداهنة المذمومة، والمداراة الشرعية التي ندبنا للعمل بها؛ أما الدراسات في الوسطية، والغلو، والنفاق فهي كثيرة وافرة، لكنها لم تعالج هذا الموضوع علاجا يناسب خطورته وأهميته.

والدين الإسلامي الحق هو الدين الوسط، ومنهجه هو المنهج الوسطي، الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، ولا غلو فيه ولا تضييع. والوسط هو ما كان مستقيما وقيما بين طرفين كلاهما ذميم؛ فهذه الأمة الإسلامية جعلها الله سبحانه وسطا بين طرفين من الأمم؛ طرف الغلو الذي وقع فيه النصارى، وطرف التسيب الذي كان في اليهود، فهي الأمة وسط بين غلو النصارى، وتساهل وانفلات اليهود، ومن تابعهم وشايعهم وماثلهم في الضلال بشقيه الإفراط والتفريط.

والوسطية تعني الاعتدال في الاعتقاد والفكر، والموقف والسلوك، والنظام والمبادئ، والمعاملة والأخلاق، وهذا يعني أن الإسلام دين معتدل غير جانح ولا مفرط في شيء من الحقائق، فليس فيه مغالاة في تطرف ولا شذوذ في الاعتقاد، ولا استكبار ولا خنوع ولا ذل ولا استسلام ولا خضوع وعبودية لغير الله تعالى، ولا تشدد أو إحراج، ولا تهاون ولا تقصير، ولا تساهل أو تفريط في حق من حقوق الله تعالى، ولا حقوق الناس، وهو معنى الصلاح والاستقامة[1].

والوسطية وفق ضوابطها الشرعية وسط بين رذيلتين هما سوء العشرة والفظاظة باسم الحق، أو المداهنة والنفاق. وفظاظة الخلق، والتنطع في الدين مرده إلى الغلو والتطرف، والمداهنة والنفاق مرده إلى خفة الدين،
وقلة الورع، والتهاون في أمر الله سبحانه.

وهذان المسربان هما آفة الانحراف عن قاعدة الاعتدال؛ لتنكبهما عن صفة الوسطية التي تميز بها هذا الدين الكريم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠]. وأي جنوح عن الاعتدال والتوازن سيؤدي بصاحبه إلى الأفراط أو التفريط، وكلا الطريقين مذمومين منحرفين عن صراط الوسطية التي أرادها الله سبحانه وتعالى لأمة الشهادة، أمة محمد صلى الله عليه وسلم.

[1] وهبة الزحيلي، **إذا اختل ميزان الحق والعدل والتوسط في الأمور**، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٤٨١، ٩/١٠/٢٠٠٥م.

المبحث الأول

الغلو والتطرف في مواجهة المنهج الوسطي

الغلو هو: (الارتفاع، ومجاوزة الحد. يقال: غلا في الدين جاوز الحد، وأفرط فيه)[1]. وعلى هذا فالغلو: هو المبالغة والإيغال ومجاوزة الحد في أي أمر من الأمور كالمبالغة في الحب أو البغض، والمغالاة في الإقبال أو الإدبار، فإنه سلوك سبيل الإفراط أو التفريط بعيداً عن الاعتدال والاتزان والوسطية، وهو أمر مرفوض منبوذ بطرفيه في شؤون الدين والدنيا على السواء، وآفة الغلو ومجاوزة الحد قد تصيب التفكير، وتعصف بالموازين والمقاييس، وقد تصيب السلوك والمواقف فهي آفة العقائد والأفكار، ومردية للأقوال والأفعال لبعدها عن الاستواء والاعتدال.

ومعاملة الناس قد تعتريها آفة الغلو كما تعتري غيرها من الأعمال الصالحة، فتعمل على إخراجها عن دورها الكريم في مداراة الناس، والصبر على آذاهم ابتغاء تأليف قلوبهم، وتطيب نفوسهم، ليتسنى بعد ذلك للمصلح أن يأخذ بأيديهم إلى مراقي الكمال، فتتحول المعاملة مع الناس إلى المداهنة والنفاق عند الإفراط والتساهل، وإلى سوء الأدب وجفاء الخلق عند التفريط بها، باسم الانتصار للحق والتأديب للمخالفين، وكلا طرفي الأمر ذميم، فالمداراة للناس على ما فيها من مناقب ومحاسن –لا تكون محمودة إذا خالطتها آفة الإفراط– فالمبالغة في مسايسة الناس وملاينتهم على حساب الحق، والسير وفق أهوائهم وآرائهم الضالة أمر أنكره الله سبحانه وتعالى على الأمم السابقة من أهل الكتاب، وبدعهم، وحذر الأمة من الوقوع فيه، فأنزل فيه قرآنا يتلى جيلا بعد جيل، فقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٧] فالمداراة بشقيها إفراط وتفريط هي في المحصلة النهائية خروج عن أمر هذا الدين، فالتفريط في خلق المداراة والإعراض عنه، واستعمال الحزم والشدة على العصاة والفسقة وغيرهم، والعدول إلى أسلوب الغلظة والعنف والقسوة في التعامل مع الناس تفريط في حق ألزمنا الله به، ووقوع في تصرف نهانا الله عنه، فالتفريط في المداراة والملاينة وحسن الخلق يذهب بهاء الدعوة إلى الله، وينفر المدعوين والله سبحانه وتعالى حينما أمر الأمة الإسلامية بالدعوة إلى سبيله اشترط في أمره الرباني الحكمة والموعظة الحسنة والجـــــدال بالتي هي
أحسن: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥].

ومن غفل أو عدل عن هذه الأصول الدعوية الربانية لم يقم بحق الدعوة التي أرادها الله سبحانه، بل أتى بها على الوجه الذي يحبه هو، لا كما يريد الله تعالى وهذا تفريط وانحراف.

أما الإفراط في المداراة والتزيد فيها بما يخرجها عن حدها الشرعي إلى المداهنة والنفاق فسأفرد له مبحثا مستقلا يليق به وسأجعله بعد هذا القسم من هذا المبحث.

أما الغلو فكما أسلفنا: (فهو آفة سيئة ومن طريقة يكون التحريف والتنكب عن الوسطية التي تميز بها هذا الدين، وعن السماحة التي وصفت بها هذه الملة الحنيفية، وعن اليسر الذي اتسمت به التكاليف في هذه الشريعة)[2]. (فهذا الدين منهج

[1] ابن منظور، **لسان العرب**، ج١٥، ص١٣٢.

[2] القرضاوي، **كيف نتعامل مع السنة النبوية**، ص٢٨.

وسط لأمة وسط، لهذا كان صلى الله عليه وسلم إذا لمح من بعض أصحابه جنوحا إلى إفراط أو تفريط ردهم بقوة إلى الوسط وحذرهم من مغبة الغلو والتقصير)[1].

(والوسطية إحدى الخصائص العامة للإسلام وإحدى المعالم الأساسية التي ميز الله بها أمته من غيرها)[2]. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣]. وفي الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري في إنكاره صلى الله عليه وسلم على الثلاثة الذين سألوا عن عبادته فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها فكان جوابه صلى الله عليه وسلم: «أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[3].

فلم يعجبه صلى الله عليه وسلم صنيع هؤلاء الصحابة ومبالغتهم في التعبد إلى درجة الغلو والخروج عن الطريق الذي ارتضاه الله لنا، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فسارع إلى إلقاء خطبته التي قرر فيها ضرورة الحرص على اتباع الأوامر واجتناب النواهي مع الاحتفاظ بخط الوسط والابتعاد عن الغلو في العبادات والسلوك والعقائد الذي كان سببا في هلاك من قبلنا من الأمم لغلوهم في الدين حيث قال صلى الله عليه وسلم: «إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك من كان قبلكم بالغلو في الدين»[4]. وسبب ورود الحديث ينبهنا إلى أمر مهم وهو أن (الغلو قد يبدأ بشيء صغير، ثم تتسع دائرته، ويتطاير شرره)[5].

وأخرج البخاري في صحيحه في كتاب الصوم أنه ﷺ لما رأى مبالغة عبدالله بن عمرو رضي الله عنه في الصيام والقيام والتلاوة رده إلى الاعتدال قائلاً: «إن لبدنك عليك حقا ولعينك عليك حقا ولأهلك عليك حقا ولزوجك عليك حقا فأعط كل ذي حق حقه»[6].

وفيه أنه ﷺ لفت انتباه عبد الله إلى ضرورة الاعتدال والتوسط في الأمور وتوزيع الحقوق فأوصاه بمداراة نفسه وبدنه بإعطائها نصيبها من الامتاع والتلطف وحسن المعاملة، ومداراة الضيف بحسن ضيافته وإكرامه.

فنلحظ أن هذا الحديث قد جمع الخيرات وأوضح ضرورة الشمول والتوازن في الأعمال بدون إفراط ولا تفريط. فالمسلم مطالب بإعطاء البدن نصيبه وحظه من الراحه والنوم بدون المبالغة في ذلك بحيث لا يستغرقه هذا الحق فيصرفه عن الهمة في العبادة وأمور المعاش وعن حقوق الآخرين من أهل وغيرهم.

---

[1] القرضاوي، **كيف نتعامل مع السنة النبوية** ص٢٤.

[2] القرضاوي، **الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف**، ص٢٨.

[3] البخاري، **الصحيح**، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، ج٦، ص١٦؛ ومسلم، **الصحيح**، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه ووجد مؤنة، واشتغال من عجز عن المؤن بالصوم، ج٢، ص١٠٢٠، رقم١٤٠١.

[4] أحمد، **المسند**، ج١، ص٢١٥؛ والنسائي، **السنن**، ج٥، ص٢٦٨، رقم٣٠٥؛ وابن ماجه، **السنن**، ج٢، ص١٠٠٨، رقم٣٠٢٩.

[5] القرضاوي، **الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف**، ص٢٩.

[6] البخاري، **الصحيح**، كتاب الصوم، باب حق الجسم في الصوم، ج٢، ص٢٤٥.

وقد حذر النبي ﷺ من الغلو، وبين أنه قد يكون سببا للحرمان من شفاعته يوم القيامة حيث قال: «رجلان من أمتي لا تنالهما شفاعتي: إمام ظلوم غشوم، ومغال في الدين مارق منه»[1].

وقد نهج السلف منهج التوسط الذي أوصانا به ﷺ، فقد كان الإمام الثقة "محمد بن سيرين ينشد الشعر، ويضحك حتى يميل فإذا جاء الحديث من السنة كلح"[2].

ومن خلال هذه الأمثلة المعبرة نجد التوازن في رجال هذه القرون الفاضلة من السلف الصالح، فنراهم يحرصون على إعطاء كل ساعة أدبها وحقها في اعتدال واتزان، فكان الواحد منهم صدقًا وحقًّا رجلَ الساعةِ، ويدخل في هذا المعنى اللطيف الكثير من توجيهات النبي ﷺ، فقد صح عنه ﷺ أنه قال فيما أخرجه مسلم: «لا صلاة بحضرة طعام ولا هو يطارده الأخبثان»[3]. وقال: «إذا حضر العشاء وأقيمت الصلاة فابدؤوا بالعشاء»[4]. وقد وضح ﷺ جوانب الخيرية في الفرد المسلم فقال: «ليس خيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا من ترك آخرته لدنياه، حتى ينال منهما؛ فإن كل واحد منهما مبلغة إلى الأخرى، ولا تكونوا كلاً على الناس»[5].

فقد حث ﷺ على التوسط والاعتدال والموازنة وعدم الانغماس في قضايا الدنيا مع نسيان الآخرة والعكس واعتبر من يفرط في الانصراف إلى إحداهما ليس بالخير. وأخذ الصحابة رضوان الله عليهم هذا المفهوم المتوازن وعملوا بهذا المنهج النبوي فقد كان تميم الداري ﷺ يوصي من معه بقوله: "خذ من نفسك لدينك ومن دينك لنفسك حتى يستقيم لك الأمر على عبادة تطيقها"[6]. فالمهم هو أن يكون بمقدورنا إنجاز ما نلزم أنفسنا به بحيث لا نكلف النفس بما لا تستطيع إلى حد يجعلها ترى العبادة الثقيلة جدا خاصة مع تقدم السن قال الحسن ﷺ: "كان رجل من المسلمين يقرأ كل ليلة سورة البقرة مع ما يقرأ من القرآن فطال ذلك عليه فما كانت ليلة أثقل عليه من ليلة الجمعة"[7].

وكما أن الغلو في العبادات مذموم فكذلك الحال في الغلو في السلوك كالمبالغة في الغلظة في التعامل مع الناس والإساءة لهم والشدة عليهم فقد مضت سنة الله أن الناس يبغضون الفظ الغليظ القلب حتى لو كان ناصحا لهم مريدا للخير حريصا على ما ينفعهم وقد ظهر هذا المعنى واضحنا جليا في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩]. (أي لو كنت سيء الكلام، خشن الجانب، شرس الأخلاق، جافيا في المعاشرة قولا وفعلا، غليظ القلب أي قاسياً، لتفرقوا عنك، ونفروا منك، حتى

---

[1] الطبراني، **المعجم الكبير**، ج٢٠، رقم٤٩٥-٤٩٦. وقال الهيثمي في **مجمع الزوائد**، ج٥، ص٢٣٥: "رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات".

[2] ابن أبي الدنيا، **مداراة الناس والصبر على أذاهم**، (مخطوط)، رقم٧٢.

[3] مسلم، **الصحيح**، كتاب المساجد، ومواضع الصلاة، باب كراهية الصلاة بحضرة الطعام المراد أكله، ج١ ص٣٩٣.

[4] مسلم، **الصحيح**، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهية الصلاة بحضرة الطعام المراد أكله، ج١، ص٣٩٢.

[5] ابن أبي الدنيا، **مداراة الناس والصبر على أذاهم**، رقم٢٠٠، في إسناده رجل مجهول وبقية رجاله ثقات. وانظر، الديلمي، **الفردوس بمأثور الخطاب**، ج٣، ص٤٠٩، رقم٥٢٤٩.

[6] ابن أبي الدنيا، **مداراة الناس والصبر على أذاهم**، رقم١٩٩.

[7] المصدر السابق، رقم١٩٧.

لا يبقى حولك أحد منهم؛ لأن الفظاظة وغلظة القلب من الأخلاق المنفرة للناس، لا يصبرون على معاشرة صاحبها، وإن كثرت فضائله ورجحت فواضله، بل يتفرقون من حوله، ويتركونه وشأنه، ولا يبالون ما يفوتهم من منافع الإقبال عليه)[1].

وقد كان قول ابن إسحاق في تفسير هذه الآية: (إن الله سبحانه ذكر لينه لهم وصبره عليهم لضعفهم ولقلة صبرهم على الغلظة – لو كانت منه – في كل ما خالفوا فيه – مما افترض عليهم من طاعة نبيهم)[2].

(فعلى الجماعة المسلمة أن تعي وتفهم هذه السنة جيداً فإن كانت طبيعة الفظاظة وغلظة القلب تنفر الناس من رسول الله صلى الله عليه وسلم فنفرة الناس من الجماعة المسلمة إن كانت موصوفة بالفظاظة والغلظة أولى)[3].

والناس بشكل عام بحاجة إلى الرحمة والبشاشة والسماحة والود وبحاجة إلى القلب الكبير الذي يعطيهم من حبه وحنانه وسعة صدره وحلمه وصبره. فنفرة الناس وتفرقهم من حول الداعي من العيوب والآفات الملازمة للغلو؛ وذلك لأنه (قصير العمر لا يدوم والاستمرار عليه غير متيسر فإن صبر يوما على التشدد والتعسير فسرعان ما تكل دابته وينتقل من الإفراط الى التفريط)[4].

لهذا أوصانا النبي ﷺ بالقصد والاعتدال وأن لا نحاول مغالبة الدين فيغلبنا، فقد أخرج البخاري عنه ﷺ قوله: «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا»[5].

وللغلو في الدين أسباب عديدة منها: (ماهو ديني ومنها ما هو سياسي واجتماعي واقتصادي ونفسي كضعف البصيرة بحقيقة الدين والاتجاه الظاهري في فهم النصوص والانشغال بالمعارك الجانبية عن القضايا الكبرى والتباس المفاهيم وغيرها كثير)[6].

والغلو في الدين قد يؤدي إلى السقوط في هاوية التكفير التي ظهرت منذ سنوات عديدة وقد التف حول هذه الظاهرة طائفة من الشباب الحديث السن الحديث العهد بالدعوة وصل الحد معهم إلى أنهم أصبحوا لا يرتضون الصلاة مع إخوانهم في العقيدة والفكر وشركائهم في الاضطهاد والمحنة وأساتذتهم في الدعوة والحركة)[7].

(والأولى بنا التخلي عن التشدد والغلو والالتزام بجانب الاعتدال والتيسير وخصوصا مع عموم الناس الذين لا يطيقون ما يطيقه الخواص من أهل الورع والتقوى)[8].

---

[1] عبد الكريم زيدان، **السنن الإلهية في الأمم والجامعات والأفراد في الشريعة الإسلامية**، ص٢٨٢.

[2] الطبري، **جامع البيان عن التأويل آي القرآن**، ج٤، ص١٥٠.

[3] عبدالكريم زيدان، **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية**، ص٢٨٤.

[4] د.يوسف القرضاوي، **الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف** (بتصرف يسير)، ص٣٠-٣١.

[5] البخاري، **الصحيح**، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، ج١، ص١٥.

[6] القرضاوي، **الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف** ص٤.

[7] القرضاوي، **ظاهرة الغلو في التفكير**، ص٤.

[8] القرضاوي، **الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف**، ص٢٠٩.

والنصوص في القرآن الكريم والسنة النبوية تدعونا إلى اليسر ورفع الحرج، والبعد عن التنطع والتعسير على عباد الله كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨] كما قال جل وعلا ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة:١٧٨].

(ومن المعروف بدهيا أن لكل شئ أجل مسمى يبلغ فيه نضجه أو كماله وهذا ينطبق على الماديات والمعنويات فلا ينبغي أن نستعجل الشئ قبل أن يبلغ أجله المقدر لمثله وإلا فلن نستطيع الانتفاع به النفع المرجو بل قد يضر ولا ينفع. وقد يبدأ جيل عملا تأسيسياً ذا شأن فلا يستفيد منه إلا الجيل الثاني أو الثالث أو ما بعد ذلك ولا ضير في هذا ما دام كل شئ يسير في خطه المعلوم وطريقه المرسوم)[١].

المبحث الثاني

المداهنة والنفاق في مواجهة المنهج الوسطي

المداهنة والادهان: المصانعة واللين. وقيل: المداهنة هي إظهار خلاف ما يضمر المرء، ودهن الرجل إذا نافق. والمداهنة خلق سيء، وثمرة أخرى من ثمار الغلو في شقة الآخر، وهو الإفراط في مداراة الناس على حساب أحكام الله تعالى، وهو طريق سيؤدي بلا ريب إلى الانحراف عن قاعدة المداراة الشرعية. والمداهنة: (أن يرى المسلم منكراً من المنكرات، ويكون في إمكانه منه وتغييره، ثم لم يمنعه ولم يدفعه، حفظا لجانب مرتكبه، أو مسايرة له، أولقلة مبالاة في الدين)[٢]. وقد عرفها القاضي عياض: بأنها (ترك الدين لصلاح الدنيا)[٣].

والمداهنة في حقيقتها: صورة من صور النفاق، وكل شئ إذا زاد على حده انقلب إلى ضده. وهذا الضابط ينبغي أن يتنبه إليه العاملون من المصلحين مخافة أن ينزلقوا في مهاوي الردى فإن أهل الباطل يتمنون ويتطلعون بلهفة إلى مساومة أهل الحق في حقهم وإغضاء الطرف عن مبادئهم قال تعالى: ﴿ودوا لو تدهن فيدهنون﴾ [القلم:٩] وقال سبحانه: ﴿أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ [الواقعة:٨١] كما عليهم أن يحتاطوا لأنفسهم من أن يسقطوا في وادي النفاق، ويداهنوا في شريعة الله التي نصبوا أنفسهم حماة لها وحراسا عليهما فيخرجوا بذلك عن الطريق المستقيم. والمداهنة عادة تكون مداراة على حساب القيم والحق والدين والمباديء كما تكون عادة لأصحاب الأهواء وأهل الفساد والباطل من أهل المقامات والرتب الدنيوية والمادية والاجتماعية.

فنحن نرى في كل عصر ومصر – من خلال السبر التاريخي – أن هناك طائفة من الناس يتصدون للإصلاح، يعملون بإفراط ومبالغة في مداراة أهل السوء والفساد، ويقعون في المعاصي والتجاوزات، على حساب الحق ومبادئه ظنا منهم أنهم سيستطيعون التأثير فيهم فيكونون قد خسروهم، وخسروا أنفسهم معهم.

أما المداراة الشرعية، فهي: سياسة حكيمة وأسلوب تربوي مؤثر شريطة أن لا يكون على حساب العقيدة الحقة أو على حساب شئ من ذلك فإذا تضمنت تنازلات في المبادئ أو مساومات على الحق كانت ضلالا وانحرافا موجبا لسخط الله

---

[١] القرضاوي، **الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف**، ص١٠٦-١٠٧.

[٢] القاضي عبد النبي، **جامع العلوم الملقب بدستور العلماء**، ج٣، ص٢٣٢، (بتصرف).

[٣] ابن حجر، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، كتاب الأدب، باب لم يكن رسول الله فاحشا ولا متفحشا، ج٢٢، ص٢٤١-٢٤٢.

تعالى لذلك حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من كل مداراة على حساب الحق أو مساومات في قضايا الدين مبادئه، أحكامه، تعاليمه، شرائعه[1].

والفرق بين المداراة والمداهنة أن المداراة: التلطف بالإنسان لتستخرج منه الحق، أو ترده عن الباطل. والمداهنة: التلطف به لتقره على باطله، وتتركه على هواه. فالمداراة لأهل الإيمان، والمداهنة لأهل النفاق.

ويتجلى هذا المعنى بينا واضحا في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام:٥٦]، ونفهم من الآية الكريمة أن أي مداهنة ومسايرة للمشركين والضالين تعتبر ضلالا وابتعاداً عن طريق الحق والهداية: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون:١-٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨].

لذلك وجدنا النبي ﷺ يربط بين تعطل مهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومداهنة الأخيار؛ فإن بينهما تلازما وترابطا. وروى أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قيل: "يا رسول الله! متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ فقال ﷺ: «إذا ظهرت المداهنة في خياركم، والفاحشة في شراركم، وتحول الملك في صغاركم، والفقه في أراذلتكم»[2]. وأحب أن أنبه هنا أن

---

[1] الميداني، **الأخلاق الإسلامية**، بتصرف، ج٢، ص١٤٣.

[2] ابن ماجه، **السنن**، كتاب الفتن، باب قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم﴾، ج٢، ص١٣٣١، رقم٤٠١٥، ولم ترد فيه لفظة: (إذا ظهرت المداهنة في خياركم)، إلا أن الإمام الغزالي أورد هذا الحديث في كتابه **إحياء علوم الدين**، كتاب العلم، باب في سبب إقبال الخلق على علم الخلاف وتفصيل آفات المناظرة والجدل وشرط إباحيتها، ج١، ص٤٣، وأثبت هذه اللفظة. وخرجه الحافظ العراقي في **المغني عن حمل الأسفار في الأسفار** المطبوع في هامش كتاب إحياء علوم الدين، ونسبه لابن ماجه في سننه، ولم يعقب على هذه اللفظة، بل سكت عليها، ونسخة **سنن ابن ماجه** بتحقيق الدكتور الأعظمي، ج٢، ص٣٨٤، مطابقة لطبعة محمد فؤاد عبدد الباقي، ج٢، ص١٣٣١، رقم ٤٠١٥، ولكني وجدت العلامة مرتضى الزبيدي في شرحه للإحياء المسمى (**إتحاف السادة المتقين**) أورد نقل الغزالي والعراقي، ثم أكد هذه الرواية برواية (إذا ظهر الإدهان أي الملاينة وترك المجاملة، وأصل ذلك من الدهن الذي يمسح به الرأس)، ج١ ص٢٨٤، ثم قال: (ويروى هذا الحديث عن عائشة، وجدته في الأول من مشيخة أبي يوسف يعقوب بن سفيان ثم ساق المسند عن عائشة قالت: يا رسول الله! متى لا نأمر بالمعروف، ولا ننهى عن المنكر؟ قال: «إذا كان البخل في خياركم، وإذا كان العلم في أراذلكم، وإذا كان الإدهان في كباركم، وإذا كان الملك في صغاركم»، ج١ ص ٢٨٤. وهذا يؤكد أن لهذه اللفظة النبوية أصلا، حيث هي ثابتة في مسند أبي يعلى، والطحاوي، وتاريخ ابن عساكر والله أعلم. والحديث أخرجه الطحاوي في **مشكل الآثار**، رقم٢٨٣٧ وفيه: "عن أنس قال: قيل: يا رسول الله! متى يترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال: «إذا ظهر فيكم ما ظهر في بني إسرائيل». قيل: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «إذا ظهر الإدهان في خياركم، والفاحشة في شراركم، وتحول الملك في صغاركم، والفقه في أراذلكم». قال أبو جعفر: فتأملنا هذا الحديث، فبدأنا منه بطلب مراد رسول الله ﷺ بأنه إذا ظهر فينا ما ظهر في بني إسرائيل ما ذلك الذي كان ظهر فيهم؟ فكان ذلك عندنا والله أعلم هو ما في الحديث الذي رويناه فيما تقدم منا في كتابنا هذا عن ابن مسعود وأبي موسى عن النبي ﷺ: «إن بني إسرائيل كان أحدهم يرى من صاحبه الخطيئة، فينهاه تعزيرا، فإذا كان من الغد جالسه وواكله وشاربه، كأنه لم يره على خطيئته بالأمس، فلما رأى الله ذلك منهم ضرب قلوب بعضهم على بعض، ثم لعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى ابن مريم صلوات الله عليهما، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. والذي نفس محمد بيده! لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على لسان السفيه، ولتأطرنه على الحق أطرا، أو ليضربن الله عز وجل قلوب بعضكم على قلوب بعض، ويلعنكم كما لعنهم»، فبان بذلك أن الزمان الذي يكون أهله ملعونين، ونعوذ بالله من ذلك الزمان، الذي يكون لا معنى لأمرهم بمعروف ولا لنهيهم عن منكر، ثم ثنينا بالإدهان المذكور في هذا الحديث ما هو، فوجدنا الإدهان في كلام العرب: التلين لمن لا ينبغي التلين له، كذلك قال الفراء. قال: ومن ذلك قول الله عز وجل: ﴿ودوا لو تدهن فيدهنون﴾ أي: تلين لهم فيلينون لك. فمثل ذلك ما في هذا الحديث من إدهان الأشرار الخيار هو التلين لهم؛ لأن المفروض عليهم خلاف ذلك مما قد ذكرناه في حديثي ابن مسعود وأبي موسى".

الشريعة الإسلامية أجازت في بعض الأحيان (لأهل الإيمان أن يعملوا على اتقاء ومداهنة أهل الكفر والفسق، اتقاءً لشرهم وفحشهم، أو تأليفا لقلوبهم، وذلك بإظهار مودتهم والبشاشة في وجوههم والتبسط معهم في الحديث مع إبطان كراهيتهم)[1].

ومن أدلة جواز هذا السلوك قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]. فقد أباح الله سبحانه وتعالى التظاهر بمودة الكفار في الظاهر فقط في حالة اتقاء شرهم ودرء أذاهم.

(وإذا كانت المداراة جائزة في حالة التقية فإنها تجوز في حالة تأليف قلوب الكفار والفساق للإيمان من باب أولى. بل هي مأمور بها شرعا لأنها من أهم وسائل تبليغ الدعوة)[2]. ومن أدلة ذلك أيضاً ما أخرجه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أن رجلا استئذن على النبي ﷺ: فلما رآه قال: «بئس أخو العشيرة وبئس ابن العشيرة»، فلما جلس تطلَّق النبي ﷺ في وجهه وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل قالت له عائشة : يا رسول الله! حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا، ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه، فقال رسول الله ﷺ: «يا عائشة! متى عهدتيني فاحشا، إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره»[3].

(قال الإمام الخطابي: جمع هذا الحديث علما وأدبا وليس في قول النبي ﷺ في أمته بالأمور التي يسميهم بها ويضيفها إليهم من المكروه غيبة، وإنما يكون ذلك من بعضهم البعض، بل الواجب أن يوضح ذلك ويفصح عنه ويعرف الناس أمره فإن ذلك من باب النصيحة والشفقة على الأمة فقد أظهر له البشاشة ولم يحبه بالمكروه لتقتدي به أمته في اتقاء شر من هذا سبيله، وفي مداراته ليسلموا من شره وغائلته.

أما الحافظ ابن حجر فقد قال: إن تصرفه ﷺ تصرف من (اطلع على شئ وخشي أن غيره يغتر بجميل ظاهره فيقع في محذور ما فعليه أن يطلعه على ما يحذر من ذلك قاصداً نصيحته، وإنما الذي يمكن أن يختص به النبي صلى الله عليه وسلم أن يكشف له عن حال من يغتر بشخص من غير أن يطلعه المغتر على حالة فيذم الشخص بحضرته ليجتنبه المغتر ليكون نصيحة، بخلاف غير النبي فإن جواز ذمه للشخص يتوقف على تحقق الأمر بالقول أو الفعل ممن يريد نصحه)[4].

قال الإمام القرطبي: (فيه جواز غيبة المعلن بالفسق، أو الفحش، ونحو ذلك من الجور في الحكم، والدعاء إلى البدعة؛ مع جواز مداراتهم، واتقاء شرهم، ما لم يؤد ذلك إلى المداهنة في دين الله تعالى). ثم قال تبعا لعياض: (والفرق بين المداراة أن المداراة بذل الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين أو هما معاً، وهي مباحة، وربما استحبت. والمداهنة: ترك الدين لصلاح الدنيا)[5].

---

[1] الحميدي، **المنافقون في القرآن الكريم**، ص٤٥٤.

[2] الحميدي، **المنافقون في القرآن الكريم**، ص٤٥٥.

[3] البخاري، **الصحيح**، كتاب الأدب، باب لم يكن الرسول ﷺ فاحشاً ولا متفحشا، ج٧، ص٨١.

[4] ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، باب لم يكن الرسول ﷺ فاحشا ولا متفحشا، ج٢٢، ص٢٤١.

[5] نفس المرجع، ج٢٢، ص٢٤١.

(والنبي ﷺ إنما بذل له من دنياه وحسن عشرته والرفق في مكالمته ومع ذلك فلم يمدحه بقول، فلم يناقض قوله فعله، فإن قوله فيه حق، وفعله فيه حسن عشرة)[1].

وقال الإمام النووي في "شرح صحيح مسلم": (قال القاضي: هذا الرجل هو عيينة بن حصن ولم يكن أسلم حينئذ وإن كان قد أظهر إسلامه، فأراد النبي ﷺ أن يبين حاله ليعرفه الناس ولا يغتر به من لم يعرف حاله)[2]، ثم قال: (وكان منه في حياة النبي ﷺ وبعده مادل على ضعف إيمانه، وارتد مع المرتدين وجيء به أسيراً إلى أبي بكر ﷺ، ووصف النبي ﷺ بأنه بئس أخو العشيرة من أعلام النبوة لأنه ظهر كما وصف، وإنما ألان القول تأليفاً له ولأمثاله على الإسلام. والمراد بالعشيرة: قبيلته، أي بئس هذا الرجل منها)[3].

(وليست هذه المداراة المذكورة من المداهنة المحرمة لأن المداهنة تكون في مجاراة أهل الكفر والفسق في باطلهم وذلك حتى السكوت على منكراتهم والاستجابة لمطالبهم في تحريف الدين، ولقد حاول الكفار مداهنة الرسول ﷺ مرات عديدة ليدهنهم فيتنازل عن بعض مايدعوهم إليه فلم ينجحوا في ذلك)[4]، وقد ذكر لنا الله سبحانه وتعالى ذلك في قوله: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم:٩].

وقد قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله في تفسير هذه الآية: (فهي المساومة إذن والالتقاء في منتصف الطريق كما يفعلون في التجارة، وفرق بين الاعتقاد والتجارة كبير، وصاحب العقيدة لا يتخلى عن شئ منها لأن الصغير منها كالكبير، بل ليس في العقيدة صغير وكبير، إنها حقيقة واحدة متكاملة الأجزاء، لا يطيع فيها صاحبها أحداً ولا يتخلى عن شئ منها أبداً، وما كان يمكن أن يلتقي الإسلام والجاهلية في منتصف الطريق ولا أن يلتقيا في أي طريق وذلك حال الإسلام مع الجاهلية في كل زمان ومكان)[5]. وقال أيضا: (إن الهوة بينها وبين الإسلام لا تعبر ولا تقام عليها قنطرة ولا تقبل قسمة ولا صلة، وإنما هو النضال الكامل الذي يستحيل معه التوفيق)[6].

(ولقد وردت روايات شتى فيما كان يدهن فيه المشركون للنبي ﷺ ليدهن لهن ويلين ويترك سب آلتهم وتسفيه عبادتهم أو يتابعهم أمام جماهير العرب، على عادة المساومين الباحثين عن أنصاف الحلول، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام كان حاسما في موقفه من دينه لا يدهن فيه ولا يلين وهو فيما عدا الدين ألين الخلق جانبا، وأحسنهم معاملة وأبرهم بعشيرة وأحرم على اليسر والتيسير، فأما الدين فهو الدين وهو فيه عند توجيه ربه)[7] ﴿فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [القلم:٨] (ولم يساوم ﷺ في دينه

---

[1] نفس المرجع، ج٢٢، ص٢٤٢.

[2] النووي، **شرح صحيح مسلم**، كتاب الأدب، باب مداراة من يتقي فحشه، ج١٦، ص١٤٤.

[3] المرجع السابق، ج١٦، ص١٤٤.

[4] الحميدي، **المنافقون في القرآن الكريم**، ص٤٥٥.

[5] سيد قطب، **في ظلال القرآن الكريم**، ج٦، ص٣٦٥٩.

[6] المرجع السابق، ج٦، ص٣٦٥٩.

[7] المرجع السابق، ج٦، ص٣٦٥٩.

وهو في أحرج المواقف العصيبة في مكة وهو محاصر بدعوته وأصحابه القلائل يتخطفون ويعذبون ويؤذون في الله أشد الإيذاء وهم صابرون ولم يسكت عن كلمة واحدة ينبغي أن تقال في وجه الأقوياء المتجبرين تأليفا لقلوبهم أو دفعا لأذاهم ولم يسكت كذلك عن أيضاح أي قضية تمس العقيدة من قريب أو من بعيد)[1].

وقد روى أنه كثيراً ما كانت تذهب قريش إلى أبي طالب تطالبه بأن يجعل حداً لابن أخيه ﷺ فلما حاول معه عمه قال مقولته الشهيرة: «ياعم! والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته»، فلما رأى تمسكه ﷺ بعقيدته قال: "اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء أبداً"[2].

(فهذه صورة من صور إصرار النبي ﷺ على دعوته في اللحظة التي تخلى عنه فيها عمه حامية وكافيه وآخر حصن من حصون الأرض، وأيضاً ساوموه مساومة مباشرة عن طريق عتبة بن ربيعة أبي الوليد حيث عرض عليه المال والسلطة والملك فلما فرغ قال له النبي ﷺ: "أقد فرغت يا أبا الوليد" قال: نعم. قال: "فاستمع مني" (بسم الله الرحمن الرحيم إلى قوله تعالى: ﴿وويل للمشركين﴾ [فصلت:١-٦] حتى قام من عنده وذهب لقومه ونصحهم أن يتركوه وشأنه. قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه فاصنعنوا ما بدا لكم)[3].

وأيضاً من مساوماتهم معه ﷺ: (أن يعبدوا ما يعبد ويعبد ما يعبدون وله فيهم وعليهم ما يشترط، ولعل اختلاط تصوراتهم واعترافهم بالله مع عبادة أخرى معه لعل هذا كان يشعرهم أن المساومة بينهم وبين محمد قريبة يمكن التفاهم عليها بقسمة البلد بلدين والالتقاء في منتصف الطريق مع بعض الترضيات الشخصية)[4].

(ولحسم هذه الشبهة وقطع الطريق على المحاولة والمفاصلة الحاسمة بين عبادة وعبادة ومنهج ومنهج نزلت سورة الكافرون بهذا الجزم والتوكيد والتكرار لتنهي كل قول وتقطع كل مساومة نهائياً بين التوحيد والشرك، وإن أول خطوة في الطريق هي تميز الداعية وشعوره بالانعزال التام عن الجاهلية تصوراً ومنهجاً وعملاً والانعزال الذي لا يسمح بالالتقاء في منتصف الطريق والانفصال الذي يستحيل معه التعاون، إلا إذا انتقل أهل الجاهلية من جاهليتهم إلى الإسلام لا ترقيع ولا أنصاف حلول ولا التقاء في منتصف الطريق مهما تزيت الجاهلية بزي الإسلام أو ادعت هذا العنوان)[5].

وقد نبه المصلحون إلى وسائلهم وأساليبهم في المداهنة والنفاق، يقول سيد قطب رحمه الله في أساليبهم: (هي المساومة والمداهنة ومحاولة الالتقاء في منتصف الطريق حتى يكون لهم السبق في النهاية، كذلك نستطيع أن نستنبط بعض مواصفاتهم من سورة المنافقين فقلد بدأت السورة بوصف طريقتهم في مداراة ما في قلوبهم من الكفر وإعلانهم الإسلام والشهادة وأن النبي

---

[1] سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ج٦، ٣٦٥٩-٣٦٦٠.

[2] ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج٣، ص٤٦ (بتصرف).

[3] سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ج٦،ص٣٦٦٠. وانظر، ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج٣، ص٦٠-٦٢، (بتصرف).

[4] سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ج٦، ص٣٦٦١.

[5] سيد قطب، **في ظلال القرآن** ج٦، ٣٩٩٢.

ﷺ هو رسول الله، وحلفهم كذباً ليصدقهم المسلمون، واتخاذهم هذه الأيمان وقاية وجنة يخفون وراءها حقيقة أمرهم ويخدعون المسلمين فيهم)[1].

الخاتمة:

بناء على ما تقدم فإنه لا بد من التفريق بين المنهج الوسطي والمداهنة، وبين المنهج الوسطي والتطرف فهما على طرفي نقيض، فالوسطية حق، والغلو والتطرف، والمداهنة والنفاق كله باطل منبوذ.

كما تحدثت في هذا البحث عن مزالق الانحراف عن قاعدة الوسطية التي تتمثل في الغلو والتطرف باعتبارها سبيل الانحراف عن هذه القاعدة لما اشتملت عليه من التنكب والعدول عن صفة الوسطية التي تميز بها هذا الدين الكريم، ومنهجه المتزن القويم، حيث في التطرف والجفاء باسم الحق إفراط في الفكر والسلوك، وفي الفهم والعمل.

والغلو والإفراط والجفاء، والمداهنة والنفاق، كلاهما يمثل صورة من صور الإفراط والتفريط إلى الحد الذي يخرجهما عن المنهج الوسطي الشرعي الممدوح، واتضح لنا أن الجنوح إلى أي مزلق من هذين المزلقين الخطيرين إنما مرده إلى خفة الدين، وقلة الورع، والتهاون في أمر الله سبحانه وتعالى، وفساد الطوية.

وقد كان من أهداف هذا البحث أن يتنبه الجيل لهذين المسربين المنحرفين الخطيرين؛ وهما: الغلو والمداهنة، وأن تتضح مفاهيم المنهج الوسطي الذي أقامنا عليه كتاب الله، وسنة رسوله صلى الله عليه ةسلم، وأن لانخلظ في فكرنا وسيرنا وسلوكنا بين الحق الثابت، والباطل المنحول.

المصادر والمراجع:

١. **القرآن الكريم**.

٢. ابن أبي الدنيا، **مداراة الناس والصبر على أذاهم**، (مخطوط في مكتبة د.نجم عبد الرحمن خلف).

٣. ابن حجر العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، (مصر: مكتبة الكليات الأزهرية، ط١، ١٣٩٨هـ).

٤. ابن كثير، إسماعيل بن كثير أبو الفدا، **البداية والنهاية**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

٥. ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، **السنن**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: المكتبة العلمية). وتحقيق: الدكتور الأعظمي، (الرياض: شركة الطباعة العربية السعودية، ط٢، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

٦. أحمد بن حنبل الشيباني، **المسند**، وضع فهارسه الألباني، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط٥، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

٧. البخاري، محمد بن إسماعيل، **الصحيح**، (بيروت: دار الفكر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م).

٨. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي، **السنن الكبرى**، (بيروت: دار الفكر، د.ت).

٩. الحميدي، عبد العزيز، **المنافقون في القرآن الكريم**، (مكة المكرمة: دار المجتمع، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).

[1] انظر سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ج٦، ص٣٥٧٤

١٠. الديلمي، أبو شجاع شيرويه بن شهردار، **الفردوس بمأثور الخطاب**، تحقيق: السعيد بن بسيوني زعلول، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٦هـ).

١١. الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد، **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي عبد المجيد، (إحياء التراث الإسلامي، العراق: مطبعة الزهراء الحديثة ، ط٢، ١٤٠٦ هـ /١٩٨٥م).

١٢. عبد الكريم زيدان، **السنن الإلهية في الأمم والجامعات والأفراد في الشريعة الإسلامية**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م).

١٣. الغزالي، **إحياء علوم الدين**، (بيروت: دار المعرفة).

١٤. القاضي عبد النبي، **جامع العلوم الملقب بدستور العلماء**، (حيدر آباد، دكن: دار المعارف،١٣٧٩هـ).

١٥. القرضاوي، **الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف**، (القاهرة: دار الصحوة، ودار الوفاء، ط٢، ١٤١٣هـ).

١٦. القرضاوي، يوسف، **ظاهرة الغلو في التكفير**، (الكويت: مكتبة المنار الإسلامية، ط٢، ١٤٠٥/١٩٨٥).

١٧. القرضاوي، يوسف، **كيف نتعامل مع السنة النبوية**، (السعودية: مكتبة المؤيد، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، السعودية، ط١، ١٤١٠هـ/١٤١١هـ).

١٨. قطب، سيد قطب، **في ظلال القرآن**، (بيروت: دار الشروق.ط١١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٠م).

١٩. مسلم، أبوالحسين مسلم بن الحجاج القشيري، **الصحيح**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (القاهرة: دار الحديث ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩١م).

٢٠. الميداني، عبد الرحمن حسن حبنكة، **الأخلاق الإسلامية وأسسها**، (دمشق: دار القلم، ط٣، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م).

٢١. النسائي، أحمد بن شعيب بن علي، **السنن**، معه شرح الحافظ جلال الدين السيوطي، وحاشية السندي، (بيروت: المكتبة العلمية، د.ت).

٢٢. النووي، محي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف، **المنهاج شرح صحيح مسلم**، (بيروت: دار التراث العربي، ط٣، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م).

٢٣. وهبة الزحيلي، **إذا اختل ميزان الحق والعدل والتوسط في الأمور**، (الكويت: وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية، مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٤٨١).

٢٤. الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، بتحرير الحافظين العراقي وابن حجر، (بيروت: دار الكتاب العربي ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م).

السنة النبوية والوسطية والاعتدال
المذهب المالكي نموذجاً

د. فتحي جمعة محمد عريبي[1]

ملخص البحث:

يتمحور البحث حول السنة النبوية والوسطية والاعتدال: المذهب المالكي نموذجاً، وتأتي أهميته في كونه يتناول موضوعا يخص تيارا من التيارات الفقهية التي تكون بالمدينة المنورة، ووجد طريقه إلىٰ بقاع عديدة من العالم الإسلامي، وكان لهذا التيار السني الفقهي الدور البارز في تحديد الهوية المذهبية والعقائدية لبقاع واسعة من العام الإسلامي إلىٰ وقتنا الحاضر. يطرح البحث إشكالية محورية في حقل استفهامي يأتي كالتالي: إلى أي مدى يمكن اعتبار المذهب المالكي مذهب حديث وأثر وحسب، علىٰ اعتبار أنه أحد المذاهب السنية المحسوبة علىٰ مدرسة أهل الحديث المقابلة للمذاهب السنية المحسوبة علىٰ مدرسة أهل الري وفي مقدمتها المذهب الحنفي؟ وقد نهج الباحث منهج البحث والتحليل، بذلك يكون الباحث قد توصل في نهاية بحثه إلىٰ عدة نتائج، أبرزها: أن المذهب المالكي مذهب سني متشبث بالحديث والأثر وما عليه السلف، لكنه لا يغفل العقل والرأي، وهو ما جعله في منظومته العامة يتميز بالوسطية والاعتدال واستيعاب التطورات وضبط المستجدات وبتالي التوسع والانتشار.

المقدمــة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علي أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد الرسول الكريم وعلى آله وصحبه إلي يوم الدين.

ظهرت أهمية المذاهب الفقهية في المشرق الإسلامي في القرن الثاني الهجري لاسيما بعد امتداد الفتوحات الإسلامية في المشرق والمغرب، فحدث اختلاط بين العرب الفاتحين وأهالي البلاد المفتوحة وكان لكل هذه البلاد حضارتها وعاداتها وتقاليدها وأعرافها وقوانينها، أدى ذلك إلىٰ كثرة الحوادث والنوازل التي تتطلب أحكاماً لها فظهرت مشاكل تنتظر حلولاً.

كل هذه المستجدات أثرت في نمو الفقه، ومع مرور الزمن تبلورت هذه الآراء الفقهية، ودخلت تحت إطار المذهب، ومن هذا المنطلق تكونت المذاهب السنية الكبرى في المشرق، وتسربت بعد ذلك إلي بقاع واسعة من العالم الإسلامي. لاسيما المذهب المالكي الذي يعتبر أهم وابرز هذه المذاهب وأكثره شيوعاً وتمسكاً بالنهج النبوي الشريف. فكتاب الموطأ الذي احتوي علىٰ الفكر المالكي، كتاب ألف في معرفة حديث رسول الله ﷺ وما كان عليه سلف هذه الأمة في الأحكام والعقائد والأخلاق وغير ذلك.

---

[1] جامعة الجبل الغربي- قسم التاريخ – ليبيا إيميل: fathiarebi@yahoo.com

نشأ المذهب المالكي في بداية أمره في الحجاز، وانطلق بعد ذلك في الآفاق يحمله تلاميذ الإمام مالك الوافدون عليه من مختلف أطراف العالم الإسلامي، وتشبث الناس بهذا المذهب وتمسكوا به باعتباره يجسد السنة النبوية الوسطية، بحيث صار جزءاً من كيانهم الفكري وبنيانهم الثقافي.

تأتي أهميته البحث في كونه يتناول موضوع يخص أحد أهم التيارات الفقهية السنية الذي تكونت بالمدينة المنورة مركز السنة، ووجد طريقه إلي بقاع عديدة من العالم الإسلامي، وكان لهذا التيار السني الفقهي الدور البارز في تحديد الهوية المذهبية والعقائدية لبقاع واسعة من العام الإسلامي إلي وقتنا الحاضر.

يهدف البحث إلى ترسيخ العقيدة السنية الوسطية في العالم الإسلامي ورد قول المبطلين الذي يجعل من المذهب المالكي مذهب منغلق علي نفسه لا يساير مستجدات الحياة.

وقد نهج الباحث في بحثه منهج البحث والتحليل، مع التركيز علي إشكالية محورية في حقل استفهامي يأتي كالتالي: إلى أي مدى يمكن اعتبار المذهب المالكي مذهب حديث وأثر وحسب، لا يتماشى مع مستجدات الحياة، علي اعتبار أنه أحد المذاهب السنية المحسوبة علي مدرسة أهل الحديث المقابلة للمذاهب السنية المحسوبة علي مدرسة أهل الري وفي مقدمتها المذهب الحنفي؟

وعلى هذا المنوال، سأعمل على معالجة ومناقشة إشكالية البحث ضمن تصميم قسمته إلى مطلبين كالآتي:

المطلب الأول: تضمن التعريف بصاحب المذهب ونسبه، وموطن نشأته، الذي أخذ فيه عن شيوخه ومعلميه، وكان لهم الفضل في تكوين منهجه السني المالكي.

المطلب الثاني: فيه بيان الخصائص العامة للمذهب المالكي، وكيف أنه جمع بين الحديث والأثر، والرأي والقياس، وما تعرض له المذهب المالكي من نقد في اعتماده علي الرأي وهو محسوب علي مدرسة الحديث.

المطلب الأول: خصوصية صاحب المذهب:

ينسب هذا المذهب كما هو معروف إلي الإمام مالك بن أنس، الذي تنحدر أصوله من اليمن[1]، ولد بالمدينة المنورة سنة ٩٣هـ/٧١١م[2]، وعاش بها فترة طويلة تجاوزت الثمانية عقود من الزمن.

أخذ الإمام مالك العلم وهو بالمدينة المنورة التي لم يغادرها[3]، وربما هذا ما سمح له بأن يستمع بها إلىٰ أكثر من تسعمائة فقيه، وهذا عدد كبير يفسر القيمة العلمية للفقيه[4]، ولعل من أبرز الفقهاء الذين لازموه طويلاً، وتأثروا بمنهجه، الفقيه ربيعة بن أبي عبد الرحمن[1].

---

[1] عياض، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، ج١، ص١٠٨، ١٠٩؛ والسيوطي، **التزيين**، ص٣؛ والكتاني، **الإمام مالك**، ص٢٩؛ وأبو زهرة، **مالك حياته وعصره**، ص٢٦.

[2] السيوطي، نفسه، ص.٧؛ والكتاني، نفسه، ص٤٠.

٣ عياض، المصدر السابق، ج١، ص٣٥.

٤ الزرقاني، **شرح الزرقاني علي موطأ الإمام مالك**، ج١، ص٥.

ومن ضمن من لازمهم مالك وأخذ عنهم شيخه نافع بن عبد الله[٢]، وابن شهاب الزهري[٣]، ومحمد بن المنكدر[٤] وغيرهم، ولا مجال لحصرهم لكن ذكرنا هنا من شيوخه ومعلميه ممن لازمهم الإمام مالك لفترة طويلة من الزمن وكان تأثيرهم واضحاً عليه، يبدو أن هذه المجموعة من فقهاء المدينة كان لهم الفضل في تكوين البيئة الثقافية التي تبلور من خلالها منهج الفقه المالكي، فمالك يعد وريث علم الصحابة والتابعين، وتابعي التابعين، فهو "وريث حديث رسول الله ﷺ"[٥] فهو بمثابة المستودع المخزن فيه علم الصحابة والتابعين، فقد ورد عن صاحب المدارك أن حميد بن الأسود قال: "كان إمام الناس عندنا بعد عمر، زيد بن ثابت وبعده عشرون رجلاً ثم صار علم هؤلاء كلهم إلى مالك بن أنس"[٦]، لذلك تمسك مالك بفتوى الأثر وعمل أهل المدينة، لأنهم هم الذين أخذوا الفقه عن النبي ﷺ، ونقلوه إلى أبنائهم؛ ومن هذا المنطلق يعتبر مالك وأنصاره المدينة من أفضل بقاع الأرض علماً وفقهًا[٧].

عُرف عن الإمام مالك عنايته الشديدة في تلقي العلم وتدوينه، إذ حرص على أن يحفظ كل ما يسمعه من شيوخه، "فقد حدث ابن شهاب مالك بأربعين حديثاً فقال: زدني. فقال له: حسبك أن كنت رويت هذه الأحاديث فأنت من الحفاظ، فقال قد رويتها، فجدب الألواح من يده ثم قال: حدث، فحدثه بها فردها إليه وقال له: قم إنك لنعم المستودع للعلم"[٨]. رغم هذا كله فإنه لم يجلس للتدريس والفتيا حتى شهد له أهل العلم بذلك، فقد كان يقول: "ليس كل من أحب أن يجلس في المسجد للحديث والفتيا جلس حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل وأهل الجهة من المسجد، فان رأوه لذلك أهلاً

---

١ هو ربيعه بن أبي عبد الرحمن فروخ المدني المتوفى سنه ١٣٦هـ/٧٥٣م بالمدينة، لقب بربيعة الرأي، نسبة إلىٰ المنهج الذي اعتمده في فقهه، يعتبر من تابعي التابعين، وأحد فقهاء المدينة الذي كانت الفتيا تدور عليهم، روى عن جماعة من التابعين، وخصوصاً السبعة المفتين بالمدينة. لمزيد من التفصيل حول ترجمته ينظر، المزي، **تهذيب الكمال**، ج٩، ص١٢٣، رقم١٩٨٧؛ وابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٢، ص٢٨٨؛ وعياض، المصدر نفسه، ج١، ص١٣٠؛ وابن خلفون، **أسماء شيوخ مالك** ، ص١٥٦، ١٥٨.

٢ هو نافع مولى عبد الله بن عمر بن الخطاب، من التابعين، لازم ابن عمر مده طويلة ونقل عنه علما كثيرا. لازمه مالك وانتفع بعلمه، لذلك قال عنه: "نشر نافع عن ابن عمر علما جماً"، كان من الثقات في نقل الحديث تسمى رواية مالك عن نافع عن ابن عمر (بالسلسلة الذهبية). توفي ابن نافع بالمدينة سنه ١١٧هـ/٧٣٥م. لمزيد من التفصيل حول ترجمته ينظر المزي، المصدر نفسه، ج٢٩، ص٢٩٨؛ وابن خلفون، المصدر نفسه، ص٢٥١، ٢٥٣؛ وابن خلكان، المصدر نفسه، ج٥، ص٣٦٨،٣٦٧.

٣ هو محمد بن مسلم بن عبيد بن شهاب القرشي الزهري المدني، أحد الفقهاء والمحدثين والأعلام التابعين بالمدينة، رأى عشرة من الصحابة، وحفظ علم الفقهاء السبعة، روى عن التابعين أمثال عروه بن الزبير بن العوام، وسعيد بن المسيب وغيرهم، أخرج له مسلم والبخاري وهذا الأخير أحصى له ألفي حديث وقال عنه عمر بن عبد العزيز: "ما رأيت أحدا أحسن سوقا للحديث من الزهري". توفي ١٢٤هـ/٧٤١م، في منطقة تقع بين الحجاز وفلسطين. ابن خلفون، المصدر نفسه، ص١٨٥ وما بعدها؛ ابن خلكان، المصدر نفسه، ج٣، ص١٧٧.

٤ هو محمد بن المنكدر بن عبد الله بن الهدير أبو عبد الله القرشي التيمي، روي عن التابعين الأوائل وهو من فضلاء هذه الأمة وعبادها وفقهائها وخيارها، وصفه مالك بسيد القراء. توفي سنه ١٣٠هـ/٧٤٧م. ابن خلفون، المصدر نفسه، ص٢١٦ وما بعدها.

٥ الزرقاني، المصدر نفسه، ج١، ص٥.

٦ عياض، ج١، ص٧٧.

٧ نفسه، ج١، ص٤٠.

٨ نفسه ج١، ص١٣٤.

جلس، وما جلست حتى شهد لي سبعون من أهل العلم أني موضع لذلك"[١]، فقد أصبح في ذلك ينافس شيوخه الذين أخذ عنهم العلم، فقد ورد عند ابن خلكان أن مالك ذكر بهذا الصدد قوله: "قل رجل كنت أتعلم منه ما مات حتى يجيئني ويستفتيني"[٢]، لذلك عرف عند مترجميه (بإمام الأئمة)[٣]، وهو من أوائل أعلام ذلك الزمان، من أجل ذلك كثر الإقبال عليه من طلبة العلم ينهلون من علمه حتى اجتمع له من طلاب العلم ما لم يجتمع لغيره[٤].

توفي الإمام مالك يوم الأحد الرابع عشر من ربيع الأول سنة ١٧٩هـ/٧٩٥م في عهد خلافة هارون الرشيد عن عمر تجاوز الثمانية عقود ونصف العقد[٥]، تاركاً وراءه أكبر وأعظم مدرسة في الفقه السني، يقودها تلامذته، ممن سعوا إلى الاقتداء به، والتزموا مذهبه وأصوله الاستنباطية الفقهية[٦]، وأخذوا عنه العلم، فلما عادوا إلى بلدانهم وأصبحوا من أعلام زمانهم، بدأوا ينشرون علمه بين أهاليهم بواسطة التدريس والفتيا والقضاء والشورى.

المطلب الثاني: الخصائص العامة للمذهب:

تحولت المدينة المنورة إلى مركز علمي فقهي نشط منذ منتصف القرن الأول الهجري، وبلغت أوج ازدهارها بظهور المذهب المالكي[٧]، المرتكز في أصوله على القرآن، والسنة، وإجماع الأمة، وفتاوى الصحابة وأقضيتهم، وعمل أهل المدينة، والقياس، واستعمال الرأي في حالة عدم وجود نص صريح في الأصول السابقة مع التحفظ الشديد في استعماله[٨].

فالرأي معمول به لدى جميع المذاهب السنية، لكن مع اتساع دائرة الرأي لديها ويتزعمها في ذلك المذهب الحنفي، ويأتي بعده في الترتيب المذهب المالكي، الذي فيه استخدام للرأي لا يستهان به[٩]، غير أن اعتماد المدرسة المدنية على الرأي لا يعني نفس المدلول عند أصحاب المدرسة العراقية، فالمراد به عندهم هو فقه القياس.

أما عند المدرسة المدنية، فهو إعمال الرأي في النصوص جمعاً وترجيحاً دون الوقوف أمامها وقفة الحيرة والاستسلام، فاستعمال الإمام مالك للرأي لم يكن لقلة علمه بالحديث، ولكن الحوادث التي وقعت والمسائل التي سئل فيها كانت أكثر

---

١ نفسه، ج١، ص١٤٢؛ ابن فرحون، **الديباج المذهب**، ج١، ص ٨٦.

٢ ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ج٤، ص١٣٥.

٣ الكتاني، المرجع السابق، ص.٨٥

٤ الجيدي، **محاضرات**، ص١٦.

٥ ابن عبد البر، **الانتقاء**، ص١٠؛ عياض، المصدر السابق، ج١، ص١١٩؛ السيوطي، **تنوير الحوالك** ج١، ص٨؛ الجيدي، المرجع السابق، ص١٨.

٦ لحمر (حميد)، **المدرسة المالكية**، ص١.

٧ الهنتاتي، **المذهب المالكي**، ص٣٣.

٨ ابن عبد البر، **الاستذكار** ج١، ص٨٢، ٨٣.

٩ الهنتاتي، المرجع نفسه، ص٣٤.

بكثير مما تسعه النصوص التي بين يديه، فكان لا بد من استعمال الرأي[١] لاسيما وأنه قد تشبع بمنهج الرأي من شيوخه الذين أخذ عنهم وخاصة ربيعة الرأي[٢]، ففسح كل ذلك مجالاً مهماً للرأي في تكوين مذهبه.

فاعتماد الإمام مالك في منحاه الاجتهادي على الرأي مثل المصالح المرسلة[٣] والاستحسان[٤] الذي قال فيه: تسعة أعشار العلم الاستحسان[٥]، ومراعاة العرف[٦]، وسد الذرائع[٧] جنب المذهب المالكي الانغلاق على نفسه، وميزه بالمرونة وإيجاد الحلول، وجلب المصلحة ورفع الحرج وجعله صالحاً للتلاؤم والتكيف مع الزمن[٨]، حيث تكون هذه المصالح ملائمة لمقاصد الشرع، ولا تنافي أصلا من أصوله، ولا فرعاً من فروعه، وكذلك أن يؤدي العمل بها في المعاملات دون العبادات[٩]، فالمصلحة عند الإمام مالك لها مقياس ضابط لكل ما هو شرعي وما هو غير شرعي، ما دام لم يكن نص من كتاب أو سنة شاهد بالتحريم، أو أثر مرجح له، فهو بذلك يُفهم الشرع الإسلامي فهما يجعله قريباً من مصالح الناس، لذلك كان المذهب المالكي ملتزماً إسلامياً وقابلاً لملاءمته مع أية بيئة أخرى غير المدينة التي نشأ فيها[١٠].

إن إعمال مالك للرأي، وأنصاره يدعونه لمدرسة الحديث، عرضه للعديد من الانتقادات، واعتبره البعض ضمن مدرسة الرأي، فقد وجه إليه النقد من خلال ما كتبه في الموطأ، كقوله: "الأمر المجتمع عليه، والأمر عندنا أو ببلدنا، وأدركت أهل العلم وسمعت أهل العلم"[١١]، إلا أن رده على منتقديه كان مقنعاً وذا حجة " أما أكثر ما في الكتاب (الموطأ) فرأي، فلعمري ما هو برأيي، ولكن سماع من غير واحد من أهل العلم والفضل والأئمة المهتدى بهم الذين أخذت عنهم، وهم الذين كانوا يتقون الله، فكثر علي فقلت رأيي، إذ كان رأيهم رأي الصحابة أدركوهم عليه وأدركتهم أنا على ذلك فهذا وارثه توارثها قرناً عن قرن إلى زماننا، وما كان فيه الأمر المجتمع عليه، فهو ما اجتمع عليه من قول أهل الفقه والعلم لم يختلفوا فيه، أما الأمر

---

١ أبو زهرة، المرجع السابق، ص٢٣.

٢ ابن خلكان، المصدر السابق، ج٢، ص٢٨٨ وما بعدها.

٣ وهي الأشياء التي لم يشهد الشرع باعتبارها ولا إلغائها، أي التي لم ينص الشارع على أنها مصالح أو مفاسد ولكن تلقتها العقول بالقبول. الحجوي، **الفكر السامي**، ج١، ص٩٤؛ الكتاني، المرجع السابق، ص٢٣٢-٢٣٣؛ الروكي، **المغرب مالكي لماذا**، ٢٠٠٧، ص٥٤.

٤ يستعمل الاستحسان لطرد الحرج الناشئ من القياس، فقد ذكر الحجوي في هذا الصدد: "الاستحسان الذي يكثر حتى يكون أغلب من القياس، وهو أن يكون يؤدي إلى غلو في الحكم ومبالغة فيه"، الروكي، المرجع نفسه، ج١، ص٩٠.

٥ الحجوي، المرجع نفسه، ج١، ص٩٠؛ أبو زهرة، المرجع السابق، ص٣٧٥.

٦ هو بناء الحكم وفق ما استقر في النفوس، وجرى به العرف والعادة عند الناس، وتلقته الطباع السليمة بالقبول، شرط ألا يتنافى مع أحكام الشرع بوجه من الوجوه. الكتاني، المرجع السابق، ص٢٣٣؛ الروكي، المرجع السابق، ص٥٤.

٧ تعني إعطاء الوسائل أحكام الغايات، وهي منع الوسائل المباحة المفضية إلى غايات محرمة تحقيقاً أو غلبة ظن لأن للوسائل حكم مقاصدها. الكتاني، المرجع نفسه، ص٢٣٣؛ الروكي، المرجع نفسه، ص٥٤، ٥٥.

٨ أبو زهرة، المرجع السابق، ص١٤.

٩ إنقزو، **التيارات الفقهية**، ص٧٣.

١٠ السائح، **المذهب المالكي في المغرب**، ص٥-١٢.

١١ عياض، المصدر السابق، ج٢، ص٧٤,

عندنا، فهو ما عمل الناس به عندنا وجرت به الأحكام، وعرفه الجاهل والعالم وكذلك ما قلت فيهم ببلدنا وما قلت فيه، بعض أهل العلم فهو شيء استحسنته من قول العلماء"[1].

فوق ما تقدم، نلمس ردا أجاب به الإمام مالك على منتقديه، وهو رد يبين أن الإمام مالك كان يسير برأيه على نهج سابقيه من السلف في المدينة المنورة، وإن كان قد استعمل الرأي، فذلك للضرورات القصوى، وإلا فنحن نعرف ومن خلال ما جاء في المصادر والمراجع الفقهية والتاريخية، أن الإمام مالك من أوائل العلماء تمسكاً بالنص والسنة، ولم يتحمس للقياس والرأي، فقد ذكر ابن خلكان أن القَعْنَبِيّ، قال: "دخلت على مالك بن أنس في مرضه الذي مات فيه، فسلمت عليه، ثم جلست، فرأيته يبكي، فقلت: يا أبا عبد الله، ما الذي يُبْكِيكَ؟ فقال لي: يا ابن قَعْنَب، مالي لا أبكي؟ ومَنْ أحَقُّ بالبكاء مني؟ والله لوددت أني ضربت لكل مسألة أفتيت فيها برأيي بِسَوْطٍ، وقد كانت لي السعة فيما قد سبقت إليه، وليتني لم أُفْتِ بالرَّأْيِ"[2] فقد كان مالك نقلياً متحمساً، ولم يتحمس للقياس، ويلوح أنه أسف في أخريات عمره على إعطاء الرأي نصيباً كبيرا في تكوين مذهبه، وهو ملتزم بالمعنى الحرفي للقرآن قدر المستطاع، وكذلك النص والحديث، ويستلهم دائما ما جرى عليه الناس بالمدينة[3]. وإن استعمل الرأي، فمن أجل التوفيق بين النصوص المختلفة[4].

كان مالك يقيس على المسائل التي استنبطها الصحابة وأخذوها بالقياس ويعتبرها أصلا، ثم يقيس عليها شبيهها من المسائل، اعتماداً على فتاوى الصحابة فهو في هذا لم يقس حكماً لم ينص عليه، بل قاس على حكم علم أنه أخذ بالقياس والاستنباط، إذ لم يجد بين يديه نصاً يحمل عليه الفرع الذي بين يديه[5]؛ لذلك يصنف مالك من ضمن أهل الحديث، ومدرسته مدرسة حديث تقابل مدرسة الرأي والقياس التي كان إمامها أبو حنيفة.

من هنا نتبين، أن المذهب المالكي مذهب سني متشبث بالحديث والأثر وما عليه السلف، لكنه لا يغفل العقل والرأي، فالإمام مالك يمتاز بازدواج في التخصص حيث انعقد له لواء علم الحديث والفقه، فكان لهذا الازدواج انعكاس على تلامذته من بعده. هذا فضلاً عن أن هذا المذهب يمتاز بالمرونة والتجدد، فهو بذلك يستطيع استيعاب كل ما يحدث ويستجد في حياة الناس من الوقائع والحوادث على اختلاف أنواعها وأشكالها وأحجامها.

فالمذهب المالكي لم يكن مذهباً فقهياً فحسب بل مذهباً سلوكياً أيضاً[6]، إذ وفق بين الكمال الديني مع مراعاة مصالح الناس، لكي يتجنب الانغلاق والجمود، واختار لمذهبه الوسطية، لا إفراط ولا تفريط، بل اعتدال وتوسط وهو الشيء الملحوظ في نسق المذهب ومنظومته العامة وبنائه الكلي، فهو يتوسط في المسائل بين مذهبين متقابلين، وكمثال ذلك ما جاء في

---

٢ عياض، المصدر نفسه،ج٢، ص٧٤؛ ابن فرحون، المصدر السابق، ج١، ص١٠٢.

٢ ابن خلكان، المصدر السابق، ج٤، ص١٣٧، ١٣٨.

٣ الفرد بل، **الفرق الإسلامية**، ص١٢٦، ١٢٧.

٤ عزت قاسم، **فقهاء المالكية**، ص٦.

٥ أبو زهرة، المرجع السابق، ص٣٧١

٦ الهنتاتي، المرجع السابق، ص٣٦.

العبادات: إذ يرى الأحناف أن مس الذكر لا ينقض الوضوء استناداً لحديث طلق بن علي«هل هو إلا بضعة منك»[1]. وعند غيرهم كالشافعية والحنابلة، ينقضه لحديث بُسْرَة بنت صَفْوَان «مَنْ مَسَّ ذَكَرَهُ فَلْيَتَوَضَّأْ»[2]. وفي المذهب المالكي: ينتقض الوضوء عند وجود الشهوة، ولا ينتقض إذا انعدمت، جمعاً بين الدليلين، ومن المالكية من قال: ينتقض إذا مس بباطن الكف، ولا ينتقض إذا مس بظاهره؛ على اعتبار أن المس بباطن الكف مظنة الشهوة، وبظاهره ليس كذلك[3].

وهذا ما يفسر إعجاب الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور بالمنهج المالكي، لذلك طلب من الإمام مالك جمع هذا الفقه وتدوينه[4] في كتاب أطلق عليه (الموطأ)[5].

وبناء على ما ذكر، يمكن ترتيب أصول المذهب المالكي، حسب الأهمية كالآتي:

- أولاً، القرآن الكريم.
- ثانياً، السنة النبوية مع صحة السند.
- ثالثاً، الإجماع، وهو إجماع فقهاء الأمة.
- رابعاً، عمل أهل المدينة وفتاوى الصحابة.
- خامسًا، القياس.
- سادسًا، الرأي، ويدخل في إطاره، المصالح المرسلة، الاستحسان، العرف، سد الذرائع. الاستصحاب.

الخاتمـــــة:

يمكن الاحتفاظ في خاتمة هذا البحث ببعض النتائج الأساسية:

أن المذهب المالكي مذهب سني متشبث بالحديث والأثر وما عليه السلف، لكنه لا يغفل العقل والرأي، وهو ما جعله في منظومته العامة يتميز بالوسطية والاعتدال واستيعاب التطورات وضبط المستجدات، فالتوسط والاعتدال مرعي في أصول المذهب وفروعه، لا إفراط ولا تفريط، ولا ضرر ولا ضرار، ولا إسراف ولا إجحاف وبتالي التوسع والانتشار في بقاع واسعة من العالم الإسلامي.

المصادر والمراجع:

---

١ أخرجه أبو داود والترمذي في الطهارة.

٢ أخرجه، الترمذي، **السنن**، باب الوضوء من مس الذكر، ج١، ص١٢٦؛ وأبو داود، **السنن**، باب الوضوء من مس الذكر، ج١ ، ص٧١؛ مالك، الموطأ "برواية يحيى بن يحيى الليثي"، ج٢، ص٥٩.

٣ الروكي، المرجع السابق، ص٥٩.

٤ ابن عبد البر، **الاستذكار**، ج١، ص٨١.

٥ يعني المسهل والميسر، وقد عرض مالك كتابه هذا على سبعين فقيهاً من فقهاء المدينة كلهم واطأه عليه، فسماه الموطأ، الذي يعد الأول في التأليف جمع بين الفقه والحديث معا. **المعجم الوسيط**، ج٢، ص١٠٤١؛ ابن عبد البر، **الاستذكار**، ج١، ص٨١ ؛ عياض، المصدر السابق، ج٢ ص٧٣، ابن فرحون، المصدر السابق، ج١، ص١٠١.

١. ابن خلفون، محمد، **أسماء شيوخ مالك بن أنس**، (الرياض: مكتبة أضواء السلف ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م).

٢. ابن خلكان (أبو العباس)، **وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: دار صادر).

٣. ابن عبد البر، **الاستذكار الجامع لمذاهب فقهاء الأمصار**، (دمشق وبيروت: دار قتيبة، حلب ١٤١٤هـ/١٩٩٣م).

٤. ابن عبد البر، **الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء**، (القاهرة: مكتبة القدس، ١٣٥٠هـ/١٩٣١م).

٥. ابن فرحون، **الديباج المذهب**، تحقيق: علي عمر، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

٦. أنقزو، محمد، **التيارات الفقهية والدينية بإفريقية**، (تونس: شهادة التعمق في البحث، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة تونس الأولى، ١٤١٤- ١٤١٥هـ/١٩٩٣- ١٩٩٤م).

٧. أبو داود، **السنن**، (بيروت: دار الكتاب العربي).

٨. أبو زهرة ،محمد، **مالك حياته وعصره – آراؤه وفقهه**، (بيروت: دار الفكر العربي ط٢،١٣٧٢هـ/١٩٥٢م).

٩. أحمد بن حنبل، **المسند**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، (بيروت: مؤسسة الرسالة،١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).

١٠. الترمذي، **السنن**، تحقيق: أحمد شاكر وآخرون، (بيروت: دار إحياء التراث).

١١. الجيدي (عمر)، **محاضرات في تاريخ المذهب المالكي في الغرب الإسلامي**، (الرباط: منشورات عكاظ، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م).

١٢. الحجوي، **الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي**، (المدينة المنورة: المكتبة العلمية، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م).

١٣. الروكي، محمد، **المغرب مالكي لماذا**، (المملكة المغربية: دار أبي رقراق، ط٢، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).

١٤. الزرقاني، محمد، **شرح الزرقاني علي موطأ الإمام مالك**، (بيروت: دار الفكر، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).

١٥. السائح، الحسن، **المذهب المالكي في المغرب**، (المملكة المغربية:منشورات مجلة كلية الشريعة، جامعة القرويين، ، عدد ١٩، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م).

١٦. السيوطي، **تزيين الممالك بمناقب سيدنا الإمام مالك**، (المطبعة الخيرية لعمر حسين الخشاب، ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م).

١٧. السيوطي، **تنوير الحوالك**، تحقيق: صدقي محمد جميل، (بيروت: دار الفكر، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).

١٨. الفرد بل، **الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي**، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، (لبنان: دار الغرب الإسلامي، ط٣، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م).

١٩. الكتاني، محمد، **الإمام مالك**، تحقيق: الشريف حمزة، (بيروت: دار الكتب العلمية،١٤٠٣هـ/٢٠٠٨م).

٢٠. المزي، **تهذيب الكمال**، تحقيق: بشار عواد معروف، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م).

٢١. **المعجم الوسيط**، تحقيق: مجمع اللغة العربية، (دار الدعوة).

٢٢. الهنتاتي،نجم الدين، **المذهب المالكي بالغرب الإسلامي**، (تونس: تبر الزمان، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م).

٢٣. عزت قاسم، **فقهاء المالكية وأثرهم في المجتمع الأندلسي**، (القاهرة: جامعة عين شمس، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م).

٢٤. عياض، القاضي عياض أبو الفضل السبتي، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي، (المملكة المغربية: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، ط١٤٠٤،١هـ/١٩٨٣م).

٢٥. لحمر (حميد)، **المدرسة المالكية الفاسية النشأة الأولى والمميزات**، (فاس: جامعة سيدي محمد بن عبد الله كلية الآداب سايس، ١٤٢٨-١٤٢٩هـ/٢٠٠٧-٢٠٠٨م).

٢٦. مالك، **الموطأ "برواية محمد بن الحسن"**، تحقيق: تقي الدين الندوي، (دمشق: دار القلم،١٤١٢هـ/١٩٩١م).

٢٧. مالك، **الموطأ** برواية يحيى بن يحيى الليثي، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، (الإمارات: مؤسسة زايد بن سلطان، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م).

العلاقة الجدلية بين الوسطية والخطاب الإسلامي المعاصر
دراسة تحليلية مقارنة

سيكو مارافا توري[1]

ملخص البحث:

مصطلح الوسطية من أكثر المصطلحات التي قوبلت قديما بالادعاء والانتساب من قِبل الأديان أولا، ومن قبل الفرق والملل داخل الدين الواحد ثانيا. يلاحظ المتتبع مؤخرا أن الخطاب الإسلامي المعاصر يمكن أن يقسم –من جديد– إلى الخطاب الوسطي، والخطاب الحركي، والخطاب العقلاني. إلا أن كل خطاب من هذه الخطابات تدعي الوسطية أو قسطا منها في خطاباته؛ بناء على القرآن والسنة، وانتدابهما للفكر الوسطي عموما. تسعى هذه الدراسة إلى بيان موقف الفكر الإسلامي المعاصر من الوسطية، ودراسة مدى العلاقة التي تربط الخطاب الإسلامي ببعضها من منطلق الوسطية التي حث عليها القرآن والسنة. وذلك بتتبع كتابات العلماء الذين هم عينة الدراسة في هذا البحث، وهم: القرضاوي ممثلا الوسطية، وسيد قطب ممثلا الحركة الإسلامية، وحسن حنفي ممثلا العقلانية. واتبع الباحث المنهج الاستقرائي والمنهج التحليلي. ومن أهم نتائج البحث أن جذور الوسطية ممتدة في التراث الإسلامي، أصّل لها القرضاوي مؤخرا واتخذ منها له تيارا خاصا، واضح المعالم. وانتسب إلى الوسطية كل من قطب وحنفي باعتبارات معينة، لا كمظلة كبرى لتوجهاتهم كما عند القرضاوي. وكلهم يعولون على القرآن والسنة في ذلك.

المقدمة:

لا ريب أن القرآن الكريم هو محور التعاليم الإسلامية، بل هو اليفصل بين الإسلام وغيره من الأديان. فإليه المرجع أولا قبل أي شيء لمعرفة الإسلام عقيدة وشريعة وأخلاقا. وفي ثنايا الرجوع إلى القرآن الكريم يكوّن العالم المسلم أفكاره الدينية ويخاطب المسلمين بذاته. وقد يتأثر هذا العالم المسلم بخلفيته وبيئته في فهم القرآن الكريم الذي هو المصدر الأم. يجد المدقق دعوة القرآن الكريم إلى الوسطية في أمور المسلم كله، ويجد المدقق من الجانب الآخر لذلك الإشادة بالوسطية في أغلب الخطابات الإسلامية. يضاف إلى هذا أن الخطاب الإسلامي المعاصر كله يفتخر بالوسطية ويدعي الانتساب إليه لما أوْلاها القرآن الكريم، فلا خطاب إسلامي ينكر الوسطية ولا خطاب إسلامي يرمي نفسه خارج الدائرة! ومن هنا يسعى هذا البحث إلى بيان دراسة مفهوم الوسطية وبيان علاقة الخطاب الإسلامي المعاصر بها من حيث الفهم والتعامل: الانتساب إليها ونسبة تبنيها. ولعل ذلك يقودنا إلى بيان الوسطية وبيان الخطاب الإسلامي وتصنيف الخطاب الإسلامي المعاصر ومن ثم دراسة العلاقة الجدلية بين الوسطية في هذه الخطابات الإسلامية المعاصرة. فما مفهوم الوسطية والخطاب الإسلامي المعاصر، وما

---

[1] عميد البحث العلمي وأستاذ مساعد في قسم أصول الدين والدعوة بكلية العلوم الإسلامية، جامعة المدينة العالمية بماليزيا.

التصنيف الجديد للخطاب الإسلامي المعاصر؟ ثم ما موقف الوسطية من الخطاب الإسلامي المعاصر، وما موقف الفكر الإسلامي المعاصر من الوسطية، وما العلاقة التي تربط الخطاب الإسلامي ببعضها من منطلق الوسطية التي حث عليها القرآن والسنة؟

يجدر بالذكر أن هذا البحث كتب للمشاركة به في المؤتمر العالمي الثاني للقرآن الكريم والسنة الشريفة، والذي عنون بـ: الوحي والعلوم في القرن الحادي والعشرين. والذي قام بتنظيمه قسم القرآن والسنة بكلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا. ومدخل هذا البحث إلى المؤتمر يكمن في أن من أهم أهداف المؤتمر "توسيع مفهوم الوسطية الإسلامية من خلال استكشاف مقاصد القرآن والسنة" فحاول الباحث الاستفادة من رسالته الدكتوراه في دراسة مدى إمكانية توسيع مفهوم الوسطية والذي يبدو واسعا منذ فجر الإسلام إلى يومنا هذا، وكل فرقة من الفرق الإسلامية يتبنونها ويجعلونها لهم دون غيرهم، فكيف توسع مفهوم الوسطية في الخطاب الإسلامي المعاصر ليتبناها كل خطاب من الخطابات الإسلامية المعاصرة. علاوة على أن هذا البحث قرين الصلة بالمؤتمر عبر محوره الخامس والأخير، والذي تفرع عنه عدة نقاط، منها: "الوسطية والاعتدال". وعليه، فإن الباحث يسعى إلى دراسة مكانة الوسطية في الخطاب الإسلامي المعاصر، والعلاقة الجدلية بين هذه الخطابات من منظور دعوى الوسطية وتبنيها.

المبحث الأول

دراسة مصطلحات البحث

أولا: حقيقة الوسطية:

عرفت الوسطية في هذا العصر بعدة تعريفات متقاربة، متباينة في التعبير متفقة في المعنى، ويكمن مفهوم الوسطية في أنه: الخيار بين طرفين، وهو العدل في مقابل الغلو والتفريط، وفي مقابل الزيادة والنقص. وهي البحث عن الحقيقة والاستفادة منها، وليس مجرد نقطة الوسط كما يفهم حرفيا أو فلسفيا، بل هي خصلة محمودة لها طرفان مذمومان. وهي مفهوم إسلامي لا علاقة لها بالفلسفة[1].

ثانيا: تعريف الخطاب الإسلامي:

يقصد بالخطاب الإسلامي الكلام الذي يلقيه علماء المسلمين إما بقصد الإفهام والبيان عن قضايا إسلامية ابتداءً، أو ببيان قضايا لها صلة بالإسلام، سماعاً كان أو كتابةً أو الرد على بعض ما يوجه إلى الإسلام داخليا أو خارجيا[2].

---

[1] الصلابي، **الوسطية في القرآن الكريم**، ص٣٥؛ ورشيد رضا، **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، ج٢، ص٤. وانظر: مجموعة من العلماء، **بحوث ندوة أثر القرآن الكريم في تحقيق الوسطية ودفع الغلو**، ص١٢٤؛ والزيد، **الوسطية في الإسلام: تعريف وتطبيق**، ص١٨ فما بعد؛ وعمارة، **معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام**، ص١٨٩-١٩٢؛ والجهني، **الفتوى وأثرها في حماية المعتقد وتحقيق الوسطية**، ص٥٨؛ وياقوت، **مظاهر الوسطية في التشريع الإسلامي**، ص٢٢.

[2] للتوسع في مفهوم الخطاب ينظر: توري، **رؤية في إعادة تصنيف الخطاب الإسلامي**، العدد ١١، ٢٠١٥؛ وتوري، **الدين والتدين في الخطاب الإسلامي المعاصر**، ص٢٩.

ثالثا: تعريف المعاصر:

ولعله من الجدير بالذكر هنا الإشارة إلى مصطلح "معاصر" قبل الحديث عن الخطاب الإسلامي المعاصر، فهو من المصطلحات الواضحة والفضفاضة في الوقت نفسه، إذ يحمل دلالة زمنية معينة، لكن ليس بوسع السامع أو القارئ معرفة ذاك الزمن تحديدا إلا ببيان صريح من الكاتب أو المتكلم، أو بقرائن بالوقوف على حوادث تاريخية مثلاً. رغم هذا نجد الكثير من المصنفات تحمل "معاصر" أو معاصرة"، دون تحديد، فتتصفح الكتاب لتجد أن المعاصر الذي يعنيه الكاتب ليس هو المعاصر الذي أعلمه وتعلمه لاختلاف الزمن المراد. لذلك أوافق صاحب كتاب "ماهية المعاصرة"[1] حين ذكر بأنه عندما نتحدث عن العصري والمعاصر فإنه يتعين علينا أولا أن نحدد من نحن. أو على الأقل نعين زمنا محددا.

وعليه، فيريد الباحث بالمعاصِر اصطلاح أهل الحديث، وهو العصر الذي يدركه شخصان أو يدرك فيه الشخص شيئا ما من حادثة أو غيرها، فيطلق على الأول بأنه معاصِر للآخر ويكون الثاني معاصَراً، ويصح العكس[2]. وضابطه في هذا البحث القرن العشرون الميلادي، فيدخل معنا بداية التسعينيات (القرن العشرين) إلى بداية الألف الثالث (القرن الحادي والعشرين)، أي من ١٩٠١م إلى ٢٠٠١م. وما قبل يذكر بأنه خطاب إسلامي قديم.

المبحث الثاني

تصنيفات الخطاب الإسلامي

أولا: تصنيف الخطاب الإسلامي القديم:

يجد المتتبع لقضايا الفكر الإسلامي القديم أن الاهتمامات في بيان الرؤى الإسلامية كانت منصبة وسائدة فيما يعرف بالمدرسة الإصلاحية؛ في مقابل المدرسة التقليدية المحافظة؛ على رأسها الفكر السلفي والصوفي. وفيما يعرف بالمدرسة التربوية أو ما يعرف بالمدرسة التاريخية أو الأدبية. هذا من جهة. ومن أخرى نجد أنه قبل بلورة مثل هذا النوع من التصنيف كان بيان الخطاب الإسلامي قائما على بيان جهود الأفراد دون نسبة إلى تيار أو خطاب. ونظرا إلى عمليات تصنيف الخطابات من شق آخر نجد في الدراسات الحديثة أن بعض الباحثين يهتم ببيان الرؤى وأطروحات الفكر الإسلامي القديم بعملية تصنيفية جديدة ومتطورة علميا وأكاديميا، ومحاولا الجمع بين الأساليب القديمة في التصنيف؛ ومن هنا يصنَّف الفكر الإسلامي على هيئة مؤسساتية؛ المؤسسات التعليمية وهنا يصلح الحديث عن الأزهر وعن دار العلوم، ومن التصنيفات الاتجاه العقلي، وكذا الغزو الثقافي، أو الاتجاه التغريبي، في إفشاء العلمانية والشيوعية والرأسمالية والديمقراطية وما إلى ذلك في بيان الاستشراق والتنصير؛ على أن في المقابل نجد الاتجاه التوفيقي أو التأصيلي، الذي يحاول هضم وقبول الكل بمعايير معينة؛ انطلاقا من الفكر التقليدي. كان ظهور هذه الاتجاهات تلبية الواقع، وقد اختلف ذلك عن واقعنا المعاصر.

ثانيا: إعادة تصنيف الخطاب الإسلامي[3]:

---

[1] البشرى، **ماهية المعاصرة**، ص٥٣.

[2] توري، **رؤية في إعادة تصنيف الخطاب الإسلامي**، العدد ١١، ٢٠١٥؛ وتوري، **الدين والتدين في الخطاب الإسلامي المعاصر**، ص٢٩.

[3] ينظر في ذلك بالتفصيل: توري، **رؤية في إعادة تصنيف الخطاب الإسلامي**، العدد ١١، ٢٠١٥.

يلاحظ أن التصنيف السابق للخطاب الإسلامي لم يعد يحكي واقع الخطاب الإسلامي المعاصر، فلا القضايا المتناولة هي هي، ولا الأهداف مشتركة، وقد اختلف العلماء والشخصيات في التصنيف السابق عما هو قائم الآن، بل التصنيف السابق يحكي واقع القرن التاسع عشر ميلادي، بينما التصنيف الجديد يرمز إلى القرن العشرين.

ولذلك؛ دعا الباحث في مقال له بعنوان رؤية في إعادة تصنيف الخطاب الإسلامي المعاصر إلى ضرورة إعادة تصنسف الخطاب الإسلامي، فقد شهد العالم الإسلامي تراكما معرفيا وحضارة في القديم، لكن لم تفلح إلى الآن في بناء الحضارة المثالية المتوقعة منها، أو على الأقل في إشباع حاجة الفرد المسلم، وذلك في مقابل تحدي الحضارة الغربية القائمة، فانطلق خطاب إسلامي بأن الحل ليس في القومية أبدا، ولا في الوقفة التلفيقية مع الغرب، ولا بإصلاح الأوضاع القائمة وترقيعها، بل الحل في الإسلام، فهو دين الله، ونظام الله أحق أن يقدم للناس العدالة والحضارة المثالية. وهتف اتجاه آخر بأن الإسلام وسط في عقيدته، وفي شريعته وفي أخلاقه، وفي هذا غنى للنهوض بالإسلام الذي هو وسط بين الغرب المادية وبين الشرق الروحية. في حين أن خطابا آخر ينادي بضرورة القيام بتغيير جذري في نمط التفكير، وفي منظار رؤية الأمور، فالدين هو الذي يلبي للناس حاجتهم ويدفعهم نحو النجاح، وهو الملبي لحاجات الجمهور الغفير وهو الذي يشبع نهمهم؛ وغير ذلك لا يعتبر دينا؛ وهو مرفوض؛ ليقل العكس من شاء.

وهكذا تعدد الخطاب الإسلامي المعاصر وتنوعت الاتجاهات التي تحدثت عن الإسلام في العالم عموما وفي العالم الإسلامي خصوصا؛ ولعله يمكن اعتبار الاتجاه الحركي (الحركة الإسلامية)[1]، والاتجاه الوسطي[1]، والاتجاه العقلاني[2] من أكثر

---

[1] تأتي الحركة الإسلامية في الوهلة الأولى وكما يظهر في بعض الكتابات بمعنى الدعوة إلى الله، إلا أن هذا ليس هو المراد، وكل مسلم يعتبر حركيا بهذا المفهوم. انظر: منيب، **خريطة الحركة الإسلامية المعاصرة في مصر**، ص١٦؛ وابن إندوت، **الحركة الإسلامية في ماليزيا**، ص٦ –٧. إن المفهوم المراد للمصطلح ولعل من أجله وضع المصطلح هو: العمل الإسلامي الجماعي المنضبط والمنظم، الذي يسعى إلى إقامة دولة إسلامية والحكم بالشريعة الإسلامية. انظر: القرضاوي، **أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة**، ص٦؛ والبوطي، **الجهاد في الإسلام كيف نفهمه وكيف نمارسه**، ص٤٢–٤٣؛ وبحث بعنوان **الحركات الإسلامية: النشأة والمدلول وملابسات الواقع**؛ والأفندي، **الحركات الإسلامية وأثرها في الاستقرار السياسي في العالم العربي**، ص١٥؛ ومنيب، **خريطة الحركة الإسلامية المعاصرة في مصر**، ص٧؛ وإحرشان، **الحركة الإسلامية: قراءة في المفهوم والوظيفة والسياق**، مقالة إلكترونية على الشبكة العنكبوتية على الرابط الآتي:

http://www.aljamaa.net/ar/document/23934.shtml. تاريخ ٢١- ٠٩- ٢٠١١.

See: Burgat، The Islamic Movement in Egypt، P. 19; Abdelnasser، The Islamic Movement in North Africa، P. 6; & Dowell، Esposito، Political Islam: Revolution or Reform? P.3; Martin، Encyclopedia of Islam and The Muslim World، Encyclopedia of Islam، P. 154 & 615; Campo، Encyclopedia of Islam and the Muslim World، P. 376.

[2] هذا ويطلق بعض الباحثين على الحركة الإسلامية مصطلح الإسلام السياسي، وهو إطلاق خارجي غربي أو بتأثير منه. ومن قبيل الإسلام السياسي نجد مصطلح الأصولية الإسلامية، فهو مصطلح غربي كذلك. محمود، **الإسلام السياسي والمعركة القادمة**، ص١٧؛ حنفي، **الحركات الإسلامية وأثرها في الاستقرار السياسي في العالم العربي**، ص٥٥؛ وانظر: مقالة بعنوان **ثقافة التلبيس: مصطلح الإسلام السياسي**، على موقع صيد الفوائد، على الرابط الآتي:

http://www.saaid.net/Warathah/Alkharashy/m/55.htm. تاريخ ٢١- ٠٩- ٢٠١١.

See: Esposito، *Encyclopedia of Islam*، 536; Campo، *Encyclopedia of Islam and the Muslim World*، *Political Islam*. P. 3; Martin، *Political Islam Observed* (London: Hurst and Company، P. 556; Frederic Volpi 2010) P. 1.

وانظر تفصيل كل ذلك في: توري، **الدين والتدين في الخطاب الإسلامي المعاصر**، ص٢٩.

الخطابات الجديدة[٣] –التي لم تحظ بدراسة علمية حسب علمي كما حظيت الخطابات الأخرى– صيتا في العالم الإسلامي، وفي المجتمعات العربية؛ بل وفي العالم أجمع.

ومن هنا ندرك أن القاسم المشترك المبدئي بين الخطابات الإسلامية بما فيها العقلانية تكمن في أن الجميع يريد إيجاد حل لواقع الأمة من نداء الإسلام، فالدين والتدين أُصبغا بطابع وجهة نظر كل اتجاه فيما يقدم، قد يشتركوا في أمور؛ من مثل الانطلاقة من الإسلام والحديث عن الإسلام باسم الإسلام لمعالجة واقع المسلمين، وقد يختلفوا في بيان ما هو الإسلام بناء على رؤيتهم، علما أن بعض الناطقين بهذه الخطابات تقلب تقلبات كثيرة قبل أن يقف على خطاب إسلامي معين؛ فجرب الشيوعية وانضم إلى أحزاب وانضم إلى الأدباء، وعاين واقعات مؤلمة، وفتح بعضهم عينه في الغرب على حضارتهم. فالصلة هو الإسلام وعن الإسلام وللمسلمين، كيف؟ يحدد موقف كل اتجاه اتجاهه بجوابه[٤]!

المبحث الثالث

موقف الوسطية (القرضاوي) من الحركة الإسلامية (سيد قطب)

وموقف الحركة الإسلامية من الوسطية

أولا: موقف الوسطية (القرضاوي) من الحركة الإسلامية (سيد قطب)

اتضح لدى تعريف الحركة الإسلامية بأن كل مسلم حركي، ولا يقتصر الحركة الإسلامية بهذا على سيد قطب فقط أو الإخوان المسلمين بهذا؛ بل يدخل في المعنى الأول كل مسلم، ومن هنا فالقرضاوي حركي إجمالا. وبخاصة لو أدركنا أن الحركة الإسلامية هي التيار الذي وقف ضد الاحتلال –ففي بداية القرن التاسع عشر، وبداية القرن للعشرين عاشت مصر، ومعظم العالم الإسلامي فترة احتلال– أولا وضد العلمانية، الداء الفاشي في العصر.

---

[١] سبق التعريف بها في: "مصطلحات البحث" ص٣.

[٢] تسمى موافقة العقل مع النقل بالعقلية. بينما العقلانية شيء زائد على (العقلية) لقد شجع القرآن في أكثر من مكان على أهمية العقل ودور التفكير الفعال في الإيمان بالله وخشيته واتباع أوامره ونواهيه، وفي دوره في عمارة الأرض وعبادة الله. وأكد علماء الإسلام قديما وحديثا عدم التعارض بين النقل الصحيح والعقل الصريح، وما ذاك إلا لمكانة الإنسان في الكون وأهميته. مكانة العقل في الإسلام أمر مسلم به لا غبار عليه، ومن هنا يرى الباحث أن نطلق على كل من سار على هذا الأمر المعروف ورضيه بالاتجاه العقلي، وهو غير ما يأتي من الاتجاه العقلاني؛ فهما ليسا سيان. وهو أمر اصطلاحي ليس إلا. والآن ما مفهوم الاتجاه العقلاني؟ يمكن تعريف العقلانية بأنها الاتجاه الفلسفي الذي يجعل من العقل نبراسا ومقوما ومعيارا لكل شيء؛ صغيره وكبيره، ظاهره وباطنه، الطبيعي منه وما وراء الطبيعة منه، وله موقف غريب مع التراث؛ هو ازدواجية النظرة؛ احترام ورفض. وقد عرف العقلانية أكثر من واحد، قوام تعريفها هو أن: صيغة العقلانية في اللغة مصدر صناعي كربانية، وهو مصطلح لم يعرفه التراث الإسلامي، ويستخدم بمعنى التفسير العقلاني لكل شيء في الوجود، أو تمرير كل شيء في الوجود من قناة العقل لإثباته أو نفيه أو تحديد خصائصه. والعقلانية هي الاعتماد على العقل أولا وآخرا في تفسير الأمور كلها، ولا عبرة للوحي في ذلك، والعقلانية تعني الاستغناء عن الله بالاستغناء عن الوحي وعدم الاعتماد ابتداء وبخاصة لو عارض العقل. انظر: الغزالي، **مذاهب فكرية معاصرة**، ص٥٠٠ فما بعد؛ تحدث في أكثر من خمسين صفحة عن العقلانية وموقف الإسلام منها؛ انظر: القرضاوي، **الدين والسياسة**، ص٨١ فما بعد؛ انظر: عمارة، **معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام**، ص١٥٢ فما بعد؛ والعقل، **الاتجاهات العقلانية الحديثة**، ص١٦ فما بعد.

[٣] للتفصيل يراجع: توري، **الدين والتدين في الخطاب الإسلامي المعاصر**.

[٤] توري، **الدين والتدين في الخطاب الإسلامي المعاصر**، نتائج البحث.

وأما في تفصيل موقف القرضاوي من الحركة ومن سيد قطب فنجد أن القرضاوي يصح أن ينسب إلى الإخوان المسلمين بالمعنى الحركي الأول أولا، وبحكم أن طلب الدولة لدين مطلب كل مسلم؛ علاوة على أن القرضاوي بمثابة منظر للحركة الإسلامية؛ حيث أنه ألف كتبا في بيان أن الإسلام دين ودولة وأنه شامل ومتكامل. فمن أهم مؤلفاته في هذا سلسلة الصحوة الإسلامية: 'الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي، الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، الصحوة الإسلامية بين الاختلاف المشروع والتفرق المذموم'. ومن مؤلفاته في بيان أن الإسلام دين ودولة، وأنه كامل وشامل كتاب 'أين الخلل'، وكتاب 'أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة'، ومن أهمها كتاب 'الإسلام والعلمانية وجها لوجه'، وكتاب 'ملامح المجتمع المسلم الذي ننشده'، وكتاب 'غير المسلمين في المجتمع الإسلامي'.

لكن السؤال المطروح هو هل أن تأليفه في بيان الإسلام وكماله وشموله يجعله من الإخوان المسلمين حاله كحسن البنا وسيد قطب، أم أن كتاباته بحكمه عالما من علماء المسلمين المعاصرين هو ما اقتضى أن يكتب في قضايا عصره؟ فيبدو من الظاهر أن عمله داخل تحت الدعوة أو بيان الإسلام بحكمه عالما؛ ليس سياسيا يلعب دورا. وهذا هو معنى الحركة بالمعنى الأول. على أنه لا شك أن الحركة الإسلامية تأثرت بكتابات القرضاوي. لكن السؤال هو هل بحكمه عالما منظرا أم بكونه فردا منضما سياسيا؟

يقول القرضاوي: "لا بد من تأكيد الوقوف في وجه العلمانية ودعاتها ومبرريها، بتأكيد شمول الإسلام، وإبراز هذا الجانب الحي من أحكامه وتعاليمه: جانب الدولة، وتنظيمها وتوجيهها بأحكامه وآدابه، وإعلان أن ذلك جزء لا يتجزأ من نظام الإسلام... ولم يكن هذا ابتكارا من الحركة الإسلامية ومؤسسها ودعاتها. بل هو ما تنطق به نصوص الإسلام القاطعة، ووقائع تاريخه الثابتة، وطبيعة دعوته الشاملة". ويقول مخاطبا الحركة الإسلامية -وكأن هذا يبين أنه ليس واحدا منهم انتسابا سياسيا- "واجب الحركة الإسلامية: ألا تدع هؤلاء (العقول المهاجرة) لدوامة التيار المادي والنفعي السائد في الغرب، تبتلعهم، وأن يُذكَّروا دائما بأصلهم الذي يحنون دائما إليه"[1].

ولعل هذا يفسر لغز رفض القرضاوي أن يكون مرشدا للإخوان، وتعليله بأنه لا يريد أن يكون مرشدا للإخوان فقط بل لكل الناس؛ للمسلمين كلهم[2].

يجد المتتبع أن وسطية القرضاوي أكبر معيارا من كونه حركيا. وحتى بيانه الدعوي بما يبين الدين والدولة مبني ومرتكز على الجانب الفقهي الوسطي الذي يتبناه. وسيأتي تفصيل القول في بيان الوسطية.

على أن مخالفة القرضاوي لسيد قطب هو من الجانب الوسطي في الفقه، فهو يرد كثيرا على تشدد سيد قطب في علو نبرة صوته حول الحاكمية، وتقسيم الناس إلى مجتمع جاهلي وإسلامي. كل هذا يؤكد لنا موقف القرضاوي من سيد قطب ومن الحركة.

---

[1] القرضاوي، **مدخل لمعرفة الإسلام**، ص١٧٠.

[2] كساب، **أثر القرضاوي على الحركات الإسلامية**، ص١٧.

ويرى القرضاوي أن روح مدرسة البنا المتمثلة في الإخوان المسلمين هي الوسطية التي تقوم على التكامل والتوازن والاعتدال، دون غلو ولا تفريط، ولا طغيان ولا خسارة[1].

وهكذا، فقد تبين أن السمة البارزة على خطاب القرضاوي هو الوسطية، ومع ذلك فهو حركي من باب كونه مسلما يرى أن الإسلام دين ودولة، إلا أنه ليس حركيا من باب المعنى الاصطلاحي. على أن الحركة الإسلامية نفسها فيها صبغة زسطية إلا أن الحركية طغت على خطابهم، ومع ذلك فهم لا ينفكون من النداء إلى الوسطية والانتساب إليها. ومن هنا فعل الأولى الاحتفاظ بالوسطية لمن انتسب إليها ودعا إليها دون أن غيرها.

ثانيا: موقف الحركة الإسلامية من الوسطية

الحركة الإسلامية من آثار وثمار الصحوة، وقد يصح العكس. يضاف إلى هذا أن حركة الإخوان المسلمين قائمة على الوسطية والاعتدال كما يذهب إلى ذلك أكثر من باحث. يرى محمد عمارة أن من معالم المشروع التجديدي للنهضة الحضارية الإسلامية، كما صاغه الإمام الشهيد حسن البنا لحركة الصحوة الإسلامية المعاصرة ممثلة في جماعة الإخوان المسلمين الجمع بين النظر العقلي والنظر الشرعي، وهو وسطية الإسلام. ويزيد عمارة صراحة أن من معالم المشروع الحضاري لحركة الإخوان كما أراد مؤسسه الوسطية[2].

ومن هنا واجه سيد قطب بعض الردود من قبل زعماء الحركة في عصره، لرؤيتهم أن سيد قطب قد تشدد نوعا ما وخرج عن إطار الوسطية الذي هو من أهم معالم وملامح الإخوان المسلمين؛ فيرى الأستاذ الهضيمي أحد مرشدي الحركة أن سيد قطب بلور منطلقات أو معالم نظرية لا تستمد مرجعيتها من الرؤية الإخوانية التاريخية التي تمثل في بنيتها الأساسية رؤية وسطية أو اعتدالية[3].

فيبدو أن صبغة الوسطية موجودة في بيئة الصحوة، وبيئة العلم، التي نشأ فيها القرضاوي، والوسط العلمي والفني الذي أخذ منهم كانوا متبنين للفكر الوسطي. وهذا يرينا طرفا من علاقة الحركة الإسلامية بالمدرسة الوسطية. فالمفترض أن يكون كل حركي وسطيا إلا من شذ، فرد عليه. ومع ذلك يبقى أن الأولوية لمسمى الوسطية تكون لمن انتسب إليها صراحة وجعلما المعلم الأساسي لخطابه، لا لمن جعلها سمة من سمات خطابه.

---

[1] القرضاوي، **الإخوان المسلمون: ردود على تساؤلات**، ص١١.

[2] عمارة، **معالم المشروع الحضاري في فكر الإمام الشهيد حسن البنا**، ص٢٨، و٦٠.

[3] أحمد عبد المجيد، **سيد قطب بين مؤيديه ومعارضيه**، ص١٠٦.

المبحث الرابع

موقف الوسطية (القرضاوي) من العقلانية (حنفي)

وموقف العقلانية من الوسطية

أولا: موقف الوسطية (القرضاوي) من العقلانية (حنفي):

يجد المدقق أن القرضاوي يؤمن بالعقلية، ويقف بالمرصاد للعقلانية. يبين القرضاوي أن للعقل دور كبير في الإسلام ابتداء من وجود الله، بل قد يفهم أن قضية وجود الله والإيمان بالبعث متعلق على العقل. يذكر في هذا في هذا أن مجال العقل في تراثنا مجال واسع، فالمتكلمون –حتى الأشاعرة والماتريدية منهم– يعتبرون العقل أساس النقل، فلولا العقل ما قام النقل ولا ثبت الوحي، ولا تأسَّس الدين. فبالعقل ثبتت أعظم قضيتين في الدِّين: قضية وجود الله تعالى، وقضية إثبات النبوة، فإثبات النبوة لا يتمُّ إلا بالعقل عن طريق الآيات البينات، التي يؤيد الله بها رسله، ومنها: المعجزة. فالعقل هو الأداة الوحيدة لإثبات الوحي، أو نبوة النبي، فإذا أثبت العقل النبوة بطريق قطعي: عزل العقل نفسه ليتلقى بعد ذلك عن الوحي، ويقول: سمعنا وأطعنا[1]. ويبين أيضا أن العقيدة الإسلامية عقيدة منطقية وعقلية "مبرهنة" لا تكتفي من تقرير قضاياها بالإلزام المجرد والتكليف الصارم، ولا تقول كما تقول بعض العقائد الأخرى "اعتقد وأنت أعمى" أو "آمن ثم اعلم" أو "أغمض عينيك ثم اتبعني" أو "الجهالة أم التقوى" بل يقول كتابها بصراحة: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ [البقرة:١١١؛ والنمل:٦٤]، وأن العقل أساس النقل. وأن النقل الصحيح لا يخالف العقل الصريح. وأن القرآن يقيم الأدلة من الكون ومن النفس ومن التاريخ على وجود الله وعلى وحدانيته وكماله[2].

ونجد أن دور العقل في إثبات وجود الله يكاد يكون قاعدة مضطردة في القرآن؛ ويؤكده القرضاوي ذلك في أكثر من أماكن في كتبه، وآخر ما يذكر من ذلك هو ما ذكر في كتابه 'مدخل لمعرفة الإسلام' أن العقل عند المسلمين ليس نقيضا للوحي، بل هو الدليل على صدقه، ولهذا يعتبر المحققون من علماء المسلمين: أن العقل أساس النقل، ويعلل ذلك بأنه لولا العقل ما عرفنا وجود الله تعالى، ولا أقمنا الأدلة عليه، وأبطلنا شبهات الدهريين والملاحدة... ولولا العقل كذلك ما قام البرهان على إمكان الوحي ووقوعه، وصدق الأنبياء والرسل، وآخرهم محمد صلى الله عليه وسلم.[3] فللعقل في الإسلام دور أساسي في إثبات وجود الله كما يرى القرضاوي. أضف إلى هذا أن القرضاوي بين أن مصدر الإسلام في العقائد واحد، أو مرجع واحد، هو "الوحي الإلهي، وإدراك صحة هذا الوحي متوقف على دور العقل، بمعرفة المعجزة، وبمقتضى التكليف المناط بالعقل"، سواء أكان وحيا جليا متلوا، وهو القرآن، أم وحيا غير جلي ولا متلو، وهو السنة. ويؤكد بأن عمل "العقل الإسلامي" في تفسير القرآن، وشرح الحديث، واستنباط الأحكام، فلا عصمة له في مفرداته وجزئياته. ولكنه . في مجموعه .

---

[1] القرضاوي، **الدين والسياسة**، ص١٨٢.

[2] القرضاوي، **الإيمان والحياة**، ص٤٨.

[3] القرضاوي، **مدخل لمعرفة الإسلام**، ص٢٠٧.

ضروري لفتح المغاليق، وتبيين الطريق، وترشيد الفهم، وتسديد الاستنباط والاجتهاد، حتى لا تزل الأقدام، وتضل الأفهام[1]. فالقرآن والسنة مصدرا الدين قطعا وحصرا، ويضاف إليه العنصر البشري في التدين ليكون مصدرا آخر، يستمد النور من العقل ومنهما، فهو محتمل الصحة والخطأ بناء على الاجتهاد، كما أنه محتمل التغيير أو الثبات بناء على عنصري المكان والزمان.

وهكذا يمكن القول بأن القرضاوي يقر بالعقلية كما هو ثابت في القرآن، وكما هو معروف في التعامل مع النصوص من حيث الاجتهاد في الفهم والتنزيل؛ وهو ما عرف عنه بالجمع بين النص والعقل. فالعمل بالعقلية نصف الوسطية، ويكون النص النصف الثاني.

أما العقلانية كمصطلح فيؤصل القرضاوي للكلمة ويبين أن لفظ (العقلانية) من الناحية اللغوية يسمى (مصدرًا صناعيًا) منسوبا إلى العقل، زيدت فيه الألف والنون، كما زيدت في نحو الربانية، نسبة إلى الرب، والروحانية نسبة إلى الروح. ولم يستخدم هذا التعبير كما يرى القرضاوي في التراث الإسلامي، ولكن الاتجاه العقلي –بصفة عامة– معروف في تراث الأمة، عُرف به الفلاسفة، وعُرف به علماء الكلام عامة، والمعتزلة منهم خاصة. وبين أن هناك فرق كبير بين الفلاسفة والمتكلمين – ومنهم المعتزلة– فالفلاسفة ينطلقون من مجرد العقل، والمتكلمون ينطلقون من العقل المؤمن بالدِّين[2].

بعد هذا نجد أن القرضاوي يبين أن العقلانية لها معنى في الغرب مخالف للمعنى المعروف بها في الفكر الإسلامي، وهو يقصد بيان مكانة العقل في الإسلام، وهو ما اتفقنا على تسميته بالعقلية، ومن ثم عرف العقلانية –عند الغربيين كما يرى مقابلا لها للعقلية–: بأنها اتجاه أو مذهب يعتمد على العقل وحده في فَهم الكون والإنسان والحياة في مقابل (الحسِّ) أو (التَّجرِبة)، فالعقليون لهم وجهتهم وطريقهم، والتجريبيون لهم وجهتهم وطريقهم. ويذكر أنه قد يكون هذا الاتجاه أو هذا المذهب في مقابلة الذين يعتمدون على مصادر أخرى، مثل الوحي عند الكتابيين (اليهود والنصارى والمسلمين)، ومثل الذين يعتمدون على الإلهام والذوق من الصوفية، والباطنية وغيرهم. فالعقلانية هنا تعني: المادية والحسية[3].

فموقف الوسطية هو العمل بالعقلية وهو الشطر الثاني من الوسطية، ومن هنا لا ترى الوسطية بأن العقلانية تمثل حلا إسلاميا لقضايا المسلمين!

ثانيا: موقف العقلانية من الوسطية

أما الصلة بين العقلانية والوسطية فإنها تكمن في أن العقلانية المتمثلة في اليسار الإسلامي تيـــار برز

---

[1] القرضاوي، المرجع نفسه، ص١٨٩–٣١٢.

[2] القرضاوي، **الدين والسياسة**، ص٨١ فما بعد.

[3] الغزالي، **مذاهب فكرية معاصرة**، ص٥٠٠ فما بعد؛ وعمارة، **معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام**، ص١٥٢ فما بعد؛ والقرضاوي، **الدين والسياسة**، ص٨١ فما بعد؛ والعقل، **الاتجاهات العقلانية الحديثة** ص٣٥٩–٣٧٨؛ وحنفي، **الدين والثورة في مصر ١٩٥٢– ١٩٨١: المجلد الثامن اليسار الإسلامي والوحدة الوطنية**، ص١١؛ والجمال، **اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر في مصر في النصف الأول من القرن الرابع عشر الهجري**، ص١١–١٩؛ وأبو زيد، **نقد الخطاب الديني**، ص١٠.

كردة فعل لواقع مصر، لمواصلة جهود تيار الحركات الإسلامية في مصر على حد تعبير حسن حنفي نفسه[1]. وعليه، فإن العقلانية أو اليسار الإسلامي تيار وسطي كما يرى حنفي إذا اعتبرنا العقلانية حركة إسلامية إصلاحية تواصل جهود الأفغاني وعبده ورشيد رضا وحسن البنا وسيد قطب، وأكبر دليل على هذا أن في اختيار الاسم "اليسار الإسلامي" بين حنفي رفضه لكل الأسماء التقليدية في مصر من مثل العروة الوثقى، والمنار الجديد، -ومعلوم أن رشيد رضا من التيار الوسطي-، وصحوة الإسلام، أو يقظة الإسلام، أو النهضة الإسلامية، أو البعث الإسلامي، أو الوعي الإسلامي، أو القضايا الإسلامية، أو الإسلام المعاصر، الموعظة الحسنة، أو الموقف، أو الهدى، أو الفرقان، أو البشير، أو النذير، أو البيان، والتقدم الإسلامي أو الحركة الإسلامية، أو ثورة الإسلام، بين أنه يدل على الثورة، ثورة في العقائد أو في الأخلاق أو في الشرائع والقوانين دون تحقيق الثورة في الواقع؛ وأنه قد يكون اسما خطابيا إعلاميا، لا يخاطب العقل، ولا يتحدد بالعلم، ولا يشير إلى شيء محدد ولكنه أقرب إلى العامة، ويخاطب كل الناس، ويرضى عنه الجميع. ثم رجع أيضا إلى المفهوم فبين أن مصطلح اليسار الإسلامي مصطلح في علم السياسة يعني المعرضة والنقد وبيان المسافة بين الواقع والمثال. فيبين أن كتابات اليسار الإسلامي استمرار لمجلة "العروة الوثقى" ولجريدة المنار؛ نظرا لارتباطها بالمشروع الإسلامي كما حدده الأفغاني: مقاومة الاستعمار والتخلف، والدعوة إلى الحرية والعدالة الاجتماعية، وتوحيد المسلمين في الجامعة الإسلامية أو الجامعة الشرقية. فاليسار الإسلامي تكملة لأول مشروع -إصلاحي- إسلامي في تاريخ المسلمين الحديث عبر واقع المسلمين واحتياجاتهم السياسية والاجتماعية، فليس بدعة في الحركات الإسلامية[2].

فالصلة بين اليسار الإسلامي والوسطية هو أن كلا منهما يسعيان إلى تقديم الحل الإسلامي لمشكلات الساحة، فغلب كل رؤيته. ومن هنا أوافق كساب في بيانه أن الذين كتبوا عن الوسطية ومنهج الوسطية في العصر الحديث يمكن تقسيمهم إلى ثلاثة أقسام رئيسية:

١. من اتخذ الوسطية منهجا وإن لم يتحدث عنها صراحة، لكنها ظهرت واضحة في منهجه. كمحمد رشيد رضا، وحسن البنا، ومحمد الغزالي... وغيرهم.
٢. من كتب عن الوسطية وتحدث عنها صراحة، لكنه ربما جنح عنها في بعض الأحيان إلى الشدة، كالشهيد سيد قطب، فقد يميل الشهيد إلى التشدد أحيانا، وقد يسيء البعض فهم المراد من كلماته أحيانا أخرى لما لها من الطابع الأدبي الذي يحتاج إلى قارئ ذوّاقة.
٣. من اتخذ الوسطية منهجا وتحدث عنها صراحة، والتزم بها في منهجه، كالشيخ القرضاوي... وغيره من الدعاة[3].

---

[1] حنفي، **الدين والثورة في مصر ١٩٥٢- ١٩٨١: المجلد الثامن اليسار الإسلامي والوحدة الوطنية**، ص١١.

[2] حنفي، **الدين والثورة في مصر ١٩٥٢- ١٩٨١: اليمين واليسار في الفكر الديني**، ص٣.

[3] أكرم كساب، **معالم الوسطية عند القرضاوي**، ص٣٦.

ويضيف الباحث قسمة رابعة وهي من ينتسب إلى الوسطية عبر الحركة الإسلامية المعتدلة، لكن غلب طابع واتجاه آخر في منهجه وكتاباته أكثر من الوسطية، ومنهم حنفي؛ في يساره الإسلامي ممثل العقلانية.

على أن العقلانية تلتقي مع الوسطية في معلم من معالمها، وهو الخيرية والصلاح، فمن مقوم العقلانية الخيرية والصلاح يرى جمال البنا أن العقلانية الإسلامية تختلف عن العقلانية التي تنبثق عن الحضارة الأوربية في جانب هام، وهو أن العقلانية الإسلامية ملتزمة وليست طليقة؛ فهي تتوخى الخير والصلاح، وهي تربط ما بين التوصل إلى المعرفة وحسن استخدام هذه المعرفة. ويبين أن الإنسان القرآني لا يقدح زناد فكره، ولا يعمل ذهنه بنية سيئة أو لهدف ضار، أو لكسب يستتبع أذى وضررا للآخرين. ويضيف بأن العقلانية الإسلامية تعنى بالنية التي لا تحفل بها عقلانية المجتمع الأوربي، وبوحدة الوسيلة والغاية، وهي ترفض تماما المبدأ الذي يبدو عقلانيا أو على الأقل يقوم على تبرير منطقي وهو "الغاية تبرر الوسيلة"[1].

بل ومن وجوه الصلة بين العقلاني والوسطية، هو أن الكل يجمع بين النص والعقل، وينطلق من الواقع لإيجاد صفة التدين لمن له دين[2].

المبحث الخامس

موقف العقلانية (حنفي) من الحركة الإسلامية (سيد قطب)

وموقف الحركة الإسلامية من العقلانية

أولا: موقف العقلانية من الحركة الإسلامية:

إذا ما انتقلنا إلى موقف حنفي من سيد قطب والحركة الإسلامية، فيرى حنفي أن ما يسمى بالحركة الإسلامية ليس إلا اهتمام المسلمين بالقضايا الاجتماعية، ومن هنا فكل مسلم حركي، أو ينبغي أن يكون حركيا؛ إذ الدين عنده ليس مجرد نظريات لا تثمر في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، بل الدين ثمرة الواقع، وآلته الثورة.

يفسر حنفي تاريخ الدين بأنه تاريخ حركي لحماية الأكثرية المغلوبة على أمرها، وأنه وسيلة للتغيير الاجتماعي والسياسي والثقافي، ويؤكد أن الدين حركة اجتماعية تعبر عن قوى اجتماعية مضطهدة أو مهمشة في المجتمع ضد قوى التسلط والضغيان. وتاريخ الإسلام قديما من زمن النبي –عليه الصلاة والسلام– وخلفاءه من بعده وحديثا على يد زعماء الإصلاح، والحركات الإسلامية المعاصر في شتى الدول العربية[3].

ومن هنا يرى حنفي أن اليسار الإسلامي الذي يدعو إليه تيار حركي، فاليسار الإسلامي واحد من الحركة إسلامية بعد فشل بقية الحركات: فلا بد من ميلاد حركة جديدة تعالج الواقع وتسعى إلى تحقيق منايا الأغلبية ضد الأقلية المستبدة. ويرى حنفي

---

[1] البنا، **الإسلام والعقلانية**، ص٦١–١٠٧.

[2] الميلي، **ظاهرة اليسار الإسلامي: دراسة تحليلية نقدية لأطروحة الاستنارة والتقدمية**، ص٥١–٦٧.

[3] حسن حنفي، **الحركات الإسلامية وأثرها في الاستقرار السياسي في العالم العربي**، ص٥٣–٦٣.

بأن الاتجاهات الدينية التي قدر لها الوصول للحكم حولت الإسلام إلى شعائر وطقوس وعقائد وأخريات وتغيب منها النظرة الإنسانية وتصور التاريخ وحركة المجتمعات[١].

فلا عجب من اعتبار حنفي ممثل العقلانية في هذا البحث حركيا بهذا الاعتبار، وبخاصة لو علمنا أنه تلميذ لسيد قطب وحامل فكره، يقول: "أنا تلميذ لسيد قطب..؛ ولكنني تلميذ سيد قطب في -العدالة الاجتماعية- لا سيد -معالم في الطريق- فمعالم في الطريق خرج تحت تأثير أجواء السجن والتعذيب والقمع،.. ولو دخلتُ السجن لكتبت "معالم في الطريق". ولو سافر سيد قطب إلى فرنسا ولم يدخل السجن لكتب "من العقيدة إلى الثورة"[٢].

ويقول عن سيد قطب. "والحقيقة أن سيد قطب شخصية فريدة في تاريخ مصر، وفي العلاقة بين الضباط الأحرار والإخوان المسلمين، وقد ظهر ذلك في آخر فترة في حياته، وهي الفترة السياسية"[٣]. فحركية سيد قطب عند حنفي هو التغلغل السياسي بحثا لحقوق الأكثرية المظلومة، وتحت هذا عذب وسجن فكتب معالم في الطريق، فاستخدم فيه من الألفاظ والمصطلحات ما استخدم؛ حاكمية، مجتمع إسلامي وغيره.

فالطابع الأكبر في كتابات حنفي هو العقلانية والمعيار الأكبر في كتبات حنفي هو الثورية، فيأخذ جزءا من الحركة، ويغاير في الطريقة، نظرا لاختلاف البيئة والظروف كما يرى. ولعل هذا البيان كفيل لإدراك موقف حنفي من الحركة ومن سيد قطب. بعد بيان موقف الوسطية من العقلانية ومن الحركة الإسلامية، والعكس.

ثانيا: موقف الحركة الإسلامية من العقلانية:

ينادي سيد قطب دوما إلى الرجوع إلى منهج القرآن، ونبذ منهج الفلاسفة والمتكلمين؛ حيث كرس عنوانا كاملا للحديث عن أهمية منهج القرآن وأولويته على سائر المناهج، كما أنه في إثبات وجود الله وصفاته يركز على المنهج القرآني في ذلك. ويعارض منهج علماء الكلام والفلاسفة ودعاة العقل في ذلك. وبين أهمية المنهج القرآني دوما، ويكثر الحديث عنه وعن جيل قرآني، وعن طبيعة المنهج القرآني. وهو كثير استخدام الآيات[٤]. ولعل بناء على هذا كان محور كتاباته منصبا على الحاكمية. يضاف إلى هذا أن سر معارضته للفقه الإسلامي، وعدم جدوى تطوير الفقه الإسلامي من لغز هذا المنهج، وهو ما نتج عنه أبرز نداءاته، بما في ذلك المجتمع الإسلامي، والمجتمع الجاهلي، والحاكمية.

ويركز سيد قطب دوما على المنهج في كتاباته، "كلمة في المنهج". ويرى سيد قطب أن العقيدة الإسلامية وأصول الدين أو ما أسماه هو بـ "التصور الإسلامي" لن يخلص من التشويه والانحراف والمسخ، إلا حين نبتعد عن المناهج الأخرى غير المنهج القرآني، ونلقي عنه جملة بكل ما أطلق عليه اسم "الفلسفة الإسلامية". وبكل مباحث "علم الكلام" وبكل ما ثار من الجدل بين الفرق الإسلامية المختلفة في شتى العصور أيضاً! ثم نعود إلى القرآن الكريم، نستمد منه مباشرة "مقومات التصور

---

[١] حنفي، **الدين والثورة في مصر ١٩٥٢– ١٩٨١: المجلد الثامن اليسار الإسلامي والوحدة الوطنية**، ص١١.

[٢] Read :more SEE: http://aljsad.com/forum9/thread25505/#ixzz2Gi49H5oj 21/ 12/ 2012 " .

[٣] حنفي، **الدين والثورة في مصر ١٩٥٢– ١٩٨١: المجلد الثامن اليسار الإسلامي والوحدة الوطنية**، ص١١.

[٤] سيد قطب، **خصائص التصور الإسلامي**، ص٥–٢١؛ سيد قطب، **معالم في الطريق**، ص١٣–٢٠.

الإسلامي". مع بيان "خصائصه" التي تفرده من بين سائر التصورات. وأتى بثلاث حقائق تحتم العودة إلى المنهج القرآني في عرض العقيدة ونبذ كل المناهج الأخرى، هذه الحقائق الأخرى هي:

الأولى: أن أول ما وصل إلى العالم الإسلامي من مخلفات الفلسفة الإغريقية واللاهوت المسيحي، وكان له أثر في توجيه الجدل بين الفرق المختلفة وتلوينه، لم يكن سوى شروح متأخرة للفلسفة الإغريقية، منقولة نقلاً مشوهاً مضطرباً في لغة سقيمة. مما ينشأ عنه اضطراب كثير في نقل هذه الشروح!

والثانية: أن عملية التوفيق بين شروح الفلسفة الإغريقية والتصور الإسلامي كانت تنم عن سذاجة كبيرة، وجهل بطبيعة الفلسفة الإغريقية، وعناصرها الوثنية العميقة، وعدم استقامتها على نظام فكري واحد، وأساس منهجي واحد. مما يخالف النظرة الإسلامية ومنابعها الأصيلة.. فالفلسفة الإغريقية نشأت في وسط وثنى مشحون بالأساطير، واستمدت جذورها من هذه الوثنية ومن هذه الأساطير، ولم تخل من العناصر الوثنية الأسطورية قط.

والثالثة: أن المشكلات الواقعية في العالم الإسلامي – تلك التي أثارت ذلك الجدل منذ مقتل عثمان رضي الله عنه قد انحرفت بتأويلات النصوص القرآنية، وبالأفهام والمفهومات انحرافاً شديداً. فلما بدأ المباحث لتأييد وجهات النظر المختلفة، كانت تبحث عما يؤيدها من الفلسفات والمباحث اللاهوتية، بحثاً مغرضاً في الغالب ومن ثم لم تعد تلك المصادر –في ظل تلك الخلافات– تصلح أساساً للتفكير الإسلامي الخالص، الذي ينبغي أن يتلقى مقوماته ومفهوماته من النص القرآني الثابت، في جو خالص من عقابيل تلك الخلافات التاريخية[1]. وكل هذا يبين لنا تصدي سيد قطب ليس فقط للعقلية –وإن استخدمه أحيانا كما سنرى–، بل للعقلانية.

ومع هذا نجد أن حنفي يتباه الأخذ عن سيد قطب، ومتابعة خطاه الإصلاحية والحركية، وأنه تلميذ سيد، ولقد يبين حنفي أنّ كتابات اليسار الإسلامي استمرار لمجلة "العروة الوثقى" ولجريدة المنار؛ نظرا لارتباطها بالمشروع الإسلامي كما حدده الأفغاني: مقاومة الاستعمار والتخلف، والدعوة إلى الحرية والعدالة الاجتماعية، وتوحيد المسلمين في الجامعة الإسلامية أو الجامعة الشرقية. فاليسار الإسلامي تكملة لأول مشروع إسلامي في تاريخ المسلمين الحديث عبر واقع المسلمين واحتياجاتهم السياسية والاجتماعية، فليس بدعة في الحركات الإسلامية[2]. فعلى هذا فاليسار الإسلامي هو مقاومة الاستعمار والتخلف، والدعوة إلى الحرية والعدالة الاجتماعية. يضاف إلى هذا أن حنفي يرى الواقع بحاجة إلى اليسار الإسلامي كواحد من الحركة إسلامية بعد فشل بقية الحركات: فلا بد من ميلاد حركة جديدة تعالج الواقع وتسعى إلى تحقيق منايا الأغلبية ضد الأقلية المستبدة[3].

---

[1] سيد قطب، **مقومات التصور الإسلامي**، ص٨٣–١٨٨؛ سيد قطب، **الإسلام مشكلات الحضارة**، ص٣٣–١٠٧.

[2] حنفي، **الدين والثورة في مصر ١٩٥٢–١٩٨١: اليمين واليسار في الفكر الديني**، ص٣.

[3] حنفي، **الدين والثورة في مصر ١٩٥٢–١٩٨١: المجلد الثامن اليسار الإسلامي والوحدة الوطنية**، ص١١؛ الميلى، **ظاهرة اليسار الإسلامي: دراسة تحليلية نقدية لأطروحة الاستنارة والتقدمية**، ص٤١ فما بعد.

وإذا ما تساءلنا عن سر هذا، كيف ترى نفسك تلميذا لقطب، وأنت تتبنى العقلانية وهو لا، بل المنهج القرآني؟ نجد أن حنفي يجيب هو نفسه عن هذا، يقول: "أنا تلميذ لسيد قطب..؛ ولكنني تلميذ سيد قطب في –العدالة الاجتماعية– لا سيد –معالم في الطريق– فمعالم في الطريق خرج تحت تأثير أجواء السجن والتعذيب والقمع،.. ولو دخلتُ السجن لكتبت "معالم في الطريق". ولو سافر سيد قطب إلى فرنسا ولم يدخل السجن لكتب "من العقيدة إلى الثورة"[1]. فهو تلميذه في المنهج؛ منهج الإصلاح، منهج جهاد الأقلية ضد الأغلبية، منهج الثورة لكن ليس عن طريق الوحي؛ بل عن طريق العقل!

ولذا يكرس حنفي كل الاحترام لسيد قطب ويرى أن سيد قطب شخصية فريدة في تاريخ مصر، وفي العلاقة بين الضباط الأحرار والإخوان المسلمين، وقد ظهر ذلك في آخر فترة في حياته، وهي الفترة السياسية"[2]. فحركية سيد قطب عند حنفي هو التغلغل السياسي بحثا لحقوق الأكثرية المظلومة، وتحت هذا عذب وسجن فكتب معالم في الطريق، فاستخدم فيه من الألفاظ والمصطلحات ما استخدم؛ حاكمية، مجتمع إسلامي وغيره. فالعقلانية مرفوضة عند سيد قطب، وحتى العقلية هو قليل التطرق إليه، ويرى تجاوز كل هذا إلى المنهج القرآني، الذي أخرج جيلا فريدا!

من الجدير بالذكر أن مكانة العقل سمة من سمات الحركة الإسلامية، وبخاصة عند الإخوان المسلمين، فقد جاء في رسائل حسن البنا أن الإسلام يجمع بين الإيمان بالغيب والانتفاع بالعقل[3]. بل من معالم المشروع الحضاري لحسم البنا كما يقول محمد عمارة الجمع بين النظر العقلي والنظر الشرعي[4]. فموقف الحركة الإسلامية هو العمل بالعقلية، وعدم رؤية العقلانية كحل إسلامي لقضايا الإسلام!

المصادر والمراجع:

١. الأفندي، **الحركات الإسلامية وأثرها في الاستقرار السياسي في العالم العربي** (أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ط٢، ٢٠٠٢).

٢. إندوت، محمد نوري الأمين، **الحركة الإسلامية في ماليزيا** (عمان: دار البيارق، ط١، ٢٠٠٠).

٣. البشرى، طارق، **ماهية المعاصرة** (القاهرة: دار الشروق، ط١، ١٩٩٦).

٤. البوطي، محمد سعيد رمضان، **الجهاد في الإسلام: كيف نفهمه وكيف نمارسه** (دمشق: دار الفكر، ط١، ١٩٩٣).

٥. توري، سيكو، **الدين والتدين في الخطاب الإسلامي المعاصر**، رسالة دكتوراه، مقدمة إلى الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا. ٢٠١٣).

٦. توري، سيكو، **رؤية في إعادة تصنيف الخطاب الإسلامي**، مجلة الجامعة المدينة العالمية بماليزيا، (مجمع) العدد ١١، ٢٠١٥.

٧. الجهني، فهد بن سعد، **الفتوى وأثرها في حماية المعتقد وتحقيق الوسطية** (القاهرة: دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢٨هـ)

---

[1] http://aljsad.com/forum9/thread25505/#ixzz2Gi49H5oj 21/ 12/ 2012

[2] حنفي، **الدين والثورة في مصر ١٩٥٢– ١٩٨١: المجلد الثامن اليسار الإسلامي والوحدة الوطنية**، ص١١.

[3] البنا، **رسائل حسن البنا**، ص٢٤٠؛ وعبد الحميد الغزالي، **حول أساسيات المشروع الإسلامي لنهضة الأمة "قراءة في فكر الإمام حسن البنا**، ص٧٦.

[4] عمارة، **معالم المشروع الحضاري لحسن البنا**، ص٢٨.

٨. حنفي، حسن، **الحركات الإسلامية وأثرها في الاستقرار السياسي في العالم العربي** (أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ط٢، ٢٠٠٢).

٩. حنفي، حسن، **الدين والثورة في مصر ١٩٥٢– ١٩٨١: اليسار الإسلامي والوحدة الوطنية** (القاهرة: مكتبة مدبولي، (د.ت).

١٠. حنفي، حسن، **الدين والثورة في مصر ١٩٥٢– ١٩٨١: اليمين واليسار في الفكر الديني** (القاهرة: مكتبة مدبولي، د.ت).

١١. رضا، محمد رشيد بن علي، **تفسير القرآن الحكيم –تفسير المنار–** (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠).

١٢. الزيد، زيد بن عبد الكريم، **الوسطية في الإسلام: تعريف وتطبيق** (الرياض: دار العاصمة، ١٤١٢).

١٣. الصلابي، علي محمد، **الوسطية في القرآن الكريم** (القاهرة: دار ابن الجوزي، ط١، ٢٠٠٧م).

١٤. عبد المجيد، أحمد، **سيد قطب بين مؤيديه ومعارضيه** (القاهرة: كتاب المختار، ٢٠٠٥).

١٥. عمارة، محمد، **معالم المشروع الحضاري في فكر الإمام الشهيد حسن البنا** (القاهرة: دار السلام، ٢٠٠٩).

١٦. عمارة، محمد، **معركة المصطلحات بين الغرب والإسلام** (القاهرة: نهضة مصر، ط٢، ٢٠٠٤).

١٧. القرضاوي، يوسف، **الإخوان المسلمون: ردود على تساؤلات** (بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠١٠).

١٨. القرضاوي، يوسف، **الإيمان والحياة** (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٩٧٩).

١٩. القرضاوي، يوسف، **الدين والسياسة** (القاهرة: دار الشروق، ط١، ٢٠٠٧)

٢٠. القرضاوي، يوسف، **أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة** (القاهرة: مكتبة وهبة، ط٤، ١٩٩٢).

٢١. القرضاوي، يوسف، **مدخل لمعرفة الإسلام** (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٠٠١).

٢٢. قطب، سيد، **الإسلام مشكلات الحضارة** (القاهرة: دار الشروق، ط٩، ١٩٨٨).

٢٣. قطب، سيد، **خصائص التصور الإسلامي** (القاهرة: دار الشروق، ط١٠، ١٩٨٨).

٢٤. قطب، سيد، **مقومات التصور الإسلامي** (القاهرة: دار الشروق، ط٣، ١٩٨٨).

٢٥. كساب، أكرم، **أثر القرضاوي على الحركات الإسلامية** (الدوحة: ورقة بحثية).

٢٦. مجموعة من العلماء، **بحوث ندوة أثر القرآن الكريم في تحقيق الوسطية ودفع الغلو**، (القاهرة: دار ابن الجوزي، ط١، ٢٠٠٧م)

٢٧. محمود، مصطفى، **الإسلام السياسي والمعركة القادمة** (القاهرة: دار أخبار اليوم).

٢٨. منيب، عبد المنعم، **خريطة الحركة الإسلامية المعاصرة في مصر** (القاهرة: الشبكة العربية لمعلومات حقوق الإنسان، ٢٠٠٩).

٢٩. الميلى، محسن، **ظاهرة اليسار الإسلامي: دراسة تحليلية نقدية لأطروحة الاستنارة والتقدمية** (الرياض: دار النشر الدولي، ط١، ١٩٩٣).

٣٠. ياقوت، محمد مسعد، **مظاهر الوسطية في التشريع الإسلامي**، بحث غير منشور.

1. Francois Burgat, & William Dowell, *The Islamic Movement in North Africa* (Texas: center for middle eastern studies at the university of Texas, 1993).
2. John E. Campo, *Encyclopedia of Islam* (New York: An Imprint InfoBase Publishing 2009).
3. John L. Esposito, *Political Islam: Revolution, Radicalism, or Reform?* (London: Lynner Rienner Puvlishers, 1997).
4. Richard C. Martin, *Encyclopedia of Islam and The Muslim World* (New York: Macmillan Reference, 2004).

5. Walid Mahamoud Abdelnasser, *The Islamic Movement in Egypt* (New York: Kegan Paul International, 1994)

1. إحرشان، عمر، **الحركة الإسلامية: قراءة في المفهوم والوظيفة والسياق**، مقالة إلكترونية على الشبكة العنكبوتية على الرابط الآتي: http://www.aljamaa.net/ar/document/23934.shtml تاريخ ٢١- ٠٩- ٢٠١١ .
2. الخراشي، سليمان بن صالح، مقالة بعنوان **ثقافة التلبيس: مصطلح الإسلام السياسي**، على موقع صيد الفوائد، على الرابط الآتي:
   2.1.1. http://www.saaid.net/Warathah/Alkharashy/m/55.htm. تاريخ ٢١- ٠٩- ٢٠١١ .

الوسطية في الإسلام
العلامة القرضاوي نموذجا

وليد أبو النجا[1]

ملخص البحث:

تتضمن هذه الورقة: تعريف مفهوم الوسطية لغة واصطلاحا، بحيث يصبح مفهوما محددا متفقا عليه، لا تدعيه الأطراف المتقابلة المختلفة. وتأصيل هذا المفهوم من القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة وأقوال السلف الصالح، واعتبار الوسطية خصيصة أساسية من الخصائص التي تميز بها دين الإسلام عن غيره من الأديان السماوية، والفلسفات الأرضية، لا سيما مع عجز الإنسان عن إنشاء نظام وسطي متوازن. كما تحاول الإجابة عن السؤال: لماذا الدعوة إلى الوسطية؟ ما الفوائد التي نجنيها حين نتبناها، وما المثالب التي قد نقع فيها إذا لم نعتمد الوسطية منهاجا لنا؟ وتستعرض الورقة أهم مظاهر الوسطية في الإسلام، عقيدة، وعبادة، وأخلاقا، وقانونا. وفي الأخير تركز الورقة على الوسطية كمنهاج للدعوة الإسلامية في العصر الحديث، ما هو موقف الداعية من الأشخاص والهيئات والقضايا وجماهير الناس؟ وكيف يؤدي دعوته أداء وسطيا بعيدا عن الإطناب الممل والإيجاز المخل؟ وما هو السبيل لعلاج البعد عن الوسطية في مجتمعاتنا المسلمة؟ مركزة في كل ذلك، على كتابات العلامة يوسف القرضاوي، كنموذج معاصر من علماء الإسلام، اهتم بقضية الوسطية، فعالجها في مواضع من كتبه، وألف فيها، ومارسها ممارسة عملية في دعوته وحركته.

المقدمة:

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه.

وبعد! فإن مفهوم الوسطية أحد المفاهيم الحاضرة في مجتمعاتنا الثقافية في العقود الأخيرة، ألفت فيها كتب، وعقدت لها مؤتمرات، وقد اخترت إلقاء نظرات على هذا المفهوم من خلال كتابات العلامة القرضاوي، باعتباره أحد أعلام الوسطية في العصر الحديث.

فما الوسطية؟ وما تأصيلها من القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة؟ ولماذا تبنى الإسلام هذا المبدأ؟

وما مظاهر الوسطية في الإسلام، عقيدة وعبادة وأخلاقا وشريعة؟ وكيف يمكن إعمال مبدأ الوسطية في الموقف من الأشخاص والهيئات والقضايا المختلفة؟ وكيف الداعية المسلم دينه عرضا وسطيا؟

وأخيرا ما هو السبيل لعلاج البعد عن الوسطية في مجتمعاتنا المسلمة؟

تعريف الوسطية:

---

[1] مركز يوسف القرضاوي، بدولة قطر.

الوسطية لغة: مصدر صناعي بإضافة ياء مشددة وتاء تأنيث، يقال: وَسَطَ الشيء صار في وسطه. ووَسَطَ فيهم ووساطة أي توسط بينهم بالحق والعدل. وَسُط الرجل أي صار شريفا وحسيبا. توسط فلان أي أخذ الوسط بين الجيد والرديء. والأوسط، المعتدل من كل شيء. ووساطة القلادة، الجوهر الذي في وسطها، وهو أجودها. ووساطة: توسُّطٌ بين أمرين أو شخصين. والوسط ما بين طرفي الشيء وهو منه، أو المعتدل من كل شيء. المتوسط المعتدل بين شيئين[1].

فمعاني اللغة لكلمة الوسطية تدور حول الاعتدال والتوازن بين طرفي نقيض، والوسط ممدوح دائما، إذا كان جمادا فهو أفضله كجوهر العقد، وإن كان رجلا فهو الشريف الحسيب.

واصطلاحا: "التعادل بين طرفين متقابلين بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير، ولا يأخذ أكثر من حقه. والأطراف المتقابلة، كالروحية والمادية، والفردية والجماعية، والواقعية والمثالية، والثبات والتغير، وما شابهها. ومعنى التوازن بينها أن يفسح لكل واحد منها مجاله، ويعطى حقه ﴿بِالْقِسْطِ﴾، ﴿بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾، بلا إفراط أو تفريط، أو غلو أو تقصير، ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ [الرحمن:٨، ٩]"[2].

ولو نظرنا لوجدنا دين الإسلام ودعوته يحقق التوازن بين هذه المتقابلات جميعا، كل في موضعه لا يعدوه، ويجمع بينها في تناسق عجيب. أما الأديان والفلسفات الأخرى فهي تنحاز هنا أو هناك، فمنها ما يغلِّب الروحية على المادية، أو الفردية على الجماعية، أو الواقعية على المثالية، أو الثبات على التغير، والعكس بالعكس.

إنها لإحدى الخصائص المتفردة لدين الإسلام، لا يشاركه فيها غيره، وبقدر جهدنا في فهم هذه الخصيصة، والدعوة إلى الإسلام على أساسها، بقدر نجاحنا في التطبيق الأمثل لديننا في واقع الحياة. أما ميل بعض المسلمين إلى جانب منها، كميل البعض للزهد، واعتزال الحياة، وترك العمل أو الإقلال منه، فهو في الحقيقة لا يعبر عن حقيقة الإسلام، بقدر ما يعبر عن طبيعة شخصية، أو مزاج خاص.

تأصيل مفهوم الوسطية:

الإسلام دين الوسطية، أمته هي الأمة الوسط: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣]، فوسطية الأمة نتيجة لوسطية الدين.

إن المسلم يسأل ربه في اليوم سبع عشرة مرة –على الأقل– الهداية إلى طريق الحق، الذي ضل عنه الناس ذات اليمين وذات الشمال، ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:٦، ٧].

"هو الطريقُ السويُ الواقعُ في وسط الطرُق الجائرةِ عن القصد إلى الجوانب، فإنا إذا فرضنا خطوطًا كثيرةً واصلةً بين نُقطتين متقابلتين، فالخطُ المستقيم إنما هو الخطُ الواقعُ في وسط تلك الخطوطِ المنحنية، ومن ضرورة كونِه وسطًا بين الطرُق

[1] مجمع اللغة العربية، **المعجم الوجيز**، ص٦٦٨، بتصرف يسير.

[2] القرضاوي، **الخصائص العامة للإسلام**، ص١١٥.

الجائرةِ كونُ الأمةِ المهْديّة إليه أمةً وسطاً بين الأمم السالكة إلى تلك الطرق الزائغة، أي متصفةً بالخصال الحميدةِ خيارًا وعدُولاً مُزَكَّيْنَ بالعلم والعمل"[1].

وقد صور الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، هذا المعنى الفكري حسيا لأصحابه عن طريق الرسم، عن عبد الله بن مسعود، قال: "خطَّ لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطًّا، ثم قال: «هذا سبيل الله». ثم خطَّ خطوطا عن يمينه وعن شماله، ثم قال: «هذه سبل متفرقة، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه». ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣][2].

يقول د. القرضاوي: "وقد مثل النبي للمغضوب عليهم باليهود، والضالين بالنصارى، ولا شك أن كلا من اليهود والنصارى يمثلون الإفراط والتفريط في كثير من القضايا، فاليهود قتلوا الأنبياء، والنصارى ألهوهم، اليهود أسرفوا في التحريم، والنصارى أسرفوا في الإباحة، اليهود أسرفوا في اعتبار الرسوم والشعائر والتعبدات، والنصارى تطرفوا في إلغائها"[3].

"فليس ثمة إلا الدين القادم من عند الله، يقدر على تجاوز هذا التأرجح المحزن، ويقود الإنسان فردا وجماعة إلى شاطئ الأمان، ويأوي به إلى العالم المتوازن، الذي تلتقي فيه وتتصالح وتتآلف سائر الأطراف"[4].

الرسول يرد أصحابه إلى التوسط:

إن أقصى ما يرجوه داعية بدعوة جديدة، أن يقبل الناس عليها، ويفنوا أوقاتهم في خدمتها، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي جاء بالدين الوسط للأمة الوسط حين وجد بعض أصحابه قد حلف على الصيام أو القيام أبدا أو اعتزال النساء قال: «أما إني أخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[5].

إن العبادة هي حق الله على الإنسان، وهي أعلى الحقوق، لكنَّ هناك حقوقا أخرى، حق الجسد والأسرة والمجتمع وعمارة الكون، وهناك المفهوم الشامل للعبادة الذي لا يقصرها على العبادة المحضة، وإن كانت العبادة المحضة في القلب منه.

الإنسان مخلوق لعبادة الله، ولعمارة الأرض، وتفرُّغُ الإنسان لإحدى المهمتين على حساب الأخرى، حتى ولو كانت العبادة، جنوحٌ ينهى عنه الإسلام.

لماذا تبنى الإسلام مبدأ الوسطية؟

وقد تبنى الإسلام مبدأ الوسطية لسببين:

---

[1] أبو السعود، **التفسير**، ج١، ص١٤٣.

[2] رواه أحمد في **مسنده**، ج١، ص٤٣٥، رقم٤١٤٢؛ وابن حبان في **صحيحه**، ج١، ص١٨٠، رقم٦؛ والحاكم في **المستدرك**، ج٢، ص٢٦١، رقم٢٩٣٨؛ والنسائي في **السنن الكبرى**، ج٦، ص٣٤٣، رقم١١١٧٤.

[3] القرضاوي، **الخصائص العامة في الإسلام**، ص١٢١.

[4] خليل، **رؤية في قضايا معاصرة**، ص٥٩.

[5] رواه البخاري في **صحيحه**، ج٥، ص١٩٤٩، رقم٤٧٧٦؛ ومسلم في **صحيحه**، ج٢، ص١٠٢٠، رقم١٤٠١.

١. الوسطية أليق بالرسالة الخاتمة:

الإسلام هو الكلمة الأخيرة من السماء إلى الأرض، "قد يجوز في رسالة مرحلية محددة الزمن والإطار أن تعالج بعض التطرف في قضية ما بتطرف مضاد، فإذا كان هناك مبالغة في الدعوة إلى الواقعية، قومت بمبالغة في الدعوة على المثالية، وإذا كان هناك غلو في النزعة المادية، رد عليها بغلو معاكس في النزعة الروحية، كما رأينا ذلك في الديانة المسيحية وموقفها من النزعة المادية الواقعية عند اليهود والرومان، فإذا أدت الدعوة المرحلية دورها الموقوت، وحدَّت من الغلو ولو بغلو مثله، كان لا بد من العودة إلى الحد الوسط، وإلى الصراط السوي، فتعتدل كفتا الميزان، وهذا ما جاءات به رسالة الإسلام بوصفها رسالة عالمية خالدة"[١].

ومن العجيب أن أتباع ديانة كالمسيحية لم يكتفوا بما فيها من جنوح نحو الروحية والمثالية، لعلاج ما باليهودية من جنوح نحو المادية والواقعية، فابتدعوا جنوحا زائدا عند أنفسهم، ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد:٢٧].

ولعل تميز الإسلام بخصيصة الوسطية المطلقة في عقائده وتشريعاته وأخلاقه، هو دليل في حد ذاته على خلود رسالة الإسلام، وختمها للرسالات.

٢. الوسطية تتيح الاستفادة من كلا المتقابلين:

إن انحياز الإنسان لأحد الطرفين ورفض الآخر، يجعله منغلقا على ما جنح إليه، ولا يتيح له الاطلاع، فضلا على الاستفادة من الطرف الآخر، إذ كيف يستفيد من شيء يجهله؟! أما الوسطية فهي تتيح لصاحبها التعرف على كافة الآراء والمواقف، ومن ثَمَّ الاستفادة بأفضل ما في كل منها.

إن الدنيا والآخرة متقابلتان، والآخرة كما قال الله: ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى:١٧]. ولكن ليس معنى أنها أبقى، أن نهمل الدنيا، أو ننزوي عنها، ولكن علينا أن نوازن بينهما، ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص:٧٧].

مظاهر الوسطية في الإسلام:

تتجلى مظاهر الوسطية الإسلامية في كل تعاليم الإسلام، أيا كانت هذه التعاليم: العقيدة، الشريعة، الأخلاق.

١. وسطية الإسلام في العقيدة:

- "وسط في الاعتقاد بين الخرافيين الذين يسرفون في الإعتقاد، فيصدقون كل شيء، ويؤمنون بغير برهان، وبين الماديين الذين ينكرون كل ما وراء الحس، ولا يستمعون لصوت الفطرة، ولا نداء العقل، ولا صراخ المعجزة"[٢].

[١] القرضاوي، **الخصائص العامة للإسلام**، ص١١٩.

[٢] المصدر السابق، ص١٢٣.

الإسلام يدعو إلى الإيمان بما قامت عليه الأدلة القطعية، ويرفض الظنون والتوهمات، فالعقيدة تبنى على اليقين وليس الظن.

- "وسط بين الملاحدة الذين لا يؤمنون بإله قط، خانقين صوت الفطرة في صدورهم، متحدين منطق العقل في رؤوسهم، وبين الذين يعددون الآلهة حتى عبد الأغنام والأبقار، وألهوا الأوثان والأحجار"[1].

فالإسلام يدعو إلى الإيمان بالإله الحق، الذي خلق الكون، وأوجد الإنسان، الإله الذي لم يلد ولم يولد، لا ند له ولا شريك، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء:٢٢].

- "وسط بين الذين يعتبرون الكون هو الوجود الحق وحده، وما عداه –مما لا تراه العين ولا تلمسه اليد– خرافة ووهم، وبين الذين يعتبرون الكون وهما لا حقيقة له، وسرابا بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا"[2].

فالإسلام لا ينكر وجود الكون والكائنات، ولكنه يأبى أن ينتهي إدراك الإنسان إليها، يرفض أن ينتهي إدراك الإنسان عندها، قاصرا أن يدرك مكون الكون وموجده.

- "وسط بين الذين يؤلهون الإنسان، ويضفون عليه خصائص الربوبية، ويعتبرونه إله نفسه، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وبين الذين جعلوه أسير جبرية اقتصادية أو اجتماعية أو دينية، فهو كريشة في مهب الريح، أو دمية يحرك خطوطها المجتمع أو الاقتصاد أو القدر"[3].

فالإنسان ليس إلها، لم يخلق نفسه، ولا يستطيع أن يخلق ذبابة، ولكنه مخلوق مكلف مسؤول مكرم حر، لكن حريته ليست مطلقة –فهو لم يختر وجوده أو أبويه أو صحته إلى آخره–، وهو محاسب عما يدخل تحت اختياره من أعمال، ليس مجبرا، وليس مطلق الإرادة.

- "وسط بين الذين يقدسون الأنبياء، حتى رفعوهم إلى مرتبة الألوهية أو البنوة للإله، وبين الذين كذبوهم واتهموهم وصبوا عليهم كؤوس العذاب"[4].

فالأنبياء في نظر الإسلام بشر، ليسوا آلهة، ولا أنصاف آلهة، ولا ملائكة أولي أجنحة، كما علمنا الرسول صلى الله عليه وسلم: «قل إنما بشر مثلكم يوحى إلي»، لا يزيد عن البشر إلا بكونه يوحى إليه، وهو الأنبياء قبله، رجال يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ولهم أزواج وذرية.

---

[1] المصدر السابق.

[2] المصدر السابق.

[3] المصدر السابق.

[4] المصدر السابق، ص١٢٤.

٢. وسطية الإسلام في العبادات والشعائر:

"الإسلام وسط في عباداته وشعائره بين بين الأديان والنحل التي ألغت الجانب 'الرباني'، جانب العبادة والتنسك والتأله من فلسفتها وواجباتها، كالبوذية التي اقتصرت على الجانب الأخلاقي الإنساني وحده، وبين الأديان والنحل التي طلبت من أتباعها التفرغ للعبادة، والقطاع عن الحياة والإنتاج"[١].

"فالإسلام كلف المسلم أداء عبادات محدودة في اليوم كالصلاة، أو في السنة كالصوم، أو في العمر كالحج، ليظل دائما موصولا بالله غير مقطوع عن رضاه، ثم يطلقه بعد ذلك ساعيا منتجا، يمشي في مناكب الأرض، ويأكل من رزق الله"[٢].

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة:٩-١٠].

تلخص هذه الآيات حال المسلم، إنه إنسان يسعى في الأرض، ويضرب في مناكبها، ويأكل من رزق الله، ويبتغي فضله، فإذا نودي للصلاة ترك ما بيده، ولبى نداء الله تعالى، وبعد أن ينتهي من صلاته، هو مأمور بالانتشار في الأرض، وطلب الرزق، وهو أثناء هذا الطلب لا ينسى الله تعالى، بل يذكره كثيرا كما أمر، فيوم الجمعة ليس كيوم السبت عند اليهود.

إن الله تعالى حين أراد أن يصف الصفوة من عباده، لم يصفهم بأنهم عالة متبطلون متواكلون، وإنما وصفهم بأنهم رجال مال وأعمال، لكن لا تشغلهم هذه الأموال والأعمال عن ذكر الله تعالى، ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور:٣٦-٣٧].

٣. وسطية الإسلام في النظرة الأخلاق:

- "الإسلام وسط في الأخلاق بين غلاة المثاليين الذين تخيلوا الإنسان ملاكا أو شبه ملاك، فوضعوا له من القيم والآداب ما لا يمكن له، وبين غلاة الواقعيين الذين حسبوه حيوانا أو كالحيوان، فأرادوا له من السلوك ما لا يليق به، فأولئك أحسنوا الظن بالفطرة الإنسانية، فاعتبروها خيرا محضا، وهؤلاء أساؤوا بها الظن، فعدوها شرا خالصا، وكانت نظرة الإسلام وسطا بين أولئك وهؤلاء"[٣].

الإنسان كما أخبرنا الله، قبضة من الطين ونفخة من الروح، هذه تجذبه إلى الأرض، وتلك تأخذ بيده إلى السماء، وهو مهيأ لاختيار إحدى السبيلين سبيل الخير والهدى، أو سبيل الشر والردى، أن يحكم عقله، أو يسير وراء شهوته، ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ

[١] المصدر السابق.

[٢] المصدر السابق، ص١٢٣.

[٣] المصدر السابق، ص١٢٦.

السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان:٣]، وينبغي أن ندرك ونحن ندعو إلى المثال، أن هناك من يتقاصر دونه، ويرتكب الأخطاء والخطايا، وأن نضع الصيغ التي ننتشل بها هؤلاء ونأخذ بأيديهم.

- "وهو كذلك وسط في نظرته إلى حقيقة الإنسان بين النحل والمذاهب التي تقوم على اعتباره روحا علوية سجن في سجن جسد أرضي، ولا يصفو هذا الروح ولا يسمو إلا بتعذيب الجسد وحرمانه، كالبرهمية وغيرها، وبين المذاهب المادية التي تعتبر الإنسان جسدا محضا، وكيانا ماديا صرفا لا يسكنه روح علوي، ولا يختص بأي نعمة سماوية"[١].

إن الروح هي سر تكريم الإنسان، وليس معنى هذا أن نهمل الجسد ومطالبه لحساب الروح، فلكل منهما مطالبه، وحرمانه من هذه المطالب يؤدي إلى هلاكه وانحرافه جسدا وروحا.

- "وسط في النظرة إلى الحياة بين الذين أنكروا الآخرة، واعتبروا هذه الحياة الدنيا هي كل شيء، هي البداية والنهاية: ﴿وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [الأنعام:٢٩]، وبهذا غرقوا في الشهوات، وعبَّدوا أنفسهم للماديات، ولم يعرفوا لهم هدفا يركضون وراءه غير المنافع الفردية الدنيوية العاجلة –وهذا شأن الماديين في كل زمان ومكان– وبين الذين رفضوا هذا الحياة، وألغوا اعتبارها من وجودهم، واعتبروها شرًّا يجب مقاومته، والفرار منه، فحرَّموا على أنفسهم طيباتها وزينتها، وفرضوا عليها العزلة عن أهلها، والانقطاع عن عمارتها والإنتاج لها"[٢].

إن الإسلام ينظر إلى الحياتين بتوازن، ويأمر المسلم أن يعمل لكيلهما، وأن يطلب حسنتيهما، ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة:٢٠١]، على أن يغلب الآخرة على الأولى، فهي خير وأبقى، ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤].

٤. وسطية الإسلام في التشريع:

والإسلام كما هو وسط في عقيدته وعباداته وأخلاقه، وسط في تشريعاته ونظامه القانوني، "وسط في التحليل والتحريم بين اليهودية التي أسرفت في التحريم، وكثرت فيها المُحرَّمات، مما حرَّمه إسرائيل على نفسه، ومما حرَّمه الله على اليهود، جزاء بغيهم وظلمهم، كما قال الله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً * وَأَخْذِهِمُ الرِّبا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [النساء:١٦٠-١٦١]، وبين المسيحية التي أسرفت في الإباحة، حتى أحلت الأشياء المنصوص على تحريمها في التوراة، مع أن الإنجيل يعلن أن المسيح لم يجئ لينقض ناموس التوراة، بل ليكمله[٣]. ومع هذا أعلن رجال المسيحية أن كل شيء طاهر للطاهرين[٤]"[٥].

---

[١] المصدر السابق

[٢] المصدر السابق، ص١٢٧.

[٣] **إنجيل متى**، ١٧/٥.

[٤] **رسالة تيطس**، ١٥/١.

[٥] القرضاوي، **الخصائص العامة للإسلام**، ص١٣٣.

وإذا أخذنا تشريعا مثل تشريع الطلاق كمثال، نجد أن الإسلام لم يحرمه كما حرمته المسيحية، وإنما أباحه وفق أصول وشروط وضوابط، وسبقه بخطوات إصلاحية من وعظ وهجر في المضاجع وضرب غير مبرح، ولم يجعل الطلاق مرة واحدة وإنما ثلاثا، واحدة، اثنتان رجعيتان، والثالثة بائنة، إلى غير ذلك من تفصيلات يمكن مراجعتها في بابه.

إن الله لم يحل إلا لمنفعة، ولم يحرم إلا لمضرة، وكان وسطا في التحليل والتحريم، ويمكن ملاحظة هذا في كل تشريع من تشريعات الإسلام، وصدق الله إذ يقول: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

٥. وسطيات لا بد منها للمسلم:

وبجانب مظاهر وسطية الإسلام، هناك وسطيات ينبغي على المسلم أن يتبناها، وهو يعيش في هذه الحياة، وبغيرها يتطرف المسلم يمينا وشمالا، ويخبط خبط عشواء، هذه الوسطيات هي:

- **الوسطية في الموقف من الأشخاص:**

المسلم مطالب بأن يكون وسطا في موقفه من الأشخاص، لا أن يرفع الناس إلى عنان السماء إذا أحبهم، وينسب لهم كل فضيلة، فإذا أبغضهم خسف بهم الأرض، ونسب لهم كل رذيلة، وجردهم من كل فضيلة، كما قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة لكن عين السخط تبدي المساويا

إن الله تعالى يعاملنا بالحسنات والسيئات، فمن رجحت حسناته على سيئاته فهو مقبول، ومن زادت سيئاته على حسناته فهو مرذول، وعلينا أن نعامل الناس بهذا الميزان، فالناس مهما بلغت فضائلهم لن يصيروا ملائكة، وما هم مطالبون بذلك.

وإذا أخذنا موقف الشيخ القرضاوي كنموذج في هذا المقام، نجد كتابه "الإمام الغزالي بين مادحيه وقادحيه"، وهو عنوان يوحي بالتوازن والاعتدال والإنصاف، فهو إمام، وإن كان له قادحون.

يقول: "إنه الغزالي، الرجل الذي ملأ الدنيا وشغل الناس في حياته وبعد وفاته، واختلف فيه السابقون كما اختلف فيه اللاحقون والمعاصرون، فمن مبالغ في الإعجاب به والثناء عليه، ومن مسرف في الاتهام له والتحامل عليه، ومن معتدل بين هؤلاء يعطي الرجل حقه، ويمدحه بما هو أهله، وينقده فيما قصر فيما يرى أنه قصر أو أخطأ فيه، والعصمة لمن عصمه الله".

ويستمر الشيخ في استعراض المواقف من الغزالي بين المبالغة في تعظيم كتبه كأنها قرآن، والمبالغة في محاربتها حتى حرقها، ثم التعريج على معاركه العلمية التي ألبت عليه الخصوم، ثم يقول: "كما كانت عنده -باعتباره بشرا غير معصوم- نقاط ضعف أخذها عليه منتقدوه، لعل أبرزها: قلة محصوله العلمي في علم الحديث، وهو ما اعترف به، وتسليمه الكامل بمناهج الصوفية وأفكارهم دون أن يحاكمها إلى قانون الفقه، الذي برع فيه وفي أصوله".

ثم يقول: "تتلمذت أول ما تتلمذت على الإمام الغزالي، واستفدت من علمه ونهلت من معينه، وقد تعلمت منه أيضا: أن الرجل يعرفون بالحق، وليس يعرف الحق بالرجال".

وينتهي الشيخ إلى هذه النتيجة: "الإنصاف يقتضينا أن نقوم الرجل بمجموع عطائه، ومجموع حسناته ومزاياه، وما أكثرها. ولا يليق بنا أن نهدر فضائله الجمة، وعطاءه الضخم لأمورٍ كثيرا ما يختلف الناس في تقديرها وتقويمها، حتى ما اعتبر خطأ صريحا منها، لا يجعلنا ننسى فضل أبي حامد، وقدره.

وعيبنا في كثير من القضايا –فكرية أو علمية– الانقسام بين طرفي الإفراط والتفريط، والمنهج السليم هو المنهج الوسط، منهج العدل والاعتدال في النظر إلى الأشياء، والمواقف، والأشخاص، والأعمال، وهو ما حاولت أن أسلكه في دراستي هذه"[1]. وهذا هو المنهج الصحيح، الاعتراف بالفضل وتقريره، والإقرار بالخطأ والاعتذار عنه ما أمكن، والموازنة بينهما، ثم الحكم للشخص أو عليه.

الوسطية في الموقف من الهيئات:

وما قيل في الموقف من الأشخاص، يقال في الموقف من الهيئات والمؤسسات، بيد أنه ينبغي على المسلم ألا يكون في مواقفه متبعا لما اشتهر من غير تمحيص، أو أسيرا لمواقف سياسية أو قبلية، أو واقعا تحت تأثير دعايات الخصوم.

"ومما يؤسف له أن كثيراً مما يقال أو يكتب، أو مما قيل أو كتب، بعد أزمة الشباب المسلم واصطدام السلطة به، وظهور ما سمي بالتطرف الديني لم يخل من مبالغة وتطرف في تناول الموضوع، تأثراً بالجو المعبأ المشحون ضد الشباب، وجرياً على ما عليه أغلب النّاس"[2].

- **الوسطية في الموقف من القضايا:**

أما القضايا التي ينبغي اتخاذ الموقف الوسط منها، فهي أمر لا ينتهي، لا تزال الأيام تحمل إلينا كل فترة منها جديدا، ويستعرض الدكتور القرضاوي أمهات هذه القضايا فيقول: "تميز وسطية هذا الفكر في موقفه المعتدل من قضايا كبيرة مهمة:

فهو وسط بين دعاة المذهبية الضيقة، ودعاة اللامذهبية المنفرطة.

وسط بين أتباع التصوف وإن انحرف وابتدع، وأعداء التصوف وإن التزم واتبع.

وسط بين دعاة الانفتاح على العالم بلا ضوابط، ودعاة الانغلاق على النفس بلا مبرر.

وسط بين المحكمين للعقل إن خالف النص القاطع، والمغيبين للعقل، ولو في فهم النص.

وسط بين المقدسين للتراث، وإن بدا فيه قصور البشر، والملغين للتراث، وإن تجلت فيه روائع الهداية.

وسط بين المستغرقين في السياسة على حساب التربية، والمهملين للسياسة كلية بدعوى التربية.

وسط بين المستعجلين لقطف الثمرة قبل أوانها، والغافلين عنها حتى تسقط في أيدي غيرهم بعد نضجها.

وسط بين المستغرقين في الحاضر غائبين عن المستقبل، والمبالغين في التنبؤ بالمستقبل كأنه كتاب يقرؤونه.

وسط بين المقدسين للأشكال التنظيمية كأنها أوثان تعبد، والمتحللين من أي عمل منظم كأنهم حبات عقد منفرط.

---

[1] القرضاوي، **الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه**،ص٦-١٧.

[2] القرضاوي، **الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف**، ص١٣٩.

وسط بين الغلاة في طاعة الفرد للشيخ والقائد كأنه الميت بين يدي الغاسل، والمسرفين في تحرره كأنه ليس عضوا في جماعة.

وسط بين الدعاة إلى العالمية دون رعاية للظروف والملابسات المحلية، والدعاة إلى الإقليمية الضيقة دون أدنى ارتباط بالحركة العالمية.

وسط بين المسرفين في التفاؤل متجاهلين العوائق والمخاطر، والمسرفين في التشاؤم فلا يرون إلا الظلام، ولا يرقبون للظلام فجرا.

وسط بين المغالين في التحريم؛ لأنه لا يوجد في الدنيا شيء حلال، والمبالغين في التحليل كأنه لا يوجد في الدين شيء حرام"[1].

- **الوسطية في الموقف من جماهير المسلمين.**

من الناس من تسوء نظرته لعموم المسلمين –لا سيما بعض المتدينين في عصرنا الحاضر– فهو يراهم عصاة مذنبين، لا يلتزمون الإسلام، ولا يهتدون بهديه، أو يأتمرون بأمره، أو ينتهون عن نواهيه، ومن ثم يطلق الأحكام جزافا، بين التجهيل والتبديع والتفسيق، وربما سقط في هاوية التكفير، كما سقط فيها كثيرون.

ومن نظر بعين الإنصاف وجد جماهير الأمة تحب دينها وتقبل عليه، وتخاف ربها، حتى من ألم منهم بمعصية، فهو مقر بذنبه، معترف بخطئه، سائل ربه المغفرة والتوبة، وهو يحاول ذلك ما وجد إلى الخير والتوبة معينا.

فلا يجب أن يسيء المسلم فضلا عن الداعية والعالم الظن بإخوانه المسلمين، وعليه أن ينظر إلى الجوانب الإيجابية ويحاول تكثيرها وتنميتها والزيادة عليها.

يقول الشيخ القرضاوي: "وأنصح أبنائي الشباب أن يخلعوا منظارهم الأسود، عندما ينظرون إلى الناس، وأن يفترضوا الخير في عباد الله، ويقدموا حسن الظن، وأن يعلموا أن الأصل هو البراءة، وحمل حال أهل الإسلام على الخير.

ومما يساعد على هذا السلوك المتفائل نظرات ثلاث:

الأولى: أن يعاملوا الناس باعتبارهم بشراً على الأرض، وليسوا ملائكة ...

الثانية: أننا أمرنا أن نحكم بالظاهر، وأن ندع إلى الله أمر السرائر ...

الثالثة: أن كل من آمن بالله ورسوله، لا يخلو من خير في أعماقه، وإن انغمس ظاهره في المعاصي، وتورط في الكبائر. والمعاصي . وإن كبرت . تخدش الإيمان وتنقص منه، ولكنها لا تقتلعه أبداً من جذوره، ما لم يفعلها من يفعلها متحدياً لسلطان الله تعالى، أو مستحلاً لحرماته، ومستخفاً بأمره ونهيه"[2].

---

[1] القرضاوي، **أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة المقبلة**، ص١٠٨.

[2] القرضاوي، **الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف**، ص٢٢٤ – ٢٢٦.

ويؤكد على ذلك د. محمد أبو الفتح البيانوني فيقول: "على الداعية أن يحسن الظن بالمسلمين جميعا، وأن يجري أحكامه فيهم على الظاهر، ويكل أمر السرائر إلى الله تعالى، ولا يستلزم إحسان الظن بهم الغفلة عن دوافعهم، والسكوت عن أخطائهم، ولكنه يستلزم حمل أقوالهم وأفعالهم على الأصلح"[1].

- **الوسطية في أداء الدعوة.**

ومن الوسطيات التي يجب أن يراعيها الداعية والعالم المسلم، والتي اهتم بها الشيخ يوسف القرضاوي "الوسطية في أداء الدعوة" بحيث يكون أداؤها بين الإيجاز المخل والإطناب الممل، إذا خطب أو درس أو حاضر أو كتب، مع مراعاة طبيعة العصر الموسوم بعصر السرعة، والذي لا يتحمل الإغراق في المقدمات، والإطالة في ذكر التعريفات اللغوية، والتوسع في التخريجات والحواشي، ورحم الله امرءً عرف زمانه.

"من المبادئ المرعية في التعليم والمقتبسة من هدي النبوة الإقتصاد في التعليم، والإعتدال في قدر ما يلقى من الموعظة والمعلومات، في زمانه، وفي نوعه، حتى لا يؤدي إلى الإكثار والإملال"[2]. فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخول أصحابه بالموعظة مخافة السآمة عليهم، وهو المؤيد بالوحي، الذي أوتي جوامع الكلم.

و"من مبادئ التعليم المعروفة، التي أثبتتها الدراسات التجريبية الحديثة: توزيع التعليم، أي التعلم على فترات متباعدة، تتخللها فترات راحة، فإن ذلك يؤدي إلى سرعة التعلم، وحسن التذكر، ويقضي على السأم والملل والتعب".

لذا كان نزول القرآن منجما مفرقا على مدى ثلاث وعشرين سنة، وكان التدرج في التعليم من النبي لأصحابه والمسلمين حديثا، فيوجه لتعليمهم فرائض الإسلام واحدا واحدا كما في حديث معاذ، ويعلمهم الفرائض، ولا يشغلهم بالنوافل حتى يحكموها، كما في حديث الأعرابي الذي حلف ألا يزيد عن الفرائض شيئا.

و"على المعلم كما على الداعية والمحدث: أن يراعي الطاقة النفسية للناس؛ فإن من يستمع أو يتعلم وهو كاره لا يستفيد مما يتلقاه، فهو يستمع بأذنه، ولا يعي بقلبه، وعلى هذا يجب أن توضع مناهج التعليم، وتؤلف كتبه، وتحدد مقرراته، بحيث يقبل المتعلمون على العلم وهم نشطون راغبون"[3].

كيف نعالج البعد عن الوسطية؟

ولا يخفى على متابع ما تعج به مجتمعاتنا المسلمة من إفراط هنا وتفريط هناك، على أن بعض المسلمين حين يريدون أن يعالجوا ظاهرة من ظواهر التطرف، يتطرفون في الناحية المقابلة، ظنا منهم أن هذه وسيلة للعلاج، وهم بذلك لا يزيدون إلا المرض علة، والطين بلة.

---

[1] البيانوني، **المدخل إلى علم الدعوة**، ص١٦٣.

[2] القرضاوي، **الرسول والعلم**، ص١٤٠.

[3] القرضاوي، **الرسول والعلم**، ص١٤١-١٤٢.

إن علاج التضييق على المرأة باسم الدين ليس بإلغاء الحجاب، وعلاج المذهبية ليس بإلغاء المذاهب، وعلاج تكفير المسلم، ليس بإلغاء التكفير نفسه، بحيث نتأول في كفر أهل الأديان الأخرى، زاعمين أن الكل مؤمنون، وحسابهم على الله في الآخرة!! وإذا كان الأمر كذلك، ففيم الإيمان بالإسلام إذن؟!

لذلك يوصي الشيخ القرضاوي من يتصدون لعلاج التطرف قائلا: "أرى أن من واجب كل من تصدى لعلاج هذا الأمر أن يتصف بالاعتدال والاتزان في حكمه، وألاّ يكون هو متطرفاً في حديثه عن التطرف، وطريقة علاجه.

وأول سمات الاعتدال هنا: ألاّ نبالغ في تصور هذا التطرف المزعوم وتصويره، وفي الخوف والتخويف منه، ونجعل –على طريقتنا– من الحبة قبة، ومن القط جملاً! والمبالغة هنا ضارة كل الضرر؛ لأنها تشوه الحقائق، وتقلب الموازين، وتفسد الرؤية الصحيحة للأشياء، وبالتالي يجيء الحكم لها أو عليها جائرًا أو ناقصًا"[1].

المصادر المراجع:

١. أبو السعود، **التفسير**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

٢. البيانوني، د. محمد أبو الفتح، **المدخل إلى علم الدعوة**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٣، ١٩٩٥م).

٣. خليل، د. عماد الدين، **رؤية إسلامية في قضايا معاصرة**، (سلسلة كتاب الأمة، السنة الخامسة عشرة، العدد ٤٥، سنة ١٩٩٥م).

٤. القرضاوي، د. يوسف، **الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه**، (المنصورة: دار الوفاء، ط٣، ١٩٩٢م).

٥. القرضاوي، د. يوسف، **الخصائص العامة للإسلام**، (القاهرة: مكتبة وهبة، ط٣، ١٩٩٣م).

٦. القرضاوي، د. يوسف، **الرسول والعلم**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٧، ١٩٩٧م).

٧. القرضاوي، د. يوسف، **الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف**، (المنصورة: دار الوفاء، ط٣، ١٩٩٤م).

٨. القرضاوي، د. يوسف، **أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة المقبلة**، (القاهرة: مكتبة وهبة، ط٤، ١٩٩٢م).

٩. مجمع اللغة العربية، **المعجم الوجيز**، (القاهرة).

---

[1] القرضاوي، **الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف**، ص١٣٨-١٣٩.

الوسطية في القرآن ودور الأسرة

في تفعيل الوسطية في حياة الأبناء

د. حنان محمد قاضي الحازمي[1]

ملخص البحث:

إن المتأمل للواقع الذي تعيشه الأمّة اليوم يرى ظهور كثير من البدع، وتكوّن الفرق، وتوارثت الأجيال كثيرا من الانحرافات العقدية والسلوكية وغيرها. ويرى الإفراط والتفريط، والغلوّ والجفاء، والإسراف والتقتير، ووسط هذا الواقع المؤلم، والاضطراب المهلك، تشتدّ الحاجة إلى دلالة الأمّة إلى الصّراط المستقيم، والمنهج العدل المبين، لإنقاذها من كبوتها، وإيقاظها من رقدتها، وتبصير الدّعاة والمصلحين بالمنهج الحقّ، والطّريق البيِّن الواضح: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٣٥]. ووجد أنّ القرآن الكريم، قد رسم لنا هذا المنهج في شتَّى جوانبه، أصولا وفروعًا، عقيدةً وعبادةً، خُلقًا وسلوكًا، تصوُّرًا وعملا. ولقد جاء منهج الوسطيَّة من خلال القرآن الكريم في أساليب عدَّة، تصريحًا وإيماءً، مفصَّلا ومجملا، خبرًا وإنشاءً، أمرًا ونهيًا. فمن هنا تهدف هذه الدراسة إلى تحديد مفهوم الوسطية في القرآن الكريم، وتوضيح أسس الوسطية في القرآن، وبيان دور الأسرة في تفعيل الوسطية في حياة الأبناء، وقد استخدمت الباحثة المنهج الوصفي لبيان وتوضيح دور الأسرة في تفعيل الوسطية في حياة الأبناء؛ لأن (العساف) يرى أن اصطلاح المنهج الوصفي يطلق عل كل منهج يرتبط بدراسة ظاهرة معاصرة بقصد وصفها وتفسيرها[2]. وتدور محاور الدراسة حول: مفهوم الوسطية في القرن الكريم. وأسس فهم الوسطية. ودور الأسرة في تفعيل الوسطية في حياة الأبناء.

المقدمة:

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلَّ له، ومن يُضلل فلا هادِيَ له، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

لقد امتازت الأمة الإسلامية بأنها أمة وسط في كل شيء، وهذا ما قرره القرآن الكريم حين قال سبحانه وتعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ [البقرة:١٤٣]، فهي خير الأمم التي أخرجت للناس. وقد وصفها الله وشهد لها بذلك فقال: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ [آل عمران:١١٠].

أهمية الدراسة:

---

[1] الأستاذ المساعد بقسم التربية الإسلامية والمقارنة بجامعة أم القرى. hmgsah@gmail.com

٢ العساف، **المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية**، ص١٨٩.

لقد أمر الله سبحانه وتعالى عباده بالاستقامة والاعتدال، ونهاهم عن الغلو والانحلال، وإن الدين الإسلامي يعارض التطرف والتعصب، ويحترم التعددية الثقافية والدينية والحضارية، وينبذ العنصرية، ويدعو للوسطية. قال الله تعالى: ﴿يَاأَهْلَ الكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء:١٧١]، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَةً وسَطَاً لِّتَكُونُواْ شهداء على النَّاسِ وَيَكُونَ الرَسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيَداً﴾ [البقرة:١٤٣].

قد يفتقد الأبناء الوعي السليم، والقدوة الرشيدة، ويقعون فرائس الصراعات النفسية بين الحلال والحرام، بين الفطرة ومستجدات العصر، ويبحثون عن سبل وأساليب أخرى يجدون فيها تعبيراً عن الرفض للصور غير المقبولة بالمجتمع، ويتمردون على واقع يرون أنه لا يعبر عن حاجاتهم ومتطلباتهم، أو الغلو في العبادة أو التعصب في الأفكار والممارسات، أو حتى التفريط والتهاون في الأصول[١].

وتعد الوسطية في كل الأمور من أهم مزايا المنهج الإسلامي، فأمة الإسلام أمة الوسط والصراط المستقيم بمعنى أنها تستغل جميع طاقاتها وجهودها في البناء والعمران المادي والتربوي والعلمي والثقافي من غير إفراط ولا تفريط، فهي تحقق التوازن بين الفرد والجماعة، وبين الدين والدنيا وبين العقل والقوة وبين المثالية والواقعية وبين الروحانية والمادية وغيرها[٢].

لا شك أن أهم أهداف التربية قديماً وحديثاً، هو إيجاد الفرد الصالح النافع لنفسه وأمته، وإن جنوح الفرد يميناً أو يساراً بالغلو والتطرف، أو اللامبالاة والتهاون، لهو مؤشر خطير يستوجب صحوة كل من يضطلع بمسؤولية التربية بالمجتمع لبحث أسباب هذا التطرف وسبل علاجه للجيل الحاضر، وإعداد العدة لوقاية الجيل الجديد من استفحال تلك الظواهر فيه.

إن الأسرة أهم المؤسسات التربوية وأولها، حيث تبدأ مشوار التربية بحياة الفرد، وهي المسئول الأول عن استقامتة أو انحرافه، لذا عظم دورها مع مستجدات عصر العولمة ومتطلباته، وما طرأ على المجتمعات الإسلامية من مغريات تستقطب الشباب وتستميلهم، وهنا تبدأ المغالاة والتطرف أو التهاون والقصور. وخير وسائل العلاج هي لجوء الأسرة المسلمة لوسطية الاسلام[٣].

لذلك ترى الباحثة أهميَّة هذا الموضوع، ومسيس الحاجة إليه، والرجوع لمنهج الوسطيَّة.

أولا: مفهوم الوسطية لغة واصطلاحاً:

الوسطية لغة:

جاءت لفظة (وسط) في اللغة لمعانٍ متعددة، منها:

١- تأتي اسما لما بين طرفي الشيء وهو منه فنقول: قبضت وسط الحبل، وكسرت وسط القوس، وجلست وسط الدار[٤].

---

١ درويش، حنان محمد، **التطرف الديني**، (رسالة دكتوراه، ٢٠٠٣م)، ص١٤٠.

٢ ابن تنباك، مرزوق بن صنيتان، **موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية**، الوسطية، (٥١)، ص١٠، ١٩.

٣ الجوير، إبراهيم بن مبارك، **الأسرة وأثرها في تحقيق الأمن الفردي والمجتمعي**، ص١٤-١٦.

٤ ابن منظور، **لسان العرب**، ج٧، ص٤٢٦.

٢- تأتي صفة بمعنى (خيار) وأفضل، وأجود، فأوسط الشيء أفضله وخياره كوسط المرعى خير من طرفيه، ومرعى وسط أي: خيار منه.

٣- وتأتي وسط: بمعنى (عدل). جاء في لسان العرب: "ووسط الشيء وأوسطه أعدله"[١]. وفي القاموس: "الوسط: محركة من كل شيء أعدله"[٢]، وكذلك قال الجوهري في الصحاح[٣].

٤- وتأتي وسط: بمعني: الشيء بين الجيد والرديء، قال الجوهري: "ويقال أيضًا شيء وسط: أي بين الجيد والرديء"[٤]. وكذلك قال الفيومي[٥].

مما تقدم يتضح لنا أنّ هذه اللفظة تدل على معان متقاربة: "الواو والسين والطاء بناءٌ صحيحٌ يدل على: العدل، والنصف. وأعدل الشيء أوسطه ووسطه ..."[٦].

تعريف الوسطية في الاصطلاح الشرعي:

يعرفها الدكتور أحمد عمر هاشم بقوله: "فالمراد بالوسطية: التوازن والتعادل بين طرفين بحيث لا يطغى طرف على آخر، فلا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا تقصير، وإنما اتباع للأفضل والأعدل، والأجود والأكمل"[٧].

وذهب الدكتور وهبة الزحيلي إلى أنّ المقصود بالوسطية هو الاعتدال، فقال: "والوسطية في العرف الشائع في زمننا تعني الاعتدال في الاعتقاد والموقف والسلوك والنظام والمعاملة والأخلاق، وهذا يعني أن الإسلام دين معتدل غير جانح ولا مفرط في شيء من الحقائق، فليس فيه مغالاة في الدين، ولا تطرف ولا شذوذ في الاعتقاد، ولا استكبار ولا خنوع ولا ذل ولا استسلام ولا خضوع وعبودية لغير الله تعالى، ولا تشدد أو إحراج، ولا تهاون، ولا تقصير، ولا تساهل أو تفريط في حق من حقوق الله تعالى، ولا حقوق الناس، وهو معنى الصلاح والاستقامة"[٨].

وإذا أضيفت هذه الوسطية بمعناها الذي عرفناه إلى الأمة المسلمة فيكون المراد بذلك: أن الأمة الإسلامية قد بلغت بصفاتها المحمودة المكتسبة من شرع الله مكانة في الاعتدال والخيرية والإنصاف والرفعة ما يجعلها سيدة الأمم، وقائدة الشعوب، وشاهدة عليهم يوم يقوم الأشهاد.

---

١ ابن منظور، المصدر نفسه، ج٧، ص٤٣٠.

٢ الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، باب الطاء، فصل الواو، ح٨٩٣.

٣ الجوهري، **الصحاح**، ج٤، ص٣٠٤.

٤ الجوهري، نفس المصدر، ج٣، ص١١٦٧.

٥ الفيومي، **المصباح المنير**، ص٣٣٩.

٦ ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، كتاب الواو، باب الواو والسين، ج٦، ص١٠٨.

٧ أحمد عمر هاشم، **وسطية الإسلام**، ص٧.

٨ الزحيلي، **الوسطية مطلباً شرعياً وحضاريا**، ص٥.

فليس المراد إذن بالوسطية أن يكون الإنسان في درجة متوسطة في عبادته أو عمله أو سلوكه، ولا أن يكون متوسط العلم أو العمل أو السعي، بمعنى أن لا يكون متقدماً ومتميزاً في هذه الأمور، بل المراد بالوسطية الأجود والأفضل والأكملُ والأعدل، وخير الأمور أوسطها أي: أعدلها. والوسطية في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ [البقرة:١٤٣] أي: عدولاً خياراً[١].

إن مصطلح الوسطية لا يصحّ إطلاقه إلا إذا توافرت فيه صفتان:

١- الخيريَّة، أو ما يدلّ عليها كالأفضل والأعدل أو العدل.

٢- البينيَّة، سواء أكانت حسِّيَّة أو معنويَّة.

فإذا جاء أحد الوصفين دون الآخر فلا يكون داخلا في مصطلح الوسطيَّة.

وأما القول بأن الوسطيَّة ملازمة للخيريَّة -أي أنّ كلّ أمر يوصف بالخيريَّة فهو (وسط)- ففيه نظر، والعكس هو الصّحيح، فكل وسطيَّة تلازمها الخيريّة[٢]، فلا وسطيَّة بدون خيريَّة، ولا عكس. فلا بدَّ مع الخيريَّة من البينيَّة حتى تكون وسطًا.

وكذلك البينيَّة -أيضًا- فليس كل شيء بين شيئين أو أشياء يُعتبر وسطيًّا وإن كان وسطًا. فقد يكون التوسّط حسيًّا أو معنويًّا، ولا يلزم أن يوصف بالوسطيَّة كوسط الزمان أو المكان أو الهيئة ونحو ذلك. ولكن كل أمر يوصف بالوسطيَّة فلا بد أن يكون بينيًّا حسًّا أو معنى.

ومن هنا نخلص إلى أنَّ أيَّ أمر اتَّصف بالخيريَّة والبينيَّة جميعًا فهو الذي يصحّ أن نُطلق عليه وصف: الوسطيَّة، وما عدا ذلك فلا[٣]. ذلك أنَّ الوسطيَّة مرتبة عزيزة المنال، غالية الثَّمن، كيف لا وهي سمة هذه الأمَّة، ومحور تميّزها بين الأمم، جعلها الله خاصيَّة من خصائصها، تكرّمًا منه وفضلا ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الحديد:٢١].

وللوسطيَّة ملامح وسمات تحفّ بها، وتُميِّزها عن غيرها، بمجموع تلك الملامح لا بآحادها. وأهمّ سمات الوسطيَّة ما يأتي:

(أ) الخيريَّة: وهي تحقيق الإيمان الشامل، يحوطه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

(ب) الاستقامة: وهي لزوم المنهج المستقيم بلا انحراف، فالوسطية لا تعني التنازل أو التميع أبدا.

(ج) اليسر ورفع الحرج: وهي سمة لازمة للوسطية.

(د) البينيَّة: وذلك واضح في كل أبواب الدين، فالصراط المستقيم بين المغضوب عليهم والضالين.

---

١ أحمد عمر هاشم، **وسطية الإسلام**، ص٧.

٢ قال ابن عاشور بعد بيان معنى الوسط: فمن أجل ذلك صار معنى النفاسة والعزة والخيار من لوازم معنى الوسط عرفًا، فأطلقوه على الخيار النفيس. انظر: ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢، ص١٧. وقال رشيد رضا: "فالخيار هو الوسط بين طرفي الأمر، أي: المتوسط بينهما". انظر: رشيد رضا، **تفسير المنار**، ج٢، ص٤.

٣ ناصر العمر، **الوسطية في ضوء القرآن**، ص٣٢.

(هـ) العدل والحكمة: وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم الوسط بالعدل، وذلك هو معنى الخيار. وذلك لأن خيار الناس: عدولهم. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ [النحل:٩٠]. فالتوازن في الشريعة الإسلامية، النظر في كل الجوانب، وعدم طغيان جانب على آخر، وذلك باجتناب الغلو والجفاء.

وهكذا، فإن الوسطية سمة ثابتة بارزة في كل باب من أبواب الإسلام، في الاعتقاد، والتشريع، والتكليف، والعبادة، والشهادة والحكم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، والأخلاق والمعاملة، وكسب المال وإنفاقه، ومطالب النفس وشهواتها[1].

استعمالات الكلمة في القرآن الكريم:

وردت كلمة (وسط) في القرآن في عدَّة مواضع، وذلك بتصاريفها المتعدّدة، حيث وردت بلفظ: ﴿وَسَطاً﴾ [البقرة:١٤٣]، و﴿الْوُسْطَى﴾ [البقرة:٢٣٨]، و﴿أَوْسَطِ﴾ [المائدة:٨٩]، و﴿أَوْسَطُهُمْ﴾ [القلم:٢٨]، و﴿فَوَسَطْنَ﴾ [العاديات:٥].

وسأذكر معنى كل كلمة حسب ورودها في القرآن الكريم، وكلام بعض المفسرين حولها.

أولا: كلمة "وسطًا": وردت في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة:١٤٣].

ذكر لها المفسرون عدّة معانٍ، وتفصيل ذلك كما يأتي:

١- روى الطبري بإسناده عن النبي عليه الصلاة والسلام في قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطا﴾ قال: صلى الله عليه وسلم: «عدولا»[2].

٢- قال الإمام الطبري: "وأمّا الوسط فإنه في كلام العرب: الخيار، يُقال منه: فلان وسط الحسب في قومه، أي متوسط الحسب، إذا أرادوا بذلك الرّفع في حسبه". وقال: "وأنا أرى أن الوسط في هذا الموضع هو الوسط الذي بمعنى الجزء، الذي هو بين الطَّرفين، مثل وسط الدّار". وقال أيضا: "وأرى أن الله -تعالى ذكره- إنّما وصفهم بأنَّهم وسط لتوسّطهم في الدّين، فلا هم أهل غلوّ فيه، غلوّ النَّصارى الذين غلوا بالتَّرهُّب. وقيل: هم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدَّلوا كتاب الله، وقتلوا أبناءهم، وكذبوا على ربِّهم، وكفروا به، ولكنهم أهل توسّط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحبّ الأمور إلى الله أوسطها".

٣- قال ابن كثير: "وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ الوسط هنا: الخيار والأجود، كما يُقال في قريش: أوسط العرب نسبًا ودارًا، أي: خيرها. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وسطًا في قومه، أي: أشرفهم نسبًا[3]. ومنه الصلاة الوسطى، التي هي أفضل الصّلوات، وهي العصر، كما ثبت في الصّحاح وغيرها.

---

١ عبد الحكيم محمد بلال، **الوسطية من أبرز خصائص هذه الأمة**، ص١٠.

٢ ابن جرير الطبري، **التفسير**، ج٢، ص٧. والحديث أخرجه الترمذي في **سننه**، ج٥، ص١٩٠، رقم٢٩٦١؛ وأحمد في **مسنده**، ج٣، ص٩. وعندهما "عدلا" بدل "عدولا".

٣ ابن كثير، **عمدة التفسير**، ج١، ص١١٢.

٤- وقال الشيخ عبد الرحمن بن سعدي: "﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ أي: عدلا خيارًا. وما عدا الوسط فأطراف داخلة تحت الخطر، فجعل الله هذه الأمة وسطًا في كل أمور الدّين، وسطًا في الأنبياء بين من غلا فيهم كالنصارى، وبين من جفاهم كاليهود، بأن آمنوا بهم كل على الوجه اللائق بذلك. ووسطًا في الشريعة، لا تشديدات اليهود وآصارهم، ولا تهاون النصارى[١].

٥- وقال سيد قطب في تفسيره لهذه الآية: "وإنها للأمَّة الوسط بكل معاني الوسط، سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل، أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد، أو من الوسط بمعناه الماديّ والحسيّ. أمَّةً وسطًا في التصوّر والاعتقاد، أمَّةً وسطًا في التّفكير والشّعور، أمَّةً وسطًا في التّنظيم والتّنسيق، أمة وسطًا في الارتباطات والعلاقات، أمَّةً وسطًا في الزَّمان، أمَّةً وسطًا في المكان، ثم قال: وما يعوق هذه الأمة اليوم عن أن تأخذ مكانها هذا الذي وهبه الله لها، إلا أنّها تخلَّت عن منهج الله الذي اختاره لها، واتَّخذت لها مناهج مختلفة، ليست هي التي اختارها الله لها"[٢].

ثانيًا: كلمة "الوسطى": وقد وردت هذه الكلمة في قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة:٢٣٨].

١- ذكر الإمام الطبري أقوال العلماء في الصَّلاة الوسطى، وأطال في ذكر أدلَّة من قال: إنَّ الصّلاة الوسطى هي العصر، ثم قال بعد أن رجَّح أن الصَّلاة الوسطى هي العصر: وإنما قيل لها الوسطى: لتوسّطها الصَّلوات المكتوبات الخمس، وذلك أن قبلها صلاتين، وبعدها صلاتين، وهي بين ذلك وسطاهنّ. والوسطى: الفعلى من قول القائل: وسطت القوم أسطهم سطة ووسوطًا، إذا دخلت وسطهم. ويقال للذّكر فيه: هو أوسطنا، وللأنثى: هي وسطانًا[٣].

٢- وجَّه ابن الجوزي أقوال العلماء في المراد بالصَّلاة الوسطى قائلا: "وفي المراد بالوسطى ثلاثة أقوال: أحدها: أنَّها أوسط الصَّلوات محلا. والثاني: أوسطها مقدارًا. والثالث: أفضلها. ووسط الشيء خيره وأعدله، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾. وقال ابن الأنباري: ومن قال: هي الظهر، قال: هي وسط النهار. فأما من قال: هي المغرب، فاحتجّ بأن أوّل صلاة فرضت الظّهر، فصارت المغرب وُسْطى. ومن قال: هي العشاء، فإنَّه قال: هي بين صلاتين لا تقصران"[٤].

ثالثًا: كلمة (أوسط): وقد وردت هذه الكلمة في آيتين: الأولى في قوله تعالى: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ [المائدة:٨٩]. والثانية في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم:٢٨].

وقد ذكر المفسّرون معنى كل كلمة في موضعها، فمنهم من جعل معناهما واحدًا، ومنهم من فرّق بين مدلوليهما، وإليك تفصيل ذلك:

الأولى: آية سورة المائدة:

---

[١] السعدي، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، ج١، ص٧٠.

٢ سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ج١، ص١٣١.

٣ ابن جرير الطبري، **التفسير**، ج٢، ص٥٦٨.

٤ ابن الجوزي، **زاد المسير**، ج١، ص٢٨٣.

١- قال الطبري: "يعني -تعالى ذكره- بقوله: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أعدله. قال عطاء: أوسطه: أعدله. وقال بعضهم: معناه: من أوسط ما يطعم من أجناس الطعام الذي يقتاته أهل بلد المكفَّر أهليهم، ومن ذلك قول ابن عمر: من أوسط ما يطعم أهله الخبز والتّمر، والخبز والسَّمن، والخبز والزيت، ومن أفضل ما يطعمهم: الخبز واللحم".

٢- وقال الزمخشريّ: "﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ من أقصده؛ لأنَّ منهم من يُسرف في إطعام أهله، ومنهم من يُقتّر"[١].

الثانية: آية سورة القلم:

١- قال الطبري: "وقوله: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ يعني أعدلهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. قال ابن عباس: أوسطهم: أعدلهم، وبمثل ذلك قال مجاهد، وسعيد، والضّحَّاك. وقال قتادة: أي أعدلهم قولا، وكان أسرع القوم فزعًا، وأحسنهم رجعة"[٢].

٢- وقال القرطبي: "﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ أي: أمثلهم وأعدلهم وأعقلهم"[٣].

٣- وقال ابن كثير: "﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومحمد بن كعب، والربيع بن أنس، والضّحاك، وقتادة: أي أعدلهم وخيرهم"[٤].

٤- قال القاسميّ: "أي: أعدلهم وخيرهم رأيًا"[٥].

إن كلمة (أوسط) في آية المائدة فسّرت على عدَّة أوجه وبعدَّة معان، منها: الأفضل، وبين القليل والكثير، وبين الجيّد والرديء، أو الشدَّة والسّعة. أمَّا آية القلم فاتَّفق المفسِّرون على تفسيرها بمعنى الأفضل والخيار وهو الأعدل.

رابعًا: كلمة (فوسطن): وردت في قوله تعالى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً﴾ [العاديات:٥].

وقد ذكر المفسِّرون أنَّ معناها من التوسط في المكان، وهذه جملة من أقوالهم:

١- قال الطبري: "يقول -تعالى ذكره-: فوسطن بركبانهن جمع القوم، يقال: وسطت القوم -بالتخفيف-، ووسّطته -بالتّشديد-، وتوسّطته، بمعنى واحد"[٦].

٢- وقال ابن الجوزي: "قال المفسّرون: المعنى: توسّطن جمعًا من العدوّ. وقال ابن مسعود: فوسطن به جمعًا، يعني مزدلفة"[٧].

---

١ الزمخشري، **الكشاف**، ج١، ص٦٤٠.

٢ ابن جرير الطبري، **التفسير**، ج٢٩، ص٣٤.

٣ المصدر السابق، ج١٨، ص٢٤٤.

٤ ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٤، ص٤٠٦.

٥ القاسمي، **التفسير**، ج١٦، ص٥٩٠٠.

٦ ابن جرير، **التفسير**، ج٣٠، ص٢٧٦.

٧ ابن الجوزي، **زاد المسير**، ج٩، ص٢٠٩.

٣- وقال سيد قطب: "وهي تتوسّط صفوف الأعداء على غرّة، فتوقع بينهم الفوضى والاضطراب"[١].

ثانيا: أسس فهم الوسطية:

تبيّنَّ لنا أنَّ الوسطيَّة لا بدّ لها من توافر أمرين، وهما: الخيريَّة والبينيَّة، والآن نأتي إلى أن نبين أُسُسها؛ ليتحدَّد معنى الوسطيَّة على الوجه الدّقيق. وهذه الأسس هي: ١) الغلوّ أو الإفراط. ٢) الجفاء أو التَّفريط. ٣) الصّراط المستقيم[٢].

أولا: الغلو والإفراط:

أما الغلوّ فقد عرَّفه أهل اللغة بأنَّه مجاوزة الحدّ، فقال ابن فارس: "غلوّ: الغين واللام والحرف المعتلّ أصل صحيح يدلّ على ارتفاع ومجاوزة قدر، يُقال: غلا السّعر يغلو غلاء، وذلك ارتفاعه، وغلا الرَّجل في الأمـــر غلوًّا، إذا جاوز حدَّه، وغلا بسهمه غلوًّا إذا رمى به سهمًّ أقصى غايته"[٣].

وقد ورد في القرآن الكريم آيتان فيهما النَّهي عن الغلوّ بلفظه الصَّريح، قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء:١٧١]. قال الطبري: "يقول الله: لا تجاوزوا الحقّ في دينكم فَتُفْرِطُوا فيه. وأصل الغلوْ في كل شيء مجاوزة حدّه الذي هو حدّه، يقال منه في الدّين: قد غلا فهو يغلو غلوًّا"[٤].

وقال ابن الجوزي: "وقال الجوهريُّ: وغلا في الأمر يغلو غلوًّا، أي جاوز فيه الحدّ"[٥].

أمَّا الآية الثانية فقال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيراً وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٧] قال الطبري: "يقول: لا تُفْرِطوا في القول فيما تدينون به من أمر المسيح فتجاوزوا فيه الحقّ إلى الباطل، فتقولوا فيه: هو الله، أو هو ابنه، ولكن قولوا: هو عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه"[٦].

أما الإفراط: فهو في اللغة: التقدّم ومجاوزة الحدّ. قال ابن فارس: "يُقال: أفرط: إذا تجاوز الحدّ في الأمر، يقولون: إيَّاك والفرط، أي لا تجاوز القدر، وهذا هو القياس؛ لأنَّه إذا جاوز القدر فقد أزال الشيء عن وجهته"[٧].

---

[١] سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ج٦، ص٣٩٥٨.

[٢] ناصر العمر، **الوسطية في ضوء القرآن الكريم**، ص٣٥.

[٣] ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مادة (غلو)، ج٤، ص٣٨٧.

[٤] ابن جرير الطبري، **التفسير**، ج٦، ص٣٤.

[٥] الجوهري، **الصحاح**، مادة (غلا)، ج٦، ص٢٤٤٨.

[٦] ابن جرير الطبري، **التفسير**، ج٦، ص٣١٦.

[٧] ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مادة (فرط)، ج٤، ص٤٩٠.

وقال الجوهري: "وأفرط في الأمر: أي: جاوز فيه الحدّ"[1]. وفي لسان العرب: "وأمر فُرُط، أي: مجاوز فيه الحدّ. والإفراط: الإعجال والتقدّم، وأفرط في الأمر: أسرف وتقدَّم. وكل شيء جاوز قدره فهو مفرط"[2].

قال تعالى: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ [طه:٤٥]. قال الطبري: "وأما الإفراط فهو الإسراف والإشطاط والتعدّي، يقال منه، أفرطت في قولك، إذا أسرف فيه وتعدَّى. وأمَّا التَّفريط فهو التَّواني، يُقال منه: فرَّطت في هذا الأمر حتى فات، إذا توانى فيه".

ومن خلال ما سبق يتَّضح من تعريفي الغلوّ والإفراط أنَّ كلا منهما يصدق عليه: تجاوز الحدّ، وقد فسَّر الغلوّ بالإفراط كما سبق؛ وإن كان كل واحد منهما يحمل معنى أبلغ من الثَّاني في بعض ما يستعمل فيه. فالذي يُشدّد على نفسه بتحريم بعض الطيِّبات، أو بحرمان نفسه منها وصف الغلوّ ألصق به من الإفراط، والذي يُعاقب من اعتدى عليه عقوبة يتعدَّى بها حدود مثل تلك العقوبة فوصف الإفراط ألصق به من الغلوّ، فنقول: عاقبه وأفرط في عقوبته. وهكذا.

والذي يعنينا في هذا المبحث أن كلا من الغلوّ والإفراط خروج عن "الوسطيَّة"، فكل أمر استحقّ وصف (الغلوّ) أو (الإفراط) فليس من الوسطيَّة في شيء.

ثانيًا: التفريط والجفاء:

التَّفريط في اللغة هو التَّضييع كما في لسان العرب. وقال الزَّجَّاج: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ [الكهف:٢٨] أي كان أمره التَّفريط وهو تقديم العجز. وفي حديث عليّ ﷺ: "لا يرى الجاهل إلا مفْرِطًا أو مفرِّطًا"، وهو بالتخفيف: المسرف في العمل، وبالتّشديد المقصِّر فيه. وقال الجوهري: "فرَّط في الأمر فرطًا: أي قصَّر فيه، وضيَّعه، حتى فات، وكذلك التَّفريط"[3].

والجفاء: خلاف البّر، والجفاء: ما نفاه السّيل، ومنه اشتقاق الجفاء[4]. وقال ابن منظور: "جفا الشيء يجفو جفاءً وتجافى: لم يلزم مكانه، كالسَّرج يجفو عن الظّهر، وكالجّنب يجفو عن الفراش، وفي التَّنزيل: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة:١٦]. وفي الحديث: "أنه كان يجافي عضديه عن جنبيه في السّجود"[5] أي يباعدهما"[6].

وأكثر ما يرد الجفاء لما هو محظور ومنهيّ عنه، كالجفاء بما يقابل الصلة والبّر، والجفاء الذي هو من الشّدة والغلظة، ونحو ذلك.

---

[1] الجوهري، **الصحاح**، مادة (فرط)، ج٣، ص١١٤٨.

[2] ابن منظور، **لسان العرب**، مادة (فرط).

[3] الجوهري، **الصحاح**، مادة (فرط)، ج٣، ص١١٤٨.

[4] ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مادة (جفو)، ج١، ص٤٦٥.

[5] لم أجده بهذا اللفظ. والأقرب منه ما أخرجه أبو داود في **سننه**، ج١، ص١٩٤، رقم٧٣٠، وهو "كان إذا سجد جافى عضديه عن جنبيه ...". وأخرجه مسلم في **صحيحه**، ج١، ص٣٥٧، رقم٤٩٧ بلفظ آخر في معناه.

[6] ابن منظور، **لسان العرب**، مادة (جفا).

وعند التَّأمّل في استعمال العرب لهما يلحظ أن الجفاء يستعمل غالبًا فيما فيه قصد الأمر من التَّرك والبعد وسوء الخلق. أمَّا التَّفريط فمنشؤه غالبًا التَّساهل والتَّهاون.

إنَّ كل أمرٍ اتَّصف بالتَّفريط أو بالجفاء، فإنَّه يُخالف الوسطيَّة، وبمقدار اتّصافه بأيّ من هذين الوصفين يكون بعده عن الوسطيَّة وتجافيه عنها.

ثالثًا: الصراط المستقيم:

إنَّنا بدون فهم معنى "الصّراط المستقيم"، وتحديد مدلوله، لا نستطيع فهم "الوسطيَّة" على معناها الصّحيح. وقد ورد لفظ "الصّراط المستقيم" في القرآن عشرات المرَّات، وجاء بلفظ ﴿صِرَاطاً مُسْتَقِيماً﴾ [النساء:٦٨] و﴿صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الأعراف:١٦]، و﴿صِرَاطِي مُسْتَقِيماً﴾ [الأنعام:١٥٣] ونحو ذلك.

قال الطبري في قوله تعالى: "﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]: أجمعت الأمَّة من أهل التَّأويل جميعًا على أنَّ الصّراط المستقيم هو الطّريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه، وكذلك في لغة جميع العرب"[١].

الصلة بين الوسطية والصراط المستقيم:

مما تقدَّم يتَّضح أن معنى الصّراط المستقيم يدلّ على الوسطيَّة في مفهومها الشَّرعي الاصطلاحيّ الذي سبق تقريره، وبخاصّة أن ما جعلته لازمًا لمفهوم الوسطيَّة وإطلاقها قد تحقَّق في معنى الصّراط المستقيم، فالخيريَّة والبينيَّة ظاهرتان في هذا الأمر.

وبالتأمّل فيما سبق يتَّضح لنا ما يأتي:

١- أنَّ الصّراط المستقيم: يمثل قمَّة الوسطيَّة وذروة سنامها وأعلى درجاتها.

٢- أن الوسطيَّة تعني الخيريَّة، سواء أكانت خير الخيرين أم خيرًا بين شرّين، أو خيرًا بين أمرين متفاوتين.

٣- أنَّ المقياس لتحديد الخيريَّة هو الشرع، وليس هوى النَّاس أو ما تعارفوا عليه أو ألفوه؛ فإنَّ مفهوم الوسطيَّة عند كثير من الناس يعني التّنازل أو التَّساهل بل والمداهنة أحيانًا، حيث يختارون الأمر بين الخير والشرّ وهو إلى الشرّ أقرب في حقيقته ومآله، وهم يحسبون أنَّهم يحسنون صنعًا.

٤- أنَّ هناك عوامل كثيرة، وأصولا معتبرة تجب مراعاتها عند تحديد مفهوم الوسطيَّة وتطبيقها على أمر من الأمور، حيث إن قصر النظر على أمر دون آخر يؤدّي إلى خلاف ذلك ومجانبة للصّواب[٢].

ثالثا: دور الأسرة في تفعيل الوسطية في حياة الأبناء:

أولا: مفهوم الدور لغة: دار الشيء دورا ودورانا. وأدار غيره ودوَّر به، وتدوير الشيء جعله مداورة، والمداورة كالمعالجة[٣].

---

[١] ابن جرير الطبري، **التفسير**، ج١، ص٧٣.

[٢] ناصر العمر، مرجع سابق، ص٥٧.

[٣] الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، ص٤٢٣.

يشير مصطلح الدور إلى تصور اجتماعي أكثر منه فردي؛ لأنه يرتبط بالبيئة الاجتماعية، وهو أسلوب ا لفعل في البناء تحدده معايير المجتمع، له مضمون من الأغراض والأفعال والتوقعات والالتزامات، ومكوناته هي مجموعة القيم والعناصر الثقافية والمعايير التي تضفى عليها الصفة المعيارية، وبهذا يكون أداء الدور ليس عملية آلية، بل عملية تحكمها مجموعة من المعايير والتوقعات الممكنة[1].

تقصد الباحثة بالدور في هذه الدراسة: الواجبات والمسؤوليات لتحقيق عمل هادف ما، والإجراءات التي تصاحب المسؤول لتحقيق هذا العمل (عمل الأسرة الأول وهو تربية الأولاد).

ثانياً: مفهوم الأسرة:

الأسرة لغة: الأسرة مأخوذة من الأسر، وهو القوة والحبس، قال ابن منظورفي مادة أسر الأسرة: الدرع الحصينة. والأسرة: عشيرة الرجل وأهل بيته .[2]

يعرفها أبو العينين: "الوعاء الاجتماعي الذي يتلقى الطفل، ويتفاعل معها، ويشعر بالانتماء إليها، وبذلك يكسب الطفل أول عضوية له في جماعة، ويتعلم منها كيف يتعامل مع الآخرين في سعيه لإشباع حاجاته، وتحقيق مصالحه من خلال تفاعله مع أعضائها"[3].

إن الأسرة مكان بناء الأجيال وإعداد وتنشئة المواطنين الصالحين للمجتمع، فيجب على القائمين عليها (الأبوين) أن يتمتعا بثقافة تربوية كافية تعينهما على توجيه أولادهم وإرشادهم ونصحهم؛ لأن فاقد الشيء لا يعطيه؛ إذ إن الأسرة هي البيئة الأولى لتدريب الإنسان على المسؤولية التي كلفه الله بها، وهي عمارة الأرض، وهي الميدان العملي الأول الذي يمارس من خلالها مسؤولية قوامته عليها، وهي البيئة الأولى التي تعد الفرد لتحقيق التكافل الاجتماعي[4].

فالشخصية المعتدلة والمتزنة هي المبنية على الأسس والمبادئ التي جاءت بها الشريعة الإسلامية السمحة بتربيتها على حب الخير والسعي له والعمل به، وكره الشر واجتنابه، واكتساب الأخلاق الفاضلة المحمودة، والبعد عن الأفعال المذمومة والغلو التطرف والتعصب.

أن أهم أسباب الابتعاد عن الوسطية في منهج الحياة الاجتماعية هي قصور التربية المنزلية؛ حيث تضاؤل دور الأسرة في التوعية الدينية وعدم الحرص على حث الأبناء وتحريضهم على أداء الشعائر الدينية بانتظام، الأمر الذي يجعل الشاب يتخاذل بسند قوي، ألا وهو علم أسرته بعدم صلاته أو صيامه وعدم اعتراضها، بل وعدم معاقبته بأي شكل من العقوبات. الأمر الذي يجعله يعتقد أن تأدية الفرائض والالتزام بالسلوك الديني السليم، أمر اختياري يرجع لإرادته واختياره أو اقتناعه، فمنهم

[1] محمد سعيد فراج، **البناء الاجتماعي والشخصية**، ص٣٢٣-٣٥٨.

[2] ابن منظور، **لسان العرب**، مادة أسر.

[3] علي خليل أبو العينين، **القيم الإسلامية والتربية**، ص١٥٨.

[4] حنان محمد محمد درويش، **الدور التربوي لمراكز الشباب**، ص٢٢.

من يختار الجنوح بالتفريط والتساهل، ومنهم من يقع فريسة لمن يستقطبونهم ليرغبوهم في الالتزام بالشعائر الدينية، ثم يحدث النفور من المجتمع والأسرة؛ لأنهم يرون أنها محضن غير آمن وغير موجه وغير ملتزم[1].

يجب على كل مسؤول من أفراد الأسرة سواء كان الأب أو الأم أو الجد أو الجدة؛ الوعي بضوابط الوسطية الإسلامية: الموازنة العادلة بين الثوابت والمتغيرات في الإسلام، وتحديد ذلك بوضوح حتى يحدد كل راع بالأسرة مسئوليته تجاه أولاده، أما الثوابت فتتمثل أولا في: (العقائد) التي تمثل نظرة الإسلام الكلية عن الألوهية والعبودية، وتتمثل الثوابت كذلك في (العبادات) التي فرضها الله على عباده؛ الصلاة والزكاة والصيام والحج، وما يكملها من نوافل المرء من ربه وتزيد من رصيده عنده، وما يلحق بها من عبادات أخرى مثل الذكر والدعاء وتلاوة القرآن.

ومن الثوابت كذلك؛ القيم الأخلاقية العليا، وأمهات الأخلاق العملية التي تحدد علاقة الإنسان بربه كالإخلاص له، والرجاء في رحمته، والخشية من عقابه، وأيضا التي تحدد علاقته بنفسه مثل: النظافة، والعفة، والحياء، والصبر، والشجاعة، والعزة ومحاسبة النفس، وتحدد علاقته بأسرته مثل: الرعاية لحقوق الزوجة، وحقوق البنوة وبر الوالدين، وصلة الرحم، وتحدد علاقته بالمجتمع مثل: قول الصدق، وإنجاز الوعد، والوفاء بالعهد، ورعاية الأمانة، ورحمة الصغير، وتوقير الكبير، والعدل مع الصديق والعدو، والبر بالناس، وفعل الخير للجميع وغير ذلك من مكارم الأخلاق التي بعث النبي صلى الله عليه وسلم ليتممها.

ومن الثوابت أيضاً: (الأحكام القطعية) في شؤون الفرد والأسرة والمجتمع، والحكم والعلاقات الدولية، التي ثبتت بالنصوص المحكمة القطعية في ثوابتها ودلالتها. وأجمعت عليها الأمة، واستقر عليها الفقه والعمل. فهذا النوع من الأحكام: هو الذي يمثل (الوحدة الفكرية والشعورية والسلوكية) للأمة، ويجسد (ثوابتها) على اختلاف البيئات والأقطار، وتغير الأعراف والأعصار.

وفي الجانب السلبي: أمهات الرذائل التي حذر الإسلام منها أشد التحذير، مثل القتل، والسرقة، والزنى، والشذوذ الجنسي، وشرب الخمر، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وشهادة الزور، والكذب والغيبة، والنميمة، والخيانة، وسوء الظن، والغدر، والشح، والظلم، فكل هذه حرام، بل من أكبر المحرمات عند الله.

وفيما عدا هذه الثوابت الراسيات نجد جل أحكام الشريعة قابلة للاجتهاد وتعدد الأفهام.

وهناك بعد ذلك شؤون الحياة المتغيرة: من زراعة وصناعة، وطب وهندسة، وما إلى ذلك مما يتعلق بالعلوم التجريبية وتطبيقاتها في الحياة اليومية، فهذه ونحوها: متروكة لعقول البشر وتجاربهم وممارساتهم، ليس عليهم إلا أن يحكموا فيها منطق العقل والعلم والتجربة.

والإسلام بهذا التوازن: يجمع بين الثبات والتطور، أو الثبات والمرونة في تناسق بديع. إنه الثبات على الأهداف والغايات، والمرونة في الوسائل والأساليب.

---

[1] محمد بن يوسف أحمد عفيفي، **دور الأسرة في أمن المجتمع**، ص١٢-١٤.

والخطر كل الخطر على الحياة الإسلامية: أن نثبِّت ما من شأنه المرونة والتطور، أو نطوّر ما من شأنه الثبات والخلود، فتضطرب الحياة، وتختل الموازين[1].

وعلى ماسبق فإن أهم مقاصد الشريعة وغاياتها الأساسية الكبرى التي يجب أن تنهل منها الأسرة المسلمة في رعاية أبنائها، وهي؛ حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسب أو العرض، والمال، لتحقيق مصلحة الفرد والجماعة والأمة، وإيجاد التوازن والاعتدال الذي به تدوم الأوضاع والأحوال على منهج حسن ووضع مستقر، فالتوسط في الأمور ينسجم مع إمكانات البشر وقدراتهم وعطاءاتهم، وبه ينعم الناس في مظلة الحرية، ومتابعة الفعاليات والإنجازات، فيتحقق الأمن النفسي والاجتماعي والصحي والمعيشي، ويتجنب الناس كل ألوان الخوف والقلق واليأس والإحباط، ومن خلاله تنتعش الأحوال الاقتصادية، ويعم الاستقرار والوئام، ومن ثم ويقبل الأفراد والجماعات على التنمية وزيادة الإنتاج[2]. وعلى الأم بادئة بنفسها وقدوة لأبنائها وراعية لمالها ولمال زوجها أن تعتدل وتتوسط في كافة أمور حياتها فيتعود أبناؤها وتصبح العادة سلوكاً قويماً يكون قيمة توجه سلوكياتهم الاقتصادية. ودور المرأة في تفعيل قيمة الوسطية عظيم، فالمرأة متهمة دائماً بأنها مصدر الإنفاق والتبذير لسهولة التأثير عليها وإغرائها بالسلع والأسواق، ومع تحديات العولمة وزحف الفقر وظهور الطبقية لابد من تفعيل المرأة لقيمة الوسطية، لتبصر الأجيال الجديدة بحقائق واقعة نظراً لطبيعة تغيرات العصر، فيجب على الوالدين أن يعودا أولادهما على الاقتصاد في كافة جوانب الحياة وخاصة الإنفاق والاعتدال في المأكل والمشرب والملبس حتى يشبوا معتدلين غير مبذرين ولا مسرفين.

والاعتدال في الطعام والشراب بحيث لا يكون هناك نقص غذائي يؤدي إلى الضعف ولا يكون هناك إسراف وإفراط يؤدي إلى تخمة وبدانة وسمنة.

كما يجب على الأباء ترسيخ قيمة القناعة والرضا بما قسمه الله تعالى بالأسرة، والتخلي عن الطمع والنظر لأرزاق العباد، إذ أنّ القناعة تعني عدم اللجوء إلى الأساليب المنحرفة والملتوية لتحصيل ما نتمنّى، فإذا عاقت الموانع من بلوغ الأماني، فلا توسل بالوسائل الرخيصة أو المذلّة أو العوجاء لبلوغها، وإنّما نحاول أن تتذرع بالقناعة كلون من ألوان الصبر والتهدئة النفسية، وليس كحالة من حالات التجميد للطاقات العقلية أو البدنية.

ويجب تبصير الأبناء بأن الإسلام وضع نظاماً دقيقاً للصدقات والزكاة لتؤخذ من الأغنياء فترد على الفقراء ليخلق ذلك التكافل والتكامل الاقتصادي الذي يجعل من المجتمع الإسلامي مجتمعا يتحقق فيه الاكتفاء الذاتي ويرقى بالإنسان المسلم عن الذل والاضطهاد في سبيل الحصول على لقمة العيش .. كما نظم العلاقة في معاملات البيع والشراء والرهن والدين وتوزيع المواريث.

---

[1] أحمد محمد المومني، **مفهوم وضوابط الوسطية في الإسلام ودلالاتها من السنة**، ص٩-١٠.

[2] الزحيلي، **إذا اختل ميزان الحق والعدل والتوسط في الأمور**، ص١٨.

وأخيرا يجب تربية الأبناء على العلاقات الاجتماعية القائمة على منهج الإسلام من تراحم وتعاون وعفو وإغاثة الملهوف والتفريج على أهل الكروب[1].

نتائج الدراسة:

١. أن الدين الإسلامي وسطًا في التصور والاعتقاد، وفي التفكير والشعور، وفي الارتباطات والعلاقات، لا يغلو في التعبد أو التجرد الروحي.
٢. أن الدين الإسلامي يحث على التوازن والاتزان في جميع أنشطة الإنسان في الحياة.
٣. إن الأسرة مسئولة عن نشأة أطفالها نشأة سليمة متسمة بالاتزان ، والبعد عن الانحراف ، فهى تستطيع أن تسهم في بث التفكير السليم ومحاربة التفكير المنحرف من خلال إتباعها للعديد من الأساليب السوية والإيجابية فى تنشئة أفرادها ، وابتعادها عن المفاهيم الاجتماعية الخاطئة.
٤. أهمية تواجد الوالدين فى الأسرة على أن يكون هذا التواجد مقروناً بأداء أدوارهما على خير وجه، وهذا يتطلب مجموعة من القواعد التى تحكم تصرفاتهما ، وتنشأ هذه القواعد من القيم التى تحملها من أجيالها السابقة ، والتى قد تنبع من الدين أو من ثقافة المجتمع.

إن الشخصية المعتدلة والمتزنة هي المبنية على الأسس والمبادئ التي جاءت بها الشريعة الإسلامية السمحة بتربيتها على حب الخير والسعي له والعمل به ، وكره الشر واجتنابه ، واكتساب الأخلاق الفاضلة المحمودة ، والبعد عن الأفعال المذمومة والغلو التطرف والتعصب.

خاتمة البحث:

وقد توصلت الباحثة من خلال هذه الدراسة إلى النتائج التالية:

١- أن الدين الإسلامي وسط في التصور والاعتقاد، والتفكير والشعور، والارتباطات والعلاقات، لا يغلو في التعبد أو التجرد الروحي.
٢- أن الدين الإسلامي يحث على التوازن والاتزان في جميع أنشطة الإنسان في الحياة.
٣- إن الأسرة مسؤولة عن نشأة أطفالها نشأة سليمة متسمة بالاتزان، والبعد عن الانحراف، فهي تستطيع أن تسهم في بث التفكير السليم ومحاربة التفكير المنحرف من خلال اتباعها للعديد من الأساليب السوية والإيجابية في تنشئة أفرادها، وابتعادها عن المفاهيم الاجتماعية الخاطئة.
٤- أهمية تواجد الوالدين فى الأسرة على أن يكون هذا التواجد مقروناً بأداء أدوارهما على خير وجه، وهذا يتطلب مجموعة من القواعد التى تحكم تصرفاتهما، وتنشأ هذه القواعد من القيم التى تحملها من أجيالها السابقة، والتى قد تنبع من الدين أو من ثقافة المجتمع.

[1] حنان محمد محمد درويش، **دور المرأة في تفعيل قيم المجتمع الإسلامي لمواجهة تحديات العولمة**، ص٢٣.

٥- إن الشخصية المعتدلة والمتزنة هي المبنية على الأسس والمبادئ التي جاءت بها الشريعة الإسلامية السمحة بتربيتها على حب الخير والسعي له والعمل به، وكره الشر واجتنابه، واكتساب الأخلاق الفاضلة المحمودة ، والبعد عن الأفعال المذمومة والغلو التطرف والتعصب.

المصادر والمراجع:

١. **القرآن الكريم**.

٢. ابن تنباك، مرزوق بن صنيتان، **موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية**، (الرياض: دار رواح للنشر والتوزيع، ١٤٢١هـ).

٣. ابن جرير، محمد الطبري، **جامع البيان في تأويل آي القرآن**، (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٥هـ).

٤. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، **زاد المسيرفي علم التفسير**، (المكتب الإسلامي، د.ت).

٥. ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: شهاب الدين أبو عمر، (بيروت: دار الفكر للطباعة والتوزيع، ١٤١٥هـ).

٦. ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**، (تونس: دار الكتب الشرقية، د.ت).

٧. ابن كثير، إسماعيل القرشي، **تفسير القرآن العظيم**، (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٥هـ).

٨. ابن منظور، محمد مكرم، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، ، ط١، د.ت).

٩. أبو داود، سليمان بن الأشعث، **السنن**، تحقيق: عزت عبيد الدعاس، (حمص: الناشر محمد السيد، د.ت).

١٠. أبو العينين، علي خليل، **القيم الإسلامية والتربية**، (المدينة المنورة: مكتبة ابراهيم حلبي، ١٤٠٨هـ).

١١. أحمد بن محمد بن حنبل، **المسند**، (مصر: مؤسسة قرطبة، د.ت).

١٢. بلال، عبد الحكيم محمد، **الوسطية من أبرز خصائص هذه الأمة**، مجلة البيان.
http://www.islamdoor.com/k/368.htm [access 10/9/2014]

١٣. الترمذي، محمد بن عيسى، **السنن**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت).

١. الجوهري، إسماعيل بن حماد، **الصحاح**، (بيروت: دار القلم للملايين، ط٤، ١٩٩٠م).

٢. الجوير، إبراهيم بن مبارك، **الأسرة وأثرها في تحقيق الأمن الفردي والمجتمعي**، (ورقة عمل مقدمة لندوة المجتمع والأمن المنعقدة بكلية الملك فهد الأمنية بالرياض، (٢١-٢/٢٤-٢-١٤٢٥هـ).

٣. درويش، حنان محمد محمد، **الدور التربوي لمراكز الشباب**، دراسة مستقبلية، (رسالة ماجستير، كلية التربية، مصر: ١٩٩٦م).

٤. درويش، حنان محمد، **التطرف الديني**، (رسالة دكتوراه، ٢٠٠٣م).

٥. درويش، حنان محمد محمد، **دور المرأة في تفعيل قيم المجتمع الإسلامي لمواجهة تحديات العولمة**، (مؤتمر التربية الإسلامية وبناء المسلم المعاصر، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢٧هـ).

٦. رشيد رضا، **تفسير القرآن الحكيم المشهور بتفسير المنار**، (بيروت: دار المعرفة،ط٢، د.ت).

٧. الزحيلي، وهبة مصطفى، **الوسطية مطلبا شرعيا وحضاريا**، (الكويت: المركز العالمي للوسطية، ط٢، ٢٠١١م).

٨. الزحيلي، وهبة مصطفى، **إذا اختل ميزان الحق والعدل والتوسط في الأمور**، (مجلة الوعي الإسلامي، العدد ٤٨١، وزارة المعارف والاوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ٢٠٠٥م-١٠-٩).

٩. الزمخشري، محمود بن عمر، **الكشاف**، (بيروت: دار الفكر، ١٤١٥هـ).

١٠. العساف، صالح بن حمد، **المدخل إلى البحث في العلوم السلوكية**، (الرياض: مكتبة العبيكان، ١٤١٦هـ).

١١. عفيفي، محمد بن يوسف أحمد، **دور الأسرة في أمن المجتمع**، (ورقة عمل مقدمة لندوة المجتمع والأمن المنعقدة بكلية الملك فهد الأمنية بالرياض، (٢١-٢/٢٤-٢-١٤٢٥هـ).

١٢. العمر، ناصر، **الوسطية في ضوء القرآن**، (الرياض: دار الوطن، ١٤١٤هـ).

١٣. فراج، محمد سعيد، **البناء الاجتماعي والشخصية**، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩١٨م).

١٤. الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، د.ت).

١٥. الفيومي، أحمد بن محمد بن علي المقري، **المصباح المنير**، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، (المكتبة العصرية، د.ت).

١٦. القاسمي، محمد جمال الدين، **التفسير**، راجعه محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار الفكر، ط٢، ١٣٩٨هـ).

١٧. قطب، سيد، **في ظلال القرآن**، (القاهرة: دار الشروق، ١٤٠٠هـ).

١٨. مسلم بن الحجاج القشيري، **الصحيح**، (الرياض: مكتبة الرشد، ١٤٢٢هـ).

١٩. المومني، أحمد محمد، **مفهوم وضوابط الوسطية في الإسلام ودلالاتها من السنة النبوية**، د.ت.

٢٠. هاشم، أحمد عمر، **وسطية الإسلام**، (القاهرة: دار الرشاد للنشر والتوزيع، ١٩٩٨م).

الوسطية في الكتاب والسنة ودورها في الترجيح الفقهي

حسام الدين خليل فرج محمد[1]

ملخص البحث:

عني هذا البحث بتقرير دور الوسطية في الترجيح الفقهي؛ باعتبارها قاعدة التشريع في الكتاب والسنة؛ وتشكل واحدة من أهم نظرياته وأوسعها، سواء في مجال الحكم الشرعي أم في الأدلة التي بني عليها، أم في قضايا الاجتهاد والترجيح. ثم انتقل إلى تأصيل وضبط مفهوم الوسطية كقاعدة من قواعد الترجيح حتى لا يصبح مطية لأصحاب الأهواء وأدعياء التخفيف بحجة سماحة الدين ووسطيته. ثم ختم بتقديم بعض النماذج على كيفية استعمال الوسطية في الترجيح الفقهي.

مقدمة:

يُعنى هذا البحث بإبراز موقع الوسطية في الكتاب والسنة ودورها في الترجيح الفقهي، إذ لطالما بحث هذا الموضوع أو نظر إليه على أساس أنه مجرد خاصية يمتاز بها الإسلام، ثم يقف الأمر عند هذا التقرير لا يتجاوزه إلى مجال التطبيق الفقهي واختيار الراجح من الأحكام العملية المختلف فيها بين الفقهاء. رغم أن الوسطية تسري في كل أجزاء التشريع الإسلامي سريان الروح في الجسد، ومن ثم فهي خصيصة رئيسية للتشريع ينبغي أن تراعى وأن يكون لها وزنها اللائق بها عند الاختيار بين الأقوال. كما أن كثيرا من الناس بحجة الاستناد إلى وسطية الشريعة، ومحاربتها للغلو قد خلطوا في تقرير الأحكام الفقهية بحيث استنبطوا من الأحكام ما هو أبعد ما يكون عن هدي الإسلام ووقعوا في التقصير والتفريط، حتى ربما كان ما يدعون من الوسط هو في حقيقة الأمر "حراما" أو "مكروها" ولا يعدو أن يكون محاولة للاصطلاح مع الواقع الفاسد. وهذا لاريب يستدعي البحث عن الضوابط والمحددات لمعايير الوسطية كمرجح ذي شأن في مجال التعارض والاختلاف الفقهي.

المبحث الأول

مصطلحات ومفاهيم

قد يظن البعض أن مصطلح الوسطية مصطلح فضفاض؛ لا يمكن ضبطه والتعويل عليه في الفصل بين أقوال العلماء واختيار الراجح منها، وربما كان من أسباب ذلك أن الوسطية تعدّ أكثر أوصاف الشريعة، حتى وصفها الشاطبي بأنها: "معظم الشريعة وأم الكتاب[2]، وما كان كذلك فإنه يعسر تحرير معنى جامع فيه، وقد يضاف إلى ذلك أن هذا المصطلح تلفع به الكثيرون ولبسوا رداءه، فصرنا نسمع الكـــــل يدعي

---

[1] مركز القرضاوي للوسطية الإسلامية والتجديد–كلية الدراسات الإسلامية – جامعة حمد بن خليفة.

٢ الشاطبي، **الموافقات**، ج٤، ص٢٥٩.

وصلا بليلى[1] ، مما لا يمكن الاعتماد عليه لاختيار الرأي أو القول الأجدر بالاختيار.

وفي الحقيقة؛ إن ذلك كله –مع تسليمنا به– لا يعني مطلقا عدم القدرة على تحرير معنى دقيق جامع لمعناها، إذ لو كان ذلك صحيحا؛ لما ارتضاها رب العزة– سبحانه– وصفا للأمة الإسلامية في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].

ولذا سوف أتناول فيما يأتي معانيها في اللغة والاصطلاح حتى نخلص لمعنى دقيق لها.

المطلب الأول: الوسطية في اللغة والاصطلاح:

الوسطية في اللغة لها إطلاقان:

إطلاق مادي حسي: وهو كون الشيء وسطًا له طرفان؛ كوسط الدار، أو وسط الطريق. قال ابن منظور في لسان العرب: "وسط الشيء: ما بين طرفيه"[2].

إطلاق معنوي: وهو كون الشيء أفضل شيء، وأَخيره، وأعدلَه، وأجوده. قال ابنُ فارس في معجمه: "الواو والسين والطاء: بناء صحيح يدل على العدل والنّصَف ... وهو أوسطهم حَسَباً، إذا كان في واسطة قومه وأرفعهم محلاً"[3].

وهذه الأجودية والأفضلية التي تعكسها الوسطية، إنما هي؛ لأن الوسط دائما أبعد ما يكون عن الطرفين المذمومين الإفراط والتفريط[4].

ولكن لا يمنع ذلك أن الوسطية قد تأتي فيما له ضد واحد مذموم كالإيمان مع الكفر، والعدل مع الظلم، والتقوى مع الفجور[5].

الوسطية في الاصطلاح: أولا: وردت لفظة وسط ومشتقاتها في القرآن والسنة في مواضع، منها:

(١) العدل، ومنه قوله–عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣] أي، عدلا، وبهذا المعنى فسرها النبي ﷺ في حديث أبي سعيد الخدري فقال: "الوسط: العدل"[6].

---

١ وفي هذا يقول د. علي بن عبد الله الصياح: "ومن العجيب أنّ كلاً يدعي الوسطية لنفسه: فالخارجي يدعي أنّ مذهب الخوارج "وَسَطَ". والمرجئي يدعي أنّ مذهب المرجئة "وَسَطَ". والعقلاني يدعي أنّ منهجه "وَسَطَ". والمفرط يدعي أنّ منهجه "وَسَطَ". وربما العلماني . وغيره . يدعي أنّ منهجه "وَسَطَ"!!. والوسطية لا تعرف بمجرد الدعوى، وإنما تعرف بالدلائل والبينات. والدعاوي ما لم يقيموا عليها بينات أبناؤها أدعياء". **مجلة البيان، مقال: هذه هي الوسطية**، د. علي بن عبد الله الصياح، العدد ٢٠٢.

٢ ابن منظور، **لسان العرب**، ج٧، ص٤٢٧؛ ومرتضى الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، ج٢٠، ص١٧٤.

٣ ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج٦، ص١٠٨.

٤ ويؤكد ذلك ابن الأثير بقوله: "كل خصلة محمودة فلها طرفان مذمومان، فإن السخاء وسط بين البخل والتبذير، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور، والإنسان مأمور أن يتجنب كل وصف مذموم، وتجنبه بالتعري منه والبعد عنه ... فإذا كان في الوسط فقد بعد عن الأطراف المذمومة بقدر الإمكان". ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث**، ج٥، ص١٨٤.

٥ ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، ج٢، ص١٨.

٦ أخرجه البخاري في **صحيحه**، رقم٣٣٣٩؛ والترمذي في **جامعه**، رقم٢٩٦١.

(٢) التوسط بين الإفراط والتفريط، وبذلك فسرها شيخ المفسرين ابن جرير الطبري، حيث يقول في تفسير الآية السابقة: "وأرى أن الله تبارك وتعالى إنما وصفهم بأنهم -أي أهل الإسلام- وسط لتوسطهم في الدين فلا هم أهل غلو فيه - غلو النصارى الذين غلوا بالترهب، وقيل هم في عيسى ما قالوا فيه - ولا هم أهل تقصير فيه - تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به - ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها"اهـ[١].

(٣) وتأتي الوسطية في السنة كذلك بمعنى الأفضل مكانة كما وصف النبي ﷺ الفردوس بأنه «أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ»[٢].

(٤) كما تأتي الوسطية بمعنى: ما بين طرفي الشيء وحافتيه، قال ابن عباس: "كانَ الرَّجُلُ يَقُوتُ أَهْلَهُ قُوتًا دُونًا، وَبَعْضُهُمْ قُوتًا فِيهِ سَعَةٌ، فَقَالَ اللَّهُ: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ [المائدة:٨٩][٣].

يتلخص من المعاني السابقة أن الوسطية تعني العدل والتوسط بين الإفراط والتفريط والخيرية والأفضلية، وهي كلها -كما هو واضح- معان متلازمة.

ثانيا: مصطلح الوسطية في اصطلاح العلماء:

حاول كثير من العلماء أن يضعوا تعريفا جامعا للوسطية تلتقي فيه المعاني اللغوية والاستعمالات الشرعية السابقة، فمن هذه التعريفات:

تعريف الشيخ القرضاوي -حفظه الله- إذ عرفها بأنها: "التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين، بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير، ويطرد الطرف المقابل، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه ويطغى على مقابله ويحيف عليه"[٤].

تعريف د. محمد عبد اللطيف الفرفور حيث يقول: "التوسط: حالة محمودة غالبا تقوم في العقل الإنساني السليم بالفطرة، وتعصمه من الميل إلى جانبي الإفراط والتفريط"[٥].

تعريف الأستاذ محمد قطب: حيث أرجعها إلى حالة التوازن، فقال: "توازن بين طاقة الجسم وطاقة العقل وطاقة الروح، توازن بين ماديات الإنسان ومعنوياته، توازن بين ضروراته وأشواقه ... توازن بين النزعة الفردية والجماعية ..."[٦].

الوسطية الفقهية هي: "الأخذ بعين الاعتبار لكل عامل من العوامل المؤثرة في الفتيا قسطاً مناسباً من النظر، فلا يغفل جانب على حساب جانب، ولا يأخذ جانب فوق قسطه"[١].

---

١ الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج٣، ص١٤٢.

٢ أخرجه البخاري في **صحيحه**، رقم٢٧٩٠؛ وأحمد في **مسنده**، رقم٨٢٦٩؛ وابن حبان في **صحيحه**، رقم٤٦١١.

٣ أخرجه ابن ماجه في **سننه**، رقم٢١١٣.

٤ القرضاوي، **الخصائص العامة للإسلام**، ص١٢٧؛ وعطية، **النظرية العامة للشريعة**، ص٥٤.

٥ الفرفور، **الوسطية في الإسلام**، ص٢٧.

٦ محمد قطب، **منهج التربية الإسلامية**، ص٢٨.

التعريف المختار: بعد استعراض معاني الوسطية في مواردها في القرآن والسنة ودلالاتها اللغوية وما قدمه العلماء من تعاريف اصطلاحية هذه التعاريف يمكن أن نعرف الوسطية، ولاسيما الوسطية الفقهية بأنها: المنهج الفقهي المتوازن الذي يجمع بين الكليّات والجزئيّات، والمقاصد والفروع، والنصوص والمصالح، من غير أن يطغى منها شيء على الآخر.

المطلب الثاني: الوسطية في تشريع الأحكام

المتأمل في فلسفة تشريع الأحكام في الإسلام، يجد أنها تجري دائما على التوسط والاعتدال، فلا تشديد يؤدي إلى الملل، ولا تخفيف يقود إلى الانحلال. وفي إيضاح هذا يقول الشاطبي: "الشّريعة جارية في التّكليف بمقتضاها على الطّريق الوسط الأعدل، الآخذ من الطّرفين بقسط لا ميل فيه ... فإذا كان التشريع لأجل انحراف المكلّف، أو وجود مظنة انحرافه عن الوسط إلى أحد الطّرفين، كان رادا إلى الوسط الأعدل، لكن على وجه يميل فيه إلى الجانب الآخر ليحصل الاعتدال فيه، فعل الطبيب الرفيق يحمل المريض على ما فيه صلاحه بحسب حاله وعادته، وقوة مرضه وضعفه، حتّى إذا استقلت صحته هيأ طريقا في التدبير وسطا لائقا في جميع أحواله ..."[٢].

ومما يؤكّد سماحة الشريعة وسلوكها في أحكامها مسلكا وسطا أدلة كثيرة، منها على سبيل المثال:

قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ [الحجرات:٧] فعلى قول طائفة من المفسرين أن الكثير من الأمر: هو الكثير من التشريع ومعنى "لعنتم" لحرجتم ولدخلت عليكم المشقة[٣]، هذا مع أن الأصل في التكاليف هو تحمل قدر من المشقة[٤]، فعلم أن المنفي هو الحرج بأمر زائد على المشقة المتوسطة التي جرى عليها التكليف، وتتناسب مع حال المكلفين دون إعنات.

ونجد النبي ﷺ لم يقصد المشقة والإعنات، كقوله ﷺ مثلا: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك»[٥].

والفائدة التي يجنيها الفقيه من ملاحظة هذا التوسط التشريعي الذي سقنا دليلين من أدلته المتعددة أن يجتهد في إلحاق كل حكم بمرتبته ووضعه في مكانه اللائق، من غير حيف؛ بأن تطغى مرتبة أدنى على ما هو أعلى منها، ومن غير بخس؛ بأن تنزل العليا إلى ما دونها، فيسير في فتاويه وأحكامه وهو مستحضر لهذا التوازن.

المطلب الثالث: مناهج الاستنباط بين الإفراط والتفريط:

تحدثت في المبحث السابق عن وسطية الشريعة في أحكامها الفقهية التكليفية، ومع ذلك فإننا نجد أن مناهج الفقهاء في استنباط الأحكام غير المنصوصة يجنح بعضها إلى التعمق والتشديد، وبعضها إلى التساهل والإغراق في الترخص. ففيما يتعلق

---

١ هاني الحديدي، وليد هادي، **القرضاوي في ميزان الحق**.

٢ الشاطبي، **الموافقات**، ج٢، ص١٢٤.

٣ الشاطبي، **الاعتصام**، ج١، ص٢٩٥.

٤ قال الكفوي في **الكليات**، ص٢٩٢: "التكليف: مصدر "كلفت الرجل" إذا ألزمته ما يشق عليه، مأخوذ من الكلف الذي يكون في الوجه، وهو نوع مرض يسود به الوجه؛ وإنما سمي الأمر تكليفا لأنه يؤثر في المأمور تغيير الوجه إلى العبوسة، وهو الانقباض لكراهة المشقة".

٥ أخرجه البخاري في **صحيحه**، رقم٥٧١؛ ومسلم في **صحيحه**، رقم٢٥٢؛ والترمذي في **جامعه**، رقم٢٢، ٢٣، ١٦٧.

بالغلو في استنباط الأحكام، نجد كلام الإمام ابن عاشور، فقال في معرض التفريق بين سد الذريعة والغلو: "... ويجب على المستنبطين والمفتين أن يتجنبوا مواقع الغلو والتعمق في حمل الأمة على الشّريعة وما يسن لها من ذلك وهو موقف عظيم"[١].

وأما تتبع الشاذ من الأقوال: فكما قال ابن مهدي في التحذير منه: "لا يكون إماما في العلم من أخذ بالشاذ من العلم، ولا يكون إماما في العلم من روى عن كل أحد، ولا يكون إماما في العلم من روى كل ما سمع"[٢].

يتلخص مما سبق أن استنباط الأحكام على طرفين ووسط، إفراط وتفريط واعتدال وقد أشار إلى ذلك الشاطبي وعقد له المسألة الثانية عشرة من كتاب الأدلة فقال: "ربما أخذ تفسير القرآن على التوسط والاعتدال وعليه أكثر السلف المتقدمين، بل ذلك شأنهم وبه كانوا أفقه الناس فيه، وأعلم العلماء بمقاصده وبواطنه. وربما أخذ على أحد الطرفين الخارجين عن الاعتدال: إما على الإفراط، وإما على التفريط، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم"[٣].

ثم وضع الشاطبي معلما للمنهج الوسطي في استنباط الأحكام؛ فيقرر أن "العمل بالظواهر على تتبع وتغال بعيد عن مقصود الشارع، وأن إهمالها إسراف أيضا[٤]، فهذه القاعدة كما هو ظاهر منها تلزم المكلف تجنب الجمود على المنقولات دون إمعان النظر في معانيها، كما توجب أيضا عدم تجاوز الألفاظ ومدلولاتها اللغوية المتبادرة؛ بحيث يصل الأمر إلى حد إهمالها، فالمطلوب في "الفهم الوسطي" لمدلولات النصوص بناء على هذا التقرير أمران: الأول: اعتبار المباني، والثاني: اعتبار المعاني، بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر، ولا يؤدي اعتبار أي من الطرفين إلى إهمال الآخر[٥]. فالواجب "اعتبار الأمرين جميعا على وجه لا يخل فيه المعنى بالنص، ولا بالعكس –أي النص بالمعنى– لتجري الشريعة على نظام واحد لا اختلاف فيه ولا تناقض، وهو الذي أمه أكثر العلماء الراسخين"[٦]. وهو ما عبر عنه الإمام ابن القيم– رحمه الله– بقوله: "وأصحاب الرأي والقياس حملوا معاني النصوص فوق ما حملها الشارع، وأصحاب الألفاظ والظواهر قصروا بمعانيها عن مراده"[٧].

المطلب الرابع: تغير الأحكام بتغير الزمان والمكان وعلاقته بالوسطية:

من القواعد الشرعية المرعية قاعدة: "لا ينكر تغير الأحكام بتغير الزّمان"[٨]، وهي قاعدة نفيسة يفزع إليها حملة الشريعة فيما لا يحصى من المسائل والنوازل، وبيان ذلك أن أحكام الشّريعة نوعان كما يقرره الإمام ابن القيم –رحمه الله–: نوع لا يتغير عن حالة واحدة، لا بحسب الأزمنة ولا الأمكنة ولا اجتهاد الأئمة، كوجوب الصلاة والزكاة، والحدود المقدرة بالشّرع على الجرائم، ونحو ذلك، فهذا لا يتطرق إليه تغيير ولا اجتهاد مخالف لما وضع عليه. والنّوع الثاني: ما يتغير بحسب اقتضاء

---

١ ابن عاشور، **مقاصد الشريعة الإسلامية**، ص ١٩٩.

٢ ابن عبد البر، **جامع بيان العلم**، ج٢، ص٥٩.

٣ المصدر السابق، ج٣، ص٣٠٦ .

٤ الشاطبي، **الموافقات**، ج٣، ص٤٢١.

٥ نوار بن الشلي، **نظرية الوسطية وتطبيقاتها في الفقه الإسلامي**، ص٦٤.

٦ الشاطبي، **الموافقات**، ج٢، ص٢٩٨.

٧ ابن قيم الجوزية، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، ج١، ص٢٢٢.

٨ لجنة مكونة من عدة علماء في الخلافة العثمانية، **مجلة الأحكام العدلية**، المادة٣٩؛ والزرقاء، **شرح القواعد الفقهية**، ص٢٢٧.

المصلحة له زمانا ومكانا وحالا، كمقادير التعزيرات وصفاتها، فإن الحكم يتنوع فيها بحسب المصلحة"[1]، وهذا النّوع الثّاني هو محل تطبيق هذه القاعدة وهو الذي عناه سيدنا عمر بن عبد العزيز بقوله: "يحدث للنّاس من الأقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور"[2]. جاء في شرح القواعد الفقهية للشيخ أحمد الزرقا: "لَا يُنكر تغير الْأَحْكَام بِتَغَيُّر الْأَزْمَان، أَي بِتَغَيُّر عرف أَهلهَا وعادتهم، فَإِذا كَانَ عرفهم وعادتهم يستدعيان حكما ثمَّ تغيرا إِلَى عرف وَعَادَة أُخْرَى فَإِن الحكم يتَغَيَّر إِلَى مَا يُوَافق مَا انْتقل إِلَيْهِ عرفهم وعادتهم، وَلذَا لما كَانَ لون السوَاد فِي زمن الإِمَام –ﷺ–، يعد عَيْبا قَالَ بِأَن الْغَاصِب إِذا صبغ الثَّوْب أسود يكون قد عَيبه، ثمَّ بعد ذَلِك لما تغير عرف النَّاس وصاروا يعدونه زِيَادَة قَالَ صَاحِبَاه إِنَّه زِيَادَة"[3].

وهذا يتبين بجلاء كاف ووضوح شاف أن الشريعة ما هي إلا موقف وسط متوازن بين الثوابت والمتغيرات.

المطلب الخامس: مراعاة الخلاف معلم من معالم الوسطية:

عرف الشاطبي مراعاة الخلاف بأنه: "إعطاء كل واحد منهما– أي من الدليلين المتعارضين– ما يقتضيه الآخر أو بعض ما يقتضيه"[4]. والمراد بمراعاة الخلاف هو ما كان له مأخذ قوي "فإن ضعف ونأى عن مأخذ الشّرع كان معدودا من الهفوات والسقطات لا من الخلافيات المجتهدات"[5]. ومراعاة الخلاف معلم من معالم الوسطية لأن مراعاة الخلاف موقف متوازن بين موقفين:

الأول: "إلزام الناس بقول واحد"، ورَفْض أي اجتهادات وأقوال أخرى لمذاهب فقهية معتبرة؛ خاصة في المسائل الاجتهادية القابلة للنظر والخلاف.

الثاني: "تخيير الناس بين الأقوال"، وجَعْلِها في متناولهم ليختاروا منها حسب أهوائهم وشهواتهم، فلا هذا ولا ذا. فالفقيه الذي يراعي الخلاف لا يفتي بمذهب مخالفه بالكلية، بل بوجه منه فقط احتياطا مراعاة لقوة الخلاف، وهذا هو التوسط. ومن الأدلة على ذلك ما جاء في الصحاح والسنن: أن سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة اختصما في ابن وليدة زمعة، سعد يدعي أنه ابن أخيه عتبة؛ وعبد بن زمعة يدعى أنه أخوه لأنه من أمة أبيه، فقضى بينهما رسول الله ﷺ فقال: «هو لك يا عبد بن زمعة، واحتجبي منه يا سودة»، فألحق الولد بصاحب الفراش –زمعة– والد عبد، وأمر سودة بنت زمعة بالاحتجاب منه لما رأى من شبهه بعتبة، رغم أنه على مقتضى حكمه أخوها. فجعل له حكما بين حكمين قال ابن دقيق العيد في التعليق على هذا الحديث: وقد استدل به بعض المالكية على قاعدة من قواعدهم وأصل من أصول المذهب، وهو الحكم بين الحكمين، وذلك أن يأخذ مشابهة من أصول متعددة فيعطي أحكاما مختلفة ولا يمحض لأحد الأصول: وبيانه من الحديث: أن الفراش مقتض إلحاقه بزمعة والشبه البين مقتض إلحاقه بعتبة، فأعطى النسب بمقتضى الفراش وألحق بزمعة، وروعي أمر

---

١ ابن قيم الجوزية، **إغاثة اللهفان**، ج١، ص٣٤٦.

٢ الجيدي، **العرف والعمل ومفهومهما لدى علماء المغرب**، ص١٤٦.

٣ الزرقا، **شرح القواعد الفقهية**، ص٢٢٧.

٤ الشاطبي، **الموافقات**، ج٤، ص١٠٩.

٥ السبكي، **الأشباه والنظائر**، ج١، ص١١٢.

الشبه بأمر سودة بالاحتجاب منه، فأعطى الفرع حكما بين حكمين، ولم يمحض أمر الفراش فتثبت المحرمية بينه وبين سودة ولا روعي أمر الشبه مطلقا فيلحق بعتبة"[١].

وقد شرح الزركشي وجهة النظر هذه القائمة على التوسط ملاحظا في ذلك خلاف علماء الأصول في مسألة "هل كل مجتهد مصيب فقال: يستحب الخروج منه –أي الخلاف– باجتناب ما اختلف في تحريمه وفعل ما اختلف في وجوبه، إن قلنا :كل مجتهد مصيب لجواز أن يكون هو المصيب. وكذا إن قلنا: إن المصيب واحد لأن المجتهد إذا كان يجوز خلاف ما غلب على ظنه ونظر في متمسك مخالفه، فرأى له موقعا، فينبغي أن يراعيه على وجه ..."[٢].

المطلب السادس: العمل بالاستحسان ودوره في تقرير الوسطية:

الاستحسان لغةً: استفعال مأخوذ من الحُسْن وهو نقيض القبح. والاستحسان عَدُّ الشيء حسناً[٣]. أما الاستحسان اصطلاحا: فقد عرفه أبو الحسن الكرخي بقوله: "هو العدول بالمسألة عن حكم نظائرها إلى حكم آخر، لوجه أقوى يقتضي العدول"[٤]. ومن الأدلة عليه قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر:١٨]. وفي علاقة الاستحسان بالوسطية يقول ابن رشد: "الاستحسان الذي يكثر استعماله حتى يكون أغلب من القياس هو أن يكون طرد القياس يؤدي إلى غلو في الحكم فيختص به ذلك الموضع"[٥]. وقال أيضا: "ومعنى الاستحسان في أكثر الأحوال هو الالتفات إلى المصلحة، والعدل الوسط"[٦]. فالعمل بالاستحسان يعني ترك القياس إذا كان مؤديا لنتيجة تخالف العدل والتوسط، أو فيه ضرر على الناس، والأخذ بما يكون أكثر مطابقة لها وملاءمة لحاجات الناس.

يقول د. نوار الشلي: "إن الباعث على هذا الاستثناء –أي الاستحسان– هو الحد من "الغلو" الذي يؤدي إليه الإغراق في القاعدة، فيكون الخروج في خصوص الجزئية المستثناة أقرب إلى الشرع وأولى من مراعاة الاطراد، وأنت خبير أن هذا هو عين التوسط والاعتدال، ولهذا قال ابن رشد: "ومعنى الاستحسان في أكثر الأحوال هو الالتفات إلى المصلحة والعدل". والعارف بطبيعة الفقه الإسلامي وقواعده يدرك صحة هذا الاتجاه حتى قال الفقهاء: "من القواعد عدم اطراد القواعد"[٧]، بل جاء عن مالك: أن المغرق في القياس يكاد يفارق السنة[٨].

---

١ ابن دقيق العيد، **إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام**، ج٤، ص٧٠.

٢ الزركشي، **المنثور في القواعد الفقهية**، ج٢، ص١٢٧-١٢٨.

٣ انظر: مادة "حسن" في ابن منظور، **لسان العرب**؛ ومرتضى الزبيدي، **تاج العروس**.

٤ الآمدي، **الإحكام في أصول الأحكام**، ج٤، ص١٣٧.

٥ نقله الحجوي في **الفكر السامي**، ج٢، ص٩٠.

٦ ابن رشد الحفيد، **بداية المجتهد ونهاية المقتصد**، ج٢، ص١٨٨.

٧ نوار بن الشلي، **نظرية الوسطية وتطبيقاتها في الفقه الإسلامي**، ص٧٥.

٨ الشاطبي، **الاعتصام**، ج٢، ص١٣٨.

ومن أمثلة الاستحسان المحقق للوسطية: مشاركة الإخوة الأشقاء للإخوة لأم في المسألة الحمارية[1]، أو المشتركة. فإن طرد القياس يؤدي إلى غلو في الحكم وهو حرمان الأشقاء كما قضى به سيدنا عمر رضي الله عنه أول مرة، مع أن الأم التي استحق بها الإخوة للأم شاركوهم فيها وكونهم أبناء أبي الميت لا يزيدهم إلا قربا، لذلك ألغي هذا القياس لمعنى يؤثر في الحكم وشاركوهم في الثلث.

المطلب السابع: أثر الوسطية في قاعدة سد الذرائع:

الذرائع لغة جمع ذريعة، وهي الوسيلة، والسبب إلى الشيء، أصلها لغة من الفعل ذرع[2]. وأما تعريف الذرائع اصطلاحاً: فقد عرفها القرطبي –رحمه الله– بقوله: "عبارة عن أمر غير ممنوع في نفسه، يخاف من ارتكابه الوقوع في ممنوع"[3]، ومن الأدلة على العمل بسد الذرائع: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٨]، لمّا كان سب آلهة المشركين الباطلة ذريعة لسب الإله الحق تعالى وتقدس نهى الله عن ذلك. وحتى تتبين علاقة الوسطية بسد الذرائع، لابد أولا من تحرير محل النزاع بين العلماء في العمل بها: فنقول: تنقسم الذرائع من حيث الحكم عليها إلى ثلاثة أقسام:

أ– قسمٌ أجمع العلماء على سده، كبيع العنب لمن يتخذه خمراً، وإلقاء السُّمِّ في أطعمة المسلمين، ونحوهما من الأعمال.

ب– قسم أجمع العلماء على عدم سدّه، وذلك مثل زراعة العنب مطلقاً، فلا تمنع خشية أن يستخدمه بعض الناس لزراعة الخمر.

ج– الثالث هو موطن النزاع، الذي وقع فيه خلاف حقيقي، والخلاف فيه بالتحديد في صورتين:

الأولى: ما هي درجة الإفضاء التي يحكم عندها بمنع الوسيلة، هل هي الدرجة القطعية، أم الظنية ظناً غالباً –وإن لم يكن كثيرا– ، أم الدرجة الكثيرة؟[4] بمعنى هل يُلحق الكثيرُ غيرُ الغالب، بالغالب، فيأخذان حكم القطعي؟

وهنا يظهر بوضوح دور الوسطية في ذلك للوقوف في موقف وسط بين موقفين:

الأول: التفريط في سد الذرائع بحيث تحصل مفاسد كثيرة تضر الناس في دينهم ودنياهم.

الثاني: الإفراط في سدها بحيث تضيع على الناس مصالح كثيرة أيضًا في معاشهم ومعادهم.

---

١ مسألة من مسائل المواريث، سميت بذلك لأن عمر ﷺ أسقط ولد الأبوين، فقال بعضهم: يا أمير المؤمنين! هب أن أبانا كان حمارا أليست أمنا واحدة؟ وصورتها: توفيت وتركت زوجا، وأمّا، وإخوة أشقاء، وإخوة لأم. وتسمى أيضا: بالمسألة المشتركة، لأن عمر ﷺ شرك الإخوة الأشقاء مع الإخوة لأم في الثلث. وتسمى: المسألة اليمية، والعمرية، والحجرية، لما جاء أنهم قالوا لعمر ﷺ: هب أن أبانا حجرا في اليم أليست أمنا واحدة؟. ينظر: عبد الرحمن عبد المنعم، **معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية**، ج١، ص٥٩٤.

٢ الفيروزآبادى، **القاموس المحيط**، مادة "ذرع"؛ والرازي، **مختار الصحاح**.

٣ البرهاني، **سدّ الذرائع في الشريعة الإسلامية**، ص٧٤.

٤ آل منصور، **أصول الفقه وابن تيمية**، ص٥٠٣؛ والشاطبي، **الموافقات**، ج٣، ص٥٤–٥٥؛ **نظرية الوسطية**، ص٧٧؛ ووهبة مصطفى الزحيلي، **الذرائع في السياسة الشرعية والفقه الإسلامي**، مجلة مجمع الفقه الإسلامي، ج٩، ص١٣٠٥، ترقيم الشاملة.

فمن الأمثلة على التفريط: إباحة بيوع العينة[1]، بحجة أن أصل البيع مباح وقصد كل من البائع والمشتري غير معلوم، وليس قطعا أن يكونا قد قصدا إلى التحايل على الربا، مع أن الغالب وقوع ذلك، وهذا هو مذهب الشافعي وأبي حنيفة، مع أن الراجح هو تحريمها لكثرة وغلبة إرادة التحايل على الربا بذلك، ولاسيما مع ورود الأحاديث الصحيحة المانعة من هذه البيوع بغض النظر عن قصد المتبايعين[2]، وهذا هو مذهب مالك وأحمد.

ومن الأمثلة على الإفراط: من يرى منع المرأة من الإدلاء بصوتها في الانتخاب خشية الفتنة والفساد، مع أن تلك الفتنة أمر موهوم وليست ظنا غالبا أو لازما، وبهذا تضيع على دعاة الإسلام أصوات كثيرة، كان يمكن أن تكون في صفهم ضد اللادينيين، ولا سيما أن أولئك يستفيدون من أصوات النساء المتحللات من الدين.

المطلب الثامن: ضوابط الوسطية:

لا ريب أن هناك حاجة ماسة إلى ضبط الوسطية بمعايير واضحة، لا لبس فيها ولا غموض، بحيث لا تتحول الوسطية إلى أداة سهلة لتمييع الأحكام، وتسويغ الشاذ من الأقوال، بحجة محاربة الغلو والتطرف.

وهذا الضبط الذي نركز عليه، لا يتأتى بمجرد جمع النصوص الجزئية من هنا أو هناك، وإنما يحصل برد فروع الأحكام إلى أصولها وجزئياتها إلى كلياتها ومتشابهاتها إلى محكماتها وظنياتها إلى قطعياتها؛ حتى يتألف منها جميعاً نسيج واحد مرتبط بعضه ببعض متصلة لحمته بسداده ومبدؤه بمنتهاه. وقد نص الإمام الشاطبي على ما يعرف به التوسط في عبارة وجيزة دون أن يشرحها فقال: "والتوسط يعرف بالشرع، وقد يعرف بالعوائد، وما يشهد به معظم العقلاء، كما في الإسراف والإقتار في النفقات"[3].

وفيما يأتي بعض هذه الضوابط والمعايير الشرعية المحددة للوسطية الشرعية:

الضابط الأوّل: ألا يخالف الحكم بالتوسط نصا شرعيا أو مقصدا مرعيا: فالوسط أو ما يُظن أنه وسط ليس دائما ممدوحا كما قد يظن، وإنما يمدح إذا لم يخالف المشروع ويصادم المقصود: فمن هذا القبيل: قوله ﷺ: «البركة تنزل في وسط الطعام، فكلوا من حافتيه ولا تأكلوا من وسطه»[4]. فلو كان الوسط محمودا دائما، لما جاءت هذه النصوص بالنهي عنه. هذا

---

١ "العينة في اللّغة: السّلف. يقال: تعيّن فلان من فلان عينة؛ أي تسلّف. قال الخليل: واشتقّت من عين الميزان، وهي زيادته. قال ابن فارس: وهذا الذي ذكره الخليل صحيح، لأنّ العينة لا بدّ أن تجرّ زيادة. وقد فسّر جمهور الفقهاء العينة: بأن يبيع المرء شيئا من غيره بثمن مؤجل، ويسلمه إلى المشتري، ثم يشتريه بائعه قبل قبض الثمن بنقد حالّ أقلّ من ذلك القدر" ينظر: **معجم المصطلحات المالية والاقتصادية في لغة الفقهاء**، ص٣٣٨.

٢ أورد ابن القيم منها أربعة أحاديث، وقال: "فهذه أربعة أحاديث تبين أن رسول الله حرم العينة حديث ابن عمر الذي فيه تغليظ العينة، وحديث أنس وابن عباس أنها مما حرم الله ورسوله، وحديث عائشة هذا والمرسل منها له ما يوافقه وقد عمل به بعض الصحابة والسلف وهذا حجة باتفاق الفقهاء". ينظر: العظيم آبادي، **عون المعبود وحاشية ابن القيم عليها**، ج٩، ص٢٤٧. منها: حديث أَبِي إِسْحَاقَ السُّبَيْعِيِّ، عَنِ امْرَأَتِهِ، أَنَّهَا دَخَلَتْ عَلَى عَائِشَةَ فِي نِسْوَةٍ فَسَأَلَتْهَا امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ، كَانَتْ لِي جَارِيَةٌ، فَبِعْتُهَا مِنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ بِثَمَانِ مِائَةٍ إِلَى أَجَلٍ، ثُمَّ اشْتَرَيْتُهَا مِنْهُ بِسِتِّ مِائَةٍ، فَنَقَدْتُهُ السِّتَّمِائَةِ، وَكَتَبْتُ عَلَيْهِ ثَمَانِ مِائَةٍ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: "بِئْسَ وَاللَّهِ مَا اشْتَرَيْتِ، وَبِئْسَ وَاللَّهِ مَا اشْتَرَيْ، أَخْبِرِي زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ: أَنَّهُ قَدْ أَبْطَلَ جِهَادَهُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا أَنْ يَتُوبَ"، فَقَالَتِ الْمَرْأَةُ لِعَائِشَةَ: أَرَأَيْتِ إِنْ أَخَذْتُ رَأْسَ مَالِي وَرَدَدْتُ عَلَيْهِ الْفَضْلَ؟ قَالَتْ: "﴿مَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَى﴾ الْآيَةُ، أَوْ قَالَتْ: ﴿إِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ الْآيَةُ". رواه عبد الرزاق الصنعاني في **المصنف**، ج٨، ص١٨٥.

٣ الشاطبي، **الموافقات**، ج٢، ص١٢٨.

٤ أخرجه التّرمذي، رقم١٨٠٥.

فيما يتعلق بمخالفة النصوص، أما ما يتعلق بضرورة عدم مخالفة الحكم للمقاصد قول شيخ الإسلام ابن تيمية في حكم الطهارة والنجاسة من باب المياه "... ومذهب أهل الحديث في هذا الأصل العظيم الجامع وسط بين مذهب العراقيين والحجازيين ... فإن التشديد في النجاسات جنسا وقدرا هو دين اليهود، والتساهل هو دين النصارى، ودين الإسلام هو الوسط، فكل قول يكون فيه شيء من هذا الباب يكون أقرب إلى دين الإسلام"[1]. فشيخ الإسلام هنا يرجح مذهب أهل الحديث في المياه، بناء على أنه المناسب والملائم لمقاصد الشرع في باب الطهارة والنجاسة، وهي عدم التشديد وعدم التساهل، ويضعف مذهب العراقيين الذي أغرق في التسهيل والحجازيين الذي أغرق في التشديد.

الضابط الثاني: ألا يخالف الحكم المحكوم عليه بالتوسط العقل الصريح: وهذا يجعل للعقل دورا فاعلا في إدراك المتوسط من الأحكام، وهذا لا يصادم القواعد الشرعية – فمثلا من شغله مال مثلا وداهمه التفكير في أثناء الصلاة، قال بعض العلماء: يتصدق به أو يهبه. قال الشاطبي: إن هذا لا يصلح أن يكون أصلا شرعيا؛ لأنه مناقض للشرع والعقل معا؛ فمناقضته للشرع تأتي من الحرج الذي فيه؛ إذ الشرع مبني على رفع الحرج، وأي حرج أعظم من خروج المرء عن كل ما يملك لسبب يمكن تلافيه بوجه آخر أيسر، كأن يصرف الإنسان نفسه عن الاشتغال بغير العبادة حال قيامه بها. وأما مناقضته للعقل: فهي أنه لو وجب أن يخرج المرء عن كل ما يشغله أثناء العبادة؛ فإنه ما يلبث الناس أن يخرجوا عن أولادهم وأزواجهم وأمتعتهم وعن كل ما يملكون في هذه الدنيا، فتداهمهم الهموم من جوع ومرض وفاقة، وتشغلهم بدورها عن العبادات، بل تعجزهم عن القيام بها[2].

الضابط الثالث: مراعاة التيسير الشرعي: فإذا كان هناك قولان معتبران أو عدة أقوال معتبرة في المسألة، وهي متكافئة من حيث القوة، والاتفاق مع مقاصد الشريعة، وعدم المعارضة للنصوص، فعلينا أن نختار الأيسر على الناس، لأن مبنى الشريعة بصورة عامة على التيسير، إذ علم "من متكرّر أدلة القرآن تكرارًا ينفي احتمال قصد المجاز و المبالغة، أنه قاصد إلى التيسير"[3].

وقد دلت على ذلك الأدلة من الكتاب والسنة وعمل السلف الصالح. يقول تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٦].

وفي ختام آية الصيام من سورة البقرة، وما ذكر فيها من الترخيص للمريض والمسافر بالإفطار، يقول سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]. ومثل قوله صلى الله عليه وسلم مثلا: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك»[4]. وروى أبو هريرة رضي الله عنهعن النبي ﷺ قال: «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسدوا وقاربوا

---

١ ابن تيمية، **القواعد النورانية الفقهية**، ج١، ص١٣.

٢ الشاطبي، **الموافقات**، ج١، ص٧٢؛ والعبيدي، **مقاصد الشريعة**، ص١٧٢؛ و**نظرية الوسطية وتطبيقاتها في الفقه الإسلامي**، ص١٥٠.

٣ ابن عاشور، **مقاصد الشريعة**، ص٤٢.

٤ أخرجه البخاري في **صحيحه**، رقم٣٦؛ ومسلم في **صحيحه**، رقم٢١٩؛ والترمذي في **جامعه**، رقم٢٢.

وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»[1]. وروى ابن القيسراني في كتاب "السماع" بسنده عن عمر بن إسحاق من التابعين قال: "كان من أدركت من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أكثر من مائتين، لم أر قومًا أهدى سيرة، ولا أقل تشديدًا منهم"[2]. وهكذا كان علماء السلف: إذ شددوا فعلى أنفسهم، أما على الناس فييسرون ويخففون. فهذا كله يدل على أن التيسير بوجه عام مطلوب، إلا إذا تعارضت مصلحة التيسير مع مفسدة هي أعظم منه، كأن تكون فيه مخالفة للنصوص، أو يكون ذريعة تجر غالبا إلى ما لا يحل أو ما لا تحمد عقباه، أو يفوّت على المكلف ما هو أنفع وأحسن عاقبة له .. وهكذا، فيكون الأخذ به في هذه الحالة تساهلا وليس تيسيرا.

فمن هذا: ما نلمحه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النّساء:٩٧]. فلم يتساهل الشرع مع هؤلاء، ولم يرخص لهؤلاء بالقعود في أرض يذل فيها الإسلام وأهله؛ لأن ذلك مناف للعزة التي ينبغي للمسلم أن يسعى للاصطباغ بها. وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ [التّوبة:٨١]، فقد يسبق إلى الوهم أن شدّة الحر قد تسبب التخفيف إن وقعت، والحقيقة ليست بذاك، لأنّ التخفيف هنا يتنافى مع مقصد من مقاصد الشارع، وهو سيادة الإسلام، ولن تكون له سيادة مع الركون إلى الدعة والتخفيف والتيسير المطلق من كل القيود.

الضابط الرابع: الموازنة بين النص والمعنى: وهذا ما يشير إليه الغزالي بصدد حديثه عن أهل الظاهر وأهل الباطن فيقول: "... حاشا لله، فإن إبطال الظواهر رأي الباطنية الذين نظروا بالعين العوراء إلى أحد العالمين. ولم يعرفوا الموازنة بين العالمين ولم يفهموا وجهه، كما أن إبطال السرائر مذهب الحشوية، فالذي يجرد الظّاهر حشوي، والذي يجرد الباطن باطني، والذي يجمع بينهما كامل"[3].

الضابط الخامس: الموازنة بين العقل والنقل: فالوسطية تقتضي الموائمة بين النقل والعقل، بأن يعطى كل منهما حظه وحقه من غير ميل إلى أحد الجانبين، أو إهمال أحدهما. فحق النص الاتباع والتسليم، وحق العقل التأمل والفهم طبقا للقواعد الشرعية التي قعّدها العلماء.

فمن الأمثلة على الغلو في جانب النقل، وإطراح العقل: مسلك الظاهرية، الذين جمدوا على الظواهر، وأبوا استعمال العقول في الاستنباط. وقد نُقل عن داود أنه كان يقول: "بُلْ على العقول"!! "وموجود في كتبه: أن حجة العقول لا يثبت بها شيء".

---

١ أخرجه البخاري في **صحيحه**، رقم٣٩. والغدوة: المرة من الغدو وهو سير أول النهار؛ نقيض الرواح. ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ج٣، ص٣٤٦، باب الغين مع الدال. والدلجة: هو سير الليل، يقال: أدلج بالتخفيف إذا سار من أول الليل، وادّلج إذا سار من آخره والاسم منهما الدلجة. **النهاية**، ج٢، ص١٢٩، باب الدال مع اللام.

٢ القيسراني، **السماع**، ص٩٠.

٣ الغزالي، **مشكاة الأنوار**، ص٧٣.

وما أحسن ما رد به الإمام أبو بكر الرازي على مسلك داود وأصحابه بقوله: "والقائلون بنفي حجج العقول إنما ينفونها بالقول، فأما استعمال العقول في إثبات كثير من الأشياء أو في نفيها والحجاج لها من جهة العقل فإنهم لا يخلون منه، لأن ذلك صورته في عقول سائر العقلاء"[١]. و قد حدد لنا الشاطبي – رحمه الله– ضابطا مهما فيما يتعلق بمسألتنا هذه، وذلك حينما قرر أن كل معنى لا يستقيم مع الأصول الشرعية والقواعد العقلية لا يعتمد عليه[٢]، فجعل قواعد العقل ومبادئه حكما في تأسيس المعاني الكلية للشريعة.

الضابط السادس: الجمع بين النصوص: فلابد من جمع النصوص، بحيث يرد متشابهها إلى محكمها، ويحمل مطلقها على مقيدها، ويفسر عامها بخاصها وبذلك يتضح المعنى المراد منها ولا يضرب بعضها ببعض[٣].

وقد بيّن ذلك الشاطبي حيث يقول: "بحيث لا يصده التبحر في الاستبصار بطرف عن التبحر في الاستبصار بالطرف الآخر، فلا هو يجري على عموم واحد منهما دون أن يعرضه على الآخر، ثم يلتفت مع ذلك إلى تنزل ما تلخص له على ما يليق في أفعال المكلفين"[٤].

الضابط السابع: فهم النصوص في ضوء أسباب ورودها: وسواء في ذلك نصوص القرآن والسنة، فإنه، فإذا كانت أسباب نزول القرآن مطلوبة لمن يفهمه أو يفسره، كانت أسباب ورود الحديث أشد طلباً[٥]، لأن للقرآن من الفصاحة والبيان ما ليس لغيره، ولو كان الحديث، ولهذا وقع التحدي والإعجاز به دون الحديث الشريف. ومن الأمثلة على الوسطية في فهم النصوص في ضوء أسباب الورود: مسألة ثبوت هلال رمضان، فمن المعلوم أن ثبوت ذلك يكون إما بالرؤية وإما بإتمام عدّة شعبان ثلاثين يوماً، كما في الحديث المتفق عليه[٦]، وإما بالحساب الفلكي.

وهذا الحساب الفلكي عورض بما في الصحيحين: «إنا أمّة أميّة، لا نكتب ولا نحسب»، قال الإمام النووي: ومن قال بحساب المنازل فقوله مردود بقوله صلى الله عليه وسلم ثم ذكر ... الحديث السابق، ثم قال ولأن الناس لو كلفوا بذلك ضاق عليهم لأنه لا يعرف الحساب إلا أفراداً من الناس في البلدان الكبار[٧]. مع أن هذا الحديث الذي احتج به الإمام النووي – رحمه الله– لا حجة فيه لأنه يتحدث عن حال الأمة، ووصفها عند بعثته لها –عليه الصلاة والسلام–، لكن أميتها ليست أمراً لازماً ولا مطلوباً ... فلا مانع أن يأتي طور على الأمة تكون فيه كاتبة حاسبة[٨]. و الأمة كلها بل العالم كله أصبح اليوم كأنه

---

١ الرازي، **الفصول في الأصول**، ج٣، ص٣٦٩.

٢ الشاطبي، **الموافقات**، ج١، ص٧٠-٧٥.

٣ القرضاوي، **كيف نتعامل مع السنة**، ص١٠٣.

٤ الشاطبي، **الموافقات**، ج٤، ص١٦٨.

٥ القرضاوي، **كيف نتعامل مع السنة**، ص٧٣.

٦ أخرجه البخاري في **صحيحه**، رقم١٩٠٩؛ ومسلم في **صحيحه**، رقم١٠٨٠.

٧ النووي، **المجموع شرح المهذب**، ج٦، ص٢٧.

٨ القرضاوي، **فقه الصيام**، ص٣٠.

بلد واحد ونقل الخبر من المشرق إلى المغرب والعكس لاستغرق ثواني معدودة، ونادى –حفظه الله – بأن يؤخذ بالحساب الفلكي القطبي –على الأقل– في النفي لا في الإثبات[1].

المبحث الثاني

دور الوسطية في الترجيح الفقهي

المطلب الأول: في مفهوم الترجيح

من المعلوم أن أدلة الكتاب والسنة لا تعارض فيما بينها في حقيقة الأمر، ولكن التعارض يكون في ظاهرهما، يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيرا﴾ [النساء:٨٢]. وعليه فإذا وجد الفقيه دليلين أو أكثر متعارضة، فإن أمكنه الجمع جمع بينهما، ولا داعي إلى الترجيح، لأن من شروط الترجيح التي لا بد من اعتبارها ألا يمكن الجمع بين الدليلين بوجه مقبول، فإن أمكن تعين المصير إليه[2]، وإن لم يمكن فلابد من الترجيح.

الترجيح لغة: الترجيح مصدر من رَجّح الشَّيء يرجّح ترجِيحاً، يقال: رَجَحَ الشّيء بيده: وَزَنَه، ونَظَرَ مَا يُثقله، والرَّاجح: الوَازن، وأَرْجَح الميزان أي: أَثْقله حتى مَال، ورَجَحَ في مَجْلسه يَرجُح: إذا ثَقُلَ فَلم يَخفَّ .[3] الترجيح اصطلاحاً: "الترجيح عبارة عن فضل أحد المثلين على الآخر وصفاً"[4].

المطلب الثاني: أركان الترجيح

الركن الأول: "المُرجّح"[5] وهو الذي يقوم بفعل الترجيح بين الأدلة سواء كان الترجيح بين الأدلة النقلية، أو بين الأدلة العقلية، أو بين أدلة نقلية وعقلية، وهذا الفعل كما ذكر العلماء – رحمهم الله– أنه فعل المجتهد وهو: الفقيه المستفرغ لوسعه لتحصيل ظن بحكم شرعي[6].

الركن الثاني: "محلّ الترجيح": محل الترجيح هو الأدلة الظنية، قال الشاطبي: "إن محال الاجتهاد المعتبر هي ما ترددت بين طرفين وضح في كل واحد منهما قصد الشّارع في الإثبات في أحدهما والنفي في الآخر، فلم تنصرف البتة إلى طرف النّفي ولا إلى طرف الإثبات"[7].

---

١ المرجع السابق.

٢ قال الشوكاني: "ومن شروط الترجيح التي لا بد من اعتبارها أن لا يمكن الجمع بين المتعارضين بوجه مقبول، فإن أمكن ذلك تعين المصير إليه، ولم يجز المصير إلى الترجيح. قال في "المحصول": العمل بكل منهما من وجه أولى من العمل بالراجح من كل وجه، وترك الآخر. انتهى. وبه قال الفقهاء جميعا ...". هكذا ذكر عليه الاتفاق، وفيه نظر يتضح مما سيأتي قريبا. الشوكاني، **إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول**، ج٢، ص٢٦٤.

٣ ابن منظور، **لسان العرب**، ج٢، ص٤٤٥؛ والفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، ج١، ص٢٢١؛ والفيومي، **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، ج١، ص٢١٩ .

٤ عبد العزيز البخاري، **كشف الأسرار**، ج٤، ص٧٧.

٥ البرزنجي، **التعارض والترجيح**، ج٢، ص١٢٤ .

٦ ابن النجار، **شرح الكوكب المنير**، ج٤، ص٤٥٨؛ والشوكاني، **إرشاد الفحول**، ص٨١٩؛ والسبكي، **الإبهاج شرح المنهاج**، ج٧، ص٢٨٦٣ .

٧ الشاطبي، **الموافقات**، ج٤، ص١١٢.

الركن الثالث: المرجَّح به: وهو الدليل الذي فيه مزية، وفضل على الدليل المعارِض الآخر، أو الدليل الخارجي كقياس يوافق أحد الخبرين، وسمى بعضهم ذلك "مرجّحاً" مجازاً، وإلا فالمرجِّح الحقيقي هو المجتهد كما سبق بيانه.

المطلب الثالث: شروط الترجيح

أولا: شروط المُرجِّح[1]:

ذكر أن يكون الفقيه الذي ينظر في المسائل والأدلة عدة الشروط، وهي مذكورة في جل كتب الأصول، فلا حاجة إلى إعادة ذكرها هنا، إذ ذلك يؤدي إلى تطويل البحث وتكثير ذيوله في غير طائل.

ثانيا: في شروط محل الترجيح[2]:

الشرط الأول: عدم كون الأدلة المستدل بها قطعية الثبوت والدلالة: وذلك لأن الترجيح يعتمد على غلبة الظن في الدليل المرجح، وما قطع به لا يتصور كونه أو كون مخالفه يغلب فيه الظن بحكمه لأن اليقين إنما يتحقق عند عدم وجود احتمال صحيح لمخالفه.

الشرط الثاني: التساوي في القوة: فلا تعارض بين المتواتر والآحاد بل يقدم المتواتر بالاتفاق.

الشرط الثالث: عدم إمكان الجمع بين المتعارضين حقيقة أو تقديراً: وذهب إلى هذا الشرط جمهور الأصوليين، فإذا أمكن الجمع بين المتعارضين بوجه صحيح يعتبر الترجيح غير مقبول لأنه كما يقول الشوكاني إن أمكن ذلك تعين المصير إليه[3]، لأن إعمال كلا الدليلين أولى من إهمال أحدهما، وخالف الحنفية في ذلك فقالوا بجواز الترجيح ولو أمكن الجمع بصورة صحيحة، وسبب الخلاف بينهم هو الاختلاف في تقديم الجمع على الترجيح، أو الترجيح على الجمع، فبناء على الأصح الذي ذهب إليه الجمهور من تقديم الجمع على الترجيح يشترط عدم صحة الجمع بينهما[4].

الشرط الرابع: أن لا يُعلم تأخر أحدهما: أي: يشترط أن لا يكون أحد الدليلين ناسخاً للآخر، فإذا عُلمَ تأخر أحدهما فلا يصح الترجيح بينهما إذ كما يقول الأصوليون: يتعين العمل بالمتأخر، والمصير إليه.

الشرط الخامس: أن لا يكون الترجيح في الأدلة العقلية التي تثبت العقائد: قال الإمام الجويني -رحمه الله-: أطلق الأئمة القول بأن المعقولات لا مجرى للترجيحات فيها وهذا سديد لا ينكر[5].

ثالثا: شرط المُرجَّح به: أن يكون ذلك المرجح به قوياً بحيث يجعل تفضيل الدليل الذي يوجد فيه ذلك مقطوعاً به، فإذا وصلت قوة الدليل الراجح إلى درجة يقطع بكونه أزيد من الدليل المرجوح يجوز الترجيح به. وهناك من ذهب إلى أن الفرعيات

---

١ الغزالي، **المستصفى**، ج٢، ص٣٨٢؛ والآمدي، **الإحكام في أصول الأحكام**، ج٢، ص١٩٨؛ والسبكي، **الإبهاج في شرح المنهاج**، ج٧، ص٢٨٩٧؛ والزركشي، **البحر المحيط**، ج٦، ص١٩٩؛ وابن النجار، **شرح الكوكب المنير**، ج٤، ص٤٥٩ .

٢ الزركشي، **البحر المحيط**، ج٦، ص١٠٩ .

٣ الشوكاني، **إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول**، ج١، ص٤٦٠ .

٤ المنياوي، **المعتصر من شرح مختصر الأصول من علم الأصول**، ص٢٢٥.

٥ الجويني، **البرهان**، ج٢، ص٧٤٢ .

وما يتعلق بالأحكام التكليفية يُكتفى فيها بالأدلة الظنية بدليل وجوب العمل بخبر الواحد والقياس ولأن عدم العمل بالظن يؤدي إلى هجر كثير من النصوص فإن أكثرها غير قطعي. ولهذا فإنه لا يشترط القطع في المرجح به، وهذا هو الصحيح.

المطلب الرابع: أدلة الترجيح بالوسطية من القرآن

من شواهد الترجيح بتوسط القول، ما تقتضيه آيات كثيرة واردة في النهي عن الغلو في الدين وأخرى في التحذير من التفريط فيه، فمما ورد في النهي عن الغلو: قوله تعالى: ﴿يا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء:١٧١]، وقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧] والخطاب في الآيتين وإن تعلق بأهل الكتاب ابتداء إلا أن المراد منه "موعظة هذه الأمة لتجتنب الأسباب التي أوجبت غضب الله على الأمم السابقة وسقوطها"[١]. وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ [الرحمن:٧-٨]. ودلالة "الميزان" و"الوزن" في هذا السياق من حيث صلتها بالوسطية غير خافية؛ إذ أن استواء الكفتين وتعادلهما هو الذي يحقق النصفة، وتقضى به المصالح من غير حيف أو بخس. وقد أكد ذلك ابن القيم –رحمه الله– بقوله: "قد بين سبحانه بما شرعه من الطرق أن مقصوده إقامة العدل بين عباده وقيام الناس بالقسط فأي طريق استخرج بها العدل والقسط فهي من الدين وليست مخالفة له"[٢].

المطلب الخامس: أدلة الترجيح بالوسطية من السنة

أ- روى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسدوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»[٣].

فقد جمع هذا الحديث من شواهد الوسطية وجوها كثيرة[٤]، لعل أكثرها دلالة قوله عليه السلام: «فسددوا وقاربوا» والمعنى كما ذكر ذلك ابن أبي جمرة –رحمه الله–: "احتمل أن يكون هذان اللفظان لمعنى واحد، واحتمل أن يكونا لمعنيين، فإن كانا لمعنى واحد: فيكون المراد بهما الآخذ بالحال الوسط لأن السداد والتقريب هو ما قارب الأعلى ولم يكن بالدون فهو متوسط بينهما، وإن كان لمعنيين: فيكون المراد بسددوا، الآخذ بالحال الوسط –على ما تقدم– والحال الوسط: هو ما نص النبي ﷺ في حديث عبد الله بن عمرو حين قال له النبي ﷺ: «وصم وأفطر، وقم ونم، وإن لنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا»، –ثم عمم له بعد ذلك فقال: «وأعط كل ذي حق حقه»[٥]، فهذا هو السداد: وهو أن يمشي المرء في الأمور كلها على ما فرض وندب؛ من غير تفان ولا تقصير من جهة من الجهات، ويكون المراد بقاربوا: أي من لم يبلغ منكم إلى حد السداد

---

١ ابن عاشور، **مقاصد الشريعة**، ص٦٠.

٢ ابن قيم الجوزية، **الطرق الحكمية في السياسة الشرعية**، ص١٦.

٣ أخرجه البخاري في **صحيحه**، رقم٣٩. والغدوة: هو سير أول النهار؛ نقيض الرواح. ابن الأثير، **النهاية**، ج٣، ص٣٤٦. والدلجة: هو سير الليل، يقال أدلج بالتخفيف إذا سار من أول الليل، وادّلج إذا سار من آخره والاسم منهما الدلجة. ابن الأثير، **النهاية**، ج٢، ص١٢٩.

٤ كوصف الدين باليسر المناسب للتوسط كما سيأتي، وإخباره أن عاقبة التشدد الانقطاع، وأمره بالاستعانة على السير بأطراف النهار وأجزاء الليل ... إلخ.

٥ أخرجه الترمذي في **سننه**، رقم٢٤١٣.

-الذي هو ما ذكرنا- ويعجز عن ذلك لعذر به فليقارب منه؛ لأن ما قرب من الشيء أعطي حكمه"[1]. وهكذا ترى أنه سواء حملنا اللفظ على التأسيس أم التأكيد فإن معنى التوسط يظل حاضرا وهو المطلوب.

ب- وقال ﷺ فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه أيضا: «لن ينجي أحد منكم عمله». قالوا: "ولا أنت يا رسول الله"؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته سدووا وقاربوا واغدوا وروحوا وشيء من الدلجة والقصد القصد تبلغوا»[2] .

ففي هذا الحديث زيادة على ما تقدم، الإغراء بملازمة القصد؛ قال ابن حجر في معنى قوله: "القصد القصد تبلغوا" أي "الزموا الطريق الوسط المعتدل"[3].

المطلب السادس: أقوال العلماء في الترجيح بالتوسط بين الأقوال

من أبرز من نبه إلى أهمية الترجيح بالتوسط واعتباره معيارا للمقبول والمردود من الأقوال والآراء الإمام الشاطبي -رحمه الله- ولكن لا يعني ذلك أن العلماء أغفلوا ذلك ولم ينبهوا عليه، بل يوجد في ثنايا كلامهم عدد من الإشارات والتوجيهات لذلك: فهذا الإمام الشّاطبي يقرر: "إذا ثبت أن الحمل على التوسط هو الموافق لقصد الشّارع، وهو الذي كان عليه السلف الصالح، فلينظر المقلد أي مذهب كان أجرى على هذا الطريق فهو أخلق بالاتباع وأولى بالاعتبار، وإن كانت المذاهب كلها طرقا إلى الله، ولكن الترجيح فيها لا بد منه، لأنه أبعد من اتباع الهوى -كما تقدم-، وأقرب إلى تحري قصد الشارع في مسائل الاجتهاد، فقد قالوا في مذهب داود لما وقف مع الظاهر مطلقا: إنّه بدعة حدثت بعد المائتين، وقالوا في مذهب أصحاب الرأي: لا يكاد المغرق في القياس إلا يفارق السنّة، فإن كان ثم رأي بين هذين فهو الأولى بالاتباع"[4]. ويقول أيضا: "إن المفتي البالغ ذروة الدرجة هو الذي يحمل النّاس على المعهود الوسط فيما يليق بالجمهور، فلا يذهب بهم مذهب الشدة، ولا يميل بهم إلى طرف الانحلال، والدليل على صحة هذا أنّه الصراط المستقيم الذي جاءت به الشّريعة - فإنّه قد مر- أن مقصد الشارع من المكلف الحمل على التوسط من غير إفراط ولا تفريط، فإذا خرج عن ذلك في المستفتين خرج عن مقصد الشارع، ولذلك كان ما خرج عن المذهب الوسط مذموما عند العلماء الراسخين"[5].

ومثل هذا المنهج في الترجيح اتبعه ابن عابدين: وهو يناقش بعض علماء عصره في فتوى صدرت منه حول الرد بالغبن الفاحش وبعد أن أورد النقول فيها والخلاف في المذهب بين الروايات، مال إلى الجمع والتوفيق بينها، ثم علل ذلك بأنّه جار على الوسط"[6].

---

١ ابن أبي جمرة الأندلسي، **بهجة النفوس وتحليها بمعرفة مالها وما عليها**، ج١، ص٧١.

٢ أخرجه البخاري في **صحيحه**، رقم٦٤٦٣.

٣ ابن حجر، **فتح الباري**، ج١١، ص٣٥٩.

٤ الشاطبي، **الموافقات**، ج٤، ص١٩١.

٥ المرجع السابق، ج٤، ص١٨٨-١٨٩.

٦ وخلاصة المسألة: أن للحنفية في ثبوت الرد بالغبن الفاحش روايات ثلاث: الأولى: المنع من ذلك وهو ظاهر الرواية، والثانية: الجواز رفقا بالنّاس، والثالثة: يثبت الرد إن وقع تغرير من البائع للمشتري أو بالعكس، وإلا فلا. يقول ابن عابدين في توجيه هذا القول الثالث: "... وهذا التوفيق ظاهر ووجهه ظاهر إذ الرد مطلقا ليس أرفق بالنّاس بل خلاف الأرفق لأنّه يؤدي إلى كثرة المخاصمة والمنازعة في كثير من البيوع, إذ لم تزل أصحاب التجارة يربحون في بيوعهم الربح الوافر ويجوز بيع القليل

ويقول الشيخ ابن عثيمين: "فأنت ترى دائماً القولَ الوسطَ هو الذي يكون صحيحاً، ووجه ذلك واضحٌ؛ لأنَّ القولَ الوسطَ يأخذ مِن أدلَّة هؤلاء، وأدلَّة هؤلاء، والقولُ الطَّرَفُ يأخذ بأحدِ الأدلَّةِ ويدعُ الأدلَّةَ الأخرى"[1].

وعندما أوصي الخليفة العباسي الإمام مالكا –رحمه الله– أن يضع للناس كتابا ويوطئه لهم قال له: "اترك تشديد ابن عمر ورخص ابن عباس، وألف بعد ذلك ما شئت، فقال مالك: فخرجت من عنده فقيها"[2]. فانظر –رحمك الله– إلى قوله: "فخرجت من عنده فقيها" كيف جعل الفقه خاصا بالتوسط بين التشديد والرخص.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية بشأن الانحراف عن الوسط: "الانحراف عن الوسط كثير في أكثر الأمور في أغلب الناس مثل تقابلهم في بعض الأفعال يتخذها بعضهم دينا واجبا أو مستحبا أو مأمورا به في الجملة وبعضهم يعتقدها حراما مكروها أو محرما أو منهيا عنه في الجملة، مثال ذلك: سماع الغناء فإن طائفة من المتصوفة ..تتخذه دينا وإن لم تقل بألسنتها أو تعتقد بقلوبها أنه قربة فإن دينهم حال لا اعتقاد، فحالهم وعملهم استحسانها في قلوبهم ومحبتهم لها ديانة وتقربا إلى الله، وإن كان بعضهم يعتقد ذلك ويقوله بلسانه ... وبإزائهم من ينكر جميع أنواع الغناء ويحرمه ولا يفصل بين غناء الصغير والنساء في الأفراح وغناء غيرهم وغنائهن في غير الأفراح، ويغلو من يغلو في فاعليه حتى يجعلهم كلهم فساقا أو كفارا ..."[3].

المبحث الثالث

النماذج التطبيقية

المطلب الأول: نقض الوضوء بمس المرأة

اختلف الفقهاء في مس المرأة هل هو ناقض للوضوء أم لا؟ فذهب الإمام أبو حنيفة –رحمه الله– إلى أنّه غير ناقض – سواء كان بشهوة أو بغير شهوة–، وذهب الإمام الشّافعي –رحمه الله– إلى أنّه ناقض للوضوء بشهوة أم بغير شهوة، وبين هذين الرأيين المتقابلين رأى الإمامين مالك وأحمد –رحمهما الله– أن المس إن كان بشهوة انتقض الوضوء، وإن كان بغير شهوة لم ينتقض[4].

قال الإمام الشوكاني في نيل الأوطار: "وأوسط مذهب يجمع بين هذه الأحاديث مذهب من لا يرى اللمس ينقض إلا لشهوة"[5]. وذلك لأن النقض بمس المرأة مطلقا يشتمل على حرج بالغ، إذ لا يخلو الرجل من لمس زوجته، وكذلك مس النساء

بالكثير وعكسه، والقول بعدم الرد مطلقا خلاف الأرفق أيضا، وأمّا القول بالتفصيل فهو القول الوسط القاطع للشغب والشطط، وخير الأمور أوساطها لا تفريطها ولا إفراطها؛ لأن من اشترى القليل بالكثير مع خداع البائع والتغرير يكون بدعوى الرد معذورا، وبائعه آثما ومأزورا. ابن عابدين، **مجموعة الرسائل**، ج٢، ص٨٠.

١ العثيمين، **الشرح الممتع على زاد المستقنع**، ج٤، ص٢٩٤.

٢ ابن أبي جمرة الأندلسي، **بهجة النفوس**، ج١، ص٨٢.

٣ ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، ج٣، ص٣٥٩.

٤ الكاساني، **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع**، ج١، ص٧١؛ وابن رشد، **بداية المجتهد**، ج١، ص٤١؛ والخطيب الشربيني، **مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج**، ج١، ص٢١؛ وابن قدامة، **المغني**، ج١، ص٢٣؛ والنووي، **المجموع**، ج١، ص١١٢.

٥ الشوكاني، **نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار**، ج١، ص٢٤٨.

عن غير قصد كما في أماكن الطواف والسعي والأسواق المزدحمة وعند المعاملة بالبيع والشراء. وهذا الحرج لا يتفق مع وسطية الشريعة وسماحتها ومراعاتها حالة المكلف وما تعمّ به البلوى. كذلك عدم النقض بمس المرأة مطلقا ولو مع شهوة أيضا فيه تساهل، لأن الآية صريحة في تعليق النقض بالمس، ولاسيما على قراءة ﴿لمستم﴾[1]، وليس معناه "أو جامعتم" لأنه خلاف الظاهر، إذ اللمس لا يختص بالجماع. قال تعالى: ﴿فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾، وَقَالَ ﷺ لماعز عندما جاءه يقول له أنه زنى بالغامدية: «لَعَلَّكَ لَمَسْتَ»[2].

وإنما لم يعتبر مطلق المس للجمع بين الآية والأحاديث الواردة في هذا الباب، كحديث عائشة رضي الله عنها قالت: "كنت أنام بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجلاي في قبلته فإذا سجد غمزني فقبضت رجلي فإذا قام بسطتهما"[3]. فهذا يدل على عدم النقض بمجرد الالتقاء. ومس المرأة بشهوة كثيرا ما يؤدي إلى خروج المذي عادة إلا أنه يحتمل أن يجف بحرارة البدن فلا ينتبه له، ولاسيما مع غلبة الشبق، فلما كان الأمر كذلك أنيط الحكم بمظنة الحدث لا بمئنته، كما في "النوم"[4]. والله أعلم.

المطلب الثاني: سقوط الحد بالتوبة

اتفق العلماء على أن حد الحرابة يسقط عن المحاربين إذا تابوا قبل القدرة عليهم[5]. لقول اللهسبحانه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣٤]. واختلفوا في غيرهم من أصحاب الحدود إذا تابوا قبل التمكن منهم، هل تسقط التوبة عنهم الحد أم لا؟ على ثلاثة أقوال:

الأول: ذهب الشافعية إلى سقوط حد السرقة بالتوبة، أما غيرها كالزنا وشرب الخمر، فلا تسقط في أظهر القولين، ولهم قول آخر بسقوط الزنا وشرب الخمر بالتوبة[6]. وهذا القول أحد الروايتين عن أحمد، قال ابن قدامة: "وإن تاب من عليه حد من غير المحاربين وأصلح ففيه روايتان:

إحداهما يسقط عنه لقول الله- تعالى-: ﴿واللذان يأتيانها منكم فآذوهما، فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهما﴾. وذكر حد السارق ثم قال: ﴿فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله غفور رحيم﴾. وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «التائب من الذنب كمن لاذنب له»، ومن لا ذنب له لاحد عليه، وقال في ماعز لما أخبر بهربه: «هلا تركتموه يتوب فيتوب الله عليه»؟، ولانه خالص حق الله تعالى فيسقط بالتوبة كحد المحارب.

ثانيتهما لا يسقط، وهو قول مالك وأبي حنيفة وأحد قولي الشافعي لقوله سبحانه ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾[1].

---

١ وهي قراءة حمزة والكسائي. انظر: ابن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، ج٢، ص٥٨.

٢ أخرجه البخاري في **صحيحه**، رقم٣٨٢٤؛ وأبو داود في **سننه**، رقم٤٤٢٧؛ والنسائي في **سننه**، رقم٧١٦٩.

٣ أخرجه البخاري في **صحيحه**، رقم٣٨٢؛ ومسلم في **صحيحه**، رقم٢٧٢.

٤ ابن الهمام، **فتح القدير**، ج١، ص٣٢؛ وابن قدامة، **المغني**، ج١، ص١٧٣؛ وأبو إسحاق الشيرازي، **المهذب**، ج١، ص٣٠.

٥ ابن قدامة، **المغني**، ج٨، ص٢٨١-٢٩٦.

٦ قليوبي وعميرة، **حاشيتا قليوبي وعميرة على شرح المحلى، ومنهاج الطالبين**، ج٤، ص٢٠١.

الثاني: وذهب الحنفية والمالكية والشافعية في القول الآخر وهو أظهر القولين عندهم: إلى عدم سقوطها بالتوبة[٢]، لقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة:٣٨- ٣٩]، من غير أن يفرق بين تائب وغيره، ولأن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله! إني سرقت جملا لبني فلان، فطهرني، فأرسل إليهم النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا: إنا افتقدنا جملا لنا، فأمر به النبي صلى الله عليه وسلم فقطعت يده[٣]. واستدلوا أيضا بما في الصحيحين عن أنس بن مالك، قال: كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل فقال: يا رسول الله! إني أصبت حدا فأقمه علي، قال: ولم يسأله عنه. قال: وحضرت الصلاة فصلى مع النبي صلى الله عليه وسلم، فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم الصلاة قام إليه رجل، فقال: يا رسول الله! إني أصبت حدا فأقم في كتاب الله، قال: «أليس قد صليت معنا»؟ قال: نعم. قال: «فإن الله قد غفر لك ذنبك أو قال حدك»[٤].

الثالث: أن سقوط الحد بالتوبة خاص بأناس معينين، وهم من أسقط عنهم النبي صلى الله عليه وسلم الحد لتوبتهم، حكى هذا القول ابن القيم في إعلام الموقعين[٥]. وقد رجح القول الأول ابن تيمية وابن القيم[٦] والقرطبي وجماعة[٧]. وهذا هو القول الوسط بين هذه الأقوال الثلاثة، لأنه لا فرق بين الحرابة وغيرها من الحدود، بل هي أعظم جرما، فإذا سقط حدها بالتوبة قبل التمكن، فسقوط غيرها قبل التمكن أيضا من باب أولى، أما إقامته صلى الله عليه وسلم الحد على من أقامه عليه صلى الله عليه وسلم رغم توبتهم، فهذا لأنهم أرادوا التطهر بالحد، وأبيا إلا أن يطهرا بالحد، فأجابهما النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك، وعلى هذا حمل حديث ماعز بن مالك لما قال: «هلا تركتموه يتوب فيتوب الله عليه»[٨]. أما تخصيص أناس معينين بسقوط الحد عنهم بالتوبة، فلا وجه له؛ لأن التخصيص لا يثبت إلا بدليل.

كان هذان نموذجين على كيفية تطبيق الوسطية في الترجيح الفقهي، ولاريب أن البحث لا يزال بحاجة إلى مزيد من الشواهد والنماذج التطبيقية، لكن اقتصرنا على ما تقدم التزاما بالمعايير التي حددتها اللجنة المنظمة للمؤتمر، وقد استوعبنا الموضوع في بحث موسع، لم ينشر بعد، كان هذا البحث المختصر من بواكيره، والله الموفق وهو حسبنا ونعم الوكيل.

أهم نتائج البحث:

١- تقرير أن الوسطية هي نظرية عامة يقوم عليها مجمل البناء التشريعي في الكتاب والسنة ومن ثم تصلح كقاعدة من قواعد

---

١ ابن قدامة، **المغني**، ج٨، ص٢٨١-٢٩٦؛ والبهوتي، **كشاف القناع**، ج٦، ص١٤٤-١٤٥.

٢ ابن الهمام، **فتح القدير على الهداية**، ج٤، ص٤٢٩؛ والحطاب، **مواهب الجليل في شرح مختصر خليل**، ج٨، ص١٠٣.

٣ أخرجه ابن ماجه في **سننه**، رقم٢٥٨٨. وضعف إسناده البوصيري في **مصباح الزجاجة**، ج٢، ص٧٥.

٤ أخرجه البخاري في **صحيحه**، رقم٦٨٢٣؛ ومسلم في **صحيحه**، رقم٢٧٦٤.

٥ ابن القيم، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، ج٣، ص١٧.

٦ المرجع السابق، ج٣، ص١٥.

٧ السيد سابق، **فقه السنة**، ج٢، ص٤٨٢.

٨ ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، ج٢٨، ص٣٠١. والحديث أخرجه أحمد في **مسنده**، رقم٢١٨٩٠.

الترجيح الفقهي.

٢- تقديم عدد من المحددات الشرعية لضبط معنى الوسطية لتصلح كقاعدة لترجيح الفقهي.

٣- تقديم نماذج عملية .على كيفية إعمال الوسطية كقاعدة من قواعد الترجيح بين الأقوال الفقهية.

المصادر والمراجع:

١. ابن أبي جمرة الأندلسي، **بهجة النفوس وتحليها بمعرفة مالها وما عليها**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٣هـ).

٢. ابن أبي شيبة، **المصنف**.

٣. ابن الأثير، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد، **النهاية في غريب الحديث**.

٤. ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، **القواعد النورانية الفقهية**.

٥. ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم، **مجموع الفتاوى**.

٦. ابن حبان، **الصحيح**.

٧. ابن دقيق العيد، أبو الفتح، **إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام**.

٨. ابن رشد الحفيد، محمد بن أحمد، **بداية المجتهد ونهاية المقتصد**، تحقيق: عبد الله العبادي، (القاهرة: دار السلام، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م).

٩. ابن عابدين **مجموعة الرسائل**.

١٠. ابن عاشور، محمد الطاهر، **التحرير والتنوير**.

١١. ابن عاشور، محمد الطاهر، **مقاصد الشريعة الإسلامية**.

١٢. ابن عبد البر، **جامع بيان العلم**.

١٣. ابن عطية، **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**.

١٤. ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس، **معجم مقاييس اللغة**.

١٥. ابن قدامة، **المغني**.

١٦. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**.

١٧. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، **إغاثة اللهفان**.

١٨. ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، **الطرق الحكمية في السياسة الشرعية**.

١٩. ابن ماجه، **السنن**.

٢٠. ابن منظور، **لسان العرب**.

٢١. ابن النجار محمد بن أحمد، الفتوحي الحنبلي، **شرح الكوكب المنير**.

٢٢. ابن الهمام، كمال الدين محمد بن عبد الواحد السيواسي، **فتح القدير**، (بيروت: دار الفكر، د.ط، د.ت).

٢٣. أبو إسحاق الشيرازي، إبراهيم بن علي، **المهذب في فقه الإمام الشافعي**، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ت).

٢٤. أبو داود السجستاني، **السنن**.

٢٥. أبو يعلى، **المسند**.

٢٦. أحمد، **المسند**.

٢٧. آل منصور، صالح بن عبد العزيز، **أصول الفقه وابن تيمية**، (دار النصر للطباعة الإسلامية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

٢٨. الآمدي، علي بن محمد، **الإحكام في أصول الأحكام**.

٢٩. البخاري، عبد العزيز بن أحمد بن محمد، **كشف الأسرار**.

٣٠. البخاري، **الصحيح**.

٣١. البرزنجي، عبد اللطيف عبد الله، **التعارض والترجيح**.

٣٢. البرهاني، محمد هشام، **سدّ الذرائع في الشريعة الإسلامية**، (د.ط، ١٩٩٥م).

٣٣. البهوتي، **كشاف القناع**.

٣٤. البوصيري، **مصباح الزجاجة**

٣٥. الترمذي، **الجامع**.

٣٦. الجصاص، أبو بكر أحمد بن علي الرازي، **الفصول في الأصول**.

٣٧. الجويني، **البرهان**، .

٣٨. الجيدي، د. عمر، **العرف والعمل ومفهومهما لدى علماء المغرب**، (المغرب: مطبعة فضالة المحمدية، د.ت).

٣٩. الحجوي، **الفكر السامي**.

٤٠. الحديدي، هاني، **القرضاوي في ميزان الحق**.

٤١. الحطاب الرعيني المالكي، محمد بن محمد الطرابلسي المغربي، **مواهب الجليل في شرح مختصر خليل**.

٤٢. حماد، نزيه، **معجم المصطلحات المالية والاقتصادية في لغة الفقهاء**.

٤٣. الخطيب الشربيني، **مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج**، تحقيق: محمد خليل عيتاني، (بيروت: دار المعرفة، ط١، ١٣١٨هـ/١٩٩٧م).

٤٤. الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي، **مختار الصحاح**، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، (بيروت: المكتبة العصرية، ط٥، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

٤٥. الزحيلي، وهبة مصطفى، **الذرائع في السياسة الشرعية والفقه الإسلامي**، (مجلة مجمع الفقه الإسلامي، ٩/ ١٣٠٥).

٤٦. الزرقاء، أحمد، **شرح القواعد الفقهية**.

٤٧. الزركشي، **البحر المحيط**،.

٤٨. الزركشي، بدر الدين، **المنثور في القواعد الفقهية**.

٤٩. السبكي، تقي الدين أبو الحسن، علي بن الكافي، **الإبهاج شرح المنهاج**.

٥٠. السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين، **الأشباه والنظائر**.

٥١. السيد سابق، **فقه السنة**، (الفتح للإعلام العربي، د.ط، د.ت).

٥٢. الشاطبي، أبو إسحاق الغرناطي، **الاعتصام**.

٥٣. الشاطبي، **الموافقات**.

٥٤. شهدة بنت أحمد بن الفرج الدينوري، **العمدة من الفوائد والآثار الصحاح في مشيخة شهدة**.

٥٥. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله، **إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول**، تحقيق: الشيخ أحمد عزو عناية، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

٥٦. الشوكاني، محمد علي، **نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار**.

٥٧. الصياح، د. علي بن عبد الله، **هذه هي الوسطية، مجلة البيان**، العدد ٢٠٢.

٥٨. الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير، **جامع البيان في تأويل القرآن**.

٥٩. عبد بن حميد، **المسند**.

٦٠. عبد المنعم، د. عبد الرحمن، **معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية**، (القاهرة: دار الفضيلة، د.ت).

٦١. العبيدي، د. حمادي، **مقاصد الشريعة**، (دار قتيبة، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

٦٢. العثيمين، محمد بن صالح بن محمد، **الشرح الممتع على زاد المستقنع**، (دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢٢/١٤٢٨هـ).

٦٣. عطية، د. جمال الدين، **النظرية العامة للشريعة**.

٦٤. العظيم آبادي، **عون المعبود** وحاشية ابن القيم عليها.

٦٥. الغزالي، **المستصفى**.

٦٦. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، **مشكاة الأنوار**.

٦٧. الفرفور، د. محمد عبد اللطيف، **الوسطية في الإسلام**.

٦٨. الفيروزآبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف محمد نعيم العرقسوسي، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط٨، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).

٦٩. الفيومي، **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**.

٧٠. القرضاوي، د. يوسف، **الخصائص العامة للإسلام**.

٧١. القرضاوي، يوسف، **فقه الصيام**.

٧٢. القرضاوي، **كيف نتعامل مع السنة**، (الرياض: مكتبة المؤيد، ط٣، ١٩٩١م).

٧٣. قليوبي وعميرة، **حاشيتا قليوبي وعميرة على شرح المحلى ومنهاج الطالبين**، (مصطفى البابي، ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م).

٧٤. القيسراني، أبو الفضل محمد بن الطاهر بن علي بن المقدسي الشيباني، **السماع**.

٧٥. الكاساني، علاء الدين، أبو بكر بن مسعود الحنفي، **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع**، تحقيق: علي محمد معوض وعادل عبد الموجود، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

٧٦. الكفوي، **الكليات**.

٧٧. لجنة مكونة من عدة علماء وفقهاء في الخلافة العثمانية، **مجلة الأحكام العدلية**.

٧٨. محمد قطب، **منهج التربية الإسلامية**.

٧٩. مرتضى الزَّبيدي، أبو الفيض محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، **تاج العروس من جواهر القاموس**.

٨٠. المنياوي، أبو المنذر، محمود بن محمد، **المعتصر من شرح مختصر الأصول من علم الأصول**.
٨١. النسائي، **السنن**.
٨٢. نوار بن الشلي، **نظرية الوسطية وتطبيقاتها في الفقه الإسلامي**.
٨٣. النووي، أبو زكريا محي الدين بن شرف، **المجموع شرح المهذب**.

الوسطية في دعوة المسلم الجديد والتعامل معه

د. سليمان بن عبد الله الحبس[1]

ملخص البحث:

لاشك أن الوسطية والاعتدال مطلوبة في كل شأن من شؤون الحياة دقيقها وجليلها، فكما أنها مطلوبة في العقائد والعبادات، هي أيضاً مطلوبة في المعاملات والآداب والأخلاق مع المسلمين ومع غير المسلمين. وهذا البحث يسعى إلى بيان وإيضاح الوسطية في دعوة المسلم الجديد والتعامل معه من خلال ما ورد في كتاب الله عز وجل، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وسيرة السلف الصالح من الصحابة، رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان، وبخاصة أن في عصرنا الحاضر دخلت بحمد الله تعالى أعداد كبيرة من الناس في دين الله أفواجاً من مختلف الأماكن والجنسيات.

المقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وخاتم المرسلين نبينا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأتم التسليم ثم أما بعد!

فإن الدعوة إلى الله تعالى من أفضل الأعمال والطاعات، وأجل القربات، وأولى وآكد الواجبات، بعث الله من أجلها صفوة خلقه من الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام فقاموا بها خير قيام، وتبعهم في ذلك، وسار على نهجهم الخيرة من عباد الله.

وفي عصرنا الحاضر دخلت بحمد الله تعالى أعداد كبيرة من الناس في دين الله أفواجاً من مختلف أقطار العالم ولعلّ هذا مصداقاً لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «ليبلغنّ هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلاّ أدخله الله هذا الدين بعز عزيز، أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام وأهله وذلاً يذل الله به الكفر»[2].

ولاشك أن هؤلاء المسلمين الجدد أصبحوا من أهم مكونات المجتمع المسلم لهم حقوق وعليهم واجبات. وإن الوسطية والاعتدال مطلوبة في كل شأن من شؤون الحياة دقيقها وجليلها، فكما أنها مطلوبة في العقائد والعبادات، هي أيضاً مطلوبة في المعاملات والآداب والأخلاق مع المسلمين ومع غير المسلمين.

وهذا البحث يسعى إلى بيان وإيضاح الوسطية في دعوة المسلم الجديد والتعامل معه من خلال ما ورد في كتاب الله عز وجل، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وسيرة السلف الصالح من الصحابة، رضي الله عنهم والتابعين لهم بإحسان، وبخاصة أن في عصرنا الحاضر دخلت بحمد الله تعالى أعداد كبيرة من الناس في دين الله أفواجاً من مختلف الأماكن والجنسيات.

---

[1] الأستاذ المشارك بقسم الدعوة بالمعهد العالي للدعوة والاحتساب بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

[2] أخرجه أحمد في **مسنده**، ج٤، ص١٠٣. وصححه الألباني في **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، ج١، ص٧.

أسباب اختيار البحث:

رغب الباحث في الحديث عن هذا الموضوع لعدد من الأسباب من أهمها ما يلي:

١) كثرة عدد الداخلين في الإسلام في العصر الحاضر، وشدة حاجتهم إلى تعامل المسلمين معهم بوسطية واعتدال.

٢) ضعف عناية بعض الدعاة إلى الله تعالى بتعليم المسلم الجديد حقوقه وواجباته في الإسلام بوسطية واعتدال.

٣) عدم وجود مؤلف –حسب علمي– مستقل يجمع أطراف هذا الموضوع ويعالجها معالجة علمية خاصة.

أهداف البحث:

يسعى هذا البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف العلمية، من أهمها ما يلي:

١) التعرف على كيفية تحقيق الوسطية في دعوة المسلم الجديد وتعليمه.

٢) بيان مسؤولية الداعية لتعليم المسلم الجديد حقوقه وواجباته.

٣) إيضاح أهمية عناية الداعية بالوسطية أثناء تعليم المسلم الجديد حقوقه وواجباته في الإسلام.

المبحث الأول

الوسطية في دعوة المسلم الجديد وتعليمه

المسلم الجديد له حقوق على الداعية إلى الله بشكل خاص وعلى المجتمع المسلم بشكل عام وينبغي على الجميع مراعاة العمل بمنهج الوسطية في تعليمه ودعوته إلى الله تعالى.

وفي هذا المبحث سأتحدث بعون الله تعالى عن ضرورة العناية بالوسطية تجاه المسلم الجديد من خلال الأمرين التاليين:

١) الوسطية في تعليم المسلم الجديد أمور دينه.

٢) الوسطية في الحرص على ثبات المسلم الجديد على الإسلام.

١) الوسطية في تعليم المسلم الجديد أمور دينه:

من أهم حقوق المسلم الجديد على الداعية إلى الله تعالى أن يعلمه أمور دينه وبخاصة الأمور التي لا يسع المسلم الجهل بها كأركان الإسلام الخمسة، وأركان الإيمان الستة، لكن يجب على الداعية أن يراعي منهج الوسطية في تعليم المسلم الجديد أمور دينه، فيعلمه ما يحتاج إليه من أمور دينه، آخذا بالاعتبار قدرته على فهم واستيعاب ما يتعلمه، ويؤخر الأمور التي ربما لا يدركها المسلم الجديد ولا يحسن الحديث معه حولها، فضلا عن أن يعلمه إياها.

وقد كان الرسول ﷺ هو أول معلم لهذه الأمة، حيث قال عز وجل ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولا مِّنۡهُم يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الجمعة:٢].

وكان ﷺ في العهد المكي يتخذ من دار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه مقراً لتعليم من أسلم من الصحابة رضوان الله عليهم أمور دينهم[١].

[١] ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج٣، ص٣٠؛ ورزق الله، **السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية**، ص١٩٥.

وإذا قبل الإسلام قوم وآمنوا به كان النبي ﷺ يرسل إليهم من يعلمهم أمور دينهم[1].

ولما أسلم عمير بن وهب رضي الله عنه قال النبي ﷺ لأصحابه: «قهوا أخاكم في دينه وعلموه القرآن»[2].

وروى الإمام مسلم عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه أنه قال: كان الرجل إذا أسلم علمه النبي ﷺ الصلاة، ثم أمره أن يدعو بهؤلاء الكلمات «اللهم اغفر لي، وارحمني، واهدني، وارزقني»[3].

وقال أبو رفاعة تميم بن أسيد رضي الله عنه: «وانتهيت إلى النبي ﷺ وهو يخطب، فقلت يا رسول الله: رجل غريب جاء يسأل عن دينه لا يدري ما دينه، قال: فأقبل علي رسول الله ﷺ وترك خطبته حتى انتهى إليّ، فأتي بكرسي حسبت قوائمه حديداً قال: فقعد عليه رسول الله ﷺ وجعل يعلمني مما علمه الله، ثم أتى خطبته فأتم آخرها»[4]. فعلى الداعية إلى الله تعالى أن يعلم أخاه المسلم الجديد أمور دينه،معتنيا بالوسطية والاعتدال فيما يعلم وفيما يؤخره أو يتركه.

٢) الوسطية في الحرص على ثبات المسلم الجديد على الإسلام:

إذا أكرم الله المرء وشرح صدره للإسلام فمن حق المسلم الجديد على الداعية أن يفعل ما بوسعه ليثبت على الإسلام، وبخاصة أن الإسلام لم يتمكن من قلبه، فربما أي تصرف يتصرفه معه الداعية لايستوعبه المسلم الجديد فيكون سبباً في نكوصه عن الإسلام، ولهذا لما أسلم أهل مكة عام الفتح حرص النبي ﷺ على تثبيتهم على الإسلام بأن ترك إعادة بناء الكعبة على قواعد إبراهيم عليه السلام.

وقال لعائشة رضي الله عنها: «يا عائشة! لولا أن قومك حديث عهد بجاهلية، لأمرت بالبيت فهُدم، فأدخلتُ فيه ما أُخرج منه، وألزقته بالأرض، وجعلت له بابين: باباً شرقياً وباباً غربياً فبلغت به أساس إبراهيم»[5].

فربما أنكرت نفوسهم خراب الكعبة، فيوسوس لهم الشيطان بذلك ما يقتضي إدخال الداخلة عليهم في دينهم[6].

أيضاً من وسائل ثبات المسلم الجديد التي ينبغي للداعية العناية، بها متابعته بعد إسلامه بما يسهم في تقوية إيمانه وتمكين الإسلام في قلبه وعدم تركه بمجرد نطقه للشهادتين، ودخوله في الإسلام، كما ينبغي للداعية أن يحرص على أن تكون لدى المسلم الجديد حصانة ذاتيه ضد ما يثار من دعاوى وشبه باطلة على الإسلام والمسلمين، إضافة إلى ما قد يلمسه المسلم الجديد من تناقض ظاهر بين أخلاق بعض المسلمين وتعاملاتهم وبين تعاليم الإسلام السمحة التي قرأها أو سمع عنها أثناء دعوته للإسلام[7].

---

[1] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٧، ص٢٥٩، رقم٣٩٢٥؛ ابن حجر، **فتح الباري**، ج٧، ص٣٨٠.

[2] الهيثمي، **مجمع الزوائد**، ج٨، ص٢٨٥، وقال: "إسناده جيد"؛ وابن كثير، **البداية والنهاية**، ج٣، ص٣١٤.

[3] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ص١١٧٢، رقم٢٦٩٧.

[4] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ص٣٥١، رقم٨٧٦.

[5] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ص٢٥٧، رقم١٥٨٦.

[6] المنجد، **المفيد في التعامل مع المسلم الجديد**، ص٣٨.

[7] السلطان، **رعاية المهتدي الجديد** ، ص٢-٣؛ وسارة، **العوامل المؤثرة في ثبات المسلم الجديد**، ص٩٥.

فالوسطية في الحرص على ثبات المسلم الجديد على الإسلام مطلوبة وينبغي للداعية إلى الله تعالى أن يسعى إلى تحقيقها من غير إفراط ولا تفريط.

ومن الوسطية والاعتدال في الحرص على ثبات المسلم الجديد على الإسلام أنه إذا رغب المسلم الجديد في الإسهام بنشر وإبلاغ ما تعلمه وعرفه عن الإسلام أن يأذن له الداعية إلى الله تعالى، بالدعوة إلى الله سواء بين المسلمين أو بين غير المسلمين، لأنه أصبح مسلماً له ما للمسلمين وعليه ما عليهم.

ومما يدل على هذا الحق للمسلم الجديد أن عمير بن وهب حينما كان مشركاً قدم إلى النبي ﷺ في المدينة ليقتله انتقاماً لقتلى قريش في غزوة بدر فلما أبلغه النبي ﷺ بما يضمره في نفسه من رغبة في قتل النبي ﷺ أسلم وشهد شهادة الحق ثم قال للنبي ﷺ: يا رسول الله! قد كنت جاهداً ما استطعت على إطفاء نور الله، فالحمد لله الذي ساقني هذا المساق فلتأذن لي، فألحق بقريش فأدعوهم إلى الإسلام لعل الله يهديهم ويستنقذهم من الهلكة، فأذن له رسول الله ولحق بمكة ودعاهم إلى الإسلام، ونصح لهم، فأسلم بشر كثير"[1].

فالمسلم الجديد عاش حياة الجاهلية ومافيها من ظلمة وحيرة، ثم أكرمه الله بالإسلام فأدرك ما فيه من نور وسعادة، وهذا مما يدفعه إلى دعوة غيره للدخول في الإسلام، كي ينعم بمثل ما نعم به، ويكون سبباً لإنقاذه من النار بإذن الله تعالى.

وللإذن للمسلم الجديد بالدعوة فوائد متعددة كبيرة، منها أن يفوز المسلم الجديد بما ورد من فضائل وأجور للدعاة إلى الله تعالى، إضافة إلى أن قيامه بالدعوة من أهم الوسائل العلمية لثبات المسلم الجديد على الإسلام[2].

المبحث الثاني

الوسطية في التعامل مع المسلم الجديد

إذا أكرم الله المرء ودخل في الإسلام، وأصبح مسلما جديدا، لابد من الوسطية في التعامل معه بحيث يتم الإحسان إليه في معاملته وكل ما من شأنه أن يرغبه في الإسلام، وفي الوقت نفسه يوجه ذلك المسلم الجديد ليكون قدوة حسنة لغيره من الذين لم يمن الله عليهم بالإسلام فربما يقودهم ذلك إلى التأثر به ودخولهم في دين الله عز وجل.

وفي هذا المبحث سأتحدث بعون الله تعالى عن الوسطية في التعامل مع المسلم الجديد من خلال الأمور التالية:

١) الوسطية في حسن معاملة المسلم الجديد.

٢) الوسطية في تأليف قلب المسلم الجديد.

٣) الوسطية في توجيه المسلم الجديد لصلة أرحامه وحسن التعامل معهم.

١) الوسطية في حسن معاملة المسلم الجديد:

[1] ابن حجر، **الإصابة في تمييز الصحابة**، ص٧٢٦.

[2] سارة، **العوامل المؤثرة في ثبات المسلم الجديد**، ص٥٣.

بعد أن قال الله تبارك وتعالى ﴿وَمَن أَحسَنُ قَولا مِّمَّن دَعَا إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلمسلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣] أمر سبحانه وتعالى بالمعاملة الحسنة، وحث عليها فقال سبحانه ﴿وَلَا تَستَوِي ٱلحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدفَع بِٱلَّتِي هِيَ أَحسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَينَكَ وَبَينَهُ عَدَٰوَة كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيم﴾ [فصلت:٣٤].

وكان النبي ﷺ أحسن الناس معاملة وأفضلهم أخلاقاً.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: "كنت أمشي مع النبي وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجذبه جذبة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق النبي ﷺ قد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته، ثم قال يا محمد، مُر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء"[١].

فإذا كان الداعية مطالب بأن يحسن معاملته مع الناس كلهم فإن المسلم الجديد من باب أولى. ولهذا نجد النبي ﷺ لما فتح مكة حرص على أن يحسن معاملة أبي سفيان بن حرب وكان حديث العهد بالإسلام فقال عليه الصلاة والسلام معلناً لأهل مكة «من دخل دار أبي سفيان فهو آمن»، قال الإمام النووي في شرحه لهذا الحديث: "وفيه تأليف لأبي سفيان وإظهار لشرفه"[٢].

ومن حسن معاملة المسلم الفرح بإسلامه، والثناء عليه، والدعوة إلى إكرامه. يقول جرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه، «لما بُعث النبي ﷺ أتيته فقال: يا جرير لأي شيء جئت؟ قال: جئت لأسلم على يديك يا رسول الله. قال فألقى إليّ كساه ثم أقبل على أصحابه فقال: إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه»[٣].

وقال حويطب بن عبدالعزى: «لما دخل رسول الله ﷺ مكة عام الفتح جئت إليه وسلمت عليه، فقال: وعليك السلام حويطب. فقلت أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: الحمدلله الذي هداك. قال حويطب: وسُرّ رسول الله ﷺ بإسلامي»[٤].

فمن خلال ما سبق يظهر لنا أهمية الوسطية والاعتدال في حسن معاملة المسلم الجديد، وأن ذلك من ضروريات التعامل معه.

٢) الوسطية في تأليف قلب المسلم الجديد:

من حقوق المسلم الجديد على الداعية إلى الله تعالى أن يهتم الداعية بالوسطية في ذلك فيتألف قلبه بما يستطيع من مال أو هدية عينية، أو نحو ذلك مما يدخل السرور في قلبه، فيحب الإسلام و تعاليمه وأهله.

وقد كان الرجل في عهد النبي ﷺ يسلم فيعطيه النبي ﷺ العطاء يتألفه على الإسلام فيعود إلى قومه قائلاً "يا قوم أسلمو فوالله إن محمدً ليعطي عطاء من لا يخاف الفقر"[١].

---

[١] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٦، ص٢٥١، رقم٣١٤٩؛ ومسلم في **صحيحه**، ج٢، ص٧٣٠، رقم١٠٥٧.

[٢] النووي، **المنهاج شرح صحيح مسلم**، ج١٢، ص١٢٧.

[٣] أخرجه ابن ماجه في **سننه**، ص٣٩٨، رقم٣٧١٢، وقال عنه الألباني: حديث حسن.

[٤] أخرجه الحاكم في **المستدرك**، رقم٦٠٨٤.

وقد أعطى النبي ﷺ صفوان بن أمية ثلاثمائة من الإبل[٢] وأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينة بن حصن مثل ذلك، و أعطى أناساً من أشراف العرب مثل ذلك[٣].

ولما سئل النبي ﷺ عن سبب تلك العطايا قال ﷺ: «فإني أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم»[٤].

وكان النبي ﷺ يتألف من بإيمانهم ضعف خوفاً عليهم من أن يكبهم في النار فقد قال عليه الصلاة والسلام: «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه، خشية أن يُكب في النار على وجهه»[٥].

ولاشك أن تأليف قلب المسلم الجديد بأي نوع من أنواع التأليف يجعله يشعر بأهميته في المجتمع المسلم، ويسهم في حفظ مكانته، وبخاصة إذا كانت له مكانة اجتماعية بين قومه قبل إسلامه.

٣) الوسطية في توجيه المسلم الجديد لصلة أرحامه وحسن التعامل معهم:

من واجبات المسلم الجديد التي ينبغي للداعية أن يعتني بها ويوضحها للمسلم الجديد، فيما يحقق الوسطية في هذا الأمر أن يوجهه لصل أرحامه وأقاربه وإن لم يكونوا مسلمين، و أن يحسن إليهم بأي نوع من أنواع الإحسان المشروعة في الإسلام. فقد قال عز وجل: ﴿لَّا يَنهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ﴾ [الممتحنة:٨]. قال الشيخ السعدي رحمه الله: "لا ينهاكم الله عن البر والصلة والمكافأة بالمعروف، والقسط للمشركين من أقاربكم وغيرهم، حيث كانوا بحال لم ينتصبوا لقتالكم في الدين والإخراج من دياركم فليس عليكم جناح أن تصلوهم، فإن صلتهم في هذه الحالة، لا محذور فيه ولا مفسدة، كما قال الله تعالى عن الأبوين المشركين إذا كان ولدهما مسلماً: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَا وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ [لقمان:١٥]"[٦].

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: "قدمت عليّ أمي في عهد رسول الله ﷺ، فاستفتيت رسول الله ﷺ، قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: «نعم صلي أمك»"[٧].

فمن الوسطية في التعامل مع المسلم الجديد التأكيد عليه بصلة أرحامه بالزيارة، وعيادة مريضهم، وتهنئتهم بأمورهم الدنيوية ولا شك أن قيام المسلم الجديد بذلك كله يعطي أرحامه و أقاربه غير المسلمين انطباعاً جيداً عن الإسلام وأهله مما يعزز حبهم للإسلام والدخول فيه.

---

[١] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ص١٠٢٢، رقم٢٣١٢.

[٢] المرجع السابق، رقم٢٣١٣.

[٣] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ص٥٢٤، رقم٣١٥٠.

[٤] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ج٣، ص١٠٢، رقم٤٣٣١.

[٥] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ص٧٥، رقم١٥٠.

[٦] السعدي، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، ص٨٥٧.

[٧] أخرجه البخاري في **صحيحه**، ص٤٢٤، رقم٢٦٢٠.

المبحث الثالث

الوسطية في تكليف المسلم الجديد وإلزامه بالواجبات

كما أن للمسلم الجديد حقوق عليه أيضاً واجبات يجب العناية بها، ولكونه ربما يجهل هذه الواجبات لحداثته في الإسلام فإن على الداعية إلى الله تعالى مسؤولية تعريفه بتلك الواجبات مراعيا منهج الوسطية في إلزامه بتلك الأوامر والواجبات.

وفي هذا المبحث سأتحدث بعون الله تعالى عن مسؤولية الداعية تجاه تعريف المسلم الجديد بواجباته من حيث تعلم أحكام الإسلام والحذر من ارتكاب أي ناقض من نواقض الإسلام من خلال الأمرين التاليين:

١) الوسطية في أمر المسلم الجديد لتعلم أحكام الإسلام والخضوع لتعاليمه.

٢) الوسطية في تحذير المسلم الجديد بعدم ارتكاب أي ناقض من نواقض الإسلام.

١) الوسطية في أمر المسلم الجديد لتعلم أحكام الإسلام والخضوع لتعاليمه:

يجب على المسلم الجديد أن يلتزم بأحكام الإسلام وآدابه فيجب عليه فعل الفرائض التي فرضها الله تعالى، كما يجب عليه أن يمتنع عن فعل المحرمات وارتكاب المنكرات، فلا يعتدي على الآخرين في أنفسهم بالقتل أو الإيذاء، ولا على أعراضهم بارتكاب الزنا أو اللواط، ولا على أموالهم بالسرقة والرشوة وأكل الربا، ولا يعتدي على عقله بتناول المسكرات والمخدرات، إلى غير ذلك مما حرمته الشريعة الإسلامية[١]. وهذه الشريعه الكامله الشاملة الخالدة إلتزام المسلم بأحكامها لازم لابد منه، ولا خيار للمسلم فيه، وحاجة المسلم إلى السير طبقاً لتعاليم الشريعة الإسلامية فوق كل حاجة وضرورته فوق كل ضرورة ؛ ليفوز بما يرضي الله عز وجل وينجو من سخطه وأليم عقابه يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤمِن وَلَا مُؤمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلخِيَرَةُ مِن أَمرِهِم وَمَن يَعصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَد ضَلَّ ضَلَٰلا مُّبِينا﴾ [الأحزاب:٣٦]"[٢].

وكي يتمكن المسلم الجديد من القيام بأداء تلك الواجبات والانتهاء عن تلك المحظورات والمحرمات ؛ تظهر هنا مسؤولية الداعية وحاجته إلى الالتزام بالوسطية في إبلاغ المسلم الجديد بكل ذلك، والتأكيد عليه بضرورة الالتزام بها في كل زمان ومكان.

ومما لاشك فيه أن المسلم الجديد إذا دخل في الإسلام ونطق بالشهادتين يجب عليه عدم الاكتفاء بذلك ؛ بل لابد من تعلمه لأصول دينه المتمثلة بأركان الإسلام الستة وهي الإيمان بالله، وبالملائكة، وبالكتب، وبالرسل، وباليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره[٣].

قال تعالى: ﴿وَمَن يَكفُر بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱليَومِ ٱلأٓخِرِ فَقَد ضَلَّ ضَلَٰلا بَعِيدًا﴾ [النساء:١٣٦].

وقال النبي ﷺ: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»[١].

---

[١] دار الإفتاء بالكويت، **الملخص المفيد في أحكام المسلم الجديد**، ص٢٩١.

[٢] البدر، **لزوم التزام المسلم بأحكام الشريعة**، ص٦.

[٣] الحسين، **حديثو العهد بالإسلام مسائل ومشكلات**، ص٧١.

كما يجب على المسلم الجديد تعلم أركان الإسلام الخمسة، والعمل بها، وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج بيت الله الحرام.

قال تعالى: ﴿فَإِلَٰهُكُم إِلَٰه وَٰحِد فَلَهُۥٓ أَسلِمُواْ وَبَشِّرِ ٱلمُخبِتِينَ﴾ [الحج:٣٤].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلإِسلَٰمُ﴾ [آل عمران:١٩].

ولأهمية تعلم المسلم الجديد أركان الإيمان وأركان الإسلام وفهمها فهماً جيداً يجب على الداعية إلى الله العناية بهذا الأمر والحرص على إيضاح كل ذلك بشكل يتناسب مع قدرات المسلم الجديد العقلية والمعرفية ؛ تحقيقا للوسطية في الدعوة ولكي يتمكن المسلم الجديد من أن يعبد الله عز وجل على علم وبصيرة.

٢) الوسطية في تحذير المسلم الجديد بعدم ارتكاب أي ناقض من نواقض الإسلام:

من واجبات المسلم الجديد أن لا يرتكب أي ناقض من نواقض الإسلام الاعتقادية والقولية والفعلية ؛ لأن المراد بالناقض شرعاً: هو الاعتقاد أو القول أو الفعل الذي ينتفي به إيمان العبد ويزول، ويخرجه من دائرة الإسلام والإيمان إلى حظيرة الكفر.

فمن أمثلة نواقض الإيمان الإعتقادية أن يعتقد المسلم الجديد بأن الرسول الله ﷺ كتم شيئاً مما أوحى الله تعالى وإليه وهو مأمور بتبليغه، أو يعتقد أن في القرآن الكريم زيادة أو نقصاناً، أو يشك في شيء من أركان الإسلام الخمسة، أو أصول الإيمان الستة، أو أن يستحل محرماً معلوماً من الدين بالضرورة كالقتل والزنا والربا، أو غير ذلك من نواقض الإيمان الاعتقادية.

ومن أمثلة نواقض الإيمان القولية أن يدعو المسلم الجديد أحداً من الأموات من دون الله عز وجل فيستغيث بالأولياء والصالحين ويسألهم مالا يقدر عليه إلا الله تعالى، أو أن يطعن في عدالة الصحابة رضي الله عنهم ويتهمهم بالفسق أو الضلال، أو يسخر بإسم من أسماء الله تعالى أو صفة من صفاته، أو نحو ذلك من نواقض الإيمان القولية.

ومن أمثلة نواقض الإيمان الفعلية أن يقوم المسلم الجديد بالطواف حول الأضرحة من أجل التقرب إليهم، أو تعلم السحر وتعليمه وتعاطيه، ونحو ذلك من نواقض الإيمان الفعلية[٢].

وحيث إن ارتكاب المسلم الجديد لأي ناقض من تلك النواقض عامداً عالماً راضيا فيه خطر على صحة إسلامه، تظهر أهمية قيام الداعية بواجبه تجاه المسلم الجديد، فيقوم بتحذير المسلم الجديد من الوقوع في أيّ ناقض من تلك النواقض متخذا من الوسطية منهجا له ونبراسا.

الخاتمة:

ظهر لي من خلال البحث عدد من النتائج والتوصيات، وهي على النحو التالي:

نتائج البحث:

كان من أبرز النتائج التي توصلت إليها من خلال هذا البحث ما يلي:

---

[١] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ص٢٥، رقم٩.

[٢] الحسين، **حديثو العهد بالإسلام مسائل ومشكلات**، ص٩٧-١٠٢.

١- أهمية عناية الداعية إلى الله تعالى بالوسطية في دعوة المسلم الجديد والتعامل معه.

٢- حرص النبي ﷺ من خلال القول والعمل على تعليم المسلم الجديد أمور دينه، وحسن معاملته، والفرح بإسلامه، وتأليف قلبه بمختلف أنواع التأليف المادية والمعنوية.

٣- أن على الداعية مسؤولية عظيمة تجاه المسلم الجديد تتمثل في تعليمه ماله من الحقوق التي كفلها له الشرع، والواجبات التي أوجبها عليه الشرع، أسوة بغيره من المسلمين.

٤- أن المسلم الجديد يجب عليه أن يتعلم كل مامن شأنه المحافظة على سلامة إسلامه، وحمايته من كل ما قد يؤثر في صحته.

٥- أن من الوسطية في دعوة المسلم الجديد ضرورة تدرج الداعية معه أثناء تعليمه ماله من حقوق، وما عليه من واجبات ؛ حرصاً على استيعابه لتلك الحقوق والواجبات، وأن عدم تدرج الداعية معه في العملية التعليمية ربما يسهم في حدوث نتائج عكسية على إسلام المسلم الجديد.

٦- أن ممارسة المسلم الجديد للدعوة إلى الإسلام، حسب علمه وقدرته، من مظاهر وسطية الدعوة، وأن الإذن له بالدعوة يسهم بإذن الله تعالى في زيادة إيمانه وثباته على الإسلام.

٧- أن من الوسطية في دعوة المسلم الجديد أمره بأن يصل أرحامه وأقاربه، وإن لم يكونوا مسلمين ؛ بل ويحسن إليهم بأيّ نوع من أنواع الإحسان المشروعة في الإسلام.

توصيات الباحث:

ظهر للباحث عدد من التوصيات والمقترحات المتعلقة بموضوع البحث من أهمها ما يلي:

١- حيث إن هذا الموضوع بحاجة إلى معالجة علمية أوسع وأشمل، فأوصي بتسجيل رسالة علمية في أحد أقسام الدعوة والدراسات الإسلامية تتناول الوسطية في دعوة المسلم الجديد والتعامل معه وتجمع بين الجانبين النظري والميداني ؛ للتعرف على واقع الدعاة والمسلمين الجدد في التعامل مع هذا الموضوع المهم.

٢- أن تتبنى إحدى المؤسسات الدعوية طباعة كتيب تذكر فيه حقوق المسلم الجديد وواجباته مختصرة ومؤيدة بالأدلة من الكتاب والسنة، ويترجم إلى عدد من اللغات؛ ليفيد منه الدعاة والمسلمون الجدد على حدٍ سواء.

٣- عقد دورات علمية وتدريبية للدعاة إلى الله في كيفية التعامل مع المسلم الجديد بعامة، وتعليمه حقوقه وواجباته بخاصة، وفق هدي النبي ﷺ في التعامل مع المسلم الجديد.

٤- أن تتعاون الجهات والمؤسسات الدعوية المعنية بدعوة غير المسلمين فيما بينها بالعناية بدعوة المسلم الجديد وكيفية التعامل معه وتتبادل الآراء والخبرات العلمية فيما بينها ؛ لتصل إلى أفضل الحلول للعناية بتحقيق منهج الوسطية والاعتدال في دعوة المسلم الجديد والتعامل معه.

٥- أن يتم تصميم برنامج تعليمي ميسر، يمكن للمسلم الجديد الإفادة منه عبر شبكة الإنترنت في التعرف على حقوقه وواجباته في الإسلام، والصورة المثلى التي شرعها الإسلام في التعامل مع المسلم الجديد من خلال التعلم الالكتروني الذاتي.

المصادر والمراجع:

١. ابن حجر العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، تحقيق علي البجادي (القاهرة: دار النهضة، د.ط.).

٢. ابن كثير، **البداية والنهاية**، (القاهرة: دار الريان للتراث، ط١، ١٤٠٨هـ).

٣. ابن ماجه، **السنن**، تحقيق: محمد عبدالباقي، (دار إحياء التراث العربي، ١٣٩٥هـ).

٤. ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، د.ط.)

٥. أحمد بن محمد بن جنبل، **المسند**، (القاهرة: مؤسسة قرطبة، د.ط.).

٦. أحمد، د. مهدي رزق الله، **السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية**، (الرياض: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط١، ١٤١٢هـ).

٧. الألباني، محمد ناصر الدين، **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط٢، ١٣٩٩هـ).

٨. البخاري، **الصحيح**، (الرياض: دار السلام، ط٢، ١٤١٩هـ).

٩. البدر، عبدالمحسن بن حمد، **لزوم التزام المسلم بأحكام الشريعة**، (المدينة المنورة: الجامعة الإسلامية، د.ط.)

١٠. البستاني، بطرس، **محيط المحيط**، (بيروت: مكتبة لبنان، د.ط، ١٩٨٣م).

١١. البيانوني، د. محمد أبو الفتح، **المدخل إلى علم الدعوة**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤١٢هـ).

١٢. الجرجاني، علي بن محمد، **التعريفات**، تحقيق إبراهيم الأبياري (بيروت: دار الكتاب العربي، ط١، ١٤٠٥هـ).

١٣. الجوهري، إسماعيل بن حماد، **الصحاح**، تحقيق أحمد عطار، (بيروت: دار العلم للملايين، ط٣، ١٤٠٤هـ).

١٤. الحاكم، محمد بن عبدالله، **المستدرك على الصحيحين**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ).

١٥. حسن، خالد رمضان، **معجم أصول الفقه**، (القاهرة: مطبعة المدني ط١، ١٤١٨هـ).

١٦. الحسين، أحمد بن عبدالله، كرسي الأمير سلطان للدراسات الإسلامية المعاصرة، **حديثو العهد بالإسلام مسائل ومشكلات**، ط١، ١٤٣٢هـ).

١٧. سارة بنت قاضي محمد يوسف، **العوامل المؤثرة في ثبات المسلم الجديد**، رسالة ماجستير غير منشورة، ١٤٣٣هـ.

١٨. السعدي، عبدالرحمن بن ناصر، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٤٢٦هـ).

١٩. السلطان، إبراهيم، **رعاية المهتدي الجديد**، (المكتب التعاوني للدعوة والإرشاد وتوعية الجاليات بالجبيل، د.ط.).

٢٠. الغامدي، علي بن عبدالله، **الأحكام الفقهية المتعلقة بالداخل في الإسلام**، (مكة المكرمة: مطابع بهاء، ط١، ١٤٢٧هـ).

٢١. القلعة جي، محمد رواس، **معجم لغة الفقهاء**، (بيروت: دار النفائس، ط٢، ١٤٠٨هـ).

٢٢. مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٢).

٢٣. مسلم، **صحيح مسلم**، (الرياض: دار السلام، ط١، ١٤١٩هـ).

٢٤. **المفيد في التعامل مع المسلم الجديد**، (الخبر: مجموعة زاد للنشر، ط١، ١٤٣٠هـ).

٢٥. النووي، **المنهاج شرح صحيح مسلم**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٣٩٢هـ).
٢٦. وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، **الملخص المفيد في أحكام المسلم الجديد**، (ط١، ١٤٣٢هـ).
٢٧. الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، (بيروت: دار الفكر، د.ط.، ١٤٠٨هـ).

الوسطيَّة من منظور الكتاب والسنة

أ. د. عارف علي عارف القره الداغي[1] أردوان مصطفى إسماعيل[2]

ملخَّص البحث:

تبرز مشكلةُ البحث في استجلاء حجية الوسطية في القرآن الكريم، والسنة النبوية، واستنطاق الوحيين لإبراز مظاهر الوسطية، وتبيان مفهومها، واستعراض أبرز حقولها. مستخدما المنهج الاستقرائي ولمنهج التحليلي الوصفي. وقد خلُص البحث إلى نتائج عديدة، من أبرزها: أنَّ حجية الوسطية مستمدةٌ من الكتاب والسنة، وأن مفهوم الوسطية يتضمَّن الاعتدال، والتوازن، والعدل، والأفضلية، والاعتراف بالطرف المقابل، كما يحتضن إعطاء كل طرف حقه، دون ظلم ولا طغيانٍ، في جميع جوانب الحياة. كما أن منهج الوسطية الإسلامية هو السبيل الوحيد للخروج من الأزمات والمشكلات التي يعاني منها العالم الإسلامي.

مقدِّمة:

الحمد لله الذي أظهر مبادىء الوسطية في كتابه، والصلاة والسلام على نبينا محمد الذي دعا إلى انتهاج الوسطية في سنته، وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسانٍ لهم إلى يوم التناد.

أما بعد! فإنَّ الدعوة إلى انتهاج الوسطية مبثوثةٌ في آياتٍ قرآنية عديدة، وأحاديث نبوية كثيرة؛ ذلك أن هذا المنهج يقود المسلمين إلى قيادة العالم، ونشر الإسلام في أصقاع الأرض، وإقبال الناس على الإسلام واعتناقه عن قناعةٍ، وحبٍّ. وهذه الوسطية الإسلامية تدعو إلى التعايش السلمي بين أفراد المجتمع، واحترام كرامة الإنسان وحقوقه، والتفاعل الحضاري، والتدافع الثقافي بين شعوب العالم. كما أنها تستأصل شأفة الإرهاب، والتطرف، والغلوِّ، والتعصب، وصدام الحضارات وغير ذلك مما يدمر المجتمعات، ويقوِّض الحضارات.

المبحث الأول

تأصيل الوسطية من منظور الكتاب والسنة

المطلب الأول: مفهوم الوسطية لغةً واصطلاحًا:

يرنو هذا المبحث إلى استجلاء مصطلح الوسطية لغة واصطلاحا، وذلك على الوجه الآتي.

أولا: الوسطية لغةً: اشتقت لفظة (الوسطية) من الفعل الثلاثي المجرد وَسَطَ يوسط وَسَطًا، ومن أشهر معانيها اللغوية ما يأتي:

---

[1] الأستاذ بقسم الفقه وأصوله، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

[2] طالب دكتوراه بقسم الفقه وأصوله، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

١. النَّصَف، والعدل، يقال: أعدل الشيء، أي: أوسطه، ووسطه، كما يقال: وسَط القوم، أي: أوسطهم حسبًا، وأرفعهم منزلاً[١].

٢. اسم لما بين طرفي الشيء، والخيار، والأفضل[٢].

٣. الاعتدال، فالأوسط هو الاعتدال في كل شيء[٣].

وملخَّص ما سبق، أن الوسطية تعني لغةً العدل، والخيرية، والأفضلية، والتوسط بين الطرفين.

ثانيًا: الوسطية مصطلحًا:

عرَّف المتخصصون في حقل العلوم الإسلامية الوسطية بتعريفاتٍ عديدةٍ، نزجي أهمها في النقاط الآتية:

١- ذهب القرضاوي إلى أن القصد من الوسطية هو: (التوازن) أو (الاعتدال)، أي: التوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادين؛ بحيث لا ينفرد أحدهما بالتأثير، ويطرد الطرف المقابل، وبحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقه، ويطغى على مقابله ويحيف عليه. مثال الأطراف المتقابلة أو المتضادة: الربانية والإنسانية، الروحية والمادية، الفردية والجماعية، والواقعية والمثالية، والثبات والتغير، وما شابهها، ومعنى التَّوازن بينهما: أن يفسح لكل طرف منها مجاله، ويعطي حقه بالقسط أو بالقسطاس المستقيم، بلا وَكسٍ ولا شطط، ولا غلوٍّ ولا تقصير، ولا طغيان ولا إخسار[٤].

٢- عرَّف الوسطية أحد الباحثين بأنها: "العدل والاستقامة والخيرية والاعتدال والقصد والفضل والجودة"[٥].

وهذا الحدُّ والتعريف للوسطية لا يخرج عن إطارها اللغوي، فهذا تعريفٌ لغوي أكثر من أن يكون تعريفًا منطقيًا اصطلاحيًا.

٣- وعرَّفها الزحيلي بأنها:"الاعتدال في: الاعتقاد، والموقف، والسلوك، والنظام، والمعاملة، والأخلاق"[٦].

وفي ضوء هاته الحدود والتعريفات، فإن **الباحث** يرى أن الوسطية هي الاعتدال، والتوازن، والاعتراف بالطرف المقابل، وإعطاء كل طرف حقه، دون حيفٍ ولا طغيانٍ، وذلك في مختلف شؤون الحياة؛ ليقوم الناس بالقسط، والوسطية ابتعادٌ عن الإفراط والتفريط، والغلوِّ، والتطرف، والتعصب، والتعنيف.

المطلب الثاني: حجية الوسطية في الكتاب والسنة:

أولاً: حجية الوسطيَّة في القرآن الكريم:

---

[١] ينظر: ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج٦،ص١٠٨.

[٢] ينظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج٧،ص٤٢٧.

[٣] ينظر: إبراهيم مصطفى وآخرون، **المعجم الوسيط**، ج٢، ص١٠٣١.

[٤] ينظر: يوسف القرضاوي، **كلمات في الوسطية الإسلامية ومعالمها**، ص٩.

[٥] ناصر بن عبدالكريم العقل، **مفهوم الوسطية والاعتدال**، ص٩.

[٦] الزحيلي، **الوسطية مطلبًا شرعيًا وحضاريًا**،ص ١٠.

لقد شيَّد القرآن الكريم مبادىء الوسطية تشييدًا محكمًا، ليصدح بأن الوسطية نبعٌ قرآني، ومقصد منيفٌ من مقاصده التي يسعى إلى تحقيقها، وذلك بالدعوة إلى الوسطية، وتثبيت مبادئها في شتى مجالات الحياة الدينية، والسياسية، والاجتماعية، والاقتصادية وغيرها. وقد وردت مشتقات كلمة (الوسطية) في كتاب الرحمن في خمس آياتٍ، تارةً بلفظ (وسطًا)، وكرةً بلفظ (الوسطى)، وحينًا بكلمة (أوسط).

ومن حجج الوسطية في القرآن الكريم ما يأتي:

١. قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣].

محل الدليل: تدلُّ الآية على أنَّ الله تعالى يمتنُّ على أمة الإسلام بجعلها أمةً وسطًا؛ لتضحى شاهدةً على الناس، ويعدُّ الامتنانُ برهانَ الأفضلية والخيرية.

ومما يعضِّد هذا أنَّ الرسول ﷺ فسر الوسط في الآية المذكورة آنفًا بالعدل كما ثبت في صحيح البخاري: «والوسط العدل»[١].

وقال سيد قطب في تفسيره لهذه الآية: "وإنها للأمَّة الوسط بكل معاني الوسط، سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل، أو من الوسط بمعنى الاعتدال والقصد، أو من الوسط بمعناه الماديّ الحسيّ"[٢].

٢. ومن هذا الباب، قوله سبحانه وتعالى: ﴿اهدنا الصِّراط المستقيم﴾ [الفاتحة:٦].

وجه الحجيَّة: أن الله تعالى يوجِّه المسلم ويدعوه إلى أن يسأل الله تعالى تثبيته على الإسلام الذي هو الطريق المستقيم الذي لا اعوجاج ولا انحراف فيه ، ويعدُّ هذا لبَّ الوسطية الذي لا إفراط فيه ولا تفريط.

٣. قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة:٢٠١]. محلُّ الشاهد: هاته الآية توجيهٌ من الله تعالى لعباده بأن يدعوه هذا الدعاء الذي يجمع خيرَي الدنيا والآخرة، وذلك بتوفيقهم لانتهاج الوسطية والاعتدال في جميع مناحي الحياة، بحيث تمسي الوسطية سلوكًا للمسلم في حياته اليومية، وتيسير شؤونه، ولذا كان هذا أكثر دعاء الرسول ﷺ.

٤. قوله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٧٧].

موطن البرهان: في هذه الآية يأمر الله سبحانه عباده بالوسطية والاعتدال والتوازن بين الدنيا والآخرة، بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر.

---

[١] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾، ج٤، ص١٦٣٢، رقم٤٢١٧.

[٢] سيد قطب، **في ظلال القرآن**، ج١، ص١٣١.

ثانيًا: حجية الوسطية في السنة النبوية:

لقد رسختِ السنة النبوية مبادىء الوسطية التي أصَّلها القرآن الكريم قولاً وفعلاً، وكان النبي ﷺ وَسَطيًا يمشي على وجه الأرض، وسطًا في جميع مجالات الحياة، في العبادات، والمعاملات المالية، والعلاقات الاجتماعية، والسلوكيات، وغير ذلك.

وقد حفلت حياة الرسول ﷺ بالوسطية والاعتدال في جميع الجوانب، وانعكس ذلك في تصرفاته اليومية، وسلوكه القويم، وحرصه الشديد على توجيه أصحابه إلى التحلي بالوسطية والاتزان بحيث إذا آنس غلوًا في جانبٍ، هرع إلى تقويمه بالحكمة، وتعديله بالصواب، ومنه ﷺ تعلم الصحابة التوازن بين الدنيا والآخرة.

وثَمَّة كمٌّ كثير من الأحاديث الدالة على الوسطية، نزجي أبرزها في النقاط الآتية:

١. قوله ﷺ :« إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ. وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إلا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا »[١].

وجه الدليل: بيَّن الرسول ﷺ يسر الدين الإسلامي، مؤكدًا ذلك بحرف (إنَّ) التي تأتي للتوكيد في اللغة العربية، ثم أتى بأداة (لن) التي هي لنفي المستقبل –في الغالب– ، فرفض أن يكون للمتشدد في الدين والغالي فيه أي نصيبٍ من الفوز والديمومة، وأن المغالاة والتشدد في الدين، أو التكلف فيه يفضي بصاحبه إلى الهلاك والدمار، فيمسي مغلوبًا عليه، بعد أن كان غالبًا.

يقول ابن حجر في معنى الحديث: "لا يتعمق أحد في الأعمال الدينيه ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيغلب. قال ابن المنير: في هذا الحديث علم من أعلام النبوة، فقد رأينا ورأى الناس قبلنا أن كل متنطع في الدين ينقطع"[٢].

٢. قال رسولُ الله ﷺ: «هلك المتنطِّعون، قالها ثلاثًا»[٣].

محلُّ البرهان: أبان النبي ﷺ أن الهلاك من نصيب أولئك المتنطعين الذين يغالون في الأقوال والأفعال، ويتجاوزون الحدود المرسومة لهم شرعًا، فذمَّ مسلك المغالاة، ومنهج التطرف، ويدل الحديث –عن طريق مفهوم المخالفة الذي هو حجةٌ عند أغلب علماء الأصول– على أن انتهاج الوسطية هو المطلوب؛ ذلك أنَّ النجاة، والسعادة، والاستقرار كامنٌ في الوسطية الإسلامية.

٣. جاء نفرٌ إلى النبي ﷺ، فذكروا أنهم يصومون فلا يفطرون، ويقومون فلا ينامون، ولا يتزوجوا النساء، فقال النبي ﷺ منكرًا عليهم غلوَّهم، وموبخًا عليهم تطرفهم: «أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا والله إني لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ له، لَكِنِّي أَصُومُ، وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي، وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[٤].

---

[١] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الإيمان، باب: إن الدين يسر، ج١،ص٢٣، رقم٣٩.

[٢] ابن حجر، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، ج١، ص٩٤.

[٣] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، ج٤، ص٢٠٥٥، رقم٢٦٧٠.

[٤] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، ج٥، ص١٩٤٩، رقم٤٧٧٦.

موضع الدليل: أنكر الرسول ﷺ على هؤلاء النفر الذين تعاملوا مع أنفسهم معاملةً تناقض الفطرة الإنسانية التي فطر الله تعالى الإنسان عليها، وأن الإنسان مكوَّن من روحٍ وجسدٍ، فعليه أن يتوازن بينهما ويتوسط، فلا يكون الاعتناء بأحدهما على تهميش الآخر، وأنَّ منهج الوسطية هو الذي يحقق الاتزان بين الروح والجسد.

٤. كان من أدعية النبي ﷺ المأثورة قوله: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، وَكَلِمَةَ الْعَدْلِ وَالْحَقِّ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، وَأَسْأَلُكَ الْقَصْدَ فِي الْفَقْرِ وَالْغِنَى»[١].

موطن الحجة: أنَّ النبي ﷺ سأل الله تعالى أن يرزقه التوسط بين الفقر المنسي، والغنى المطغي، كما طلب منه تعالى إعطاءه العدل الذي به يسعد الإنسانية؛ إرشادًا لأمته لكي يتأسوا به في الوسطية.

٥. من أدعية الرسول ﷺ: «اللهم أَصْلِحْ لي دِينِي الذي هو عِصْمَةُ أَمْرِي. وَأَصْلِحْ لي دُنْيَايَ التي فيها مَعَاشِي. وَأَصْلِحْ لي آخِرَتِي التي فيها معادي. واجعل الْحَيَاةَ زِيَادَةً لي في كل خَيْرٍ. واجعل الْمَوْتَ رَاحَةً لي من كل شَرٍّ»[٢].

وجه الدليل: أنَّ الرسول ﷺ كان يدعو بهذا الدعاء؛ تعليمًا لأصحابه وأمته في التأسي به في هذا الدعاء الذي ما أقلَّ لفظه، وما أكثر معناه، ونستشفُّ منه الدعوة النبوية الصريحة إلى الوسطية في أمور الحياة كلها، والتوازن بين الدنيا دار المعاش، والآخرة دار المعاد.

المبحث الثاني

حقول الوسطيَّة في الكتاب والسنة

يتحدَّث هذا المبحث عن أبرز مجالات الوسطية وحقولها في ضوء الكتاب والسنة، في المطالب الآتية.

المطلب الأول: الوسطيَّة في حقل العبادات:

من المقرر في الفقه الإسلامي أنَّ الأصل والقاعدة المستمرة في دائرة العبادات التوقيف، ومنع الاجتهاد فيه؛ ابتناءً على أن الكتاب والسنة حسما أمر العبادات، وبيَّنا تفاصيلها.

ورغم ذلك، فلقد استوعبت الوسطية باب العبادات في الإسلام، فأينما تولَّيت فثمَّ الوسطية، تجد ذلك جليًا في أحكام الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج وغير ذلك؛ ذلك أنه لا تكليف بما لا يطاق كما هو القول المعتمد عند الأصوليين.

ومن هنا، كان الإسلام وسطًا في باب العبادات، ولم يكن كالمسيحية الداعية إلى الرَّهبنة والانقطاع عن الحياة، ولا البوذية الوضعية التي اكترثت بالأخلاق وحده، ودعت إلى التقشف والتقوقع على الذات وإيذاء الجسد.

ومن أمثلة الوسطية في باب العبادات، مراعاة حال المأمومين في الصلاة، فمنهم الشيخ الكبير الذي لا يقدر على القيام طويلاً، ومنهم المريض، ومنهم ذو الحاجة، والصغير، ولذلك غضب الرسول ﷺ على من يطيل بالناس الصلاة، ونعته بالمنفِّر

---

[١] أخرجه ابن حبان في **صحيحه**، ج٥، ص٣٠٥، رقم١٩٧١.

[٢] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، ج٤، ص٢٠٨٧، رقم٢٧٢٠.

والفتّان، وذلك مع عظم مكانة الصلاة في الإسلام، ناهيك عن عظمة صلاة الجماعة التي تضافرت النصوص النبوية على أهميتها، وأنها تفوق صلاة المنفرد بخمسٍ، أو سبعٍ وعشرين درجة.

وتجد النصوص القرآنية، والأحاديث النبوية تترى في ترسيخ الوسطية في دائرة العبادات، يقول سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُواْ الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ اللّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة:١٨٥]. وقوله سبحانه: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٨٦]. وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن:١٦].

وعند إمعان النظر في هاته الآيات الكريمات نلمس أنها ترسخ مبدأ التيسير في العبادات، وأن المسلم يمتثل أوامر الله تعالى بقدر استطاعته، بعيدًا عن المغالاة والتشدد، أو الإهمال والتقصير.

كما تزخر مصنفات السنة النبوية بالأحاديث التي تثبت مبدأ الوسطية في باب العبادات، منها:

١. أَنَّ النبي ﷺ دخل على عائشة وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ قال: «من هذه»؟ قالت: "فُلَانَةُ"، تَذْكُرُ من صَلَاتِهَا. قال: «مَهْ! عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ، فَوَاللَّهِ لَا يَمَلُّ الله حتى تَمَلُّوا». وكان أَحَبَّ الدِّينِ إليه ما داوم عليه صَاحِبُهُ[1].

وهذا الحديث النبوي برهانٌ على أنَّ المسلم العاقل البالغ يؤدي العبادة قدر استطاعته، ومقدار طاقته، ضمن الضوابط والشروط المقررة في الفقه الإسلامي، وهذا من ماصدقات الوسطية الإسلامية المبتناة على التيسير، والنائية من التعسير.

٢. أنَّ النبي ﷺ قال لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «ألم أخبر أنك تقوم الليل وتصوم النهار». قلت: "إني أفعل ذلك". قال: «فإنك إذا فعلت ذلك هجمت عينك ونفِهت نفسك، وإن لنفسك حقا، ولأهلك حقا، فصم وأفطر، وقم ونم»[2].

ويجلِّي هذا النص النبوي مدى العناية التي أولاه الإسلام للمحافظة على كيان الإنسان، وحماية صحته، وتوزيع الحقوق والواجبات، وأن العبادات الذاتية كقيام الليل وصيام النهار لا ينبغي أن تفضي إلى إهمال العبادات المتعدِّية، كحق الزوجة والأولاد، ولا يستساغ – أيضًا- أن تفضي إلى إضعاف الجسد؛ ذلك أن الجسد الضعيف لا يتقوَّى على عبادة الله تعالى.

٣. عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما النبي ﷺ يخطب إذا هو برجل قائم، فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم. فقال النبي ﷺ:« مره فليتكلم، وليستظل، وليقعد، وليتم صومه»[3].

---

[1] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الإيمان، باب أحب الدين إلى الله أدومه، ج١، ص٢٤، رقم٤٣.

[2] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الكسوف، باب ما يكره من ترك قيام الليل لمن كان يقومه، ج١، ص٣٨٧، رقم١١٠٢.

[3] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الأيمان والنذور، باب النذر فيما لا يملك وفي معصية، ج٦، ص٢٤٦٥، رقم٦٣٢٦.

وهذه الأحاديث النبوية وغيرها تدلُّ على أن الوسطية منهاج نبوي في باب العبادات، ولو أخذنا نستقصي نماذج الوسطية في نطاق العبادات وأمثلتها لطال بنا المقال.

المطلب الثاني: الوسطية في حقل المعاملات المالية:

إن باب المعاملات المالية مبتناةٌ على الوسطية والاعتدال، ولا أدلَّ على ذلك من أن الأصل والقاعدة المستمرة في هذا الباب أن المعاملات المالية الأصل فيها الجواز والإباحة، وأن الحرمة استثناءٌ تأتي من عوارض أخرى تعتري العقود، فتجعلها محظورةً كالربا، والقمار، والغرر، وأكل أموال الناس بالباطل وغير ذلك. يقول ابن حجر الهيتمي في فتاويه: "الأصل في العقود الجارية بين المسلمين الصحة"[1]، و"الأصل في العقود الصحة"[2].

وكان لهاته القاعدة المستمرة دورٌ بالغٌ في ترسيخ أصول الاقتصاد الإسلامي في الوقت الحاضر، وإثراء موضوعاته، وتلبية متطلبات المسلمين في هذا العصر، ومواكبة مستجدات الحياة المعاصرة، الأمر الذي أفضى إلى أن يثبت الاقتصاد الإسلامي وجوده، ويحافظ عليه.

ومن مظاهر الوسطية في النظام الاقتصادي الإسلامي أنه لم يكن كالشيوعية التي لم تعترف بالملكية الفردية، ولا الرأسمالية التي أنكرت الملكية الجماعية، فأمسى الإسلام وسطًا بين ذينك النظامين باعترافه بالملكيتين بقيودٍ. فالاقتصاد الإسلامي يقرُّ الملكية الفردية؛ لموافقتها الفطرة الإنسانية في حبِّ المال، وهذا الإقرار ليس مطلقًا، بل مقيد بضوابط تحول دون الاعتداء على مصلحة المجتمع، كما يقر الملكية الجماعية ويحترمها بحيث لا تتعدى على مصلحة الفرد.

ومن مظاهر الوسطية والاعتدال في النظام الاقتصادي الإسلامي تحريم التبذير، وتجريم الإسراف، وإرشاد المسلمين إلى التوسط والاعتدال في الإنفاق، والاستهلاك. قال تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا، إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ [الإسراء:٢٦، ٢٧]. وقوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧].

ومن نماذج الوسطية التي تحدَّث عنها القرآن الكريم أن جمع المال مشروعٌ بالسبل المشروعة؛ ذلك أن حب المال أمر جبلي طبعي، بيد أن الانحراف يأتي في الغلو في حبه وتقديسه، والإفراط أو التفريط فيه.فالمسألة ينبغي أن تبقى في دائرة الوسطية، يقول تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف:٤٦].

المطلب الثالث: الوسطية في التعامل مع الآخرين

لقد زخر القرآن الكريم والسنة النبوية بترسيخ مظاهر الوسطية والاعتدال في التعامل مع الآخرين، يقول الله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنا﴾ [البقرة:٨٣]. ويقول ﷺ: «وخالق الناس بخلق حسن»[3]، وهذا يرسم لنا علاقة المسلم بالمسلم وبغير

[1] ابن حجر، **الفتاوى الفقهية الكبرى**، ج٢، ص٢٣٢.

[2] المصدر نفسه، ج٣، ص١٥٠.

[3] أخرجه الحاكم في **المستدرك على الصحيحين**، ج١، ص١٢١، رقم١٧٨.

المسلم؛ ذلك أن لفظة (الناس) المعرَّف بالألف واللام من ألفاظ العموم كما هو مقرر في أصول الفقه، وتأسيسًا على ذلك، فإنَّ المطلوب من المسلم تجنُّب إيذاء الآخرين، قولاً، أو فعلاً، أو إيماءً.

ومن جمال وسطية الإسلام واعتداله العفو والتسامح، يقول الله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩].

ومن حسن الخلق تجاه الآخرين: كظم الغيظ، ويكون عند الغضب من سوء معاملة الآخرين، فيقابل الإساءة بالإحسان، قال الله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى:٣٧]، قال ابن كثير في تفسير الآية: "سجيتهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس. ليس سجيتهم الانتقام من الناس" [١].

ومن نماذج العفو الذي خلَّده التاريخ الإسلامي ويعدُّ قمة التسامح الذي عرفه العالم ما قام به الرسول ﷺ حينما فتح مكة سنة ثمانٍ للهجرة، فأصدر عفوًا لأولئك الذين أخرجوه وطردوا أصحابه.

ومن ناحيةٍ أخرى، نلمس أن القرآن الكريم قد أسس أصول التعامل مع الآخرين في آيتين عظيمتين، هما قوله تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ • إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة:٨-٩].

وهاته الآية شاملة لجميع الملل والأديان المخالفين للإسلام، ماداموا مسالمين؛ إذ لا تخصيص. ويفسر السعدي الآية بقوله: "لا ينهاكم الله عن البر والصلة، والمكافأة بالمعروف، والقسط للمشركين، من أقاربكم وغيرهم، حيث كانوا بحال لم ينتصبوا لقتالكم في الدين والإخراج من دياركم، فليس عليكم جناح أن تصلوهم، فإن صلتهم في هذه الحالة، لا محذور فيها ولا مفسدة" [٢].

خاتمة:

توصَّل البحث بعون الله تعالى إلى النتائج الآتية:

١. أن مفهوم الوسطية يتضمَّن الاعتدال، والتوازن، والعدل، والأفضلية، والاعتراف بالطرف المقابل، كما يحتضن إعطاء كل طرف حقه، دون ظلم ولا طغيانٍ، وذلك في شتى مجالات الحياة؛ لينتهض الناس بالقسط، فلا إفراط ولا تفريط، ولا غلو، ولا تعصب، ولاتعنيف.

٢. لقد قعَّد القرآن الكريم مبادىء الوسطية، وحرَّض المسلمين على انتهاج الوسطية، فترى منهج الوسطية مبثوثة في جميع القرآن الكريم، وأكدت ذلك السنة النبوية، قولاً وفعلاً. وأنَّ حجية الوسطية مستمدةٌ من القرآن الكريم، ومستقاةٌ من الحديث النبوي.

---

[١] ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٤، ص١١٩.

[٢] السعدي، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، ص٨٥٦.

٣. غطَّت الوسطية مجالاتٍ عديدة في الحياة، من أبرزها حقل العبادات، وباب المعاملات المالية، وفقه التعامل مع الآخرين.

٤. أنَّ منهج الوسطية هو الذي قاد المسلمين الأوائل إلى قيادة العالم، وفتح القلوب قبل فتح البلدان، ونشر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، ودخول الناس في الدين الإسلامي أرسالاً وفرادى، وأن هذا المنهج وحده هو القادر على جمع كلمة المسلمين، ولمِّ شتاتهم في هذا العصر المكتظِّ بالأزمات الخانقة، والمشكلات العويصة في العالم الإسلامي.

٥. يوصي البحث أصحاب القرار في العالم الإسلامي، والجامعات، والكليات بالاعتناء بالفكر الوسطي، والدعوة إليه، ونشره، كون الوسطية نابعةً من الكتاب والسنة، وهو المنهج المنقذ للعالم الإسلامي من الأزمات التي يعاني منها.

المصادر والمراجع:

١. ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد البستي، **الصحيح**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م).

٢. ابن حجر الهيتمي، أبو العباس أحمد بن محمد بن علي، **الفتاوى الفقهية الكبرى**، (المكتبة الإسلامية، د.ط.ت).

٣. ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، **فتح الباري**، تحقيق: محب الدين الخطيب، (بيروت: دار المعرفة، د.ط.ت).

٤. ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، (بيروت: دار الجيل، ط٢، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

٥. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي، **تفسير القرآن العظيم**، (بيروت: دار الفكر، د.ط، ١٤٠١هـ).

٦. ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، ط١، د.ت).

٧. البخاري، **الصحيح**، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، (بيروت: دار ابن كثير، ط٣، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

٨. الحاكم، محمد بن عبدالله، **المستدرك على الصحيحين**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩٠م).

٩. الزحيلي، وهبة، **الوسطية مطلبًا شرعيا وحضاريا**، (الكويت: المركز العالمي للوسطية، ط٢، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

١٠. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، (مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠ م).

١١. سيد قطب، **في ظلال القرآن**، (القاهرة: دار الشروق، د.ط.ت).

١٢. القرضاوي، **كلمات في الوسطية الإسلامية ومعالمها**، (الكويت: المركز العالمي للوسطية، ط٢، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م).

١٣. مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، **الصحيح**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط.ت).

١٤. ناصر بن عبدالكريم العقل، **مفهوم الوسطية والاعتدال**، (بحوث ندوة أثر القرآن في تحقيق الوسطية ودفع الغلو، د.ط.ت).

الوسطية والاعتدال في سيرة النبي ﷺ

د. لمياء بنت سليمان الطويل[1]

ملخص البحث:

ما أحوج الأمة الإسلامية اليوم إلى نشر ثقافة الوسطية والاعتدال، ولا سيما في عصرنا هذا؛ لأن أعداء الإسلام دأبوا منذ مدة من الزمن على محاربة الإسلام، واتهامه بالتطرف حيناً، وبالتزمت أحياناً، وبالإرهاب دوماً، لا لشيء إلا لتنفير الناس منه، والإسلام يدعو إلى الوسطية فلا إفراط ولا تفريط، وسط فلا طغيان ولا نقصان، وسط فلا تشدد ولا ترخص، وسط بين رعاية حقوق الفرد على حساب الجماعة، أو العناية بمصالح الجماعة على حساب الفرد، وعندما نستعرض سنة المصطفى ﷺ نجد فيها خاصية الوسطية والاعتدال واضحة جلية؛ إذ لو تأملنا حياة النبي ﷺ في مختلف جوانبها لوجدناها تفيض بالوسطية والاعتدال، في كل أحوالها، ونستطيع أن نستخلص منها منهجًا معتدلاً في كل الجوانب الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والثقافية، وغيرها لبناء الشخصية الإسلامية المعاصرة؛ إذ سعى رسول الله ﷺ في حياته وسيرته إلى التطبيق الكامل لهذه الوسطية.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه، ومن تبعه إلى يوم الدين.

أما بعد! فالتوسط سمة ثابتة بارزة في كل باب من أبواب الإسلام: في الاعتقاد، والتشريع، والتكليف، والعبادة، والشهادة والحكم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله.

والوسطية منهج رباني راق يمنع العبد من الميل إلى أحد الطرفين، فهو منهج شامل جامع لكل أمور الدين والدنيا والآخرة، بل إنها وجه من وجوه الإعجاز فيه وصلاحيته لكل زمان ومكان، وهذه الوسطية تعظم مسؤولية الأمة الإسلامية ودورها العالمي، فهي أمه الوسطية والشهادة على الناس قال تعالى: ﴿لِتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣].

الوسطية هي أبرز سمات الأمة الإسلامية، والإسلام يدعو إلى الوسطية فلا إفراط ولا تفريط، وسط فلا طغيان ولا نقصان، وسط فلا تشدد ولا ترخص، وسط بين رعاية حقوق الفرد على حساب الجماعة، أو العناية بمصالح الجماعة على حساب الفرد، فالوسطية تعني العدل، فلا يظلم جانب على حساب جانب آخر، والوسطية تعني التوازن فلا يختل أمر على حساب آخر ويريد الله ﷻ للمسلمين أن يحملوا للعالم رسالة الحب والخير والعدل لتحقيق وسطية هذه الأمة، فهذه الوسطية خصيصة الأمة الإسلامية بمفهومها الإسلامي المتمثل في لغة القرآن ومعانيه ومواقفه، كما أورده القرآن الكريم وطبقه رسوله الكريم ﷺ، فهي تختلف تمام الاختلاف عن مفهوم الوسطية عند غير المسلمين، وعندما نستعرض سنة المصطفى ﷺ نجد فيها

---

[1] أستاذ مشارك في المعهد العالي للدعوة والاحتساب، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

خاصية التوسط والاعتدال واضحة جلية، إذ لو تأملنا حياة النبي ﷺ في مختلف جوانبها لوجدناها تفيض بالوسطية والاعتدال، في كل أحوالها، ونستطيع أن نستخلص منها منهجًا معتدلاً في كل الجوانب الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والثقافية، وغيرها لبناء الشخصية الإسلامية المعاصرة؛ إذ سعى رسول الله ﷺ في حياته وسيرته إلى التطبيق الكامل لهذه الوسطية، فما أحوجنا اليوم إلى نشر ثقافة الوسطية والاعتدال، ولا سيما في عصرنا هذا؛ لأن أعداء الإسلام دأبوا منذ مدة من الزمن على محاربة الإسلام، واتهامه بالتطرف حيناً، وبالتزمت أحياناً، وبالإرهاب دوماً، لا لشيء إلا لتنفير الناس منه.

لذا كانت الرغبة في المشاركة بالمؤتمر العالمي الثاني للقرآن الكريم والسنة الشريفة، والذي تنظمه الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا بعنوان "الوحي والعلوم في القرن الواحد والعشرين".

أهمية البحث:

١. إيجاد شخصية إسلامية متزنة تقتدي بسيرة الرسول ﷺ في شمول الفهم، واعتدال المنهج، وسلامة السلوك من الإفراط والتفريط.
٢. أن التوسط والاعتدال الذي تكفلت به النصوص النبوية له أثر كبير في حفظ الشخصية من الضياع والاختلال أو الميل نحو الانحراف، وهو ما تحتاج إليه الحضارات في هذا الزمان.
٣. أن الشخصية الإسلامية المعاصرة –مع تداخل الأفكار التربوية الأخرى– بحاجة إلى أن تُربَط بالسيرة النبوية، فتأخذ الفكر التربوي من ذلك النبع الصافي الذي حافظ على كرامة الإنسان.

المبحث الأول

حقيقة التوسط والاعتدال

المطلب الأول: مفهوم التوسط والاعتدال

أ – مفهوم الاعتدال:

الاعتدال لغة: في القاموس المحيط: (العدل: ضد الجور، وما قام في النفس أنه مستقيم)، و(عدل) الحكم تعديلا: أقامه، و(عدل) فلانا: زكّاه، و(عدل) الميزان: سواه، و(الاعتدال) توسط حال بين حالين في كم أو كيف، وكل ما تناسب فقد اعتدل، وكل ما أقمته فقد عدَلته وعدّلته، و(العدول): هم الخيار.

وذكر في القاموس المحيط من معاني العدل والاعتدال: الحكم بالعدل، والاستقامة، والتقويم، والتسوية، والمماثلة، والموازنة، والتزكية، والمساواة، والإنصاف، والتوسط[١].

أما اصطلاحا فالاعتدال: هو التزام المنهج العدل الأقوم، والحق الذي هو وسط بين الغلو والتنطع، وبين التفريط والتقصير، فالاعتدال والاستقامة وسط بين طرفين هما: الإفراط والتفريط، والاعتدال هو: الاستقامة والتزكية، والتوسط والخيرية.

ب– مفهوم التوسط:

[١] الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، ج٢، ص٥٩٤.

التوسط لغة: وسط: بناء صحيح يدل على العدل والنَّصَفِ، وأعدل الشيء: أوسطه ووسطه، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة:١٤٣]، ويقولون: ضربت وَسَط رأسه -بفتح السين-، ووسْط القوم -بسكونها- وهو أوسطهم حَسَباً إذا كان من واسطة قومه وأرفعهم محلاً[١]، ووسط الشيء ما له طرفان متساويا القدر، ويقال ذلك في الكمية المتصلة كالجسم الواحد، والوسط تارة يُقال فيما له طرفان مذمومان، يقال: هذا أوسطهم حسباً إذا كان في واسطة قومه، وأرفعهم محلاً، وتارة يقال فيما له طرف محمود وطرف مذموم كالخير والشر[٢].

يقول أبو البقاء الكفوي: "والوسط في الأصل هو اسم للمكان الذي يستوي إليه المساحة من الجوانب ... ثم استعير للخصال المحمودة لوقوعها بين طرفي إفراط وتفريط، ثم أطلق على المتصف بها مستوياً منه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث كسائر الأسماء التي يوصف بها"[٣].

أما اصطلاحاً: فيقول المناوي: "الوسط: العدل الذي نسبة الجوانب إليه كلها على السواء، فهو خيار الشيء، ومتى زاغ عن الوسط حصل الجَوْر الموقع في الضلال عن القصد"[٤].

ويعرف د. أحمد عمر هاشم الوسطية بقوله: "فالمراد بالوسطية: التوازن والتعادل بين طرفين بحيث لا يطغى طرف على آخر، فلا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا تقصير، وإنما اتباع للأفضل والأعدل، والأجود والأكمل"[٥].

المطلب الثاني: مزايا التوسط والاعتدال

أولاً: أنه منهج رباني:

فكمال التوسط والاعتدال قد وضع الله ﷻ لها منهجا ربانيا شاملا، وسعى رسول الله ﷺ في حياتــه وسيرته إلى التطبيق الكامل لهذه الوسطية، فهذه الوسطية خصيصة الأمة الإسلامية بمفهومها الإسلامي المتمثل في لغة القرآن ومعانيه ومواقفه، كما أورده القرآن الكريم وطبقه رسوله الكريم ﷺ، فهي تختلف تمام الاختلاف عن مفهوم التوسط عند غير المسلمين. فالوسطية الإسلامية لا تهدف إلى الجمع بين المتضادين أو المتعارضين، أو التوسط بين النقيضين، أو إرضاء الطرفين واتخاذ موقف محايد، وإنما الهدف هو الوصول إلى الحق ومنهاج الإسلام فيه، منهاج الوسط والاعتدال، وتقدير الأحوال والظروف والنتائج، ومراعاة الاستطاعة والقدرة، إذ قامت الدعوة إلى الله على منهاج الوسطية، وكانت سنة النبي ﷺ مثلا أعلى في تطبيق هذا المنهاج، الذي سار على هديه الخلفاء الراشدون، والتابعون لهم بإحسان.

والوسطية سمة ثابتة بارزة في كل باب من أبواب الإسلام: في الاعتقاد، والتشريع، والتكليف، والعبادة، والشهادة والحكم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، والأخلاق والمعاملة، وكسب المال وإنفاقه، ومطالب النفس

---

[١] ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج٦، ص ١٠٨.

[٢] الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، ص٥٢٢.

[٣] الكفوي، **الكليات**، ص٩٣٨.

[٤] المناوي، **التوقيف على مهمات التعاريف**، ص٧٢٥.

[٥] الفرفور، محمد، **الوسطية في الإسلام**، ص٧.

وشهواتها، والأمة الإسلامية لكونها أمة وسطاً وسط لها مسؤولية ربانية مكلفة بأن تحمل أكمل منهج وأقومه في العقيدة والأخلاق والتشريع إلى بقية المجتمعات الإنسانية، مكلفة بدعوة الأمم الأخرى إلى الصراط المستقيم، وذلك بالأساليب والطرق الحكيمة الرشيدة التي أرشدها الله ﷻ في كتابه، وكذلك بالقدوة بأن يصبح المجتمع الإسلامي مجتمعا سليما يحقق لأهله وللبشر جميعا الحق والخير والسعادة والاستقرار، خصوصا في الأوقات والظروف التي يزداد فيها الانحراف والبعد عن المنهج الرباني ويكثر فيها العنف والتطرف وتشويه صورة الإسلام الحقيقية والنيل منه[1].

ويعد التوسط والاعتدال في كل الأمور من أهم مزايا المنهج الإسلامي، فأمة الإسلام أمة الوسط بمعنى أنها تستغل جميع طاقاتها وجهودها في البناء والعمران المادي والتربوي والعلمي والثقافي من غير إفراط ولا تفريط، فهي تحقق التوازن بين الفرد والجماعة، وبين الدين والدنيا وبين العقل والقوة وبين المثالية والواقعية وبين الروحانية والمادية وغيرها[2].

ثانياً: التوازن:

إن التوسط والاعتدال في الإسلام يعني العدل والتوازن والحكمة ووضع الشيء في موضعه، في حين أنه حذر من كل ما يخالف ذلك من مفاهيم خاطئة كالإلحاد والشرك والفواحش والتهور والإسراف، كما حذر من الرهبنة والبخل واللامسؤولية، أو تجاوز الحد مما يهدد الأمن الاجتماعي أو الفكري والبيئي والسياسي والاقتصادي، وهي تعفي من جملة الأسباب التي تؤدي إلى ظاهرة الإرهاب، والتي منها انتشار الجهل وروح التعصب وتفشي الفقر والجوع والظلم والاستبداد والقهر وفقدان الوازع المعنوي، فالوسطية الإسلامية ترفض لأمتها وأفرادها تلك المظاهر، وتحذر منها أشد التحذير، وتدعو إلى معاني العدل والاعتدال والاستقامة والتوازن واحترام الآخر التي يدعو إليها الإسلام، وتدعو إلى نبذ صور العنف والقسوة والغضب والانتقام والإرهاب.

والاعتدال والتوازن في الإسلام يكون بين مطالب الدنيا والنظرة إليها، ومطالب الآخرة والعمل لها، والأخذ بالأسباب المؤدية إلى ذلك، دون إفراط أو تفريط، ودون إسراف أو تقتير، قال الله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [القصص:٧٧].

ثالثاً: اليسر والسماحة:

إن مبدأ اليسر والسماحة ثابت في هذا الدين، وهو قصد عظيم لا ينكره إلا الجاهلون بأحكام الإسلام وحقيقة رسالته، كما فهم السلف أن تقرير مبدأ السماحة والتيسير في الدين لا يعني الإخلال بمقاصد الشريعة والدين، فلا نفهم من مبدأ التيسير أنه تفريط في تطبيق أحكام هذا الدين وتنفيذ أوامره، لأن هذا اليسر لا يكون في إثم ولا معصية.

إن الدين الإسلامي بمجمله قائم على اليسر ورفع الحرج ابتداء من العقيدة وانتهاء بأصغر أمور الأحكام والعبادات بشكل يتوافق مع الفطرة الإنسانية، وتتقبله النفس البشرية من غير تكلف أو تعنت، وهذا ما أشار إليه الله تعالى في مواطن

---

[1] محمود، جمال الدين، **أصول المجتمع الإسلامي**، ص١٧٤.

[2] انظر: ابن تنباك، مرزوق، **موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية**، ص١٠-١٩.

كثيرة من كتابه العزيز منها، قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]، وقوله أيضًا: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥].

وتلت هذه الآيات الكريمات السنة النبوية بأحاديث كثيرة تحمل معاني اليسر في أمور الدين وعدم التنطع والتشدد في العبادات والطاعات، فقد أشار عليه الصلاة والسلام إلى أن من أهم ما تميزت به رسالة الإسلام عن غيرها من الرسالات السماوية السابقة هي السماحة واليسر، والمتمعن في السيرة النبوية يجد أن سلوك النبي ﷺ وتعامله مع صحابته مبني على منهج التيسير والسماحة، والشواهد أكثر من أن تعد أو تحصى، قال النبي ﷺ مبَيِّنًا طبيعة هذا الدين: «إنَّ الدّين يسر، ولن يشادّ الدّين أحد إلا غلبه، فسدّدوا وقاربوا وابشروا...»[١]، وقال لمعاذ بن جبل وأبي موسى الأشعري لمَّا بعثهما إلى اليمن: «يَسِّرا ولا تُعسِّرا، وبَشِّرا ولا تُنَفِّرا ...»[٢].

رابعاً: رفع الحرج والمشقة:

إن من أول ما يتبادر إلى أذهاننا عند ما نطلق كلمة (التوسط والاعتدال) هو معنى اليسر والتيسير، ورفع الحرج، وهذا الفهم صحيح، فالدين الإسلامي هو دين (الوسط) فلا غلو ولا جفاء، ولا إفراط ولا تفريـــط.

واليسر ورفع الحرج مرتبة عالية بين الإفراط والتفريط، وبين التشدد والتنطع وبين الإهمال والتضييع.

يقول الدكتور صالح بن حميد: "إن رفع الحرج والسماحة والسهولة راجع إلى الاعتدال والوسط، فلا إفراط ولا تفريط، فالتنطع والتشدد حرج من جانب عسر التكليف، والإفراط والتقصير حرج فيما يؤدي إليه من تعطيل المصالح وعدم تحقيق مصالح الشرع، فالتوسط هو منبع الكمالات، والتخفيف والسماحة ورفع الحرج على الحقيقة هو في سلوك طريق الوسط والعدل"[٣].

وعندما نطلق التيسير والتخفيف ورفع الحرج، لا يعني التساهل والتهاون بحجة التيسير والتخفيف، ولكنه منهج متكامل بين الإفراط والتفريط، لا تتعلق بجزئية أو جزئيات كما يتصوره كثير من الناس، بل هو منهج شامل يدعو الناس إلى الصراط المستقيم في كل الأقوال والأفعال والأحوال، فلن نستطيع أن ندرك حقيقة الوسطية بدون التيسير وإلا أصبحت الوسطية فارغة من محتواها وحقيقتها ولا وجود لها في الواقع، وبذلك يفقد الدين أهم خاصية من خواصه وهو دين التيسير لا التعسير والوسع لا الحرج[٤].

المطلب الثالث: أثر التوسط والاعتدال في حياة الفرد والمجتمع:

---

١ البخاري، **الصحيح**، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، رقم٣٨.

٢ البخاري، **الصحيح**، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن قبل حجة الوداع، ج٥، ص١٠٨، رقم٤٣٤١.

٣ *ابن حميد، صالح، **رفع الحرج في الشريعة الإسلامية**، ص١٣.*

٤ *الصلابي، علي، **الوسطية في القرآن**، ص٧٢.*

إن المجتمع الصالح يتكون من الأفراد الصالحين، وبصلاح الفرد صلاح الأمة والدولة والمجتمع، فإذا ما صلح المجتمع، سادت السكينة والمودة والمحبة وشعر الناس بنعمة الإخاء الإيماني، وانطلقوا يبحثون عن موارد الرزق، وترقي الأحوال، وتجنب المفاسد والمضار، ويتمثل أثر التوسط والاعتدال في حياة الأفراد والمجتمعات في عدد من النقاط، نجملها فيما يأتي:

١- تعزيز شعور الفرد بالانتماء إلى مجتمعه وقيمه ونظامه وبيئته وثقافته ليرتقي هذا الشعور إلى حد أن يتشبع ذلك الفرد بثقافة الانتماء، وأن يتمثل ذلك في سلوكه وفي دفاعه عن قيم وطنه ومكتسباته.

٢- تنمية وازدهار الشخصية الإنسانية بأبعادها الوجدانية والفكرية والاجتماعية، وإحساسها بالكرامة والحرية والمساواة والعدل الاجتماعي.

٣- تأهيل الفرد تأهيلاً علمياً قوياً على أساس المقاصد الشرعية الحكيمة، والإسهام في بناء الشخصية الإسلامية المعاصرة، بما يحقق لها من التعرف على ما لها من حقوق وما عليها من واجبات؛ إذ أن حقوق الإنسان ليست مجرد مجموعة من الحقوق، بل هي أيضاً مجموعة من الواجبات.

إن للتوسط والاعتدال آفاقا بعيدة المدى؛ لأنها إيجابية النفع، فتكاد السلبيات أو الأخطاء تنعدم أو تكون في طريقها إلى الذوبان والنسيان، وذلك لما تحدثه من آثار اجتماعية ملموسة، من إشاعة المحبة، وتنامي المودة، والابتعاد عن التعصب، والأحقاد، وتوفير الثقة للآخرين وإحسان التعامل معهم، وصارت أحوال الأسرة والمجتمع في طمأنينة وشعور بالاستقرار، وتفرغ للإنجاز والعطاء، والتزام الحق والعدل، والبعد عن الشر والفتنة والفساد في الأرض. أيضاً من أعظم الآثار حسن المعاملة بين أفراد المجتمع، فمن أصول الهدي القرآني التوسط والاعتدال في معاملة الآخرين بما يحقق الغاية المنشودة كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:٩٠]، كما أن من ثمرة وسطية الإسلام فيما يتعلق بحسن المعاملة والحرص الدين الإسلامي على التمسك والالتزام بالخلق الحسن ليس فقط بين أفراد المجتمع، بل حتى في معاملة المخالفين، فهو منهج الإسلام مؤصل ورد الأمر به، وامتدحه، إضافة إلى ترتيب الأجر الجزيل عليه، وهذا كله يدل المنصف على عظمة هذا الدين وسموه، وتفرده عن مناهج البشر؛ لأنه المنهج الأحكم والأصلح للتعامل مع البشر عموما، والمخالف على وجه الخصوص، ذلك أن النفوس البشرية بحاجة إلى من يسوسها بحكمة وروية حتى يستطيع التأثير فيها، وقيادتها إلى الهدى، وأهم ما يتميز به التأكيد على التوسط والاعتدال الذي حارب كل غلو أو تطرف.

المبحث الثاني

مظاهر الوسطية في الاعتقاد والعبادة

المطلب الأول: مظاهر الوسطية في الاعتقاد:

إن الوسطية خير وعدل في كل شيء، سواء أكان ذلك في العقيدة، أم في العبادات، أم في غيرها مما سيأتي بيانه، والمراد بوسطية العقيدة أي اتصافها بالخيرية والسماحة والوضوح والاستقامة والعدالة، عقيدة لا إكراه فيها ولا تعقيد، ولا تمثيل فيها ولا تعطيل.

ومعالم الوسطية في العقيدة الإسلامية ترتكز على: اعتماد منهج القرآن الكريم والسنة المطهرة والسلف الصالح في أمر العقيدة؛ وذلك بالبعد عن اصطلاحات الجدليين والكلاميين، واعتماد القرآن ومنهج القرون الفاضلة، المشهود لها بالخير والإيمان، ثم الاهتمام ببيان أثر العقيدة على الشخصية المسلمة.

وتتجلى مظاهر وسطية الإسلام في العقيدة في أسس الإيمان وأركانه العظام حيث الوضوح والخلو من الغموض والتعقيد، فالإيمان بالله تعالى وبوجوده مركوز في الفطرة، ودلائل ذلك واضحة جلية، والإيمان بأنه لا إله إلا هو وأنه متفرد في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وأنه ليس كمثله شيء، كذلك واضح وضوح الشمس في آيات التنزيل الحكيم وفي آيات الله في الكون، وليس كما فعلته اليهودية والمسيحية التي بالغت في تحريف عقيدة التوحيد، وادعوا ما ليس من حقهم، يقول سبحانه: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [المائدة:١٨].

ولذلك جاءت الآيات القرآنية بغلو أهل الكتاب، ليحذر المسلمون الوقوع فيما وقع فيه اليهود والنصارى من انحراف وضلال، وبُعدٍ عن الاستقامة والاعتدال في أمور العقيدة، ويكون التفريط في العقائد أو في المفاهيم الدينية الأساسية بالتهاون في القضايا التي تدخل في هذه المجالات[1]، والمغالاة في العقيدة هو مرض خطير، وهو محرم شرعاً، لأنه يؤدي إلى نتائج سيئة على الفرد والمجتمع والأمة، وأي غلو أو مغالاة في الاعتقاد يترتب عليه غلو ومغالاة في العبادات، حيث يصرفها عن حقيقتها وأصالتها التي أرادها الله ﷻ[2].

والبعد عن التوسط والاعتدال يوصل الإنسان إلى ضلال السعي والعمل، وانحراف التصور والعبادة، وضياع الأحكام الشرعية واستبدالها بالأهواء والرغبات، مما يؤدي إلى انحراف العقيدة وخسران العمل في العاجل والآجل، ولذلك لا خلاص من الإفراط والتفريط إلا بالوسطية التي أرادها الله لهذه الأمة من خلال صراط الله المستقيم، الذي أمر باتباعه والسير عليه.

المطلب الثاني: مظاهر الوسطية في العبادات:

إن الوسطية في العبادات مترتبة على وسطية العقيدة، فالعقيدة هي الأساس، والعبادات ثمرة من ثمراتها، ونتيجة من نتائجها، فمن اعتدل وتوازن، ولم يغال في الجانب العقائدي، فلا شك أنه سيعتدل ويتوازن، ويتصف بما هو أعدل وأجود وأكمل في عباداته، وبالتالي لا يقع في إفراط أو تفريط.

ومما يدل على ضرورة التوسط والاعتدال في العبادات ما رواه أنس ﷺ قال: "جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج رسول الله ﷺ يسألون عن عبادته، فلما أُخبروا كأنهم تقالُّوها، قالوا: أين نحن من رسول الله ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبداً، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر أبداً ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء ولا

[1] الفرفور، **الوسطية في الإسلام**، ص٨٧.

[2] انظر:الزحيلي، محمد، **الاعتدال في التدين فكراً وسلوكاً ومنهجاً**، ص٢٩.

أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1].

إن النبي ﷺ لم يُقر هؤلاء النفر على ما أرادوا، لأنه رأى فيما ذهبوا إليه مغالاة وإفراط في العبادة، تبعدهم عن طبيعة هذا الدين، فالله ﷻ لا يريد بالعبادة أن يحرم الإنسان نفسه من المتع الحلال والمباحة له شرعاً، ولذلك يقول تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ [القصص:٧٧]، والأحكام الشرعية كلها قائمة على اليسر والسماحة والتوسط والاعتدال، ونجد مصداق ذلك في الآية الجامعة للعبادات القائمة على اليسر هي ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة:٢٨٦]، وقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ [التغابن:١٦].

والمقصود بالعبادات هنا: تلك العبادات التي بين العبد وربه سبحانه كما هو الحاصل في شعائر التعبد؛ كالصلاة والصيام والزكاة والحج والذكر وقراءة القرآن وغيرها، مما لا يدخل في معاملات الخلق، وإلا فكل أعمال العبد وحركاته ومعاملاته ينبغي أن تكون كلها عبادة لله تعالى، وأن يكون فيها العبد مستسلمًا لربه خاضعًا لشرعه؛ قال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الأنعام]، فالإسلام وسط في العبادات والشعائر بين العقائد والنحل التي ألغت جانب العبادات من حياة الإنسان كالبوذية التي اقتصرت على الجانب الأخلاقي والإنساني، وبين العقائد والنحل التي جعلت أتباعها ينقطعون للعبادة ويتركون الحياة والعمل والإنتاج والزواج كالرهبانية عند النصارى، ومن النصوص الشرعية في السيرة النبوية التي تحث على التوسط في العبادة: ما رواه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخل النبي ﷺ فإذا حبل ممدود بين الساريتين، فقال: «ما هذا الحبل»؟ قالوا: هذا حبل لزينب فإذا فترت تعلقت، فقال النبي ﷺ: «لا، حلّوه، ليصلّ أحدكم نشاطه، فإذا فتر فليقعد»[2]، فهذا كله يؤكد يسر الدين ووسطيته، وأنه لم يشرع الإفراط في العبادة إلى حد قد يصل فيه الإنسان إلى شيء من الكلل والملل، ولذلك فإن خير الأعمال أدومها وإن قل، ولم يُشرع في هذا الدين "الرهبانية التي ابتدعها النصارى بعد عيسى عليه السلام، وهي تعني عندهم الانقطاع للعبادة والطاعة والانعزال عن الناس والحياة والزهد في الدنيا والمال، والتخلي عن الطيبات والشهوات والغرائز، وحرّموا الزواج على الرهبان ليتفرغوا للعبادة وفرضوا ذلك على أنفسهم"[3]، فالاعتدال بالبعد عن الإفراط والتفريط في العبادة هو الحل، وفيه السلامة والاستقامة والمداومة على العبادة.

وهكذا نرى أن العبادات لا مشقة فيها ولا حرج، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج:٧٨].

المطلب الثالث: مظاهر الوسطية في المعاملات:

لقد بين القرآن الكريم المنهج العدل الوسط في إنفاق المال وأنه وسط بين طرفين:

---

[1] البخاري، **الصحيح**، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، ج٥، ص١٩٤٩، رقم٤٧٧٦.

[2] البخاري، **الصحيح**، كتاب التهجد، باب ما يكره من التشدد في العبادة، ص١٨٤، رقم١١٥٠.

[3] الزحيلي، محمد، **الاعتدال في التدين فكراً وسلوكاً ومنهجاً**، ص٩١.

الأول: طرف القابضين أيديهم، البخلاء بأموالهم المقترين على أنفسهم وعلى أهليهم فضلاً عمن سواهم، قال الله ﷻ: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾ [الإسراء:٢٩].

الثاني: طرف المسرفين المترفين، المفْرِطُين في إنفاق المال الذين بسطوا أيديهم كل البسط.

وبين هذين الطرفين تقف قلة من الناس سلكوا السبيل القويم والتزموا العدل والتوازن، وهؤلاء هم عباد الرحمن حقًا، والاعتدال في الإنفاق من التدبير الذي دعت إليه الأخلاق السليمة والفطرة البشرية؛ لأنه توسط بين طرفين مذمومين هما البخل والتبذير، فقد وصف الله عباده المؤمنين الذين استقاموا على الطريقة، قال ﷻ: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان:٦٧].

والسماحة في البيع والشراء فضيلة عظيمة حتى يطيب المأكل والمشرب لقوله ﷺ: «رحم الله عبداً سمحاً إذا باع، سمحاً إذا اشترى، سمحاً إذا اقتضى»[1]، لقد دل الحديث على السماحة والسهولة أو المساهلة والجود في البيع والشراء وقضاء الحق بسهولة، أما المماطلة من الغني المليء في أداء الحقوق والأثمان والديون فحرام وظلم، ومن كبائر الإثم والمعاصي لقوله ﷺ: «مطل الغني ظلم، وإذا اتبع أحدهم على مليء فليتبع»[2]، والمعنى يحرم على الغني القادر أن يمطل صاحب الدين بخلاف العاجز لقوله تعالى في التخفيف على المعسرين: ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة:٢٨٠].

نحن في حاجة إلى أن يسود تعاملاتنا خلق التسامح والبعد عن التشدد والتنطع في معاملاتنا خاصة في ظل الظروف الحياتية والضغوطات اليومية التي يمر بها المسلم، فقد امتدح الله هذا السلوك قال تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة:٢٣٧]، فالتوسط والاعتدال هو الطابع العام لشريعتنا، والملمح الأبرز في تعاليمها، فيجب أن نفعل ثقافة الوسطية في مجتمعاتنا، وأن نترجم قيم الوسطية والتسامح وقبول الآخر، ونجسدها في سلوكياتنا ومواقفنا وعلاقاتنا بعضنا ببعض وبالآخر، وتعزيزها في نفوس أبنائنا لحمايتهم من أمراض التطرف والغلو.

المبحث الثالث

مظاهر التوسط والاعتدال في مجال الأخلاق والسلوك

المطلب الأول: الاعتدال في العلاقات الاجتماعية:

يحرص الإسلام على العلاقات الاجتماعية الإيمانية الطيبة بين أبناء المجتمع الإسلامي، ليكون بينهم التعاون والتراحم والتآخي والمحبة والتكافل والتسامح والعفو والإحسان، ومن أصول الهدي القرآني التوسط والاعتدال في هذه العلاقة بما يحقق

[1] البخاري، **الصحيح**، كتاب البيوع، باب المساهلة في المعاملة، ج٧، ص٣٥٩، رقم٢٠٧٦.

[2] البخاري، **الصحيح**، كتاب الحوالات، باب في الحوالة وهل يرجع في الحوالة، ج٢، ص٧٩٩، رقم٢١٦٦؛ ومسلم، **الصحيح**، كتاب المساقات، باب تحريم مطل الغني وصحة الحوالة واستحباب قبولها إذا أحيل على مليء، ج٣، ص١١٩٧.

الغاية المنشودة، كما جاء في أجمع آية في كتابة الله للخير ودفع الشر وهي آية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ﴾ [النحل:٩٠]، وقوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [البقرة:٨٣].

لذا نجد أن الدين الإسلامي قد اهتم بالنظام الاجتماعي، وببناء الأسرة المسلمة، وبعلاقة الأقرباء بعضهم لبعض، والمواطنين بعضهم ببعض، واهتم برفع قيمة الإنسان إلى مقامات التكريم التي كرمه الله تعالى بها، وكان الإنسان قد انحط انحطاطا كبيرا، لذلك جاء الرسول ﷺ بنقلة نوعية للبشرية، وبرفع الإنسان إلى مقامات التكريم التي كرمه بها ربنا تعالى، كما أن النبي الكريم استطاع أن يغير النظام الاجتماعي الذي كان عند العرب على مستوى الأمة، واستطاع نقلها من التبعة إلى القيادة والريادة، فالعلاقات الاجتماعية السوية هي العلاقات التي تقوم على الوسطية، فلا مبالغة في الاختلاط، ولا إسراف في الهجر والانزواء، ولكن خير الأمور أواسطها، والعلاقات الاجتماعية السوية في دائرة الوسطية هي العلاقات التي لا تقوم على تبادل المنافع، أي أن ركنها الأساسي ليس هو الركن المادي، وإنما الألفة والمودة والرحمة، وبذل المعروف للكافة من غير انتظار مقابل، أما تلك العلاقات التي تنشأ للمصالح وتنتهي بانتهائها فإنها علاقات أخرى يمكن أن نسميها علاقات مالية أو اقتصادية، أو سياسية.

والتوسط في العلاقات الاجتماعية تكون في جميع الأحوال سواء أكان ذلك بين الزوجين لبناء الأسرة المسلمة، أم كان ذلك في الإحسان والترفق بالوالدين، أم كان ذلك في التعامل بين أفراد الأسرة والمجتمع.

إن للوسطية آفاقا بعيدة المدى في بناء الشخصية المسلمة المعاصرة؛ لأنها إيجابية النفع، فتكاد السلبيات أو الأخطاء تنعدم، وذلك لما ينتج عنها من آثار اجتماعية ملموسة، من إشاعة المحبة والمودة، والابتعاد عن التعصب، والأحقاد، وتوفير الثقة للآخرين وإحسان التعامل معهم، وصارت أحوال الأسرة والمجتمع في طمأنينة وشعور بالاستقرار، وتفرغ للإنجاز والعطاء، والتزام الحق والعدل، والبعد عن الشر والفتنة والفساد في الأرض، ونقاء النفس من الأدران الأخلاقية، وتؤدي إلى نظافة المجتمع من آفات الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق، وأمراض الأثرة والأنانية وحب الذات، ولها غير ذلك فوائد كثيرة ينعم بها كل مجتمع هيمن عليه التوسط والاعتدال، وكانت سمته البارزة في تعامله وفي سلوكه وحياته.

المطلب الثاني: الاعتدال في الطعام والشراب:

لقد كانت حياة رسول الله ﷺ مليئة بالعبر والدروس في كل نواحي الحياة، ومنها ما يتعلق بسلوكه في الطعام والشراب، فقد كان ﷺ مقتصداً في طعامه، فقد روى أنس بن مالك قال: قال ﷺ: «إذا سقطت لقمة أحدكم، فليمط عنها الأذى، وليأكلها ولا يدعها للشيطان»، قال: وأمرنا أن نسلت القصعة، وقال: «إنكم لا تدون في أي طعامكم البركة»[1]، وعن المقدام قال ﷺ: «ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه، حسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان فاعلاً لا محالة، فثلث

[1] مسلم، **الصحيح**، كتاب الأشربة، باب استحباب لعق الأصابع والقصعة وأكل اللقمة الساقطة بعد مسح ما يصيبها من أذى وكراهة مسح اليد قبل لعقها، ج٣، ص١٦٣١، رقم٢٠٣٣.

لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»[1]، وكان رسول الله ﷺ إذا أصبح وسأل أهله عن طعام فلم يجد، نوى الصيام، ومن وصاياه في هذا الخصوص قوله ﷺ: «من فقه الرجل قصده في معيشته»[2]، وأكد رسول الله ﷺ أن الاقتصاد في المعيشة يجنب الإنسان الفقر والدين، فالأكل والشرب مشروع مما أباح الله، ويكون النهي عندما يكون هناك إسراف وتبذير، سواء أكان الإسراف في النوع أم الكم أم العادة، قال القرطبي: "على المرء أن يأكل ما وجد، طيباً أو كان قفاراً، ولا يتكلف الطيب ويتخذه عادة، وقد كان النبي ﷺ يشبع إذا وجد، ويصبر إذا عدم، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها، ويشرب العسل إذا اتفق له، ويأكل اللحم إذا تيسر، ولا يعتمد أصلاً، ولا يجعله ديدناً، ومعيشة النبي ﷺ معلومة وطريقة الصحابة منقولة"[3].

هذه نماذج سلوكية من حياة الرسول ﷺ في التوسط والاعتدال في الطعام والشراب، يجب أن نتأسى بها في حياتنا، وتستفيد منها الشخصية المسلمة المعاصرة، وبخاصة أن الأمة الإسلامية في هذه الأيام تعاني من أزمات اقتصادية بجانب العقائدية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية، ولا مخرج من هذه الأزمات إلاّ بالالتزام بهدي النبي ﷺ، وأخذ العبر الآتية:

١- يجب أن تكون حياة المسلم كلها لله ﷻ، وينظر إلى المأكل والمشرب والملبس ونحو ذلك على أنها وسائل تعينه على عبادة الله ﷻ، وليست في حد ذاتها غاية مقدسة.

٢- كما يجب أن يقتدى المسلم في حالة الأزمات الاقتصادية برسول الله ﷺ من حيث الخشونة والاقتصاد، وفى حالة الرخاء يلزم أن يدخر لأيام الكساد.

٣- في الاعتدال في المأكل والمشرب أثر اقتصادي على المجتمع بأسره، حيث يقلل من النفقات غير الضرورية، ويوفر على المجتمع مالاً يمكن إنفاقه في مشروعات أخرى تعود عليه بالنفع، فهو من الناحية الاقتصادية دعامة لدفع عملية التنمية والبناء، وعليه يتوقف رافد أساسي في ضبط إهدار المال وصرفه في غير فائدة، في حين تعيش مجتمعات بأكملها تعاني الفقر والمجاعات في الوقت الذي تلقي فيه الأطعمة في النفايات في كثير من الدول الغنية التي لا تشعر بحاجة الفقراء وضرورة مواساتهم.

المطلب الثالث: الاعتدال في الملبس:

التوسط والاعتدال في الملبس مطلوب من المسلم، فلا يسرف بأن يتباهى ويختال؛ وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك، فقال: «من لبس ثوب شهرة ألبسه الله يوم القيامة ثوبًا مثله، ثم تلهب فيه النار»[4]، ومن صور المبالغات التي ظهرت بالمجتمع الإسلامي المبالغات في اللباس والزينة بحث الفرد عن أغلى الثياب، والإكثار من اقتناءها، وأدوات الزينة بما يزيد ويفيض عن حاجته، قال ﷺ: «كلوا واشربوا والبسوا، وتصدقوا من غير مخيلة ولا إسراف؛ فإن الله يحب أن يرى نعمته على عبده»[5].

---

[1] ابن ماجه، **السنن**، كتاب الأطعمة، رقم٣٣٤٠

[2] أخرجه أحمد في **مسنده**، كتاب مسند المكثرين من الصحابة، رقم٤٠٤٨.

٣ انظر: القرطبي، محمد، **الجامع لأحكام القرآن**، ج١٦، ص٢٠٢.

[4] أبو داود، **السنن**، كتاب اللباس، باب في لبس الشهرة، ج٢، ص١٧٢، رقم٤٠٢٩. وحسنه الشيخ الألباني.

[5] الطيالسي، **المسند**، ص٢٩٩، رقم٢٢٦١. وانظر: ابن ماجه، **السنن**، كتاب اللباس، باب الصفرة للرجال، ج٢، ص١١٢٩، رقم٣٦٠٥.

بالإضافة إلى ما يحدث في مجتمع النساء من اقتناء أغلى المجوهرات والملابس، والمبالغة في أدوات الزينة والعطورات، والتباهي والتنافس في هذا، ولا يعني أن يرتدي المسلم الملابس القبيحة المرقعة، وإنما يجب عليه أن يقتصد في ملابسه من حيث ثمنها وألوانها وكميتها دون إسراف أو تقتير، وليعمل بقول القائل: البس من ثيابك ما لا يزدريك (يحتقرك) فيه السفهاء، وما لا يعيبك به الحكماء، قال تعالى في صفات عباد الرحمن: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا﴾ [الفرقان:٦٧].

هذا هو ديننا، ينهانا عن الإسراف والتبذير، ويأمرنا بالاقتصاد والتوسط والاعتدال في الأمور كلها، ولكن من المؤسف أن تغيبَ هذه الوسطية عن حياة كثير من الناس، وكأنهم لم يقرأوا قول الله تعالى في كتابه الحكيم: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [الأعراف:31].

المطلب الرابع: الاعتدال في العمل والراحة:

إن من سمة الإسلام، التوازن والاعتدال في كل الآفاق والنواحي، الاعتدال الذي يليق برسالة عامة خالدة، بين بواعث الدين ومطالب الدنيا، الاعتدال بين العمل لهذه الحياة، والعمل لما بعد الحياة، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ﴾ [القصص:٧٧]، فلم يطلب الإسلام من المسلم أن يكون راهباً في دير، أو عابداً في خلوة، قائماً ليله، صائماً نهاره، لا حظَّ له في الحياة ولا حظ للحياة فيه، وإنما طلب من المسلم أن يكون إنساناً عاملاً في الحياة، يعمرها ويسعى في مناكب الأرض، ويلتمس الرزق في خباياها، مخالطاً للناس، وقال ﷺ: «المسلم الذي يخالط الناس، ويصبر على أذاهم، خير من المسلم الذي لا يخالط الناس، ولا يصبر على أذاهم»[1]، فالمسلم لا تشغله مطالب الحياة وحقوق الجسد عن مطالب وحقوق الروح، لا تشغله رغائب الدنيا الفانية عن حقائق الآخرة الباقية، فالمسلم يعتدل في عمله، فلا ينهك جسمه ويتعبه، ولا يجعل عمله يؤثر على عبادته أو على واجباته الأخرى، وإذا ما شعر بالإجهاد الشديد في عمله فعليه أن يستريح؛ حتى يستطيع مواصلة العمل بعد ذلك، والمسلم يحافظ على وقته بتنظيمه، وتقسيمه، بحيث لا يطغى جانب من جوانب حياته من عمل أو عبادة أو نوم أو لعب على جوانب أخرى، ولقد منحنا الإسلام حق الترويح عن أنفسنا وقلوبنا بالوسطية والاعتدال، فما أحوج الناس أن يلتزموا هذا الدين ليجدوا الإيمان في القلوب والراحة للأجساد، ما أحوجهم إلى دين الفطرة التي فطروا عليها.

المطلب الخامس: الاعتدال في الكلام:

الاقتصاد في الحديث يجنب المسلم الوقوع في الخطأ؛ لأن من كثر كلامه كثر خَطَؤُه، وكما قيل: خير الكلام ما قل ودل. والمسلم يصمت عن الكلام إذا رأى في صمته خيرًا، وقد قال النبي ﷺ: «ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليسكت»[2]، وكثرة الكلام كقلّته، فالثرثرة أمر معيب، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك، فقال: «إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني

[1] الترمذي، **السنن**، كتاب اللباس، باب الصفرة للرجال، ج٩، ص٤٧، رقم١١٦٢.

[2] البخاري، **الصحيح**، كتاب الأدب، باب إكرام الضيف وخدمته إياه بنفسه، ج١٠، ص٣٧٣، رقم٦١٣٨.

مجلسًا يوم القيامة أحسنكم أخلاقًا، وإن أبغضَكم إليَّ وأبعدَكم مني مجلسًا يوم القيامة الثرثارون (الذين يكثرون الكلام دون ضرورة)، والمتشدقون (الذين يتحدثون بالغريب من الألفاظ)، والمتفيهقون»، قالوا: يا رسول الله! قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: «المتكبرون»[1]. والسكوت الدائم عيّ وخرس، فهو أمر معيب أيضاً، والكلام ينبغي أن ينطلق حسب الحاجة، والسكوت ينبغي أن يكون بحسب الموقف، ولم يكن النبي ﷺ متقعراً في الكلام، ولا متشدقاً بحيث لا يفهم، ومع ذلك لم يكن يختصر الكلام اختصاراً مخلاً، بل إنه أوتي جوامع الكلم كما أخبر هو عن نفسه حيث قال ﷺ: «أعطيت فواتح الكلام وجوامعه وخواتمه»[2]، وهكذا حال المسلم صاحب الشخصية المتزنة، فكلامه طاعة لله ﷻ، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر، وذكر لله تعالى، وشكره وعبادته، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل، ويسكت حينما يكون الكلام معصيَّة لله ﷻ، كالظلم والرياء والغيبة والنميمة، وقول الباطل وغير ذلك من آفات اللسان.

ويقول ابن القيم: "وفي اللسان آفتان عظيمتان، إن خلص من إحداهما لم يخلص من الأخرى: آفة الكلام، وآفة السكوت؛ وقد يكون كل منهما أعظم إثمًا من الأخرى في وقتها؛ فالساكت عن الحق شيطان أخرس، عاص لله، مراء مداهن إذا لم يخف على نفسه. والمتكلم بالباطل شيطان ناطق، عاص لله. وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته؛ فهم بين هذين النوعين. وأهل الوسط –وهم أهل الصراط المستقيم– كفُّوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة"[3]، وهكذا كان السلف الصالح –رحمهم الله تعالى– في طريقتهم في الكلام أو السكوت وسطًا بين الإفراط والتفريط.

المطلب السادس: الاعتدال في معاملة الآخرين:

إن تحقيق المنهج الرباني في التربية يكفل السعادة للشخصية المسلمة في التعامل مع الآخرين، وبها يتحقق الأمن الاجتماعي، فيحذر المسلم من أذية أخيه المسلم من قتل أو سرقة أو هتك للقيم والأخلاق، قال ﷺ: «لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبيع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره» [4]، فتعامل المسلم الصادق مع الآخرين من منطلق الحب في الله عملاً بقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠]، فهي إخوة مرتبطة بالإيمان، ومنهج التعامل مع الآخرين زاخر بالقيم والآداب والفضائل، ومن ذلك إظهار المحبة، والإعلان عنها لتقوية العلاقات، وتوثيق الصداقات، وإفشاء السلام، لزيادة المحبة، والتعاون في الخير ونصرة الحق، والحرص على الابتسامة لقول الرسول ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق»[5]، ومن حسن المعاملة العفو عن زلاتهم، والرفق بهم، وعدم اغتيابهم، وإعطاؤهم حقوقهم، والدعاء لهم بظهر الغيب.

---

[1] الترمذي، **السنن**، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق، ج٤، ص١٤١، رقم٢٠١٨.

[2] أحمد ابن حنبل، **المسند**، ج٢، ص١٨٩، رقم٦٧٧٦.

[3] ابن القيم، **الجواب الكافي**، ص٢٢٠.

[4] البخاري، **الصحيح**، كتاب الأدب، باب ما ينهى عن التحاسد والتدابر، ج١٠، ص١١٧٣، رقم٦٠٦٥.

[5] مسلم، **الصحيح**، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب طلاقة الوجه عند اللقاء، ج٤، ص١٤٤، رقم٢٦٢٦.

فالاعتدال في معاملة الآخرين مطلب مهم، فالكثيرون منا يتعرضون في العصر الحاضر لاختلال علاقاتهم مع الآخرين نتيجة العصبية والقلق المتواصل والضغوط والمشكلات المتزايدة، ولكن السبب الأهم في الحقيقة هو الافتقار إلى مهارات التواصل وعدم الانسجام مع الآخرين، ولعلنا نوضح أن الحل الأمثل هو الاقتداء بمنهج الرسول ﷺ في تعديل السلوك والضبط الذاتي، فقد كان الرسول ﷺ يبدأ من لقيه بالسلام، وكان إذا لقي أحداً يعرفه بدأه بالمصافحة، وكان يعطي كل من جلس إليه نصيباً من وجهه، أي من النظر إليه والاهتمام به، وكان في كل سلوكه يتسم بالحياء والتواضع. بقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

الخاتمة:

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وقد أكرمنا الله بتمام هذا البحث الذي كان من أهم نتائجه ما يأتي:

١- أن كمال الوسطية قد وضع الله ﷻ لها منهجا ربانيا شاملا، وسعى ﷺ في حياته وسيرته إلى التطبيق الكامل لهذه الوسطية.

٢- ميّز الله هذه الأمة الإسلامية بميزة الوسطية في كل المجالات، لتشهد على الناس جميعاً، وتقيم فيهم العدل والقسط، وتضع لهم الموازين والقيم.

٣- إن انحراف العقيدة يترتب عليه انحراف في العبادة؛ لأنها ثمرة من ثمراتها، فمن اعتدل وتوازن في الجانب العقائدي، ولم يغال أو يتهاون في ذلك، فلا شك أنه سيعتدل ويتوازن في عباداته، وبالتالي لا يقع في إفراط أو تفريط.

٤- أكد الإسلام على الوسطية في العلاقات الاجتماعية الإيمانية بين أبناء المجتمع الإسلامي ليتحقق بينهم التعاون والتراحم والتآخي والتكافل والتسامح والعفو والإحسان.

٥- يتحقق الاعتدال في الإنفاق في المطعومات والمشروبات والملبس، وذلك بعدم الإسراف أو البخل مما يحقق الوسطية بشكل واضح وصريح، وقد أمر الرسول ﷺ بهذا التوازن والاعتدال.

٦- أن وسطية الإسلام تقتضي إيجاد شخصية مسلمة متزنة تقتدي بسيرة النبي ﷺ في شمول الفهم، واعتدال المنهج، وسلامة السلوك من الإفراط والتفريط.

٧- الإسلام دين الوسطية والاعتدال، والوسط العادل يكون دائماً هو الأمثل والأفضل. والوسطية سمة ملازمة للإسلام في الاعتقاد والعبادة والأخلاق والسلوك.

التوصيات:

١. تربية الأمة على منهج التوسط والاعتدال تربية عملية شاملة، مما يقضي على الخلل الموجود في محيط المجتمع المسلم، سواء أكان إفراطًا أو تفريطًا.

٢. توصي الباحثة بضرورة التأكيد على دور المؤسسات المجتمعية التربوية المختلفة في التضافر مع الأسرة لتفعيل قيمة التوسط والاعتدال بحياة الشباب.

٣. الممارسة العلمية الواقعية لمنهج التوسط والاعتدال من قبل العلماء وطلاب العلم والدعاة، مما يتيح للناس أن يروا القدوة الصالحة التي هم في أمس الحاجة إليها.

المصادر والمراجع:

١. ابن تنباك، مرزوق، **موسوعة القيم ومكارم الأخلاق العربية والإسلامية**، (الرياض: دار رواح للنشر والتوزيع، ١٤٢١هـ).

٢. ابن حميد، صالح، **رفع الحرج في الشريعة** ، (جدة: دار الاستقامة، ط٢، ١٤١٢هـ).

٣. ابن حنبل، أحمد بن محمد، **المسند**، (القاهرة: دار الحديث، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م).

٤. ابن فارس، أحمد، **معجم مقاييس اللغة** (بيروت: دار الجيل، ط١، ١٤١١هـ/١٩٩١م).

٥. ابن القيم، محمد أبو عبدالله، **الجواب الكافي**، (بيروت: دار الكتب العلمية).

٦. ابن ماجه، أبو عبدالله بن يزيد القزويني، **السنن**، تحقيق: فؤاد عبدالباقي، (بيروت: دار الفكر العربي).

٧. البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل، **الصحيح**، تحقيق: د. مصطفى البنا، (دمشق: دار ابن كثير، ط٣، ١٤٠٧هـ).

٨. الترمذي، أبو عيسى محمد، **السنن**، (بيروت: دار الفكر، ١٤٠٠هـ).

٩. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق وضبط: محمد سيد كيلاني، (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع).

١٠. الزحيلي، محمد، **الاعتدال في التدين فكراً وسلوكاً ومنهجاً**، (دمشق، بيروت: اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع ط٣، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م).

١١. الصلابي، علي، **الوسطية في القرآن**، (بيروت: دار المعرفة، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).

١٢. الفرفور، محمد، **الوسطية في الإسلام**، (بيروت: دار النفائس، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م).

١٣. الفيروز آبادي، مجد الدين، **القاموس المحيط**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٧هـ).

١٤. القرطبي، محمد، **الجامع لأحكام القرآن**، (بيروت: دار الفكر، ط١، ١٤٠٧هـ).

١٥. الكفوي، أبو البقاء، **الكليات**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٣هـ/١٩٩٣م).

١٦. محمود، جمال الدين، **أصول المجتمع الإسلامي**، (القاهرة: دار الكتاب المصري، ، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

١٧. المناوي، محمد، **التوقيف على مهمات التعاريف**، تحقيق: محمد رضوان الداية، (دمشق: دار الفكر، ط١، ١٩٩٠م).

١٨. مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري، **الصحيح**، تحقيق وترقيم: محمد فؤاد عبدالباقي، (الرياض: نشر وتوزيع الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م).

الوسطية والاعتدال في ضوء القرآن والسنة

د. محمد مصطفى أحمد شعيب[1]

ملخص البحث:

لقد مَنَّ الله على أمة الإسلام فجعلها خيرَ الأُمم، وآتاها من المناهج والشرائع خيرها وأبقاها، فكانت هي الأمة الوسط من بين الأُمم. قال سبحانه: ﴿وكذلك جعلناكم أُمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول شهيداً عليكم﴾ [البقرة:١٤٣]. وجاءَت النصوص الكثيرة في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ تأمرنا بالاستقامة على هذا المنهج الوسط، والذي لا انحراف فيه ولا شطط، وتنهانا عن الغلو فيه، أو الجنوح عنه لسواه. وفي عصرنا الحاضر فشَتْ ظاهرةُ الغلو في الدين، والفهمُ السقيم لنصوصه وتعاليمه، وتطاير شررُ ذلك هنا وهناك، واستفحل خطره وضرره على المجتمعات، بل على الأمة الإسلامية كلها؛ فكان لزاماً على رجالاتِ الأمة وعلمائها ومفكريها، أن يبينوا للأمة – وللناس جميعاً – سماحة هذا الدين، ووسطيته واعتداله، كما ينبغي عليهم دراسة ظاهرة الغلو والتشدد، ومعرفة أسبابها ودوافعها؛ ثم المشاركة في علاجها وقلع جذورها، أو الحدِّ منها والتخفيف من آثارها – على أقل تقدير–. وهذا يظهر بجلاءٍ أهمية هذا البحث، فالبحث يعدُّ مُساهمة في إبراز وسطية الشريعة الإسلامية واعتدالها، والحث على الوسطية والاعتدال، كما أنه يهدف لعلاج ظاهرتي الغلو والتفريط؛ ومن ثم تحقيق الوسطية التي رغب الشرع فيها وحث عليها.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق وسيد المرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد! لقد مَنَّ الله على أمة الإسلام فجعلها خيرَ الأُمم، وآتاها من المناهج والشرائع خيرها وأبقاها، فكانت هي الأمة الوسط من بين الأُمم. قال سبحانه: ﴿وكذلك جعلناكم أُمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول شهيداً عليكم﴾ [البقرة:١٤٣]. وجاءَت النصوص الكثيرة في كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ تأمرنا بالاستقامة على هذا المنهج الوسط، والذي لا انحراف فيه ولا شطط، وتنهانا عن الغلو فيه، أو الجنوح عنه لسواه. وفي عصرنا الحاضر فشَتْ ظاهرةُ الغلو في الدين، والفهمُ السقيم لنصوصه وتعاليمه، وتطاير شررُ ذلك، واستفحل خطره وضرره؛ فكان لزاماً على رجالاتِ الأمة كلهم؛ علماءَ ودعاةً، ومفكرين وأُدباء، وأئمةً وخطباءَ، ومعلمين ومربين؛ أن يتكاتفوا لدراسة هذه الظاهرة، ومعرفة أسبابها ودوافعها؛ ثم المشاركة في علاجها وقلع جذورها من بيننا.

---

[1] رئيس قسم البحوث والمناهج، بالهيئة العالمية لتحفيظ القرآن الكريم، بجدة.

التمهيد

ماهية الوسطية والاعتدال

المطلب الأول: معنى الوسطية لغة وشرعاً:

الوسطية لغة: الوسطية مأخوذة من مادة وسط، وهى تدل على العدل، والخيرية، والفضل، والنصف، والتوسط بين الطرفين. قال ابن فارس: "(وسط) الواو والسين والطاء: بناء صحيح يدل على العدل والنصف، وأعدل الشيء: أوسطه ووسطه"[1]. وقال ابن منظور: "و(وَسَطُ الشيءِ وأَوْسَطُه): أَعْدَلُه ... وقيل في صفة النبي ﷺ: إنه كان من أوسَطِ قومه: أي خيارِهِم"[2].

والوسطية شرعاً: الخيرية والعدالة، والتوسط بين الإفراط والتفريط؛ قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣]، أي: عدلاً، وبهذا المعنى فسَّرها النبي ﷺ في حديث أبي سعيد الخدري فقال: «الوسط: العدل»[3].

وقال الإمام ابن جرير الطبري –رحمه الله–: "الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه، غلو النصارى الذين غلوا بالترهب وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله وقتلوا أنبياءهم وكذبوا على ربهم وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها"[4].

وتأتي الوسطية مقابل الغلو والإفراط والجفاء والتفريط، وهي العدل والطريق الأوسط الذي تجتمع عنده الفضيلة.

المطلب الثاني: الاعتدال لغة وشرعاً:

الاعتدال لغة: الحكم بالعدل، والاستقامة، والمماثلة، والموازنة، والتزكية، والمساواة، والإنصاف، والتوسط.

جاء في الصحاح: "العدل: خلاف الجور، يقال: عدل عليه في القضية فهو عادل"[5]. وفي مقاييس اللغة: "(عدل) العين والدال واللام أصلان صحيحان، لكنهما متقابلان كالمتضادين: أحدهما يدل على استواء، والآخر يدل على اعوجاج؛ فالأول العدل من الناس: المرضي المستوي الطريقة، يقال: هذا عدل ... والمشرك يعدل بربه – تعالى عن قولهم علواً كبيراً – كأنه

---

١ ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج٦، ص١٠٨.

٢ ابن منظور، **لسان العرب**، ج٧، ص٤٣٠.

٣ رواه البخاري في **صحيحه**، كتاب تفسير القرآن، باب قوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾، ج٦، ص٢١، رقم٤٤٨٧. وتمام الحديث: عن أبي سعيد الخدري ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: «يُدعى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فتشهدون أنه قد بلغ: ﴿ويكون الرسول عليكم شهيدا﴾ فذلك قوله جل ذكره: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾، والوسط: العدل». قال ابن حجر في **فتح الباري**، ج٨، ص١٧٢: "هو مرفوع من نفس الخبر وليس بمدرج من قول بعض الرواة كما وهم فيه بعضهم".

٤ الطبري، **تفسير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، ج٢، ص٦٢٦، ٦٢٧.

٥ الجوهري، **الصحاح**، ج٥، ص١٧٦٠.

يُسوِّي به غيره. والعدل: نقيض الجور، تقول: عدل في رعيته، ويوم معتدل، إذا تساوى حالاً حره وبرده"[1]. وفي القاموس المحيط: "الاعتدال: توسط حال بين حالين في كمٍّ أو كيفٍ، وكل ما تناسب فقد اعتدل، وكل ما أقمته فقد عَدَلْتَهُ وعَدَّلْتَه، يَعْدِلُ عَدْلاً وعُدولاً: حاد"[2].

والاعتدال شرعاً: التزام المنهج العدل الوسط بين الإفراط والتفريط، والغلو والجفاء.

فالاعتدال هو: الاستقامة والتزكية، والتوسط والخيرية، وهو بهذا يرادف الوسطية التي ميز الله بها هذه الأمة. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

المبحث الأول

دعوة النصوص الشرعية إلى الوسطية والاعتدال

عندما نتأمل النصوص الشرعية نجدها مليئة بالدعوة إلى الوسطية والاعتدال، والبعد عن الغلو والجفاء، والحث على القصد وملازمة الاستقامة، وسوف أقتصر على أبرز هذه النصوص:

المطلب الأول: بعض نصوص القرآن في الوسطية والاعتدال:

❁ قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ أي: عدولاً خياراً، وقد فسرها بذلك النبي ﷺ[3]. قال الإمام ابن كثير –رحمه الله– في تفسير هذه الآية: "يقول تعالى: إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم، عليه السلام، واخترناها لكم؛ لنجعلكم خيار الأمم، لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم؛ لأن الجميع معترفون لكم بالفضل، والوسط هاهنا: الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسباً وداراً، أي: خيرها، وكان رسول الله ﷺ وسطاً في قومه، أي: أشرفهم نسباً، ومنه الصلاة الوسطى، التي هي أفضل الصلوات، وهي العصر، كما ثبت في الصحاح وغيرها، ولمَّا جعل الله هذه الأمة وسطاً خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب، كما قال تعالى: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج:٧٨]"[4]. وقد وصف الله هذه الأمة في موضع آخر بالخيرية، فقال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠]، فأمة الإسلام أمة وسط: عدل خيار بلا إفراط ولا تفريط، ولا غلو ولا جفاء.

---

١ ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج٤، ص٢٤٧.

٢ الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، ص١٠٣٠.

(٣) تقدم الحديث بتمامه وتخريجه.

٤ ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج١، ص٤٥٤.

❁ وقال جل وعلا: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:١١٠]، أمر الله سبحانه بالتوسط في الدعاء دون الجهر وفوق المخافتة والسرِّ، وهذا مظهر من مظاهر التوسط في العبادة، التي هي الدعاء.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: "نزلت هذه الآية ورسول الله ﷺ مختفٍ بمكة، فكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن، فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله ومن جاء به، فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ أي بقراءتك فيسمع المشركون فيسُبوا القرآن ﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ عن أصحابك فلا تُسمِعهم ﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ بقول: بين الجهر والمخافتة"[1].

والمراد بالصلاة: القراءة التي هي أَحد أركانها، ويُروى أَن أَبا بكر ﷺ كان إذا صلى بالليل خفض صوته جدا، ويقول: أناجي ربي وقد علم حاجتي، وكان عمر ﷺ إذا صلَّى بالليل رفع صوته، ويقول: أَطرد الشيطان وأوقظ الوسنان، فلما أَنزل الله هذه الآية قال النبي ﷺ لأبي بكر: «ارفع من صوتك شيئاً»، وقال لعمر: «اخفض من صوتك شيئاً»[2].

❁ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء:٢٩]، أي: ولا تمسك يدك عن النفقة في الحقِّ كالمغلولة يده لا يقدر على مدها، ﴿ولا تبسطها﴾ بالعطاء، ﴿كل البسط﴾ فتعطي جميع ما عندك، ﴿فتقعد ملوماً﴾ يلومك سائلوك بالبخل والإمساك إذا لم تعطهم، و"الملوم": الذي أتى بما يلوم نفسه أو يلومه غيره، ﴿محسوراً﴾ منقطعاً بك لا شيء عندك تنفقه، قال قتادة: ﴿محسوراً﴾ نادماً على ما فرط منك[3].

❁ وقال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧]، قال الإمام ابن كثير –رحمه الله–: "أي: ليسوا بمبذرين في إنفاقهم فيصرفون فوق الحاجة، ولا بخلاء على أهليهم فيُقصرِّون في حقِّهم فلا يكفونهم، بل عدلاً خياراً، وخير الأمور أوسطها، لا هذا ولا هذا ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾"[4].

ففي هذه الآيات دعوة إلى التوسط في الإنفاق، وعدم الإسراف والبذخ أو البخل والتقتير، وإنما الاعتدال والتوسط.

❁ ومثل ذلك قوله سبحانه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ❁ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣١-٣٢].

فالمسلم مطالب بأخذ زينته عند كل مسجد، ووقت الاستعداد لكل صلاة، ومباحٌ له أن يأكل ويشرب ويستمتع بمتع الحياة التي أحلها الله تعالى له، لكنه مأمورٌ بالتوسط والاعتدال في ذلك كله؛ فتحريم الطيبات غلو في التزهّد، والإسراف

---

١ رواه البخاري في **صحيحه**، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها﴾، ج٦، ص٨٧، رقم٤٧٢٢؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الصلاة، باب التوسط في القراءة في الصلاة الجهرية بين الجهر والإسرار، إذا خاف من الجهر مفسدة، ج١، ص٣٢٩، رقم٤٤٦.

٢ انظر: الطبري، **التفسير**، ج١٥، ص١٣٢.

٣ انظر: البغوي، **معالم التنزيل في تفسير القرآن**، ج٥، ص٩٠.

٤ ابن كثير، **التفسير**، ج٦، ص١٢٤.

والتبذير غلو في الاستمتاع بمتع الدنيا وملذاتها، والصراط المستقيم الذي أمر الله تعالى به؛ هو التوسط بينهما، والاعتدال في الإنفاق والاستمتاع بمتع الحياة مما أحله لله جل وعلا.

❁ ومن الأدلة على الوسطية والاعتدال أيضاً: قول الله جل وعلا: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقوله سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ﴾ [النساء:٢٨]، وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة:٦]، وقوله عز وجل: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨].

ففي هذه الآيات بيان أن ديننا دين يسر، لا حرج علينا فيه، وأن الله يريد أن يخفف عنا، وهذا اليسر والتخفيف ونفي الحرج دلالة على أن ديننا دين وسطية واعتدال، فإنَّ الغلو والتشدد ليس من الإسلام في شيء، والتوسط هو سمة الدين ومنهاجه، وهو الذي يتحقق به التيسير والتخفيف ورفع الحرج عن المكلفين.

المطلب الثاني: بعض نصوص السنة في الوسطية والاعتدال:

مما ورد في السنة النبوية من أدلة على الوسطية والاعتدال:

❁ حديث أنس بن مالك ﷺ، قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أُخبِروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي ﷺ؛ قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟ قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ إليهم، فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1].

والحديث دليل على أن التشدد في العبادة ليس من سنة النبي ﷺ ولا طريقته، فسنته هي التوسط والاعتدال. وجاء في "فتح الباري" للحافظ ابن حجر – رحمه الله–: في شرح قوله ﷺ: «فمن رغب عن سنتي فليس مني»: (المراد: من ترك طريقتي وأخذ بطريقة غيري فليس مني، ولمح بذلك إلى طريق الرهبانية فإنهم الذين ابتدعوا التشديد كما وصفهم الله تعالى، وقد عابهم بأنهم ما وفوه بما التزموه، وطريقة النبي ﷺ الحنيفية السمحة، فيفطر ليتقوى على الصوم، وينام ليتقوى على القيام، ويتزوج لكسر الشهوة وإعفاف النفس وتكثير النسل، وقوله: «فليس مني» إن كانت الرغبة بضرب من التأويل يعذر صاحبه فيه، فمعنى: «فليس مني» أي: على طريقتي، ولا يلزم أن يخرج عن الملة، وإن كان إعراضاً وتنطعاً يفضي إلى اعتقاد أرجحية عمله، فمعنى: «فليس مني»: ليس على ملتي؛ لأن اعتقاد ذلك نوع من الكفر". ثم نقل الحافظ كلام الطبري فقال: "فيه الرد على من منع استعمال الحلال من الأطعمة والملابس، وآثر غليظ الثياب وخشن المأكل" ... والحق أن ملازمة استعمال الطيبات تفضي إلى الترفه والبطر، ولا يأمن من الوقوع في الشبهات؛ لأن من اعتاد ذلك قد لا يجده أحيانا، فلا يستطيع الانتقال عنه فيقع في

---

١ رواه البخاري في **صحيحه**، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، ج٧، ص٢، رقم٥٠٦٣؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه، ج٢، ص١٠٢٠، رقم١٤٠١.

المحظور كما أن منع تناول ذلك أحيانا يفضي إلى التنطع المنهي عنه، ويردُّ عليه صريح قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ [الأعراف:٣٢]، كما أن الأخذ بالتشديد في العبادة يفضي إلى الملل القاطع لأصلها، وملازمة الاقتصار على الفرائض – مثلاً – وترك التنفل يفضي إلى إيثار البطالة وعدم النشاط إلى العبادة، وخير الأمور الوسط"[١].

❁ وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «هلك الْمُتَنَطِّعُون، هلك الْمُتَنَطِّعُون، هلك الْمُتَنَطِّعُون»[٢].

والمتنطعون هم المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم.

وقال الإمام الطيبي – رحمه الله –: "أراد بهم المتعمقين الغالين في خوضهم فيما لا يعنيهم من الكلام، والأصل في المتنطع الذي يتكلم بأقصى حلقه مأخوذ من النطع، وهو الغار الأعلى فيه آثار، كالتحرير يخفف ويثقل، وإنما ردَّد القول ثلاثاً تهويلاً وتنبيهاً على ما فيه من الغائلة، وتحريضاً على التيقظ والتبصر دونه"[٣].

والحديث وإن كان خبراً عن حال المتنطعين، إلا أنه في معنى النهي عن التنطع، وفيه دلالة على أن التوسط والاعتدال هو سبيل النجاة من الهلاك؛ فإنه عندما ذمَّ التنطُّع والمغالاة، فقد دلَّ على أنَّ المطلوب هو الاعتدال والتوسط.

❁ وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الله! ألم أُخْبَر أنك تصوم النهار، وتقوم الليل»؟، فقلت: بلى يا رسول الله، قال: «فلا تفعل، صُم وأَفطر، وقُم ونَم، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لِزَوْرِكَ عليك حقاً، وإنَّ بحسبك أن تصوم كلَّ شهر ثلاثة أيام، فإن لك بكل حسنة عشر أمثالها، فإن ذلك صيام الدهر كله»، فشدَّدتُ، فشُدِّد عليَّ، قلت: يا رسول الله! إني أجد قوة، قال: «فصم صيام نبي الله داود عليه السلام، ولا تزد عليه»، قلت: وما كان صيام نبي الله داود عليه السلام؟ قال: «نصف الدهر»، فكان عبد الله يقول بعد ما كبر: "يا ليتني قبلت رخصة النبي ﷺ"[٤].

❁ وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «إن الدين يسرٌ، ولن يُشادَّ الدين أحدٌ إلا غلبه، فسدِّدوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغَدْوةِ والرَّوْحَةِ وشيءٍ من الدُّلجَة»[٥]، والحديث نصٌ في أن الدين يسر، وأن خير الأمور ما كان قصداً وسطاً معتدلاً لا إفراط فيه ولا تفريط[١].

---

١ ابن حجر، فتح الباري، ج٩، ص١٠٥-١٠٦.

٢ رواه مسلم في **صحيحه**، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، ج٤، ص٢٠٥٥، رقم٢٦٧٠.

٣ الطيبي، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ **الكاشف عن حقائق السنن**، ج١٠، ص٣٠٩٨.

٤ رواه البخاري في **صحيحه**، كتاب الصوم، باب حق الجسم في الصوم، ج٣، ص٣٩، رقم١٩٧٥؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به أو فوت به حقا أو لم يفطر العيدين والتشريق، ...، ج٢، ص٨١٣، رقم١١٥٩.

٥ رواه البخاري في **صحيحه**، كتاب الإيمان، باب الدين يسر، ج١، ص١٦، رقم٣٩؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، رقم٢٨١٦. ومعنى «يُشادَّ الدين» يُكلِّفُ نفسه من العبادة فوق طاقته، والمشادة المغالبة، ولهذا قال «إلا غلبه» والمعنى: لا يتشدد أحد ويغالي في العمل ويترك الرفق إلا عجز وانقطع فيُغْلَب. «فسدِّدوا» أي: الزموا السداد، وهو التوسط في العمل من غير إفراط ولا تفريط. و«قاربوا» أي: إن لم تستطيعوا الأخذ بالأكمل فاعملوا بما يقرب منه. «وأبشروا» أي: بالثواب على العمل الدائم وإن قل، والمراد تبشير من عجز عن العمل بالأكمل بأن العجز إذا لم يكن من صنيعه لا يستلزم نقص أجره، وأبهم المبشَّر به تعظيماً له وتفخيماً. «واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة» استعينوا على مداومة العبادة بإيقاعها في الأوقات المنشطة كأول النهار وبعد الزوال وآخر الليل. فـ«الغدوة»: سير أول النهار، وقال

ولأجل هذه النصوص الواردة في الوسطية، حرص السلف على التزام المنهج الوسط، وهو منهج أهل السنة والجماعة، حيث أنهم وسط بين المذاهب والفرق، كما أن أمة الإسلام وسط بين الأمم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–: "فإن الفرقة الناجية –أهل السنة والجماعة–: يؤمنون بما أخبر الله في كتابه من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، بل هم وسط في فرق الأمة، كما أن الأمة هي الوسط في الأمم"[٢].

المبحث الثاني

بعض مظاهر الوسطية والاعتدال في الإسلام

مظاهر الوسطية في الإسلام كثيرة ومتشعبة في كل شعائره وشرائعه وعقائده، فالإسلام كله وسطية واعتدال، وهو دين السماحة واليسر، وكيف لا يكون الإسلام كذلك وهو دين الله تعالى الخاتم.

يقول الإمام الشاطبي –رحمه الله–: "إن الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل، الآخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه"[٣]. وقال أيضاً: "فإذا نظرت في كلية شرعية فتأملها تجدها حاملة على التوسط، فإن رأيت ميلاً إلى جهة طرف من الأطراف، فذلك في مقابلة واقع أو متوقع في الطرف الآخر؛ فطرف التشديد –وعامة ما يكون في التخويف والترهيب والزجر– يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الانحلال في الدين، وطرف التخفيف –وعامة ما يكون في الترجية والترغيب والترخيص– يؤتى به في مقابلة من غلب عليه الحرج في التشديد؛ فإذا لم يكن هذا ولا ذاك رأيت التوسط لائحاً، ومسلك الاعتدال واضحاً، وهو الأصل الذي يرجع إليه، والمعقل الذي يلجأ إليه"[٤].

فمظاهر الوسطية والاعتدال في الإسلام تتجلى في كافة أحكامه وتشريعاته، وما أذكره هنا هو مجرد تمثيل على تلك المظاهر، وليس حصراً لها؛ فمن مظاهر الوسطية في الإسلام:

المطلب الأول: الوسطية في مجال الاعتقاد:

الإسلام وسط بين الملل والنحل، فهو دين التوحيد الخالص لله جل وعلا، ليس إلحاداً وإنكاراً للذات الإلهية، وليس شركاً ووثنيةً وعبادةً لغير الله مع الله – عياذاً بالله تعالى –، بل عبودية خالصة لله وحده، وتوحيد كامل له في ربوبيته وألوهيته.

الجوهري ما بين صلاة الغداة وطلوع الشمس. و«الرَّوْحَة»: السير بعد الزوال. و«الدُّلجة»: سير آخر الليل؛ وهذه الأوقات أطيب أوقات المسافر، وكأنه ﷺ خاطب مسافراً إلى مقصدٍ فنبهه على أوقات نشاطه؛ لأن المسافر إذا سافر الليل والنهار جميعاً عجز وانقطع، وإذا تحرَّى السير في هذه الأوقات المنشطة أمكنته المداومة من غير مشقة، وحُسْنُ هذه الاستعارة أن الدنيا في الحقيقة دار نقلة إلى الآخرة، وأن هذه الأوقات بخصوصها أروح ما يكون فيها البدن للعبادة. انظر: ابن حجر، **فتح الباري**، ج١، ص٩٤، ٩٥.

١ وهناك عشرات النصوص الأخرى الدالة على الوسطية والاعتدال، مثل قوله ﷺ: «أحب الأديان إلى الله الحنيفية السمحة»، وقوله ﷺ: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا، فإنما بعثتم مُيسِّرين ولم تبعثوا مُعسِّرين»، وقوله ﷺ: «عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا».

٢ ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، ج٣، ص١٦٨.

٣ الشاطبي، **الموافقات**، ج٢، ص٢٧٩.

٤ الشاطبي، **الموافقات**، ج٢، ص٢٨٦.

والإسلام وسط في باب النبوة: فلا غلو فيهم كما فعلت النصارى عندما اتخذهم أرباباً من دون الله، ولا جفاء كما جفت اليهود؛ ففريقاً كذبوا وفريقاً يقتلون، بل يدعوا الإسلام أتباعه من المسلمين بالإيمان بجميع الرسل ومحبتهم والصلاة عليهم، واتباع خاتمهم محمد ﷺ.

والإسلام يطالب بالإيمان بجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، وبجميع ما أتو به من كتب من عند الله تعالى، ولا يفرق بين أحد من الرسل، بخلاف اليهود الذين ينكرون نبوة عيسى ومحمد عليهما السلام، وبخلاف النصارى الذين ينكرون نبوة نبينا محمد ﷺ. أما الإسلام فهو وسط معتدل يؤمن بجميع رسل الله تعالى، ولا يفرق بينهم، قال الله جل وعلا: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [الأعراف:٣٢]، وقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء:١٥٢].

المطلب الثاني: الوسطية في مجال العبادة:

فيراعي الإسلام مقتضيات الفطرة، ويجمع بين متطلبات الروح والجسد جميعا، فلا غلو في جانب الروح على حساب الجسد، ولا غلو في جانب المادة والجسد على حساب الروح، لا رهبانية مفرطة كما هو الشأن عند رهبان النصارى وغيرهم ممن هو مثلهم، ولا مادية مقيتة كما هو الشأن عند غالبية اليهود ومن نحا نحوهم من أمم الشرق أو الغرب، وإنما وسطية تجمع متطلبات الروح والجسد جميعاً، وسطية تزكي المشاعر وتهذب الضمائر، وتسمو بالتفكير والشعور، وتوازن بين متطلبات الفرد والمجتمع، وإعمال العقل والعاطفة، في تربيةٍ متوازنة وتنسيق متسق بديع.

إنَّ الإسلام متميزٌ بوسطيته واعتداله في عباداته –كما في عقائده ومعاملاته وأخلاقه وسلوكياته وسائر تشريعاته–، إنه يعلم أتباعه كيف يحققون التوازن بين متطلبات الروح والجسد؛ على غرار قول الله تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٧٧]، وقد ردَّ النبي ﷺ على عثمان بن مظعون التبتل[1]، وتقدم أنه ﷺ أنكر على من حرَّم نفسه طيبات الدنيا من النكاح والأكل والشرب والنوم بالليل، قائلاً: «أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء؛ فمن رغب عن سنتي فليس مني»، وتقدم قوله ﷺ: «هلك المتنطعون»، وقوله ﷺ: «فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لِزَوْرِكَ عليك حقاً»، كما تقدمت نصوص أخرى في المعنى ذاته.

وهذه الوسطية في الجمع بين متطلبات الروح والجسد لا توجد في أي ديانة أخرى غير الإسلام، فها هو العالم اليوم يعيش حالة من الفوضى والغرق في متع الحياة المادية الصرفة، ومن نأى بنفسه عن تلك المادية المفرطة وقع أسير الرهبانية

١ رواه البخاري في **صحيحه**، كتاب النكاح، باب ما يكره من التبتل والخصاء، ج٧، ص٤، رقم٥٠٧٣؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب النكاح، باب استحباب النكاح لمن تاقت إليه نفسه، ج٢، ص١٠٢٠، رقم١٤٠٢.

المبتدعة الذميمة، التي قتلت كل شيء جميل في حياة الإنسان، وأصبح عقلاء العالم ومنصفوه يبحثون عن دين يحقق التوازن بين الرغبات والتناسق بين المتطلبات، ويرتفع بالبشرية إلى مستوى إنسانيتها، ويحقق لها قيمها ومثلها، وينتشلها مما تعاني منه من بؤس وشقاء وظلم وطغيان، ولم يجدوا ذلك ولن يجدوه إلا في ظل دين الإسلام الحق، الدين الخاتم الذي ارتضاه الله جل وعلا للبشرية جميعاً، والذي تكفل بحفظه وإظهاره ولو كره الكافرون.

قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران:١٩]، وقال تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥]، وقال سبحانه: ﴿اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [التوبة:٣٣].

المطلب الثالث: الوسطية في المجال الاقتصادي:

فقد وازن الإسلام بين حرية الفرد وحرية المجتمع، كما وازن الإسلام بين الملكية الفردية والملكية العامة للدولة، فهو يقر ملكية الأفراد لأموالهم طالما أنهم ليسوا سفهاء، وطالما أنهم يُؤدُّون حق الله تعالى عليهم فيها، ويقر الملكية العامة للدولة فيما يحقق مصالح الرعية، ولا يتعارض مع ملكية الأشخاص.

بينما نرى في الرأسمالية: حرية اقتصادية مطلقة للفرد في أن يتملك السلع، ووسائل الإنتاج وأدواته، وليس للدولة أن تتدخل في شيء من ذلك بأي وجه كان، بل يتكفّل القانون في المجتمع الرأسمالي بحماية ملكيته الخاصة مهما كان سبيل تحصيله لها، وفي الاشتراكية: الحرية الاقتصادية هي سبب البلاء، وأُسّ الفساد، ومن ثمَّ تعمل الاشتراكية على إلغاء الملكية الخاصة، وتمنع الفرد من الحرية منعاً مُطلقاً، فلا يملك الفرد أيّ حرية في الإنتاج أو الاستثمار.

فجاء الإسلام وسطاً بين رأسمالية تهتم بالفرد على حساب الجماعة، واشتراكية تهتم بمصلحة الجماعة على حساب الفرد، بينما الإسلام يراعي مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة على حد سواء[1].

المطلب الرابع: الوسطية في التعامل مع الناس:

فقد جاء الإسلام بالوسطية في التعامل مع الناس حباً وبغضاً، وعدلاً وإنصافاً، فمن الناس من إذا أحب غالى في محبوبه وحاباه وتغاضى عن زلاته وأعطاه، ووقف معه وناصره حتى في ظلمه لغيره، فإذا كرهه ظلمه وعاداه وبخسه حقه، والإسلام وسطٌ عدلٌ في ذلك، فهو يأمرنا بالعدل مع الناس جميعاً حتى وإن أبغضناه وكرهناه، فبغضنا له لا يدفعنا لظلمه، كما أن حبنا له لا يدفعنا لمحاباته وإعطائه ما ليس له.

قال تعالى: ﴿يَا أَيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء:١٣٥]، وقال جل وعلا: ﴿يا أَيهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٨].

---

١ انظر: المؤلف، **بين الاقتصاد الإسلامي والاقتصاد الوضعي**، ص١٩٨، ١٩٩.

بل إنَّ الإسلام نهانا عن الاعتداء على عدونا حتى وهم يمنعوننا حقوقنا، فالواجب رد العدوان والدفاع عن حقوقنا والمطالبة بها لكن بلا تعدي ولا عدوان، وهذا هو قمة العدل والإنصاف، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ [المائدة:٢].

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «انصُر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قالوا: يا رسول الله! هذا ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالما؟ قال: «تأخذ فوق يديه»[١].

قال الإمام ابن بطال –رحمه الله–: "النصرة عند العرب: الإعانة والتأييد، وقد فسَّره رسول الله أن نصر الظالم منعه من الظلم؛ لأنه إذا تركته على ظلمه ولم تكفّه عنه أدَّاه ذلك إلى أن يُقْتَصَّ منه؛ فمنعك له مما يوجب عليه القصاص نصره، وهذا يدل من باب الحكم للشيء وتسميته بما يئول إليه، وهو من عجيب الفصاحة، ووجيز البلاغة"[٢].

ومن مظاهر الوسطية التي تقدمت الإشارة إليها أيضاً: الوسطية في الإنفاق بين الإسراف والتقتير، والوسطية في الدعاء والذكر والقراءة بين الجهر والإخفات كما تقدم.

المبحث الثالث

أسباب الغلو والتفريط ومعالجتها

من أهم العوائق في سبيل تحقيق الوسطية: الغلو، والتفريط، ولا يقل التفريط خطورة عن الغلو والإفراط، فكلاهما خروج عن الوسطية والاعتدال، ومجانبة لصراط الله المستقيم الذي لا ينجو المسلم إلا بسلوكه واتباعه، ولا يمكن تحقيق الوسطية والاعتدال إلا بالبعد عن كل منهما –الغلو، والتفريط–، وذلك يستلزم التعرف على ماهيتهما، وأسبابهما، وطرق النجاة منهما، وهذا ما سأتعرض له في هذا المبحث –إجمالاً– من خلال ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: معنى الغلو والتفريط لغة وشرعاً:

الغلو لغة: هو مجاوزة الحد المعتاد وتعديه. يقال: غلا في الأمر يغلو غلواً، أي: جاوز فيه الحد، وغلوت بالسهم غلواً: إذا رميت به أبعد ما تقدر عليه[٣]، وغاليت الشيء وبالشيء، وغلوت فيه أغلو: إذا جاوزت فيه الحد[٤].

والغلو شرعاً: التشدد ومجاوزة الحد في المشروع بالمبالغة والزيادة التي تخرجه عن حدِّ التوسط والاعتدال. قال ابن الأثير –رحمه الله–: "والغلو في الدين، أي: التشدد فيه ومجاوزة الحد"[١]. وقال ابن تيمية –رحمه الله–: "والغلو في الدين عام في جميع

---

١ رواه البخاري في **صحيحه**، كتاب المظالم والغصب، باب: أعن أخاك ظالما أو مظلوماً، ج٣، ص١٢٨، رقم٢٤٤٤.

٢ ابن بطال، **شرح صحيح البخاري**، ج٦، ص٥٧٢. وقوله: «انصر أخاك» أي: المسلم، والخطاب عام لكل مسلم. «ظالماً» أي: حال كونه ظالماً لنفسه بفعل ما لا يحل، أو لغيره، ونصرك له بأن تمنعه عن الظلم، لأنك بفعلك ذلك تعينه على دفع العقاب عنه في الآخرة، وفيه أنه يجب على كل مسلم نصر أخيه إذا رآه في منكر، أو مريداً أذية أحد، وهذا مما تساهل فيه الناس. وقوله: «أو مظلوماً» أي: انصره إن كان مظلوماً، وذلك بإعانته على من ظلمه وتخليصه من يده . انظر: الأمير الصنعاني، **التنوير شرح الجامع الصغير**، ج٤، ص٢٨٣، ٢٨٤.

٣ انظر: الجوهري، **الصحاح**، ج٦، ص٢٤٤٨.

٤ ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ج٣، ص٣٨٢.

أنواع الغلو، في الاعتقاد، والأعمال، والغلو: مجاوزة الحدِّ بأن يزاد الشيء في حمده أو ذمه على ما يستحق، ونحو ذلك"[٢]. وقال ابن حجر –رحمه الله–: "وأما الغلو فهو المبالغة في الشيء والتشديد فيه بتجاوز الحد، وفيه معنى التعمق"[٣].

وقد ورد عدد من النصوص التي تُحَذِّر صراحةً من الغلو وتنهى عنه، غير أن البحث ومجاله وحدوده لا يتسع لذكرها وبسط القول فيها[٤].

وبعد أن اتضح معنى الغلو لغة وشرعاً، يجدر بنا أن ننبه على أمر غاية في الخطورة، وهو الخلط بين الغلو في الدين والتمسك بالدين!!، وهذا ناتج عن عدم الفهم لمعنى الغلو وحقيقته؛ فلا ينبغي الخلط بين القضايا التي لها أصول شرعية وبين ما فيه مخالفة للشرع، فالجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والولاء والبراء، ونحوها؛ كلها أصول عقدية معتبرة شرعاً بشروطها، وليست من الغلو ولا الإرهاب في شيء، والخلط والتجاوز في هذه الأصول من قبل البعض، والتنكر لها من بعض وسائل الإعلام والكتَّاب، يؤدي إلى استفزاز الناس، ويتذرع به أهل الفتنة والغلو.

التفريط لغة: التقصير، والتضييع، والترك، يقال: فرَّط في الأمر يفرِّط فرطاً، أي: قصَّر فيه وضيَّعه حتى فات[٥]، وفَرَّطَ الشيءَ، وفرَّط فيه تَفْرِيطاً: ضَيَّعه، وقَدَّم العَجْز فيه[٦]، قال تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾ [الكهف:٢٨] أي: ضياعاً، وقال جل وعلا: ﴿يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر:٥٦] يعني: ضيَّعت وقصَّرت.

والتفريط شرعاً: التضييع والتقصير فيما وجب على الإنسان وكُلِّف به.

فالتفريط عكس الإفراط –والغلو– ونقيضه، فالإفراط هو الإسراف ومجاوزة الحد، والزيادة على المشروع، يقال أفرط إفراطاً: إذا أسرف وجاوز الحدّ.

قال الجرجاني في التعريفات: "الفرق بين الإفراط والتفريط؛ أن الإفراط يستعمل في تجاوز الحد من جانب الزيادة والكمال، والتفريط يستعمل في تجاوز الحد من جانب النقصان والتقصير"[٧].

ومن مظاهر التفريط: تأخير الصلاة عن وقتها، وترك إنكار المنكرات، وإهمال تربية الأولاد، وترك الأخذ بالأسباب، والغلظة في المعاملة، والسلبية تجاه الاهتمام بواقع المسلمين.

المطلب الثاني: أسباب الغلو والتفريط:

---

١ ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ج٣، ص٣٨٢.

٢ ابن تيمية، **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، ص٣٢٨.

٣ ابن حجر، **فتح الباري**، ج١٣، ص٢٧٨.

٤ من هذه النصوص: قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء:١٧١]، وقوله جل وعلا: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [المائدة:٧٧]، وحديث: «إياكم والغلو في الدين فإنه أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين»، وحديث: «اقرؤوا القرآن ولا تأكلوا به، ولا تستكثروا به، ولا تجفوا عنه، ولا تغلو فيه».

٥ الجوهري، **الصحاح**، ج٣، ص١١٤٨.

٦ الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، ص٦٨١؛ وابن منظور، **لسان العرب**، ج٧، ص٣٧٠.

٧ الجرجاني، **التعريفات**، ص٣٢.

الفرع الأول: أسباب الغلو:

أسباب الغلو كثيرة، وسأحاول إجمال معظمها في هذا المطلب، مقسِّماً إياها لقسمين، هما: أسبابٌ تتصل بذات الشخص (داخلية)، وأسباب تتصل بالجو العام المحيط بالشخص (خارجية).

(أ) أسبابٌ (داخلية) تتصل بذات الشخص:

١- الجهل وضعف العلم الشرعي، ويتفرع عن ذلك: جهل بالأولويات، وأدب الحوار، وضوابط الاختلاف؛ فالمتأمل لواقع أهل الغلو والتنطع والعنف يجد أنهم يغلب عليهم الجهل وضعف الفقه في الدين، وضحالة الحصيلة في العلوم الشرعية، فحين يتصدّون للأمور الكبار والمصالح العظمى يكثر منهم التخبط والخلط والأحكام المتسرِّعة والمواقف المتشنجة، كما أن الرغبة في الطاعة والاجتهاد فيها مع الجهل بالسنة، ربما دفع للغلو والمبالغة والابتداع في الدين.

٢- الابتعاد عن العلماء وجفوتهم، وترك التلقي عنهم، والتلقي عن دعاة السوء والفتنة والجاهلين، أو أخذ العلم على غير نهج سليم، أو من كتب يشوبها الانحراف والغلو، أو الاعتماد على النفس من أول الأمر في تحصيل العلم والمعرفة.

٣- شدة الغيرة وقوة العاطفة مع قلة الصبر وضعف الحكمة، وتدني مستوى العلم والفقه في الدين، فإذا انضاف إلى هذه الخصال سوء الأحوال المعيشية، وشيوع الفساد، والإعراض عن دين الله، والظلم، ومحاربة التدين، وفقدان الحوار الجاد؛ أدى كل ذلك إلى الغلو في الأحكام والمواقف.

والغيرة على محارم الله وعلى دين الله أمر محمود شرعاً، لكنَّ ذلك مشروط بالحكمة والفقه والبصيرة، ومراعاة المصالح ودرء المفاسد، فإذا فقدت هذه الشروط أو بعضها أدى ذلك إلى الغلو والتنطع والشدة والعنف في معالجة الأمور، وهذا مما لا يستقيم به للمسلمين أمر لا في دينهم ولا في دنياهم.

٤- اتباع الهوى المؤدِّي إلى التعسف في التأويل ورد النصوص، والتكوين النفسي والفكري المنحرف لبعض الغلاة، والظروف النفسية التي تكوَّن عليها وتأثر بها جموداً، أو زعامةً، أو حباً للشهرة ونحو ذلك، وينتج عن ذلك: التعالم والغرور، والتعالي على العلماء والدعاة وطلبة العلم، فضلاً عن سائر الناس، واحتقارهم، ورؤية نفسه فحسب والاعتزاز بها، ويدفعه كل ذلك إلى أن يستقل بنفسه ورأيه فينتج عن ذلك الشذوذ في الآراء والمواقف والتصورات والتصرفات، وهكذا كان الخوارج الأولون يدَّعون العلم والاجتهاد، ويعتدون برأيهم وفهمهم فحسب، ويتطاولون على العلماء، وهم من أجهل الناس.

(ب) أسبابٌ (خارجية) تتصل بالجو العام المحيط بأهل الغلو، وأهمها:

١- تعطيل شرع الله في الأرض، والعلمنة الصريحة، وكثرة البدع والعقائد الفاسدة، والإعراض عن منهج السلف، والتعلق بالشعارات والمبادئ الهدامة والأفكار المستوردة، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو التقصير في القيام بذلك؛ فكل هذه الأمور وما في معناها، تثير غيرة الشباب المتدين، وحين لا يظهر له السعي الجاد لتغيير الحال وإنكار المنكر، يلجأ إلى التصدي لهذه الانحرافات بلا علم ولا حكمة، وقد يلجأ للغلو بسبب ذلك؛ ويدخل في ذلك: فساد الإعلام، ومحاربة الدين

والطعن فيه، والاستهزاء به وبتعاليمه، والسخرية من العلماء والصالحين واضطهادهم وازدراؤهم، وتمكين أهل الفسق والفجور والإلحاد، مما يعد أعظم استفزاز لذوي الغيرة والاستقامة.

٢- انتشار الفساد وغياب العدالة، والتضييق على الحريات، وشيوع الظلم بشتى صوره وأشكاله: ظلم الأفراد، وظلم الشعوب، وظلم الولاة وجورهم، وظلم الناس بعضهم لبعض، مما ينافي أعظم مقاصد الشريعة، وما أمر الله به وأمر به رسوله ﷺ من تحقيق العدل ونفي الظلم، مما يُنمي مظاهر السخط والتذمر والحقد والتشفي في النفوس.

٣- الجفوة بين العلماء والشباب، وعدم الاهتمام بالتربية الحوارية؛ ففي أغلب بلاد المسلمين تجد العلماء (بعلمهم وحكمتهم وفقههم وتجاربهم) في معزل عن أكثر الشباب، وربما يسيئون الظنَّ بالكثير منهم كذلك، وبالمقابل تجد الشباب بحيويتهم ونشاطهم وهمتهم بمعزل عن العلماء، وربما تكون سمعتهم في أذهان الكثيرين على غير الحقيقة، مما أوقع بعض الشباب في الأحكام والتصرفات الجائرة والخاطئة التي لا تليق تجاه علمائهم، وتجاه حكامهم.

٤- تحكُّم الكافرين (من اليهود والنصارى والملحدين والوثنيين) في مصالح المسلمين، وتدخلهم في شؤون البلاد الإسلامية ومصائر شعوبها، عبر الاحتلال المباشر والغير المباشر، والغزو الفكري والإعلامي والاقتصادي والسياسي، تحت ستار المصالح المشتركة، أو المنظمات الدولية، ونحو ذلك مما تداعت به الأمم على المسلمين من كل حدب وصوب، بين طامع وكائد وحاسد؛ كل ذلك أدى إلى تذمر قطاعات كبيرة من المسلمين، وشعور طوائف من شبابهم ومثقفيهم وأهل الغيرة منهم بالضيم والإذلال والإحباط، والنقمة على الواقع وأهله؛ وينتج عن ذلك ردود أفعال يتسم بعضها بالسخط والعنف والشدة.

٥- الخلل في مناهج بعض الجماعات، وبعض أصحاب الدعوات المعاصرة، مع السكوت عن توضيح ذلك الخلل؛ فكثير من الدعوات تعتمد في مناهجها على الشحن العاطفي، وتربي أتباعها على مجرد أمور عاطفية وغايات دنيوية -سياسية، واقتصادية، ونحوها- وتحشو أذهانهم بالأفكار والمفاهيم التي لم تؤصَّل شرعاً، والتي تؤدي إلى التصادم مع المخالفين بلا حكمة، وفي الوقت نفسه تقصِّر في أعظم الواجبات، فتنسى الغايات الكبرى في الدعوة، من غرس العقيدة السليمة، والفقه في دين الله تعالى، والحرص على الجماعة، وتحقيق الأمن، والتجرُّد من الهوى والعصبية، وفقه التعامل مع المخالفين ومع الأحداث والمستجدات، وفق قواعد الشرع.

٦- تصدر حدثاء الأسنان وسفهاء الأحلام، مع قلة التجارب، وضعف الخبرات، والغيرة غير المتزنة؛ (عواطف بلا علم ولا فقه ولا حكمة) فعندما يتصدر هؤلاء الأحداث للفتوى والاجتهاد قبل الاستواء والنضج، يفتون بغير علم، ويحكمون في الأمور بلا فقه، ويواجهون الأحداث الجسام بلا تجربة ولا رأي ولا رجوع إلى أهل العلم والفقه والتجربة والرأي، بل كثير منهم يستنقص العلماء والمشايخ ولا يعرف لهم قدرهم، وإذا أفتى بعض المشايخ على غير هواه ومذهبه، أو بخلاف موقفه، أخذ يلمزهم إما بالقصور أو التقصير، أو بالجبن أو المداهنة أو العمالة، أو بالسذاجة وقلة الوعي والإدراك! ونحو ذلك مما يحصل

بإشاعته الفرقة والفساد العظيم، وغرس الغل على العلماء والحط من قدرهم ومن اعتبارهم، وغير ذلك مما يعود على المسلمين بالضرر البالغ في دينهم ودنياهم.

٧- خلو الساحة -في بعض المناطق والبلدان- من العلماء الذين يضبطون الفكر والتصور والسلوك، فعدم وجودهم سبب في تصدر الأحداث والجهال الذين يدفعهم جهلهم وحداثة سنهم للغول والتطرف والتشدد.

٨- البيئة الغالية المتشددة، فالمرء يتأثر ببيئته، والصاحب ساحب، ومن تربى بين أظهر المتشددين والغلاة تشدَّد وغالى ولا بد.

هذه هي أهم أسباب الغلو، فإذا توافرت هذه الأسباب -أو بعضها-، ظهر الغلو والتنطع والعنف والتشدّد، لاسيما إذا انضاف إلى هذه الأسباب تقصير الولاة، وغفلة العلماء، والدعاة، والمربين، والآباء عن معالجة هذه الأسباب في وقت مبكر.

الفرع الثاني: أسباب التفريط:

أبرز أسباب التفريط: الجهل، والعجز، والكسل[1]، وقد يكون سبب التفريط: الاستجابة لضغط الواقع، أو الهروب من تهمة التطرف والغلو، ونحو ذلك مما يعتبر إفرازاً لانحراف في المنهج، ومظهراً من مظاهر الانحراف في الفهم.

المطلب الثالث: علاج الغلو والتفريط:

لا شك أن علاج هاتين الظاهرتين - الغلو، والتفريط — لا يتم إلا بإزالة أسبابهما، إذ لا يعقل أن تترك أسبابهما مع الأمل في زوالهما أو علاجهما، وإنني ألخص أهم طرق العلاج ووسائله فيما يلي:

الفرع الأول: علاج الغلو:

١- الاهتمام بنشر العلم الشرعي وتيسير وسائل تحصيله، وبذله في كل مكان وكل زمان وبكل وسيلة ممكنة، ويدخل في نشر العلم الشرعي: إيجاد القنوات العلمية والدعوية والإعلامية التي يمكن للدعاة إلى الله عز وجل من خلالها عرض الصورة الصحيحة للإسلام، وتنقيته من الداخل عليه، وتعريف الناس بدينهم الحق، أما مجرد الخطب الرنانة التي ينقضها الواقع فإنها لن تغير شيئاً، حتى الاتجاهات التي يصاحبها نوع من الحدة أو الشدة يجب أن تحاور وتناقش في الهواء الطلق وليس من وراء القضبان، كما يدخل في نشر العلم: ربط مناهج التعليم بدين الأمة وأخلاقها وقيمها ومبادئها، ليتخرج جيل مؤمن يعرف ربه ودينه، ويوالي أمته ويعادي أعدائها، وهذا العلم الصحيح المرتبط بقيم الأمة ومبادئها هو أعظم حصانة من الغلو والتشدد، وأعظم وسيلة لتحقيق الوسطية والاعتدال.

٢- الإنكار على الغلاة والمتشددين وردِّ كل مظاهر الغلو - حتى وإن بانت صغيرة في بدايتها -، فإن السكوت عن تلك المظاهر يجعلها تكبر وتنتشر وتتعمق في الأمة، وقد كان النبي ﷺ ينكر كل بادرة غلو، وينهى عن ذلك أشد النهي، كما في قصة النفر الثلاثة الذين عزموا على الصيام والقيام وترك الزواج تعبداً لله تعالى كما تقدم، وكما في تنفيره من المتنطعين

١ قال الحافظ ابن حجر- رحمه الله- في **فتح الباري**، ج٦، ص٣٦: "الفرق بين العجز والكسل أن الكسل ترك الشيء مع القدرة على الأخذ في عمله والعجز عدم القدرة".

والإخبار بهلاكهم كما سبق، ينكل بمن واصلوا معه في الصيام، وقد نهاهم عنه، ليرتدعوا[1]، وما ذاك إلا لأن الغلو شطط وانحراف وبُعْدٌ عن الصراط المستقيم.

ويدخل في ذلك الإنكار: مناقشة الحجج والشبهات التي يتذرع بها أهل الغلو، وتفنيدها والرد عليها، وتنبيه الناس إلى فسادها لئلا يغتروا بها، ويفضل أن يكون الإنكار من خلال الحوار المباشر مع الغلاة والمتشددين، لأنهم في غالبهم من المتدينين ذوي العاطفة والغيرة والحماس، لكنهم ينقصهم الفقه الصحيح والحكمة والبصيرة بمقاصد الشريعة وضوابطها، ورجوعهم إلى الوسطية والاعتدال مأمولٌ ومرجوٌ، لاسيما مع قوة حجة المحاور، وحسن بيانه، وحرصه على ردِّهم إلى صراط الله المستقيم، ولهذا كان كثير من الخوارج الأوائل يرجعون عن بدعتهم بالمناظرة بل رجع منهم على يد عبد الله بن عباس ﷺ لما أرسله علي بن أبي طالب ﷺ لمناقشتهم –رجع منهم في مجلس واحد– أكثر من أربعة آلاف إنسان، ونوقشوا في عهد عمر بن عبد العزيز – رحمه الله – فرجع منهم ما يزيد على ألف إنسان في مجلس واحد.

٣– إصلاح أوضاع المجتمع بحيث لا يجاهر فيه بما يخالف شرع الله تعالى، لا في مناهجه الدراسية، ولا في صحفه القومية، ولا في طرقاته ونواديه، ولا في أجهزته الإعلامية بكافة أشكالها وأنواعها، فلابد من تنقية المجتمع بكافة مؤسساته ومرافقه من كل ما يخالف الإسلام عقيدة وأحكاماً وأخلاقاً، ولابد من منع أصحاب الفكر المنحرف من التسلل إلى الإعلام، ومنع المساس بالدين وأهله في كافة وسائل الإعلام مرئية ومقروءة ومسموعة، ومعاقبة من تسوِّل له نفسه المساس بدين الأمة وثوابتها، وبدون حصول ذلك فلا يمكن أن نتوقع إلا غلواً مضاداً وعنفاً وتشدداً في مقابل هذا التسيب في محاربة دين الأمة وثوابتها.

٤– تحقيق العدل، ورفع الظلم، ونصرة المظلوم، وإعطاء كل ذي حق حقه، سواء أكانت هذه الحقوق مالية، أو اجتماعية، أو سياسية، أو غير ذلك، فالمجتمعات لا يمكن أن تقوم على الظلم، والله تعالى ينصر الدولة العادلة ولو كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة ولو كانت مسلمة، والظلم هو أكبر مُحرِّك للعنف والغلو، وبمحاربته والقضاء عليه نقضي بإذن الله تعالى على كثير من مظاهر العنف والغلو والتشدد.

٥– كسر الفجوة الموجودة بين العلماء ومعظم الشباب؛ أن يفتح العالم قلبه وبيته للشباب، وأن ينزل لمستوى فكرهم، وأن يتألفهم ويحاورهم ويجيب عما يخالط نفوسهم من إشكالات وشبهات، ويرشدهم إلى ما فيه صلاحهم ونجاتهم، فغالب الشباب الذين وقعوا في الغلو والتشدد والتطرف، إنما وقعوا بسبب انشغال العلماء عنهم، والفجوة الموجودة بينهم، فلما لم يجد الشباب العلماء بينهم، انصرف كثيرون منهم إلى الفضائيات والإنترنت ودعاة السوء والفتنة والتيارات المعادية، ووقعوا في الغلو والتشدد.

---

١ روى البخاري في **صحيحه**، كتاب الصوم، باب التنكيل لمن أكثر الوصال، ج٣، ص٣٧، رقم١٩٦٥؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الصيام، باب النهي عن الوصال في الصوم، ج٢، ص٧٧٤، رقم١١٠٣ عن أبي هريرة ﷺ قال: "نهى رسول الله ﷺ عن الوصال في الصوم"، فقال له رجل من المسلمين: إنك تواصل يا رسول الله، قال: «وأيكم مثلي، إني أبيت يطعمني ربي ويسقين»، فلما أبوا أن ينتهوا عن الوصال، واصل بهم يوماً، ثم يوماً، ثم رأوا الهلال، فقال: «لو تأخر لزدتكم» كالتنكيل لهم حين أبوا أن ينتهوا.

٦- السماح لجمعيات تحفيظ القرآن الكريم، والجمعيات الخيرية، والمؤسسات التطوعية، والأندية والمراكز الصيفية، والمؤسسات الشبابية، بالعمل والتوسع في فتح فروعها في كافة الأماكن، مع مراقبة أدائها وتوجيهه بما يتوافق مع ثوابت الأمة وقيمها ومبادئها، وذلك لأن هذه الجمعيات والمؤسسات والأندية تستوعب كثيراً من طاقات الشباب، وتسد فراغهم، وتمتص كثيراً من جهدهم ونشاطهم، وتبعدهم عن أي مصدر آخر قد ينحو بهم نحو الغلو والتشدد والتطرف.

الفرع الثاني: علاج التفريط:

تقدمت الإشارة إلى خطورة التفريط وأنها لا تقل عن خطورة الغلو والإفراط، كما تقدم بيان أسبابه، وأهمها: العجز، والكسل، والجهل.

فأما علاج الجهل، فبطلب العلم بكافة وسائله المتاحة والممكنة، من الكتب وأشرطة الكاسيت، والانترنت ووسائل التواصل الحديثة، وأفضلها وأكثرها فائدة وعمقاً: الطلب المباشر من المشايخ والعلماء في حلق الذكر ومقاعد الدراسة.

وأما علاج العجز والكسل فبالحذر منهما، وتربية النفس على النشاط وعلو الهمة، وأداء الواجبات في أوقاتها وعدم التسويف، وتعويد النفس على النظام والثبات في أداء الأعمال والمداومة عليها، وسؤال الله تعالى علو الهمة، والتعوذ به سبحانه من الكسل والعجز، والرغبة فيما عند الله من الثواب، والرهبة من عقابه وعذابه، ومصاحبة الصالحين الذين يرشدون إلى الطاعة ويرغبون فيها، والذين ينشطون لفعل الخير ويعينون عليه، والبعد عن قرناء السوء من أصحاب المعاصي ومن الكسالى الذين لا ينهضون لفعل الخيرات ولا يعينون عليها؛ فالصاحب ساحب، والمرء على دين خليله، والمرء يتأثر ببيئته وبمن يصاحبه.

الخاتمة:

وتشتمل على أبرز النتائج والتوصيات:

* الوسطية هي: الخيرية والعدالة، والتوسط بين الغلو والإفراط والجفاء والتفريط، وهي العدل والطريق الأوسط الذي تجتمع عنده الفضيلة، والاعتدال هو: التزام المنهج العدل الوسط، والاستقامة والتزكية، والتوسط والخيرية، وهو بهذا يرادف الوسطية التي ميز الله بها هذه الأمة.

* تتجلى مظاهر الوسطية والاعتدال في الإسلام في كافة أحكامه وتشريعاته، ومن ذلك: الوسطية في الاعتقاد، والوسطية في العبادة، والوسطية في المجال الاقتصادي، والوسطية في التعامل مع الناس.

* يجب التفريق بين التمسك بالدين والسنة (وهو حق)، وبين الغلو والتشدد (وهو باطل)، ولا ينبغي الخلط بين القضايا التي لها أصول شرعية وبين ما فيه مخالفة للشرع، فالخلط والتجاوز في هذه القضايا من قبل البعض، والتنكر لها من بعض وسائل الإعلام والكتَّاب، يؤدي إلى استفزاز الناس، ويتذرع به أهل الفتنة والغلو.

* التفريط هو التضييع والتقصير فيما وجب على الإنسان وكُلِّف به، وهو عكس الإفراط والغلو، ولا يقل التفريط خطورة عن الغلو والإفراط، فكلاهما خروج عن الوسطية والاعتدال، ومجانبة للصراط المستقيم.

* الوصول للوسطية يكون بعلاج ظاهرتي الغلو، والتفريط، ولن يتم ذلك إلا بإزالة أسبابهما، إذ لا يعقل أن تترك أسبابهما مع الأمل في زوالهما أو علاجهما.

* أسباب الغلو كثيرة، وهي تنقسم إلى أسباب (داخلية) تتصل بذات الشخص، وأسباب (خارجية) تتصل بالجو العام المحيط بالشخص؛ وأبرز الأسباب الداخلية هي: (الجهل وضعف العلم الشرعي، والابتعاد عن العلماء وجفوتهم وترك التلقي عنهم، وضيق العطن وقصر النظر وقلة الصبر وضعف الحكمة، واتباع الهوى، والتكوين النفسي والفكري المنحرف لبعض الغلاة). وأبرز الأسباب الخارجية: (تعطيل شرع الله في الأرض، ومحاربة الدين والطعن فيه، والاستهزاء به وبتعاليمه، وفساد الإعلام، وانتشار الفساد وغياب العدالة، والتضييق على الحريات، وشيوع الظلم بشتى صوره وأشكاله، والجفوة بين العلماء والشباب، وتحكُّم الكافرين في مصالح المسلمين، والخلل في مناهج بعض الجماعات وبعض أصحاب الدعوات المعاصرة مع السكوت عن توضيح ذلك الخلل، وتصدر حدثاء الأسنان وسفهاء الأحلام، وخلو الساحة من العلماء الذين يضبطون الفكر والتصور والسلوك، والبيئة الغالية المتشددة).

* أعظم أسباب الغلو والتشدد هو الغلو المعاكس في رفض الدين أو التساهل فيه والإعراض عنه، ولعلاج الغلو فلا بدَّ من علاج الغلو المضاد في رفض الدين ومحاربته والاستهزاء به والطعن فيه، وبدون ذلك لا يمكن أن نعالج قضية الغلو والتشدد.

* الغيرة على محارم الله وعلى دين الله أمر محمود شرعاً، لكنَّ ذلك مشروط بالحكمة والفقه والبصيرة، ومراعاة المصالح ودرء المفاسد، فإذا فقدت هذه الشروط – أو بعضها – فربما أدت هذه الغيرة إلى الغلو والتنطع والشدة والعنف في معالجة الأمور، وهذا مما لا يستقيم به للمسلمين أمر لا في دينهم ولا في دنياهم.

* أبرز أسباب التفريط: الجهل، والعجز، والكسل، والاستجابة لضغط الواقع، والهروب من تهمة التطرف والغلو.

* علاج الغلو يكون بأمور، أبرزها: (الاهتمام بنشر العلم الشرعي وتيسير وسائل تحصيله، وربط مناهج التعليم بدين الأمة وأخلاقها وقيمها ومبادئها، والإنكار على الغلاة والمتشددين وردِّ كل مظاهر الغلو، وإصلاح أوضاع المجتمع بحيث لا يجاهر فيه بما يخالف شرع الله تعالى، وتحقيق العدل ورفع الظلم وإعطاء كل ذي حق حقه، وكسر الفجوة الموجودة بين العلماء ومعظم الشباب، والسماح لجمعيات تحفيظ القرآن الكريم، والجمعيات الخيرية، والمؤسسات التطوعية والشبابية بالعمل والتوسع في فتح فروعها).

* علاج التفريط يكون بطلب العلم بكافة وسائله المتاحة والممكنة، والحذر من العجز والكسل، وتربية النفس على النشاط وعلو الهمة، وأداء الواجبات في أوقاتها وعدم التسويف، وتعويد النفس على النظام، والثبات في أداء الأعمال والمداومة عليها، وسؤال الله تعالى علو الهمة، والتعوذ به سبحانه من الكسل والعجز، والرغبة فيما عند الله من الثواب، والرهبة من عقابه وعذابه.

قائمة المصادر والمراجع:

١. ابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد الجزري، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، (بيروت: المكتبة العلمية، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م).

٢. ابن بطال، أبو الحسين علي بن خلف بن عبد الملك، **شرح صحيح البخاري**، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، (الرياض: مكتبة الرشد، ط٢، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).

٣. ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحنبلي الدمشقي، **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، (بيروت: دار عالم الكتب، ط٧، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

٤. ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحنبلي الدمشقي، **مجموع الفتاوى**، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، (المدينة النبوية: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م).

٥. ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني الشافعي، **فتح الباري**، (بيروت: ط دار المعرفة، ١٣٧٩هـ).

٦. ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).

٧. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

٨. ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي الأنصاري الإفريقي، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، ١٤١٤هـ).

٩. أحمد شعيب، د. محمد مصطفى، **بين الاقتصاد الإسلامي والاقتصاد الوضعي دراسة مقارنة لأبرز القضايا المالية المعاصرة**، (مجموعة توارث للنشر والتوزيع، ط١، ١٤٣٥هـ).

١٠. الأمير الصنعاني، أبو إبراهيم محمد بن إسماعيل، **التنوير شرح الجامع الصغير**، تحقيق: د. محمد إسحاق محمد إبراهيم، ا(لرياض: مكتبة دار السلام، ط١، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م).

١١. البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، **الصحيح**، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، وترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، (القاهرة: دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ).

١٢. البغوي، أبو محمد الحسين بن مسعود، **معالم التنزيل في تفسير القرآن**، تحقيق: محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٤، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

١٣. الجرجاني، علي بن محمد، **التعريفات**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م).

١٤. الجوهري، أبو نصر إسماعيل الفارابي، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، بيروت: دار العلم للملايين، ط٤، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

١٥. الشاطبي، إبراهيم بن موسى الغرناطي، **الموافقات**، (الرياض: دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

١٦. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الآملي، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، (مصر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).

١٧. الطيبي، شرف الدين الحسين بن عبد الله، **الكاشف عن حقائق السنن**، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، (مكة المكرمة، والرياض: مكتبة نزار مصطفى الباز، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م).

١٨. الفيروزآبادي، أبو طاهر محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط٨، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).

١٩. مسلم، ابن الحجاج أبو الحسين القشيري، **الصحيح**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

الاعتدال والوسطية في فكر الحافظ الذهبي من خلال كتبه

د. هاني أحمد فقيه[1]

ملخص البحث:

لعل من أبرز القضايا التي تشغل المجتمع الإسلامي اليوم، قضية نقد الفكر الديني المتطرف وتفكيك بنيته، بعد أن اكتوت كثيرٌ من أقطاره بنيرانه، وتسبب في مزيد من أزماته واختناقاته داخلياً وخارجياً على مرّ العصور. إن نقد الفكر الديني المتطرف وإضعافه له أدوات مختلفة ومناحي متنوعة، منها مواجهته بما يقابله من الفكر الوسطي المعتدل لدي كبار علماء الأمة وأعلامها، ممن يحظون باحترام وثقة وتقدير بين المسلمين. وقد رأيت أن أسلط الضوء في بحثي هذا على أحد أبرز هؤلاء الأعلام ممن عرفوا بقصدهم واعتدالهم ووسطيته ونقدهم لكثير من أفكار التطرف البعيدة عن تعاليم الإسلام السمحة وقيمه النبيلة. وهو: الإمام الذهبي.

- **من الذهبي ولماذا اخترته؟**

ربما تساءل البعض: لماذا اخترت الذهبي واتكأت على كلامه دون غيره من الأئمة في هذا الباب؟

وجواباً عن هذا السؤال أقول: إن منهج الاعتدال والوسطية هو السمة الغالبة على علماء الأمة منذ صدر الإسلام وعبر عصوره حتى يومنا هذا إلا من شذ وندر. وإنما اخترت الذهبي لأسباب ثلاثة:

السبب الأول: يعود إلى أن الذهبي قد ترك لنا في هذا الباب ثروة غنية وآثاراً قيمة، من حيث التقعيد والتأصيل، تجدر دراستها وإدارة حديث جاد حولها للإفادة منها.

السبب الثاني: أن هذه التأصيلات والتقعيدات صادرة عن إمام كبير، وحافظ ناقد قدير، قد عرف علمه العلماء ودان لمكانته المحدثون والفقهاء، فكلامه له وزنه وتأثيره، وإن كنا لا ندعي العصمة له رحمه الله ولا لغيره من علماء المسلمين. ومع أن الذهبي قد عاش في عصر كثر فيه الجمود الفكري والتعصب المذهبي إلا أنه استطاع التخلص من كثير من ذلك بفضل سعة علمه وفطنته وبعد نظره وإنصافه. وقد أشار إلى هذه الخصلة الحميدة فيه تلميذُه المؤرخ الناقد صلاح الدين الصفدي (ت٧٦٤هـ) عندما قال عنه: "لم أجد عنده جمود المحدثين ولا كودنة[2] النقلة، بل هو فقيه النظر، له دُربة بأقوال الناس ومذاهب الأئمة من السلف وأرباب المقالات"[3].

السبب الثالث: أن الذهبي رحمه الله لم يترك لنا في موضوع الوسطية كتاباً مستقلاً أو فصلاً مفرداً، وإنما هي تعقيبات وتعليقات متفرقة كان يبثها في مختلف كتبه كلّما عنّت لها حاجة أو طرأت لها مناسبة.

---

[1] أستاذ الحديث المشارك بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

[2] الكودنة: البطء والثقل كما في مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، ج٢، ص٧٨٠ مادة "كدن".

[3] الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ج٢، ص١٦٣. وينظر أيضاً شعيب الأرنؤوط وآخرين، مقدمة **سير أعلام النبلاء**، ج١، ص٥٣.

إن الإمام الحافظ الذهبي لم يكن مجرد مؤرخ ينقل أخبار من سبق فحسب، بل كان كثيراً ما يعلّق على ما ينقله، ويتعقب كل ما لا يراه صحيحاً أو مخالفاً للشرع أو العقل أو خارجاً على حدّ الذوق العام.

ومن هنا جاءت هذه المحاولة المتواضعة من كاتب هذه السطور في جمع ما تفرق من كلام الذهبي ولم شتاته وتبويبه، وإن كنت لا أدعي الاستيعاب والتقصي.

- **الذهبي في سطور**[1]:

ولعله من المفيد قبل أن نبحر مع الذهبي وأفكاره أن نعرّف به أولاً ولو بشكل مختصر جداً، ونوضّح شيئاً من مكانته العلمية الرفيعة. وإن شئتم الحق فالتعريف بالذهبي يطول جداً، والكلام عن علمه وفضله قد يكون له بداية وليس له نهاية. وباختصار أقول: الذهبي هو:

١- الإمام الحافظ الناقد المؤرخ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي الدمشقي الشافعي.

٢- كان مولده في مدينة دمشق سنة: ٦٧٣هـ، وعلى ترابها نشأ وترعرع وطلب العلم.

٣- طوَّف الإمام الذهبي في مختلف البلدان والأقطار، والتقى بأكثر شيوخ العالم الإسلامي في وقته وأخذ عنهم، وقد عرّف بشيوخه هؤلاء في مؤلف ضخم مطبوع في مجلدين كبيرين، سماه: "معجم الشيوخ"، وله كتاب آخر اقتصر فيه على شيوخه في الحديث، سماه: "المعجم المختص بالمحدثين".

٤- بَرَع الإمام الذهبي في العديد من العلوم، وتقلّد مناصب علمية رفيعة، وانصبّ اهتمامه الأكبر على فنون الحديث والتاريخ ونقد رواة الحديث، وحول هذه الموضوعات الثلاثة أخرج أروع كتبه ومؤلفاته.

٥- تجاوزت مؤلفات الذهبي ثلاثمائة مؤلف، ما بين مطول ومختصر ومتوسط الحجم، ومن أشهر مؤلفاته: كتابه: "تاريخ الإسلام"، و"سير أعلام النبلاء"، و"تذكرة الحفاظ"، و"ميزان الاعتدال في نقد الرجال" وغيرها.

٦- تبوأ الذهبي منزلة رفيعة في علم الحديث والتاريخ، ويكفي أن الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢هـ)، صاحب "فتح الباري بشرح صحيح البخاري"، وهو من هو في العلم والحفظ والمعرفة، ذكر أنه شرب من ماء زمزم سائلاً الله عز وجل أن ينال مرتبة الذهبي وبراعته في الرسوخ في العلم[2].

٧- وقد أثنى على الذهبي وأشاد بعلمه كلٌّ من عاصره أو جاء بعده من أهل العلم والمؤرخين، كعلم الدين البرزالي، وابن السبكي، وابن ناصر الدين الدمشقي، والحسيني، والصلاح الصفدي، والحافظ ابن كثير، والحافظ ابن حجر، والبدر العيني، والجلال السيوطي، والسخاوي، والعلامة الشوكاني وغيرهم ممن يطول ذكرهم، ولا أرى حاجة لنقل كلامهم طلباً للاختصار والإيجاز[3].

---

[1] ترجم للذهبي كل من عاصره أو جاء بعده من أصحاب التراجم والسير، وقد أفرد ترجمته في كتب مستقلة غير واحد من الباحثين المعاصرين، ولعل من أجمع هذه الكتب، كتاب: **الذهبي ومنهجه في تاريخ الإسلام**، للدكتور بشار عواد معروف، وكتاب: **الحافظ الذهبي مؤرخ الإسلام**، لعبد الستار الشيخ.

[2] نقل ذلك غير واحد، منهم: السيوطي في كتابه: **طبقات الحفاظ**، ص٥٥٢، والكتاني في كتابه: **فهرس الفهارس والأثبات**، ج١، ص٣٢٢.

[3] انظر بعض هذا الثناء في التقدمة التي كتبها العلامة بشار عواد **لسير أعلام النبلاء** للذهبي، ج١، ص٦٩.

المبحث الأول: الذهبي وإنصافه في تراجمه

لعل من أبرز السمات التي لا تخطئها العين في منهج الإمام الذهبي، وفي مسيرته العلمية، إنصافه الشديد لكل من يترجم له أو يكتب عنه من الأعلام والمشاهير، حتى وإن كانوا يختلفون معه في المذهب أو المعتقد. إن كل من يطالع تراجم الذهبي في كتابه: "سير أعلام النبلاء" أو "تاريخ الإسلام" أو "تذكرة الحفاظ" أو "ميزان الاعتدال" أو غيرها تجده لا يفرق في النقد بين علماء المذاهب وأرباب الطوائف، وبيان ما لهم وما عليهم، سواء كانوا ممن يتفقون معه أم يختلفون.

إن الذهبي ينقل عادةً آراء الموافقين والمخالفين في العَلَمِ المترجَم له، حتى يقدّم صورة متكاملة عنه من كل جانب. بينما نجد كثيراً من الكتاب والمؤرخين قديماً وحديثاً يتأثرون بمذاهبهم وتوجهاتهم عند الحديث عن غيرهم، فيقتصرون على التبجيل والمدح أو الذم والقدح، بحسب قرب المترجَم له أو بعده عن مذاهبهم ومعتقداتهم وقناعاتهم.

وشواهد الإنصاف كثيرة في كتب الذهبي، اكتفي منها باثنين:

الشاهد الأول: موقفه من الإمام أبي حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ)، صاحب كتاب "إحياء علوم الدين"، وأحد أبرز منظري الصوفية وزعماء الأشاعرة.

لقد انتقد الإمام الذهبي أبا حامد الغزالي كثيراً، وأبدى جملة من الملحوظات عليه، خاصة في باب التصوف، واستدلاله بالأحاديث الضعيفة والموضوعة في كتبه، ومع ذلك فقد أنصفه وعرف له فضله وصدّر ترجمته بقوله في السير: "الشيخ الإمام البحر، حجّة الإسلام، أعجوبة الزمان، زين الدين، أبو حامد محمد بن محمد بن أحمد الشافعي الغزالي صاحب التصانيف والذكاء المفرط"[١].

وقال أيضاً مدافعاً عنه: "الغَزالي إمامٌ كبير، وما من شَرط العالِم أنهُ لا يخطئ"[٢]. وقال: "فرحم الله الإمام أبا حامد، فأين مثله في علومه وفضائله، ولكن لا ندَّعي عصمته من الغلط والخطأ، ولا تقليدَ في الأصول"[٣].

وما من شك أن موقف الذهبي هذا يعد غاية في الوسطية والاعتدال حيث لم يمنعه نقده للإمام الغزالي في بعض المسائل الشرعية من إنصافه والإقرار بعلمه وفضله، مع تصريحه بأن العالم في المنظور الإسلامي ليس من شرطه أنه لا يخطئ البتة، فليس في الإسلام كهنة ولا أئمة معصومون، وكلٌ يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر ﷺ كما يقول الإمام مالك بن أنس[٤].

الشاهد الثاني: موقف الحافظ الذهبي من الإمام ابن حزم الأندلسي الظاهري (ت٤٥٦هـ)، صاحب كتاب "المحلى" وغيره.

---

[١] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج١٩، ص٣٢٣.

[٢] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج١٩، ص٣٣٩.

[٣] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج١٩، ص٢٤٦.

[٤] ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج١٤، ص١٦٩.

فقد أثنى الذهبي في كتبه على ابن حزم رحمه الله، ووصفه بالإمامة والحفظ والتدين والتبحر في علوم الدين، مع أنه انتقده في الوقت نفسه بقسوة في مسائل شرعية كثيرة في الأصول والفروع، خاصة في تأثره بعلوم المنطق والفلسفة في باب الاعتقاد، وظاهريته المفرطة في الفقه، ولهجته الحادة في نقد الأئمة.

وقد ترجم الذهبي له في ثمان وعشرين صفحة من القطع الكبير من كتابه "سير أعلام النبلاء"، وختم ترجمته بقوله: "ولي أنا ميل إلى أبي محمد -يعني ابن حزم- لمحبته في الحديث الصحيح ومعرفته به، وإن كنت لا أوافقه في كثير مما يقوله في الرجال والعلل والمسائل البشعة في الأصول والفروع، وأقطع بخطئه في غير ما مسألة، ولكن لا أكفره ولا أضلله، وأرجو له العفو والمسامحة وللمسلمين، وأخضع لفرط ذكائه وسعة علومه"[1].

وفي تصوري أن هذا الموقف من الإمام الذهبي يعد غاية الغايات في باب التسامح والاعتدال والوسطية، والنظر إلى المخالِف بعين الإنصاف، والدعوة إلى عدم التهور في تكفير المسلم ورميه بالضلال لأجل زلّة وقعت له أو اجتهاد خاطئ في مسألة.

المبحث الثاني: تحذيره من سفك الدماء

لقد كان الحافظ الذهبي رحمه الله كثيراً ما يشدّد في مسألة الدماء، وكان كثيراً ما يحذر في كتبه منها كلما ترجم لشخص عرف بهذه الخصلة الخبيثة. والنبي ﷺ صحَّ عنه أنه قال: «لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يُصب دماً حراماً»[2].

وإن تيسر لك مطالعة "سير أعلام النبلاء"، أو مدونته الكبرى "تاريخ الإسلام"، أو كتابه المختصر "العِبَر بأخبار من غَبَر" وغيرها، فسوف تقف على شواهد كثيرة من نقد الذهبي لكل من تورط في الدماء من أمثال: الحجاج بن يوسف الثقفي (ت٩٥هـ)، وأبي مسلم الخُراساني (ت١٣٧هـ) الداعية إلى دولة بني العباس، والحاكم بأمر الله العُبيدي (ت٤١١هـ) حاكم مصر، والمهدي بن تُومرت (ت٥٢٤هـ) حاكم بلاد المغرب وغيرهم وغيرهم.

يقول الذهبي رحمه الله عن دولة بني العبّاس: "فرحنا بمصير الأمر إليهم، ولكن والله ساءنا ما جرى؛ لما جرى من سيول الدِّماء، والسَّبي، والنَّهب، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، فالدولة الظالمة مع الأمن وحقن الدماء، ولا دولة عادلة تنتهك دونها المحارم، وأنى لها العدل؟ بَل أَتَتْ دَوْلَةً أعجمية خراسانيَّة جبَّارة، ما أشبه الليْلة بالبارحة"[3].

المبحث الثالث: ذمه الشديد للخوارج[4]، وتوسُّطه في الحكم عليهم

---

[1] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج١٨، ص١٨٤.

[2] الحديث أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الديات، باب بدون عنوان، ج٩، ص٢، رقم٦٨٦٢.

[3] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج٦، ص٥٨. وينظر أيضاً الذهبي، **تذكرة الحفاظ**، ج١، ص١٥٨.

[4] الخوارج: فرقة من الفرق الإسلامية، خرجوا على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وخالفوا رأيه وقاتلوه وكفّروه، لهم عقائد زائغة من أشهرها: تكفير مرتكب الكبيرة، واستحلال دماء المسلمين المخالفين لهم وأموالهم بحجّة أنهم مرتدين، وهم فرق شتى، ينظر: الشهرستاني، **الملل والنحل**، ص١٣١؛ وابن عبد البر، **التمهيد**، ج٢٣، ص٣٢٢؛ وابن قدامة، **المغني**، ج٩، ص١٢؛ وابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، ج٢٨، ص٥١٦.

لقد ذمّ الإمام الذهبيُّ الخوارجَ في مواطن كثيرة من كتبه، وحمل عليهم بسبب غلوهم في الدين، وسفكهم للدماء، بالرغم من شدة تدينهم وكثرة عبادتهم على جهالة.

يقول رحمه الله: "أوقعهم -يعني الخوارج- الغلو في الدين إلى تكفير العصاة بالذنوب، وإلى قتل النساء والرجال، إلا من اعترف لهم بالكفر وجدّد إسلامه!!"[١].

- وفي ترجمة الزُّبير بن العوام (ت٣٦هـ) يقول: "الخوارج كلاب النَّار[٢]، وَشَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَدِيْمِ السَّمَاءِ[٣]؛ لأنهم مرقوا من الإسلام، ثم لا ندري مصيرهم إلى ماذا، ولا نحكم عليهم بخلود النار، بل نقف"[٤].

- وأكد هذا في موضع آخر فقال: "الخوارج كلاب النَّار، قد مرقوا من الدّين، وَمع هذا فلا نقطع لهم بخلود النَّار، كما نقطع به لعبَدة الأصنام والصُّلبان"[٥].

وهذا من وسطية الذهبي رحمه الله فهو -بالرغم من نقده للخوارج وذمه الشديد لهم- إلا أنه لم يقطع بكفرهم ولا بخلودهم في النار، وهذا هو مذهب أهل السنة رحمهم الله، أعني عدم تكفير الخوارج، كما حكاه الإمام النووي في "شرح صحيح مسلم"[٦].

المبحث الرابع: تحذيره من التكفير بسبب الاختلاف في فروع العقائد

وهذا كثير في كلام الذهبي، من ذلك ما نقله في ترجمة أبي الحسن الأشعري (ت٣٢٤هـ)، عن أزهر بن أحمد السرخسي، أنه قال: "لما قرُب حضور أجل أبي الحسن الأشعري في داري ببغداد، دعاني فأتيته، فقال: اشهد عليّ أني لا أُكفِّر أحداً من أهل القبلة؛ لأن الكل يشيرون إلى معبود واحد، وإنما هذا كله اختلاف العبارات".

وقد علَّق الذهبي على كلام أبي الحسن الأشعري بقوله: "وبنحو هذا أدين، وكذا شيخنا ابن تيمية في أواخر أيامه، يقول: أنا لا أكفر أحداً من الأمة، ويقول: لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن، فمن لازم الصلوات بوضوء فهو مسلم"[٧].

---

[١] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج٣، ص٦٠٦.

[٢] إشارة للحديث الذي أخرجه أحمد في **المسند**، ج٣١، ص٤٧٤؛ وابن ماجه في **سننه**، كتاب الإيمان، باب في ذكر الخوارج، ج١، ص٦١، رقم١٧٣، عن ابن أبي أوفى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الخوارج كلاب النار»، وصححه الألباني في **صحيح الجامع الصغير**، رقم٣٣٤٧.

[٣] إشارة إلى الحديث الذي أخرجه الترمذي في **سننه**، في كتاب التفسير، باب ومن سورة آل عمران، ج٥، ص٢٢٢، رقم٣٠٠٠ عن أبي أمامة مرفوعاً، وفيه: «كلاب النَّار شرُّ قتلى تحت أديم السَّماء، خير قتلى من قتلوه»، حسنه الترمذي في الموضع المذكور، وقال الألباني: حسن صحيح، كما في **صحيح سنن الترمذي**، رقم٣٠٠٠.

[٤] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج١، ص٦٣.

[٥] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج٣، ص١٢٨.

[٦] النووي، **شرح مسلم**، ج٧، ص١٦٠-١٦٥. بل نقل المناوي في **فيض القدير**، ج٣، ص٥٠٩ عن الخطابي إجماع العلماء على أن الخوارج على ضلالهم مسلمون وليسوا بكفار. ويقول ابن تيمية: "الأئمة مجمعون على ذمهم وتضليلهم" كما في **مجموع الفتاوى**، ج٢٨، ص٥١٨.

[٧] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج١٥، ص٨٨.

المبحث الخامس: تقريره أن العبرة بكثرة فضائل العالم

وهذا أيضاً في كلام الإمام الذهبي كثير جداً، فقد كان رحمه الله يدعو إلى الإنصاف والاعتدال وعدم الحطّ على العلماء لأجل بعض الفوات أو الهنات التي خالفوا فيها صواب ما نعتقد.

ولعلي اكتفي بشاهدين من كلام الذهبي رحمه الله يوضح هذا:

الشاهد الأول: ما ذكره في ترجمة أبي بكر القفّال الشاشي الشافعي، (ت: ٤١٧هـ)، فقد نقل الذهبي عن بعض العلماء أنه عاب بعض كتب القفال من جهة نصره لمذهب المعتزلة في بعض المسائل. ثم علق قائلاً: "الكمال عزيز، وإنما يُمدح العالم بكثرة ما له من الفضائل، فلا تدفن المحاسن لورطه، ولعله رجع عنها، وقد يغفر له باستفراغه الوسع في طلب الحق، ولا قوة إلا بالله"[١].

الشاهد الثاني: موقفه من كتاب "الشفا في التعريف بحقوق المصطفى" للقاضي عياض بن موسى اليحصبي المالكي، (ت٥٤٣هـ). ففي ترجمته من "السير" قال: "تواليفه نفيسة، وأجلها وأشرفها كتاب الشفا، لو لا ما حشاه بالأحاديث المفتعلة، عملُ إمام لا نقد له في فن الحديث ولا ذوق، والله يثيبه على حسن قصده، وينفع بشفائه وقد فعل"[٢].

المبحث السادس: دعوته إلى ترك التبديع والتضليل لأجل زلة أو هفوة

وشواهد هذا كثيرةٌ في كلام الذهبي، منها:

أولاً: قوله: "ولو أننا أهدرنا كل عالم زلّ، لما سلم معنا إلا القليل، فلا تحطّ يا أخي على العلماء مطلقاً، ولا تبالغ في تقريظهم مطلقاً، واسأل الله أن يتوفاك على التوحيد"[٣].

ثانياً: قوله: "ولو أنا كلما أخطأ إمام في اجتهاده في آحاد المسائل خطأ مغفورا له، قمنا عليه، وبدّعناه، وهجرناه، لما سلم معنا لا ابن نصر، ولا ابن مندة، ولا من هو أكبر منهما، والله هو هادي الخلق إلى الحق، وهو أَرحم الراحمين، فنعوذ بالله من الهوى والفظاظة"[٤].

ثالثاً: قوله في ترجمة الحافظ محمد بن إسحاق بن خزيمة (ت٣١٧هـ): "ولو أن كلَّ من أخطأ في اجتهاده مع صحة إيمانه، وتوخيه لاتباع الحق أهدرناه، وبدَّعناه، لقل من يسلم من الأئمة معنا، ..."[٥].

المبحث السابع: دعوته إلى ترك نكأ جراح الماضي وإشعال نار العداوات بسببها.

---

[١] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج١٦، ص٢٨٥.

[٢] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج٢٠، ص٢١٦.

[٣] الذهبي، **تاريخ الإسلام**، ج٣٠، ص٢٥٦.

[٤] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج١٤، ص٤٠.

[٥] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج١٤، ص٣٧٦.

يقول رحمه الله: "قد تكلَّم خلقٌ من التابعين بعضهم في بعض، وتحاربوا، وجرت بينهم أمورٌ لا يمكن شرحُها، فلا فائدة في بثّها، ووقع في كتب التواريخ وكتب الجرح والتعديل أمور عجيبة، والعاقل خصمُ نفسه، ومن حُسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه"[1].

وهذا من فقه هذا الإمام وبعد نظره، فمعظم صراعات المسلمين اليوم تدور حول حوادث غابرة قد تجاوزها الدهر منذ زمن سحيق، ولم يعد لوجودها داع أو مبرر، إلا اتخاذها ذريعة لتأجيج نار العداوات وتجديد الخصومات بين المسلمين بسوء فهم أو سوء نية.

المبحث الثامن: تمييزه بين مستويات البدعة، وتفرقته بين الغلاة وغيرهم

فالذهبي كثيراً ما كان يفرّق بين الغلاة وغيرهم من شتى الطوائف، حتى وإن كان يختلف معهم جميعاً، وهذا له صور وشواهد كثيرة، منها: تفرقته بين غلاة المرجئة ومرجئة الفقهاء[2]، وتفرقته بين غلاة الصوفية ومعتدليهم[3].

وإن شئتم الحق فقد كان الحافظ الذهبي يمقتُ الغلو والغلاة من أي فئة كانوا، وكان يقول: "غلاة المعتزلة، وغلاة الشِّيعة، وغلاة الحنابلة، وغلاة الأشاعرة، وغلاة المرجئة، وغلاة الجهمية، وغلاة الكرامية قد ماجت بهم الدنيا، وَكثروا، وفيهم أذكياء وعبّاد وعلماء، نسأل الله العفو والمغفرة لأهل التَّوحيد، ونبرأ إلى الله من الهوى والبدع، ونحب السنّة وأهلها، ونحب العالم على ما فيه من الاتباع والصفات الحميدة، ولا نحب ما ابتدع فيه بتأويل سائغ، وإنما العبرة بكثرة المحاسن"[4].

المبحث التاسع: نهيه عن القول بالمسائل الشاذة المخالفة لجمهور الأئمة

وقد قرر الحافظ الذهبي في هذه المسألة قواعد ذهبية، فقال: "ينبغي للمسلم أن يستعيذ من الفتن، ولا يشغب بذكر غريب المذاهب، لا في الأصول ولا في الفروع، فما رأيتُ الحرَكة في ذلك تحصِّل خيراً، بل تثير شراً وعداوة ومقتاً للصُّلحاء والعبّاد من الفريقين، فتمسَّكْ بالسّنة، والزم الصمت، ولا تخضْ فيما لا يعنيك، وما أشكل عليك فردَّه إلى الله ورسوله، وقفْ، وقل: الله ورسوله أعلم"[5].

المبحث العاشر: توسطه في مسألة الاجتهاد والتقليد

مسألة الاجتهاد والتقليد وقع فيها خلط وخبط بين كثير من طلبة العلم، وانقسموا فيها بين طرفي نقيض، فريق حرّم التقليد مطلقاً وأوجب الأخذ المباشر من الكتاب والسنة، وفتح باب الاجتهاد لكل من هب ودب من صغار طلبة العلم ونكراتهم!!

---

[1] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج١٠، ص٩٣.

[2] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج٥، ص٢٣٣، وج٩، ص٤٣٦.

[3] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج٩، ص٤٣٥.

[4] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج٢٠، ص٤٥.

[5] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج٢٠، ص١٤١.

وفي مقابل هؤلاء: فريق آخر حرّم الاجتهاد مطلقاً، وسد أبوابه جميعاً، أو جعل له شروطاً تعجيزية لا تتوفر حتى في كبار الأئمة!!

أما الإمام الذهبي فله رأي وسطي في هذه المسألة، فهو يُسيغ النظر المباشر في النصوص والأدلة، لكنه يخصص ذلك بمن تأهل وتبحر في علوم الشريعة، وبلغ رتبة الاجتهاد بشهادة الأئمة له.

– ففي ترجمة الإمام مالك (ت١٧٩هـ) رحمه الله، إمام دار الهجرة، نقل الذهبي عن بعض الشيوخ قوله: "إن الإمام لمن التزم تقليده، كالنبيّ مع أمّته، لا تحلّ مخالفته!!".

ثم تعقبه الذهبي فقال: "قوله: "لا تحل مخالفته" مجرد دعوى، واجتهاد بلا معرفة، بل له مخالفة إمامه إلى إمام آخر، حجّته في تلك المسألة أقوى، لا بل عليه اتباع الدليل فيما تبرهن له"[١].

– لكن الذهبي يضع للاجتهاد شروطاً، ولا يفتح بابه للناس جميعاً، ففي ترجمة الإمام ابن حزم الأندلسي الظاهري، (ت٤٥٦هـ)، نقل الذهبي عن ابن حزم قوله: "أنا أتبع الحق، وأجتهد، ولا أتقيّد بمذهب".

ثم تعقبه فقال: "نعم من بلغ رُتبة الاجتهاد، وشهد له بذلك عدةٌ من الأئمة، لم يسُغ له أن يقلِّد، كما أن الفقيه المبتدئ والعامي الذي يحفظ القرآن أو كثيراً منه، لا يسوغ له الاجتهاد أبداً، فكيف يجتهد، وما الذي يقول؟ وعلام يبني؟ وكيف يطير ولمّا يريِّش ..."؟[٢].

خاتمة:

لقد كان مقصود هذا البحث هو الإسهام في حلّ معضلة الغلو الديني وتفكيك بنيته، بعد أن تسبب في كثير من الأزمات والاختناقات التي يعاني منها العالم الإسلامي، وكان من أسباب جموده وتأخره عن الالتحاق بركب الازدهار والنمو والتفوق.

وتفكيك هذا الفكر كما قدمت له أدوات مختلفة، منها مواجهته بالفكر الوسطي المعتدل لدى كبار علماء الأمة وأعلامها، ممن يحظون باحترام وثقة وتقدير بين المسلمين.

وقد وقع اختيار البحث على أحد هؤلاء الأئمة الأعلام، وهو الإمام الحافظ الجليل والناقد المؤرخ الكبير شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي (ت٧٤٨هـ)، أحد أئمة الحديث النبوي وأساطينه وحامل رايته وناشر علومه بشهادة كبار علماء الأمة ممن عاصره أو جاء بعده.

وقد أبرز البحث الكثير من أفكار القصد والاعتدال التي دعا لها الذهبي ووثقها من كتبه، وأبرز أيضاً أن الذهبي وبالرغم من قصده واعتداله إلا أنه لم يكن رجلاً متساهلاً في دينه ولا متهاوناً في عقيدته، بل كان عالماً ربانياً، يجري على قانون السّلف في التمسك بالكتاب والسنّة والذبّ عنهما والدعوة إليهما.

---

[١] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج٨، ص٩٠.

[٢] الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج١٨، ص١٩١.

نعم لقد أبرز البحث أن الذهبي كان حازماً وصارماً تجاه الانحرافات الواضحة والبدع الجليّة المصادمة للكتاب والسنّة، ينقد أصحابها ويرد عليهم ويكشف عن مساوئهم، من صوفية غالية، ورافضة بغيضة، ومعطلة ومجسمة وخوارج وفلاسفة وباطنية ومشعوذين باسم الدين ....

لكنه في الوقت نفسه لم يكن يرى الإسراف في المواقف ولا الشطط في النقد، بل كان يحب المهل والريث، وكان يحب للأمور أن توزن بميزان القسط والعدل الذي أمر الله به في كتابه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسانِ﴾ [النحل:٩٠]، دون إفراط أو تفريط، أو وكس أو شطط.

وقد لاحظ البحث أيضاً أن معظم المآخذ التي كان يوجهها الحافظ الذهبي لبعض علماء زمانه منذ ثمانمائة عام تقريباً لا تزال باقية حتى اليوم كما هي لم تتغير أو تتحسن كثيراً، الأمر الذي ينذر بخطر، ويدل على أن عجلة الإصلاح الديني عندنا لا تزال تسير في بطء شديد وتعثّر، إن لم تكن متوقفة، برغم حاجة الأمة الشديدة للإصلاح، وبرغم كثرة الزلازل العنيفة التي أصابتها وهزت كيانها من الداخل والخارج.

فنسأل الله عز وجل معونته وتوفيقه وسداده، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

المصادر والمراجع:

١. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، **مجموع الفتاوى**، (مكتبة ابن تيمية، طبعة٢).

٢. ابن عبد البر، يوسف بن عبد البر المالكي، **التمهيد** لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، (المغرب: وزارة عموم الأوقاف، د. ط، ١٩٦٧م).

٣. ابن قدامة، عبد الله بن أحمد المقدسي، **المغني**، (القاهرة: مكتبة القاهرة، د.ط، ١٩٦٨م).

٤. ابن كثير، إسماعيل بن عمر الدمشقي، **البداية والنهاية**، تحقيق: علي شيري، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، ١٩٨٨م).

٥. ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، **السنن**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء الكتب العربية).

٦. أحمد بن محمد بن حنبل، **المسند**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ).

٧. الألباني، محمد ناصر الدين، **صحيح الجامع الصغير**، (بيروت: المكتب الإسلامي، د.ط، د.ت).

٨. الألباني، محمد ناصر الدين، **صحيح سنن الترمذي**، (بيروت: المكتب الإسلامي، د. ط، ١٩٩١م).

٩. المناوي، عبد الرؤوف، **فيض القدير بشرح الجامع الصغير**، (مصر: المكتبة التجارية، د. ط، ١٣٥٦هـ).

١٠. البخاري، محمد بن إسماعيل، **الصحيح**، تحقيق: مصطفى البُغا، (بيروت: دار ابن كثير، د.ط، ١٩٨٧م).

١١. بشار عواد معروف، **الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ الإسلام**، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، د. ط، ٢٠٠٨م).

١٢. الترمذي، محمد بن عيسى، **السنن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرين، (مصر: شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي، ط٢، ١٩٧٥م).

١٣. الذهبي، محمد بن أحمد، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، (بيروت: دار الكتاب العربي، د. ط، ١٩٩٣م).

١٤. الذهبي، محمد بن أحمد، **تذكرة الحفاظ**، تصحيح: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ط، د.ت).

١٥. الذهبي، محمد بن أحمد، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، (بيروت: مؤسسة الرسالة، د. ط،١٤١٣هـ).
١٦. الذهبي، محمد بن أحمد، **العِبَر في أخبار من غبر**، تحقيق: محمد السعيد زغلول، (بيروت: دار الكتب العلمية، د.ط، د.ت).
١٧. الذهبي، محمد بن أحمد، **معجم الشيوخ**، تحقيق: د. محمد الحبيب الهيلة، (المملكة العربية السعودية، مكتبة الصديق، ط١، ١٩٨٨م).
١٨. الذهبي، محمد بن أحمد، **المعجم المختص بالمحدثين**، تحقيق: د. محمد الحبيب الهيلة، (المملكة العربية السعودية، مكتبة الصديق، ط١، ١٩٨٨م).
١٩. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، **طبقات الحفاظ**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٠٣هـ).
٢٠. الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، **الوافي بالوفيات**، تحقيق: أحمد الأرنؤوط وتركي مصطفى، (بيروت: دار أحياء التراث، د.ط، ٢٠٠٠م).
٢١. عبد الستار الشيخ، **الحافظ الذهبي مؤرخ الإسلام**، (دمشق: دار القلم، ط١، ١٩٩٤م).
٢٢. الكتاني، عبد الحي بن عبد الكبير، **فهرس الفهارس والأثبات**، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٢م).
٢٣. مجمع اللغة العربية بالقاهرة، **المعجم الوسيط**، (مصر: دار الدعوة، د.ط، د.ت).
٢٤. النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف، **شرح صحيح مسلم**، (بيروت: دار حياء التراث، ط٢، ١٣٩٢هـ).

الوسطية والاعتدال في منظور القرآن والسنة

خالد بن هندي بن خليف الحربي[1]

ملخص البحث:

يتناول البحث: الوسطية والاعتدال في التشريعي الإسلامي وأحكامه التكليفية التي أُلزم بها المكلّف، وذلك من خلال مفهوم دلالات الأوامر والنواهي في النّصوص الشرعية، وكذلك من خلال فتاوى النّبي ﷺ ومعاملاته الحياتية مع أصحابه ومن حوله من النّاس، وبيان أنّ الشريعة الإسلامية جاءت وسطاً في كل شيء، وأنّ هذه الأمة أمة محمد ﷺ قد امتدحها الله في محكم التنزيل بوصفها بالأمة الوسط قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ..﴾ [البقرة:١٤٣]. وقد اتبع الباحث منهج جمع المعلومات والذي كان منهجه فيه هو: جمع المادة العلمية منهجاً مكتبياً، ومنهج تحليل المعلومات، وذلك بتحليل المادة العلمية ودراستها؛ لتوضح الوسطية الحق، والتي كثر الحديث عنها في هذه الأيام، وكَبُرَ الجدل فيها بين الباحثين من مختلف المدارس، والاتجاهات الفكرية، وسوف يُناقش الباحث في بحثه هذا (الوسطية والاعتدال) فيما يأتي:

أولاً: معنى الوسطية وأثر ذلك في الفهم الصحيح للوسطية الحق. **ثانياً**: ملامح الوسطية في التشريع الإسلامي. **ثالثاً**: وسطية النّصوص الشرعية في الأحكام التكليفية وأثرها على المكلّف والأمة.

وقد خَلُص البحث بمجمله في هذه المادة العلمية، والمتعلقة بالوسطية والاعتدال في منظور القرآن والسنة، أنّ الوسطية الحق لا تتحقق إلاّ بشروط ثلاث وهي: العدل، والمساواة، والسماحة، وأنّ النّصوص الشرعية سواءً كانت في أحكامها التكليفية أو تشريعاتها الحياتية، تُأصل منهج الاعتدال والوسطية بيّن النّاس، وبشرت على ذلك، بالخير الكثر في الدارين.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين إله الأولين والآخرين، وأصلي وأسلم على خير البشرية نبي الرحمة والمبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد، وعلى آله وصحابته ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

وبعد! فإنّ الحديث عن الوسطية الحق التي أمتدح الله بها هذه الأمة كما أخبر سبحانه وتعالى عن ذلك في محكم التنزيل، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ..﴾ [البقرة:١٤٣]، يحتاج للنظر فيه إلى معرفة أمران مهمان:

الأول: معرفة المعنى الحقيقي للوسطية؛ ليتضح لنا معنى الوسطية الحق، التي جعلت هذه الأمة وسطا بين طريق المغضوب عليهم أمثال: اليهود الذين قتلوا أنبياء الله، وقتلوا الذين يأمرون بالقسط من النّاس، وأسرفوا في التحريم، وحرموا كثيراً مما رزقهم الله، وبين الضالين أمثال: النّصارى الذين اتخذوا الأنبياء آلهة، واتخذوا الأحبار والرهبان معبودات من دون الله، وأسرفوا في التحليل لأنفسهم ما يشتهونه من ملذات الحياة. وكذلك في معرفة المعنى الحقيقي للوسطية الحق، التي ذُكرت في الآية

---

[1] قسم الفقه والأصول، أكاديمية الدراسة الإسلامية جامعة ملايا، drkalidmcx@gmail.com

السابقة، وامتدح الله بها هذه الأمة، نستطيع من خلال الفهم الصحيح لها، أن نُميّز بين الغلو والتمييع في الحكم التكليفي، وتعاليم الدين الإسلامي، وأنّ الشارعَ الحكيم قد شرع أحكاماً رصينةٌ في إحكامها سمحةٌ في أدائها، تُناسب طبيعة المكلّف، وتُناسب الزمان والمكان الموجود فيه. وكذلك في معرفة المعنى الحقيقي للوسطية الحق، يتضح لنا زيف الشعارات الخارجية من أعداء الإسلام، والتي تَدّعي أنّ الإسلام دين إرهابٍ، وسَفكٍ للدماءِ، وتبديدٍ للحريات الشخصية أو العامة، ويَتضح أيضاً زيف الشعارات الداخلية ممن هم من جلدتنا ويَنتسبون لديننا: أنّ الأحكام الشرعية غير صالحة؛ لأنّ الزمن قد تغير، وأنّ النّصوص الشرعية لم تعد تقدر أن تجد فيها ما يُناسب هذا العصر الحديث. وكذلك في معرفة المعنى الحقيقي للوسطية الحق، يتضح لنا زيف الشعارات التي تدعو إلى الدين بغير علم وفهم، لدلالات ومقاصد النّصوص الشرعية، وصيغها المتنوعة في كل نص من نصوص الكتاب أو السنة، فأخرجوا لنا فتاوى مخالفة للصواب، ومغالية في الدين، وحق فيهم حديث الحبيب المصطفى ﷺ: «هلك المتنطعون»[1] قالها: ثلاثا.

قال: النووي –رحمه الله–: "المتنطعون المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم، وأفعالهم"[2].

الثاني: فهم وسطيّة النّصوص الشرعية في الأحكام التكليفية، فالأحكام الشرعية جاءت؛ لتحقق مقصد الخلق وهو: عبادة الله وحده لا شريك له، وطاعته في ما أمر واجتناب ما نهى عنه وزجر، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦] فمقصد الخلق هو عبادة الله تعالى، فلا يأتي مَنْ يبحث عن الوسطية في النّصوص الشرعية ويقول: إنّ من السماحة والعدل في الإسلام، أنّ النّاس لهم حرياتهم الشخصية في اختيار الدين، ومَنْ يعبدون، وكيف يَعبُدون؟ وهذا من الوسطية في الدين!!.

ويستشهد بقوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ...﴾ [الكهف:٢٩]، فهذا مخالف لمقصد هذه الآية الكريمة، وليس من السماحة أو العدل بشيء، قال تعالى في تمام هذه الآية: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا...﴾، فالآية الكريمة جاءت للوعيد وليست للتخيير، قال القرطبي –رحمه الله– في تفسيره لهذه الآية: "وليس هذا بترخيص وتخيير بين الإيمان والكفر، وإنّما هو وعيد وتهديد، أي إن كفرتم فقد أعدّ لكم النّار، وإن آمنتم فلكم الجنة"[3].

وشاهد ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران:٨٥].

وكذلك من وسطية وسماحة وعدل الأحكام الشرعية، أنّها راعت كل مُكلّف في حالته ومكانه أثناء تكليفه، ففهم مدلولات النّص الشرعي، ومقاصد الحكم التكليفي في النّص الشرعي، يحقق معنى الوسطية في الأحكام الشرعية، والتي هي مطلبٌ في بيان شمول الدين وسماحته على المكلّفين، وهذا يُحقق للدعوة إلى وسطية الإسلام صدقها وقوتها، بأنّ الأمة الوسطية هي أمة الإسلام، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ..﴾ [البقرة:١٤٣].

---

١ أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب العلم، باب «هلك المتنطعون»، ج٤، ص٢٠٥٥، رقم٢٦٧.

٢ النووي، **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، ج٩، ص٢٦.

٣ القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج١٠، ص٣٩٣.

المبحث الأول

معنى الوسطية وأثر ذلك في الفهم الصحيح للوسطية الحق

سوف يُناقش الباحث في هذا المبحث ما يأتي:

أولاً: تعريف الوسطية عند أهل اللغة. و**ثانياً**: تعريف الوسطية عند أهل التفسير. و**ثالثاً**: تعريف الوسطية عند أهل الحديث. و**رابعاً**: تعريف الوسطية عند أهل الفقه والأصول. و**خامساً**: المفهوم الحق للوسطية في الإسلام.

إنّ الكلام عن معنى الوسطية يطول به المقال كثيراً، خاصة إذا ناقشنا مادة (وسط) وما يتجذر منها، فنجد أنّها عُرفت، وفهمت بعدّة معاني، وكل تعريف ومعنى له أدلته التي تحتاج للمناقشة. ولكي يتضح الصواب من بيّن هذه التعريفات، وفهم مادة (وسط)، نجد أنّ هذه المادة (وسط) فهمت كمفهوم لغوي، وكمصطلح تعريفي، وكصفة للشريعة وأحكامها، وكمنهج خاص للحياة وقوانينها، وطبيعة هذا البحث الذي سيُقدم كورقة علمية يقتضي عدم ذكر جميع التفاصيل؛ لكي لا يطول البحث، ويلتزم الباحث بعدد الصفحات المقرر له، وسوف تكون هذه المناقشة لتلك الفقرات مناقشة دقيقة غير مستفيضة؛ للوصول لمعنى الوسطية الحق، والتي مُدحت بها هذه الأمة (أمة الإسلام).

أولاً: تعريف الوسطية عند أهل اللغة:

تُعرّف الوسطية عند أهل اللغة بمعاني كثيرة، وما يهمنا من بين هذه التعاريف هو، تعريف الوسطية بمعناها العام، وتعريفها بمعناها الخاص، فالوسطية بمعناها العام عند أهل اللغة يقصدون بها التوسط بين شيئين، سواء أكان معنوياً، أم حسياً، والتوسط بهذا المعنى يُراد به فعل العمل، وليست الصفة، كأن تقول: فلان توسط بين خصمين، وأفلح في الصلح بينهما، ومنها قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ..﴾ [النساء:١١٤]، ففي هذه الآية الكريمة بيّن المولى جل وعلا أنّ التناجي وهو: المسارَّة في الحديث بين اثنين أو أكثر، أنّه مذموم؛ لأنّه يُوهم الغدر والخيانة أمام مَنْ تُنُجّي عنده، إلا في الاستثناء المذكور في الآية: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ ومن بين هذا الاستثناء الوارد في الآية الكريمة: التوسط بين النّاس في الصلح، قال القرطبي: "قوله تعالى: (أو إصلاح بين النّاس) عام في الدماء والأموال والأعراض، وفي كل شيء يقع التداعي، والاختلاف فيه بين المسلمين"[1]. وقال الأوزاعي: "ما خطوة أحب إلى الله عز وجل، من خطوة في إصلاح ذات البين، ومَنْ أصلح بين اثنين، كتب الله له براءة من النار"[2]، هذا هو المعنى الأول عند أهل اللغة في مادة (الوسط)، وهي الأصل التي تفرعت عنه مادة (الوسطية) فالمعنى هنا عنّد أهل اللغة هو الفعل، وليست الصفة.

[1] القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، ج٥، ص٣٨٤.

[2] المرجع السابق، ج٥، ص٣٨٥.

أما المعنى الثاني عند أهل اللغة لمادة (وسط) فهو: المعنى الخاص، حيث يُراد به في لغة العرب الأعدل، والأفضل، والأحسن، والأخْير، فهذا المعنى الخاص لمادة (وسط) هو الذي تفرعت عنه مادة (الوسطية) لأنّها صفة كريمة يُمتدح فيها من توفرت فيه هذه الصفة[1].

ثانياً: تعريف الوسطية عند أهل التفسير:

إنّ علماء التفسير قد تحدثوا عن مفهوم الوسطية؛ لأنّها ذُكرت في القرآن الكريم بمادتها: (وسطاً)، و(الوسطى)، و(أوسط)، و(أوسطهم)، و(وسطن)، ولكنّهم كانوا يُناقشون هذه الاشتقاقات في كل آية، بتوضيح معناها من اللغة، وبتفسيرها من منقولات الصحابة والتابعين، فكانت تعريفاتهم وشروحهم لمادة (وسط) وما تفرع عنها، مشابهةً لتعريفات أهل اللغة، إلاّ أنّهم كانوا يُرجحون أقوال الصحابة ﷺ في بيان شرحهم للآيات، وهذا هو الفارق بينهم وبين أهل اللغة.

(فالوسط) عند أهل التفسير له معاني خاصة؛ لأنّهم نقلوا ما قاله الصحابي في معنى كلمة (وسطاً) المذكرة في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ..﴾ [البقرة:١٤٣]، فهي ترادفت بين معنيين، قد تُجمع معاً، وقد يُقدم أحدهما على الآخر، فالمعنى الأول: العدل، والمعنى الثاني: الخيار (الخيرية)، فالمعنى الأول، نجد أنّ من الصحابة مَنْ قال به، وتبعهم تلاميذهم من التابعين، وهم: أبو سعيد الخدري، وأبو هريرة، ومجاهد، وعطاء، وقتادة ﷺ[2]. والمعنى الثاني: نجد أنّ كثيراً من المفسرين ذهبوا إليه، وأغلبهم مِمَنْ له باعٌ طويل في اللغة، كالزجاج، والزمخشري، ومن كبار المفسرين كابن كثير، وأبي حيان الأندلسي[3].

ثالثاً: تعريف الوسطية عند أهل الحديث:

إنّ علماء الحديث قد اعتنوا بكل ما يرد عن النبي ﷺ من أقوال، وأفعال، وتقريرات، وغزوات، ومعاملات مع الصحابة وغيرهم، وقد ورد ذكرٌ للوسطية في كلامه ﷺ؛ لذا نجد أنّ أهل الحديث قد تعرضوا لهذا القول منه ﷺ، ولكنّهم لم يَحيدوا عما قاله أهل اللغة في معنى (الوسط) أصل كلمة (الوسطية)، ولكنّهم -أيّ أهل الحديث- رجحوا المعنى الثاني عند أهل اللغة وهو: الصفة، أي أنّ الوسطية هي صفة وليست فعلا، وهذا لأنّ النّبي ﷺ فسرها بالعدل، والذي هو من الصفات الحميدة، ومن معاني مادة (الوسطية) الخاصة، والتي لا يُراد منها إلاّ المدح لمن وُصِف به.

فعن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ في قوله عز وجل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ..﴾ قال ﷺ: «عدلاً»[4]، لذا نجد أهل الحديث قد اهتموا في معنى هذه الكلمة (وسطاً) بما فسره النّبي ﷺ، وليس بما قاله أهل اللغة أو أهل التفسير في هذه الكلمة الواردة بالآية الكريمة[5].

---

[1] ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج٦، ص١٠٨.

[2] الطبري، **جامع البيان**، ج٣، ص١٤١-١٤٥.

[3] انظر: الزجاج، **معاني القرآن وإعرابه**، ج١، ص٢١٩؛ والزمخشري، **الكشاف**، ج١، ص ١٩٨؛ وابن كثير، **تفسير القران العظيم**، ج١، ص٤٥٤؛ وأبو حيان، **البحر المحيط**، ج٢، ص١٢.

[4] أحمد، **المسند**، ج١٧، ص١٢٢. وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

[5] انظر: ابن بطال، **شرح صحيح البخاري**، ج١٠، ص٣٧٩؛ وابن حجر، **فتح الباري**، ج١٣، ص٣١٦.

رابعاً: تعريف الوسطية عند أهل الفقه والأصول:

إن علماء الفقه والأصول لم يأتوا بجديد في معنى الوسطية، فقد نقلوا ما قاله أهل اللغة، والتفسير، والحديث في معناها كصفة دالة على الخيرية لهذه الأمة والعدالة لها، ولكنّهم نظروا لمعنى الوسطية من منظور أعمق وأدق، فقد وضعوا من خلال نظرهم في كلمة (وسطاً) الواردة في الآية الكريمة ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ..﴾ قاعدة عظيمة دخلت في كثير من مسائل الأحكام وفروعها. وهذه القاعدة كانت بلسماً شافياً في كثير من النزاعات الفقهية بل والعقدية كذلك، فمن هذه المسائل: ١) إثبات الإجماع، ٢) إثبات عدالة الصحابة.

ففي مناقشة مسألة حجية الإجماع، نجد أنّه من الأدلة المتفق عليها بيّن جمهور الأصول والفقهاء، ولا يجوز معه الاجتهاد أو المخالفة[١]، ومن أدّلة حجيته آية ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ..﴾، وهناك آيات أُخر ذَكَرها الأصوليون في هذا الباب، ولكنْ! مقصد الباحث من ذلك؛ بيان الاستفادة من هذه الآية عنّد الأصوليين والفقهاء، فالوسطية المذكورة في الآية الكريمة كان من معانيها العدل والخيار، وهذا ما جعل علماء الأصول يقولون: بأنّ اجتماع علماء الأمة على أمر ما من أمور الدين، فيه دلالة على الصواب؛ لأنّ الذي يتصف بصفة العدل والخيرية لا يميل إلى الباطل بأي حال.

قال السرخسي –رحمه الله– وهو يُناقش مسألة وجوب العمل بإجماع الأمة، وأنّه موجب للعلم قال: "... ومعلوم أن الارتضاء مطلقاً لا يكون بالخطأ، وإن كان المخطئ معذوراً، وإنّما يكون بما هو الصواب، فعرفنا أنّ الحق مطلقاً فيما اجتمعوا عليه، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ..﴾ والوسط العدل المرضي"[٢]، وأما ما يخص مسألة عدالة الصحابة ﷺ فإنّ علماء الأصول –رحمهم الله– قد استدلوا على عدالة الصحابة بآيات كثيرة، ومن بيّنها هذه الآية ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ..﴾، وفي النظر إلى حجية دليل قول الصحابي، نجد أنّه ليس من الأدلة المتفق عليها كالإجماع، ولكن في إثبات عدالة الصحابة، يكون قول الصحابي مؤثرا في محل النّزاع الواقع في مسألة من مسائل الدين.

قال الجويني –رحمه الله– في إثبات عدالة الصحابة: "اعلم أنّ ما صار إليه الجمهور من أصحابنا، أنّ الرواة من أصحاب رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار، معدلون بنص الكتاب، وهم مقرون على العدالة، إلى أن يتحقق قطعاً ما يقدح في واحد منهم، فإن قيل: فأي آية تعنون اشتمالها على تعديلهم؟ قلنا: هي أكثر من واحدة، فمنها قوله تعالى في مخاطبة الصحابة ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، ومنها قوله تعالى في مخاطبتهم ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ..﴾[٣].

إذاً فقد نظر الفقهاء والأصوليون إلى عمق الوسطية المرادة من هذه الآية الكريمة ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ..﴾، فبيّنوا –رحمهم الله– مقصد الآية من ذكر الوسطية لهذه الأمة، وأنّها صفة مدح وكمال لهذه الأمة، وهذا ما يجعل الفهم لمعنى (وسطاً) يحتاج لطول نظر وتأمل.

---

[١] انظر: ابن قدامة، **روضة الناظر وجنة المناظر**، ج١، ص٣٧٨؛ والزركشي، **البحر المحيط في أصول الفقه**، ج٦، ص٣٨٤.

[٢] مالسرخسي، **أصول السرخسي**، ج١، ص٢٩٧.

[٣] الجويني، **التلخيص في أصول الفقه**، ج٢، ص٣٧٤.

خامساً: المفهوم الحق للوسطية في الإسلام:

بعد هذا العرض لمعنى الوسطية عنّد أهل اللغة، وأهل التفسير، وأهل لحديث، وأهل الفقه وأصوله، وكيف فَسَرتْ كل مدرسة من هذه المدارس، معنى الوسطية بما يُناسب ما تخصصت به من علم، ونجد أنّ الكل قد أجمعوا على أنّ من معاني الوسطية (العدل).

والعدل في الإسلام له منزلته الخاصة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ .. ﴾ [النحل:٩٠]، وقد امتدح الله من يُحقق العدل ويعمل به، قال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍۖ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [النحل:٧٦]، قال أبو السعود العمادي: "﴿وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِۙ﴾ أي: من هو منطبق فهو ذو رأي وكفاية ورشد، ينفع النّاس بحثهم على العدل الجامع الفضائل"[1].

فتَحقق الوسطية يكون بتحقيق العدل، ولا يتحقق العدل إلاّ بتطبيقه على كل النّاس، سواءً أكان على الحاكم منهم أو المحكوم، أم على المؤمن أو الكافر، وفي كل الأحوال، سواءً في حالة الحرب أم السلم، أو في حالة الغضب أم الرضى، قال تعالى: ﴿.. وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ ..﴾ [المائدة:٨].

فالوسطية التي امتدح الله بها هذه الأمة ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا ..﴾ قد فُسِرتْ من النّبي ﷺ بأنّها العدل، كما بيّن ذلك الباحث سابقاً، فلا ينطبق وصف الوسطية على الأمة إلاّ بحقيق العدل على الجميع دون استثناء، وهذا ما يجعل الأمة الإسلامية لها وزنها وقوتها بيّن الأمم، ولنا في التاريخ المشاهد الكثيرة، من تحقيق العدل في دولة الإسلام، التي أبهرت الأعداء من أهل الكفر والضلال.

إنّ شعار الوسطية وُظِّف في غير محله في كثير من الأحيان، فليس من الوسطية تمييع الدين وأحكام الشريعة؛ لإرضاء أعداء الإسلام بحجة الوسطية، وقد حذر الله من هذا الصنيع في أكثر من آية، قال تعالى: ﴿ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ..﴾ [هود:١١٣] قال ابن عباس ﷺ: لا تدهنوا[2]. وأورد الطبري في تفسيره: "حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد في قوله: ﴿ وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ..﴾، قال: "الركون"، الإدهان وقرأ: ﴿وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ﴾، [القلم:٩][3].

فالوسطية الحق هي تطبيق منهج العدل في التصرفات والأحكام على الجميع، والتسوية في الحقوق، وترك الظلم، وإيصال كل ذي حق حقه، والإحسان في المعاملات، بأن يُقَابل الخير بأكثر منه، والشر بأن يُعفى عنه، وهذا ينطبق على ما أمر الله به من العدل في قوله سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ .. ﴾ [النحل:٩٠] وهذه الآية الكريمة لها إعجازٌ عجيب في

[1] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، ج٥، ص١٣٠.

[2] ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٤، ص٣٥٤.

[3] الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج١٥، ص٥٠١.

بلاغتها، فإنّها قد جمعت الفضل كله في صيغة الأمر بالعدل، قال أبو السعود: ﴿بِٱلۡعَدۡلِ﴾ بمراعاة التوسط بين طرفي الإفراط والتفريط، وهو رأس الفضائل كلها، يندرج تحته فضيلة القوة العقلية الملكية، من الحكمة المتوسطة بين الحرمزة والبلادة، وفضيلة القوة الشهوية البهيمية، من العفة المتوسطة بين الخلاعة والخمود، وفضيلة القوة الغضبية السبعية من الشجاعة المتوسطة بين التهور والجبن"[1].

هذا ما يميل إليه الباحث أنّ الوسطية الحق هي: تحقق العدل في المعاملات جميعاً، وعلى جميع النّاس، وفي كل الأحوال، فإذا تحققت هذه الشروط الثلاثة ١) العدل في المعاملات، ٢) تطبيق العدل على كافة أصناف النّاس، ٣) تطبيق العدل في جميع الأحوال، فإنّ شعار الوسطية يكون شعار الحق.

المبحث الثاني

ملامح الوسطية في التشريع الإسلامي

إنّ ما يُوضح الشيء عن غيره ويُميّزه عن ضِده، هو أوصافه وملامحه، ولكي نَتَعرّف على الوسطية في الإسلام، لابد من معرفة صفات وملامح هذا الدين الحنيف؛ حتى يَتبيّن لنا تفضل الله على هذه الأمة، بحملها لهذه الرسالة العظيمة، وتشريفها بوصفها أمة الوسطية.

لو نظرنا في تشريعات الدين الإسلامي نجد أنّه أمر بالعدل، وراعى الحقوق وأمر بإيصالها إلى مستحقيها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ..﴾ [النساء:٥٨]، فهذا هو المنهج الذي أمر الله به في المعاملات بين النّاس، ولا شك أنّه منهج الوسطية بكل ما تعنيه هذه الكلمة، فالآية الكريمة لم تَقل: تُؤدوا الأمانات إلى المؤمنين دون غيرهم، ولم تذكر لفظ المسلمين أو المؤمنين في العدل بالحكم. بل قالت في تأدية الأمانات: ﴿إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾، وقالت في القضاء والحكم: ﴿بَيۡنَ ٱلنَّاسِ﴾، قال الشوكاني في تفسيره لهذه الآية: "هذه الآية من أمهات الآيات المشتملة على كثير من أحكام الشرع؛ لأنّ الظاهر أنّ الخطاب يشمل جميع النّاس في جميع الأمانات [إلى أن قال]، وممن قال بعموم هذا الخطاب: البراء بن عازب، وابن مسعود، وابن عباس، وأُبيّ بن كعب، واختاره جمهور المفسرين، ومنهم ابن جرير، وأجمعوا: على أنّ الأمانات مردودة إلى أربابها، الأبرار منهم والفجار"[2].

وأما في الوصية الثانية التي وردت في هذه الآية الكريمة، ﴿وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِ..﴾، فهي الحكم بيّن أصناف النّاس جميعاً بالعدل والمساواة، دون النظر في مكانتهم الاجتماعية، أو وظيفتهم الإدارية، أو ثروتهم المالية، وحتى دينهم أو مذهبهم، قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»[3]، قال النووي في شرحه لهذا الحديث: "والمقسطون هم العادلون، وقد

[1] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، ج٥، ص١٣٦. وانظر: القاسمي، **محاسن التأويل**، ج٦، ص٤٠٢.

[2] الشوكاني، **فتح القدير**، ج١، ص٥٥٥.

[3] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، ...، ج٣، ص١٤٥٨، رقم١٨٢٧.

فسره في آخر الحديث، والإقساط والقسط بكسر القاف العدل، يقال أقِسط أقِساطاً فهو مُقسِط إذا عدل، قال تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩]"[1]، فلا يتحقق العدل في الحكم إلاّ بالمساواة بين النّاس جميعا، وهذه هي الوسطية الحق، والتي يَتخذها ويسعى إليها كثير من النّاس وهم ليسوا أهلاً لها.

فمن خلال النظر إلى الآية السابقة، وهي واحدة من بين كثير من الآيات الواردة في القرآن الكريم، والتي تحث على الوسطية، من خلال الأوامر والنّواهي الواردة بالنّص الشرعي، والقرآن يُعتبر الدستور المشرع لأمة الإسلام، نجد أنّ الوسطية ملمحٌ بارزٌ في التشريع الإسلامي، وهذا إن دلَّ فَيَدُل على أنّ وصف ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ..﴾ كان تشريفاً لهذه الأمة الإسلامية التي راعت في تطبيق أحكام الإسلام وتشريعاته على جميع النّاس، ولم تكن كاليهود الذين لم يُراعوا المساوة بين النّاس، بل تكبروا عليهم وظلموهم قال تعالى: ﴿.. ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ .. ﴾ [آل عمران:٧٥].

فكان جزاؤهم أنّ وصفهم الله باللعن والسخط عليهم، قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [المائدة].

إنّ شعار المساواة الذي يدل على الوسطية الحق، قد استتر بها مَنْ ليسوا كُفءً لها كالماسونية العالمية الماكرة، واللبرالية الحاقدة على أحكام الدين الإسلامي، فنجدهم طَاعنين في الإسلام وتشريعاته وأحكامه التكليفية، وقالوا: إنّها مُقيِّدة للحريات الشخصية، ومضيعة للحقوق العامة، ومتنصلة عن المساواة بين الناس، مريدين بذلك الطعن في الإسلام وتشريعاته السمحة؛ لصد النّاس عن دين الله القويم، ولكن صدق الله حين قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [التوبة:٣٢].

إنّ بُعد المسلمين عن تطبيق شريعة الإسلام، أوجد هذا الوهم من بعض أبنائه، بأنّ الإسلام لا يصلح لهذا الزمن المتطور، والذي يدعو للمساوة بين النّاس، وإعطائهم حقوقهم وحرياتهم الشخصية، لذا نجحت بعض الدعوات الحاقدة على الإسلام والمسلمين، بأنّ شرائع الإسلام فيها ظلمٌ للناس وعدم المساوة بين الرجل والمرأة، وبين الحاكم والمحكوم، وبين الناس والعلماء الذين يسمونهم برجال الدين.

لذا نجد أنّ الطريق الحق لدحض هذه الشبهات التي تُلقى على الإسلام وشريعته السمحة، هو إظهار ملامح الإسلام، من خلال تحقيق الوسطية، التي امتدح الله بها هذه الأمة، ولا تتحقق هذه الوسطية، إلا بالرجوع إلى العدل الذي أمر الله به في قوله: ﴿..وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ.. ﴾ [النساء:٥٨].

المبحث الثالث

[1] النووي، **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، ج١٢، ص٢١١.

وسطيّة النّصوص الشرعية في الأحكام التكليفية وأثرها على المكلّف والأمة

إنّ الحديث عن أحكام الشريعة الإسلامية تُبيّن لنا مدى تحقق الوسطية فيها، وتَرد على الشبهات التي تُلقى على الأحكام الشريعة الإسلامية، من أنّها أحكام رجعية قديمة، قاسية، لا تُراعي الحقوق الشخصية، لذا كان لزاماً بيان الوسطية في هذه الأحكام التي عليها مدار التكليف، والتي بيّنت لنا بعد معرفة المقصد من خلق الثقلين، ماذا يُريد الشارع الحكيم من قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

إنّ معرفة الأحكام التكليفية في الشريعة الإسلامية، وفهم مدلولاتها ومقاصدها، له أثر كبير في فهم الوسطية في التكاليف الشرعية، فالأحكام الإسلامية جاءت سمحة على المكلفين تفضلاً من الله تعالى عليهم؛ إذ لو كلّفهم بما لم يُطيقوا وعَجَزوا عن الفعل لوجب في حقهم العقاب، وهذا مخالف لما اتصف به المولى جل وعلا وامتدح نفسه بذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٤٠].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس:٤٤]، وقال النّبي ﷺ عن الله تبارك وتعالى: «قال الله تعالى: يا عبادي! إنّي قد حرمت الظلم على نفسي، وجعلته محرما بينكم فلا تظالموا ...»[1]، ولا شك أنّ في الأحكام الشرعية نوعا من المشقة على المكلّف، ولكنّ المكلف قادرٌ على أدائها بدون وقوع ضرر عليه بهلكة في بدنه، أو فوات مصلحة دينية أو دنيوية.

إنّ بيان الوسطية في الحكم التكليفي هو في بيان السماحة في الحكم التكليفي، وبالنظر إلى هذه الأحكام نجد أنّ منها ما هو أصلٌ في التشريع كإقامة الصلاة، وأداء الزكاة، وصوم رمضان، والحج إلى بيت الله الحرام، وهذه أركان الإسلام ودعائم الدين، وهي أصل التكليف، فهذه هي العبادة التي أرادها الله وشرعها على النّاس، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، وهي المحققة لمعنى الركن الأول في الإسلام: الشهادة بأنّ الله هو المعبود وحده بحق، ولن يدخل الجنة مَنْ عَبَدَ مع الله أحدا كائنا من كان، قال تعالى: ﴿.. إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢]، فهذه جاءت -أي الأركان الخمسة- ظاهرة المقصد في تشريعها، وهي تحقيق العبادة لله عن طرق هذه الأحكام، والتي كُلفنا بإقامتها.

ونجد من أحكام الشريعة ما هو فرعيٌ، كبيع الطعام قبل قبض الثمن، وكتلقي الركبان، فمقصد الشارع هنا لا يُعلم النّهي منه هل هو من أجل البائع؟، أم من أجل المباع له؟، أم من أجل أهل البلد؟[2]، فهذا الحُكم يحتاج إلى إمعان النظر وإطالة البحث فيه، ولا يقدر عليه إلا الراسخون في العلم، فالأحكام التي تكون أصلا في التشريع ظاهرة المقصد من تشريعها، وهنا نجد السماحة من الشارع الحكيم في المقاصد الشرعية.

---

١ الألباني، **صحيح الأدب المفرد**، ص١٨٣، والحديث صحيح.

٢ عبد الكريم النملة، **المهذب في علم أصول الفقه المقارن**، ج٥، ص١٩٩٦-٢٠٠٠.

فلو أن مقصد الحكم الذي هو من أصول الشرع غير ظاهر، لشق ذلك على الداعية في دعوته، وعلى المفتي في فتياه، وعلى الناظر والمحق في النوازل الجديدة، وكذلك لشق على المكلّف في العبادة؛ إذ أنّ معرفة المقصد من هذه العبادة تُعين المكلّف على الاستمرار في الأداء، وتُبعد عنه الفتور، وهذا ما نجده في جميع الأحكام التي تكون أصلاً في التشريع. قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ﴾ [النور:٥٢] قال الشوكاني في تفسيره لهذه الآية: "وهذه الجملة مقررة لما قبلها من حسن حال المؤمنين، وترغيب مَنْ عداهم إلى الدخول في عدِادهم، والمتابعة في طاعة الله ورسوله، والخشية من الله عز وجل والتقوى له"[1]، فالوسطية تظهر جلية في الحكم التكليفي في سماحته حال تشريعه على المكلّف، ونعلم أنّ الأحكام التكليفية لا مشقة فيها، حتى تُؤدي لفوات مصلحة على المكلّف، لذا نجد أنّ الدعوات التي تُطلقها بعض المنظمات الحاقدة على الإسلام بأنّ تكاليف الدين تُقيّد الحُريات وتُجد المشقة على الناس، أنّها دعوات كاذبة مخالفةٌ للصواب. ومن الشواهد على ذلك، النظر في الأصل الثاني من التشريع وهو، قول، أو فعل، أو تقرير النّبي ﷺ، فمن الشواهد على ذلك – وسوف يقتصر الباحث على شاهد واحد من أفعاله ﷺ؛ خوفاً من الإطالة في هذا الباب– ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند النّبي ﷺ، إذ جاءه رجل[2] فقال: يا رسول الله هلكت!! قال: «مالك»؟ قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم، فقال رسول الله ﷺ: «هل تجد رقبة تعتقها»؟ قال: لا، قال: «فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين»؟ قال: لا، فقال: «فهل تجد إطعام ستين مسكينا»؟ قال: لا، قال: فمكث النّبي ﷺ، فبينا نحن على ذلك أُتِيَ النّبي ﷺ بعرق فيها تمر –والعرق المكتل– قال: «أين السائل»؟ فقال: أنا، قال: «خذها فتصدق به»، فقال الرجل: أعلى أفقر مني يا رسول الله! فوالله ما بين لابتيها –يريد الحرتين– أهل بيت أفقر من أهل بيتي، فضحك ﷺ حتى بدت أنيابه، ثم قال: «أطعمه أهلك»[3].

في هذا الحديث تتجلى سماحة النّبي ﷺ في فتياه للصحابي سلمة بن صخر الأنصاري، حيث ارتكب ناقضا من نواقض الصيام، ألا وهو الجماع في نهار رمضان، والموجب للكفارة المغلظة، ثم بعد معرفته ﷺ لحال هذا الرجل من شدة فقره وعدم قدرته على أداء الكفارة بأنواعها الثلاثة، نجده يسمحُ في فتياه على السائل بأن يعطيه هذه الكفارة؛ ليأكل منها ويطعمها

---

١ الشوكاني، **فتح القدير**، ج٤، ص٤٦.

٢ هو سَلمَة بن صَخْر البياضي، صحابي أنصاري من الخزرج، شهد غزوة أحد مع النّبي ﷺ وكان يُقال له سلمان بن صخر، وقد كان رجلا فيه رغبة قويه في جماع النساء، فخاف على نفسه من إتيان أهله في نهار رمضان، فظاهر أهله شهر رمضان حتى لا يقع عليها في نهار هذا الشهر العظيم، قال رضي الله عنه: "كنت امرءً أوتيت من جماع النساء ما لم يُؤت أحد غيري، فلما كان رمضان تظاهرتُ من امرأتي حتى ينسلخ رمضان، فرقا أن أصيب ليلة منه فأتتابع في ذلك إلى أن يدركني النّهار، ولا أقدر على أن أنزع، فبينا هي تخدمني ذات ليلة إذ انكشف لي منها شيء فوثبت عليها"، وهذه قصة له في حديث آخر غير هذا الحديث، وهو ما ألبس على كثير من شُرّاح هذا الحديث بأنّ السائل ليس سلمة بن صخر، قال ابن تاج الدين السبكي: "الَّذِي أَتَى النَّبِي ﷺ فَذكر أَنه وطئ أَهله فِي رَمَضَان سَلمَة بن صَخْر البياضي، وَأَنّ ذَلِك كَانَ نَهَارا". انظر: السبكي، **طبقات الشافعية الكبرى**، ج١٠، ص٢٧٧؛ ومغلطاي، **إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، ج٦، ص١٣، وج١٠، ص٢٧٧؛ وبشكوال، **غوامض الأسماء المبهمة الواقعة في متون الأحاديث المسندة**، ج١، ص٢١١؛ وابن مَنْدَه، **معرفة الصحابة**، ج١، ص٧٠٣-٧٠٤؛ والقسطلاني، **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**، ج٩، ص٤١١، رقم٦٧٠٨.

٣ أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الصوم باب إذا جامع في رمضان، ولم يكن له شيء ...، ج٣، ص٣٢، رقم١٩٣٦.

أهل بيته؛ ليُبيّن ﷺ أنّ الغرض من الكفارة هو الاعتراف بالذنب والتطهر من هذا الذنب بأداء هذه الكفارة، وأن الإسلام ما جاء ليُغلّظ على الناس في أحكامه، بل جاء بأحكام سمحة يقدر عليها كل مكلف.

المسائل المتعلقة بهذا الحديث؛ ليبان سماحته ﷺ:

المسألة الأولى:

من سماحته ﷺ في فتياه للصحابي الذي نقض صيامه بالجماع في نهار رمضان، أنّه أسقط عنه الكفارة لحاله، وهي شدة رغبته في النساء وشدة فاقته، فهو فقير معدم لا يملك قوت يومه، قال تعالى مبيّناً رحمته ﷺ بالمؤمنين: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]، أي يحزنه ﷺ ما يشق على أمته من التكاليف التي لا يُطيقونها رحمة بهم[١].

ولقد جاء في الحديث أنه ﷺ عندما سُئِلَ عن أحب الدين إلى الله؟ قال: «الحنيفية السمحة»[٢]، فنجد أنّه ﷺ قد تسامح في فتياه للصحابي سلمة بن صخر ﷺ في ركن من أركان الدين، وكان هذا الحكم رحمة على أمته جميعاً؛ إذ أنّ كل من نقض صيامه بالجماع الموجب للكفارة المغلظة، ولم يكن يقدر على أداء الكفارة سقطت عنه الكفارة، ووجب بحقه التوبة النصوح من هذا الفعل، وقضاء يوم مكان الذي نقضه، بشرط أن تتوفر فيه شروط هذا الصحابي ﷺ الذي كان حريصاً على صيام رمضان، ولكنّه كان لا يقدر أن يملك نفسه عن جماع زوجته، وكان فقيراً لا يقدر على العتق والإطعام[٣]. ولقد اختلف الفقهاء -رحمهم الله- هل هذا الحكم خاص للصحابي سلمة بن صخر ﷺ، أم أنه عامٌ لكل من وجبت عليه الكفارة ولم يكن يقدر عليها؟ وهل هو خاصٌ بمن كان سبب فطره في نهار رمضان بالجماع عمداً؟ أم يشمل كل من أفطر عمداً بأي مُفَطِّرٍ؟.

كل هذا التساؤلات ناقشها الفقهاء -رحمهم الله- بتوسع[٤]، وفي هذا المبحث يُريد الباحث أن يبيّن سماحة النّبي ﷺ في ركن الصيام دون التطرق للمسائل، ومناقشتها مناقشة أصولية أو فقهية، وذلك من خلال ذكر فتيا النّبي ﷺ ودراستها؛ ليُخرج جوانب السماحة لدى النّبي ﷺ في ركن عظيم من أركان الدين والتي يقوم عليها الدين بوجودها وينهدم بعدمها.

المسألة الثانية:

---

١ انظر: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٢، ص٤٠٤.

٢ وهو صحيح، انظر: ابن حجر العسقلاني، **تغليق التعليق على صحيح البخاري**، ج١، ص١٦.

٣ انظر: ابن قدامة، **المغني**، ج٣، ص١٤٣-١٤٤.

٤ إن اختلاف الفقهاء في الكفارة المغلظة هو: هل العلة في الكفارة المغلظة خصوص الجماع في نهار رمضان؟، أم عموم إفساد الصوم كالأكل والشرب عمدًا؟ فأبو حنيفة -رحمه الله- يرى أن الأكل والشرب عمدًا كالجماع في وجوب الكفارة؛ لأن فيها جناية على عبادة الصيام، وقد قال بذلك أيضًا مالك -رحمه الله-، فالعلة عندهما هي: عموم إفساد الصوم، وذلك أن المكلّف إذا أكل وشرب قوي بدنه وتمكن من الجماع، فكان إيجاب الكفارة بالأكل والشرب الذي هو مادة الجماع والمقوي له من باب سد الذرائع. وأما الشافعي وأحمد -رحمهما الله- فيريان أنّ الكفارة المغلظة خاصة بمن جامع في نهار رمضان، وذلك أنّ الشهوة لا تنزجر بالوازع الديني فقط، بل تحتاج للزيادة في الزجر، وهي زيادة الكفارة المغلظة لمن جامع في نهار رمضان عمدًا وهو صائم، وقالا -أي الشافعي وأحمد-: أنّ الكفارة المغلظة جاءت في الحديث لمن جامع في نهار رمضان، فإلغاء هذه المناسبة لا يجوز، فتكون العلة عندهما هي: خصوص الجماع في نهار رمضان. انظر: الطوفي، **شرح مختصر روضة الناظر**، ج٣، ص٢٣٧-٢٤١.

من سماحته ﷺ أنّه تَحَمَّل كفارة هذا الصحابي، وهي في قوله ﷺ: «خذها فتصدق به». وهذا من كمال سماحته ﷺ إذ كيف برجل ينتهك فريضة الصيام وحرمة الشهر، وهو عارف بحكم التحريم كما ذكر ذلك شُرّاح الحديث ولكنّه يَجهل الحكم المترتب على هذا الفعل المحرم[1]، ثم نجده ﷺ يتكفّل عنه قيمته الكفارة بعد علمه بفقره، ومن ثم يأمره أن يُطعم أهل بيته منها، فقال ﷺ: «أطعمه أهلك»، وهو ﷺ يضحك متعجبا لحال هذا الرجل ومبيناً للأمة سماحة هذا الدين وسهولة أحكامه[2]، حيث إن السائل جاء وهو خائفٌ وَجِلٌ من جُرم ما فعل من هتك حرمة الشهر الفضيل، ثم يرجع بتمر يطعم أهله منه، وكيف أنّ الله برحمته وفضله رزقه هذا الرزق بذنب قد ارتكبه، وأي ذنب هذا؟! انتهاك حرمة شهر الصيام بالجماع متعمداً، وهذا من الذنوب العِظام.

كل ذلك جعل النّبي ﷺ يضحك على خلاف عادته وهو التبسم، ويُستنبط من هذه الحادثة أنّ فتياه كان يتحرى فيها السماحة على المستفتي، ويبحث له عن المخرج من الحرج الذي وقع فيه، كما قال عنه تعالى: ﴿... بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]، ويُستنبط أيضا من فتياه ﷺ في هذا الحديث، جواز كفالة الكفارة لمن لم يقدر عليها لفقرٍ، بدليل قوله ﷺ للسائل: «خذها فتصدق به»[3].

إنّ الأحاديث الدالة على سماحته ﷺ في فتياه كثيرة جداً يطول بها المقال، وتحتاج لتصانيف كبيرة، ولكنّ مقصد الباحث من ذكر هذا الشاهد من فتياه ﷺ في ركن من أركان الدينهو بيان تحريه ﷺ السماحة في الحكم الشرعي على المكلّفين، والسماحةُ خاصيةٌ من خصائص الوسطية التي امتدح الله بها هذه الأمة الإسلامية، فإذا تبيّنت لنا جوانب السماحة في الحكم التكليفي، وأثره في رفع الحرج والمشقة على المكلف، تبيّن لنا كذب الشعارات الزائفة، بأنّ هذه الأحكام التكليفية مُقيدة للحريات الشخصية، وبيّنت عور وهدف هذه الشعارة، وأنّها تُريد الفساد والإفساد، قال تعالى عنه: ﴿..وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٢٧].

الخاتمة:

أهم النتائج:

بعد دراسة الوسطية ومناقشتها في المباحث السابقة من هذا البحث، توصلت إلى عدة نتائج، أهمها:

---

١ انظر: ابن عبد الهادي، **شرح المحرر في الحديث**، ج٥٩، ص٧.

٢ اختلف الفقهاء هل الحكم هذا خاص أم أنه عام، والصحيح في هذه المسألة: أنه عام لكل من كان هذا حاله ولا يقدر على الكفارة، وقد بوّب البخاري –رحمه الله– في صحيحة فقال: "باب المجامع في رمضان هل يطعم أهله من الكفارة إذا كانوا محاويج". انظر: ابن بطال، **شرح صحيح البخاري**، ج٤، ص٧٤، فالقول: بأنه خاص لهذا السائل، والقول الآخر أنه منسوخ، لا دليل عليه والصحيح: أنه عام بدلالة الحديث التي لم تخصص هذا الحكم. انظر: ابن دقيق العيد، **إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام**، ج٢، ص١٧.

٣ انظر: عبد الكريم الخضير، **شرح المحرر في الحديث**، ج٥٩، ص١٤.

١- أنّ الوسطية في الإسلام تعني تحقيق العدل، والمساواة، بين النّاس في التعاملات من غير تمييز أو عنصرية، وهذا ما تميّزت به هذه الأمة عن غيرها من الأمم، وهو الذي جعلها تستحق هذا الثناء من الله جل وعلا في قوله: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا .. ﴾.

٢- وبعد النظر في الأحكام الشرعية نجد أنّ الشارع الحكيم قد تفضل على عباده، بأحكام سمحة في أصل تشريعها، يقدر عليها كل مكلّف، وصالحة لكل زمان ومكان، وهذا ما يُميّز شريعة الإسلام وأحكامه التكليفية، فالوسطية الحق لا تتحقق إلاّ بشروط ثلاث وهي: العدل، والمساواة، والسماحة.

٣- العدل يمنع الظلم والعدوان. والمساواة تمنع التكبر، والعنصرية، والطبقيات، كما هو الحال في المجتمع اليهودي، أو الرأس مالي. والسماحة تمنع التطرف والغلو، الذي بسببه وَجَدَ أعداء الإسلام بُغيتَهم، من الهجمات على الإسلام وأحكامه السمحة، إنّ في تحقق هذه الشروط الثلاث للوسطية، تتحقق الوسطية الحق التي دعا إليه الإسلام.

أسأل الله الكريم المنَّان أن يُصلح أحوال المسلمين، ويجمع كلمتهم على الحق والطريق المستقيم، وأن يُقيّض لها أمر رُشدها، ويُعز الأخيار، ويهدي العصاة، ويدحر الظالمين الحاقدين على الإسلام وأهله، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المصادر والمراجع:

١. ابن بشكوال، خلف بن عبد الملك أبو القاسم الأندلسي، **غوامض الأسماء المبهمة الواقعة في متون الأحاديث المسندة**، تحقيق: د. عز الدين علي السيد، (بيروت: عالم الكتب، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م).

٢. ابن بطال، علي بن خلف بن عبد الملك، **شرح صحيح البخاري**، تحقيق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، (الرياض: مكتبة الرشد، ط٢، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).

٣. ابن حجر، أحمد بن علي بن محمد العسقلاني، **فتح الباري**، (بيروت: دار المعرفة، د. ط، ١٣٧٩هـ/١٩٦٠م).

٤. ابن دقيق العيد، محمد بن علي بن وهب القشيري، **إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام**، (القاهرة: مطبعة السنة المحمدية، د. ط، د. ت).

٥. ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (بيروت: دار الجيل، ط٢، ١٤١٤هـ/١٩٩٩م).

٦. ابن قدامة، عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، **روضة الناظر وجنة المناظر**، تحقيق: د. عبد العزيز بن عبد الرحمن السعيد، (الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود، ط٢، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).

٧. ابن قدامة، عبد الله بن أحمد المقدسي، **المغني**، (القاهرة: مكتبة القاهرة الكبرى، د. ط، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م).

٨. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

٩. ابن مَنْدَه، محمد بن إسحاق بن محمد بن يحي العبدي، **معرفة الصحابة**، تحقيق: أ. د. عامر حسن صبري، (العين: مطبوعات جامعة

الإمارات العربية المتحدة، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م).

١٠. ابن حجر، حمد بن علي بن محمد بن أحمد العسقلاني، **تغليق التعليق على صحيح البخاري**، تحقيق: سعيد عبد الرحمن موسى القزقي، (بيروت وعمان: المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م).

١١. أبو السعود، محمد بن محمد، **إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

١٢. أبو حيان، محمد بن يوسف، **البحر المحيط**، تحقيق: صدقي محمد جميل، (بيروت: دار الفكر، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

١٣. أحمد بن محمد بن حنبل، **المسند**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م).

١٤. الألباني، محمد ناصر الدين، **صحيح الأدب المفرد**، (الدمام: دار الصديق، ط٤، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م).

١٥. البخاري، محمد بن إسماعيل الجعفي، **الصحيح**، (بيروت: دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).

١٦. الجويني، عبد الملك بن عبد الله، **التلخيص في أصول الفقه**، (بيروت: دار البشائر الإسلامية).

١٧. الزجاج، إبراهيم بن السري بن سهل، **معاني القرآن وإعرابه**، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، (بيروت: عالم الكتب، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

١٨. الزمخشري، محمود بن عمرو بن أحمد، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط٣، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦).

١٩. السبكي، عبد الوهاب بن تقي الدين، **طبقات الشافعية الكبرى**، تحقيق: د. محمود محمد الطناحي ود. عبد الفتاح محمد الحلو، (القاهرة: هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م).

٢٠. السرخسي، محمد بن أحمد بن أبي سهل، **أصول السرخسي**، (بيروت: دار المعرفة، د. ط، د. ت).

٢١. الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله، **فتح القدير**، (دمشق: دار الكلم الطيب، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣).

٢٢. الطبري، محمد بن جرير بن يزيد، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق: الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي، (القاهرة: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).

٢٣. الطوفي، سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم الطوفي الصرصري، **شرح مختصر الروضة**، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

٢٤. القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق، **محاسن التأويل**، تحقيق: محمد باسل عيون السود، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م).

٢٥. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، **الجامع لأحكام القرآن**، (القاهرة: دار الشعب، د. ط، د. ت).

٢٦. القسطلاني، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك المصري، **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**، (القاهرة: المطبعة الكبرى الأميرية، ط٧، ١٣٢٣هـ/١٩٠٥م).

٢٧. مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، **الصحيح**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د. ط، ١٣٧٤هـ/١٩٥٤م).

٢٨. مغلطاي بن قليج بن عبد الله البكجري المصري الحكري الحنفي، **إكمال تهذيب الكمال في أسماء الرجال**، تحقيق: عادل بن محمد وأسامة بن إبراهيم، (القاهرة: الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).

٢٩. النملة، عبد الكريم بن علي بن محمد، **المهذب في علم أصول الفقه المقارن**، (الرياض: مكتبة الرشد، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

٣٠. النووي، محيي الدين يحيى بن شرف، الحوراني، الدمشقي، **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م).

أهمية القرآن الكريم ومكانته في التأسيس لعلم نقد الكتاب المقدس

أ.د. محمد خليفة حسن[1]

ملخص البحث:

علم نقد الكتاب المقدس علم إسلامي أصيل، تعود أصوله الأولى إلى القرآن الكريم، ثم تطور على يد علماء الكلام، وعلى يد المفسرين وعلماء تاريخ الأديان المسلمين، إلى أن وصل إلى ذروته كعلم إسلامي على يد العالم ابن حزم الأندلسي الذي حقق في دراسته عن اليهودية في كتابه: "الفصل في الملل والأهواء والنحل" قمة المنهجية الإسلامية في نقد العهد القديم والعهد الجديد. وعلى الرغم من الضعف الذي أصاب العلوم الإسلامية بعد سقوط الخلافة العباسية، فقد استمر علم نقد الكتاب المقدس، وتم البناء على ما قدمه ابن حزم من آراء ونظريات في كتابات عدد من أشهر العلماء المسلمين، ومن بينهم الإمام ابن تيمية ٦٦٠-٧٢٨هـ (١٢٦١- ١٣٢٨م)، وبخاصة في كتابه "الجواب الصحيح لمن بدَّل دين المسيح"، وقد استمر هذا العلم إلى العصر الحديث، فظهرت كتابات مهمة، من أهمها كتاب رحمة الله الهندي "إظهار الحق"، وكتابات إسماعيل الفاروقي وغيرهما من العلماء المعاصرين المتخصصين في تاريخ الأديان.

وقد أهمل الغرب في العصر الحديث هذا التراث القرآني الإسلامي في نقد الكتاب المقدس، ولم يعتبروه مصدرا من مصادر علم نقد الكتاب المقدس في الغرب رغم أهميته المصدرية القصوى. فقد منع التعصب من ناحية والخوف من القرآن والإسلام من ناحية أخرى، من أن يستفيد المؤسسون لعلم نقد الكتاب المقدس في الغرب من التراث النقدي الإسلامي. ففي الأخذ عن القرآن الكريم والإسلام اعتراف ضمني بحقيقة القرآن والإسلام. ولذلك فقد تمت الاستفادة، ولكن دون الإعلان عنها خشية التأثير السلبي على الوجدان اليهودي المسيحي من الاعتراف بالتأثير القرآني والإسلامي.

وفي هذا البحث نحاول مناقشة هذه المسألة للتأكيد على أهمية القرآن الكريم والتراث النقدي الإسلامي في نشأة وتطور علم نقد الكتاب المقدس في الغرب. ونحاول التأسيس لمبادئ أساسية في أهمية القرآن الكريم كمصدر من مصادر نقد الكتاب المقدس. وهي مبادئ موضوعية علمية تؤكد على أحقية القرآن الكريم في أن يكون أحد أقدم مصادر علم نقد الكتاب المقدس. ومن أهم هذه المبادئ التأسيسية وسطية القرآن الكريم بين العهد القديم والعهد الجديد، وبالتالي وسطية الإسلام بين اليهودية والمسيحية. ومن هذه المبادئ وعي القرآن الكريم النقدي في حق الكتاب المقدس كما يتضح في كثير من الآيات القرآنية. مثل قوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا﴾. وقد نتج عن هذا الوعي أو الإدراك النقدي القرآني نظرية التحريف والتبديل التي أصبحت عماد العملية النقدية للكتاب المقدس في التراث الإسلامي، وفي التراث الغربي الناقد للكتاب المقدس، وقد دلت على هذه النظرية عدة آيات قرآنية سنذكرها ونشرحها في البحث. ومن

[1] مدير مركز القرضاوي للوسطية الإسلامية والتجديد، وكلية الدراسات الإسلامية، جامعة حمد بن خليفة، الدوحة – قطر.

المبادئ التأسيسية الأخرى موضوعية القرآن الكريم في تقديم الكتاب المقدس، فهو عادة ما يبدأ بالوصف الذي يعرف بالموضوع، ثم يتلوه بالنقد الإسلامي. وهو هنا يسجل الاعتقاد، ويصفه حسب الفهم اليهودي المسيحي، ثم يتبعه بالموقف الإسلامي منه وتوضيح الاعتقاد الصحيح.

وتصل هذه الموضوعية في اعتراف القرآن الكريم بكتب الوحي السابقة، ووصفها بأوصاف إيجابية على الرغم من النقد الموجه إليها. وتشير هذه الأوصاف إلى وضعها السابق على التحريف والتبديل. وتؤدي هذه المبادئ في النهاية إلى مبدأ رئيس مهم وهو أن يصبح القرآن الكريم معيارا نقديا للكتاب المقدس، وحكما على الديانتين اللتين تأسستا على الكتاب المقدس، وهما اليهودية والمسيحية. وقد بلور القرآن الكريم هذه المعيارية القرآنية في مفهوم الهيمنة القرآنية على الكتب السابقة.

وفي الجزء الثاني من هذا البحث توضيح لدور القرآن الكريم في علم نقد الكتاب المقدس، ويبدأ هذا بالدور التصحيحي الكاشف للتحريف والتبديل، والكشف عن بقايا الوحي في العهدين القديم والجديد، والدور القرآني في استعادة اللغة الدينية للوحي في مواجهة اللغة التاريخية المسيطرة على العهدين فضلا عن استعادة الروحانية المفقودة في نصوص العهدين.

وفي خاتمة البحث دعوة لضرورة الاستفادة العلمية من القرآن الكريم على مستوى نقد الكتاب المقدس، وضرورة الاستفادة التفسيرية باستخدام مادة القرآن الكريم في تفسير مادة الكتاب المقدس، وبخاصة عندما ينفرد القرآن الكريم بمادة خاصة باليهودية والمسيحية ولم يرد لها ذكر في العهدين.

مبادئ النقد القرآني للكتاب المقدس:

نقدم في هذا البحث محاولة لتأصيل النقد القرآني للكتاب المقدس، من خلال تحديد مبادئ هذا النقد القرآني، وصولا إلى تحديد الدور القرآني في التأسيس لعلم نقد الكتاب المقدس. ويمكن تحديد هذه المبادئ في التالي:

- وسطية القرآن الكريم بين العهدين القديم والجديد.
- وسطية الإسلام بين اليهودية والمسيحية.
- وعي القرآن النقدي للكتاب المقدس (نظرية التحريف والتبديل)
- معيارية القرآن الكريم بالنسبة للكتاب المقدس.
- موضوعية القرآن الكريم في نقد الكتاب المقدس.
- مبدأ هيمنة القرآن الكريم على الكتاب المقدس.

أولاً: وسطية القرآن الكريم بين العهدين القديم والجديد

انقسم الكتاب المقدس الى كتابين منفصلين: كتاب العهد القديم وكتاب العهد الجديد، وتطور نتيجة لهذا موقفان مختلفان، الأول موقف يهودي رافض للعهد الجديد على مستوى المفهوم، وعلى مستوى الكتاب. والثاني موقف مسيحي قابل للعهد القديم على المستوى الشكلي بعد إعادة تفسيره وفق المعطيات المسيحية الجديدة.

هذا الموقف اليهودي المسيحي المتناقض فيه إقرار من الطرفين بعدم وحدة الوحي بين العهدين. فاليهودية لا تعترف بالوحي في العهد الجديد، والمسيحية أعادت تفسير الوحي في العهد القديم، بعد قبوله شكليا، لكي يتفق مع عقائدها الجديدة، وكنوع من التوفيق بين الوحي في العهد القديم والعهد الجديد. والمسيحية هي التي وصفت العهد اليهودي بالقديم، ووصفت عهدها بالجديد بما يشير إلى عدم وجود وحدة العهد من ناحية، وبطلان العهد المعطى لبني إسرائيل من ناحية أخرى.

وإذا نظرنا في النقد القرآني على هذا المستوى لوجدنا أن القرآن الكريم يعتبر الوحي واحدا ومصدره واحداً وهو الله سبحانه وتعالى. ويرفض القرآن قسمة العهد إلى عهد قديم وعهد جديد. فالعهد أو الميثاق معطى لكل المؤمنين بالله. والتراث النبوي تراث واحد لا ينقسم إلى تراث قديم وتراث جديد. والدين واحد لا ينقسم إلى يهودية ومسيحية وإسلام. وفي هذا نقرأ قول الإمام ابن تيمية: "ولما كان أصل الدين الذي هو دين الإسلام واحداً، وإنما تنوعت الشرائع". قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد»، «الأنبياء إخوة لعلات»، «وأنا أولى الناس بابن مريم، فإنه ليس بيني وبينه نبي»، «ودينهم واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ... وذلك هو دين الإسلام»[1].

ويوضح الشيخ ابن تيمية وسطية الإسلام في هذا الجانب بقوله: "لكن دين الله تعالى بين الغالي فيه والجافي عنه. فإن النصارى عظموا الأنبياء حتى عبدوهم، وعبدوا تماثيلهم، واليهود استخفوا بهم حتى قتلوهم، والأمة الوسط، عرفوا مقاديرهم، فلم يغلوا فيهم غلو النصارى، ولم يجفوا عنهم جفاء اليهود"[2].

وفي الجواب الصحيح يؤكد ابن تيمية "أن دين الأنبياء والمرسلين دين واحد، وإن كان لكل من التوراة والإنجيل شرعة ومنهاج"[3].

ثانياً: وسطية الإسلام بين اليهودية والمسيحية

وكنتيجة لوسطية القرآن الكريم بين العهدين القديم والجديد تطورت وسطية الإسلام بين اليهودية والمسيحية. ولا يوجد أفضل من تقرير الشيخ ابن تيمية عن وسطية الإسلام بين اليهودية والمسيحية حيث لخص لنا هذه الوسطية فيما يلي: "خصَّ الله تعالى محمداً بخصائص ميزه الله بها على جميع الأنبياء والمرسلين، وجعل له شرعة ومنهاجاً، أفضل شرعة وأكمل منهاج مبين، كما جعل أمته خير أمة أخرجت للناس...هداهم الله بكتابه ورسوله لما اختلفوا فيه من الحق قبلهم، وجعلهم وسطاً عدلاً خياراً"[4]، ويعطي الشيخ ابن تيمية تفاصيل هذه الوسطية على مستوى التوحيد: "فهم وسط في توحيد الله وأسمائه وصفاته، وفي الإيمان برسله وكتبه وشرائع دينه من الأمر والنهي والحلال والحرام، فأمرهم بالمعروف، ونهاهم عن المنكر، وأحل

[1] ابن تيمية، **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، ص٣٧٨- ٣٧٩. أخرجه البخاري في **صحيحه**، رقم٣٤٤٢ و٣٤٤٣، ومسلم في **صحيحه**، رقم٢٣٦٥.

[2] المصدر السابق، ص١٩٣.

[3] ابن تيمية، **الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح**، ص١٣.

[4] المصدر السابق، ج١، ص١٤.

لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث، لم يحرم عليهم شيئا من الطيبات كما حرم على اليهود، ولم يحل لهم شيئا من الخبائث كما استحلتها النصارى، ولم يضيق عليهم باب الطهارة والنجاسة كما ضيق على اليهود، ولم يرفع عنهم طهارة الحدث والخبث كما رفعته النصارى، فلا يوجبون الطهارة من الجنابة ولا الوضوء للصلاة، ولا اجتناب النجاسة في الصلاة، بل يعد كثير من عبادهم مباشرة النجاسات من أنواع القرب والطاعات ... ولهذا تركوا الختان مع أنه شرع إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام وأتباعه، واليهود عندهم إذا حاضت المرأة لا يواكلونها ولا يشاربونها، ولا يقعدون معها ببيت واحد، والنصارى لا يحرمون وطء الحائض[١].

وعلى مستوى وسطية الشريعة يقول الشيخ ابن تيمية: "المسلمون وسط في الشريعة، فلم يجحدوا شرعة الناسخ لأجل شرعة المنسوخ، كما فعلت اليهود، ولا غيروا شيئاً من شرعه المحكم، ولا ابتدعوا شرعاً لم يأذن الله به، كما فعلت النصارى، ولا غلوا في الأنبياء والصالحين كغلو النصارى، ولا بخسوهم حقوقهم كفعل اليهود، ولا جعلوا الخالق سبحانه وتعالى متصفا بخصائص المخلوق ونقائصه ومعايبه –من الفقر والبخل والعجز، كفعل اليهود– ولا المخلوق متصفاً بخصائص الخالق سبحانه، التي ليس كمثله فيها شيء كفعل النصارى، ولم يستكبروا عن عبادته كفعل اليهود ولا أشركوا بعبادته أحداً كفعل النصارى"[٢]. ويعقد الشيخ ابن تيمية مقارنة بين اليهود والنصارى والمسلمين فيجد اليهود والنصارى متقابلين في طرفين وكلاهما ضلال والمسلمون هم الوسط وذلك في التوحيد، والأنبياء، والشرائع، والحلال، والحرام، والأخلاق[٣]: "فاليهود يشبهون الخالق بالمخلوق في صفات النقص المختصة بالمخلوق التي يجب تنزيه الرب عنها ... والنصارى يشبهون المخلوق بالخالق في صفات الكمال المختصة بالخالق التي ليس له فيها مثل ... والمسلمون وصفوا الرب بما يستحقه من صفات الكمال، ونزهوه عن النقص، وأن يكون له مثل، فوصفوه بما وصف به نفسه، وبما وصفته به رسله من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، مع علمهم أنه ليس كمثله شيء لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله"[٤].

وفرق الشيخ ابن تيمية بين اليهود والنصارى والمسلمين في عدة أمور منها أن اليهود بالغوا في اجتناب النجاسات وتحريم الطيبات، والنصارى استحلوا الخبائث، وملابسة النجاسات، والمسلمون أحل لهم الله الطيبات خلافاً لليهود، وحرم عليهم الخبائث خلافاً للنصارى. واليهود يبالغون في طهارة أبدانهم مع خبث قلوبهم، والنصارى يدعون أنهم يطهرون قلوبهم مع نجاسة أبدانهم، والمسلمون يطهرون أبدانهم وقلوبهم جميعا. والنصارى لهم عبادات وأخلاق بلا علم ومعرفة ولا ذكاء، واليهود لهم ذكاء وعلم ومعرفة بلا عبادات ولا أخلاق حسنة، والمسلمون جمعوا بين العلم النافع، والعمل الصالح بين الزكا والذكاء ... فهم أصل الصراط المستقيم"[٥].

---

[١] المصدر السابق، ص١٤.

[٢] نفس المصدر، ص١٥.

[٣] المصدر نفسه، الجزء الثاني، ص٤٤.

[٤] نفس المصدر، ص٤٤.

[٥] المصدر نفسه، ص٤٤-٤٥.

ثالثاً: وعي القرآن الكريم النقدي بالكتاب المقدس

يمكن تلخيص هذا الوعي القرآني بنقد الكتاب المقدس في النقاط التالية:

١. الاعتراف المبدئي بوجود توارة أصلية وإنجيل أصلي موحى بهما من عند الله.

٢. تعرض التوراة والإنجيل لأشكال من التحريف والتبديل في نصوصها الأصلية وفي مضامينها فتغيرت الملامح الأساسية للكتابين. وهنا يتحدى القرآن الكريم اليهود في إظهار النص الأصلي: ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين. فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون﴾ [آل عمران:٩٤-٩٥].

٣. عدم الاعتراف بوجود نسخ متعددة للتوراة أو أناجيل متعددة. فالأصل توراة واحدة أنزلت على موسى عليه السلام، وإنجيل واحد نزل على عيسى عليه السلام.

٤. الإقرار بمصادر إنسانية أُدخلت على نص التوراة الأصلي ونص الإنجيل الأصلي. ونتج عن هذا اختلاط مادة الوحي الإلهي بهذه المادة الإنسانية في النصوص الحالية: فـ﴿ويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا. فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون﴾ [آل عمران:٧٩-٩٠]. وكذلك: ﴿أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾ [البقرة:٧٥].

٥. إن دخول المصادر الإنسانية إلى نص التوراة والإنجيل هو السبب الأساسي في ظهور الاختلاف والتناقض في هذه النصوص: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً﴾ [النساء:٨٢] والآية الكريمة هنا تشير إلى فكرة تعدد المصادر التي أصبحت فيما بعد نظرية أساسية في علم نقد الكتاب المقدس سواء عند العلماء المسلمين الناقدين للعهد القديم وللعهد الجديد، أو عند علماء الغرب المحدثين الذين ورثوا هذا العلم وتلك النظرية من المسلمين.

ويفصل القرآن الكريم هذا الوعي النقدي بالتوراة والأناجيل بإعطاء أهم الوسائل التي استخدمها اليهود والنصارى في تغيير نصوص الوحي. ومن أهم هذه الوسائل:

١. التحريف كما ورد في قوله تعالى: ﴿يحرفون الكلام عن مواضعه﴾ [المائدة:١٣]، وكذلك: ﴿يحرفون الكلم من بعد مواضعه﴾ [المائدة:٤١].

٢. التبديل كما ورد في قوله تعالى: ﴿فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم﴾ [البقرة:٥٩]، وقوله تعالى: ﴿فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم﴾ [البقرة:١٨١] ومن الطبيعي أن يكون التحريف والتبديل من أقوى وسائل تغيير النص والتغيير في معناه. وقد نتج عنهما اختلاط النص الإلهي بالمادة الإنسانية.

٣. الإخفاء: فقد ورد في القرآن الكريم: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير﴾ [المائدة:١٥]. وكذلك قوله تعالى: ﴿تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً﴾ [الأنعام:٩١].

٤. الكتمان في قوله تعالى: ﴿الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون﴾ [البقرة:١٤٦]. وكذلك قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلاً فبئس ما يشترون﴾ [آل عمران:١٨٧].

٥. إلباس الحق بالباطل: كما ورد في قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون﴾ [آل عمران:٧١]. وكذلك قوله تعالى: ﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾ [البقرة:٤٢].

٦. الكذب والتكذيب: كما يتضح في قوله تعالى: ﴿قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين. فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون﴾ [آل عمران:٩٣-٩٤]. ومنه أيضا قوله تعالى: ﴿ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون﴾ [آل عمران:٨٧].

٧. التعطيل: المقصود تعطيل أحكام التوراة وعدم إقامتها كما يتضح في قوله تعالى: ﴿ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما يعملون﴾ [المائدة:٦٦]. وكذلك قوله تعالى: ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله، والله لا يهدي القوم الظالمين﴾ [الجمعة:٥]، وقوله تعالى: ﴿قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم﴾ [المائدة:٦٨].

٨. الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعض كما يتضح في قوله تعالى: ﴿أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾ [البقرة:٨٥].

٩. الإهمال: كما يتضح في قوله تعالى: ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين اوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾ [البقرة:١٠١]. وكذلك قوله تعالى: ﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلاً فبئس ما يشترون﴾ [آل عمران:١٨٧].

١٠. النسيان: ويتضح في قوله تعالى: ﴿فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به... ﴾ [المائدة:١٣].

وتوضح هذ الوسائل مجتمعة الطرق التي تحولت بها التوراة من نص إلهي إلى نص إنساني خطه رجال الدين اليهود بأيديهم[١].

رابعاً: معيارية القرآن الكريم بالنسبة للكتاب المقدس

إن إحدى نتائج مبدأ الهيمنة القرآنية على الكتاب المقدس أن أصبح القرآن الكريم هو المعيار الذي من خلاله يمكن تقييم مادة الكتاب المقدس، والحكم على مدى درجة صحتها أو عدم صحتها. فالقرآن الكريم المهيمن هو المعيار النقدي

[١] حسن، **علاقة الإسلام باليهودية: رؤية إسلامية في مصادر التوراة الحالية**، ص٤٨- ٥٧.

الأساسي لهذه المادة، وهو الحكم الأساسي في قياس الوحي في العهدين القديم والجديد. فما يناسب الرؤية القرآنية من أقوال التوراة والأناجيل فهو إلى الوحي أقرب، وما يعارض الرؤية القرآنية فهو بعيد عن الوحي، ولا يعبر عن القصد الإلهي.

وقد طبقنا هذا المبدأ النقدي في دراسة عن مصادر التوراة الأربعة المعروفة وهي اليهوي، والإلوهيمي، والكهنوتي، والتثنوي. وقد خرجنا بنتيجة مهمة وهي أن المصدر الإلوهيمي في كثير من مفاهيمه يتفق مع الرؤية القرآنية بينما تخالف المصادر الأخرى – وبخاصة المصدر اليهوي – رؤية القرآن الكريم، فهي أكثر المصادر تحريفا وتبديلا بل هي مصدر التحريف والتبديل والتغيير في نص التوراة، وهي أيضا أكثر المصادر تأثيرا في البناء الديني لليهودية[1].

وتُستمد هذه المعيارية القرآنية بالنسبة للكتب اليهودية والمسيحية من كون القرآن الكريم وفق مفهوم الهيمنة القرآنية يعد رقيبا على هذه الكتب. فالهيمنة بمعنى الرقابة تعطى للقرآن الكريم مهمة تحديد الصحيح من غير الصحيح في الكتب السابقة. ويمثل هذا المعيار النقدي للتعرف على بقايا الوحي وتحديد مالا ينتسب إلى الوحي كما أن الهيمنة بمعنى الشهادة تعني أن القرآن الكريم شاهد على الكتب السابقة. فما اتفق من مادتها مع القرآن الكريم يثبت أصلها الإلهي ومالا يتفق مع القرآن الكريم فهو يمثل الدخيل الإنساني. والقرآن الكريم شاهد على الإلهي والإنساني في التوراة والأناجيل.

فالمتشابه مع القرآن الكريم فيهما شاهد على أنه حق من عند الله. أما المختلف والمتناقض مع القرآن الكريم فهو يشير إلى التدخل الإنساني في النص المقدس، ولا يمكن رده إلى الوحي، فالمتشابه يعود إلى وحدة المصدر، والاختلاف يعود إلى تعدد المصادر مصداقا لقوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان عند غير الله لوجودا فيه اختلافا كثيراً﴾ [النساء:٨٢].

لقد دارت معاني الهيمنة عند المفسرين المسلمين حول دلالات التصديق، والرقابة، والشهادة، والحفظ، والائتمان، والاحتواء، والإحاطة والكفاية والنسخ، والجمع والمنع. يمكن تفسير هذه الدلالات في ضوء نقد الكتاب المقدس لنرى انها تمثل جميعا أحكاماً قرآنية على الكتاب المقدس تحتوي على ما هو إيجابي وموضوعي، وأيضاً تحتوي على ما هو سلبي في حق نقد الكتاب المقدس. والجمع بين الإيجابية والسلبية في المنهج القرآني تجاه نقد الكتاب المقدس ونقد اليهودية والمسيحية يؤكد على أن هدف القرآن الكريم النقدي هو هدف بناء لا يسعى إلى النقد الديني الهدام، وهو يدخل أيضا في إطار الجدال الحسن الذي اعتمده القرآن الكريم في خطابه لأهل الكتاب: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ كما أنه يتفق أيضاً مع نزعة القرآن التصحيحية، فالهدف النقدي القرآني هو تصحيح الوضع الديني، وليس القضاء على اليهودية والمسيحية، فهذا لا يتفق مع وضعية أهل الكتاب في الإسلام، ولا بالعلاقة العضوية بين الإسلام واليهودية والمسيحية. فضلاً عن أنه لا يتفق مع مبادئ حرية الاعتقاد وحق الاختلاف الديني الذي اقره الإسلام وأكد عليه القرآن الكريم: ﴿لا إكراه في الدين﴾، وأيضاً: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾. ويمثل هذا أحد الفوارق الأساسية بين النقد القرآني والنقد الغربي العلماني للكتاب المقدس. فالنقد القرآني هدفه التصحيح وتجنب التحريف والتبديل والتغيير في نص الوحي حفاظاً على إلهية المصدر وقداسة النص. هدف النقد القرآني توجيه العقل اليهودي والمسيحي إلى القراءة النقدية للكتاب المقدس، وبناء الحياة الدينية في اليهودية والمسيحية على أسس من

[1] حسن، **علاقة الإسلام باليهودية: رؤية إسلامية في مصادر التوراة الحالية**.

الوحي الصحيح، وبعيداً عن آثار التحريف والتبديل والتغيير النصي. أما هدف علم نقد الكتاب المقدس في الغرب، فهو النقد من أجل النقد وليس من أجل التصحيح.

خامساً: موضوعية القرآن الكريم في نقد الكتاب المقدس

والسبب في ذلك أن هذا النقد يأتي داخل إطار جهود علمية موضوعية تعمل من أجل العلم، وليس من أجل الدين وتصحيحه. وهي تعمل داخل إطار حركة علمية مرتبطة بالعلوم الإنسانية والاجتماعية مستفيدة من التقدم العلمي والتكنولوجي، وبخاصه في مجالي التاريخ والآثار وتحقيق النصوص ونقدها، وأيضاً داخل إطار النقد الأدبي ومناهجه التي تطورت في دراسة النصوص الأدبية، وانتقلت إلى التطبيق على النصوص الدينية المقدسة مثل الكتاب المقدس.

هذا النقد ليس نتاج دوائر دينية تحافظ على قداسة النص ومكانته في الدين، وتسعى إلى التصحيح، ولكن هو نقد ناتج عن حركة علمية علمانية منفصلة عن الدين، وليست مشغولة بالهم التصحيحي، بل هي مهتمة بتوضيح التناقضات والاختلافات في النصوص الدينية بتطبيق منهج النقد الأدبي عليها سعيا إلى معرفة المؤلف أو المؤلفين، وتحديد المصادر، وزمن الكتابة، من خلال اتجاهات نقدية نصية، ومصدرية، وشكلية، ولغوية، وتاريخية، وجغرافية ودينية، وتراثية. ولخدمة الهدف العلماني – الإلحادي أحياناً– فإن التصحيح ليس مطلوبا ولا مقصوداً. والتصحيح ليس غاية وإن كان يؤدي إلى نتيجة تصحيحية، فهذه النتيجة ليست مقصودة لأنها لا تخدم الهدف العلماني الذي تبنته مدرسة نقد الكتاب المقدس في الغرب. والنقد المضاد لنقد الكتاب المقدس لم ينظر إلى نتائج النقد العلماني على أنها محاولات تصحيحية بل فهمها داخل إطارها العلمي العلماني. ولم يستفد كثيرا من هذا النقد بل طوّر ردوداً دينية لاهوتية تهدف إلى الدفاع عن قداسة النص وحمايته مما اعتبر هجوما على الكتاب المقدس. وفضلا عن غياب النزعة التصحيحية في علم نقد الكتاب المقدس في الغرب فإن نتائج هذا العلم ظلت محدودة داخل إطارها العلمي يتداولها علماء التخصص بالإضافة إلى أن مستواها العلمي العميق والمعقد لم يؤد إلى استفادة الجماهير اليهودية والمسيحية منها.

وهكذا انفرد القرآن الكريم بالنزعة التصحيحية فأتى نقده للتوراة والأناجيل نقداً بناءاً يهدف إلى مواجهة التحريف والتبديل، وكل أشكال التغيير التي أصابت النص المقدس الموحى به، ودفع التدخل الإنساني في النص الإلهي.

سادساً: مبدأ هيمنة القرآن الكريم على الكتاب المقدس

يشير مفهوم الهيمنة إلى النزعة القرآنية لتحقيق الموضوعية في التعامل مع الكتاب المقدس. وتشير دلالات الهيمنة المتعددة إلى التأكيد القرآني على التعامل الموضوعي مع كتب التوحيد السابقة.

وهنا يجب أن نوضح في البداية أن مفهوم الهيمنة القرآنية لا يقوم على أساس من الرغبة القرآنية في تحقيق الهيمنة بمعنى فرض السيادة القرآنية على الكتب السابقة، أو في مرحلة تالية تحقيق السيادة الدينية الإسلامية على اليهودية والمسيحية كنتيجة منطقية لتحقيق الهيمنة القرآنية على كتب هاتين الديانتين.

وربما يحدث هذا التوهم أو الانطباع الواهم من مصطلح "الهيمنة" الذي استخدمه القرآن الكريم للتعبير عن علاقة القرآن الكريم بالكتاب المقدس (التوراة والإنجيل). فقد يفهم من كلمة "الهيمنة" الرغبة في فرض السيادة القرآنية.

ولكن من خلال مراجعة معاني الهيمنة ودلالاتها عند المفسرين المسلمين لم نجد أية إشارة إلى محاولة فرض الهيمنة القرآنية. ونذكر القارئ الكريم بأن معاني الهيمنة تدور حول التصديق، والشهادة، والحفظ، والائتمان، والاحتواء، والإحاطة، والكفاية، والجمع والمنع والنسخ. وليس من بينها السيادة القرآنية والإسلامية.

وهذه الدلالات كلها دلالات موضوعية تحدد علاقة القرآن الكريم بالكتب السابقة تحديدا موضوعيا دقيقا لا يسعى إلى فرض سيادة، ولا يهدف إلى هدم الكتب السابقة وتدميرها، أو الإنقاص من شأنها، والتقليل من قداستها. فالهيمنة بكل دلالاتها هيمنة إيجابية ولا تتضمن أية سلبيات في حق التوراة والإنجيل. فالهيمنة بمعنى التصديق هو بمثابة اعتراف قرآني إسلامي بالكتب السابقة، وحث للمسلمين على أن يعملوا بما بقى إسلامياً منها، وترك ما انحرف عن خط القرآن الكريم والإسلام منها باعتبار أن هذه الكتب نزلت على أنبياء ورسل مسلمين، وتندرج دعواتهم تحت إطار الإسلام كدين للبشرية كافة. والمعنى الأساسي للتصديق هو أن هذه الكتب حق من عند الله. ويؤكد الطبري على هذا المعنى بقوله: ﴿مهيمناً عليه﴾ أي أنزلناه بتصديق ما قبله من كتب الله التي أنزلها إلى أنبيائه، وكذلك يقول: "مصدقاً للكتب قبله وشهيداً عليه" أنها حق من عند الله أميناً عليها حافظاً لها ... القرآن أمين على الكتب فيما إذا أخبرنا أهل الكتاب في كتبهم بأمر إن كان في القرآن فصدِّقوا وإلا فكذِّبوا ..." والقرآن أمين على كل كتاب قبله"[1]. ويقول الرازي في تفسيره لهيمنة القرآن: "لأنه الكتاب الذي لا يصير منسوخاً البتة ولا يتطرق إليه التبديل والتحريف وشهادة القرآن على أن التوراة والإنجيل والزبور حق صدق باقية أبداً فكانت حقيقة هذه الكتب معلومة أبداً". والموضوعية هنا تحققت في شكل كامل في التصديق بالكتب السابقة. وهي شهادة قرآنية بأنها "حق صدق باقية أبداً"[2]. أما الهيمنة بمعنى "الحفظ" فتؤكد على الاعتقاد الصحيح في الكتب السابقة من خلال ما ورد ذكره عن هذه الكتب والمعتقدات السليمة التي وردت فيها، والتي عَّرف بها القرآن الكريم في شكلها الإلهي الصحيح بعيدا عن عمليات التبديل والتحريف.

والهيمنة بمعنى "الائتمان" تؤكد على أن القرآن الكريم مؤتمن على الكتب السابقة من الضياع بما ورد فيه مما يدل عليها، ويؤكد صحتها، ويثبت وجودها ونزولها. فالكتب السابقة أمانة في عنق القرآن الكريم أدَّاها إلى أصحابها بعد نزول القرآن الكريم وفيه الكثير من صحيح هذه الكتب. فهو الفرقان الفاصل بين الحق والباطل فيها.

والهيمنة بمعنى "الاحتواء" و"الإحاطة" فيؤكد على احتواء القرآن الكريم على الكتب السابقة، وتعبيره عن كل معتقداتها ومفاهيمها الصحيحة الأصلية. وكذلك احتوى القرآن الكريم على كل الرسالات السابقة وكتبها واستوعبت الصحيح منها وحفظه، بل واحتوى ايضاً على التغيير الذي طرأ عليها من خلال التبديل والتحريف. والإحاطة تعني الاحتواء على كل شيء:

---

[1] الطبري، **جامع البيان في تفسير القرآن**، ج٥، ص٧٧.

[2] الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، ج١٢، ص١١.

﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ [الأنعام:٣٨] والإحاطة صفة ينفرد بها القرآن الكريم، فقد عبَّر عن كل معتقدات الأديان موضحاً صحيحها من باطلها. ومن خلال الاحتواء والإحاطة تحققت "الكفاية" كدلالة من دلالات الهيمنة. فالقرآن الكريم فيه الكفاية بما يحتويه من عقيدة، وأحكام، وتشريعات، وعبادات، وأخلاقيات، ومعاملات جعلت من القرآن الكريم الكتاب الكامل الوافي الكافي. وبهذه الصفات أصبح الكتاب الناسخ للكتب السابقة حيث اشتمل على أصولها والصالح منها. وأصبح أيضا الكتاب الجامع المانع لكل ما ورد في الكتب السابقة، جامعا للحق منها، مانعا للباطل فيها.

ويتضح من هذا العرض السريع لدلالات الهيمنة تحقق الموضوعية في علاقة القرآن الكريم بالكتب السابقة. فهو مصدق لها، حافظ لها، أمين عليها، شاهد على أنها حق من عند الله، رقيب عليها، مؤتمن بها، محتوٍ عليها، محيط بها، كافٍ عنها، جامع مانع ناسخ لها. ولا تعني الهيمنة فرض السيطرة القرآنية على الكتب السابقة، ولا فرض السيطرة الدينية على أديانها وأهلها. فالإسلام لم يتدخل لإجبار البشر على ترك كتبهم المقدسة عندهم، لكن عرَّفهم بأصلها وحقيقتها، وتركهم لعقولهم يميزون بين الصحيح وغير الصحيح، الأصلي وغير الأصلي دون قهر أو تعسف.

ومن أهم عناصر الموضوعية القرآنية في التعامل مع التوراة والإنجيل الاعتراف بهذه الكتب، والإقرار بالوحي فيها، وتوضيح ما لا ينتمي إلى الوحي منها، ووصف ما ورد فيها، والتقييم الإيجابي لها بما يشتمل عليه من تصحيح لها. ولعل أبرز مظاهر الموضوعية القرآنية اعتبار هذه الكتب جزءاً من الإيمان في الإسلام، لذلك وجب التقييم والتصحيح لهما والحفاظ عليها.

وتتأكد الموضوعية القرآنية في صورة قوية إذا ما قارنّا بين نتائج علم نقد الكتاب المقدس في الغرب ونتائج علم نقد الكتاب المقدس عند المسلمين. ومن أهم نتائج هذه المقارنة ما يلي:

١. تقر الهيمنة القرآنية بدلالتها الموضوعية بإلهية الكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) وتعترف بل وتؤمن بأصله الإلهي وبأنه وحي. بينما ينكر علم نقد الكتاب القدس في الغرب إلهية المصدر، ويؤكد على بشرية النص، وأنه نص إنساني أو أنه نص أدبي إنساني يستحق إخضاعه للنقد العقلي والعلمي بصرف النظر عن النتائج وتأثيرها على الاعتقاد.
٢. تقر الهيمنة القرآنية بما تحتويه من نقد للكتاب المقدس على عمليات التصديق، والشهادة، والرقابة، والحفظ، والائتمان بما يكفل حماية الكتب السابقة، والحفاظ على قداستها، واستمراريتها. بينما لم يهتم علم نقد الكتاب المقدس في الغرب بهذه العمليات المرتبطة بالهيمنة القرآنية لأنها عمليات دينية في طبيعتها، وهي ليست من مهمات ومسؤوليات هذا العلم الغربي المهتم أصلا بالنقد العلمي العقلي لمادة الكتاب المقدس في ضوء المعطيات العلمية، والاكتشافات التاريخية والآثارية، وفي ضوء الأدلة والبراهين العقلية بعيدا عن المؤثرات الدينية وعمليات التصديق، والشهادة، والرقابة، والحفظ والائتمان.
٣. يهتم النقد القرآني للكتاب المقدس بالنتائج الدينية التي تؤدي إليها عمليات التصحيح والتقييم للنصوص المقدسة، ومن أهم هذه النتائج التأكيد على إلهية النص، والحفاظ على قداسته. بينما أدى النقد الغربي للكتاب المقدس إلى التأكيد على إنسانية النص وعدم قداسته، والتعامل معه على أنه نص أدبي إنساني لا قداسة له. وكانت النتيجة العملية لهذا

الموقف ضياع قداسة النص، وتزلزل هيبته ومكانته الأمر الذي أدى إلى هجره وتركه، وتحول بعض أهله في الغرب إلى العلمانية والإلحاد. فالهيمنة القرآنية حافظت على النص وقداسته بينما أدى النقد الغربي إلى تدمير الكتاب المقدس وضياع قداسته.

٤. أدى الموقف النقدي الغربي إلى رفض الكتاب المقدس كنص ديني، وقبوله كنص أدبي خاضع للنقد العقلي ولمناهج النقد الأدبي بينما قبله النقد القرآني فيما وافق القرآن الكريم والإسلام، واعتبر الإيمان به جزءاً من الإيمان في الإسلام، وخالفه النقد القرآني فيما خالف القرآن والإسلام. وهو موقف نقدي يمثل قمة الموضوعية في التعامل مع الكتاب المقدس.

ومن مراجعة بعض أهم مصادر التفسير اتضح أن معاني الهيمنة تدور حول التصديق، والرقابة، والشهادة، والحفظ، والائتمان. وهي كلها معانٍ إيجابية ولا تتضمن دلالات سلبية تجاه الكتب السابقة وقبولها فيما وافق الإسلام، ومخالفتها فيما خالف الإسلام. ولم يعرف تاريخ الأديان مثل هذا التصديق حتى في حالة الأديان التي ورثت الكتب السابقة عليها حيث أعادت تفسيرها وغيّرت من دلالتها، وحرّفت وبدّلت فيها، وعطلت من أحكامها الشيء الكثير. أما "التصديق" القرآني للكتب السابقة فهو بمثابة اعتراف بها، وحث للمسلمين على أن يعملوا بما بقي إسلامياً منها، وترك ما انحرف على خط الإسلام منها باعتبار أن هذه الكتب السابقة نزلت على أنبياء ورسل مسلمين داخل إطار مفهوم الإسلام كدين للبشرية منذ بدايتها، وأن كل دعوات الأنبياء والرسل عليهم السلام دعوات إسلامية.

أما الهيمنة بمعنى "الرقابة" فالقصد منها أن القرآن الكريم بكونه آخر الكتب الموحى بها، وبكونه رقيباً على الكتب الأخرى يحدد الصحيح فيها من غير الصحيح، وهو المعيار النقدي للتعرف على بقايا الوحي في الكتب السابقة وتحديد ما لا ينتسب إلى الوحي منها.

والهيمنة بمعنى "الشهادة" تعني أن القرآن الكريم شاهد على أن الكتب السابقة حق من عند الله. فما اتفق من مادتها يثبت أصلها الإلهي ويشهد على أنها كتب منزلة من عند الله سبحانه وتعالى، ومالا يتفق مع القرآن الكريم فيها فهو الإنساني، والقرآن شاهد على انسانيته بما يرد في هذه المادة الإنسانية من تناقض وخلط، والتناقض والاختلاف لا يمكن أن يكون من عند الله سبحانه تعالى. وقد عبَّر القرآن الكريم عن هذا المنهج النقدي بقوله تعالى ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ [النساء:٨٢].

أما الهيمنة بمعنى "الحفظ" فالقرآن الكريم أحاط بالكتب السابقة، وعرّف بها في شكلها الإلهي الصحيح من خلال ما ورد في القرآن الكريم من أخبار عن الديانات السابقة ومن نقد ديني وأخلاقي لما وقع فيه أهل الكتب السابقة من تغيرات أصابت الدين والأخلاق. فوضَّح القرآن الكريم الصحيح الذي أتى به الأنبياء والرسل السابقون عليهم السلام، وبيَّن الزيف الذي وقع فيه أقوامهم، والتغيير الذي أجروه على الاعتقاد الصحيح. وقد حافظ القرآن الكريم على المعتقدات الدينية الصحيحة للأديان

السابقة بعد أن ضيَّع الإنسان النصوص المقدسة التي وصلته عن طريق الأنبياء والرسل فحفظت بذلك المعتقدات على مستوى المعنى بعد أن ضاعت على مستوى النَّص.

والهيمنة بمعنى "الائتمان" تعني أن القرآن الكريم أمين على الكتب السابقة ومؤتمن عليها من الضياع بما ورد فيها مما يدل عليها، ويؤكد صحتها، ويثبت وجودها ونزولها، وكأن هذه الكتب السابقة أمانة في عنق القرآن أداها القرآن الكريم إلى أصحابها بعد نزول القرآن الكريم وفيه الكثير من صحيح هذه الكتب والأديان، وليكون في نفس الوقت الفرقان الفاصل بين الحق والباطل فيها، بل إن الأمانة القرآنية هنا تتسع لتعرّف أهل الكتب السابقة ليس بالصحيح فقط ولكن بالباطل أيضاً الذي تسرّب إلى كتبهم مع الزمن وقبل تثبيت نصوصها، وإن لم يمنع تثبيت النصوص من إجراء التغيير في المعنى من خلال التفسير بعد أن صعب التغيير اللفظي.

ومن معاني الهيمنة "الاحتواء". فالقرآن الكريم احتوى الكتب السابقة، أي عبّر عن كل اعتقاداتها ومفاهيمها الصحيحة الأصلية. والحقيقة أن الاحتواء كامن أصلاً في كون الإسلام دين البشرية منذ بدايتها، وفي كون الكتب السابقة محتواه داخل الإسلام، وكون رسالات الأنبياء والرسل السابقين عليهم السلام محتواه كذلك داخل الإسلام، فالإسلام كدين واحد للبشرية منذ بدايتها إلى نهايتها أصبح يحتوي كل الرسالات السابقة، والقرآن الكريم يحتوي كل الكتب المنزلة السابقة. هذا الاحتواء هو الذي أعطى للهيمنة دلالتها السابقة مثل التصديق، والرقابة، والشهادة، والحفظ والائتمان. والاحتواء لم يتوقف عند حدود الاستيعاب الصحيح وحفظه بل احتوى أيضاً التغيير الذي طرأ على الصحيح، وعبّر عنه القرآن الكريم من خلال النقد الديني والأخلاقي، فالصحيح يُعرض عرضاً مستقلاً عن غير الصحيح، كما يُعرض أحياناً في مقابل غير الصحيح حتى يتضح الصحيح وغير الصحيح معا. ونضرب مثالاً على ذلك بقوله تعالى: ﴿ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خير لكم إنما الله إله واحد﴾ [النساء:١٧١]. فهذا الجزء من الآية يحتوي على الأصل والتغيير الذي طرأ على الأصل، ويشير إلى الصحيح في مقابل غير الصحيح. وكذلك في قوله تعالى: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غُلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾ [المائدة:٦٤]. وهكذا تحتوي الآية على توضيح للخطأ والصواب وللباطل والصحيح.

ويمكن فهم الهيمنة بمعنى الاحتواء في ضوء عالمية الإسلام والقرآن وخصوصية الأديان وكتبها. فالعالمية على مستوى الدين والكتاب تعنى الاحتواء على كل الصحيح الذي ورد في الأديان السابقة وفي الكتب المنزلة السابقة، والإضافة إلى هذا الصحيح ما يحقق الكمال الديني ويجعل من الإسلام كمال الدين، ومن القرآن الكريم الكتاب الحق الكامل. وخصوصية الأديان السابقة وكتبها تحتم عدم اكتمالها ونقصانها. فهي تحتوي على رسائل محدودة في الزمان والمكان، وتعالج أوضاعاً دينية لأقوام بعينهم. وقد دخل مجموع هذه الرسائل المحدودة في الإسلام لأنها جميعاً دعوات للإسلام في تاريخ الأنبياء عليهم السلام اكتملت واجتمعت كلها في رسالة الإسلام الأخيرة.

ومن معاني الهيمنة أيضاً الإحاطة بما ورد في الكتب السابقة وفي الدعوات السابقة. والإحاطة صفة يتصف بها القرآن الكريم الذي لم يترك أمرا يخص الأديان السابقة إلا وأحاط به وأخبر عنه في صورة مجملة لأن القرآن الكريم ليس كتاباً في تاريخ

الأديان يصفها وصفاً تفصيلياً، إنما هو يقدم نقداً عاماً للأديان ورؤية إسلامية للصحيح منها والفاسد فيها. ويستخلص من تاريخ الأديان المواعظ والعبر والدروس الدينية. والإحاطة صفة أساسية في القرآن الكريم استناداً إلى قوله تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ [الأنعام:٣٨]. ومع عمومية هذه الصفة وانطباقها على كل شيء فإن تخصيصها في مجال تاريخ الأديان أولى. فالقرآن الكريم، والإسلام، بالتالي، أحاط إحاطة كاملة وافية بكل الفكر الديني السابق على ظهور الإسلام. وهي صفة ينفرد بها القرآن الكريم بين كل الكتب المقدسة للأديان. فهو يستعرض في شكل إجمالي وموجز التاريخ الديني للبشرية ناقداً لهذا التاريخ وموضحاً لصحيحه من فاسده مقدماً الإسلام كدين أساسي وأصلي للبشرية، منادياً بالعودة إلى التوحيد الصحيح في أبسط صوره ومعانيه مع الابتعاد عن التعقيدات اللاهوتية التي أضرّت بالتوحيد، وضيّعت نقاءه وبساطته.

ومن معاني الهيمنة المهمة أيضاً "الكفاية"، فهيمنة القرآن الكريم على الكتب السابقة تشير أيضاً إلى كفاية ما ورد في القرآن الكريم، وإمكانية الاستغناء عن كل ما سبق أن ورد في الكتب السابقة. فقد احتواها القرآن الكريم وأعطاها في صور صحيحة كاملة تعوض النقص السابق، وتبتعد عن الخلط واللبس اللذين وقعا فيما سبق من الكتب. وكذلك الإسلام أيضاً كدين فيه الكفاية من إشباع الحاجة الدينية والروحية للإنسان بما يحتويه من عقيدة صحيحة، ومفاهيم دينية، وأحكام وتشريعات، وشعائر وعبادات، وأخلاقيات ومبادئ، وقيم دينية. فالاحتواء والإحاطة بكل شيء في أمور الدين جعلا من الإسلام الدين الكامل الكافي للعبادة.

ويأتي مفهوم النسخ ليؤكد على كفاية القرآن الكريم والإسلام للبشرية. فالقرآن الكريم باحتوائه وإحاطته لكل شيء نسخ كل الكتب السابقة عليه حيث اشتمل على أصولها وعلى الصالح فيها، وقدّمها في شكلها الصحيح السليم. والإسلام أيضاً نسخ الديانات السابقة باحتوائه وإحاطته لكل ما يلزم الإنسان من الناحية الدينية على الوجه الأكمل، والأصح، والأسلم. ورغم هذا الاعتقاد في النسخ فإن الإسلام لم يتدخل لإجبار البشر على التخلي عن كتبهم وعقائدهم إنما قدّم إليهم المعرفة الإسلامية لكتبهم وعقائدهم، وضّح لهم نقد الإسلام لها، وموقفه منها، وتركهم لعقولهم يختارون بين الصحيح والخاطئ وبين الكامل والناقص دون قهر أو تعسف، وعلى أساس من التسامح الديني وحرية الاعتقاد، وعلى أساس من الاقتناع العقلي الخالص: ﴿إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ [القصص:٥٧] كذلك قوله تعالى: ﴿ليس عليك هداهم لكن الله يهدي من يشاء﴾ [البقرة:٢٧٢].

ولعل من أهم معاني الهيمنة كذلك أن القرآن الكريم الجامع المانع لكل ما ورد في الكتب السابقة. وقد جمع الصحيح ونصّ على ما يوافق الإسلام وما ينتمي إلى التوحيد الصحيح فيها كما منع القرآن الكريم الفاسد في الكتب السابقة كذلك بتوضيحه والتصريح به ونقده والحضّ على تركه، فأصبح جامعاً مانعاً للباطل ﴿قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾ [الإسراء:٨١] وهو الجامع للعقيدة الصحيحة والأحكام والتشريعات والعبادات الحقيقية، والمانع لكل ما يفسد العقيدة لذلك كان القرآن والإسلام كافيين للبشرية على مستوى الكتب وعلى مستوى الأديان بهذه الشمولية الجامعة المانعة.

ويجب أن نشير هنا إلى أن مؤرخي الأديان المستشرقين والدارسين للإسلام لم يفهموا معنى الهيمنة بل إنهم أسقطوها من حساباتهم رغم أن الموضوعية الدينية تستدعي إبراز رؤية الدين لنفسه، وتحديده لموقفه من الأديان الأخرى. وقدّ بسط مؤرخو

الأديان والمستشرقون المعالجة لعلاقة الإسلام ببقية الأديان وبخاصة علاقته بالأديان التوحيدية السابقة عليه، تبسيطاً شديداً لا يتناسب مع مكانة الإسلام في تاريخ الأديان. فقد فهموا الإحاطة والاحتواء على أنها تشير إلى تأثر إسلامي بالأديان السابقة عليه، وإن الاحتواء ما هو إلا أخذ عن الأديان الأخرى وعن الكتب السابقة بالنسبة للقرآن الكريم. لذلك انشغلوا بموضوع التأثير، وحاولوا رد الإسلام إلى مصادر يهودية، ومسيحية، وعربية قديمة، وردوا القرآن الكريم إلى مصادر توراتية، تلمودية، إنجيلية مستندين استناداً حرفياً إلى قاعدة التشابه. فكلما وجدوا شيئاً قرآنياً أو إسلامياً له مشابه في اليهودية أو المسيحية أو غيرهما اعتبروا الإسلام متأثرا وناقلاً من الأديان الأقدم والكتب الأسبق. وهذا هو بطبيعة الحال الطريق السهل البسيط أمام مؤرخ الأديان والمستشرق الذي يتجاهل طبيعة الإسلام وعلاقته الحقيقة بالأديان السابقة عليه عن عمد ولا يفهم مفهوم الهيمنة، ويتمسك بنظرية التأثير والتأثر، وهي من أهم معالم منهج النقد التاريخي المعتمد في تاريخ الاستشراق الحديث وفي تاريخ الأديان. فالتشابه يعني التأثر، ومنطقياً التأثر يحدث من الدين السابق على الدين اللاحق.

لقد جمع مفهوم الهيمنة القرآنية على الكتب السابقة جميع العناصر الإيجابية في حق الكتب السابقة وأديانها مدللاً على وجودها ونزولها من عند الله سبحانه وتعالى، ومصدرها الإلهي. وقد كان القرآن الكريم الرقيب عليها، الحافظ لها، الدال على الصحيح فيها، المبين للباطل فيها، والحكم عليها والمؤتمن الأمين على مضامينها. ويلاحظ أن كل هذه المعاني للهيمنة لا تحتوي على أية مفاهيم تخص السيطرة الدينية، أو فرض السيادة على الكتب السابقة أو أديانها. فالإسلام في تاريخه لم يمنع أهل الكتاب من استخدام كتبهم والعودة إليها، ولم يجبرهم على قبول القرآن الكريم كبديل لها أو الدخول في الإسلام من غير اقتناع به. ولو حدث هذا لكانت هذه هي الهيمنة في معنى السيادة و السيطرة.

الخاتمة:

يلاحظ المتخصص في علم نقد الكتاب المقدس في الغرب في العصر الحديث الإهمال المقصود لاستخدام القرآن الكريم في تأسيس علم نقد الكتاب المقدس على مستوى المنهجية النقدية، وعلى مستوى المضمون الديني. فقد تم –عن قصد– استبعاد القرآن الكريم أولا كمصدر مهم من مصادر علم نقد الكتاب المقدس، وثانيا كمستودع لمادة دينية مرتبطة بالعهدين القديم والجديد، ومرتبطة ايضا بتطور الديانتين اليهودية والمسيحية. ويعود هذا الإهمال المقصود إلى رغبة يهودية مسيحية في عدم العودة إلى القرآن الكريم في أي شيء له صلة بنقد العهدين القديم والجديد حتى لا يكتسب القرآن الكريم مصداقية في وجدان علماء النقد من ناحية، ولدى المثقف اليهودي والمسيحي من ناحية أخرى.

والحقيقة أن استخدام القرآن الكريم لدى المتخصصين في الكتاب المقدس من علماء الغرب قد توقف عند حدود النظر إلى المادة القرآنية ذات الصلة بالعهدين القديم والجديد، على أنها مادة تشير إلى تأثير الكتاب المقدس على القرآن الكريم، وبالتالي تشير في النهاية إلى تأثير اليهودية والمسيحية على الإسلام. ونقطة انطلاق علماء النقد في الغرب هي عدم الاعتراف بالوحي في القرآن الكريم، وتفسير المادة المتشابهة بين القرآن الكريم ومادة العهدين القديم والجديد داخل إطار نظرية تأثير الكتاب المقدس على القرآن الكريم، والأخذ القرآني من الكتاب المقدس. وتمتد نقطة الانطلاق هذه إلى عدم الاعتراف بالنقد

القرآني للكتاب المقدس، ورفض هذا النقد المستمد من النزعة التصحيحية القرآنية، والنظر إليه على أنه يمثل نوعا من الهرطقة التي وصلت أحيانا إلى درجة اعتبار الإسلام نفسه نوعا من الهرطقة داخل إطار اليهودية والمسيحية. وهي نظرة يهودية مسيحية قديمة لم يُفلح التقدم العلمي الحديث في علم نقد الكتاب المقدس في التخلص منها خشية أن يكتسب القرآن الكريم والإسلام موقعا إيجابيا لدى المنظور اليهودي المسيحي، ولدى الوجدان اليهودي المسيحي العام. ويقوم عدم الاعتراف بالنقد القرآني واستبعاده على أسس لاهوتيه ونفسية. أما الأساس اللاهوتي فيدور حول منع إعطاء القرآن الكريم والإسلام أي دور ديني في تكوين اليهودية والمسيحية، وعدم قبول أي مادة دينية قرآنية لها صلة بالديانتين، وإغفال النقد القرآني وما أتى به من تصحيح، وما أشار إليه من تحريف وتبديل. أما الأساس النفسي فيعود حقيقة الى العداء المتأصل ضد القرآن والإسلام، والذي لا يسمح نفسيا بقبول أية حقائق قرآنية حول الكتاب المقدس، وحول اليهودية والمسيحية. ويؤثر هذا العامل النفسي تأثيرا كبيرا على الموضوعية العلمية التي يتبناها ويدَّعيها فريق من المستشرقين. فهذه الموضوعية تتوقف عند حدود درس القرآن والإسلام للأسباب النفسية واللاهوتية المذكورة. وفي علم نقد الكتاب المقدس، يقول المنطق بضرورة قبول أيه مادة نقدية مهما كان مصدرها، وضرورة دراستها، وتحليلها والاستفادة منها في تكوين الرؤية النقدية حول الكتاب المقدس.

المصادر والمراجع:

١. ابن تيمية، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، تحقيق وتعليق ناصر بن عبدالكريم العقل، (الرياض: دار العاصمة، ط٦، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م).

٢. ابن تيمية، شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، **الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح**، تحقيق سيد عمران، (القاهرة: دار الحديث، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥ م).

٣. حسن، محمد خليفة، **علاقة الإسلام باليهودية: رؤية إسلامية في مصادر التوراة الحالية**، سلسلة الدراسات الدينية والتاريخية، العدد ٢٣ مركز الدراسات الشرقية جامعة القاهرة ٢٠٠٣م.

٤. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، **جامع البيان في تفسير القرآن**، (بيروت: دار المعرفة، ١٩٨٠م).

٥. الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٣، د.ت).

بعض المعاني المنسية للوسطية الإسلامية في المدارس والجامعات العربية
مقارنة بالتجربة التعليمية اليابانية

د. خير الدين خوجة الكوسوفي[1]

ملخص البحث:

تهدف هذه الدراسة إلى اكتشاف بعض المعاني المنسية أو المغيبة للوسطية الإسلامية في مدارسنا وجامعاتنا العربية والإسلامية، وذلك من خلال مطالعة ما لدى الآخرين والاستفادة من تجاربهم، ومن ثم إجراء مقارنة بين تلك الأنظمة التربوية والأكاديمية لمعرفة أوجه النقص أو جوانب النسيان عندنا. تم الاختيار على دولة أجمعت الأمة على ريادتها في ميادين العلم والتكنولوجيا والصناعة؛ إنها دولة اليابان وتجربتها التعليمية والتربوية. اتبع الباحث في هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي النقدي المقارن. وإشكالية هذه الدراسة تكمن في خلو أنظمتنا ومناهجنا التعليمية في الوطن العربي والإسلامي من الإتقان والإبداع رغم امتلاكنا لمقومات الإبداع الروحية والفكرية والمنهجية.

تمهيد:

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والحمد لله القائل: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ [الزمر:٩]، والقائل: ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ [النمل:٨٨]، والصلاة والسلام على معلم الناس الخير سيد الأنبياء والمعلمين والمربين سيدنا ونبينا محمد القائل: «إنَّ اللهَ تعالى يُحِبُّ إذا عمِلَ أحدُكمْ عملًا أنْ يُتقِنَهُ»[2]، وعلى آله وأصحابه الأطهار والميامين الأخيار، ومن اهتدى بهديه واستن بسنته إلى دام الليل والنهار.

أما بعد! فقد قال شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية: "الجزاء في الدنيا متفق عليه أهل الأرض، فإن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، ولهذا يروى: "الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنة"[3].

لقد زرع الله عز وجل في صدري بجانب تخصصي في التفسير والدراسات القرآنية حب الاهتمام بالجانب التربوي والتعليمي. وأيام دراستي في ماليزيا (١٩٩٧ – ٢٠٠٤) وفقني الله عز وجل أن أكتب رسالة عن المدارس الذكية النموذجية في ماليزيا، وأثر أنظمتها الفعالة في تخريج الأجيال المنشودة Smart Schools in Malaysia، وطبعت هذه الرسالة في المدينة المنورة

---

[1] كلية المجتمع – الدوحة – قطر.
.Community College of Qatar-CCQ
.www.drhafezi.net ،email:drhafezi68@gmail.com

[2] الألباني، **صحيح الجامع**، رقم١٨٨٠، وقال: حديث حسن وله شواهد.

[3] ابن تيمية، **مجموع الفتاوى** (الباز المعدلة)، ج٢٨، ص٦٢).
http://fatwa.islamweb.net/fatwa/index.php?page=showfatwa&Option=FatwaId&Id=153861

عام ٢٠٠٩م. بعد أن حطت بي الرحال إلى جامعة طيبة بالمدينة المنورة لفترة زمنية غير قصيرة، وتشرفت بتعليم وتربية إخواني الطلبة وأخواتي الطالبات في العديد من الكليات، وألفت فيها رسالة عن آداب متعلم القرآن ومعلمه. ودرّست في هذه الجامعة المباركة مادة: الثقافة الإسلامية. ومن جملة موضوعاتها موضوع: الوسطية: حقيقتها، ضرورتها، فضلها، أثرها ... إلخ. ووفقني الله لإعداد دراسة حول خطر التطرف والإرهاب ومعالجته من منظور القرآن الكريم والسنة النبوية والجهود الدبلوماسية، ونشرت هذه الدراسة في مجلة علمية محكّمة[١]، تناولت فيها نصوص القرآن والسنة حول موضوع الوسطية. لقد رأيت أنظمة التعليم في الوطن العربي والإسلامي عن كثب قد شهدت وما تزال تشهد حركة علمية مستمرة في مراجعة البرامج بهدف التطوير والرفع من مستواها العلمي، ولم يشف ذاك غليلي. شرعت في البحث عن الأنظمة التربوية التعليمية الأوربية والآسيوية مثل سنغافورة وكوريا الجنوبية واليابان، وانصرف اهتمامي في نهاية المطاف إلى النظام التعليمي الياباني، فكتبت عنهم عن بعد دون أن أزورهم عن قرب. ثم كتب الله لي المشاركة بورقة علمية في مؤتمر عالمي عن الفلسفة والدين والأخلاق في مدينة أوساكا – اليابان، عام ٢٠١٣ مما زادني ذلك حبا وشغفا على معرفة أعمق لأسرار تفوق التعليم الياباني، وخاصة عندما رأيت تلك الحقائق التي كتبت عنها، رأيتها هناك رأي العين.

المبحث الأول

المدارس والجامعات العربية خلقياً وعلمياً (تشخيص الحالة)

المطلب الأول: إطلالة سريعة على الظواهر السلوكية والخلقية في بعض المدارس والجامعات العربية

يقرر خبراء التربية الإسلامية وعلماؤها وأنا معهم أيضا أن هناك تدنياً وانحرافاً[٢] ملحوظاً في الأخلاق والتحصيل الدراسي لدى المتعلمين من أبنائنا الطلاب في الوطن العربي والإسلامي[٣]. وخلال فترة تدريسي وعملي في بعض البلاد العربية الإسلامية واحتكاكي المباشر بالطلاب والأساتذة في الجامعة، لاحظت بنفسي بعض المظاهر السلوكية والتصرفات الأخلاقية والفكرية بعيدة كل البعد عن منهج القرآن والسنة وهدي السلف الصالح ووسطية الإسلام، يمكن تجلية هذه الظواهر في النقاط الآتية؛ من حيث عدم الجدية والقيام بواجب التعلم والتعليم، ظاهرة إطالة الشعر، ظاهرة التدخين وتعاطي الشيش، ظاهرة التفحيط وتخريب السيارات، ظاهرة التأخر في الحضور إلى المدارس والمحاضرات، ظاهرة انتشار مقاهي الانترنت والسهر في الاستراحات الليلية، ظاهرة الهروب من المدارس والجامعات، حالات التسمم لبعض التلاميذ والطلاب لغياب النظافة في بعض المطاعم أو المحال التجارية القريبة من المدارس أو الجامعات، وبيع المواد الغذائية الفاسدة ومنتهية الصلاحية، ظاهرة الاستكبار من العمل اليدوي ظنا منهم بأنها من اختصاص الخدم والعمالة الوافدة، ظاهرة الشروع في الغش في الاختبارات، وغياب الصدق وانتشار الكذب وغياب الشعور بالمسؤولية والرقابة الإلهية، ظاهرة العدوان وإتلاف الممتلكات الحكومية في

---

[١] **ظاهرة الإرهاب بين التشخيص والعلاج**، مجلة الحكمة، ص٣٩٩–٤٦٣.

[٢] **مجلة الأمن**، ص٢٩–٣٠.

[٣] يالجن، **سبل النهوض بالطلاب خلقياً وعلمياً إلى مستوى أهداف الأمة**، ص١٢–١٣.

المدارس والجامعات[1]، ظاهرة الشجار والخصومات والمضاربات في ساحات المدارس والجامعات، ظاهرة التأخر في الحضور الدوام المدرسي والجامعي، و من ثم النوم في القاعات والفصول بسبب السهر، ظاهرة متابعة برامج العبث واللهو، ومشاهدة المسلسلات الهابطة ذات الطابع المفسد للأسرة والشباب مثل: مسلسلات الطلاق والخيانة الزوجية وتعاطي المخدرات والحب والرومانسية التركية والمكسيكية والكورية والهندية، ظاهرة غياب الأهداف والمقاصد العليا من التعليم، وعلى رأس تلك المقاصد خدمة الدين والأمة والوطن[2]...الخ.

إذا كانت هذه حالة طلابنا في المدارس والجامعات في أغلب البلاد العربية والإسلامية، وإذا كانت المرحلة الجامعية تعكس مرحلة التعلم الابتدائي والمتوسط والثانوي من حيث الجد والاجتهاد، والسلوك والأخلاق، والفكر والولاء والتفاني والنظام، والانضباط والإخلاص، والمثابرة والعمل والانتاج، والتعاون والتكافل والاحترام والأخوة...الخ، أعتقد والله أعلم؛ أن تعزيز معاني الوسطية الغائبة والمهمشة في المناهج الدراسية والخطط الجامعية وفاعليتها والتأكيد على نشرها، ومعرفة الأسباب الدافعة لبعد الشباب عن الوسطية الإسلامية وتبني الغلو والانحلال والتطرف والإرهاب، ... إلخ؛ أقول إنما يتم ذلك من خلال مراجعة تلك المناهج الدراسية والنهوض بالطلاب خلقياً وعلمياً ودينياً، لأن أخلاقيات المتعلم والاستقامة الحقيقية من العوامل المساعدة على النهوض العلمي والثقافي والفكري، لأن الثقافة الإسلامية السليمة هي التي تحول العملية التعليمية من: "... التلقين إلى التفكير، ومن عقلية التكديس والنقل والتقليد إلى ذهنية الإبداع والاجتهاد والتجديد والاتباع بإحسان، ومن مرحلة الإحساس إلى مرحلة الإدراك؛ ومن الإبصار للمقدمات إلى البصيرة للمآلات والعواقب، ومن تقديس التراث والافتخار به إلى استنطاقه ليجيب عن أسئلة الحاضر ويبصر بالمستقبل، من الغيبوبة في الماضي وعدم الرجوع إلى الحاضر .. من اتهام العقل ومحاصرته وتعطيل فاعليته ومحاولة لإلغاء وظيفته باسم الدين والتدين والانتصار لمعرفة الوحي، إلى إنعاش العقل وفك حصاره وإدراك وظيفته وإطلاقه في ميادين الاجتهاد والفهم الصحيح وتنزيل قيم الوحي على واقع الناس .. ومن ذهنية العنف والشدة والتعنت إلى ذهنية الحكمة والتعقل والمعرفة والمرونة ..."[3].

أقول: إن الخلل والعقبة أمام إمكانية تحقيق هذه المعاني المنسية والمهمشة للوسطية الإسلامية بين أبنائنا الطلاب في المدارس والجامعات تكمن في فقدان تجربة نموذجية حية وواقعية متمثلة في مدرسة أو مؤسسة أو جامعة لها نظام تعليم بناء وفاعل، لأن الفاعلية المثمرة كما أشار إليها الخبراء: "تعني العمل على بلوغ أعلى درجات الإنجاز وتحقيق أفضل النتائج"[4]. فدرجات الإنجاز وتحقيق أفضل النتائج العلمية في الجامعات العربية أمر فيه نظر؟ والدليل على ذلك – كما تشير آخر الإحصائيات – أن ترتيب كل الجامعات العربية حسب التصنيف العالمي الأكاديمي للشنغهاي لعام ٢٠١٤ لا تزال في المراحل المتأخرة وخارج قائمة أفضل ٥٠٠ جامعة في العالم. اللهم إلا أربع جامعات في المملكة العربية السعودية جاءت في

[1] المرجع السابق، ص١٣.

[2] المرجع السابق ص٢٧-٣٦؛ والنحلاوي، **أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت**، ص٤٥-٦٨.

[3] حسنه، **الثقافة المطلوبة حتى نكون في مستوى إسلامنا**، ص٦٠ -٦٤.

[4] Robert, **Managing: Toward Accountability for Performance**, pg:16

القائمة ومن ضمن أفضل الجامعات والحمد لله، وهذه نعمة كبيرة وأمر مشرف للعرب والمسلمين[١]. والعلماء يصفون الفاعلية عندما تكون المخرجات Outputs أو النتائج التي يحصلون عليها أكثر وأحسن من المدخلات Inputs أي الجهود والتكاليف البشرية والمادية التي استثمروها. والذي يحصل في المدارس والجامعات العربية تقريباً عكس ذلك، حيث ترصد لها ميزانيات ضخمة، ولكن للأسف نرى المخرجات Output لا تبشر بالخير.

وفي القرآن الكريم ترد الإشارة إلى المدخلات بأسماء متعددة، مثل "الوسع"، و"القوة"، و"الرباط"، قال تعالى: ﴿ولا نكلف إلا وسعها﴾، [المؤمنون:٦٢]، وقال تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخير ...﴾ [الأنفال:٦٠]. وأما المخرجات فيسميها القرآن الكريم ﴿العاقبة﴾، وغالباً ما تأتي مقرونة بـ ﴿المتقين﴾، كما قال تعالى: ﴿إن العاقبة للمتقين﴾، [هود:٤٩]، أي إن العاقبة المباركة والموفقة ستكون للذين يتقون الاصطدام بأوامر الله وسننه وقوانينه في الحياة والكون ومسيرة التاريخ. وحين تبلغ الفاعلية أقصى درجاتها يطلق القرآن على أصحابها الذين يتصفون بهذه الصفة اسم ﴿المفلحين﴾، والمفلح الذي يظفر بالمطلوب[٢]. فأين إذن، جوانب ومظاهر الفلاح في المدارس والجامعات ومخرجاتها؟ أين النتائج المرجوة من الميزانيات المالية الضخمة المرصودة لتطوير العملية التربوية في الجامعات العربية؟ هل نحن مفلحون بهذا المعنى القرآني؟ هل نحن في أنظمتنا التعليمية اتقينا الاصطدام بسنن الحياة وقوانين الكون[٣]؟ هل جهودنا التعليمية المبذولة كافية لتحقيق نتائج عالية؟ هل قمنا بإعادة النظر في المدخلات Inputs حتى ننتظر المخرجات Outputs أفضل مما عليه حالنا اليوم؟

إذن؛ لا مناص ولا انفكاك من مراجعة أنظمتنا التعليمية والتربوية في المدارس الابتدائية والمتوسطة والجامعية، حتى نلحق بركب الدول المتطورة لكي نخرج أجيالاً تدرك تلك المعاني المغيبة للوسطية في أبعادها المتعددة في المجال العلمي والفكري[٤] والثقافي والصناعي والابداعي، إذ من معاني الوسطية في اللغة[٥] **و** في القرآن الكريم كما أشار إلى ذلك بعض أهل العلم[٦] أيضاً: القوة، والتميز، والأمان والبعد عن الخطر، التوازن والمركزية[٧]، الاتقان، استقامة المنهج، والاعتدال[٨] أياً كان هذا المنهج

---

[١] http://www.shanghairanking.com/ar/ARWU2014.html

[٢] الكيلاني، **التربية والتجديد وتنمية الفاعلية عند المسلم المعاصر**، ص١١.

[٣] الغزالي، **سر تأخر العرب والمسلمين**، ص١١-٢١.

[٤] مصطفى، **الثقافة الإسلامية – تعريفها – مصادرها – مجالاتها**، ص٢٦١-٢٧٧.

[٥] الوسطية/http://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar

[٦] القرضاوي، **الخصائص العامة الإسلام**، ص١٢٧–١٥٧، وانظر أعمال الندوة العلمية بعوان: **الشباب الجامعي والتصدي للإرهاب**، والتي عقدتها **جامعة طيبة** تحت رعاية كريمة لصاحب السمو الملكي الأمير مقرن بن عبد العزيز أمير منطقة المدينة المنورة بتاريخ ١٤٢٦/١/٤ هـ، حيث كان من أهدافها: **إبراز منهج الوسطية والاعتدال في الإسلام وموقفه من الغلو والتطرف، وتعزيز روح الانتماء الوطني لدى الشباب الجامعي، وتفعيل دور المؤسسات التربوية والمجتمعية في تحصين الشباب** ... إلخ. راجع: بحوث الندوة على قرص CD موزعة على أعضاء هيئة التدريس في جامعة طيبة عام ٢٠٠٤م.

[٧] هندي، **الثقافة الإسلامية**، ص٩٧-١٠٠٧.

[٨] الوسطية انظر للمزيد: / http://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar

الديني أو التعليمي أو التربوي، "... واستقر عند العرب أنهم إذا أطلقوا كلمة "وسط" أرادوا معاني الخير، والعدل[1]، والجودة، والرفع، والمكانة العلية. والعرب تصف فاضل النسب بأنه وسط في قومه، وفلان من واسطة قومه، أي: من أعيانهم، وهو من أوسط قومه، أي: من خيارهم وأشرافهم"[2].

وحول بعض المعاني المذكورة آنفا والمنسية عن الوسطية وأبعادها ودلالاتها وفضل الأمة الوسط أرى من الفائدة العلمية نقل كلام الأستاذ المفسر سيد قطب رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ [البقرة:١٤٣]، حيث قال رحمه الله: "وإنها للأمة الوسط بكل معاني الوسط سواء من الوساطة بمعنى الحسن والفضل، أو من الوسَط بمعنى الاعتدال والقصد، أو من الوسْط بمعناه المادي الحسي ﴿أُمَّةً وَسَطاً﴾ ... في التصور والاعتقاد...لا تغلو في التجرد الروحي ولا في الارتكاس المادي. إنما تتبع الفطرة الممثلة في روح متلبس بجسد، أو جسد تتلبس به روح... ﴿أُمَّةً وَسَطاً﴾....في التنظيم والتنسيق..لا تدع الحياة كلها للمشاعر، والضمائر، ولا تدعها كذلك للتشريع والتأديب، إنما ترفع ضمائر البشر بالتوجيه والتهذيب، وتكفل نظام المجتمع بالتشريع والتأديب وتزاوج بين هذه وتلك، فلا تكل الناس إلى سوط السلطان، ولا تكلهم كذلك إلى وحي الوجدان...ولكن مزاج من هذا وذاك ﴿أُمَّةً وَسَطاً﴾...في الارتباطات والعلاقات...لا تلغي شخصية الفرد ومقوماته، ولا تلاشي شخصيته في شخصية الجماعة أو الدولة ولا تطلقه كذلك فرداً أثراً جشعاً لا هم له إلا ذاته .. إنما تطلق من الدوافع والطاقات ما يؤدي إلى الحركة والنماء وتطلق من النوازع والخصائص ما يحقق شخصية الفرد وكيانه ﴿أُمَّةً وَسَطاً﴾ .. في المكان .. في سرة الأرض وفي أوسط بقاعها ﴿أُمَّةً وَسَطاً﴾ .... في الزمان ... تنهي عهد طفولة البشرية من قبلها وتحرس عهد الرشد العقلي من بعدها. وتقف في الوسط تنفض عن البشرية ما علق بها من أوهام وخرافات من عهد طفولتها وتصدها عن الفتنة بالعقل والهوى وتزاوج بين تراثها الروحي من عهود الرسالات، ورصيدها العقلي المستمر في النماء وتسير"[3].

إن السؤال الذي يطرح نفسه هنا هو: ما مدى وجود: الإتقان والقوة والخيرية والتميز والتوازن بين الروحية والمادية والفردية والجماعية واستقامة المنهج والبعد عن الميل والانحراف...الخ، في أعمالنا وتعلمنا وأفكارنا وأنظمتنا التربوية والتعليمية في المدارس والجامعات العربية؟

أقول: إن الجواب سيتضح إن شاء الله عند وقوفنا بالدراسة والمقارنة لنظام تعليمي تربوي لدولة أجمع العالم على ريادتها وإمامتها في الصناعة والتكنولوجيا والجد والاجتهاد والإبداع والعمل، لعلها تكون قدوة صالحة للاقتداء بها في بعض جوانبها والاستفادة منها، مما لا يتعارض مع عقيدتنا السمحة ومبادئ ديننا الحنيف؛ الكتاب والسنة وهدي السلف الصالح، [4] فما طاب من تلك الثقافاتوالحضارات فهي لنا أيضاً، وما خبث منها فهي ليست لنا[5].

---

[1] ابن منظور، **لسان العرب**، ج٧، ص٤٢٧.

[2] الصلابي، http://uqu.edu.sa/page/ar/116740#_ftn23

[3] قطب، **في ظلال القرآن**، ص١١٩-١٢٠.

[4] القرضاوي، **ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق**، ص٥٣—٧٨.

[5] بادحدح، **الثقافة الإسلامية**، ص٨٩—١٠٦.

ويقول علماء الاجتماع والتربية؛ "إن حلقات السلوك الإنساني تبدأ في النفوس: أي بحلقة الفكرة، ثم حلقة الإرادة، ثم تبرز منها الحلقة الثالثة حلقة الممارسة والإنجاز المحسوس. فإذا أصاب الخلل الحلقة الأولى امتدت آثار الخلل إلى الحلقتين التاليتين وأفرزت مضاعفتها في البطالة والعطالة والعجز والتخلف"[1]. ولعل هذا المعنى هو الذي أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد:١١]. فالأمم الواعية إذا أحست بالخطر وعدم الفاعلية والإنجاز فعلماؤها وخبراؤها يقومون بتشخيص القيم الثقافية والنظم التربوية وتقديم الحل السليم للخروج[2] من الأزمة. وهذا ما فعلته بريطانيا حين رأت تفوق الألماني في الحرب العالمية الثانية، والولايات المتحدة الأميركية حين رأت تفوق الاتحاد السوفياتي سبقتها في النزول على سطح القمر، وهي تنظر أيضاً إلى التفوق الياباني في الميادين الصناعية[3].

وبالنسبة للمسلمين العرب وغير العرب أيضا فإن تجربة اليابان مهمة جداً، ويمكن أن نتساءل: لماذا تعنينا اليابان؟ لأن اليابانيين قوم شرقيون مثل المسملين بدأوا مسيرتهم نحو التقدم من واقع العزلة والتخلف الصناعي والتكنولوجي، ولكن المسلمين يختلفون عنهم في بعض القضايا التاريخية. فحال المسلمين لم يكن صفراً في تاريخهم كما كان حال اليابانيين. ولقد أتى على المسلمين حين من الدهر أنهم كانوا روادًا في العلم والمعرفة والحضارة قبل أن يتحولوا إلى ما هم عليه الآن. ويبدو لي أن استرجاع عجلة التقدم والريادة مرة أخرى أسهل بكثير ممن يريد أن ينطلق من الصفر. نسأل الله عز وجل أن يعيد إلى الإسلام والمسلمين عزهم ومجدهم[4].

المطلب الثاني: واجب النهوض بالطلاب خلقياً وعلمياً

رأينا في المبحث الأول حالة المدارس والجامعات والآن نقول: إن النهوض بالطلاب خلقياً وعلمياً ودينياً هي الوظيفة الأساس لكل مؤسسة تعليمية وعلى رأسها وزارة التربية والتعليم، وأي تقصير من قبلهم في مجال النهوض على مستوى الأهداف المرسومة والمحددة من قبل الدولة يعتبر تقصيراً في الوظيفة. وأود في هذه المناسبة أن أعرج على ذكر بعض المنطلقات والدعوات فأقول:

- انطلاقاً من دعوات وزراء التربية والتعليم في كل البلاد العربية على العمل للارتقاء بمستوى التعليم نحو الأفضل.
- وانطلاقاً من كلام أحد المربين عندما سئل عن مستقبل أمة ما، قال: أعطوني مناهج تعليمها لأتكلم عن مستقبلها.
- وانطلاقاً من حقيقة ظاهرة تدني الأخلاقيات لدى المتعلمين تكلف الدولة أموالاً طائلة، إلى جانب أنها تسبب مشكلات دينية و اجتماعية وسياسية[5].

---

[1] الكيلاني، **التربية والتجديد وتنمية الفاعلية عند المسلم المعاصر**، ص٤.

[2] علوان، **الشباب المسلم في مواجهة التحديات**، ص٢٦-٣٢.

[3] James, **Japanese Schooling**: **Patterns of Socialization**, **Equality and Political Control**, p. 10-15.

[4] الغزالي، **سر تأخر العرب والمسلمين**، ص٧-٩١، والمرصفي، **الثقافة الإسلامية وأثرها في تكوين الشخصية الإسلامية**، ص١٥١-١٦٣.

[5] بكار، **عصرنا والعيش في زمانه الصعب**، ص٢١- ٣٨.

- وانطلاقاً من مقاصد الشريعة الإسلامية وأهدافها العامة بالنهوض والرقي والتعلم و البحث عن أسباب الخلل ومحاسبة النفس ومراجعة الفكر و إصلاح ما فسد منه، وجدنا أن المستوى الأخلاقي والسلوكي الفكري ليست على ما يرام ولا بشر بالخير. إذن؛ أين الخلل والداء؟ هل يعود إلى الطلاب أنفسهم أم إلى المناهج التعليمية أم إلى ضعف الأساتذة في الأداء والتربية والتعليم وعدم إخلاصهم في أعمالهم؟

جواباً على هذا السؤال نقول: إن خبراء التربية والتعليم يرون أننا إذا استطعنا إيقاف مضاعفة الحالة فهذا كسب عظيم[١]، لأنه ما لا يدرك جله لا يترك كله. إن القيام بالتحسين الأخلاقي سيضمن لنا بإذن الله تقليل نسبة الانحرافات والجرائم[٢] التي بدأت تنتشر بشكل ملحوظ في الأوساط الطلابية وفي المجتمع نتيجة إهمال الأخلاق والتربية الأخلاقية، ونتيجة لهذا الإهمال فقد حصل في بعض البلاد العربية الاعتداء على الأعراض في المدارس وقام الطلاب بحرق الفصول وضرب الأساتذة والإداريين[٣]. ولهذا كان من حكمة تعليم الرسول صلى الله عليه وسلم وتربيته تزكية النفوس وتطهيرها أولاً من كل الشرور والنيات والغايات السيئة، ثم تعليمها العلوم والحكمة. إن التقصير في الجانب الأخلاقي في أنظمتنا التعليمية سيجعلهم يتخلون عن التضحيات من أجل رفع مكانة الأسرة والمجتمع والدولة وينغمسون في الأهواء والملذات، لا تهمهم سوى المصالح الشخصية، فلا بد من تزكية نفوسهم من الرذائل الظاهرة والباطنة وكل ما يخل بالمروءة. إن غياب هذه الأهداف التعليمية العليا عن أذهان الطلاب وكثير من المعلمين يجعلهم يتعلمون غالباً لأغراض دنيوية بحتة، الحصول على الدرجات ثم الشهادات ثم الوظيفة، فتراهم يتألمون لفوت الدرجات ولا يتألمون لفوت الصلوات[٤]، أو ممارسة السرقات والخيانات ونشر الرذائل والموبقات[٥].. إلخ. هذه الصور وما أشبهها والمخالفة للشرع والمروءة تحتاج منا إلى إعادة النظر في تربية الأبناء. كما يتوجب علينا جميعاً تصحيح[٦] أخطائنا وتجديد العهد مع الله سبحانه وتعالى على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في القول والعمل والتواصي بالحق والتواصي بالصبر. ولا ننسى أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعث ليتمم مكارم الأخلاق، وقد عرف المربون الأخلاق بأنه علم الواجبات؛ إذ إنه يبين واجب كل إنسان إزاء الآخر وحقوقه، وإتقان الواجبات من الأخلاق وإهمالها مخالف للأخلاق ومخالفة لمعنى من معاني الوسطية ألا وهو الإتقان في العمل[٧]. ولا ينبغي أن يغيب عن البال أن الريادة التكنولوجية لبعض الدول المتطورة إنما جاء نتيجة لنظام تعليمي تربوي صارم لا يعرف المحاباة،

---

[١] يالجن، **سبل النهوض بالطلاب خلقياً وعلمياً إلى مستوى أهداف الأمة**، ص١٠-٢٥.

[٢] المعبّدي، **الخلفية التربوية والاجتماعية لمرتكبي الجريمة في المنطقة الغربية من المملكة العربية السعودية**؛ وموقع http://www.ksu.edu.sa/sites/ksuarabic/research/ncys/pages/c.aspx.

[٣] علوان، **الشباب السلم في مواجهة التحديات**، ص٣٥.

[٤] يالجن، **التربية الإسلامية والطبيعة الإنسانية**، ص٢٠- فما بعد.

[٥] حول انحرافات ومشكلات الشباب وأسبابها وعلاجها. انظر: بالعمش، **الثقافة الإسلامية – المستوى الثالث**، ص١٩٣-٢٢٠.

[٦] الكيلاني، **التربية والتجديد وتنمية الفاعلية عند المسلم المعاصر**، ص١٧-٦٦.

[٧] يالجن، **تربية الأجيال على أخلاقيات وآداب المناقشة والمحاورة والمناظرة العلمية**، ص٣٣-٤٥.

والمهتم بنشء الأجيال وتربيتهم وتعليمهم منذ الصغر، وكل من سار على الدرب وصل. إن هذه المعاني الغائبة والمهمشة للوسطية عندنا قد رأيناها عندهم وقد أحسنوا فهمها ومن ثمَّ استخدامها، فكانت النتائج المرجوة من المدارس والجامعات لدى هؤلاء القوم على النحو الذي خطط لها مسبقاً. فهلا استفاد المسلمون من حسن طريقتهم في كيفية توظيف هذه المعاني الغائبة والمهمشة عندنا[١].

المبحث الثاني

سر تفوق المدارس اليابانية والعوامل المساعدة لنهوضها (العلاج المقترح)[٢]

المطلب الأول: العوامل التاريخية والتربوبة لتفوق المدارس اليابانية

لقد تساءل كثير من الخبراء والمراقبين والمحللين العرب والأجانب كثيراً: ما سر تفوق المدارس اليابانية الابتدائية والثانوية والجامعية عن مثيلاتها لدينا؟أجاب هؤلاء: إنها كلمة واحدة وهي "القيادة"[٣]. وعندما سئل إمبراطور اليابان عن أهم أسباب تقدم دولته في هذا الوقت القصير قال: بدأنا من حيث ما انتهى منه الآخرون وتعلمنا من أخطائهم وأعطينا المعلم حصانة الدبلوماسي وراتب الوزير. وعندما سئل وزير التعليم الياباني السابق في لقاء صحفي: ما سر تقدم اليابان قال: "سر تقدمنا تربيتنا الأخلاقية"[٤].

إن بداية تاريخ الازدهار الياباني يعود إلى عام ١٨٦٨م، عهد الإمبراطور "موتسو هيتو" الذي بدأ حكمه في ١٨٥٢/١١/٣م وكان شابا ذكياً متفتحاً وسمي عهده بـ: العهد "الميجي" أي عهد التنوير أو المستنير. وبواسطة هذا العهد تم إرساء قواعد نهضة اليابان الحديثة[٥]. وأهم فقرة في دستور هذا العهد هي الفقرة الخامسة التي تنص على أن التعليم: "سوف يجري العمل على جمع المعارف من شتى أنحاء العالم أجمع، وعلى هذا النحو سوف ترسخ الإمبراطورية على أسس متينة"[٦].

---

[١] الشميمري، **كيف تكون مدرساً ناجحاً – ٣٠٠ نصيحة للمدرسين والمدرسات**، ص٢٠ – ٤٠.

[٢] **ملحوظة مهمة للقارئ الكريم**: هذه الدراسة في الأصل لها صور فوتوغرافية التي تدعم وتوثق هذه المعلومات الواردة في الدراسة، وأصل هذه الدراسة كانت ٧٥ صفحة، ولكن بسبب ضيق مساحة البحث وأوامر اللجنة العلمية كنت مضطرا على حذفها .. فمعذرة. ولعلنا إن شاء الله أثناء عرضنا للبحث في المؤتمر سنبين ذلك وستشاهدون تلك الصور عن التعليم الياباني.

[٣] http://www.alshref.com/vb/t115785.html

[٤] إدوارد، **التربية في اليابان المعاصرة**، ص٣٢-٣٣.

[٥] Peak, **Learning to go to School in Japan,** p. 30-35

[٦] وبتطبيق اليابانيين لهذا المبدأ، فإنهم طبقوا الحديث النبوي الشريف «الكلمة الحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها» بطريقة غير مباشرة رغم كونهم غير مسلمين. وهذا الحديث رغم كونه ضعيفاً جداً كما أشار إلى ذلك الألباني، **ضعيف سنن ابن ماجه**، رقم٤١٥٩، إلا أنه قد استفاد اليابانيون منه كثيراً وخسر المسلمون في هذا العصر بعدم تطبيقها، والله المستعان وعليه التكلان.

ومع مرور الزمن، استقرت هذه المفاهيم في نظام تعليمي مركب، وأصبحت مناهج التربية والتعليم اليابانية اليوم من المناهج العالمية التي تنظر إليها وتحاول تقليدها الأمم الأخرى. ويتقاضى المعلم الياباني أفضل الرواتب بعد لوكسمبورغ وكوريا[1] وألمانيا وسويسرا، كما أن الحكومة اليابانية صنفت رواتب المعلمين حسب المؤهلات العلمية وسنوات الخبرة التجريبية[2].

إن حالة [الإدمان على العمل] لدى اليابانيين التي لاحظها الخبراء والمحللون تعود في جزء كبير منها إلى تأثير التربية التي ركز عليها نظام التعليم منذ الصغر. فقد وفرت هذه الجرعة المؤثرة شحنة مستديمة عند اليابانيين إلى درجة تجعلهم يخشون عدم العمل، ومن ثم فلابد للأمة من خطة حضارية واضحة المعالم والغايات تتفق عليها الصفوة المثقفة والعقول الواعية مع الأجهزة الرسمية في الدولة.

وللأسف الشديد فإن حال الأغلبية الساحقة في أقطار العالم الثالث ومنها الأقطار العربية والإسلامية المعاصرة ولا سيما في الخليج العربي ونظرا لطفرة الموارد الطبيعية من النفط والغاز كان لها التأثير السلبي على عدم تبني ثقافة العمل وممارسة المواطن لكل صنوف الأعمال اليدوية والفنية؛ حيث إن ثقافة العمل لدى بعض شرائح المجتمع لا تتجاوز حدود الإدارة والتجارة. أما ممارسة الأعمال اليدوية والمهنية والفنية الأخرى مثل ميكانيكا السيارات وإصلاح الشبكات الهاتفية والإنترنت والعمارة والنجارة وبناء الطرق والجسور .. إلخ .. تكاد تكون معدومة في وقتنا الحاضر لدى الشباب الخليجي العربي الإسلامي... اللهم إلا حالات نادرة وبنسب قليلة ومتفاوتة. والدليل على هذه الحقيقة النسبة العالية للعمالة الآسيوية الوافدة ذات مهارات محدودة وضعيفة. هذا الوضع الحالي هو خلاف ما كان عليه آباؤهم وأجدادهم، وهذا أيضا خلاف لمعنى مهم من المعاني المنسية للوسطية القرآنية؛ ألا وهو العمل المتقن والتميز. وهذا يدخل في باب "العجز عن رؤية الذات"، ويرى خبراء التربية أن أصحاب هذه العادة لا يرون أنفسهم إلا من خلال رؤية الآخرين لهم "المرآة الاجتماعية". إذن، فمشكلة المسلمين العرب وغير العرب عموما والمدارس والجامعات العربية والإسلامية هي أنهم في الوقت الراهن يفتقرون إلى ضوابط ومعايير شخصية وأكاديمية وتعليمية مستقلة. فترى لديهم نوعاً من الاضطراب وعدم الثقة بالنفس والقيم التي يمتلكونها! لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، فهم في الوقت الراهن ضحايا لتقييم الآخرين لهم. بينما لو فطن هؤلاء وأنهم لو عادوا إلى القيم الإسلامية لتحقيق معايير الوسطية القرآنية الحقة، تلك المعاني المنسية أو المغيبة؛ بالجد والاجتهاد والاتقان والعدل والتميز لكانوا أسوة حسنة للآخرين في كل المجالات، بل وحتى للاعتماد الأكاديمي العالمي، ولم يكونوا يحتاجون إلى المنظمات العالمية لتقييمهم مثل منظمة ساكس (Sothern Association of Schools and Colleges (SACS)، أو التصنيف الصيني في شانغهاي وغيرهم[3].

المطلب الثاني: العوامل الطبيعية والنفسية التي ساهمت في نهوض اليابان:

[1] http://www.educationworld.net/salaries_jp.html.

[2] http://www.almarefh.net/show_content_sub.php?CUV=396&SubModel=138&ID=1502.

[3] http://www.shanghairanking.com http://www.sacs.org

علاوة على ما ذكر فإن المحللين والخبراء يرون أنه قد تضافرت مجموعة من الظروف التاريخية والجغرافية التي دفعت بالتجربة اليابانية إلى النجاح، حيث أعطت الجغرافيا لليابان خصائص فريدة. فخُمس مساحتها لا يصلح للاستغلال، كما يصعب أن يعطيهم الإنتاج الزراعي الكافي لحاجتهم، فلجؤوا إلى زراعة كل أرض فضاء في المدن المهدمة كي يحصلوا على لقمة العيش. و يرى هؤلاء أن هذه الطبيعة أعطت اليابان القدرة على العمل الشاق قرنا بعد قرن وحقبة بعد أخرى، حتى أصبح لدى الياباني "أخلاقيات عمل" يصفها بعض الخبراء بأنها "أكثر أخلاقيات العمل عمقًا وأصالة في العالم كله". كما أن هذه الجزر الممتدة بموقعها الجغرافي المعروف الذي يعرضها إلى أكثر الأعاصير والهزات الأرضية عنفًا، جعلت لسكانها سمة هي قدرتهم على "التكيف السريع". كما أن الذات الجماعية لدى اليابانيين ملحوظة، والعمل كفريق سمة من سمات شخصيتهم الوطنية[1]. ويمكن تلخيص عوامل النهضة في اليابان من خلال النقاط التالية:

أولاً: الشخصية اليابانية

فالشخصية اليابانية منضبطة، تقدس الوقت، وتحترم النظام، وتبدع من ضمن الفريق الواحد، وتلتزم وبشدة بآداب التعامل، وأخلاقيات المتاجرة رفيعة وموصوفة بالصدق والأمانة[2]. وهناك إحساس عام بالأمن والأمان في اليابان لتوافر الوظيفة المنتجة والتأمين لمعظم الخدمات الاجتماعية. وهذه الأخلاقيات نابعة من الاهتمام بالبرامج التعليمية المتعلقة بالأخلاقيات والسلوك للمواطن منذ الصغر في البيت والمجتمع والمدرسة. كما أن محاسبة القانون صارمة للمخالفين. ولا يرحم القانون الياباني الغني أو الفقير، الوزير أو الغفير، فحينما تكتشف المخالفات، تدرس أسباب حدوثها، ويحاسب مرتكبوها، وتمنع تكررها[3].

ثانياً: احترام كلام الحكماء والفلاسفة في الالتزام بالقيم الأخلاقية

فالقيم المجتمعية اليابانية تفرض على الشخص الاعتذار. لذلك يعتذرون ويعترفون بأخطائهم في معظم الأحيان. وفي عام ١٩٨٩م نجح اليابانيون في مراجعة البرامج التعليمية وتطهيرها من القيم الفردية المستوردة، وأضيفت برامج السلوك والأخلاقيات بصيغة متكاملة على أن تراجع كليا كل عشر سنوات. وقد أدخلت مادة السلوك والأخلاقيات بتناغم في جميع المواد المدرسية ونشاطاتها. وهذه الأفكار هي نتاج الكونفوشيوسية. فالفلسفة الكونفوشيوسية تنادي بالولاء المتناهي للحكام، وكذلك الولاء بين الرئيس والمرؤوس، والسيد والخادم، والأب والابن، والكبير والصغير، وهكذا. كما تدعو إلى طلب العلم والمعرفة والحكمة. إن اليابانيين تحركهم إرادة عنيدة نحو التقدم ويتملكهم حب كل ما هو جديد، ويتمتعون بقدرة على العمل الذي لا يعرف الكلل في سبيل النجاح وبنظام وارتباط مدهشَين...، ألم يحن الوقت للاستفادة من تلك التجربة؟ ألم يحن

[1] http://japan-saito.blogspot.com/2008/03/blog-post_1867.html

[2] وقد لاحظت هذه الآداب والأمانة في التجارة والعمل المهني بنفسي عندما زرت اليابان، لقد رأيت بأم عيني تلك المعاني المنسية عن الوسطية القرآنية مجسدة في سلوكيات وأخلاقيات الشعب الياباني.

[3] انظر للمزيد المقال المهم بعنوان: سر نجاح تجربة الإدارة اليابانية من منظور الفكر الإسلامي:
http://www.707077.com/show_articles.php?no_articles=49

الوقت لكي نصحو من غفوتنا.. تلك الغفوة التي طالت كثيرًا كثيرًا... فهلا استفاد المسلمون من هذه التجربة الحية والواقعية؟![1].

المبحث الثالث

خصائص التعليم الياباني وأهدافه التربوية

لقد وضع الخبراء اليابانيون جملة من الأهداف التعليمية للطالب الياباني يجب تحقيقها أثناء كافة المراحل الدراسية، منها؛ النمو الكامل لشخصية الفرد من أجل رفعة الأفراد وتقدمهم، تنمية حب الحقيقة والعدالة، تقدير قيمة الآخرين، احترام العمل وتعميق شعور تحمل المسؤولية، الاعتماد على النفس والاستقلال، تنمية الثقافة من خلال الاحترام المتبادل والتعاون لإنشاء مجتمع آمن ومسالم[2]. ولتحقيق هذه الأهداف، فقد نسقت وزارة التربية والتعليم مع السلطات التنفيذية الحكومية لتبني قانون يرغم أولياء أمور الأطفال على إرسال أبنائهم إلى المدارس لإكمال تسع (٩) سنوات من التعليم الأساس. وفيما يلي نذكر بالإيجاز تلك الخصائص:

المطلب الأول: المركزية واللامركزية في التعليم

هناك دراسات عديدة حول خصائص التعليم الياباني باللغة الإنكليزية. ومن بين تلك الدراسات دراسة مهمة نشرتها سفارة خادم الحرمين الشريفين بطوكيو عن خصائص التعليم الياباني وأهدافه ونحن نقتطف منها فقرات موجزة للأهمية: "تتميز اليابان بشكل عام بمركزية التعليم، أو نستطيع القول إن نظام تعليمها يغلب عليه طابع المركزية. ومن إيجابيات هذا المبدأ في التعليم توفير المساواة في التعليم ونوعيته لمختلف فئات الشعب على مستوى الدولة بغض النظر عن المقاطعة أو المحافظة التي وُلد فيها التلميذ أو الطالب، وبذلك يتم تزويد كل طفل بأساس معرفي واحد سواء كان في شمال اليابان أو جنوبها أو وسطها وبغض النظر عن الحالة الاقتصادية لهذه المنطقة، حيث تُقرر وزارة التعليم اليابانية الإطار العام للمقررات الدراسية في المواد كافة بل ويُفصَّل محتوى ومنهج كل مادة وعدد ساعات تدريسها ..."[3].

المطلب الثاني: روح الجماعة والعمل الجماعي والنظام والمسؤولية

"... يركز النظام الياباني للتعليم على تنمية الشعور بالجماعة والمسؤولية لدى التلاميذ والطلاب تجاه المجتمع بادئًا بالبيئة المدرسية المحيطة بهم، مثل المحافظة على المباني الدراسية والأدوات التعليمية والأثاث المدرسي وغير ذلك. فمن المعروف عن

---

[1] انظر للمزيد المراجع السابقة على صفحات الإنترنت عن خصائص التعليم الياباني.

[2] http://www.ibe.unesco.org/fileadmin/user_upload/archive/Countries/WDE/2006/ASIAand the_PACIFIC/Japan/Japan.pdf و**التربية في اليابان المعاصرة**، ص٣٢–٣٣؛ و**التعليم الياباني والتعليم الأمريكي**، ص٤٣–٥٤؛ وبحوث الندوة العالمية حول أهداف تعليم البنات في اليابان في:

http://home.hiroshima-u.ac.jp/cice/JEF2report1e.pdf

http://www.studyinjapan.org.my/04_study/04_study2_qna.html

[3] http://www.saudiembassy.or.jp/Ar/Education/Ed_n_jp_Car.htm

المدارس اليابانية المحافظة على نظافة المدرسة ... ومن الشائع في المدارس اليابانية أيضًا، أن يقوم التلميذ عند نهاية اليوم الدراسي بكنس وتنظيف القاعات الدراسية بل وكنس ومسح الممرات بقطع قماش مبللة. بل وأكثر من ذلك غسل دورات المياه وجمع أوراق الشجر المتساقط في فناء المدرسة والقمامة إذا وجدت!. وكثيرًا ما ينضم إليهم المدرسون في أوقات معينة لإجراء نظافة عامة سواء للمدرسة أو للأماكن العامة أيضًا مثل الحدائق العامة والشواطئ في العطلة الصيفية، وذلك بدون الشعور بالضِعة سواء من التلاميذ أو المعلمين ... وهذا النظام لايعوّد التلاميذ الروح الجماعية فحسب، بل القيادة التي تتجلى أيضًا في تعيين شخصية مراقب الفصل أو رائده والذي يقوم في وقت غياب المدرس بتهيئة الفصل وتنظيمه وحل مشكلاته بما فيها مشاكل التلاميذ فيما بينهم. ثم أخيرًا في نهاية اليوم الدراسي يقوم التلاميذ بعقد جلسة جماعية حيث يجتمعون ويسألون أنفسهم فيما إذا كانوا قد أتموا عملهم اليوم على أكمل وجه أم لا؟"[١].

المطلب الثالث: الجد والاجتهاد أهم من الموهبة والذكاء

"....يُركز اليابانيون على مبدأ "الجد والاجتهاد أهم من الموهبة والذكاء الفطري للطفل" وهو على عكس ما هو معروف في كثير من الدول، ويتضح ذلك أيضًا من كثرة استخدامهم كثيرًا للكلمات التي تدل على الاجتهاد والمثابرة باللغة اليابانية مثل كلمة: "سأبذل قصارى جهدي" "ganbarimasu"، "سأعمل بكل جدية" "isshookenmei yarimasu". فالطلاب اليابانيون يؤمنون بنصح مدرسيهم وآبائهم بأن النجاح بل والتفوق يمكن أن يتحقق بالاجتهاد وبذل الجهد وليس بالذكاء فقط، فالجميع سواسية وخلقوا بقدر من الذكاء يكفيهم...فكل شخص يستطيع استيعاب ودراسة أي شيء وفي أي مجال وتحقيق قدر كبير من النجاح فيه من خلال بذل الجهد. ولذلك يستطيع الطالب أن يدرس أي مقرر دراسي حتى ولو كان لا يتناسب مع ميوله طالما توفرت العزيمة على بذل الجهد والمثابرة. فالنجاح والتفوق لا يتحددان باختلاف الموهبة والذكاء ولكن بالاختلاف في بذل الجهد...وهذا يؤكد مدى المثابرة والجد في تحقيق ما يصبو إليه الطالب. ويؤكد أيضًا المقولة اليابانية الشهيرة: yontoo goraku «أربع ساعات نجاح، خمس ساعات رسوب» أي «أربع ساعات نوم تعني النجاح، بينما خمس ساعات نوم تعني الرسوب» أي لتحقيق النجاح لا ينبغي النوم أكثر من أربع ساعات في اليوم"[٢].

المطلب الرابع: الكم المعرفي وثقل العبء الدراسي

"... ومن المعروف أن نظام السنة الدراسية اليابانية يختلف عن معظم دول العالم حيث تبدأ الدراسة في الأول من شهر أبريل الميلادي وتنتهي في واحد وثلاثين مارس من العام التالي. ويعتبر عدد الأيام الدراسية وعدد الساعات في السنة أطول عددًا مقارنة بأي دولة أخرى، حيث يبدأ اليوم الدراسي عادة للطلاب من الساعة الثامنة صباحًا حتى الساعة الرابعة تقريبًا، أما المعلمون فعملهم حتى الساعة الخامسة ولكنهم يظلون في عملهم حتى السادسة والسابعة مساء. بالإضافة إلى ذلك تقل

[١] انظر للتوسع المرجع السابق.

[٢] http://www.saudiembassy.or.jp/Ar/Education/Ed_n_jp_Car.htm بتصرف شديد.

عدد العطلات التي تنقسم إلى عطلة الربيع والتي لا تزيد على عشرة أيام، وكذلك نفس المدة لعطلة بداية السنة الميلادية، ثم العطلة الصيفية التي تتراوح من أربعين يومًا حتى الشهر والنصف....".

المطلب الخامس: الحماس الشديد من الطلاب وأولياء الأمور للتعليم وارتفاع المكانة المرموقة للمعلم

"فقد ركز الصينيون منذ القدم على أهمية التعليم، حيث كانت قوة الحكام قديمًا تقاس بما يتمتعون به من علم ومعرفة، وكان اختيار كبار موظفي الدولة أيضًا على أساس ما يتمتعون به من معارف. وهذه الأفكار هي نتاج الكونفوشيوسية للفيلسوف الصيني «كونفوشيوس»، وهي فلسفة أكثر منها ديانة ولكنها تأخذ طابع الطقوس الدينية قليلاً. وقد تأثرت بها الصين وكوريا واليابان أيضًا. وتركز هذه الفلسفة على نظام اجتماعي على أساس قواعد أخلاقية يحكمه حكام ذوو علم ومعرفة وخلق كريم، ويكون الولاء لهؤلاء الحكام والآباء ومن في حكمهم هو دعامة هذا النظام"[1].

لقد اتضح لنا مما سبق عن خصائص النظام التعليم الياباني جملة من تلك المعاني الغائبة والمهمشة للوسطية في مدارسنا وجامعاتنا العربية من حيث: القوة والمركزية والاتقان والأمان والتميز. وعلاوة على ما ذكر، فقد ذكر الخبراء والمحللون أن النظام التربوي الياباني أيضاً:يستمد أهم مقوماته من طبيعة مجتمعه وروح أمته، كما أنه يستمد نهضته الحديثة من جذوره ومؤسساته وتقاليده المتأصلة والقائمة. إن التعليم في اليابان يعد خدمة وطنية عامة وواجبًا قوميًا يتجاوز أي جهد فردي أو فئوي خاص، إذ لا يسمح فيه بتعددية المناهج والفلسفات التربوية. لم تأخذ اليابان بالنزعات الليبرالية والسيكولوجية الغربية بل ظلت متمسكة بقيم الانضباط الموحد في الفكر والسلوك رغم الضغط المعاكس من الاحتلال الأمريكي ورغم النقد الغربي لها. إن نقطة القوة الأساس في النظام التربوي الياباني ليست جامعاته، بل معاهده التقنية المتوسطة التي تمثل عموده الفقري، والممارسة العملية التدريبية، هي أهم وأبرز واجبات الياباني منذ طفولته عندما يقوم بتنظيف صفه ومدرسته إلى ما بعد تخرجه عندما يبدأ من جديد التدريب الوظيفي في برامج إجبارية قبل أي منصب ثابت. ولم تتأثر اليابان ولم تنبهر باللغات الأجنبية [2]، وحسمت معركة اللغة تعليميًا وحياتيًا منذ البداية. فمن المعروف أنه لا يمكن لأمة أن تبدع علميًا إلا بلغتها الأم، ولا يستمع العالم لأمة تتحدث بلغة غيرها. إن انفتاح اليابان على الحضارات والثقافات الأخرى كانت منضبطة، فهي استفادت من الحضارات الأوربية أو الأمريكية ولم تتخلى عن عاداتها وتقاليدها. تعد مهنة التدريس من المهن المربحة اقتصاديًا، فمن بين خمسة يابانيين يتقدمون لمهنة التدريس يفوز واحد منهم فقط بشرف المهنة وامتيازاتها المعيشية. وقد أدى ذلك إلى الحفاظ على مستوى نوعي متفوق للتعليم الياباني.

[1] http://www.saudiembassy.or.jp/Ar/Education/Ed_n_jp_Car.htm

[2] وهذا بخلاف ما شاهدناه ونشاهده في الوطن العربي ودول الخليج للأسف الشديد حيث ترى لدى أغلب شرائح الناس في المجتمع وفي المؤسسات التعليمية لدى الإداريين والطلاب والطالبات أنهم يفضلون اللغة الإنكليزية على اللغة العربية في المحادثة، بل تجدهم يفتخرون بذلك ويحظى المتحدث باللغة الإنكليزية احتراما وتأييدا عظيما!؟ انقلاب في المعايير وتجرد من الهوية الدينية وانسلاخ من الثقافة العربية والإسلامية.

المطلب السادس: من أخلاقيات التلاميذ والمعلمين في اليابان وسلبيات النظام التعليم الياباني

منذ السنوات الأولى للدراسة يتولى الأطفال المسؤوليات المختلفة، فيتبادل الأطفال فيما بينهم وبشكل دوري وظيفة مراقب الفصل المنوط به تحقيق النظام فى الفصل وجمع الطلبة ومناقشة أي مشاكل مدرسية تخصهم وذلك ليتعلموا فن القيادة. لكل طالب أدواته الخاصة، حيث يقوم الطلاب بتنظيف أسنانهم بعد كل فسحة. كما أن الفصول مليئة بوسائل الإيضاح والشعارات المبهجة مثل : "سنبذل وسعنا في كل شيء"، "كن نشيطاً ومرحاً وودودًا ومعينًا للآخرين". في الوقت الحالي عندما يدخل المدرس إلى الفصل يقف جميع الطلاب وينحنون احتراماً كبيراً ثم يقول الطلاب عبارة : "يا معلمنا نرجو أن تتفضل علينا وتعلمنا"، وهو رجاء يفوق الاحترام العادي له معنى أدق وأعمق في المبالغة في الاحترام، ولهذا يعتبر فخرياً يطلق على الأطباء وأعضاء البرلمان.

وذكر المراقبون والخبراء أن لدى التلاميذ البابانيين جلسة تسمى بـ: جلسة الاعتراف، أو المحاسبة النفسية أو الجماعية، حيث يراجع التلاميذ يومهم بشكل دقيق، ويطرح قائد جماعة التلاميذ هذه الأسئلة:

١. هل قمنا بعملنا على ما يرام اليوم؟ فيجيب الآخرون: بـ: نعم، أو: لا

٢. فيرد القائد: وهل أحسنا استخدام وقتنا تماماً؟ فيجيب التلاميذ بـ: نعم، أو: لا

٣. ويختتم رائد الفصل تساؤله قائلاً: وهل أعدنا كل الأدوات إلى أماكنها؟

٤. يجيء الرد بالإيجاب أو السلب، و في الغالب يكون الرد من التلاميذ إيجابياً[١].

هذا؛ إي وربي هو عين الاتقان وعين الوسطية وعين الجودة في العمل والأداء، وعين الإسلام وروحه وتشريعه؛ محاسبة النفس ومراجعة العمل ونقد الذات أمر مطلوب في الشريعة الإسلامية. وهذه من معاني التوبة الصادقة والتوبة النصوح ذات الأبعاد الفكرية والنفسية والاقتصادية للتوبة. وهذا المعنى المهم للوسطية يكاد يكون منسيا ومغيبا في المدارس والجامعات العربية.أدرك حقيقتها وقيمتها والتزموا بها اليابانيون وغفل عنها المسلمون. إن هذا لشيء عجاب؟!

إذن، يمكن أن نقرر أن هذا النظام التعليمي البشري الياباني مهما ارتقى وتفوق إلا أنه يظل في حدود وإطار القدرة الإنسانية القاصرة عن بلوغ الكمال المطلق، فعلى المسلمين التركيز على الجوانب الإيجابة والمشرقة من هذا النظام والتجنب من جوانبه المظلمة، مثل حالات الانتحار بسبب الفشل أو الرسوب، وهذا لا يعني أن الإنسان إذا فشل في جانب معين أن يكون فاشلاً في جانب آخر ! و أن المسلمين يدركون و يعتقدون بأنه متى ما سُدَّ باب للرزق يفتح الله باباً أو أبوابا أخرى للرزق، فتنبّهْ إلى هذه الحقيقة حفظك الله، والله أعلم.

[١] http://osakaglobal.jp/en/education/study_japanese.shtml

الخاتمة ونتائج المقارنة

نقول وبالله التوفيق والهداية:

	النظام التعليمي الياباني		المعاني المغيبة والمنسية
	أفكاره وقيمه تقوم على احترام كبير للكونفوشية..		قيمه تقوم على احترام نسبي وليس الكلي لمبادئ الإسلام
	يتمتع بنظام تعليمي عالي المركزية، حيث جرى تصميمه على نمط النظام الفرنسي والألماني وهناك ثقة مطلقة في المناهج الدراسية التي تضعها الوزارة والحكومة المركزية. فسواء كان الطفل أو التلميذ يعيش في أوساكا أو طوكيو فإنه سيحظى وبصفة أساسية بالمستوى نفسه من المساندة والدعم ونوعية التدريس...		لا يتمتع بنظام تعليمي عالي المركزية، والثقة بالوزارة نسبية ليست قوية..بل وترى بعض الوزارات في الخليج تقرر إلى هذه اللحظة كتبا تجريبية .. نسخة تجريبية ..؟! أين التميز والإبداع؟! أين حقيقة الوسطية؟! أين الإبداع والاتقان؟! المدارس الخاصة، المدارس النموذجية، المدارس المستقلة، المدارس الحكومية...؟!!!
	المدرسة تمنع طلابها من العمل الجزئي بعد نهاية اليوم الدراسي...		المدرسة لا تتدخل في شؤون الطالب بعد الدوام. كثيرون هو الذين يعملون سواء من الأساتذة أو التلاميذ لمواجهة ظروف المعيشة الصعبة..؟! أين الإتقان؟ أين التركيز؟ أين الإبداع؟!
	تشترط المدارس ارتداء طلابها زياً موحداً، ويمنع الطالبات من استعمال أي نوع من مستحضرات التجميل حتى إن شعرهن تفصل تفصيلاً دقيقاً كما للأولاد، كما أن المدارس الثانوية كافة تحرم على طلابها دخول المقاهي وصالات التسلية التي فيها أنشطة القمار، وتكون المدرسة الجهة الأولى في الإبلاغ من قبل الشرطة إذا كان أحد طلابها في مأزق أو مشكلة...		هذا المعاني الحقيقية للوسطية شبه منسية وشبه مغيبة ومهمشة في المدارس والجامعات العربية إلى لحظة كتابة هذه السطور وأنا شاهد على ذلك. نعم هنالك زي موحد لدى أغلب المدارس. بينما مسألة استعمال المستحضرات التجميلية فلا يمكن وصف حال أكثر الطالبات اللائي يحضرن إلى الجامعة بسبب كثرة استعمال المكياج؟! بينما مقاهي الانترنت والاستراحات تكتظ بطلاب المدارس والجامعات..!؟
	لا يحق للمرء في اليابان أن يمتلك سيارة قبل		هذا المعنى للوسطية أي الاستقامة والأمان

	بلوغ سن ١٨ ولا يسمح للطالب أن يقود سيارة إلى المدرسة ثم إلى البيت، ورغم سماح السلطات بامتلاك الدراجة النارية عند بلوغ سن ١٦ إلا أن كثيراً من المدارس تمنع طلابها من الإقدام على ذلك.		والبعد عن الخطر غائب في الوطن العربي والإسلامي تماماً، حيث ترى التلاميذ يجيدون قيادة السيارات منذ نعومة أظفارهم رغم النتائج السلبية وكثرة الوفيات بسبب الحوادث الكثيرة والتهور في القيادة وعدم المسؤولية واللامبالاة.
	الطلاب اليابانيون يطمحون في الدخول إلى المدارس والجامعات الجيدة رغم كثرة التنافس والضغط الكبير، فهم حتى عطلة الأسبوع يقضون أوقاتهم في المدارس الأخرى للتقوية بالمعلومات...فالتلميذ أو الطالب ملتصق شديد الالتصاق بالمدرسة لا يعرف الملل منها....		هذا المعنى المنسي للوسطية، أي التميز وحب العلم والتعلم في المدارس والجامعات العربية ٢يلاحظ نسبيا، حيث الغياب الكثير والملل الكبير والانتظار بفارغ الصبر للخروج من المدرسة والفرح في نهاية الأسبوع والعدم الحضور في ذلك اليوم..أمر لا يناقش؟! وأما حرصهم على الدخول في الجامعات فهناك إقبال كبير في الآونة الأخيرة...
	العطلة الصيفية اليابانية ليست مجرد عطلة. الطلاب اليابانيون يكلفون بأعمال وواجبات صيفية يتطلب إكمالها جهداً كبيراً، وأحياناً يكلفون بمشاريع تتطلب تعاون الأسرة و يأخذ اليابانيون مأخذ الجد هذه الواجبات..		هذا المعنى للوسطية، أي التميز والإبداع واستغلال لأوقات الفراغ، مغيب ومهمش في النظام التعليمي العربي، وتمر العطل الصيفية دون إنجاز أي شيء من قبل التلاميذ أو الطلاب إلا ما ندر ... الإجازات الصيفية مقدسة في عقلية الطالب والتلميذ العربي المسلم...؟!

المصادر والمراجع:

١. أحمد، سمير عبد الحميد القطب، **ظاهر عنف الشباب في المجتمع العربي: أسبابها وسبل علاجها من منظور تربوي – دراسة مسحية**، (بالمدينة المنورة: جامعة طيبة، الندوة العالمية بعنوان الشباب الجامعي والتصدي للإرهاب، ٢٠٠٤م).

٢. إدوارد، بيو شامب، **التعليم الياباني والتعليم الأمريكي – دراسة مقارنة**، ترجمة أ. محمد طه علي، (الرياض: السلسلة العالمية للتعليم، ط٢، ٢٠٠٢م).

٣. إدوارد، بيوشامب، **التربية في اليابان المعاصرة**،ت-د. محمد عبد الحليم مرسي، (مكتب التربية العربي للدول الخليج، ١٤٠٦هـ).

٤. الألباني، محمد ناصر الدين، **ضعيف سنن ابن ماجة**، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٨هـ).

٥. بادحدح، علي وزملاؤه، **الثقافة الإسلامية**، (دار حافظ، ط١، ١٤٢٥هـ).

٦. بالعمش، فيصل سعيد وزملاؤه، **الثقافة الإسلامية**، (جدة: جامعة الملك عبد العزيز – مركز النشر العلمي، ط١، ٢٠٠٧م).
٧. بكار، عبد الكريم، **عصرنا والعيش في زمانه الصعب**، (دمشق: دار القلم، ط٢، ٢٠٠٤م).
٨. بيغووتش، علي عزت، **الإسلام بين الشرق والغرب**، (مجلة النور الكويتية، ط١، ١٩٩٤م).
٩. حسنه، عمر عبيد، **الثقافة المطلوبة حتى نكون في مستوى إسلامنا**، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط١، ٢٠٠٦م).
١٠. **السياسة التعليمية للملكة العربية السعودية**، الهدف رقم: ٢٧
١١. الشميمري، أحمد بن عبد الرحمن، **كيف تكون مدرساً ناجحاً – ٣٠٠ نصيحة للمدرسين والمدرسات**، (دار المجد، ط١، ١٤١٥هـ). الرياض– المملكة العربية السعودية
١٢. علوان، عبد الله ناصح، **الشباب السلم في مواجهة التحديات**، (دمشق: دار القلم، ط٤، ٢٠٠٢م).
١٣. الغزالي، محمد، **سر تأخر العرب والمسلمين**، (دمشق: دار القلم، ط٢، ٢٠٠٥).
١٤. القرضاوي، يوسف، **الخصائص العامة الإسلام**، (مؤسسة الرسالة، ط١٠، ١٩٩٧م).
١٥. القرضاوي، يوسف، **ثقافة الداعية**، (القاهرة: مكتبة وهبة، ط ١٣، ٢٠٠٤م).
١٦. القرضاوي، يوسف، **ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق**، (در الشروق، ط٢، ٢٠٠٥م).
١٧. الكيلاني، ماجد عرسان، **التربية والتجديد وتنمية الفاعلية عند المسلم المعاصر**، (بيروت: مؤسسة الريان، ط١، ١٩٩٧م).
١٨. **ظاهرة الإرهاب بين التشخيص والعلاج**، مجلة "**الحكمة**" الصادرة في مانشستر –بريطانيا، العدد ٣٧، رجب ١٤٢٩هـ.
١٩. **مجلة الأمن**، وزارة الداخلية، العدد ١٦ جمادى الأولى سنة ١٤١٩هـ.
٢٠. المرصفي، سعد، **الثقافة الإسلامية و أثرها في تكوين الشخصية الإسلامية**، (المنصورة" دار اليقين، ط١، ٢٠٠٤).
٢١. مصطفى، مسلم وزميله، **الثقافة الإسلامية – تعريفها – مصادرها – مجالاتها – تحدياتها**، (الإمارات العربية المتحدة، الشارقة: دار البشير، ط١، ٢٠٠٤م).
٢٢. النحلاوي، عبد الرحمن، **أصول التربية الإسلامية وأساليبها في البيت والمدرسة و المجتمع**، (دمشق: ط١، دار الفكر).
٢٣. هندي، صالح وزملاؤه؛ **الثقافة الإسلامية**، (عمان: دار الفكر، ط٢، ٢٠٠٠م).
٢٤. يالجن، مقداد، **التربية الإسلامية و الطبيعة الإنسانية**، (الرياض: دار عالم الكتب، ط٢، ٢٠٠٢م).
٢٥. يالجن، مقداد، **تربية الأجيال على أخلاقيات وآداب المناقشة والمحاورة والمناظرة العلمية**، (دار عالم الكتب، ط١، ٢٠٠٤م).
٢٦. يالجن، مقداد، **سبل النهوض بالطلاب خلقياً وعلمياً إلى مستوى أهداف الأمة**، (الرياض: دار عالم الكتب، ط١، ١٩٩٩م).
٢٧. يالجن، مقداد، **دور التربية الأخلاقية الإسلامية في بناء الفرد والمجتمع والحضارة الإنسانية**، (بيروت: دار عالم الكتب، ١٤١٦هـ).
١) James J. Shileds, **Japanese Schooling: Patterns of Socialization, Equality and Political Control**, 3rd ed. The Pennsylvania State University Press, 1993.
٢) Robert, Albanese, **Managing: Toward Accountability for Performance**, 3rd ed, Homewood, Illions, 1981.
٣) Peak, Lois, **Learning to go to School in Japan** Berkely & Los Angeles, University of California Press, 1991.

الغلو في فقه الجهاد

مجد مكي[1]

ملخص البحث:

موضوع الجهاد من أهم الموضوعات التي تحتاج إلى تصحيح لكثير من المفاهيم المغلوطة والتطبيقات الخاطئة، وقد كتب الكثيرون في هذا الموضوع، ومن أهم تلك الدراسات: كناب شيخنا العلامة الفقيه المجدِّد الدكتور يوسف القرضاوي "فقه الجهاد" في مجلدين كبيرين. وفي كتابه –كشأنه في كل ما يكتب– اتِّباع للمنهج الوسطي الذي يقف بين الغلاة والجفاة، وبين المعتدلين والمُتشدِّدين، وبين الجحود والتطرف. وتفصيل ما صحَّحه الشيخ من مفاهيم مغلوطة، وما رجَّحه من مسائل مشكلة حول "فقه الجهاد" يطول، ويخرج عن سياق هذه الورقات المختصرات في هذا البحث. وقد أحببت أن أشير لبعض المفاهيم التي تنحرف عن المنهج الوسط إشارة موجزة. وذكرت بعض المفاهيم التي تحتاج إلى تصحيح وتقويم، ثم تكلمت عن أهم الخطط في إفساد مفاهيم الجهاد وتطبيقاته، مثل: ١– خطة الربط الدوري بين ركن الجهاد في سبيل الله بالقتال وبين إقامة الحكم الإسلامي. ٢– وخطة التوريط والإحباط. ٣– وخطة تقديم صور مصطنعة من جهاد منفر يحمل شعار جهاد إسلامي وهو ليس منه منهجاً ولا غاية. وأسأل الله تعالى سداد القول والعمل، والنفع فيما كتبت، وأن يستعملنا في طاعته ومرضاته.

تصحيح مفاهيم في فقه الجهاد في سبيل الله

تمهيد في تعريف الجهاد ومجالاته والنصوص القرآنية فيه وَفق مراحل النزول:

الجهاد لغة: كالمجاهَدَة، وفيه معنى المغالبة والمنافسة لمعارض يبذل جهدا. وهذا ما تدل عليه صيغة: (فاعل يفاعل مفاعلة وفعالا) كقاتل يقاتل مقاتلة وقتالا.

والمراد من الجهاد في سبيل الله: أن يبذل المؤمن في سبيل الله مما يملك من جهد أو طاقة أو مال، وأن يكون ذلك البذل في سبيل الله حقًّا، لنشر دين الله والدعوة إليه، أو إقامة شرعه ومنهاجه ابتغاء رضوانه.

مجالات الجهاد في سبيل الله:

١– بذل المال في سبيل الله وتوفير المال اللازم لكل أبواب الجهاد وأنواعه.

٢– بذل طاقة الفكر في البحث لنصرة دين الله.

٣– الجهاد البياني: ببذل قدرات اللسان في البيان النافع المؤثر، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة. ومن مجال الجهاد في مجال اللسان: كفه وضبطه، والصمت حين يكون الصمت واجبا والكلام ضارا.

وضبط اللسان يحتاج إلى جهاد نفسي كبير وإرادة قوية.

---

[1] الباحث في مركز القرضاوي للوسطية والتجديد، في كلية الدراسات الإسلامية بجامعة حمد بن خليفة.

٤- ومن الجهاد البياني أيضًا: بذل قدرات الكتابة والتأليف مما يخدم قضايا الأمة والعلم والدين.

٥- بذل حركة الجسد في المشي والسعي والسفر، ابتغاء مرضاة الله.

٦- التضحية بشهوات النفس ولذّاتها وراحتها والانصراف لخدمة قضايا الأمة المسلمة.

٧- إعداد القوى المستطاعة المادية والمعنوية.

٨- الجهاد السياسي، ببذل الجهد لتكون دعائم الدولة على أسس من مبادئ الإسلام، وقواعده العامة الشاملة، وأن تكون الحاكمية فيها لله سبحانه وحده.

9-الجهاد الاقتصادي، ببذل الجهد لتحقيق القوة الاقتصادية، وإنعاش الاقتصاد، وتحقيق الكفاية المادية للأمة الإسلامية.

١٠- الجهاد القتالي: ببذل الجهد عن طريق المدافعة أو القتال في حماية دار الإسلام ودعوة الإسلام، وإزالة الحواجز والعقبات من طريق الدعوة الإسلامية؛ حتى تبلِّغ كلمتها إلى العالم، وردع المعتدين ومنعهم من الأذى والفساد[١].

أهداف الجهاد القتالي في الإسلام:

1- حماية الدعوة وتأمين انتشارها:

لقولِه تبارك وتعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:١٩٣].

2- حماية دار الإسلام:

من أهداف الجهاد القِتالي الدِّفاع لردِّ اعتداء المعْتدين على أرض المسلمين؛ يقول الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنْكَ نَصِيرًا﴾ [النساء:٧٥].

3- المحافظة على العهود والمواثيق:

فيجِب الحفاظ عليها والالتزام بها وعدم التلاعب بها أو نقضها، فالعهود التي أُبْرِمت في عهد النبي ﷺ، سواءٌ كانت مع قريش أم اليهود، نقَضَها أصحابُها ونكثوها؛ فلذلِك قاتَلَهم رسولُ الله ﷺ فقاتَلَ يهودَ قُرَيْظة وقريشًا لمَّا نقضوا عهودهم.

وفي قتال مَن نكثَ عهْدَه يقول الله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوا أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ * أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَأُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:١٣-١٤].

---

[١] شمولية معاني الجهاد يجعل ترجمته إلى اللغات الأخرى أمرًا صعبًا وضارًّا، حيث تفرغه تلك الترجمة من مضمونه ومعناه السامي، وتشوّه معناه؛ كما حدث لترجمته إلى اللغة الإنجليزية التي أطلقت عليه اسم الحرب المقدسة (Holy War)، حيث عمَّمت بابًا واحدًا من أبوابه الكثيرة، أو نوعًا واحدًا من أنواعه المختلفة، وسدَّت باقي أبواب الجهاد، وطمست بقية الأنواع.

4- درء الفتنة ومنْع البغْي في الدَّاخل والخارِج:

كالرِّدَّة والحرابة والبغْي، كذلك إذا بغتْ فئة، وخالفتْ جماعةَ المسلمين، وأرادت الفساد في الأرْض، وجَبَ قِتالُها حتَّى ترجع إلى أمر الله تعالى.

ففي "الفتنة: والفتنة أنواع، أعظمها: ما يُمارسه الكفَّار من تعذيب المستضْعفين من المؤمنين وتضْييق الخناق عليهم ليرتدُّوا عن دينهم؛ كما تقدم في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً﴾ [النساء:٧٥].

وفي الحرابة، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة:٣٣].

وفي بغي فئةٍ على فئةٍ، يقول سبحانه: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩].

فالجهاد القتالي في الإسلام عبادة يتطوَّع بها المسلم بدمه وماله لنصرة دين الله، وترسيخ شرْعِه ونظامه في هذه الدنيا.

وليس القصْد في الجهاد الانتِصار ولا الغلبة والسَّيْطرة على مناطق النُّفوذ، ولا بسط السلطان على أكبر مساحات من الخامات، كلاَّ، القصْد فيه مرضاة الله، بنشْر دينه وتطبيق شرعه.

حينما يرْقى المسلِمون في جهادِهم إلى هذا المستوى، يصْبحون جديرين بنصْر الله، وإنجاز وعده، والقوَّة المادِّيَّة المجرَّدة، لا غناء للإنسانيَّة فيها، إن لم يصنعها الإيمان، ويفجِّرها اليقين، وتثبتها إشعاعات من روح الله"[1].

إنسانيةُ الجهاد في سبيل الله وأخلاقيته:

"الجهاد في سبيل الله"، تعبير جديدٌ على المجتمع الجاهلي العدوانيِّ، و"سبيل الله "من التعبيراتِ التي ألحَّ عليها القرآنُ، وكرَّرها أكثرَ من مائةِ مرة. الجهاد في سبيل الله ليس قتالاً للتخريب والتدمير، والغنْم والسَّلب، ولكن في سبيل الله، والمستضعفين من الرِّجال والنساء والوالدان.

وهو قتالٌ كان في أغلبه دفاعيًّا: دفاعًا عن النفس والأرض والعقيدة: ﴿فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ [البقرة:١٩١].

والسلام هو الأصل، أما القتال فهو الاستثناء، أو "تصرف الضرورة"، وقد ظلَّ المسلمون يتحمَّلون الأذى والهوان ثلاثة عشر عامًا، ولم يؤْذَنْ لهم في القتال إلا بعد ذلك، ثم بعد الأمر بالقتال: ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال:٦١].

والمؤمن مطالَبٌ أن يكون إنسانًا في القتال: فلا يحرق، ولا يدمِّر، ولا يُجهِز على جريح، ولا يقتُل شيخًا ولا طفلاً ولا رجلَ دِين.

النصوص القرآنية في الجهاد وَفق مراحل النزول:

[1] محمد فوزي فيض الله، **صور وعبر من الجهاد النَّبوي بالمدينة**، ص١٨١-١٨٢.

ذكرت كلمة (الجهاد) ومشتقاتها في ٣٧ آية، واستعراضها بالتفصيل وبيان مدلولاتها ومعانيها، يدخل في التفسير الموضوعي، ويخرج عن هذا التمهيد المختصر. وأكثر من كتب في "فقه الجهاد" لم يستقرأ هذه الآيات، ولم يرتبها حسب تاريخ نزولها في المرحلة المكية والمدنية[1].

١- وأول النصوص في الجهاد نزل في أواسط المرحلة المكية في سورة الفرقان: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٥٠) وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢)﴾.

والمعنى كما في تفسيري "المعين": "ونقسم مؤكِّدين لكم أننا نوَّعنا في القرآن أساليب الحُجَج والبراهين والإقناعات بحسب اختلاف طبائع الناس ومستويات أفكارهم وأفهامهم واستعداداتهم؛ ليضعوا البيانات الربانيَّة في ذاكرتهم، وليعملوا بوصاياها، فأبى أكثر الناس إلا سَتْراً للحقِّ وبراهينه بالجحود والعناد.

ولو شِئْنا لبعثنا في كلِّ قريةٍ رسولاً يُنذرهم بعقاب الله المعَجَّل والمؤَجَّل، ولكن بعثناك -يا رسول الله - إلى الناس أجمعين، وحمَّلناك ثِقَل النِّذارة؛ لِتَسْتوجب بصَبْرك ما أعددنا لك من الكرامة والدرجة الرفيعة. فلا تُطع الكافرين فيما يدعونك من موافَقتهم ومداهنتهم، ولا تتأثّر بمقترحاتهم وتشكيكاتهم، وجاهد الكافرين بمفاهيم القرآن وحُجَجه وبراهينه جهاداً كبيراً بالمتابعة والصَّبر ومضاعفة الجهد"اهـ.

والجهاد الكبير يكون باستخدام أدلة القرآن وأساليب بيانه وشرح حُججه وجَدَلياته، وطرائق ترغيبه وترهيبه، واتباع منهجه في الدعوة إلى الله.

وهذا الجهاد بالقرآن يجب أن يكون جهادا كبيرا ومستمرا . فالجهاد بالفكر هو الأساس والقاعدة، وأما الجهاد بالأسلحة المادية فضرورة يوجبها الصِّراع الذي يفرضه الطغاة والمفسدون في الأرض.

وهو يشبه في الطب العمليات الجراحية الخطيرة ، ويشبه في الدفاع المدني عمليات إطفاء الحريق.

وآخر الآيات نزولاً في المرحلة المدنية: عشر آيات في سورة التوبة فيها ذكر الجهاد، ومنها: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣)﴾.

وهذه الآية مطابقة لآية سورة التحريم المتقدِّمة نزولا؛ يفيد أن موقف الكافرين والمنافقين ما زال يحتاج إغلاظًا وعنفًا. وفي سورة التوبة آيات تتصل بكل أنواع الجهاد للكافرين والمنافقين، وأن تعاظم حملات الجهاد بالقتال لا يُلغي ولا يوقف أنواع الجهاد الأخرى .

وسورة التوبة لم ينزل بعدها من السور المدنية إلا سورة النصر.

وباستقراء نصوص الجهاد في سبيل الله في المرحلة المدنية، وبعد نزول قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦]، نجدها تدلُّ على أنها ذات حركيّة، توجِّه للجهاد القتالي، ولجهاد الدعوة، بما يلائم الوضع ومقتضياته.

وهذه أهم المفاهيم المرتبطة بالجهاد التي يغلو البعض في فهمها وتطبيقها:

---

١ استقرأت هذه الآيات وكتبت عنها بحثًا مطولًا يخرج عن نطاق هذا البحث الموجز، ويحتاج إلى مزيد من الدراسة المتأنية مع مصطلح القتال في القرآن ، والحرب أيضًا.

١- حصر الجهاد في الجهاد القتالي فقط:

كلمة (الجهاد) -كما جاءت في الكتاب والسنة- أوسع دائرة وأبعد مدى في المعنى من كلمة (القتال). والقتال: استخدام السلاح في مواجهة الأعداء، وهو مفهوم كلمة (الجهاد) عند الكثيرين. هذا مع أنه مختلف في اشتقاقه، وفي معناه اللغوي عن الجهاد. وكلمة (الجهاد) تعني: بذل المسلم جهده وَوُسعه في مقاومة الشر ومطاردة الباطل، بدءًا بجهاد الشر داخل نفسه بإغراء شيطانه، وتثنيةً بمقاومة الشر داخل المجتمع من حوله، منتهيًا بمطاردة الشر حيثما كان، بقدر طاقته.

٢- جهاد النفس وهل ينبغي حذفه من باب الجهاد؟

لا يسمّى جهاد النفس (الجهاد الأكبر)؛ لأنه مبنيٌّ على حديث مكذوب مفترىً على نبيِّ الإسلام. وأما حذف موضوع الجهاد بالنفس بالكلية من كتاب (الجهاد)- كما قال بعض الباحثين- فليس له من ضرورة، إذا وُضع في موضعه، وأخذ حجمه المناسب بلاَ وكْس ولا شَطَط، كما يُبحث موضوع الجهاد باللسان، والجهاد بالمال، وجهاد الظلم والفساد، والجهاد المدني، وكلها أنواع من الجهاد، ولسنا نحن الذين سمَّيناها جهادًا، فهي إما من تسمية القرآن العزيز أو من تسمية السنة المُشرَّفة.

إنَّ ردنا على الباطل لا يجوز أن يكون بحذف شيءٍ من الحق، مخافة أن يُتَّخذ ذريعة إلى الباطل[١].

فلا يهوَّن أمر الجهاد بترويج حديث: "رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر". فهو حديث ضعيف بإجماع أئمة هذا الشأن، ثم إن الجهاد القتالي لا يخلو من جهاد النفس التي تجنح عادة إلى السلامة، وترغب عن الموت، وأننا لو سلَّمنا بصحة الحديث جدلاً، لكان علينا - بمنطق الحديث نفسه- أن نبدأ بالجهاد الأصغر، مُتدرِّجين إلى الجهاد الأكبر. وما صحَّ عن رسول الله. قد بيَّن لنا: أن القتال في سبيل الله هو أعلى مراتب الجهاد.

فلا ينبغي حصر الجهاد في الإسلام في القتال وحده، فإنما هو نوعٌ واحد من أنواع الجهاد، وإن كان أشدها وأعظمها خطرًا[٢].

٣- مفهوم الجهاد أو التغيير بالقلب:

وفي مرتبة جهاد الظلم والمنكر في الداخل: أنَّ التغيير أو الجهاد بالقلب ليس موقفًا سلبيّا كما يفهمه بعض الناس، وإنما معناه: غليان القلب غضبًا على المنكر، وكراهيةً للظلم، وإنكارًا على الفساد. وهذه الشحنة القلبية الوجدانية الانفعالية: رصيدٌ مهم لأيِّ تغيير عمليٍّ مرتقب، لأن التغيير لابدَّ له من مقدِّمات ودوافع نفسيَّة، تُغْري به، وتدفع إليه[١].

[١] ينظر: القرضاوي، **فقه الجهاد**، ج١، ص١٦٨، ١٦٩.

[٢] ينظر: المصدر السابق، ج١، ص١٨٤.

٤- الردة والخيانة العظمى:

من أعظم مراتب جهاد الظلم والمنكر في داخل المجتمع الإسلامي: مقاومة الردة، فهي شبيهة بجريمة الخيانة العظمى بالمعيار الوطني، لأنَّ المرتد إذا غدا داعية للكفر والردة داخل المجتمع، فهذا انقلاب على المجتمع، وتغيير للولاء والانتماء من أمَّة إلى أمَّة.

فالردة ليست مُجرَّد تغيير موقف عقلي، بل هي تغيير للهُويَّة والولاء، وانسلاخ من أمة للانضمام إلى أمة أخرى تخالفها أو تعاديها[٢].

مقاومة الردة والمرتدين فريضة على المجتمع المسلم: مقاومة الردة والمرتدين -ولا سيما إذا كان وراءها غزوٌ عقائديّ أو فكريّ خارجيّ- ضروري للحفاظ على كينونة الأمة وهُويَّتها، ولا سيما إذا كانت الردة جماعية. والذين يقولون: إنَّ الردة في القرآن عقوبتها في الآخرة فقط، واهمون، إذ لم يستوعبوا النصوص، فقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ [المائدة:٥٤]. فهذا تحريضٌ من القرآن لهذا الجيل الذي ادَّخره الله للمقاومة والدفاع عن الأمة وعقيدتها حين يرتد المرتدون، ويمرق المارقون.

وأشد أنواع الردة خطرا حينما تأتي من السُّلطان أو من الدولة التي يفترض أن تكون وظيفتها الأولى حماية عقيدة الأمة. وكذلك (الردة المُغلّفة) التي لا تُصرِّح بالكفر، ولكن تدسُّه كما يدسُّ السمُّ في العسل. وهي الردة الفكرية[٣].

٥- الجهاد بين الهجوم والدفاع:

هناك جهاد فيه خلاف كثير في فرضيته، وهو الذي يُسمُّونه (جهاد الطلب)، وهو طلب العدو في دياره، وتتبُّعه لضربه في عُقْر داره، لأيِّ سبب من الأسباب.

ولكن هناك جهاد لا خلاف عليه. وهو المسمَّى (جهاد الدفع) وهو: جهاد المقاومة والتحرير لأرض الإسلام من الغُزاة المُحتلِّين، الذين هاجموها واحتلُّوا جزءًا منها مهما تكن مساحته[٤].

أنواع مشروعة من جهاد الطلب لا خلاف عليها:

موضع الخلاف بين المعتدلين والمُتشدِّدين، أو بين الدفاعيين والهجوميين كما يُسمِّيهم البعض- أنَّ المعتدلين يقرُّون أنواعا من جهاد الطلب لعدَّة أغراض:

أ- تأمين حرية الدعوة، ومنع الفتنة في الدين.

ب- تأمين سلامة الدولة الإسلامية، وسلامة حدودها.

---

[١] ينظر: ج١، ص١٩٠.

[٢] ينظر: ج١، ص١٩٨.

[٣] ينظر: القرضاوي، **فقه الجهاد**، ج١، ص١٩٨-٢٠٩.

[٤] ينظر: المصدر السابق، ج١، ص٢٥٨.

جـ- إنقاذ المستضعفين من أُسارى المسلمين، أو المُضْطهدين المُعَذَّبين منهم ومن غيرهم.

د- إخلاء جزيرة العرب (بلاد الحجاز) من (الشرك المحارب)، المُتجبِّر في الأرض، حتى تكون معقلاً خالصًا للإسلام[1].

تحرير مَوْضع الخلاف بين الدفاعيين والهجوميين:

يتحدَّد موضع الخلاف بين الفريقين في نقطة واحدة، وهي: غير المسلمين المسالمون، الذين لم يقاتلوا المسلمين في الدين، ولم يخرجوهم من ديارهم، ولم يظاهروا على إخراجهم، وكفُّوا عن المسلمين أيديهم وألسنتهم، فهل يُقاتَل هؤلاء أو لا يقاتلون؟

فريق المعتدلين أو الدفاعيين -كما يسمونهم- يقولون: هؤلاء لا يقاتلون، والأدلة القرآنية والنبوية الكثيرة تؤيد قولهم.

والمتشدّدون، يتخلصون من هذه الآيات المحكمة الكثيرة، بدعوى نسخها بآية السيف، ويقولون: إنَّ الموجب لقتال الكفار، هو الكفر[2].

فلا تلازمَ بين الكفرِ والقَتل، فقد يقعُ المرءُ في الكفر ويحرُمُ قتلُهُ، وقد يُحكَمُ بإسلامه وإيمانِهِ ويجبُ قتلُه.

ادِّعاء الإجماع على فرضية جهاد الطلب:

ما قيل من أن جهاد الطلب وغزو العدو مرة كل سنة، فرض على الأمة، وأنه أمر مجمع عليه، ليس صحيحًا.

وإنما المجمع عليه في هذا المقام أمران:

الأول: أن ينزل العدو ببلد من بلاد المسلمين، فيجب عليهم جهاده، ويجب على الجميع إعانتهم، حتى يهزم.

الثاني: تجهيز الجيوش، وإعداد العدة اللازمة والقوة العسكرية، والقوة البشريَّة المدربة، الكافية لردع العدو[3].

ثم إنَّ إيجاب غزو الأعداء كل سنة- على من يقول به - يخضع لفقه السياسة الشرعيَّة، وهو فقه يتَّسم بالرحابة والمرونة، والقابلية للتطوُّر وتعدُّد وجهات النظر، لأنه يقوم أساسًا على فقه المقاصد والمصالح، وفقه المآلات، وفقه الموازنات، وفقه الأولويات، وفي هذه الألوان من الفقه مجال واسع للاجتهاد الإنشائي، والاجتهاد الانتقائي، واختلاف التنوع، وتعدُّد الأنظار والرؤى، دون نكير فريق على آخر، ما دام يحترم الثوابت، ويرعى الأصول الشرعية، والضوابط المرعية[4].

غزوات الرسول كانت دفاعًا ولم تكن مُبادأة بالهجوم:

وضَّح شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (قاعدة في قتال الكفار)، وتلميذه ابن القيم في أكثر من كتاب له، منها كتاب (هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى)، وكتاب (أحكام أهل الذمة) من أنَّ النبي، إنما كان يقاتل من يحاربه ويقاتله، وأما من سالمه وهادنه فلم يقاتله.

---

[1] ينظر: المصدر السابق، ج١، ص٢٥٩، ٢٦٠.

[2] ينظر: المصدر السابق، ج١، ص٢٦١-٢٦٣.

[3] ينظر: المصدر السابق، ج١، ص٩٣.

[4] ينظر: المصدر السابق، ج١، ص٩٧.

ومن أوضح الكلمات: ما ذكره ابن القيم في "هداية الحيارى" قال: (ومن تأمَّل سيرة النبي صلى الله عليه وسلم، تبيَّن له أنه لم يكره أحدًا على دينه قط، وأنه إنما قاتل مَن قاتله، وأما مَن هادنه فلم يقاتله ما دام مقيمًا على هدنته، لم ينقض عهده؛ بل أمره الله تعالى أن يفيَ لهم بعهدهم ما استقاموا له، كما قال تعالى: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة:٧]. ولما قدم المدينة صالح اليهود وأقرَّهم على دينهم، فلما حاربوه ونقضوا عهده وبدؤوه بالقتال قاتلهم، فمنَّ على بعضهم، وأجْلى بعضهم، وقتل بعضهم، وكذلك لما هادن قريشًا عشر سنين لم يبدأهم بقتال حتى بدؤوا هم بقتاله ونقضوا عهده، فعند ذلك غَزاهم في ديارهم، وكانوا هم يغزونه قبل ذلك، كما قصدوه يوم أحد ويوم الخندق، ويوم بدر أيضًا هم جاؤوا لقتاله، ولو انصرفوا عنه لم يقاتلهم، والمقصود: أنه صلى الله عليه وسلم لم يكره أحدًا على الدخول في دينه البتة، وإنما دخل الناس في دينه اختيارًا وطَوْعًا)[1].

فتوحات المسلمين من الصحابة فمن بعدهم لم تكن لإجبار الناس على الدخول في الإسلام:

الفتح الإسلامي في عهود الراشدين ومن بعدهم، لم يكن هدفه مجرَّد التوسُّع وإخضاع الآخرين، أو إجبارهم على الدخول في الإسلام، بل له أهدافًا عدَّة، وهي:

أ- إزالة الحواجز من طريق الإسلام.

ب- حروب وقائية لحماية الدولة الإسلامية.

جـ- حروب تحرير الشعوب المستضعفة[2].

علة قتال الكفار: عدوانهم على المسلمين وحربهم له:

إن علَّة القتال للكفار هي المقاومة لعدوانهم إذا قاموا بالحرب ضدَّ المسلمين، وليس لمجرَّد كونهم كفارًا. ولو كانت العلَّة هي مُجرَّد الكفر، لوجب أن نقتل النساء والشيوخ والرهبان والحُرَّاث والتجار وغيرهم. ولذا فإنه يحرم قتال المخالفين المسالمين للمسلمين، الذين لم يَبْدُ منهم أيُّ إساءة للإسلام ولا لأُمَّته، لم يقاتلوهم في الدين، ولم يخرجوهم من ديارهم، ولم يظاهروا على إخراجهم، بل ألقوا إليهم السَّلَم، وكفُّوا أيديهم وألسنتهم عن المسلمين، فهؤلاء ليس لهم منا إلا البر والقسط.

أما مَن أساء إلى المسلمين، واعتدى عليهم، فمن حَقِّ المسلمين -بل من واجبهم- أن يقاتلوه، ذَوْدًا عن دينهم وحُرماتهم، حتى يدخل في الإسلام، أو يعطي الجزية عن يد، وهو صاغر، أي: مذعن لدولة الإسلام، وشريعة الإسلام، لا لعقيدة الإسلام، فهذه لا إكراه فيها[3].

هدف مَحْو الكفر من العالم مرفوض شرعًا:

---

[1] ينظر: القرضاوي، **فقه الجهاد**، ج١، ص٣٦١.

[2] ينظر: القرضاوي، **فقه الجهاد**، ج١، ص٣٨٥-٣٩١.

[3] ينظر: المصدر السابق، ج١، ص٤٠٣.

ليس من أهداف (الجهاد القتالي) في الإسلام: مَحْو الكفر من الأرض، ورفضت تفسير بعضهم للفتنة بالشرك والكفر في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة:٣٩١]. وأرى أنَّ هذا الهدف غير وارد قط، لأنهُ مُناقض مناقضةً صريحةً، لما قرَّره القرآن من أنَّ اختلاف الناس في أديانهم وعقائدهم، وانقسامهم إلى مؤمنين وكافرين، ومُوحِّدين ومشركين، كلُّ هذا واقع بمشيئة الله تعالى، التي لا تنفصل عن حكمته، فهو الذي خلقهم مختلفين، أو قابلين للاختلاف في الإيمان. كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩]، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود:١١٨]، ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن:٢].

وبهذا يكون كلُّ مَنْ يعمل لإلغاء الاختلاف في الدين، وسَوْق الناس إلى دين واحد، عاملاً ضدَّ مشيئة الله في الكون، ومثل هذا لن يتحقَّق، لأن ما شاء الله كان· وما لم يشأ لم يكن[1].

لا يُشْرَع قتال المسالمين من غير المسلمين:

لا يشرع قتال غير المسلمين من المسَالمين للمسلمين، الذين لم يقاتلوهم في الدين، ولم يُخرجوهم من ديارهم، ولم يظاهروا على إخراجهم، كما دلّت على ذلك آيتا سورة الممتحنة، وقوله تعالى: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ [النساء:٩٠]. وأدلة أخرى كثيرة[2].

من آثار الفكر الهجومي على العالم:

من الآثار العملية الخطيرة لأصحاب الفكر الهجومي: رفض ميثاق الأمم المتحدة، وتجريم الانضمام إلى هيئة الأمم المتحدة، ومعارضة اتفاقية الرق، ومعارضة اتفاقية جنيف بشأن الأسرى.

وبالإضافة إلى ما تقدَّم تبنَّى أصحاب هذا الفكر مقولة انتشار الإسلام بالسيف، والدفاع عنها، واتهام كل من يشكك فيها أو يرد عليها بأنهم من تلامذة الاستعمار.

وقد تجلَّت هذه الآثار العلمية في رسالة جامعية بإحدى الجامعات العربية بعنوان (أهمية الجهاد في نشر الدعوة)، وهذه الرسالة وأمثالها تؤذي الإسلام أكثر ممَّا يؤذيه أعداؤه[3].

٦- مناقشة آية: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾:

يستدل دعاة الحرب بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

والمراد بالفتنة: تعذيب المؤمنين وإكراههم على الكفر، ويؤيِّد ذلك كلام المفسرين القدامى، كالجصاص والفخر الرازي، ومن المعاصرين: القاسمي[4].

الإسلام يقاتل لمنع الفتنة في الدين:

---

[1] ينظر: المصدر السابق، ج١، ص٤٦٩.

[2] ينظر: المصدر السابق، ج١، ص٣١٥.

[3] ينظر: المصدر السابق، ج١، ص٢٦٣-٢٧٢.

[4] ينظر: المصدر السابق، ج١، ص٢٧٧-٢٨٤.

فالفتنة التي يقاتل الإسلام ليمنعها، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩]، وقوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة:٧١٢]، وقوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة:١٩١]، أنَّ معناها: الاضْطهاد في الدين، وتعذيب المؤمنين، وليس صوابًا ما قاله بعض المفسِّرين بأنَّ معناها (الشرك) و(الكفر). بل إنَّ تحقيق المعنى اللغوي للفتنة، وتتبُّع مواردها في القرآن، يؤكد لنا أن معناها التعذيب والاضطهاد[١].

٧- لا إجماع على أنَّ في القرآن آية السيف:

لا إجماع على أنَّ في القرآن آيةً تُسمَّى (آية السيف)، وهناك آيات أربع قيل: إنها آية السيف، ولا نجد آيةً صالحةً لأن تكون آية السيف، أو آية قطع الرقاب بالجملة، وأشهرها الآية الخامسة من سورة التوبة ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ [التوبة:٥]. وقبلها وبعدها يُبطل هذه الدعوى[٢].

آية السيف، وما قيل: إنها نسخت ١٤٠ آية:

ادَّعى بعضهم أنها نسخت ١٤٠ آية، من الآيات المكيَّة والمدنيَّة التي تدعو إلى الحوار والدعوة إلى الله على بصيرة، وتأمر بالصبر على الخصوم والصفح عنها، وقد اختلفوا في تعيين هذه الآية مع اتفاقهم على أنها من سورة التوبة، وإن كان الأكثرون يُرجِّحون أن آية السيف هي الآية الخامسة من سورة التوبة.

فلا يقبل كل ما قيل: إنه منسوخ، ولا تنطبق شروط النسخ على آية السيف[٣].

﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ مُحكمة غير منسوخة:

لا يصح قول مَنْ قالوا: إن آية السيف نسخت قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦]. ومثل هذه الآية لا تُنسخ؛ لأنها مُعلَّلة بعلَّة لا تقبل النسخ، فهي تُبيِّن أنَّ الدين الحق -وهو دين الإسلام- لا يقبل الإكراه، ولا يُجوز الإكراه، لعلَّة ظاهرة، وهو: أنه لا يحتاج إلى إكراه قط، لجلاء بيِّناته، ووضوح دلائله[٤].

وهذه الآية كما يسيء فهمها الذين يدَّعون نسخها، من المتشدِّدين، كذلك يسيء فهمها أولئك الذين يعطِّلون الجهاد في سبيل الله؛ لنشر الدين، وكسر الأسوار التي تحجب الحق عن أن يصل إلى الشعوب المغلوبة على أمرها، الراغبة بالخلاص من سلطان الحكومات الظالمة الغاشمة، التي تمنعها من تنسُّم الحرية.

نعم الإكراه في الدين لا مجال له بحال من الأحوال؛ لأن أساس العقيدة في القلوب. ومثله كمثل عواطف الحب والكراهية التي لا تقبل الإكراه المادي.

لكن هذا لا يستلزم حصر الجهاد بجهاد الدعوة أو النفس ونحو ذلك.

---

[١] ينظر: المصدر السابق، ج١، ص٤٥١.

[٢] ينظر: المصدر السابق، ج١، ص٣٠٣.

[٣] ينظر: المصدر السابق، ج١، ص٢٨٥-٢٨٨.

[٤] ينظر: المصدر السابق، ج١، ص٣٢٢، وج١، ص٤٧٠.

فالجهاد في سبيل الله بالقتال لتأمين الدعوة وحمايتها، وإقامة العدل، غاية من أشرف الغايات، وهو طريق لإزالة أسباب القسْر والاضطهاد والإكراه.

ضعف حديث (بُعثت بالسيف):

حديث: (بُعثتُ بين يدي الساعة بالسيف) الوارد في مسند الإمام أحمد وغيره، في سنده مقال، وفي متنه نكارة، لمخالفته صريح القرآن، مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [التوبة:٣٣، والفتح:٢٨، والصف:٩]. في ثلاث آيات، ومثل قوله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [البقرة:١١٩، وفاطر:٢٤]. فهذه الآيات كلها مكيَّة ومدنيَّة، بصِيَغها المختلفة، تدلُّ دلالة جليَّة على أنَّ الرسول الكريم لم يُبْعث إلا بالهدى وبالحق، وبالتبشير وبالإنذار، والبيان والشفاء لما في الصدور، والرحمة العامة للعالمين، ولم يُبْعث بالسيف ولا بالرمح، كما هو منطوق الحديث. وليس هناك أصدق ولا أبلغ من آيات القرآن العظيم تُؤْخذ منها المفاهيم الحقيقية والأساسية لهذا الدين[١].

«جئتكم بالذبح»[٢]:

عبارةٌ كثيرًا ما تتردَّدُ على ألسنَةِ بعضِ الشباب المتحمّسين الذين لم يعرفوا من عظمةِ دينِهم ومحاسنِ شريعتهم إلا أنّه جاءَ بالذبح للكافرين والمرتدين والمخالفين، فاتَّبعوا المتشابهات، وأعرَضوا عن المُحكَماتِ كمثلِ قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين﴾.

فهل سأل هؤلاء أنفسَهم: كم شخصًا ذبَحَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بيده؟!

ولماذا لم يُطبِقْ عليهم الأخشَبين عندما عُرِضَ عليه ذلك؟! بل عفى عنهم عندما تمكَّن منهم يومَ الفتح وهم نحو عشرين ألفًا.

كيفَ جاءَهم بالذبح ولم يذبَحْ بيده أحدًا قطُّ، بل لم يقتُلْ بيده إلا عدوَّ الله أبيَّ بنَ خلَف، وله قصةٌ معروفة؟!

"جئتكم بالذبح" خطابٌ خاصٌّ لنفرٍ من رؤوس الشرك بأعيانهم، بالغوا في عداوته وإيذائه، وقد أطْلَعهُ اللهُ على الغيب وأشهَدهُ مصارعَهم قبلَ مصرعِهم يومَ بدر، فهو يعلمُ بالوحي ألا سبيلَ لهدايتهم وإيمانهم وأنَّهم قتلى لامحالة.

"جئتكم بالذبح" يفهمُ منها الأغرارُ أنَّ اتّباعَ السُنَّة في القتلِ لابدَّ فيه من حزّ الرقاب بالسكاكين وتتشوَّفُ نفوسُهم لفعل ذلك بغضّ النظر عن تبعاته، حرصاً بزعمهم على موافقة السنَّة!!

إشكالياتُ القوم لا يحلُّها إلا التَّفقُّهُ في الدين على يد العلماء الربَّانيين.. لو كانوا يعلمون.

حديث «أمرت أن أقاتل الناس» والمراد بهم المحاربون:

[١] ينظر: المصدر السابق، ج١، ص٣٣٦-٣٤٦.

[٢] رواه أحمد (٧٠٣٦) وقال مخرجوه: إسناده حسن، وصحح الإسناد الشيخ شاكر في تخريجه للمسند، وأشار الإمام البخاري في **صحيحه** إلى رواية ابن إسحاق هذه عقب الحديث (٣٨٥٦). ورواه ابن حبان في **صحيحه** في التاريخ (٦٥٦٧).

لفظة (الناس) في حديث: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله» يُقْصَد بهم أنهم (المحاربون) الذين ذكرتهم سورة براءة في أوائلها، وأعلنت البراءة منهم، وهم الذين: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة:١٠].

حول مفهوم إعداد القوة:

يتحدّثُ بعضهم عن فكرةِ مُقاتلةِ أعداء الإسلام قتالاً مُسلّحا (تأييداً لمواقف بعض الفئات الإسلاميّةِ التي تنادي بالمواجهة المسلّحة).

ويستدل بالآيةِ الكريمة: ﴿وأعِدّوا لهم ما استطعتم من قوّةٍ ومن رباط الخيل﴾، ويتوقّف دون أن يُتمّ الآيةَ الكريمة .. ويقول: إن الله يأمُرُنا أن نعدَّ ما استطعنا من القوةِ لنقاتل بها أعداء الإسلام ... فاللهُ تكفّلَ بالنصر ... ونحن مسؤوليتنا أن نخوض الحرب بالمستطاع من القوةِ التي نُعدّها!!! ... إنّ تتمّة الآيةِ هو ﴿تُرهبون به عدوّ الله وعدوّكم﴾!!! فيصبح بذلك فعلُ الأمرِ (وأعِدّوا) مشروطاً بفعل (تُرهبون) فالآيةُ تقول: ﴿وأعِدّوا لهم ما استطعتم من قوّةٍ ومن رباط الخيل تُرْهبون به عدوّ الله وعدوّكم﴾ ... فيكون بذلك شرط الإعداد هو: وأعدّوا لهم ما استطعتم ... تُرهبون به عدوّ الله وعدوّكم ... إنّ جُملةَ: ﴿تُرهبونَ به عدوّ الله وعدوّكم﴾ هي جُملةٌ حاليّه (في علم النحو)، وتعريف الحال في علم النحو هو: أنّ الحالَ هو وصفٌ لصاحبه، قيْدٌ لعامله ... وبهذا يكون معنى الآيةِ الكريمة أن تكون درجةُ الإعداد للقوّةِ بحدود أن نُرهب به العدو (أي: نُخيفه ونمنعه من أن يرتدّ بالأذيّة علينا) ولا يصح المعنى من كلمةِ نُرهبه أن يكون: نُخيفه ولا نملك الدفاع عن أنفسنا!!

وبذلك يصبحُ شرطُ الاستطاعةِ في إعداد القوّةِ يوجب أن تكون درجةُ الإعداد تصل إلى إخافةِ العدو ومنعه من التمادي ... لا أن نكتفي بقوّةٍ نقاتل بها فنستثير غيظ العدو وغضبه ونعطيه الذريعةَ للفتك بنا (بحجّةِ الاستطاعة التي وقفنا عندها في الآيةِ الكريمة)!!

نعم في المرحلة الراهنة التي تعيشها الأمة في ضعفها وتخاذلها قد تستوجب ما اصطلح على تسميته بـ(جهاد الدفع)، وهو أضعف الإيمان أمام تلكم الهجمة الشرسة من قبل أعداء الإسلام وقد تكون الرهبة بشدَّة البأس! في النزال! أو الأعمال الانغماسية.

وهذه بعض أهم الخطط في تحريف مفاهيم الجهاد في سبيل الله وتطبيقاته:

لقد وجَّه أعداء الإسلام جهودًا كبيرة لهدم ركن الجهاد في سبيل الله، وبرّدوا حرارة الاندفاع الحقيقي إلى الجهاد، وفرَّقوا صفوف المسلمين، وحصروا الجهاد ببعض دوائره، في حدود جهاد النفس أو الدعوة البيانية.

إن الضرورة في المجتمع البشري تدعو إلى القتال، انتصارًا لحقِّ المظلومين في أن يتنسّموا حرية التعرف على الدين الحق، ودفعًا لظلم الطغاة الذين يحرمونهم من ممارسة حق حريتهم.

إن الواجب الذي تفرضه الأخوة الإنسانيَّة على دعاة الحق أن ينتصروا للمظلومين، ويقاتلوا حتى يزيلوا أسوار السجون التي أقامها الطغاة عليهم، وأن يحطِّموا أسلحة الإرهاب والتعذيب التي بها يعذبون، وأن يمزقوا الحجب التي تحبس عنهم نسمات الحياة الطيبة.

ومما لجأ إليه أعداء الإسلام في محاربة ركن الجهاد في سبيل الله، تفريغ هذا الركن من مضامينه ومعانيه، وأسسه وبواعثه، بصرف المسلمين عن الغاية التي يقاتلون في سبيلها إلى غايات أخرى، كالوطنية والقومية والشجاعة والحمية والاشتراكية والتقدمية و... واصطنعوا منظمات عميلة أجيرة، كالبهائية والقاديانية وطائفية بغيضة؛ لتفريق وحدة المسلمين، وتحريف الجهاد.

ومن هذه المحاولات لتحريف الجهاد في سبيل الله:

١- حيلة الربط الدوري بين ركن الجهاد في سبيل الله بالقتال وبين إقامة الحكم الإسلامي:

من الخطط التي اتخذها الأعداء ، واستدرج إليها بعض أبناء المسلمين ، وكثير منهم قَبلها وروّج لها عن حسن نية، حيلة الربط الدوري بين الجهاد في سبيل الله بالقتال وبين إقامة الحكم الإسلامي الصحيح.

والنتيجة التي تحصل من هذا الربط أن لا يباشر المسلمون الجهاد في سبيل الله بالقتال مهما دعت الدّواعي إليه، حتى يقيموا الحكم الإسلامي، وبما أن الحكم الإسلامي المنفذ لكل أحكام الله وشرائعه لعباده لا يستطيع أن يقوم في الأحوال الراهنة في كثير من بلدان العالم الإسلامي إلا عن طريق الجهاد في سبيل الله حتى حدوده القصوى، إذن فلابد أن يتساقط طرفا الدّور، فلا يقوم الحكم الإسلامي المطلوب، ولا يباشر المسلمون الجهاد في سبيل الله كما ينبغي، ويدور المسلمون بهذه الحيلة الفكرية في حلقة مفرغة، ليس لها طرف يمسكون به حتى تبدأ منه خطة عملهم.

وقامت نظريات جديدة تبنَّاها بعض المسلمين، وهذه النظريات تنادي بأن الجهاد في سبيل الله حقٌّ وركن من أركان العمل لنشر الإسلام وصيانته، ولكن لا يصح مباشرة هذا الركن فيما وراء جهاد النفس وجهاد الدعوة السلمية الهادئة قبل توافر شروطه الأساسية، والمنطق عند هذا الحدّ سليم لا اعتراض عليه.

ولكن عند الحديث عن الشروط يعملون على انتحال شروط بعيدة المنال في ظروف المسلمين الحالية، ثم يعملون بكل وسيلة على جعل هذه الشروط مستحيلة الوقوع أو كالمستحيلة.

كما يعملون على ربط هذه الفئات التي تنادي بهذه النظريات بهم ربطاً محكماً، يجعلُ كل أنواع النشاط التي تقوم به تحت اسم الإسلام كمن يحرُث في البحر، تُمتصّ بالجهد طاقاته، ولا تؤثر في الماء محاريثه ، وينتهي الأمر إلى تعطيل الجهاد في سبيل الله بالقتال نهائياً، وإبقائه كمادة معطلة عن التطبيق في دستور نظري.

على أننا نؤكد أنه لا يصح مباشرة الجهاد بالقتال قبل توافر شروطه، من تحديد الغاية الأساسية، وإعداد العدة المطلوبة للمواجهة، والقيام بواجب الجهاد بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وانتظار الفرص الملائمة.

ولكن على المسلمين جميعاً في مشارق الأرض ومغاربها أن يخطِّطوا ويساهموا في الإعداد التام لردّ صور العدوان التي يُبيِّتها ضدهم أعداؤهم من المشرق والمغرب وممّا بينهما، ليوقعوا في شَرَكهم كل بلد من بلدان العالم الإسلامي.

وعلى المسلمين أن لا يتوانوا في القيام بهذا الواجب لحظة واحدة، فهم اليوم في سباق القوة، والإعداد الحقيقي لأسلحة الردع والصمود والجهاد في سبيل الله بصدق، إنما ينظرون إلى أواخر الصفوف المتقدمة في العالم المعاصر بالمناظير بعيدة المدى حتى يروها وهم خلفها.

إن الأمر لا يتحمل التريث والصبر والأناة، ولكن اللحوق بالركب، ثم السبق، من الأمور الممكنة التي تتوافر لديهم أسبابها الماديّة، فما عليهم إلا أن يفتحوا كنور أسبابها المعنوية، ويغترفوا منها، ويبدؤوا المسيرة الجادّة متوكلين على الله، ومن يتوكل على الله فهو حسْبه[1].

٢- خطة التوريط والإحباط:

يدس دُهاة المكر وأخباث شياطين الناس بين صفوف المسلمين متحمسين لإسلامهم مَنْ ينفخ في نار حماستهم ويؤجِّجها، ويتظاهر منافقاً بغيرته الشديدة على الإسلام والمسلمين، ويثير غضبهم، ويزين لهم ضرورة التَّحرك السريع للقتال في سبيل الله، من أجل رفع طغيان قائم، وبغي جاثم، أو إقامة حكم الإسلام في الأرض، ويزعم لهم أن أمر القتال قد صار واجباً شرعياً وأمراً حتمياً، ولو لم يكن لدى الثلة المؤمنة المخلصة إلا القوة القليلة اليسيرة، التي لا تكفي في ميزان القوى السببيَّة للتغلب على خمسة في المئة من قوى الكفر الطاغية التي يريدون قتالها لإسقاطها.

ويندفع المتحمسون للإسلام، الغيورون عليهم برعونة وقصر نظر، وغفلة عما يُراد لهم، وهم يجهلون فقه الجهاد في سبيل الله بالقتال، ثم يتخذون من بينهم رؤساء لا علم لهم بالدين، فيستفتونهم فيفتونهم بغير علم، ويتهمون علماء الدين بالتخاذل وقصور الهمَّة، أو بممالأة أعداء دين الله ومصانعتهم، ويصدّرون أحكامهم على علماء الدين بصيغة تعميمية ظالمة لمجرَّد مخالفتهم لهم في الرأي.

ولا أبرّئ فئة العلماء بالدين، فقد يكون فيهم - أو فيمن يُشار إليه أنه منهم -متخاذلون أو قاصرو الهمَّة، أو ممالئون لذوي السلطان المحاربين للدين، فشأنهم كشأن كل فئة من الناس فيهم الصالح وغير الصالح، ولكن النقد والتلويم والتأثيم أمور لا يجوز أن تتجاوز حدودها، فيؤخذ المحسن بجريرة المسيء، ويُدان الصالح بجريرة الطالح.

والأصل حَمْل المسلم على براءة الذمَّة وحُسن النيَّة، وإن خالف في الرأي، ما لم تثبت إدانته، أو يظهر في أعماله أمارات قوية تشير إليه بالإدانة، وتلصق به التهمة، وهذا في غير القضايا الشخصية التي هي من المعاصي بين العبد وربه، ما لم يكن مجاهراً فيها.

ويوجّه هؤلاء المتحمسون المخلصون -إن شاء الله- نقدهم الشديد للذين يُشار إليهم أنهم من علماء الدين، ويحمِّلونهم إثم القعود عن الجهاد في سبيل الله بالقتال، ويجعلون من أنفسهم مفتين وقضاة بغير إذن شرعي، فيفتون ضدّهم ثم يحكمون

[1] الميداني، **بصائر للمسلم المعاصر**، ص٤٣٩-٤٤٠.

عليهم بأحكام قضائية مستندة إلى فتاواهم، ثم يصدّقون هذه الأحكام من عند أنفسهم، ثم يُنفذون هذه الأحكام، ويقولون: هذه أحكام الله!!

والله عزَّ وجل لم يأذن لهم بشيء من ذلك.

ويريد هؤلاء المتحمسون الغيورون على الإسلام والمسلمين و المخلصون... ممن يقال: إنه عالم بالدين، أن يكون جندياً في القتال، وقائداً عسكرياً، ومخططاً حربياً، وعبقرياً سياسياً، وماهراً في أعمال التنظيم والإدارة، ومفكراً بارعاً، ومجتهداً في استنباط أحكام الدين من مصادر التشريع، وأن يكون كل من تحتاج إليه الأمة الإسلامية من كفاءات لاستعادة مجدها العظيم، هذا غلط فاحش، وفساد في الرأي.

ولابد أن نلاحظ أيضاً: أنَّ معظم أذكياء المسلمين قد انصرفوا في العصور المتأخرة عن علوم الدين، واتَّجهوا لعلوم الدنيا، وكثير منهم سار في ركاب أعداء الله، وبقي للعلوم الإسلامية قلة قليلة جداً، لا يجوز عقلاً ولا واقعاً تكليفها فوق قدراتها، ولا دفعها للقيام بمهمات لا تُحسنها، ولئن قامت بها أساءت وأضرَّت، فالأمة إنما تتكامل بتوزيع الاختصاصات على وَفْق القدرات والكفاءات.

ومن الغباء أن نطالب كل إنسان بأن يُحسن كل الاختصاصات مهما كان عبقرياً وذا مواهب رفيعة، فكيف بأناس عاديين، تتفاوت نِسب كفاياتهم وقدراتهم، شأنهم في ذلك كشأن سائر الفئات من الناس، مع ملاحظة أن الأجيال الذكية موجَّهة بعوامل كثيرة للزهد في الدراسات الدينية، وحمل رسالة العلوم الإسلامية، والدعوة إلى سبيل الله عزَّ وجل.

وفي دوامة هذه المفاهيم المختلطة التي التبس فيها الحق بالباطل والمقترنة بالحماسة الصادقة، والانفعال الثائر، والأعصاب المتوترة، والغضب المهتاج، والطموح الأرعن، يتابع المحرّكون في الخفاء شياطين التوريط والإحباط أعمالهم في مدّ اللهب بالوقود، وقد لا يكون المحرك الشيطان إلا شخصاً واحداً ستر نفسه بأقنعة لا يعرفها ولا يكشفها إلا شيطان مثله.

وهدف الخطة الخبيثة: تحريك الثلة المتحمّسة الغيورة الضعيفة لممارسة أعمال القتال برعونة ضد قوةٍ كبيرةٍ لا قِبل لهم بها إلا بمعجزات خارقات، وتزين الخطة لهؤلاء المتحمسين الثائرين أنهم مطالبون شرعاً بالقتال، وليسوا مسؤولين عن النظر إلى ميزان القوى السببيَّة، ولا عن النتائج، ويندفع المغرورون فيخلطون في عرض الأدلة لما زُين لهم بين الحق والباطل، وتلتبس الأمور، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

والغاية الأخيرة التي يهدف إليها شياطين المكر: توريط الثلة المؤمنة المتحمسة بتحركات قتالية تنتهي بالهزائم والنكبات للمسلمين، واتخاذها قوة جذْبٍ تشد إلى فلكها أشباهَها ونظائرها من الأغرار الطموحين، وقذفهم على دفعات في أتون الورطات التي تنتهي بالهزائم والنكبات، ومع كل نكبة إحباط جزئي للهدف الكامن في ضمير الأمة ووجدانها العميق.

وبتكرار التوريط وحلول النكبات، وإصابة النفوس بالإحباطات الجزئية، تتراكم الإحباطات، حتى تصل النفوس إلى مرحلة اليأس الكامل، أو الشك في دين الله، ما لم يقم أهل العقل والإيمان باستدراك الأمر، وكشف الأسباب الحقيقيَّة للهزائم، وإبراز مواطن الخطأ والصواب.

وحين تصل جماهير المسلمين في شعورها العام أو الغالب إلى مرحلة اليأس من تحقيق الهدف الكامن في ضميرها، يرى شياطين المكر بالإسلام والمسلمين أنهم قد وصلوا فعلاً إلى عزل ركن الجهاد في سبيل الله عن أفكار المسلمين ونفوسهم إلى أجل بعيد، مع فتنة كثير من أبناء المسلمين عن دينهم؛ إذ كانوا يرون أن الله سينصرهم بالمعجزات والخوارق، ويظنون أن ذلك وعدٌ قطعه الله على نفسه في كل الأحوال، ولا يرون لهذا الوعد من الشروط إلا شرط نهوض الثلة المؤمنة لنصرة دين الله بالقتال.

وهذا جهل بالدين، وسوء فهم لنصوصه..

ومن المؤسف جداً أن هذا الجهل المؤيد بفتاوى فئات تصدَّت للقيام بحركة إسلامية قتالية، قد أخذ طابع قضية إسلامية مقررة، فحين لا يتحقق في نظر الأتباع ما كان قد قيل لهم فآمنوا به، يعودون على الدين كله فيكذبون به، ويغفلون عن تصحيح أخطائهم وأخطاء قادتهم.

وقد يصعب على القادة والأتباع اتِّهام أنفسهم بأنهم كانوا مسيئين في فهم الدين، أو الاعتراف بذلك، وإعلانهم الرجوع إلى الحق...

وممَّا لا شك فيه أن مصيبة الأمة في فتنتها عن دينها أكبر من كل مصائب الهزائم والنكبات.

ويكفر عن كل ذلك التوبة والاعتراف بالخطأ، وإعلان الرجوع إلى الصواب، ومن كان جاهلاً فعليه أن يرجع إلى أهل الذكر، وأهل الاستنباط[1].

٣- خطة تقديم صور مصطنعة من جهاد منفر يحمل شعار جهاد إسلامي وهو ليس منه منهجاً ولا غاية:

ومن الخطط الماكرة التي لجأ إليها أعداء الإسلام للتنفير من الجهاد في سبيل الله: دفع بعض المأجورين سراً لتنظيم منظمات يندفع أفرادها بجهل وغباء للقيام بأعمال إرهابية، وثورات فوضوية، يُقتل فيها الأبرياء، عن طريق الاغتيال والتدمير، دون مواجهات قتالية، وتكون حصيلتها الخيبة، وتشوية صورة الجهاد الإسلامي المقدَّس، وتنفير الناس منه، حتى جماهير المسلمين.

إن تاريخ الجهاد الإسلامي بالقتال قد كان مقتصراً على قتال جيوش أعداء المسلمين في جهاد إسلامي نظيف شريف مُقدَّس، وكان قتالاً تواجه به الجيوش الإسلامية جيوش الأعداء، بلا غدر، ولا خيانة، ولا نقض للعهود، ولا تتعرض لغير الجيوش المقاتلة من أفراد شعوبهم الذين لا يشاركون في القتال.

ولم يكن المسلمون يعرفون بدعة الإرهاب المعاصرة، التي خطط لها اليهود والنصارى والملاحدة والوثنيون وأجراؤهم، ومارسوها في ثوراتهم واضطراباتهم، وتبعهم فيها ثوريون من مختلف شعوب الأرض، وهذه بدعة تهدف إلى إثارة القلاقل والاضطرابات في الشعوب وقتل الأبرياء، وتخريب العمران، وتدمير الأبنية على سكانها بالمتفجرات، وتدمير المدن، وقتل سكانها في إبادة جماعية بأسلحة الدمار الشامل، ونشر الفساد في الأرض.

[1] ينظر: الميداني، **بصائر للمسلم المعاصر**، ص٤٤٣-٤٤٧.

إنَّ هذه الأعمال التي أطلق عليها اسم أعمال إرهابية، لا يعرفها المسلمون خلال تاريخهم الجهادي الطويل، ولا يجيزها الإسلام ولا يبيح للمسلمين أن يمارسوها.

وفي هذه الخطة الماكرة المدبَّرة دفع أعداء الإسلام سراً بعض أُجرائهم، فدفع هؤلاء بعض أبناء المسلمين الذين لا يعرفون أحكام الإسلام ولا يطبقونه في سلوكهم، للقيام ببعض الأعمال الإرهابيَّة التي قلدوا فيها الإرهابيين من غير المسلمين، من اليهود والنصارى، والملاحدة والوثنيين، ورفعوا مع أعلامهم شعارات جهاد إسلامي، مع أن هذه الأعمال لا تمتُّ إلى الإسلام بصِلةٍ، بل هي أعمال يحرمها الإسلام ولا يأذن بها مطلقاً.

واستغلَّ أعداء الإسلام هذه الأعمال لتشويه صورة الإسلام والمسلمين بوسائل الإعلام الكثيرة التي يملكونها[1]. إنَّ أعداء الإسلام يصنعون القبائح بأيدي أجرائهم، وبأيدي الجهلة والأغبياء من المسلمين، ليحاربوا الإسلام والمسلمين بها.

المصادر والمراجع:

١. ابن حبان، **الصحيح**.

٢. أحمد، **المسند**.

٣. البخاري، **الصحيح**.

٤. القرضاوي، **فقه الجهاد**.

٥. محمد فوزي فيض الله، **صور وعبر من الجهاد النَّبوي بالمدينة**.

٦. الميداني، **بصائر للمسلم المعاصر**.

[1] ينظر: المصدر السابق، ص٤٤٧-٤٤٨.

صورة التدين الوسط في القرآن الكريم

مصدق مجيد خان*

ملخص البحث:

من نعم الله تعالى التي أنعم بها الأمة الإسلامية، أنه جعلها أمة وسطًا، خيارًا وعدولًا، وأخرجها للناس، وقد شهد لها القرآن الكريم. ولكن بعد القرون المشهودة بالخير ظهر التفرق والاختلاف، فخرجت بعض الفرق ببدعها وغلوها وفتنها، ثم تواصل ظهور البدع، وتوارثت الأجيال كثيرًا من الانحرافات العقدية والعملية، وابتعدت عن منهج الاعتدال والتوسط الذي رسمه القرآن الكريم، وعمت الأمة، سواء فيه الدعاة والمصلحين، فغلوا في الإصلاح والدعوة، حتى عادت أفكار الخوارج في ثوب جديد. فالقضية بأمس الحاجة إلى معرفة منهجية القرآن في الدين، التي رسمها القرآن في سائر جوانبه وفي أساليب عدة. واقتناعًا بأهمية هذا الموضوع، ومسيس الحاجة إليه سيتحدث هذا المبحث عن معنى الوسطية في القرآن، ويقدم أمثلة للنواميس العقدية والقواعد العملية من القرآن، ويبحث عن الصورة الوسطى لهذه النواميس العقدية، والقواعد العملية.

تمهيد:

النزعة والميل إلى التدين ملازم للإنسان؛ لأنه مخلوق متدين، والتدين نزعة فطرية، ولا يمكن تصور إنسان بدونها، مهما كانت صورة ذلك التدين، وهذا هو ثابت بالاستقراء، والواقع البشري شاهد على أن الإنسان مهما اختلفت أحواله وظروفه، لا يخلو من عقيدة، سواء كانت تلك العقيدة حقًا أم باطلًا، صحيحة أم فاسدة، وأكدت الدراسات العلمية بأنها وجدت في التاريخ مدن بلا حصون وقصور، وبلا سدود وقناطر، ولكن لم توجد مدن بلا معابد[1]. والحقيقة أن هذه النزعة (نزعة التدين) توجد في غريزة الإنسان منذ خلقه الله ﷻ، وليس هناك أي دليل على أنها تأخرت عن نشأة الإنسان، وقد أقر كثير من المفكرين وفلاسفة المادة، بأن التدين نزعة مفطورة في الإنسان، وتبقي إلى نهاية المطاف. يقول درّاز: "كما أنا لا نجد أمارة واحدة تدل على قرب زوال النزعة الاستقرائية، أو النزعة التعليلية، كذلك لا نرى أمارة واحدة تشير إلى أن فكرة التدين ستزول عن الأرض قبل أن يزول الإنسان"[2]. وأما المغالاة والتفريط فهي من الأمور التي لا سبيل لإنكارها، فهي من الحقائق الواقعية، ولذا اهتم كثير من العلماء وكتّاب المسلمين بأمر المغالاة والتفريط في التدين، وبيان مظاهره وأسبابه. وهذا البحث سيتحدث عن صورة التدين الوسط في القرآن الكريم.

---

* الباحث المساعد، قسم دراسات القرآن والسنة، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا.

[1] انظر: أبو بكر الجزائري، **عقيدة المؤمن**، ص١٨.

[2] درّاز، **الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان**، ص٨٧.

الوسط لغةً:

تدور الأحرف الأصلية لهذه الكلمة ومشتقاتها على معنى العدل والنصف، والنفطة التي تتوسط بين الطرفين وانتهاءين. يقول ابن الفارس: الواو والسين والطاء: بناء صحيح يدل على العدل والنصف. وأعدل الشيء: أوسطه ووسطه. قال الله عز وجل: ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣][1].

وتضبط هذه الكلمة على وجهين: الأول: "وسْط" بسكون السين، فهو ظرف لا اسم جاء على وزان نظيره في المعنى وهو بين، تقول: جلست وسط القوم أي بينهم؛ ومنه قول أبي الأخزر الحماني: سَلُّومَ لوْ أَصْبَحْتِ وَسْط الأَعْجَمِ أَي بين الأعجم. وفي الحديث: «أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسْط القوم» أي بينهم[2].

والثاني: "وسَطُ" بالتحريك. وقد تأتي لمعاني متعددة متقاربة، وهي العدل والفضل والخيرة[3].

الوسط في القرآن:

تناول القران الكريم مادة "وسط" في خمسة مواضع بتصاريفها المختلفة، حيث وردت بلفظ: ﴿وَسَطًا﴾ ﴿الْوُسْطَى﴾ ﴿أَوْسَطِ﴾ ﴿أَوْسَطُهُمْ﴾ ﴿وَسَطْنَ﴾.

أولًا: ﴿وَسَطًا﴾: وردت أولًا هذه الكلمة في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣] أي "أمة عدولًا" كما روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: الوَسَطُ: العَدْلُ ﴿جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾[4]». وبه أوله الطبري منسوبًا إلى بعض الصحابة والتابعين[5]، أما معنى ﴿الوَسَطُ﴾ في هذا الموضع عنده: هو "الوسط" الذي بمعنى: الجزء الذي هو بين الطرفين، مثل "وسَط الدار".

وقد وصف الله تعالى هذه الأمة " أُمَّةً وَسَطًا"، لتوسطهم في الدين، فلا هُم أهل غُلوٍّ فيه، ولا هُم أهلُ تقصير فيه، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه. فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحبَّ الأمور إلى الله أوْسطُها، وبسبب عدالة هذه الأمة وبحكمها بالقسط جعلها الله شهداء على الناس.

ثانيًا: ﴿الْوُسْطَى﴾ في قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة:٢٣٨]. المراد من "الصَّلَاةِ الْوُسْطَى" الصلاة المتوسطة بين الصلاتين، أو الصلاة الفضلى[6].

---

[1] انظر: ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج٦، ص١٠٨.

[2] انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، ج٧، ص٤٢٨.

[3] المصدر السابق، ج٧، ص٤٢٧-٤٣٠؛ والفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، ج١، ص٦٩١؛ والفيومي، **المصباح المنير**، ج٢، ص٦٥٨.

[4] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ...﴾، ج٦، ص٢١، رقم٤٤٨٧؛ وأحمد في **مسنده** –واللفظ له–، ج٣، ص٣٢، رقم١١٢٨٩.

[5] انظر: الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج٣، ص١٤٢-١٤٥.

[6] انظر: الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**،ج٥، ص١٦٨-٢٣٦.

ثالثًا ورابعًا: ﴿أَوْسَط﴾: وردت هذه الكلمة بهذه الصيغة في آيتين، الآية الأولى هي: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ [المائدة:٨٩]. والآية الثانية هي: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم:٢٨]. المراد من "أَوْسَطِ" في هذين الآيتين هو العدل[١]، وإن كان مدلولهما مختلفًا في كلا الموضوعين. فالمراد في الآية الأولى: من أعدل ما يطعم من أجناس الطعام، وفي الآية الثانية: أوسطهم أي أعدلهم.

خامسًا: ﴿وَسَطْنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا﴾ [العاديات:٥]. ومعناها هو التوسط من المكان، أي: فتوسطن صفوف الأعداء، ودخلن وسطهم.

وهذه هي المواضع الخمسة التي وردت فيها هذه الكلمة، والذي اتضح منها هو أن القرآن الكريم استخدمها في معنى العدل والتوسط وعدم المغلاة والتفريط. وقد تأتي لمعاني أخرى قريبة من هذه المعاني ولكن المهم أنها مرادف للعدل الذي هو وضع الشيء في محله كما هو.

التدين الوسط في القرآن الكريم:

عُرف الدين بأنه "عبارة عن جملة النواميس النظرية أو العقائد التي تحدد صفات ذات إلهية غيبية وجملة القواعد العملية التي ترسم طريق عبادة لتلك الذات". وعُرف التدين بأنه "هو الانفعال العملي بهذه النواميس النظرية أو العقائد التي تحدد صفات ذات إلهية غيبية وجملة القواعد العملية التي ترسم طريق عبادة لتلك الذات انفعالًا إراديًا"[٢]. التعريف إذن يشمل شيئين: الأول: النواميس العقدية، والثاني: القواعد العملية. فالذي أريد في هذا المبحث هو الصورة الوسطي لهذه النواميس العقدية، والقواعد العملية.

التدين الوسط في النواميس العقدية:

تشمل هذه النواميس "الإيمان الجازم بوجود ذات الله تعالى، وما يجب له في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، والتسليم له في الحكم والأمر والقدر والشرع، ولرسوله صلى الله عليه وسلم بالطاعة والتحكيم والاتباع". وقد أخبر الله تعالى بها في القرآن الكريم في مواضع مختلفة، وبطريق وحيه، يقول الله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، في حديث جبريل المشهور الذي رواه أبو هريرة، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزاً يوماً للناس، فأتاه جبريل فقال: ما الإيمان؟ قال: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ»[٣] وفي مسلم: «وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[١]. هذه النواميس العقدية تدور حول هذه القضايا المعينة التي أخبر

[١] انظر: الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج٢٣، ص٥٥٠.

[٢] انظر: مصدق مجيد خان، **مفهومُ الدِّين ومَظاهِرُ التَّديُّن في القرآن الكريم، دراسة موضوعية تحليلية**، ص١٨٤.

[٣] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الإيمان ، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، والإسلام، ...، ج١، ص١٩، رقم٥٠.

بها الله تعالى ورسوله، وليس أن يعتقد كل ما شاء، والمطلوب في الدين التصديق بهذه النواميس تصديقًا جازمًا لا ريب فيه، فإن كان فيه ريب أو شك فهو إذن الظن وليست عقيدة؛ إذ العقيدة الحكم الذي لا يقبل الشك فيه لدى معتقده[2].

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ...﴾ [الحجرات:١٥] أي الإيمان مقبول إذا لم يقع في القلب شك في الإيمان. وذم المرتابين: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة:٤٥].

وهذه النواميس من الأمور الغيبية، وهي التي عنى الله تعالى بقوله في مدح المؤمنين: ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:٥]، وقد يقال: إن الكتب والرسل ليستا من الأمور الغيبية، وإنما هما من المشاهدات، فنقول: إن المراد هنا هو نسبتها، أي كون الرسل مبعوثين من عند الله تعالى، وكون الكتب منزلة من عند الله تعالى، وهذا من الأمور الغيبية.

وهذا هو الموضوع الأساسي في القرآن، ولا توجد صفحة فيه إلا وفيها دعوة إلى الإيمان بالله، أو برسله، أو باليوم الآخر، أو بالملائكة، أو بالكتب الإلهية السابقة، أو بالقدر الذي سنه الله لسير هذا الكون، أو رٌّد على شبهات الكافرين، أو بيان الأقوال والأفعال التي تثبت الإيمان أو تنقضه، أو بيان ما يتعلق بعبادة الله وحده، بأساليب المتنوعة. وهو لب القرآن، وليس من المبالغة إذا يقال القرآن كله حديث عن القرآن، فإنه إما حديث مباشر عن الله، ذاته وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة:٢٥٥] وكقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١-٤]، وإما حديث غير مباشر في الدعوة إلى عبادته، أو أمر بعبادته، أو إخبار عن أهل الإيمان وعمن أعرض عنه، وقد تكرر ذكر الله في القرآن باسم من أسمائه، أو صفة من صفاته (١٠٠٦٢) مرة[3].

الإيمان بالله كذات:

فالقرآن يتحدث عنه من ناحتين: الأولى: وجود الله. القرآن يقرر أن الفطرة السليمة تقر بوجود الله من غير دليل. يقول الله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٣٠]، وقد اعترف به كل من رجال الدين، وأقطاب العلم، وزعماء السياسة، بحيث أي عمل لا يؤسس على بنيان من تقوى الله ورضوانه لا يبقى في العالم. وأثبتوا أن هذا هو الفطرة التي اضطرت الباحثين في تاريخ الأديان إلى أن يقروا بأن الأمم جميعًا اتخذت معبودات تتجه إليها وتقدسها. وأقرت بوجود ذات–أو ذوات– غيبية –علوية–، لها

---

[1] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم9 و10.

[2] انظر: الأشقر، **العقيدة في الله**، ص١٣.

[3] انظر: الأشقر، **العقيدة في الله**، ص٦٧.

شعور واختيار، ولها تصرف وتدبير للشؤون التي تعني الإنسان، اعتقاد من شأنه أن يبعث على مناجاة تلك الذات السامية في رغبة ورهبة، وفي خضوع وتمجيد[1]. الثانية: تعريف الله تعالى وذلك ببيان صفاته وببيان قدرته في مخلوقاته.

وهذه الناحية هي التي يقع كثير من الناس في المغالاة والتفريط فيها، والطريق الوسط في وصف الله تعالى كما وصفه بدون الزيادة والتقصير، فقد وصف نفسه بصفات الكمال والجلال، ونزهها عن جميع النقص، فلا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من الصفات، فيوصف بما وصف به نفسه من غير تعطيل ولا تمثيل، ﴿فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١]. فالله مُبدع السموات والأرض، خلق لعباده من جنسهم أزواجاً ذكوراً وإناثاً، وخلق من الأنعام من جنسها أزواجاً، وليس كذاته شيء يزاوجه، ولا يشبهه ولا يماثله، لا في ذاته ولا في صفاته؛ لأن صفاتِه صفات كمال وعظمة، ولا في أسمائه؛ لأنها كلَّها حسنى، ولا في أفعاله؛ لأن أفعالَه تعالى أوجد بها المخلوقات العظيمة من غير مشارك.

قول الله في ذاته:

فالله تعالى له ذات، حي قيوم، يقول الله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة:٢٥٥]، هو أحد، الصمد، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ *﴾ [الإخلاص:١-٢]. فقد أثبت الله تعالى لنفسه ذاتًا، ولكنه لا تشبه ذوات المخلوقين، فالله هو الكمال الذي لا كمال بعده، يقول الله تعالى نافيًا المشابهة بينه وبين خلقه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى:١١].

قول الله تعالى في نفسه:

وقد كتب الله على نفسه الرحمة، وبه وصف نفسه، فقال تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:١٢]. وقال: ﴿... كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام:٥٤]. وهذا عيسى عليه السلام يقول لربه: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة:١١٦]، ويقول الله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿لِنَفْسِي﴾ [طه:٤١]. ولا تشبه هذه النفس نفوس المخلوقات؛ فإن لله تعالى نفسا تليق بجلاله وكماله.

قول الله في وجهه:

ولله تعالى وجه لا يشبه وجوه المخلوفين، ويبقى وجهه، يقول الله تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن:٢٧]، وذو الجلال والإكرام نعت للوجه[2]، لذا ذكر الوجه في هذا الموضع مرفوعًا[3]، ومن النصوص التي جاء فيها إثبات الوجه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص:٨٨].

---

[1] انظر: مصدق، **مفهومُ الدِّين ومَظاهِرُ التَّديُّن في القرآن الكريم، دراسة موضوعية تحليلية**، ص٣٢-٤١.

[2] انظر: الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج٢٣، ص٣٨.

[3] انظر: ابن خزيمة، **كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل**، ص١٢.

وهناك نصوص أخري ورد فيها ذكر الوجه، ولكنها تحتمل معنى آخر وهو الرضا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٩]. فالطريق الوسط أن نثبت لله ما أثبت لنفسه بدون تشبيه، حتى لا يقع الإنسان في المغالاة والتفريط.

قول الله في يديه تعالى:

أثبت الله تعالى له يدين تليقان بجلاله وكماله، فقال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة:٦٤]، وسأل زاجرًا إبليس حين رفض السجود لآدم: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ [ص:٧٥]، فالطريق الوسط الإيمان به كما وصف بدون تشبيه، وقد ورد تمجيد الله بذكر يديه، فأخبر العباد بأن الخير فيهما، فأهل الجنة يناديهم ربهم فيقول لهم: «... وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ»[1]. ومن النصوص الدالة عليه ما فيه ذكر أشياء خلقها الرحمن بيده، كخلق آدم بيده، كتابة التوراة والكتاب الموضوع عنده بيده، وغرس جنة عدن بيده، وما ذكر فيها صفات الأيدي. قول الله في ساقه، فقد أثبت الله تعالى له الساق، كما أثبت لنفسه اليد وغيرها من الصفات، فقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ [القلم:٤٢]، وقد ورد تفسير هذه الآية عن أبي سعيد الخدري، بأن الرب تعالى يكشف يوم القيامة عن ساقه[2]. والطريق الوسط أن نصدق بذلك ولا نكذبه، وهذا لا يستلزم التجسيم ولا التشبيه، فليس كمثله شيء. وبهذا يحفظ الإنسان من أن يقع في المغالاة والتفريط.

قول الله في استوائه على العرش:

نص الله تعالى في سبعة مواضع من كتابه على أنه استوى على العرش الذي هو من أعظم المخلوقات كلها، فقال: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥]، وقد أخبر الله تعالى أن للعرش حملة يستغفرون للمؤمنين، ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [غافر:٧]، وهو فوق الفردوس ومنه تفجر أنهار الجنة[3]. فالتدين الوسط في إيمان بالله هو أن يؤمن الإنسان بهذه الصفات كما وصف الله تعالى نفسه، ولا يخوض في الكيفية التي هي مجهولة، بسب جهل الإنسان بكيفية الذات، والحكايات مشهورة في معرفة معنى الاستواء، وجهل الكيفية والنهي عن البحث فيها، فقد سئل الإمام مالك عن الآية ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه:٥] فقال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول، والسؤال عنه بدعة[4].

---

[1] انظر: أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب التوحيد، باب كلام الرب مع أهل الجنة، ج٩، ص١٥١، رقم٧٥١٨.

[2] انظر: أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب تفسير القرآن، باب ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾، ج٦، ص١٥٩، رقم٤٩١٩.

[3] ابن براك، **شرح العقيدة الطحاوية**، ج١، ص٨٨.

[4] انظر: الذهبي، **مختصر العلو للعلي العظيم**، ج١، ص٨٣-٢٨٧.

هذا هو التدين الوسط في الإيمان بالله تعالى في جميع صفاته ككونه في السماء، ونزوله إلى سماء الدنيا، وكلامه بعض خلقه من النبيين، وحبه المتقين، والمحسنين، والمتطهرين، والصابرين، والمقسطين، والمتوكلين، وكراهته وبغضه الكافرين الظالمين على وجه يليق بذاته الكريم، وفي حياته وقيامه، وفي علمه، وسمعه وبصره، وفي رؤيته في الآخرة، وضحكه،، فهو يضحك متى شاء، كيف شاء، يؤمن بذلك، ويصدق، وليس المطلوب من المكلفين أن يعلموا ذلك.

وهناك ثلاثة أسس من يهتم ببيان صفاته عليها يحفظ من أن يقع في الغلو، وهي:

الأول: تنزيه الله جل وعلا عن أن يشبه بشيء من صفاته شيئاً من صفات المخلوقين، لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كمثله شَيْءٌ﴾ [الشورى:١١]، وقوله تعالى: ﴿وَلم يكن لَّهُ كُفوا أحد﴾ [الْإِخْلَاص:٤]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تضربوا لله الْأَمْثَال﴾ [النَّحل:٧٤].

الثاني: الإيمان بما وصف الله تعالى به نفسه؛ إذ لا يصف اللهَ أعلمُ بالله مِن الله لقوله تعالى: ﴿ءأنتم أعلم أم الله﴾ [البقرة:١٤].

الثالث: الإيمان بما وصفه به رسول الله صلى الله عليه وسلم لقوله تعالى: ﴿وَمَا ينطق عَن الْهوى إِن هُوَ إِلَّا وَحي يُوحى﴾ [النَّجْم:٤٣] فمن جاء بها كلها فقد وافق الصواب، ومن أخل بأحد منها وقع في المغالاة والتفريط[١].

الإيمان بالملائكة:

ومن النواميس العقدية الإيمان بملائكة الله وهو من أصول الاعتقاد، وهم من عوالم الغيب، وقد وصفهم الله تعالى في كتابه، وأصبح الإيمان بالملائكة واضحًا وليس فكرة غامضة، فقال الله في وصفهم، أنهم خلقوا قبل آدم، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠]، فأخبرهم الله تعالى بأنه سيخلق الإنسان ويجعله في الأرض خليفة. ولهم قدرةٌ على التشكل بصور البشر بإذن الله تعالى، كما أخبر أن جبرائيل عليه السلام "الروح" جاء مريم في صورة بشرية، فقال: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم:١٦-١٧]، ولهم أجنحة، يتفاوتون في أعدادها، فقال الله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر:١]، يعبدون الله بالإخلاص والطاعة والخضوع المطلق، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]، ليسوا آلهة من دون الله تعالى، ولا ذرية لهم، ولا بنات كما قال المشركون، ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦-٢٨]، فهم خلق من مخلوقات الله الكثيرة، منقطعين دائمًا لعبادة الله وطاعة أمره، ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ * وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ [الصافات:١٦٤-١٦٦]، ولهم علاقة بالكون والإنسان، وقد وكلهم الله

[١] انظر: الشنقيطي، **منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات**، ص١٠.

بالشمس والقمر، والأفلاك، والجبال، والسحاب، وبكل عبد يحفظونه، وبكل مخلوق، وبكل حوادث الكون وظاهره، وما يلاحظ من قوانين وأسباب يربط بعضها ببعض إنما هي مخلوقات من مخلوقات الله، والملائكة موكلة بها[1].

١- وهم رسل رب العالمين، يبلغون رسالة رب العالمين إلى من أمرهم الله ﷻ أن يبلغوها، يقول الله ﷻ: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء:١٩٢-١٩٤]، يدعون للمؤمنين ويستغفرون لهم، ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ * رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [غافر:٧-٩]، يراقبون أعمال العباد، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق:١٦-١٧]، وفي سورة الانفطار يقول الله تعالى: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار:١١-١٢]، ويكتبون كل ما يفعل الإنسان، ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [الزخرف:٨٠]. ولا يحصى عددهم، ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [المدثر:٣١]. هذا هو الطريق الوسط يصفه القرآن، فيؤمن بهم كما وصفهم الله، ويقر بأعمالهم كما أخبر بها الله تعالى بعيدًا عن المغالاة والتفريط، وعن الوقوع في الخرافات والأوهام، فليس هم بنات الله، فهم عباد الله، ومخلوق من مخلوقات الله الكثيرة.

الإيمان بالكتب:

أنزل الله تعالى الكتب لهداية البشرية، وقد نزلت بالحق والنور والهدى وتوحيد الله تعالى في ربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، وما يخالف ذلك فهو منسوب إليها من تحريف الإنسان الظلوم، كما فعل بني إسرائيل من إلباس الحق بالباطل، قال الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٤٢]، وقال أيضا: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧١]، وكتمان الحق قاصدين بذلك إخضاع كتاب الله لأهوائهم وشهواتهم، ومن تحريفاتهم إخفاء أحكام التوراة، قال الله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:١٥] ومنها لي اللسان، فهم يلوون ألسنتهم ويعطفونها بالتحريف، ليلبسوا على السامع اللفظ المنزل، وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧٨]. فنزل الله تعالى كتابه الأخير ليميز هذه الكتب مما نسب إليها من التحريف، فهو كتاب مصدق لما جاء في الكتب السابقة من توحيد الله، وعبادته، وجمع كل ما كان متفرقًا في تلك الكتب من الحسنات والفضائل، وقد أنزله الله تعالى ليكون مهيمنًا ورقيبًا عليها، يقر ما فيها من حق، ويبين ما دخل عليها من تحريف وتغيير، وقد تعهد الله بحفظ القرآن من التحريف ومن

[1] انظر: ياسين، **الإيمان: أركانه– حقيقته– نواقضه**، ص٥٥-٥٦.

كل نوع من الضياع على مد الدهور والأزمان، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] صيغة الماضي فالمعني فهو محفوظ عند النزول قبله وبعده وقال لا يكون فيه قول بغير الحق: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤١-٤٢].

الإيمان بالرسل:

بعث الله تعالى في كل أمة رسلًا منهم، يعرفون نسبهم وأخلاقهم، واصطفاهم من أوسطهم مكانة ونسبًا، ليخبرهم بأحكام الله ويطهرهم، ويعلمهم من شرائع دينه بالحكمة، ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:2]، فأوفوا ما أمروا به من الدعوة إلى عبادة الله وحده، والإفراد له في الطاعة، والإخلاص له في العبادة، والإبعاد من الشيطان، وحذرهم بمكائده من أن يغويهم، ويصدهم عن سبيل الله، فمن الناس من وفَّقه الله تعالى، فصدق رسله، وقبل دعوتهم من الإيمان بالله، والعمل بطاعته، ففاز وأفلح، ونجا من عذاب الله، ومنهم من حقَّت عليهم الضلالة، فجاروا عن قصد السبيل، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [النحل:36]، فما من أمة إلا خلا فيها نذير، وذلك رحمة من الله بعباده، لئلا يقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير، ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا * رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٦٣-165]، فبين الله تعالى أنه أرسل رسله على عباده مبشرين ومنذرين، وهذا من أعظم نعم الله تعالى على عباده.

واختلفت مواقف الأمم تجاه أنبيائهم، فمنهم من آمن بهم واتبعهم، فقالوا: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:136]. ومنهم من كفر بهم وفرق بين الله ورسله، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [النساء:١٥٠]. وآخر غالى فيهم، ورفعهم فوق المنزلة التي أنزلهم الله تعالى، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:72]، ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة : 73]، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة:30].

وقد رسم القرآن الكريم التدين الوسط في الإيمان بالرسل وبينه بعمل المؤمنين، وهو تصديقهم بما جاوءا به من عند الله، وعدم التفريق بين أحد منهم، ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة:285]، يؤمن أنهم صفوة الله من خلقه، وأفضلهم

وأطهرهم، وأزكاهم، ولكن ليسوا آلهة، ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٣٣]، وقال تعالى عن رسله: ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ [ص:٤٧]، وقال ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [الحج:٧٥]، هم قدوة وأسوة للأمة في أفعالهم، وأعمالهم، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ * ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٩-88]. فلا مغالاة فيهم ولا تفريط في مدحهم بالباطل، فالمطلوب فيهم قدرهم حق قدره، وتعظيمهم حق تعظيمه، وعدم التفريط في مدحهم، وعدم المبالغة في إطرائهم، والثناء عليهم، ولا يجاوَز الحد في ذلك، ولا ينزل فوق المنزلة التي أنزلهم الله إياها وهي منزلة الرسالة والنبوة ومقام العبودية لله، وبها خاطبهم الله تعالى وذكرهم في كتابه العزيز: فقال عن نوح عليه السلام: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣]، وقال عن داوود عليه السلام: ﴿اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:١٧]، وقال عن سليمان عليه السلام: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص:٣٠]، وقال عن أيوب عليه السلام: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص:٤١] وقال عن إبراهيم وإسحاق عليهما السلام: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص:٤٥]، وقال عن عيسى عليه السلام: ﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٧٢]، وقال عن خاتم الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:١]. فهم بشر يأكلون، ويمشون، ويتزوجون، وبهم البنون والحفدة فليسوا بآلهة، ولا أبناء الله، وبه أخبر الله تعالى عباده: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠]، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ [الرعد:٣٨]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان:٢٠]. فهذا هو التدين الوسط كما جاء في القرآن لا مغالاة ولا تفريط، فهم عباد الله يعبدون الله، ورسل لا يكذبون، بل يطاعون ويتبعون.

الإيمان باليوم الآخر والبعث والنشور:

أخبر الله تعالى بوقوع اليوم الآخر والبعث والنشور، وذم الذين كفروا به، وهددهم وتوعدهم، والقرآن يدل عليه من فاتحته إلى خاتمة، ذكر فيه أحوال اليوم الآخر، والبعث والنشور، وقرر ذلك بالأمثال والأخبار، ورد على منكريه وبين كذبهم وافتراءهم. قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ [طه:١٥]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر:٨٥]، ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الأنعام:١٣٤]، ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ [المرسلات:٧]. وغيرها من الآيات. فيقع الإنسان في المغالاة هنا بإنكار الصفات التي أثبتها القرآن من مثل الأكل والشرب والنكاح في الآخرة.

الإيمان بالقدر:

القدر هو نظام التوحيد وقدرة الله التي قدرها للخلق[1] فهذا هو باب من أعوص أبواب العقيدة، فالذي زل عن الطريق الوسط حار وحير، تعب وأتعب، فما وصل إلى اليقين والصواب، فقد نظم كتاب الله عقد هذا الباب نظمًا تلمح فيه الوسطية، ومن اتبعه سلم من المغالاة والتفريط. فالقرآن يقسم هذا الباب إلى فصلين، فصل يستطيع عقل الإنسان أن يجول فيه، وفصل نهى الله عن الخوض فيه، فيسمح للإنسان أن يبحث عن مراتب القدر وأقسام القضاء وخلق أفعال العباد، ونهي عن الخوض في القدر بالباطل وبلا علم ودليل، والمعتمد فيه هو كتاب الله وسنة رسوله، إذ العقل البشري لا يستقل بمعرفة ذلك على وجه التفصيل. فالذي اتبع هواه أو نظر إلى النصوص بعين عوراء فقد وقع في المغالاة والتفريط، كالفلاسفة الذين أنكرو علم الله تعالى بالجزئيات، وكالذين يعتقدون تأثير الكواكب والأسماء والأبراج، وكغلاة الصوفية، الذين غلو في الجبر، وكالجبرية الذين غلو في إثبات القدر حتى أنكروا أن يكون للعبد فعل، وكالقدرية الذين أنكرو مشيئة الله في أفعال العباد[2]، فاستدلوا استدلالًا أعور ببعض الآيات، وأولو ما عدا ذلك مما يخالفهم. وقد يصف القرآن التدين الوسط في الإيمان بالقدر والقضاء، ومن الاستقراء يتبين أن للقدر والقضاء أربع مراتب:

الأولى: علم الله تعالى:

وهو أن الله عالم بكل شيء جملةً وتفصيلًا، أزلًا، وأبدًا، ولا فرق فيما يتعلق به هذا العلم، فعلمه محيط بما كان، وما سيكون، ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [سبأ:3]، فقد علم الله جميع خلقه، وما يتعلق بهم، والأدلة على هذه المرتبة كثيرة، يقول الله ﷻ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [البقرة:255]، فعلمه محيط بكل ما كان وبكل ما هو كائن علمًا، لا يخفى عليه شيء منه. ويقول الله ﷻ: ﴿قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران: 29]، فهو يعلم السرّ والعلانية.

الثانية: الكتابة:

لقد كتب الله تعالى من مقادير الخلائق بما سبق من علمه، وذلك في أم الكتاب. فكل ما هو كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب، والأدلة كثيرة، يقول الله ﷻ: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران:154]، يصف الله تعالى المنافقين الذين لو لم يشهدوا مع المؤمنين مشهدهم، ولم يحضروا معهم حرب أعدائهم من المشركين، فيقول الله تعالى للنبي ﷺ أن يقول لهم: هذا قدر مقدر من الله عز وجل، وحكم حتم لا مفر منه، ولا مناص. وآيات أخرى.

---

[1] انظر: الفِرْيابي، **كتاب القدر**، ص١٤٤.

[2] انظر: الشهرستاني، **الملل والنحل**، ج١، ٥٦-٥٩، ٩٧، ج٢، ٦٠٩-٦١٠.

الثالثة: المشيئة:

مشيئة الله هي المرتبة الثالثة، وهي النافذة والشاملة، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان:30]، ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [المدثر:56]، والأدلة كثيرة وفي القرآن وحده كرر الله تعالى كلمة شاء أكثر من مائة مرة.

الرابعة: الْخَلْق:

هذه هي المرتبة الأخيرة، وهي الإيمان بأن الله خالق كل شيء، ومن ذلك العباد وأفعالهم، فهو خالق كل عامل وعمله وكل صانع وصنعته، قال عز وجل: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر:٦٢]. والأدلة على هذه المرتبة كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء:1]، يصف الله تعالى هنا في هذه الآية المباركة، بأنه هو المتوحّد بخلق جميع الأنام من شخص واحد، ثم يعرف خلقه كيف كان مبتدأ إنشائه من النفس الواحدة، وفي سورة الأنعام يخبر جميع العباد: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ [الأنعام:2]، أي هو الله الذي خلقهم من طين. ثم في سورة الحج يصف بالتفصيل الدقيق أطوار خلق الإنسان، في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّى وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج:5] وأما خلق أفعال العباد فيدل على ذلك قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات:96]، وهي داخلة كذلك في عموم قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر:62]، وهي من الله إيجادًا وتقديرًا، ومن العباد فعلًا وكسبًا[1]. والتدين الوسط في هذا هو الإيمان بأن الله خالق كل شيء، وهو ربه ومليكه، وهو يشمل جميع الأعيان القائمة بأنفسها وصفاتها القائمة بها من أفعال العباد وغير أفعال العباد، فلا يكون في الوجود شيء إلا بمشيئته وقدرته، فلا ينكر علمه المتقدم وكتابته السابقة كإنكار غلاة القدرية[2]، ولا يقال: إنه تعالى أمر ونهى، وهو لا يعلم من يطيعه ممن يعصيه، والأمر أنف أي مستأنف، بل يقال: لا يكون في الدنيا، ولا في الآخرة شيء إلا بمشيئته وعلمه، وقضائه، وقدره، وكتبه في اللوح المحفوظ[3].

القواعد العملية:

المراد بها القواعد المرتبطة بتصرفات الإنسان والمنظمة لها والمبينة لأحكامها المشروعة. وقد جاء القرآن الكريم بأحكام لأفعال العباد، وسميت بالأحكام الشرعية العملية التي هي ضرورية للبشرية؛ لتنظيم علاقة الإنسان بخالقه، وعلاقته بغيره،

[1] انظر: ابن أبي الخير، **الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار**.

[2] انظر: ابن تيمية، **مجموع الفتاوي**، ج٨، ص٤٥٠.

[3] انظر: أبو حنيفة، **الفقه الأكبر**، ص٢٩.

وبنفسه، وعلاقته بكافة مجالات الحياة، وأي تفريط في هذه العلاقات ينعكس سلباً على الأفراد والجماعات[1]. وقد قرر الله تعالى المنهج الوسط لها في آيات كثيرة، منها الآيات التي أمر الله تعالى فيها بالتوسط، والاقتصاد في العمل، ومنها الآيات التي تصف الانحراف الذي قام به بعض الناس، وصرفوا هذه الأحكام عن وجهها الصحيح، ومنها الآيات التي ذكر فيها بعض أنواع العبادة، ثم أمر الله تعالى بالتزام المنهج الوسط، ونهى عن الإضاعة والرهبنة.

الآيات التي أمر الله تعالى فيها بالتوسط، والاقتصاد في العمل:

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:١١٠]. تدل هذه الآية دلالة واضحة على أمر التدين الوسط، حيث أمر الله تعالى بابتغاء الطريق الوسط بين أمرين منهي عنهما، وهما الجهر الشديد والمخافتة والإسرار، وليس الأمر مختصاً بالقراءة بل هو لكل أعمال الصلاة[2].

وفي نفس السورة يعلِّم الله تعالى الإنسان سبيل إنفاق المال فقال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء:٢٦-٢٩]، أمر الله في هذه الآية بالتوسط في الإنفاق، فلا تُمسك اليد عن الإنفاق، كالمغلولة الممنوعة من الانبساط، ولا تُتوسَّع في الإنفاق توسُّعاً مفرطاً بحيث يخرج عن الطريق الوسط ويقع في المغالاة والتفريط، وبهذا التوسط وصف عباده المؤمنين ومدحهم، في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان:٦٧].

الآيات التي تصف الانحراف في الأحكام:

وهذا هو أسلوب آخر للقرآن لبيان التدين الوسط، فيذكر الله تعالى المنحرين الذين صرفوا العبادة عن وجهها الصحيح، واتبعوا الأهواء، فينكر الله تعالى أعمالهم، والقرآن مملوء بهذه الآيات منها قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:١٨].

فيصف الله المنحرفين الذين يعبدون آلهة من دون الله لا تضر ولا تنفع، يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ أن يسألهم هل هم يخبرون الله بما لا يكون في السموات ولا في الأرض؟ وهو رد إبطال لزعمهم: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا﴾، والتدين الوسط عبادة الله تعالى وحده وهو ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. ومنها: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج:١١]. وليس التدين الصحيح أن يُعبد الله تعالى كما كان يعبده بعض الأعراب على شك، وقد عده الله تعالى ﴿الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

ويصف الله تعالى الذين خرجوا عن التدين الوسط وعبدوا أولياءهم على شبهة التقرب حيث قال: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ

[1] انظر: الزلمي، **حكم أحكام القرآن في العبادات، وأحكام الأسرة، والمعاملات المالية**، ص٢٣.

[2] الشعراوي، **الخواطر**، ج١٤، ص٨٨١٥.

لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:٣]، أي التدين الوسط هو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، خالصة لا شرك لأحد معه فيها، يحكم بينه وبين خصومه، فيما اختلف فيه من التوحيد والشرك، الذي هو التدين الوسط، ويجازي كل واحد بعمله، فلا ينبغي ذلك لأحد.

الآيات التي أمر الله تعالى فيها بالتزام منهج الوسط، ونهى عن الإضاعة والرهبنة:

الآيات التي ذكر فيها بعض أنواع العبادة، وأمر فيها بالتزام التدين الوسط، ونُهي عن الرهبنة التي تمثل المغالاة والتفريط كثيرة، منها قول الله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ [الأعراف:٢٩]، ففي هذه الآية إخبار بأن الله يأمر بالقسط الذي هو العدل في جميع الطاعات[1].

وفي سورة يونس يقول: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:١٠٤]، أي فإن شك أحد فيما دعا إليه الرسول صلى الله عليه وسلم، فليعلم أن الله تعالى نهى عن عبادة الآلهة والأوثان التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عن شيء، وأمر بالتدين الوسط وهو أن يعبد الله تعالى مصدقًا بما جاء من عند الله تعالى. أما النهي عن الرهبنة فيقول الله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:٢٧]، النهي عن الرهبانية نهي عن المغالاة والمبالغة في العبادة، وهو أمر ما شرع الدين، وكان ذلك خروج عن التدين الوسط ولذلك عدم قدرتهم على المحافظة عليها، فما قاموا بما التزموه حق القيام لمشقتها وصعوبتها. وبشر الله تعالى لمن يتدين بالتدين الوسط متذلل وجهه بالعبودية، مقرّا له بالألوهة كما أمر، وأطاع له في أمره ونهيه، فقد تمسك من رضا الله بإسلامه وجهه إليه وهو محسن، ما لا يخاف معه عذاب الله يوم القيامة[2]؛ كما في قوله ﷻ: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان:٢٢].

خاتمة:

التدين فطري في الإنسان، واتفق علماء المقارنة بين الأديان على اختلاف مللهم على ترسخ العقيدة الدينية في طبائع بني الإنسان، وإن اختلفوا في الباعث لهذه العقيدة. وقد حدد الله ﷻ طريقة العبادة، وكيفية أدائها، ومنهج سلوكها، فمن يخرج عنها فقد انحرف عن الدين، سواء كان الخروج زيادة أو نقصًا، فهو مغالاة، وحياد عن جادة الصواب وإن يحسبها الناس من الدين، على أنه تضحيات، أو طاعات، وفي الحقيقة ما هو إلا إساءة إلى الدين وأهله، ونبذ لتعاليم الدين، وهو مركب الغلو والتطرف والإفراط، وكذلك أحيانًا هو تشويه وتحريف وتلبيس، وهذا يسمى غلو التفريط والتضليل. والطريق الأوسط في التدين إتباع الكتاب والسنة كما ورد فيهما بدون تأويل، وإتباع الصحيح من الأقوال المستندة إلى كتاب الله والسنة الصحيحة، وإتباع الدليل الذي وضح استنباطه، وتبادر إلى فهمه، دون التواء، أو تمحل في فهم النص، أو إتباع الشواذ من

[1] انظر: ابن أبي حاتم، **تفسير القرآن العظيم**، ج٥، ص١٤٦٢.

[2] الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، ج٢٠، ص٤١٣.

الأقوال، وغرائب الأحكام. فالتدين الوسط في الدين كما يتضح من هذا العرض هو الإيمان بالنواميس العقدية كما جاء ذكرها في القرآن، ووصف بها جل وعلى، وفي الأحكام العملية أن تكون أفعال العباد خالصة لله وحد لا شريك له، وأن يعبد الله بطريق شرعه الله في القرآن والسنة، ولا يعبد عبادة مبتدعة، وهذا هو الطريق الذي سماه الله بالصراط المستقيم، الطريق الموصل للغاية، والطريق الوسط.

المصادر والمراجع:

١. ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: أسعد محمد الطيب، (مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز، ط٣، ١٤١٩هـ).

٢. ابن أبي الخير، أبو الحسين يحيى بن أبي الخير اليمني، **الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار**، تحقيق: سعود بن عبد العزيز الخلف، (الرياض: أضواء السلف، ط١، 1999م).

٣. ابن براك، عبد الرحمن بن ناصر، **شرح العقيدة الطحاوية**، إعداد: عبد الرحمن بن صالح السديس، (الرياض: دار التدمرية، ط٢، ٢٠٠٨م).

٤. ابن تيمية، **مجموع الفتاوي**، اعتناء وتخريج: عامر الجزار وأنور الباز، (المنصورة: دار الوفاء، ط٣، ٢٠٠٥م).

٥. ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن إسحاق، **كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عز وجل**، تحقيق: عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان (الرياض: مكتبة الرشيد، ط٥، ١٩٩٤م).

٦. ابن فارس، أحمد أبو الحسين، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (بيروت: دار الفكر، ١٩٧٩م).

٧. ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، ط٣، ١٤١٤هـ).

٨. أبو بكر الجزائري، **عقيدة المؤمن**، (السعودية: مكتبة العلوم والحكم).

٩. أبو حنيفة، النعمان بن ثابت، **الفقه الأكبر**، (الإمارات العربية: مكتبة الفرقان، ط١، 1999م).

١٠. الأشقر، عمر سليمان، **العقيدة في الله**، (الأردن: دار النفائس، ط١٢، ١٩٩٩م).

١١. البخاري، محمد بن إسماعيل، **الصحيح**، (دمشق: دار ابن كثير، ط٣، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م).

١٢. دراز، محمد عبد الله، **الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان**، (الكويت: دار القلم).

١٣. الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله، **مختصر العلو للعلي العظيم**، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، (دمشق: المكتب الإسلامي، ط٢، ١٩٩١م).

١٤. الزلمي، **حكم أحكام القرآن في العبادات، وأحكام الأسرة، والمعاملات المالية**.

١٥. الشعراوي، محمد متولي، **الخواطر**.

١٦. الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار، **منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات**، (الكويت: الدار السلفية، ط٤، 1984م).

١٧. الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، **الملل والنحل**، تحقيق: أمير علي مهنا، (بيروت: دار المعرفة).

١٨. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد، **جامع البيان في تأويل القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

١٩. الفِرْيابِي، أبو بكر جعفر بن محمد، **القدر**، تحقيق: عبد الله بن حمد المنصور، (الرياض: أضواء السلف، ط١، 1997م)
٢٠. الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٨، ٢٠٠٥م).
٢١. الفيومي، أحمد بن محمد بن علي، **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، (بيروت: المكتبة العلمية).
٢٢. القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم، **محاسن التأويل**، تحقيق: محمد باسل عيون السود، (بيروت: دار الكتب العلميه، ط١، ١٤١٨هـ).
٢٣. مسلم، ابن الحجاج أبو الحسن، **الصحيح**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).
٢٤. مصدق مجيد خان، **مفهومُ الدِّين ومَظاهِرُ التَّديُّن في القرآن الكريم، دراسة موضوعية تحليلية**.
٢٥. ياسين، محمد نعيم، **الإيمان: أركانه– حقيقته– نواقضه**، (القاهرة: دار عمر الخطاب للنشر والتوزيع).

ملامح الاعتدال والوسطية
من خلال زواج النبي ﷺ من امرأة كانت يهوديّة
دراسة قرآنيّة

أ. د. حمود بن عوض بن محمد السهلي[1]

ملخّص البحث:

هذه الورقة تتضمن بيان هدي القرآن والسنة حول تحليل زواج النبي ﷺ من صفية رضي الله عنها ابنة ذلك الزعيم اليهودي المقتول، والترحيب والاحتفاء بكل ما هو تصرف أو عمل إيجابي يسهم في رأب الصدع وجمع الكلمة وتحقيق التعايش وحماية البيئة، مهما كان مصدره، وحيثما كانت جهته، ولفت النظر إلى أن من أهم خصائص القرآن المحافظة على الضروريات الخمس، وتحقيق الأمن الفكري، والوطني، والاقتصادي، وتوظيف الموارد، وتكريس استراتيجية مؤسسات المجتمع المدني.

المقدمة:

من المعلوم بداهة أن أي خطة أو استراتيجية لا يكتب لها النجاح ولا الاستمرار ولا البقاء إذا لم تكن قائمة على ثلاثة أسس:

أولها: العلم: قال الله تعالى: ﴿فاعلم أنه لا إله إلا الله﴾ [محمد:١٩]، وقال تعالى: ﴿ولا تقف ما ليس بك به علم﴾ [الإسراء:٣٦]، وقال: ﴿ياأيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون • كبر مقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾ [الصف:٢-٣]؛ لأن الكلام على غير علم يستلزم الكذب على الله ورسوله، والكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، قال صلى الله عليه وسلم: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة»[2].

ثانياً: العمل وفق برنامج مدروس ومحكم، يراعي المصالح، ويعنى بالأوليات، بأسلوب سهل مرن، ويضع الأمور في نصابها؛ لتحقيق الأغراض والوصول إلى الأهداف التي من أجلها قام المشروع.

ثالثًا: الاعتدال والوسطية من أهم خصائص وسمات دين الإسلام، إذ مبناه على العدل في القضاء والاقتضاء، قال تعالى: ﴿ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا﴾ [هود:٨٩]، وقال ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته محرّماً بينكم فلا تظالموا»[3]، وقال تعالى: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ [البقرة:١٤٣].

---

[1] عضو هيئة التدريس في كلية الشريعة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وأستاذ الفقه ونوازل المعاملات المعاصرة في الدراسات العليا في الجامعة، وعضو التوعية الإسلامية في الحج. وعضو كرسي الأمير نايف بن عبد العزيز –رحمه الله– لدراسات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الجامعة.

[2] أخرجه أبو داود في **سننه**، ج٢، ٧١٥، رقم٤٩٨٩ وهو صحيح.

[3] أخرجه مسلم في **صحيحه**، ج٤، ص١٩٩٤، رقم٢٥٧٧.

ولما كانت ورقة العمل المقدمة للمؤتمر الدولي الثاني للقرآن والسنة، تحت موضوع: "الوحي والعلوم في القرن الواحد والعشرين"، والتي هي بعنوان: "ملامح الاعتدال والوسطية من خلال زواج النبي صلى الله عليه وسلم من امرأة كانت يهودية"، معنيّةً بإبراز وإظهار أهم الحقائق والمقاصد والأغراض التي تجسد الاعتدال والوسطية وتكرس لهما من خلال تحليل هذا الزواج والتفاصيل والوقائع التي ترتبت عليه، والآثار التي نتجت عنه، والتي تكشف للعالم اليوم أن الإسلام يرحب ويحتفي بكل تصرف أو عمل إيجابي يسهم في رأب الصدع، وجمع الكلمة ورص الصف، وزرع الطمأنينة، وتحقيق التعايش السلمي، وحماية البيئة، ورعاية المصالح لكل أطياف المجتمع مهما كان باعثه، وكيفما كانت وسيلته، هذا من وجه، ومن وجه آخر أن هذه الورقة معنيةٌ أيضًا بلفت النظر والتنبيه إلى أن من هدي وخصائص القرآن والسنة المحافظة على الضروريات الخمس: الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال، وتحقيق الأمن بكل أنواعه: (الفكري، والوطني، والاقتصادي)، وتوظيف الموارد، وتكريس الخطط والبرامج التي تتضمنها استراتيجيات مؤسسات المجتمع المدني ...

ومن هنا فسيورد الباحث وباختصار أهم ملامح الاعتدال والوسطية التي تزامنت أو نتجت من خلال زواج النبي صلى الله عليه وسلم بامرأة كانت على اليهودية، دينية، كانت أو اجتماعية، أو سياسية أيضًا، لأن السياسة عندنا من الدين، وفي الإسلام سياسة شرعية تقوم على الوسطية والاعتدال ورعاية المصالح، وحماية الحقوق، والمحافظة على الموارد والبيئة، مع الأخذ في الاعتبار أن استظهار هذه الملامح قائم في الغالب على الاستقراء والتتبع لأهم الأهداف والأغراض والدروس التي تحققت جراء هذا الزواج الميمون. وهو مساهمة علمية من الباحث في هذا المؤتمر الدولي الهام، يدلي بها دلوه، ويطرح رأيه، ويكثّر سواد المهتمين بهذا الحدث العالمي الهام من خلال هذه الورقة. فإليك الآن وباختصار أهم ملامح الاعتدال والوسطية من خلال زواج النبي صلى الله عليه وسلم من امرأة كانت يهودية في النقاط التالية:

النقطة الأولى: التعريف بهذه المرأة التي كانت على اليهودية، ثم تزوجها النبي صلى الله عليه وسلم:

هذه المرأة هي: صفية بنت حيي بن أخطب بن سعنة بن ثعلبة بن عبيد بن كعب بن الخزرج بن أبي حبيب بن النضير بن النحام بن تخوم، من بني إسرائيل من سبط هارون بن عمران. وأمها برة بنت سموءل، كانت صفية تحت سلام بن مشكل، وكان شاعراً، ثم خلف عليها كنانة بن أبي الحقيق، وهو شاعرٌ أيضًا، فقتل يوم خيبر، وتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم سنة سبع من الهجرة، وتوفيت في رمضان زمن معاوية سنة خمسين[1].

النقطة الثانية: الروايات الصحيحة التي تثبت هذا الزواج:

أ. جاء في صحيح مسلم عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ أَبِي طَلْحَةَ يَوْمَ خَيْبَرَ، وَقَدَمِي تَمَسُّ قَدَمَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَ: فَأَتَيْنَاهُمْ حِينَ بَزَغَتِ الشَّمْسُ وَقَدْ أَخْرَجُوا مَوَاشِيَهُمْ، وَخَرَجُوا بِفُئُوسِهِمْ، وَمَكَاتِلِهِمْ، وَمُرُورِهِمْ، فَقَالُوا: مُحَمَّدٌ، وَالْخَمِيسُ، قَالَ: وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ﴾[الصافات:١٧٧]»، قَالَ: وَهَزَمَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَوَقَعَتْ فِي سَهْمِ دِحْيَةَ جَارِيَةٌ جَمِيلَةٌ، فَاشْتَرَاهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِسَبْعَةِ أَرْؤُسٍ، ثُمَّ دَفَعَهَا إِلَى أُمِّ سُلَيْمٍ تُصَنِّعُهَا لَهُ

[1] ابن عبد البر، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، ج٤، ص٤٢٦-٤٢٧.

وَتُهَيِّئُهَا -قَالَ: وَأَحْسِبُهُ قَالَ- وَتَعْتَدُّ فِي بَيْتِهَا، وَهِيَ صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ، قَالَ: وَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَلِيمَتَهَا التَّمْرَ وَالْأَقِطَ وَالسَّمْنَ، فُحِصَتِ الْأَرْضُ أَفَاحِيصَ، وَجِيءَ بِالْأَنْطَاعِ، فَوُضِعَتْ فِيهَا، وَجِيءَ بِالْأَقِطِ وَالسَّمْنِ فَشَبِعَ النَّاسُ، قَالَ: وَقَالَ النَّاسُ: لَا نَدْرِي أَتَزَوَّجَهَا، أَمِ اتَّخَذَهَا أُمَّ وَلَدٍ؟ قَالُوا: إِنْ حَجَبَهَا فَهِيَ امْرَأَتُهُ، وَإِنْ لَمْ يَحْجُبْهَا فَهِيَ أُمُّ وَلَدٍ، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَرْكَبَ حَجَبَهَا، فَقَعَدَتْ عَلَى عَجُزِ الْبَعِيرِ، فَعَرَفُوا أَنَّهُ قَدْ تَزَوَّجَهَا، فَلَمَّا دَنَوْا مِنَ الْمَدِينَةِ، دَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَدَفَعْنَا، قَالَ: فَعَثَرَتِ النَّاقَةُ الْعَضْبَاءُ، وَنَدَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَنَدَرَتْ، فَقَامَ فَسَتَرَهَا، وَقَدْ أَشْرَفَتِ النِّسَاءُ، فَقُلْنَ: أَبْعَدَ اللهُ الْيَهُودِيَّةَ، قَالَ: قُلْتُ: يَا أَبَا حَمْزَةَ، أَوَقَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: إِي وَاللهِ، لَقَدْ وَقَعَ"[1].

ب. عن أنس رضي الله عنه قال: قَالَ صَلَّى النَّبِي صلى الله عليه وسلم الصُّبْحَ قَرِيبًا مِنْ خَيْبَرَ بِغَلَسٍ ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ، فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ». فَخَرَجُوا يَسْعَوْنَ فِي السِّكَكِ، فَقَتَلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم الْمُقَاتِلَةَ، وَسَبَى الذُّرِّيَّةَ، وَكَانَ فِي السَّبْيِ صَفِيَّةُ، فَصَارَتْ إِلَى دِحْيَةَ الْكَلْبِي، ثُمَّ صَارَتْ إِلَى النَّبِيصلى الله عليه وسلم، فَجَعَلَ عِتْقَهَا صَدَاقَهَا. فَقَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ صُهَيْبٍ لِثَابِتٍ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ! آنْتَ قُلْتَ لأَنَسٍ مَا أَصْدَقَهَا؟ فَحَرَّكَ ثَابِتٌ رَأْسَهُ تَصْدِيقًا لَهُ[2].

ج. عن ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَاتَلَ أَهْلَ خَيْبَرَ حَتَّى أَلْجَأَهُمْ إِلَى قَصْرِهِمْ، فَغَلَبَ عَلَى الْأَرْضِ وَالزَّرْعِ وَالنَّخْلِ، فَصَالَحُوهُ عَلَى أَنْ يُجْلُوْا مِنْهَا وَلَهُمْ مَا حَمَلَتْ رِكَابُهُمْ، وَلِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ الصَّفْرَاءُ وَالْبَيْضَاءُ، وَيَخْرُجُونَ مِنْهَا، فَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ أَنْ لَا يَكْتُمُوا، وَلَا يُغَيِّبُوا شَيْئًا، فَإِنْ فَعَلُوا، فَلَا ذِمَّةَ لَهُمْ وَلَا عِصْمَةَ، فَغَيَّبُوا مَسْكًا فِيهِ مَالٌ وَحُلِيٌّ لِحُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ، كَانَ احْتَمَلَهُ مَعَهُ إِلَى خَيْبَرَ حِينَ أُجْلِيَتِ النَّضِيرُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِعَمِّ حُيَيٍّ: «مَا فَعَلَ مَسْكُ حُيَيٍّ الَّذِي جَاءَ بِهِ مِنَ النَّضِيرِ»؟ فَقَالَ: أَذْهَبَتْهُ النَّفَقَاتُ وَالْحُرُوبُ. فَقَالَ ﷺ: «الْعَهْدُ قَرِيبٌ وَالْمَالُ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ»، فَدَفَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الزُّبَيْرِ بْنِ الْعَوَّامِ، فَمَسَّهُ بِعَذَابٍ، وَقَدْ كَانَ حُيَيٌّ قَبْلَ ذَلِكَ قَدْ دَخَلَ خَرِبَةً فَقَالَ قَدْ رَأَيْتُ حُيَيًّا يَطُوفُ فِي خَرِبَةٍ هَاهُنَا، فَذَهَبُوا فَطَافُوا، فَوَجَدُوا الْمَسْكَ فِي خَرِبَةٍ، فَقَتَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ابْنَيْ أَبِي حَقِيقٍ، وَأَحَدُهُمَا زَوْجُ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُيَيِّ بْنِ أَخْطَبَ، وَسَبَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نِسَاءَهُمْ وَذَرَارِيَّهُمْ، وَقَسَمَ أَمْوَالَهُمْ لِلنَّكْثِ الَّذِي نَكَثُوهُ، وَأَرَادَ أَنْ يُجْلِيَهُمْ مِنْهَا، فَقَالُوا: يَا مُحَمَّدُ! دَعْنَا نَكُونُ فِي هَذِهِ الْأَرْضِ نُصْلِحُهَا وَنَقُومُ عَلَيْهَا، وَلَمْ يَكُنْ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا لِأَصْحَابِهِ غِلْمَانُ يَقُومُونَ عَلَيْهَا، فَكَانُوا لَا يَتَفَرَّغُونَ أَنْ يَقُومُوا، فَأَعْطَاهُمْ خَيْبَرَ عَلَى أَنَّ لَهُمُ الشَّطْرَ مِنْ كُلِّ زَرْعٍ وَنَخْلٍ وَشَيْءٍ مَا بَدَا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ يَأْتِيهِمْ كُلَّ عَامٍ يَخْرُصُهَا عَلَيْهِمْ، ثُمَّ يُضَمِّنُهُمُ الشَّطْرَ، قَالَ: فَشَكَوْا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شِدَّةَ خَرْصِهِ، وَأَرَادُوا أَنْ يَرْشُوهُ فَقَالَ: يَا أَعْدَاءَ اللَّهِ أَتُطْعِمُونِي السُّحْتَ، وَاللَّهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ أحب الناس إلين وَلَأَنْتُمْ أَبْغَضُ إِلَيَّ، مِنْ عِدَّتِكُمْ مِنَ الْقِرَدَةِ وَالْخَنَازِيرِ، وَلَا يَحْمِلُنِي بُغْضِي إِيَّاكُمْ وَحُبِّي إِيَّاهُ عَلَى أَنْ لَا أَعْدِلَ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: بِهَذَا قَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ.قَالَ: وَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِعَيْنَيْ صَفِيَّةَ خُضْرَةً فَقَالَ: «يَا صَفِيَّةُ مَا هَذِهِ الْخُضْرَةُ»؟ فَقَالَتْ: كَانَ رَأْسِي فِي حِجْرِ بْنِ أَبِي حَقِيقٍ وَأَنَا نَائِمَةٌ، فَرَأَيْتُ كَأَنَّ

[1] مسلم، **الصحيح**، كتاب النكاح، باب فضيلة إعتاق أمته ثم يتزوجها، رقم١٣٥٦.

[2] البخاري، **الصحيح**، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم٤٢٠٠.

قَمَرًا وَقَعَ فِي حِجْرِي، فَأَخْبَرْتُهُ بِذَلِكَ فَلَطَمَنِي، وَقَالَ: تَمَنَّيْنَ مَلِكَ يَثْرِبَ؟ قَالَتْ: وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَبْغَضِ النَّاسِ إِلَيَّ، قَتَلَ زَوْجِي وَأَبِي وَأَخِي، فَمَا زَالَ يَعْتَذِرُ إِلَيَّ، وَيَقُولُ: «إِنَّ أَبَاكِ أَلَّبَ عَلَيَّ الْعَرَبَ وَفَعَلَ وَفَعَلَ» حَتَّى ذَهَبَ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِي"[1].

النقطة الثالثة: ملامح الاعتدال والوسطية التي تظهر من خلال المقاصد السياسية من زواجه ﷺ من امرأة من أصل يهودي:

تختص صفية رضي الله عنها عن غيرها من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم كونها من أصل يهودي، وفي هذا النقطة بالذات محاولة الوقوف على ما تتضمن هذه الخصوصية من معانٍ تُظهر ملامح الاعتدال والوسطية في التعامل مع اليهود، من خلال الزواج بصفية رضي الله عنها، وبالأخص إذا استوعبنا ما غلب على اليهود من الصفات السلبية التي تتمثّل في قتل الأنبياء، والقول على الله بالبداء، والخداع والمكر، وأكل أموال الناس بالباطل، والجبن، والخيانة، والنظرة الدونية للأمم الأخرى، التي تتجلى في اعتبار الأمميّ حمارًا أو حيواناً خُلق على شكل إنسان لئلا يستوحش منه اليهودي ويتسنى له تسخيره واستخدامه...إلى غير ذلك مما يطول ذكره. غير أن ذلك كله لا يعني أن اليهودي إنسان لا يرجى خيره، ولا يؤمن شره، أو هو ميئوس من صلاحه، أو إصلاحه؛ بل هداية الله له ممكنة، وصلاحه غير متعذّرٍ، مع حسن الخلق ولين الكلام وجميل التعامل، والعدل، يستوحى ذلك من المنطلقات الآتية:

(١) أن الله نفى ما ادّعى اليهود والنصارى من البنوة له سبحانه، وتماديهم في رفع أنفسهم على ما حكى القرآن عنهم في قوله تعالى: ﴿وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه﴾ [المائدة:١٨]. وما أثبتهمن مسخ في حق فئة منهم، ومع ذلك لم يتمادَ القرآن في الحطّ من شأنهم، بل عدّهم من البشر ولم يصفهم بأبناء القردة والخنازير، ولم يسايرهم تجاه ما قالوا في غيرهم من البشر ممن زعموهم "أمميّين"، ولم تكن معاملة القرآن بالمثل؛ بل كانت بالحق والعدل على مقتضى قول الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء ...﴾ [المائدة:٨]، أضف إلى ذلك ما جاء في السنة.

(٢) أن القرآن يقرّر بعدالته ووسطيته أن اليهود داخلون في عموم الخطاب الشرعي في قوله تعالى: ﴿يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة ...﴾ [المائدة:١٩]؛ ووصفهم بما فيه تشريف لهم، وذلك بقوله: أهل الكتاب، كما أن في هذا الوصف حجة عليهم. ويقرّر بأن فيهم من يرجى إيمانه كغيره من المخاطبين، وهذا يعني أن القرآن قد عدل في خطابهم والحكم عليهم، وأن اليهودي قد ينفكّ عما لازمه من سلبي الصفات.

(٣) أن اليهودي داخل في عموم قوله صلى الله عليه وسلم: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»[2]. وعليهفاليهودي عنده فطرة ترشده إلى الحق إلا أنها طمست بما نُشّئ عليه من تعاليم عزّزت في نفسه وعقليته التعالي على الأمم الأخرى، مما جعله يزعم بأنه صاحب الحق في كل شيء، ويناصب المخالف له العداء، ذلك العداء الذي

[1] ابن حبان، **الصحيح**، كتاب المزارعة، برقم٥١٩٩.

[2] البخاري -واللفظ له-، **الصحيح**، ج١، ص٤٦٥، رقم١٣١٩؛ ومسلم، **الصحيح**، ج٤، ص٢٠٤٧، رقم٢٦٥٨.

لا زال يؤجج في الشخصية اليهودية مشاعر الكراهية والاستغلال والظلم. ومع ذلك ففي هذا الزواج وهذه النصوص ما يقرر بأن تطهير هذه الفطرة من الأدران التي دنّستْها واردٌ وممكنٌ، وأن اليهوديّ لا زال باقيًا في دائرة من يرجى خيره.

(٤)أن القرآن يبيّن أن عندااليهود علم، وأ،نهم لم يعملوا به، ويدعوهم إلى إعمال عقولهم لإصلاح هذا التخالف بين العلم والعمل، ويثبت بعدله ووسطيته ما كان عندهم من خير أو فضل، ثم يدعوهم إلى ما يستلزمه ذلك الفضل من تمام الكمال، وفي هذا ارتقاء بهم في الخطاب، وارتقاء بهم فيما يرتجى منهم من تفعيل قدراتهم العقلية.

(٥) أن القرآن قد أنصف اليهود بعدم التسوية بين الصالح منهم وغيره في قوله تعالى: ﴿ليسوا سواء﴾ [آل عمران:١١٣]؛ ليكون هذا التمييز تخصيصًا للنصوص العامة التي تتحدث عن بني إسرائيل أو أهل الكتاب، والتي روعي فيها الغالب من أحوالهم، باعتبار المجموع لا خصوص الأفراد.

(٦) القرآن يحتفي بمن آمن من اليهود كعبد الله بن سلام ليكون له شرف الشهادة للنبي ﷺ بصدق النبوة، مقيمًا الحجة على قومه، حيث قال: ﴿قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به ...﴾ [الأحقاف:١٠].

(٧) وثيقة المدينة تعتبر المسلمين واليهود أمة واحدة في التعايش في الوطن الواحد، وشركاء في المصالح والمكتسبات المشتركة، حتى بدر منهم من الغدر والخيانة ما استحقّوا به القتل والإجلاء. رغم التعايش وعدم التمييز بينهم وبين المسلمين في الحياة العامة والمصالح المشتركة، والحقوق المدنيّة، بل كان النبي عليه الصلاة والسلام يزورهم ويقبل دعواتهم وهداياهم، ولا أدلّ على ذلك من قصة الغلام اليهودي الذي كان يخدم النبي صلى الله عليه وسلم، على ما رواه أنس قال: "كان غلام يهودي يخدم النبي ﷺ، فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه فقال له: «أسلم»[١].

وأكله صلى الله عليه وسلم من الشاة المسمومة التي أهدتها له اليهودية، والتي كانت سببًا في وفاته. كل هذا يلخص ملامح العدل والوسطية المستوحاة من المعاني المتقدمة، فيما يتعلق بالنظرة إلى اليهود وكيفية التعامل معهم. وأن علاقة النبي صلى الله عليه وسلم مع اليهود قائمة على حسن النية وافتراض الخير فيهم ومعاملتهم وفق هذا الأصل، وهو أصل مكين في الشريعة الإسلامية يتناول اليهود وغيرهم غير أنه تجلى مع اليهود لأنهم كانوا يساكنون النبي في المدينة في بداية تأسيس الدولة، إلا أن هذا الأصل متى انتقض بفعل ما يوجب العقوبة فالحكم حينئذ لا يختص باليهود دون غيرهم؛ إذ الأحكام الشرعية ترتبط بأفعال المخالفين لا بأشخاصهم وأوصافهم، مع الإشارة إلى أن تكرر الجريمة من شخص أو فئة يستلزم الحذر والحيطة والاستعداد دون ابتدار الاتهام أو العقاب.

النقطة الرابعة: ملامح الاعتدال والوسطية التي تظهر من خلال مراعاة التركيب السكاني للدولة الإسلامية.

كان مجتمع المدينة يتكون من المسلمين واليهود وإيقاع العقوبة على من أتى بموجبها من اليهود لا يعني الانتقاص من حقوق هذا المكوّن من مكونات الدولة، أو مناصبتهم العداء والرفض؛ ليكون الزواج من صفية مؤكّداً لهذا المبدأ، فقد كان زواج النبي

[١] البخاري، **الصحيح**، ج١، ص٤٥٥، رقم١٢٩٠.

صلى الله عليه وسلم صفية في أعقاب ما أوقع باليهود من العقوبة، لتكون الرسالة التي يوصلها الرسول صلى الله عليه وسلم لهذه الطائفة في الدولة أن المرحمة هي الأصل في التعامل، والملحمة لمن خان وغدر وحارب.

وهنا تظهر الحكمة في قرار النبي صلى الله عليه وسلم في الزواج من صفية، لا مجرد ملك اليمين، فالزواج تكريم لها، كما أنه تكريم لقومها بأن يكونوا أصهار رئيس الدولة، وإن كانوا على يهوديتهم، فالمصاهرة لا تتأثر باختلاف الدين، في حين أن ملك اليمين فيه إذلال لها، وقد كانت سيدة قومها، كما أن فيه إثارة حمية قومها بأن تكون سيدتهم سبية مملوكة، يؤكد هذا المعنى أن الرسول صلى الله عليه وسلم صرّح بأنه سيردّها إلى قومها ما لو اختارت اليهودية والرقّ ... هذا وقد أهدى المقوقس إلى النبي صلى الله عليه وسلم مارية القبطية فلم يتزوجها، بل تسرّى بها، في حين تزوج صفية، وقد كانت على اليهودية، ذلك أنها لم يسبق لها رق؛ بل كانت سيدة قومها، ولا كذلك مارية، فالرقّ امتهان، ولا يليق لنبي أن يكون لزوجته سبق ملك، كما أن صفية من قوم يهود، واليهود يسكنون مع المسلمين في الدولة الإسلامية، بينما النصارى قلة، ومصاهرة اليهود من شأنها تهذيب العصبيات وتخفيف العداوات، وفيه بثّ شعور الثقة بالقيادة الجامعة، ما لعلّه يكون سببًا في تقوية الانتماء للدولة[1]، وقد يكون الأمر خاصًّا به صلى الله عليه وسلم، وأنه لم يرتض مارية القبطية زوجة له، وارتضى صفية، والله أعلم.

النقطة الخامسة: ملامح الاعتدال والوسطية التي تظهر من خلال تهذيب النزعة العصبية في المجتمع، وتصحيح مسارها.

ملامح الاعتدال والوسطية تظهر من خلال تهذيب النزعة العصبية في المجتمع، وتكريس حفظ الحقوق، والعدل بين الخصوم، ووسطية القوامة، وتعليم الأمة من خلال سياسة وإدارة الأسرة، تظهر آثارهمن خلال تعيير بعض أزواجه صلى الله عليه وسلم لصفية بأنها يهودية في أكثر منمناسبة، فعند مقدمه بها صلى الله عليه وسلم إلى المدينة من خيبر أشرف النساء يتراءين صفية فلما رأينها قلن: "أبعد الله اليهودية"، فلما لم يواجهنه صلى الله عليه وسلم بهذه المقالة، لم يكن منه تعقيب على مقالتهن حتى جاء التعيير مرّة أخرى، فعن أنس قال: "بَلَغَ صَفِيَّةَ أَنَّ حَفْصَةَ قَالَتْ: بِنْتُ يَهُودِيٍّ، فَبَكَتْ، فَدَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ ﷺ وَهِيَ تَبْكِي، فَقَالَ: «مَا يُبْكِيكِ»؟ فَقَالَتْ: قَالَتْ لِي حَفْصَةُ: إِنِّي بِنْتُ يَهُودِيٍّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَإِنَّكِ لاَبْنَةُ نَبِيٍّ، وَإِنَّ عَمَّكِ لَنَبِيٌّ، وَإِنَّكِ لَتَحْتَ نَبِيٍّ، فَفِيمَ تَفْخَرُ عَلَيْكِ»؟ ثُمَّ قَالَ: «اتَّقِي اللَّهَ يَا حَفْصَةُ»[2]. فالنبي صلى الله عليه وسلم هنا يعظ حفصة لما في قولها من إيذاء لصفية، وإلا فهو حق، فصفية حقًّا بنت يهودي، غير أن هذا الوصف يرمز إلى كونها من قوم غدروا العهد، وقاتلوا الرسول، وهو مؤذٍ لصفية، ويحمل الانتقاص من قدرها، فكان محرّماً، وكان النهي بما لا إغلاظ فيه على حفصة أو عقوبة، سيما ودافعها إلى هذا القول هو الغيرة فحسب. ومن جهة أخرى فإنه لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحج برك جمل صفية، فأمر زينب رضي الله عنها –وكانت أكثر أزواجه ظَهراً– أن تفقر صفية جملًا، فقالت:

[1] **مجلة إسلامية المعرفة**، العدد ٤٠.

[2] الترمذي، **السنن**، كتاب المناقب، باب فضل أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، برقم٣٨٩٤.

"أَنَا أُفْقِرُ يَهُودِيَّتَكَ، فَغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ سَمِعَ ذَلِكَ مِنْهَا، فَهَجَرَهَا، فَلَمْ يُكَلِّمْهَا حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ ..."[1]. ففِعْل زينب فيه زيادة في الحرمة عما كان من حفصة بما استوجب العقوبة، فهي تترفع عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم، وتمنع فضلًا عن محتاج، سيما والمحتاج امرأة في سفر، قد انقطعت بها راحلتها، وتنسب صفية أيضًا إلى اليهودية بعد إسلامها، وتخاطب رسول الله بقولها: "يهوديتك"، بما في ذلك من مجافاة للتوقير الواجب لرسول الله صلى الله عليه وسلم بنص القرآن، وفوق ذلك قولها: "أنا أفقر يهوديتك"، فقولها: "أنا" يومئ إلى شيء من التعالي واعتقاد فضلٍ فيها ليس في صفية، وبالأخص أنها ابنت عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لذا كان تعامل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع هذه النزعة وتدرّجه بين التجاهل والوعظ والعقوبة، وذلك بحسب ما ارتبط بالقول من مغلظات، أو بحسب ما انتهى إلى علمه منه يكرس ملامح الاعتدال والوسطية. أما الحكم الشرعي العام فهو الحرمة في كل حال، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُوا خَيْراً مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَى أَن يَكُنَّ خَيْراً مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات:١١]، فقد نزلت في بعض أزواج النبي ﷺ على أقوال مختلفة، منها تعييرهن صفية بقولهن: "يهودية بنت يهوديين"[2]، ولا شك أن التعيير باليهودية أعظم لما فيه من خطر تكفير المسلم، مع الإشارة إلى وضوح التحريم في الآية تحريما مقترنا بالتغليظ والوعيد، وحيث كان كذلك يكون مستوجبًا للعقوبة دنيوية كانت أو أخروية، فلعلك تلحظ هنا أن النبي ﷺ من خلال هذه الأحكام يهذب العصبية ويحكم بالعدل، ويكرس للوسطية، ويعالج آثار ما أخبر عن تحققه ووجوده بين الناس تصريحاً أو تلميحًا من التفاخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والغض من شأن الغير تصريحا أو تلميحا مما لا زلنا نشهده حتى يومنا هذا، مصداقًا لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالْاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ»[3].وقوله صلى الله عليه وسلم: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ»[4].

هذا ما جاد به القلم، وسمح به الوقت، وأمكن عرضه في هذه الورقة، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

خاتمة في أهمّ نتائج البحث:

الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات، وتدوم بشكره النعم، وهذه أهم نتائج البحث:

[1] أحمد، **المسند**، كتاب مسند النساء، برقم٢٦٨٦٦.

[2] القرطبي، **التفسير**، ج١٦، ص٣٣٠.

[3] مسلم، **الصحيح**، كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة، برقم٩٣٤.

[4] أبو داود، **السنن**، كتاب الأدب، باب في العصبية، برقم٥١٢١.

(١) أن أي خطة أو استراتيجية لا يكتب لها نجاح ولا استمرار ولا بقاء ما لم تكن قائمة على العلم، والعمل وفق برنامج مدروس ومحكم، يراعي المصالح ويعتني بالأولويات، ويرتكز على الاعتدال والوسطية التي هي من أهمّ خصائص وسمات نجاح أيّ دعوة أو مشروع.

(٢) أن المصاهرة من أهم وسائل تهذيب العصبيات، وتخفيف العداوات، وتقوية الانتماء للدولة، والشعور بالثقة في القيادة الجامعة.

(٣) أن الوسطية والاعتدال ورعاية المصالح وحماية الحقوق، والمحافظة على الموارد والبيئة، والاستفادة من نتاج مؤسسات المجتمع المدني من أهم الركائز والمنطلقات التي تشترك فيها كافة الأطياف، ويقوم على أساسها نسيجها وتعايشها في الوطن الواحد، ووثيقة المدينة بين المسلمين واليهود في العصر الأول شاهدٌ على ذلك.

(٤) أن إيقاع العقوبة على من أتى بموجبها لا يعني الانتقاص من الحقوق، وليس خاصًّا باليهود؛ إذ الأحكام الشرعية ترتبط بأفعال المكلفين لا بأشخاصهم وأوصافهم، وقد كانت علاقة النبي صلى الله عليه وسلم مع اليهود الذين كانوا يساكنونه المدينة في بداية تأسيس الدولة وتعامله معهم قائماً على حسن النيّة وافتراض الخير الذين هما أصلٌ وأساسٌ لأي كيان أو دولة تجمع بين شرائح وأطيافٍ مختلفة من الناس.

أهم توصيات الباحث:

١. العمل على إيجاد مركز دولي يُعنى بدراسة السيرة النبوية الصحيحة، والوقوف على أهم ركائز السياسة الشرعية التي سار عليها النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى الله وتأسيس دولة الإسلام من بداية بعثته إلى أن تمّ هذا الدين في حجة الوداع، والاستفادة منها في تطوير المجتمع، ورسم معادلة التغيير.

٢. رصد ودراسة كلّ المعاملات والتصرفات والخطط والبرامج وأدوات الترشيد والاستهلاك، ونظام الزكاة والصدقات، ومشروع الإخاء بين الأنصار والمهاجرين، وسياسة الحرب والسلم، والمكاتبات، وبعث الرسل، والتعامل مع المخالفين، والاعتناء بدور المرأة، عبر هذا المركز، واعتبار أن ذلك كله مهمّ وأساس في الإصلاح، والنهوض بالمجتمع الإسلامي في هذا الزمان.

المصادر والمراجع:

١. ابن حبان، **الصحيح**، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق وتعليق: شعيب الأرنؤوط، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م).

٢. ابن عبد البر، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، تحقيق: علي محمد البجاوي، (بيروت: دار الجيل، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

٣. أبو داود، **السنن**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، تعليقات كَمَال يوسُفْ الحوُت، مذيل بأحكام الألباني، (بيروت: دار الفكر).

٤. أحمد بن حنبل، **المسند**، المحقق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م).

٥. البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله الجعفي، **الصحيح**، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، (اليمامة – بيروت: دار ابن كثير، ط٣ ، ١٤٠٧/١٩٨٧م).

٦. الترمذي، **السنن**، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، (مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ط٢، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م).

٧. القرطبي، **التفسير**، تحقيق: هشام سمير البخاري، (الرياض: دار عالم الكتب، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م).

٨. **مجلة إسلامية المعرفة**، العدد ٤٠.

٩. مسلم، **الصحيح**، تحقيق: مجموعة من المحققين، (بيروت: دار الجيل، مصورة من الطبعة التركية المطبوعة في إستانبول سنة ١٣٣٤هـ).

منظور القرآن والسنة في الوسطية والاعتدال

مالك حسين شعبان حسن[1]

ملخص البحث:

كثر استعمال مصطلح الوسطية والاعتدال عند كثير من الناس استعمالاً فضفاضًا؛ حتى أصبحت الوسطية والاعتدال في مفهومهم تعني التساهل والتفريط، من غير ضوابط يرجع إليها من نصوص الوحي، ومردُّ ذلك إلى الهوى، فكان هذا البحث لمناقشة هذه القضية، وبيان الحق فيها. فنريد أن نبين معنى الوسطية والاعتدال لغة وشرعا، وأن الوسطية تكون بين الغلو والجفاء، وبين الإفراط والتفريط، وذلك ببيان معاني هذه المصطلحات، وأن كلاً من الغلو والإفراط خروج عن الوسطية والاعتدال، وكذلك الجفاء والتفريط يخالفهمت. وأن نذكر ملامح وسمات الوسطية والاعتدال المتمثلة في الخيرية، والاستقامة، واليسر ورفع الحرج، والحكمة، والعدالة. والوسطية والاعتدال في العبادة في القرآن والسنة أنموذجًا، متبعا فيه المنهج الاستقرائي الوصفي.

المقدمة:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد ألا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد! فإن الله تعالى ميز هذه أمة الإسلام بالوسطية والاعتدال، وجعل هذه الأمة أفضل الأمم، وجعل المنتمين إليها عدولًا خيارًا؛ فقال ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة:١٤٣]. وقد رسم الشرع منهجًا واضحًا لأداء العبادة، فنرى أن الإسلام وسط بين تفريط وجفاء اليهود، وإفراط وغلو النصارى، وقد عالج الرسول ﷺ ما كان يظهر من بوادر إما إلى إفراط، وإما إلى تفريط؛ حفظًا للدِّين من أن يقع فيه انحراف كما وقع في الأمم السابقة. ومن أجل الحفاظ على منهج الإسلام في الوسطية، وتجلية معناها، وما يضادها، جاء هذا البحث.

المطلب الأول: الوسطية والاعتدال لغة واصطلاحا:

الوسطية لغة: جاءت كلمة (وسط) في اللغة لعدّة معانٍ، ولكنها مُتقاربة في مدلولها عند التأمّل في حقيقتها ومآلها. قال ابن فارس: "(وسط) الواو والسين والطاء: بناءٌ صحيح يدلُّ على العَدل والنِّصف. وأعْدلُ الشَّيءِ: أوسَطُه ووَسَطُه. قال الله ﷻ: ﴿أُمَّةً وَسَطاً﴾ [البقرة:١٤٣]"[2].

وبالرجوع إلى كتب اللغة نجد كلمة (وسط) ضبطت بسكون السين وفتحها.

فمعنى (وسْط) -بسكون السين-: فتكون ظرفًا بمعنى "بين".

---

[1] أستاذ مساعد، قسم الشريعة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (فرع إندونيسيا).

٢ ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج٦، ص١٠٨.

أمَّا (وسَط) -بفتح السين- فيرجع إلى المعاني التالية:

تكون اسمًا لما بين طرفي الشيء وهو منه، وتأتي صفة بمعنى: خيار، وأفضل، وأجود، وتأتي بمعنى: عدل، وتأتي بمعنى الشيء بين الجيد والردئ.[1]

وكيفما تصرفت هذه اللفظة، نجدها لا تخرج في معناها عن معاني: العدل، والبينية، والخيرية، والفضل، والنصف، والتوسط بين الطرفين، فهذه كلُّها معان مُتقاربة في مدلولها.

الاعتدال لغة: مصدر اعتدل، قال ابن منظور: "العَدْل ما قام في النفوس أَنه مُسْتقيم وهو ضِدُّ الجَوْر"[2]. وذكر الفيروز آبادي أنَّ الاعتدال: توسط حال بين حالين في كم أو كيف، وكل ما تناسب فقد اعتدل، وكل ما أقمته فقد عدَلته وعدّلته والعدول: هم الخيار، وأنَّ مِنْ معاني العدل والاعتدال: الحكم بالعدل، والميزان، والتزكية، والمثل، والنظير، والتسوية، والاستقامة، والتوسط، والتقويم، والمساواة، والإنصاف[3].

الوسطية والاعتدال اصطلاحًا:

بالنظر في المعنى اللغوي لمعنى الوسطية والاعتدال، وكذلك في كلام أهل العلم يمكن أن نخلص بالتعريف الآتي: هو التزام المنهج الأقوم، المتمثل في الخيرية، والاستقامة، واليسر ورفع الحرج، والحكمة، والعدل بين الغلو والجفاء، وبين الإفراط والتفريط.

المطلب الثاني: معنى الوسطية في القرآن الكريم والسُّنَّة النَّبويَّة:

وردت مادة (وسط) في القرآن الكريم بعدَّة تصاريف؛ هي: (وسطًا، الوسطى، أوسط، أوسطهم، وسطن).

قال الدامغاني: "تفسير الوسط على وجهين: العدل، الوسط بعينه.

فوجهٌ منهما، وسطًا أي: عدلًا؛ قوله تعالى في سورة البقرة: و﴿كذلك جعلناكم أمة وسطًا﴾ [١٤٣البقرة:]، يعني: عدلًا، وقوله تعالى: ﴿من أوسط ما تطعمون أهليكم﴾ [المائدة:٨٩]، يعني: أعدل.

والوجه الثاني: الوسط بعينه؛ قوله سبحانه وتعالى في سورة البقرة: ﴿والصلوة الوسطى﴾ [البقرة:٢٣٨] يعني: صلاة العصر، وقيل: الصبح"[4].

وقال الراغب الأصفهاني: "والوسط تارة يقال فيما له طرفان مذمومان. يقال: هذا أوسطهم حسبًا: إذا كان في واسطة قومه، وأرفعهم محلًا، وكالجود الذي هو بين البخل والسرف، فيستعمل استعمال القصد المصون عن الإفراط والتفريط، فيمدح

---

١ انظر: الجوهري، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، ج٣، ص١١٦٧-١١٦٨؛ وابن منظور، **لسان العرب**، ص٤٨٣١-٤٨٣٤؛ والفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، ص٦٩١-٦٩٢.

٢ ابن منظور، **لسان العرب**، ص٢٨٣٨.

٣ انظر: الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، ص١٠٣٠.

٤ الدامغاني، **قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم**، ص٤٨٨.

به نحو السواء والعدل والنصفة، نحو: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾ [البقرة:١٤٣]، وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿قال أوسطهم﴾ [القلم:٤٨]"[١].

وقال ابن الأثير معنى الوسط في الأحاديث النبوية: "وفيه «خير الأمور أوساطها» كل خصلة محمودة فلها طرفان مذمومان؛ فإن السخاء وسط بين البخل والتبذير، والشجاعة وسط بين الجبن والتهور، والإنسان مأمور أن يتجنب كل وصف مذموم، وتجنبه بالتعري منه والبعد عنه، فكلما ازداد منه بعدًا ازداد منه تعرِّيًا.

وأبعد الجهات والمقادير والمعاني من كل طرفين وسطهما، وهو غاية البعد عنهما، فإذا كان في الوسط فقد بعد عن الأطراف المذمومة بقدر الإمكان"[٢].

وقد ثبت عن النبي ﷺ تفسير الوسط في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة:١٤٣] بالعدل؛ فَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخدري رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَجِيءُ نُوحٌ وَأُمَّتُهُ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ. فَيَقُولُ لأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لاَ، مَا جَاءَنَا مِنْ نَبِيٍّ. فَيَقُولُ لِنُوحٍ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ ﷺ وَأُمَّتُهُ، فَنَشْهَدُ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ، وَهُوَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ وَالْوَسَطُ الْعَدْلُ»[٣].

قال الطبري عند تفسير آية البقرة: "وأما (الوسط)، فإنه في كلام العرب الخيار. يقال منه: "فلان وسط الحسب في قومه"، أي: متوسط الحسب، إذا أرادوا بذلك الرفع في حسبه، و(هو وسط في قومه، وواسط)، ... ثم قال: وأنا أرى أن (الوسط) في هذا الموضع، هو (الوسط) الذي بمعنى: الجزء الذي هو بين الطرفين، مثل: (وسّط الدار) محرك الوسط مثقله، غير جائز في (سينه) التخفيف.

وأرى أن الله تعالى ذكره إنما وصفهم بأنهم (وسط)، لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه، غلو النصارى الذين غلوا بالترهب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه، تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله، وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم، وكفروا به؛ ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه. فوصفهم الله بذلك، إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها"اهـ[٤].

وعلَّق ابن حجر على كلام الطبري بعد أن نقله باختصار: "قلت: لا يلزم من كون الوسط في الآية صالحًا لمعنى التوسط، أن لا يكون أريد به معناه الآخر كما نص عليه الحديث، فلا مغايرة بين الحديث وبين ما دل عليه معنى الآية، والله أعلم"اهـ[٥].

---

١ الراغب الأصبهاني، **المفردات في غريب القرآن**، ص٥٢٢.

٢ ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ج٥، ص١٨٤.

٣ أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿إنا أرسلنا نوحا إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم﴾ [نوح:١] إلى آخر السورة. ص٤٥١، رقم٣٣٣٩، وأطرافه في [٤٢١٧، ٦٩١٧].

٤ الطبري، **جامع البيان عن تأويل القرآن**، ج٣، ص١٤١-١٤٢، باختصار.

٥ ابن حجر، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ج٨، ص١٧٢-١٧٣.

وقال القسطلاني في بيان معنى الوسط في الآية: "خيارًا، وقيل للخيار وسط؛ لأن الأطراف يتسارع إليها الخلل والأوساط محمية، قال حبيب:

كانت هي الوسط المحميّ فاكتنفت بها الحوادث حتى أصبحت طرفا

أو عدولاً؛ لأن الوسط عدل بين الأطراف ليس إلى بعضها أقرب من بعض، أي: جعلناكم أمة وسطًا بين الغلوّ والتقصير، فإنكم لم تغلوا غلوّ النصارى؛ حيث وصفوا المسيح بالألوهية، ولم تقصروا تقصير اليهود؛ حيث وصفوا مريم بالزنا وعيسى بأنه ولد الزنا"اهـ[1].

المبحث الثالث

المعاني المضادة للوسطية والاعتدال

بعد أن عرفنا معنى الوسطية والاعتدال، لا بدَّ من الوقوف والتعرف على المعاني المضادة للوسطية والاعتدال؛ وهي: الغلو، والجفاء، والإفراط، والتفريط.

المطلب الأول: معنى الغلو في اللغة والاصطلاح

١- الغلو في اللغة: مجاوزة الحد. قال ابن فارس: "الغين واللام والحرف المعتل أصلٌ صحيحٌ في الأمر، يدلُّ على ارتفاع ومجاوَزةِ قَدْر. يقال: غَلاَ السِّعر يغلو غَلاءً، وذلك ارتفاعُه. وغَلاَ الرَّجلُ في الأمر غُلُوّاً، إذا جاوَزَ حدَّه. وغَلاَ بسَهْمِه غَلْوَاً، إذا رَمَى به سَهْماً أقصى غايتِه"[2]. وقال ابن منظور: "وغَلا في الدِّينِ والأَمْر يَغْلُو غُلُوّاً جاوَزَ حَدَّه وفي التنزيل: ﴿لا تَغْلُوا في دينِكم﴾"[3].

٢- الغلو في استعمال الشرع: ورد لفظ الغلو في موضعين من القرآن الكريم، وكلاهما بمعنى: مجـــاوزة الحد. فالأول في قوله ﷻ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء:١٧١].

والثاني في قوله ﷻ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ [المائدة:٧٧].

قال الطبري: "يعني جل ثناؤه بقوله: يا أهل الكتاب، يا أهل الإنجيل من النصارى لا تغلوا في دينكم، يقول: لا تجاوزوا الحق في دينكم فتفرطوا فيه، ولا تقولوا في عيسى غير الحق، فإن قيلكم في عيسى إنه ابن الله، قول منكم على الله غير الحق؛ لأن الله لم يتخذ ولدًا فيكون عيسى أو غيره من خلقه له ابنًا، ولا تقولوا على الله إلا الحق. وأصل (الغلو)، في كل شيء مجاوزة حده الذي هو حده"[4].

---

١ القسطلاني، **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**، ج١٠، ص٢٧٧.

٢ ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج٤، ص٣٨٧-٣٨٨.

٣ ابن منظور، **لسان العرب**، ص٣٢٩٠.

٤ الطبري، **جامع البيان عن تأويل القرآن**، ج٩، ص٤١٦.

وقال ابن كثير في بيان معنى الغلو المنهي عنه في الآية: "أي: لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق، ولا تُطْرُوا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه، حتى تخرجوه عن حَيّز النبوة إلى مقام الإلهية، كما صنعتم في المسيح، هو نبي من الأنبياء، فجعلتموه إلها من دون الله، وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخ الضلال، الذين هم سلفكم ممن ضل قديمًا"[1].

وفي السُّنَّة: ورد لفظ (الغلو) في عدد من الأحاديث؛ أذكر منها حديثين:

الأوَّل: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ غَدَاةَ الْعَقَبَةِ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ: «الْقُطْ لِي حَصًى»، فَلَقَطْتُ لَهُ سَبْعَ حَصَيَاتٍ، هُنَّ حَصَى الْخَذْفِ، فَجَعَلَ يَنْفُضُهُنَّ فِي كَفِّهِ، وَيَقُولُ: «أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ، فَارْمُوا»، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّهُ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ»[2].

قال ابن تيمية: "وقوله: «إياكم والغلو في الدين» عام في جميع أنواع الغلو، في الاعتقادات والأعمال، والغلو: هو مجاوزة الحد بأن يزاد الشيء، في حمده، أو ذمه على ما يستحق، ونحو ذلك. والنصارى أكثر غلوًّا في الاعتقادات والأعمال من سائر الطوائف، وإياهم نهى الله عن الغلو في القرآن، في قوله تعالى: يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم. وسبب هذا اللفظ العام: رمي الجمار، وهو داخل فيه؛ فالغلو فيه مثل رمي الحجارة الكبار ونحو ذلك، بناء على أنه أبلغ من الحصى الصغار، ثم علَّل ذلك: بأن ما أهلك من قبلنا إلا الغلو في الدين، كما تراه في النصارى، وذلك يقتضي: أن مجانبة هديهم مطلقًا أبعد عن الوقوع فيما به هلكوا، وأن المشارك لهم في بعض هديهم يخاف عليه أن يكون هالكًا"[3].

أمَّا الحديث الثَّاني: فَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ» قَالَهَا ثَلَاثًا[4].

قال النووي: "هلك المتنطعون، أي: المتعمقون المغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم"[5].

المطلب الثاني: معنى الجفاء في اللغة والاصطلاح

١- الجفاء في اللغة: قال ابن فارس: "الجيم والفاء والحرف المعتل يدلُّ على أصلٍ واحد: نبوّ الشيء عن الشيء. من ذلك جفَوْتُ الرّجُلَ أجْفُوه، وهو ظاهر الجِفْوة أي الجَفَاء. وجَفَا السَّرْجُ عن ظهر الفَرَس وأجفيته أنا. وكذلك كلُّ شيءٍ إذا لم يَلْزَم [شيئاً] يقال جَفَا عنه يَجفُو، ... خلاف البِرّ. والجُفَاء: ما نفاه السَّيل، ومنه اشتقاق الجَفَاء"[6].

وقال ابن منظور: "جَفَا الشيءُ يَجْفُو جَفَاءً وتَجافَى: لَمْ يلزم مكانَه؛ كالسَّرْجِ يَجْفُو عن الظَّهْر، وكالجَنْب يَجْفُو عن الفِراشِ، وجَفَا جنْبُه عن الفراش وتَجافَى نَبَا عنه ولم يطمئنّ عليه، ... وفي التنزيل: تَتَجافى جُنُوبُهم عن المضاجع، ... وفي الحديث: أَنه كان يُجافي عَضُدَيْه عن جَنْبَيْهِ في السجود أَي يباعدهما"[1]. فالجفاء يستعمل في البعد والترك، وسوء الخلق.

---

١ ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٣، ص١٥٩.

٢ ابن ماجه، **السنن**، كتاب المناسك، باب قدر حصى الرمي، ج٢، ص١٠٠٨، رقم٣٠٢٩، وقال الشيخ الألباني: صحيح.

٣ ابن تيمية، **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، ج١، ص٢٩٣-٢٩٤.

٤ أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، رقم٢٦٧٠.

٥ النووي، **شرح صحيح مسلم**، ج١٦، ص٢٢٠.

٦ ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج١، ص٤٦٥-٤٦٦، باختصار.

٢- الجفاء في استعمال الشرع:

وردت لفظة الجفاء في القرآن الكريم في موضع واحد في قوله ﷻ: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ [الرعد:١٧].

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: تتنحى جنوب هؤلاء الذين يؤمنون بآيات الله، الذين وصفت صفتهم، وترتفع من مضاجعهم التي يضطجعون لمنامهم، ولا ينامون. ﴿يدعون ربهم خوفا وطمعا﴾ في عفوه عنهم، وتفضله عليهم برحمته ومغفرته ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ في سبيل الله، ويؤدون منه حقوق الله التي أوجبها عليهم فيه. وتتجافى: تتفاعل من الجفاء، والجفاء: النبو".[٢]

وقال الزمخشري: "﴿تَتَجافى﴾ ترتفع وتتنحى ﴿عَنِ الْمَضاجِعِ﴾ عن الفرش ومواضع النوم، داعين ربهم عابدين له، لأجل خوفهم من سخطه وطمعهم في رحمته، وهم المتهجدون".[٣]

وفي السنة: وردت هذه المادة في عدد من الأحاديث؛ منها: عَنْ أَبِي بَكْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالْإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْبَذَاءُ مِنَ الْجَفَاءِ، والجفاء في النار»[٤].

"وبذلك يتضح أن الجفاء هو النبو والترك، والبعد، وهو غالبًا ما يحدث خلاف الأصل والعادة، وأكثر ما تستعمل كلمة جفاء لما هو محرم منهي عنه؛ كالجفاء بما يقابله الصلة والبر، والجفاء الذي هو من الشدة والغلظة"[٥].

المطلب الثالث: معنى الإفراط في اللغة والاصطلاح

١- الإفراط في اللغة: السَّبق، والتَّقدُّم، ومجاوزة الحدِّ في الأمر. قال ابن فارس: "الفاء والراء والطاء أصلٌ صحيح، يدلُّ على إزالةِ شيءٍ من مكانه وتنحيتِه عنه. يقال: فرَّطت عنه ما كرِهَه، أي نحّيته... ثم يقال: أفْرَطَ: إذا تجاوَزَ الحدَّ في الأمر. يقولون: إيَّاك والفَرْط؛ أي: لا تجاوِز القَدْر. وهذا هو القياس، لأنَّه إذا جاوَزَ القَدْر فقد أزالَ الشَّيءَ عن جهته. وكذلك التفريط، وهو التَّقصير، لأنَّه إذا قصَّر فيه فقد قَعَد به عن رُتْبته التي هي له"[٦]. وقال ابن منظور: "والإفراطُ: الإعجال والتقدُّم، وأَفْرَطَ في الأَمر أَسرف وتقدَّم،... والإفراط الزيادة على ما أُمرت"[٧].

٢- الإفراط في استعمال الشرع: وردت كلمة الإفراط في قوله تعالى: ﴿إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى﴾ [طه:٤٥]. قال الطبري: "وأما الإفراط: فهو الإسراف والإشطاط والتعدي، يقال منه: أفرطت في

---

١ ابن منظور، **لسان العرب**، ص٦٤٦، باختصار.

٢ الطبري، **جامع البيان عن تأويل القرآن**، ج١٨، ص٦٠٨.

٣ الزمخشري، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، ص٨٤٤.

٤ أخرجه البخاري في **كتاب الأدب المفرد**، باب الجفاء، رقم١٣١٤، ص٧٤٠، وصححه الألباني.

٥ الصلابي، **الوسطية في القرآن الكريم**، ص٥٦.

٦ ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج٤، ص٤٩٠، باختصار.

٧ ابن منظور، **لسان العرب**، ص٣٣٩١.

قولك: إذا أسرف فيه وتعدى"[1].

المطلب الرابع: معنى التفريط في اللغة والاصطلاح

١- التفريط في اللغة: عكس الإفراط، وهو التَّقصير، وإزالة الشيء عن مكانه. قال ابن فارس: "وكذلك التفريط، وهو التَّقصير، لأنَّه إذا قصَّر فيه فقد قَعَد به عن رُتْبته التي هي له"[2]. وبالنظر إلى كتب اللغة نرى أن منشأ التفريط التهاون، والتقصير، والتساهل، والتضييع.

٢- التفريط في استعمال الشرع: وردت مادة (فرط) في القرآن في عدَّة مواضع؛ منها قوله تعـــالى: ﴿قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها﴾ [الأنعام:٣١]، وقوله: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ [الأنعام:٣٨]، وقوله: ﴿توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾ [الأنعام:٦١]، وقوله: ﴿ومن قبل ما فرطتم في يوسف﴾ [يوسف:٨٠]، وقوله: ﴿ وكان أمره فرطًا﴾ [الكهف:٢٨]، وقوله: ﴿ أن تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت في جنب الله﴾ [الزمر:٥٦].

بالنظر إلى أقوال المفسرين في الآيات السابقات، نجد أن معنى الكلمة يدور حول معانٍ "تدل على الترك، والتهاون، والتقصير، والتضييع، مع اختلاف بسيط بين مدلول هذه المعاني، وكلها في مقابل الإفراط والغلو"[3].

قال الطبري: "وأما التفريط: فإنه التواني، يقال منه: فرطت في هذا الأمر حتى فات: إذا توانى فيه"[4].

كما وردت مادة (فرط) في السُّنَّة في عدد من الأحاديث؛ منها:

ما جاء في قصة مسير رسول الله ﷺ مع أصحابه، ونومهم عن صلاة الفجر، وجاء فيها: فَجَعَلَ بَعْضُنَا يَهْمِسُ إِلَى بَعْضٍ مَا كَفَّارَةُ مَا صَنَعْنَا بِتَفْرِيطِنَا فِي صَلاَتِنَا؟ ثُمَّ قَالَ: «أَمَا لَكُمْ فِيَّ أُسْوَةٌ؟». ثُمَّ قَالَ: «أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ فِي النَّوْمِ تَفْرِيطٌ، إِنَّمَا التَّفْرِيطُ عَلَى مَنْ لَمْ يُصَلِّ الصَّلاَةَ حَتَّى يَجِيءَ وَقْتُ الصَّلاَةِ الأُخْرَى، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَلْيُصَلِّهَا حِينَ يَنْتَبِهُ لَهَا، فَإِذَا كَانَ الْغَدُ فَلْيُصَلِّهَا عِنْدَ وَقْتِهَا»[5].

بعد هذه الجولة في تعريف هذه المصطلحات، يظهر "أنَّ الإفراط والغلو، يقابل التَّفريط والجفاء؛ إذ أن الإفراط والغلو يستعمل في تجاوز الحد من جانب الزيادة والكمال، والتَّفريط والجفاء يستعمل في تجاوز الحدِّ من جانب النُّقصان والتَّقصير، ويكون الحق والعدل وسطًا بينهما"[6].

---

١ الطبري، **جامع البيان عن تأويل القرآن**-دار هجر، ج١٦، ص٧٦.

٢ ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، ج٤، ص٤٩٠، باختصار.

٣ الصلابي، **الوسطية في القرآن الكريم**، ص٥٥.

٤ الطبري، **جامع البيان عن تأويل القرآن**-دار هجر، ج١٦، ص٧٦.

٥ أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب المساجد، باب قضاء الصلاة الفائتة، رقم٣١١.

٦ السحيمي، **العقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط**، ص١٩.

المبحث الرابع

ملامح وسمات الوسطية والاعتدال

المطلب الأول: الخيرية

قال تعالى: ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ [آل عمران:١١٠]. قال ابن كثير: "يخبر تعالى عن هذه الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم"، ثم قال: "والمعنى: أنهم خير الأمم وأنفع الناس للناس"، ثم قال: "وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه أشرف خلق الله وأكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يعطه نبيًّا قبله، ولا رسول من الرسل. فالعمل على منهاجه وسبيله، يقوم القليل منه ما لا يقوم العمل الكثير من أعمال غيرهم مقامه"[١].

وقد وردت أحاديث عن النبي ﷺ تدل على خيرية هذه الأمة؛ منها:

عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه سمع النبي ﷺ يقول في قوله: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس﴾ قال: «إنكم تتمون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله»[٢].

وهذه الخيرية التي نالتها الأمة، اصطفاءً من الله سبحانه وتعالى؛ وذلك لاتصافها بثلاثة أمور عظيمة، وهي: إيمانها بالله ﷻ، وأنها أمة تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، قال تعالى: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾.

ومما تميزت به هذه الأمة عن غيرها الأمم: أن نبيها أفضل الأنبياء والرسل عليهم أفضل الصلاة والسلام، وأن الكتاب الذي أنزل عليها خير الكتب السماوية، وأن هذه الأمة أكثر الناس استجابة للأنبياء، وأنها لا تجتمع على ضلالة، وأنها خير الأمم للناس وأنفعها لهم، وأنها تتقدم على الأمم في الحشر والحساب يوم القيامة، ودخول الجنة مع كونها آخر الأمم، وهم أكثر أهل الجنة، إلى غير ذلك مما تميزت به هذه الأمة، فكانت خير أمة أخرجت للناس.

المطلب الثاني: الاستقامة

ورد الأمر بالاستقامة في آيات؛ منها قوله تعالى: ﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا﴾ [هود:١١٢]، قال ابن القيم: "فبيَّن أن الاستقامة ضد الطغيان، وهو مجاوزة الحدود في كل شيء"[٣].

وكذلك جاءت السُّنَّة آمرة بالاستقامة في مواضع؛ فَعَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ ﷺ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قُلْ لِي فِي الإِسْلاَمِ قَوْلاً لاَ أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا بَعْدَكَ – وَفِى حَدِيثِ أَبِى أُسَامَةَ غَيْرَكَ – قَالَ: «قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ فَاسْتَقِمْ».[٤]

---

١ ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**-قرطبة، ج٣، ص١٤١، ١٤٣.

٢ أخرجه الترمذي، **السنن**، كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة آل عمران، ج٥، ص٢٢٦، رقم٣٠٠١، وقال: هذا حديث حسن.

٣ ابن القيم، **مدارج السالكين بين منازل "إياك نعبد وإياك نستعين"**، ج١، ص٥١٣.

٤ أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الإيمان، باب جامع أوصاف الإسلام، رقم٦٢.

فالاستقامة الاستمرار والدوام، وهذا شامل لجميع أمور الدين؛ "فالاستقامة كلمة جامعة آخذة بمجامع الدين؛ وهي القيام بين يدي الله على حقيقة الصدق، والوفاء بالعهد، والاستقامة تتعلق بالأقوال والأفعال والأحوال والنيات، فالاستقامة فيها: وقوعها لله، وبالله وعلى أمر الله"[١].

فالمسلم يستقيم في جميع أموره بين الإفراط والتفريط، ولا يخرج عن حدِّ الاقتصاد، فيضيع في السُّبل، ويضل عن الصراط المستقيم.

المطلب الثالث: اليسر ورفع الحرج

"اليسر ضد العسر، والمقصود به هنا: التسهيل والتخفيف بعملٍ لا يُجهِد النفس، ولا يُثقِل الجسم"[٢].

والأدلة على هذا الأمر كثيرة في القرآن الكريم؛ منها قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة:٦]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨].

ومن الأدلة على ذلك في السُّنَّة؛ من ذلك:

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ أبَا موسى وَمُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ: «يَسِّرَا وَلاَ تُعَسِّرَا، وَبَشِّرَا وَلاَ تُنَفِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلاَ تَخْتَلِفَا»[٣].

وَعَنْ أَبِي هريرة ﷺ عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ»[٤].

قال الإمام الشاطبي: "إن الأدلة على رفع الحرج في هذه الأمة بلغت مبلغ القطع" أي أنها متواترة"[٥].

ومن القواعد الفقهية الخمس الكبرى –التي بُني عليها صرح الفقه الإسلامي–، قاعدة خاصة في اليسر ورفع الحرج والمشقة، والتي يعبِّر عنها الفقهاء بقولهم: (المشقة تجلب التيسير)، والمعنى الإجمالي لهذه القاعدة هو: "أنَّ الشِّدَّة والصُّعوبة البدنيَّة أو النَّفسيَّة، التي يجدها المكلَّف عند القيام بالتَّكاليف الشَّرعيَّة، تصير سببًا شرعيًّا صحيحًا؛ للتَّسهيل والتَّخفيف، بحيث تزول تلك الشِّدَّة والصُّعوبة أو تهون"[٦].

وهذه القاعدة يتخرَّج عليها جميع رخص الشرع وتخفيفاته، وهي من أوضح مظاهر رفع الحرج في الشريعة. فعامة أحكام الشرع روعي فيها التيسير والتخفيف منذ شرعت هذه الأحكام ابتداءًا، وكذلك راعى الشرع وجود بعض الأعذار الطارئة

---

١ ابن القيم، **مدارج السالكين بين منازل "إياك نعبد وإياك نستعين"**، ج١، ص٥١٤-٥١٥.

٢ الدوسري، **الممتع في القواعد الفقهيَّة**، ص١٧٢.

٣ أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الجهاد، باب ما يكره من التنازع والاختلاف في الحرب، رقم٣٠٣٨؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الجهاد والسير، باب في الأمر بالتيسير وترك التنفير، رقم١٧٣٣.

٤ أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الإيمان، باب الدين يسر وقول النبي ﷺ أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة: رقم ٣٩.

٥ الشاطبي، **الموافقات**، ج١، ص٥٢٠.

٦ الدوسري، **الممتع في القواعد الفقهيَّة**، ص١٧٢.

للمكلف في أحواله المختلفة، فشرع التيسير عند وجودها؛ وهو المقصود بالرخصة في كلام العلماء، وقد قسَّمها بعض العلماء إلى ثمانية أنواع؛ وهي تخفيف الإسقاط، وتخفيف التنقيص، وتخفيف الإبدال، وتخفيف التقديم، وتخفيف التأخير، وتخفيف الترخيص، وتخفيف التغيير، وتخفيف التخيير[١].

فاليسر ورفع الحرج بين التَّشدُّد والتَّنطُّع، وبين الإفراط والتفريط، وبين الإهمال والتَّضييع، كل ذلك منوط بالشرع وأدلته، وأحكامه وتشريعاته، لا إلى أهواء الناس ورغباتهم، ومشتهياتهم.

المطلب الرابع: الحكمة

ورد في القرآن الكريم بيان أن الحكمة من الله تعالى، وأنه سبحانه يؤتيها من يشاء، وأن الذي يؤتى الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا؛ قال تعالى: ﴿يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا﴾ [البقرة:٢٦٩]، وقال تعالى: ﴿وقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله﴾ [لقمان:١٢]، وقال تعالى: ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ [النحل:١٢٥]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة:٢].

والحكمة في اللغة جاءت بعدة معانٍ؛ منها: "العدل، والعلم، والحلم، والنبوة، والقرآن والإنجيل، وأحكم الأمر: أتقنه فاستحكم، ومنعه من الفساد"[٢].

نرى أن الحكمة قد استعملت في عدة معان تتضمن معنى المنع؛ "فالعدل: يمنع صاحبه من الوقوع في الظلم، والحلم: يمنع صاحبه من الوقوع في الغضب، والعدل: يمنع صاحبه من الوقوع في الجهل، والنبوة والقرآن والإنجيل: فالنبي إنما بعث لمنع من بعث إليهم من عبادة غير الله، ومن الوقوع في المعاصي والآثام، والقرآن والإنجيل وجميع الكتب السماوية أنزلها الله تتضمن ما يمنع الناس من الوقوع في الشرك، وكل منكر وقبيح"[٣].

أما تعريف الحكمة في الاصطلاح الشرعي، فقد تعددت الأقوال في ذلك، ولعل من أشملها، أن الحكمة هي: "الإصابة في الأقوال والأفعال، ووضع كل شيء في موضعه"[٤].

ويوضحه السعدي بقوله: "والحكمة هي العلوم النافعة، والمعارف الصائبة، والعقول المسددة، والألباب الرزينة، وإصابة الصواب في الأقوال والأفعال، ... وجميع الأمور لا تصلح إلا بالحكمة، التي هي وضع الأشياء مواضعها، وتنزيل الأمور منازلها، والإقدام في محل الإقدام والإحجام في موضع الإحجام"[٥].

---

١ انظر: الدوسري، **الممتع في القواعد الفقهيَّة**، ص١٧٢-١٧٥.

٢ الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، ص١٠٩٥.

٣ القحطاني، **الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى**، ص٢٤-٢٥.

٤ القحطاني، **الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى**، ص٢٧.

٥ السعدي، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، ص١٩٥.

فالتَّحلِّي بالحكمة هو وسطيَّة، فلا إفراط ولا تفريط، وتقوم الحكمة على ثلاثة دعائم؛ هي: "العلم، والحلم، والأناة، وآفاتها وأضدادها: الجهل، والطيش، والعجلة، فلا حكمة لجاهل ولا طائش ولا عجول"[1].

المطلب الخامس: العدالة

العدالة من العَدْل، والعَدْل في اللغة هو: "ما قام في النفوس أنه مستقيم"[2]، "وتعديل الشهود أن تقول: إنهم عدول"[3]، "وعدّل الرجل زكّاه، والعَدَلةُ والعُدَلةُ المزكُّون"[4]، "ورجل عَدْلٌ: أي رضًا ومَقْنَع في الشهادة"[5].

وهذا المعنى هو المقصود من تفسير النَّبيِّ ﷺ للوسط في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾: «وَالْوَسَطُ الْعَدْلُ»[6].

والعدول هم الثقات، أصحاب التقوى والديانة[7]. قال الطبري: "وَأَمَّا التَّأْوِيلُ فَإِنَّهُ جَاءَ بِأَنَّ الْوَسَطَ الْعَدْلُ، وَذَلِكَ مَعْنَى الخِيَارِ؛ لِأَنَّ الْخِيَارَ مِنَ النَّاسِ عُدُولُهُمْ"[8].

وقال القرطبي: "قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ الْمَعْنَى: وَكَمَا أَنَّ الْكَعْبَةَ وَسْطُ الْأَرْضِ كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا، أَيْ: جَعَلْنَاكُمْ دُونَ الْأَنْبِيَاءِ وَفَوْقَ الْأُمَمِ. وَالْوَسَطُ: الْعَدْلُ، وَأَصْلُ هَذَا أَنَّ أَحْمَدَ الْأَشْيَاءِ أَوْسَطُهَا ... قَالَ عُلَمَاؤُنَا: أَنْبَأَنَا رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ بِمَا أَنْعَمَ عَلَيْنَا مِنْ تَفْضِيلِهِ لَنَا بِاسْمِ الْعَدَالَةِ وَتَوْلِيَةِ خَطِيرِ الشَّهَادَةِ على جميع خلقه، فجعلنا أَوَّلًا مَكَانًا وَإِنْ كُنَّا آخِرًا زَمَانًا، كَمَا قال عَلَيْهِ السَّلَامُ: «نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ»[9]. وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّهُ لَا يَشْهَدُ إِلَّا الْعُدُولُ، وَلَا يَنْفُذُ قَوْلُ الْغَيْرِ عَلَى الْغَيْرِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ عَدْلًا"[10].

قال تعالى: ﴿يحكم به ذوا عدل منكم﴾ [المائدة:٩٥]، وقال تعالى: ﴿وأشهدوا ذوي عدل منكم﴾ [الطلاق:٢]؛ "أي: عدالة".[11]

والذي جعل الأمّة الإسلاميّة في هذه المرتبة هو اتِّصافها بالعدل، بل هو من أعظم ما يميزها عن الأمم جميعها، وكان خلقًا من خلقها، وصفة من صفاتها، فالله ﷻ أمرها أن تكون قائمة بالعدل، بل قوَّامة به بين الناس؛ قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا

---

١ ابن القيم، **مدارج السالكين بين منازل "إياك نعبد وإياك نستعين"**، ج١، ص١٨٨-١٨٩.

٢ ابن منظور، **لسان العرب**، ص٢٨٣٨.

٣ الجوهري، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، ج٥، ص١٧٦١.

٤ ابن منظور، **لسان العرب**، ص٢٨٣٩.

٥ الجوهري، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، ج٥، ص١٧٦٠.

٦ سبق تخريجه.

٧ انظر: القاري، **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، ج١، ص٤٦٣.

٨ الطبري، **جامع البيان عن تأويل القرآن**، ج٣، ص١٤٢.

٩ أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة، رقم٨٥٥.

١٠ القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن والمُبيِّن لما تضمَّنه من السُّنَّة وآي الفرقان**، ج٢، ص٤٣٤، ٤٣٧.

١١ الراغب الأصبهاني، **المفردات في غريب القرآن**، ص٣٢٥.

الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء:١٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ لِلّهِ شُهَدَاء بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُواْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٨]، قال ابن جرير: "يعني بذلك جل ثناؤه: يا أيها الذين آمنوا بالله وبرسوله محمد، ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام لله، شهداء بالعدل في أوليائكم وأعدائكم، ولا تجوروا في أحكامكم وأفعالكم، فتجاوزوا ما حددت لكم في أعدائكم لعدواتهم لكم، ولا تقصُرُوا فيما حدَّدت لكم من أحكامي وحدودي في أوليائكم لولايَتِهم لكم، ولكن انتهوا في جميعهم إلى حدي، واعملوا فيه بأمري"[١].

فالعدل خلق المسلمين في أنفسهم، وفيما بين بعضهم البعض، وفيما بينهم وبين الناس جميعًا، لا فرق بين ديانة وديانة أخرى، ولا بين لونٍ ولونٍ آخر، ولا بين جنسٍ وجنسٍ آخر، ولا بين صديق وعدو.

المبحث الخامس

الوسطية والاعتدال في العبادة في القرآن والسنة أنموذجًا

المطلب الأول: معنى العبادة، وصورها

العبادة: "هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة".[٢] ومن العبادات الباطنة: حب الله ﷻ ورسوله ﷺ، وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه.

ومن العبادات الظاهرة: الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبرّ الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان للجار، واليتيم، والمسكين، وابن السبيل، والمملوك؛ من الآدميين، والبهائم، والدعاء، والذكر، والقراءة.

فالعبادة هي الغاية المحبوبة لله ﷻ، والمرضية له، التي خَلق الخلق لها، كما قال الله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ [الذاريات:٥٦].

والعبادة مبنيَّة على أركان قلبيَّة ثلاثة؛ هي: المحبة والخوف والرجاء. قال ابن القيم: "القلب في سيره إلى الله ﷻ بمنزلة الطائر: فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطير جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر"[٣].

---

١ الطبري، **جامع البيان عن تأويل القرآن**، ج١٠، ص٩٥.

٢ ابن تيمية، **العبودية**، ص١٩.

٣ ابن القيم، **مدارج السالكين بين منازل "إياك نعبد وإياك نستعين"**، ج١، ص٤٢١.

المطلب الثاني: منهج القرآن الكريم في تقرير العبادة

الناظر في منهج القرآن في تقرير العبادات يرى أن مبناها على الوسطية، لا تفريط ولا جفاء كما عند اليهود، ولا إفراط ولا غلو كما عند النصارى؛ ولذلك أمرنا الله تعالى أن نستعيذ من سلوك هذين المنهجين في كل ركعة من صلواتنا: ﴿غَيرِ المغضُوبِ عَلَيهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة:٧].

فاليهود فرَّطوا في العبادة، وجعلوا غاية أمرهم التعلُّق بالدنيا، والحرص عليها، قال تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:٩٦].

والنصارى غلوا وتجاوزوا الحق في دينهم، وقالوا في عيسى عليه السلام إنه ابن الله، فجعلوه إلهًا من دون الله ﷻ، وهو قول غير الحق؛ لأن الله لم يتخذ ولدًا فيكون عيسى أو غيره من خلقه له ابنًا.

وكذلك من غلوهم ابتداعهم رهبانية[1] قاسية على النفس؛ تحرِّم الزواج، وغيرها من متع الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاء رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:٢٧].

المطلب الثالث: صور من الغلو في العبادة

الواجب على المسلم في العبادة: أن يقتصد في العمل، وأن يعتصم بالسُّنَّة؛ "والسلف يذكرون هذين الأصلين كثيرًا؛ وهما الاقتصاد في الأعمال، والاعتصام بالسُّنَّة، فإن الشيطان يشُمُّ قلب العبد ويختبره، فإن رأى فيه حرصًا على السُّنَّة، وشدَّة طلب لها، لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها، فأمره بالاجتهاد، والجور على النفس، ومجاوزة حدِّ الاقتصاد فيها. قائلاً له: إن هذا خير وطاعة، والزيادة والاجتهاد فيها أكمل، فلا تفتر مع أهل الفتور، ولا تنم مع أهل النوم، فلا يزال يحثه ويحرضه، حتى يخرجه عن الاقتصاد فيها، فيخرج عن حدها، كما أن الأول خارج عن هذا الحد، فكان الآخر خارج عن الحد الآخر".[2]

فكل من خالف الوسطية في العبادة؛ فهو إما إلى غلو وإفراط، وإما إلى جفاء وتفريط، ولنأخذ مثلًا في بيان كيفية معالجة النَّبيِّ ﷺ لمواقف فردية من بعض الصحابة رضي الله عنهم، تشير إلى الخروج عن الوسطية في العبادة، إلى الغلو والزيادة؛ فَعَن أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه قَال: جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ

---

١ "والترهب: التعبد، وهو استعمال الرهبة، والرهبانية: غلو في تحمل التعبد، من فرط الرهبة". الراغب، **المفردات في غريب القرآن**، ص٢٠٤.

٢ ابن القيم، **مدارج السالكين بين منازل "إياك نعبد وإياك نستعين"**، ج١، ص٥١٦.

أُفْطِرُ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِمْ، فَقَالَ: «أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[1].

فالنَّبيُّ ﷺ استنكر التَّشديد على النَّفس، والغلوَّ في العبادة وإن قصد في الأصل التقرب إلى الله ﷻ، وجعله خروجًا عن سنته وهديه، فوقف الصحابة عند هذا الحد، والتزموا هديه ﷺ، وأن هذا الغلو في العبادة يؤدي إلى الضَّرر على النَّفس؛ فصلاة الليل كله؛ تؤدي إلى تفويت النوم والراحة التي يحتاجها البدن، وصيام الدهر كله؛ يؤدي إلى الضعف، والعجز عن القيام بالطاعات، وترك الزواج؛ يؤدي إلى كبت الشهوة الغريزية الموجودة في الإنسان، وكل ذلك يؤدي إلى الخلل البدني والنفسي.

"وهذا حال الخوارج الذين يحقر أهل الاستقامة صلاتهم مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، وقراءتهم مع قراءتهم، وكلا الأمرين خروج عن السنة إلى البدعة، لكن هذا إلى بدعة التفريط والإضاعة، والآخر إلى بدعة المجاوزة والإسراف، وقال بعض السلف: ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان؛ إما إلى تفريط، وإما إلى مجاوزة، وهي الإفراط، ولا يبالي بأيِّهما ظفر، زيادة أو نقصان.

فكل الخير في اجتهاد باقتصاد، وإخلاص مقرون بالاتباع، كما قال بعض الصحابة: اقتصاد في سبيل وسنة، خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة، فاحرصوا أن تكون أعمالكم على منهاج الأنبياء عليهم السلام وسنتهم"[2].

الخاتمة:

بعد كتابة البحث نخلص إلى النتائج التالية:

١- التَّعرُّف على مفهوم الوسطية والاعتدال، وأنه: التزام المنهج الأقوم، المتمثل في الخيرية، والاستقامة، واليسر ورفع الحرج، والحكمة، والعدل، بين الغلو والجفاء، وبين الإفراط والتفريط.

٢- التَّعرُّف على المعاني المضادة للوسطية والاعتدال؛ وهي: الغلو، والجفاء، والإفراط، والتفريط.

٣- ذكر ملامح وسمات الوسطية والاعتدال؛ وهي: الخيرية، والاستقامة، واليسر ورفع الحرج، والحكمة، والعدالة.

٤- التَّعرُّف على معاني العبادة وصورها.

٥- معرفة منهج القرآن الكريم في تقرير العبادة.

٦- ذكر صور من الغلو في العبادة.

٧- مجانبة منهج اليهود الذين فرَّطوا في العبادة، ومنهج النصارى الذين غلوا وتجاوزوا الحق في دينهم.

المصادر والمراجع:

---

١ أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، ص٧٢٥، رقم٥٠٦٣.

٢ ابن القيم، **مدارج السالكين بين منازل "إياك نعبد وإياك نستعين"**، ج١، ص٥١٦-٥١٧.

١. ابن الأثير، الجزري، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي).

٢. ابن القيم، محمد بن أبي بكر، **مدارج السالكين بين منازل "إياك نعبد وإياك نستعين"**، تحقيق: رضوان جامع رضوان، (القاهرة: مؤسسة المختار، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).

٣. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، تحقيق: د.ناصر بن عبد الكريم العقل، (الرياض: مكتبة الرشد، ط١، ١٤٠٤هـ).

٤. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، **العبودية**، تحقيق: علي حسن عبد الحميد، (الإسماعيلية: دار الأصالة، ط٣، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م).

٥. ابن حجر، أحمد بن علي، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، قرأ أصله: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، رقمه: محمد فؤاد عبد الباقي، أخرجه: محب الدين الخطيب، (بيروت: دار المعرفة، د.ت).

٦. ابن فارس: أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (بيروت: دار الفكر، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).

٧. ابن كثير، إسماعيل بن عمر، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: مصطفى السيد محمد، محمد السيد رشاد، ومحمد فضل العجماوي، وعلي أحمد عبد الباقي، (القاهرة: مؤسسة قرطبة، ط١، ١٤١٢هـ/٢٠٠٠م).

٨. ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، **السنن**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي (بيروت: دار إحياء الكتب العربية، د.ت).

٩. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، **لسان العرب**، تحقيق: عبد الله علي الكبير ومحمد أحمد حسب الله وهاشم محمد الشاذلي، (القاهرة: دار المعارف، د.ت).

١٠. الألباني، محمد ناصر الدين، **صحيح سنن ابن ماجه**، أشرف على طباعته: زهير الشاويش، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م).

١١. البخاري، محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري المسمَّى الجامع المسند من حديث رسول الله ﷺ وسُننه وأيامه**، اعتنى به: عبد السلام بن محمد بن عمر علوش، (الرياض: مكتبة الرشد، ط٢، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م).

١٢. البخاري، محمد بن إسماعيل، **كتاب الأدب المفرد**، تحقيق: سمير بن أمين الزهيري، (الرياض: مكتبة المعارف، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م).

١٣. الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، **السنن**، تحقيق: إبراهيم عطوه عوض، (مصر: شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده، ط٢، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م).

١٤. الجوهري، إسماعيل بن حماد، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق: أحمد بن عبد الغفور عطار، (ط٣، ١٤٠٢هـ).

١٥. الدامغاني، الحسين بن محمد، **قاموس القرآن أو إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم**، تحقيق: عبد العزيز سيّد الأهل، (بيروت: دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٨٥م).

١٦. الدوسري، مسلم بن محمد بن ماجد، **الممتع في القواعد الفقهيَّة**، (الرياض: دار زدني، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م).

١٧. الراغب الأصبهاني، الحسين بن محمد، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق: محمد سيد كيلاني، (بيروت: دار المعرفة).

١٨. الزمخشري، محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، تحقيق: خليل مأمون شيحا، (بيروت: دار المعرفة، ط٣، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م).

١٩. السحيمي، سليمان بن سالم بن رجاء، **العقيدة في أهل البيت بين الإفراط والتفريط**، (مكتبة الإمام البخاري، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

٢٠. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، اعتنى به: سعد بن فواز الصّميل، (الدمام: دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢٢هـ).

٢١. الشاطبي، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، **الموافقات**، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، (القاهرة: دار ابن عفان، ط١، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م).

٢٢. الصلابي، علي محمد محمد، **الوسطية في القرآن الكريم**، (الشارقة: مكتبة الصحابة، القاهرة: مكتبة التابعين، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).

٢٣. الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان عن تأويل القرآن**، حققه وعلق حواشيه: محمود محمد شاكر، راجعه وخرج أحاديثه: أحمد محمد شاكر، (القاهرة: ابن تيمية، ط٢، د.ت).

٢٤. الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق: د.عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، (القاهرة: دار هجر، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).

٢٥. عبد الباقي، محمد فؤاد، **المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم**، (القاهرة: دار الحديث، د.ط، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م).

٢٦. الفيروز آبادي، محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، تحقيق: مكتب التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسوسي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٦، ١٩٩٨م).

٢٧. القاري، علي بن سلطان محمد، **مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح**، تحقيق: جمال عيتاني، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م).

٢٨. القحطاني، سعيد بن علي بن وهف، **الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى**، (الرياض، مؤسسة الجريسي، ط٢، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م).

٢٩. القرطبي، محمد بن أحمد، **الجامع لأحكام القرآن والمُبيِّن لما تضمَّنه من السُّنَّة وآي الفرقان**، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، شارك في تحقيق هذا الجزء: محمد رضوان عرقسوسي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م).

٣٠. القسطلاني، أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك، **إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري**، (مصر: بولاق).

٣١. مسلم بن الحجاج، **صحيح مسلم**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت).

٣٢. النووي، محيي الدين يحيى بن شرف، **المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج المشهور بصحيح مسلم**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٣٩٢هـ).

وسطية الإسلام في معاملة غير المسلمين
في نصوص القرآن والسنة

د. خالد بن سليم الشراري[1]

ملخص البحث:

وسطية الإسلام في معاملة غير المسلمين موضوع مهم لا سيما في هذا الوقت، الذي اشتد فيه اختلاط المسلمين بالكفار، وكثر فيه تعاملهم معهم، مع جهل كثير من المسلمين بالأحكام المتعلقة بذلك التعامل، فكثير من المسلمين اليوم ظنوا أن الكفار كلهم على حدٍّ سواء في هذه الأحكام، وأن أحكامهم لا تختلف باختلاف أقسامهم وظروفهم وأحوالهم، وهذا ترتب عليه آثار سيئة جدًّا. ويهدف هذا البحث إلى بيان المعنى الصحيح للوسطية. وبيان أقسام الكفار، وأن أحكام التعامل معهم تختلف باختلاف تلك الأقسام. وبيان كيفية التعامل مع الكفار في ضوء القرآن والسنة، والتي يحتاجها كلُّ مسلم، لا سيما الذي يعيش في مجتمع فيه كفار. وبيان سماحة الإسلام وعدله في تعامله مع الكفار، وأنه تعامل مبني على الوسطية، بعيدًا عن الغلو والجفاء، والإفراط والتفريط. وأهمية بيان مثل هذه الأحكام في هذا الوقت الذي جهل فيه كثير من المسلمين تلك الأحكام، التي تعد مقصدًا عظيمًا من مقاصد القرآن والسنة. مستخدما في كل هذا المنهج الاستقرائي والمنهج التحليلي.

الفصل الأول
بيان معنى الوسطية

ويشمل المسألتين التاليتين:

المسألة الأولى: تعريف (الوسطية) لغة:

هي نسبة إلى الوسط، والوسط لغةً: ما بين طرفي الشيء، يقال: قبضت وسط الحبل أي: بين طرفيه، ووسطية الشيء: صيرورته في الوسط. يقال: وَسَطَ زيدٌ الشيءَ وتَوسَّطَهُ، أي: صار في وسطه، ومنه قوله تعالى: ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا﴾ [العاديات:٥]. وأُطلق الوسط عند العرب وأرادوا به: العدل والفضل والخيرية. قال ابن فارس: "الواو والسين والطاء: بناء صحيح يدل على العدل والنصف. وأعدل الشيء: أوسطه ووسطه"[2]. وقال ابن منظور: "وسط الشيء وأوسطه: أعدله"[3]. ومنه: واسطة

---

[1] عضو هيئة التدريس بجامعة الجوف، بالمملكة العربية السعودية، البريد الالكتروني: kaled2580@gmail.com
هاتف جوال: (٠٠٩٦٦٥٠٨٢٥٨٢٥٣).

[2] ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، مادة (وسط)، ج٦، ص١٠٨.

[3] ابن منظور، **لسان العرب**، مادة (وسط)، ج٧، ص٤٣٠.

القلادة، وهي الدرة التي في وسط القلادة، وهي أنفس خرزها. ووجه كون وسط الشيء أفضله: ما ذكره ابن الأثير بقوله: "كل خصلة محمودة فلها طرفان مذمومان، فإن السخاء وسطٌ بين البُخل والتبذير، والشجاعةُ وسطٌ بين الجُبن والتهور، والإنسانُ مأمورٌ أن يتجنّبَ كلَّ وصفٍ مذمومٍ، وتجنُّبُهُ بالتعرّي منه والبُعد عنه، فكلّما ازداد منه بُعدًا ازداد منه تعرّيًا، وأبعدُ الجهات والمقادير والمعاني من كل طرفين وسَطُهُما، وهو غايةُ البُعدِ عنهما، فإذا كان في الوسط فقد بَعُدَ عن الأطراف المذمومة بقدر الإمكان"[1]. ولما كان وسط الشيء أفضله، جاز أن يقع صفة، فقيل: أمة وسط، ودين وسط وما أشبه ذلك[2].

المسألة الثانية: تعريف "الوسطية" شرعًا:

جاءت "الوسطية" في نصوص القرآن والسنة بمعنى العدالة والخيرية والتوسط بين الإفراط والتفريط، كما في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: "والوسط هنا الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسبًا ودارًا أي: خيرها"[3]. وكما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾ [القلم: ٢٨] قال ابن جرير: "يعني: أعدلهم، وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل"[4]. وقال ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة، أعدَّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة»[5]. قال ابن حجر: "المراد بالأوسط هنا: الأعدل والأفضل"[6].

فيكون معنى قولنا: (وسطية الإسلام): أفضليته وخيريته؛ لكونه جاء بين طرفين مذمومين، بين الإفراط والتفريط، والغلو والمجافاة، والرجاء والخوف، والوعد والوعيد، والترغيب والترهيب، ونحو ذلك. فالوسطية تعني الوقوف بين طرفين مذمومين، سواء في المكان أم في الزمان، أم في الصفات أم في الأفعال، أم في الأقوال أم في الاعتقادات، أم في غير ذلك. فهي تعني التوازن والاعتدال، فهي حسنة بين سيئتين، وخير بين شرين، وحق بين باطلين، وسعادة بين شقائين؛ لأن الميل إلى أحد الطرفين مذموم، فالميل إلى طرف الإفراط تنطع، وقد دعا ﷺ على المتنطعين بالهلاك بقوله: «هلك المتنطعون»[7]. والميل إلى طرف التفريط تقصير، وما أكثر النصوص التي تنهى عن التقصير وتحث على التوبة منه. وقد قيل:

ولا تَغْلُ في شيءٍ من الأمر واقتصدْ كلا طرفَيْ قَصْدِ الأمورِ ذميمُ[8]

---

[1] ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ص٩٧٢.

[2] انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، مادة (وسط)، ج٧، ص٤٢٦.

[3] ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج١، ص١٩٦. وانظر: السعدي، **تيسير الكريم الرحمن**، ص٥٣.

[4] ابن جرير الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، ج٢٣، ص١٨٠.

[5] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الجهاد، باب درجات المجاهدين في سبيل الله ...، ج٣، ص١٠٢٨، رقم٢٦٣٧.

[6] ابن حجر، **فتح الباري**، ج٦، ص١٦.

[7] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب العلم، باب هلك المتنطعون، ج١٦، ص٣٣٧، رقم٢٦٧٠.

[8] نسبه ياقوت الحموي في **معجم الأدباء** لأبي سليمان الخطابي، ج٢، ص٤٩٠.

فالإسلام دين وسط في كل الأمور، فهو وسط في العقيدة بين الأديان، كوسطيته في الاعتقاد في عيسى عليه السلام بين إفراط النصارى القائلين بأنه ابن الله، وتفريط اليهود القائلين بأن ابن بغي. وهو وسط في منهجه ومساره، قال تعالى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ • صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة:٦-٧]، فالصراط المستقيم (الإسلام) وسط بين تفريط المغضوب عليهم وإفراط الضالين. ولما تفرق المسلمون وظهرت الفرق، تغيرت هذه الوسطية عند كثير من الفرق، فجانبوا الوسطية إلى الإفراط أو التفريط، ولكن الله حفظ هذا الدين وحفظ وسطيته على أيدي أهل السنة والجماعة، فهم وسط بين الفرق كوسطية الإسلام بين الملل. فهم وسط في باب القضاء والقدر بين إفراط الجبرية المثبتين للقدر مطلقًا وأن الإنسان مجبر على أفعاله، وتفريط القدرية النافين للقدر مطلقًا وأن الإنسان هو الذي يخلق أفعاله. وهم وسط في باب الوعد والوعيد بين إفراط الخوارج والمعتزلة الذي أفرطوا في الوعيد وكفروا بالكبائر، وتفريط المرجئة الذي فرطوا فيه وأثبتوا كمال الإيمان مع ترك الأعمال. وهم وسط في باب الصحابة رضي الله عنهم بين غلو الرافضة في آل البيت وتكفير أكثر الصحابة، وجفاء الخوارج في تكفير علي رضي الله عنه ومن تبعه[1]. وكذلك هو وسط في العبادات، قال تعالى: ﴿وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴾ [الإسراء:١١٠]. ولما أُخبر النبيُّ ﷺ أن ابن عمرو رضي الله عنهما يصوم النهار ويقوم الليل، قال له ﷺ: «فلا تفعل، صم وأفطر، وقم ونم؛ فإن لجسدك عليك حقًّا، وإن لعينك عليك حقًّا، وإن لزوجك عليك حقًّا، وإن لزورك عليك حقًّا ...»[2].

وهو وسط أيضًا في الإنفاق قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ [الفرقان: ٦٧]، ووسط في طلب الدنيا، قال ﷺ: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتًا»[3] أي: قوتًا يكفيهم، بحيث يطلب من القوت ما يكفيه لا إفراطًا في طلبه؛ ليدرك أكثر من حاجته، فينشغل بما لا حاجة إليه عما خُلق له وهو العبادة، ولا تفريطًا في طلبه فينقطع عن العمل، ويضيع نفسه ومن يعول[4].

وبالجملة: فإن الإسلام وسط في كل الأمور، وسط بين طرفين مذمومين: الإفراط والتفريط. وهذا هو تفسير الوسطية الحق، بخلاف تفسيرها عند أهل الأهواء من أهل الفكر والثقافة وأدعياء الحرية، حيث فسروها بالتوسط بين الحق والباطل، فقالوا: بوسطية حجاب المرأة، بين التعري الكامل والحجاب الشرعي الكامل، فتتوسط المرأة بين ذلك بكشف وجهها ويديها وأجزاء من بدنها، وقالوا بوسطية العلاقة بين الرجل والمرأة الأجنبية، بين الزواج الشرعي والزنا الذي يحصل بإكراه المرأة وإجبارها، فتكون علاقة صداقة مبنية على التراضي بين الطرفين، ونحو ذلك من الدعوات التي نادوا بها، وهذا التوسط بين

---

[1] ابن عثيمين، **شرح العقيدة الواسطية**، ج٢، ص ٦٣ وما بعدها.

[2] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الصوم، باب حق الجسم في الصوم، ج٢، ص٦٩٧، رقم١٨٧٤؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر لمن تضرر به ...، ج٨، ص٥٧، رقم١١٥٩.

[3] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه ...، ج٥، ص٢٣٧٢، رقم٦٠٩٥؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الزكاة، باب في الكفاف والقناعة، ج٧، ص٢٠٥، رقم١٠٥٥.

[4] انظر: النووي، **شرح صحيح مسلم**، ج٧، ص٢٠٥؛ وابن حجر، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ج١١، ص٢٧٩.

الحق والباطلِ باطلٌ؛ لأنه لا وسطية بينهما مطلقًا، فالأمور إما حق وإما باطل، فمحاولة التوفيق بينهما هي محاولة التوفيق بين المتناقضين، وهذا هو سبيل المنافقين الذين حاولوا التوفيق بين الإسلام والكفر، قال تعالى: ﴿إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّآ إِحۡسَٰنٗا وَتَوۡفِيقًا﴾ [النساء:٦٢]. فصاروا مذبذبين بين سبيلي الإسلام والكفر، قال تعالى: ﴿مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [النساء:١٤٣] ثم حكم الله عليهم بضلال هذا السبيل بقوله: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا﴾ [النساء:١٤٣].

وقولنا في عنوان البحث: (**وسطية الإسلام**)، هو من باب إضافة الموصوف إلى صفته، وأصل العبارة: (معاملة الإسلام الوسطية) أي: معاملته الفضلى، ثم أضيف الموصوف إلى الصفة، فصار التقدير: (وسطية معاملة الإسلام)، ثم حذف المضاف (معاملة) وأقيم المضاف إليه (الإسلام) مقامه.

الفصل الثاني

أقسام الكفار التي تختلف بناءً عليها معاملتهم

أمر الإسلام بمعاملة الكفار معاملة وسطية، ولما كان الكفار يختلفون فيما بينهم مع المسلمين من حيث السِلْم والحرب، كان من الحكمة والعدل أن يُجعل لك قسم ما يناسبه من الأحكام، وقد دلت النصوص الشرعية على أن الكفار ينقسمون من هذه الحيثية إلى أربعة أقسام، وهي:

القسم الأول: أهل الحرب: وهم الذين ليس بيننا وبينهم ذمة ولا هدنة ولا أمان؛ وسموا أهل حرب لأن الحرب متوقعة بيننا وبينهم في أي وقت، فنحن لا نأمنهم أن يحاربونا، وهم كذلك، وهذا هو الأصل في الكفار.

القسم الثاني: أهل الذمة: وهم الذين يقيمون في بلادنا إقامة دائمة، بشرط أن يبذلوا لنا الجزية، ولهم ذمة مؤبدة، وتجري عليهم أحكام الإسلام؛ لأنهم مقيمون في دار الإسلام التي يجري فيها حكم الله تعالى. والصحيح من أقوال أهل العلم أن الجزية تؤخذ من عموم الكفار، وأنها ليست خاصة بأهل الكتاب والمجوس؛ لقوله ﷺ في حديث بريدة رضي الله عنه في وصيته لأمير الجيش أو السرية: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله -إلى أن قال- ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، ... فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ...»[1]، فقوله ﷺ في أول الحديث: «قاتلوا من كفر بالله» عام في كل الكفار، ثم أمره بأن يعرض عليهم الجزية ولم يستثن أحدًا.

وأما النصوص الدالة على أنها تؤخذ من أهل الكتاب والمجوس فلا تقتضي التخصيص؛ لأن ذكر بعض أفراد العام بحكم لا يخالف العام لا يقتضي التخصيص.

[1] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ...، ج١٢، ص٥٥، رقم١٧٣١.

القسم الثالث: أهل الهدنة: وهم أهل الحرب الذين صالحهم إمام المسلمين على توقف الحرب بيننا وبينهم؛ لمصلحة يراها، ويسمون أهل الصلح، والصلح يسمى الهدنة والمهادنة والمسالمة والموادعة، ولا تجري عليهم أحكام الإسلام؛ لأنهم يعيشون في دارهم.

القسم الرابع: أهل الأمان: وهم أهل الحرب الذين يقدمون على بلاد المسلمين من غير استيطان لها، فيعطون الأمان من إمام المسلمين أو من أي فرد منهم؛ لقوله ﷺ: «ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم»[1]، والذمة هي العهد، أي: يسعى في إعطائهم عهد الأمان أدنى المسلمين، ولو كان امرأة؛ لقوله ﷺ لأم هانئ بنت أبي طالب: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ»[2]. قال ابن حجر: «ودخل في قوله (أدناهم) -أي: أقلهم- كل وضيع بالنص، وكل شريف بالفحوى»[3]، وأهل الأمان أربعة أقسام: رسلٌ، وتجارٌ، ومستجيرون، وطالبو حاجةٍ كزيارة وغيرها. وحكم هؤلاء ألا يهاجروا، ولا يقتلوا، ولا تؤخذ منهم الجزية. ويُعرض على المستجير منهم الإسلام والقرآن، فإن دخل فيه فذاك، وإلا فيبقى على أمانه، وإن أحب اللحاق بمأمنه ألحق به، ولم يعرض له قبل وصوله إليه. فإذا وصل أهل الأمان إلى بلادهم عادوا حربيين كما كانوا. ومن صور الأمان في هذه الوقت الحاضر: الإذن الرسمي بدخول الدولة، كالتأشيرة، أو كرت الزيارة، أو ختم الدخول، ونحو ذلك[4].

والأقسام الثلاثة الأخيرة يطلق عليهم أهل عهد؛ فأما أهل الذمة فلأنهم عاهدوا على بذل الجزية وعلى جريان أحكام الإسلام عليهم، مقابل حمايتهم وإقامتهم في بلادنا، وأما أهل الهدنة فلأن الصلح عهد، وأما أهل الأمان فلأن الأمان الذي أخذوه من المسلمين عهد أيضًا. وأكثر ما يطلق لفظ أهل العهد في الحديث على أهل الذمة، قال ابن الأثير في المعاهد: "يجوز أن يكون بكسر الهاء وفتحها على الفاعل والمفعول، وهو في الحديث بالفتح أشهر وأكثر. والمعاهد: من كان بينك وبينه عهد، وأكثر ما يطلق في الحديث على أهل الذمة، وقد يطلق على غيرهم من الكفار إذا صولحوا على ترك الحرب مدة ما"[5]. وعلى هذا: فإننا إذا قسمنا الكفار من حيث العهد وعدمه، فإنهم ينقسمون إلى قسمين: أهل حرب، وأهل عهد.

---

[1] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الجزية، باب إثم من عاهد ثم غدر، ج٣، ص١١٦٠، رقم٣٠٠٨؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الحج، باب فضل المدينة ...، ج٩، ص٢٠١، رقم١٣٧٠.

[2] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الجزية، باب أمان النساء وجوارهن، ج٣، ص١١٥٧، رقم٣٠٠٠؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى، ج٥، ص٣٢٦، رقم٣٣٦.

[3] انظر: ابن حجر، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ج٦، ص٣١٦.

[4] انظر هذه الأصناف الثلاثة: الكاساني، **بدائع الصنائع**، ج٦، ص٧١ وما بعدها؛ والشيرازي، **المهذب**، ج٢، ص٢٥٩؛ وابن قدامة، **المغني**، ج١٣، ص٧٥ و١٥٤ و٢٠٢؛ وابن القيم، **أحكام أهل الذمة**، ج٢، ص٤٧٥.

[5] ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ص٦٥٢.

الفصل الثالث

أمثلة على وسطية الإسلام في معاملته مع الكفار

لقد سعى الإسلام إلى تحقيق الوسطية في تعامله مع أعدائه الكفار في كل المجالات، وفي جميع الأحوال، سواء الحربيين منهم أم المعاهدين، وسنذكر بعض الأمثلة على ذلك فيما يأتي. وسيكون الحديث عن ذلك في المسألتين التاليتين:

المسألة الأولى: أمثلة على وسطية الإسلام في تعامله مع الكفار الحربيين

المثال الأول: الوسطية في دعوتهم إلى الإسلام:

لقد سلك الإسلام مع أعدائه الكفار أفضل الوسائل لدعوتهم إلى الإسلام، واتبع في ذلك الأفضل فالأفضل، فعند قتالنا لهم نعرض عليهم أولاً الإسلام، فإن دخلوا فيه كان لهم ما لنا، وعليهم ما علينا. فإن أبوا عرضنا عليهم الصلح؛ لنبسط حكم الله تعالى على أرضه وبين عباده، وهم يعيشون تحت حكمه العادل على أنهم أهل ذمة، فنحميهم مقابل بذلهم الجزية. فإن أبوا وكان لا بدَّ من قتالهم قاتلناهم؛ لنشر الإسلام وتطبيق حكم الله تعالى على أرضه وبين عباده، لا لنجبرهم على الدخول في الإسلام قهرًا –كما يزعم ذلك من لا علم عنده–؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ [البقرة:٢٥٦] ومن أوضح الأدلة على أن الجهاد لم يشرع لدخول الناس في الإسلام قهرًا: أننا نقبل من الكفار –إذا أبوا الإسلام– أن يدفعوا الجزية ونكف عنهم ونحميهم، ولو كنا لا نرضى إلا بالإسلام ما قبلنا منهم ذلك.

وهذه الخيارات الثلاثة (الدعوة إلى الإسلام، والصلح، والقتال)، هي خيارات مبنية على الوسطية والسلام والعدل والرحمة، إما باعتبار ذاتها أو باعتبار مآلها، ولكنه قدم الأفضل فالأفضل، فأفضلها الإسلام؛ لأن به سعادة الدارين، فإن أبوا فالجزية، وهي رحمة وسلام لهم، ولكنها دون سلام الإسلام؛ لأنهم يسلمون بها من كونهم يُقتلون على الكفر أو يُشردون من ديارهم، فإن أبوا فالقتال، ولكنه سلام من حيث ما يؤول إليه من تطبيق شرع الله تعالى على أرضه، وتمكين عباده المؤمنين فيها، وهو سلام أيضًا لمن بقي حيًّا من الكفار؛ لأنه سيطبق عليهم حكم الإسلام العادل، وأنهم سيخيرون بين الإسلام والبقاء على دينهم، فمن شاء منهم أن يدخل في الإسلام دخل فيه، ومن شاء أن يبقى على دينه فله ذلك مع دفعه الجزية على أنه من أهل الذمة، فيعيش في حرية من دينه تحت حكم الإسلام العادل، وأما من قتل منهم فقد يكون قتله سلامًا ورحمةً لمن بعده من الكفار الأحياء الذين سلموا من شره وفتنته؛ لأن من الكفار من يكون سببًا لإضلال غيره مع كونه ضالاً في نفسه. قال شيخ الإسلام: "وذلك أن الله تعالى أباح من قتل النفوس، ما يحتاج إليه في صلاح الخلق، كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾ [البقرة:٢١٧] أي: أن القتل –وإن كان فيه شر وفساد– ففي فتنة الكفار من الشر والفساد ما هو أكبر منه"[1].

[1] ابن تيمية، **السياسة الشرعية**، ص١٣٣.

وبهذا يتبين لنا أن كل الخيارات الثلاثة السابقة مبنية على الوسطية والعدل؛ لأنها وسط بين إفراط اليهود الذين لا يقبلون دخول غيرهم في دينهم؛ لأنهم شعب الله المختار، وغيرهم لا يستحق أن ينال هذا الشرف، بل لا حق له في الحياة إلا أن يكون خادمًا وعبدًا مطيعًا[1]، وبين تفريط الذين يداهنون في دعوتهم إلى دينهم، فيتنازلون عن ثوابته ومسلماته مقابل دخول الناس فيه، أو مقابل حطام من الدنيا.

المثال الثاني: عدم الغدر والتمثيل بهم وعدم قتل من ليس أهلاً للقتال:

نهى الرسول ﷺ عن الغدر والتمثيل بالكفار، كما نهى عن قتل النساء والصبيان ومن ليس أهلاً للقتال، كما في حديث بريدة ﷺ المتقدم، حيث قال في جملة ما يوصي به أمير الجيش إذا بعثه: «ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا»، ولما وجدت امرأة مقتولة في بعض مغازي الرسول ﷺ نهى ﷺ عن قتل النساء والصبيان[2]. قال النووي في شرح هذا الحديث: "أجمع العلماء على العمل بهذا الحديث وتحريم قتل النساء والصبيان إذا لم يُقاتلوا"[3]. وأما قتلهم بلا قصد كما لو أننا قذفنا العدو بالمنجنيق أو بالقنابل –كما في عصرنا الحاضر– ثم قتل من لم يقاتل فليس هذا من باب العدوان عليهم؛ لأننا لم نقصدهم، وقد لا يحصل الانتصار على الأعداء إلا بذلك، فيكون ذلك من باب الضرورة، والضرورات تبيح المحظورات.

المثال الثالث: إكرام رسلهم وعدم إيذائهم:

ضرب الإسلام أروع الأمثلة في حماية رسل الكفار وإكرامهم، فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: جاء ابن النَّوَّاحة وابن آثال رسولا مسيلمة إلى النبي ﷺ فقال لهما: «أتشهدان أني رسول الله». قالا: "نشهد أن مسيلمة رسول الله". فقال النبي ﷺ: «آمنت بالله ورسله، لو كنت قاتلاً رسولاً لقتلتكما». قال عبد الله: "فمضت السنة أن الرسل لا تقتل"[4]. وذكر الشوكاني أن هذا الحديث يدل على تحريم قتل الرسل الواصلين من الكفار وإن تكلموا بكلمة الكفر في حضرة الإمام أو سائر المسلمين[5].

المثال الرابع: الرفق بأسراهم والإحسان إليهم:

كان الأسرى عند الأمم السابقة قبل الإسلام يُذبحون أو يُقدمون قرابين للآلهة، وكانوا يعاملون بقسوة لا هوادة فيها، فكانوا ضحية التنكيل والتعذيب والقتل والصلب والإهانة، والعرب تأثروا في جاهليتهم بعادات مجاوريهم في ذلك، فكانوا

---

[1] الندوة العالمية للشباب الإسلامي، **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة**، ص٥٧١.

[2] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الجهاد، باب قتل النساء في الحرب، ج٣، ص١٠٩٨، رقم٢٨٥٢؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم قتل النساء والصبيان في الحرب، ج١٢، ص٧٣، رقم١٧٤٤.

[3] النووي، **شرح صحيح مسلم**، ج١٢، ص٧٣.

[4] أخرجه أحمد في **مسنده**، ج٢، ص٤٠، رقم٣٧٠٨؛ وأبو داود في **سننه**، كتاب الجهاد، باب في الرسل، ج٧، ص٣١٣، رقم٢٧٥٨، وصححه الألباني في **صحيح أبي داود**، ج٢، ص١٧٤، رقم٢٧٦١.

[5] انظر: الشوكاني، **نيل الأوطار**، ج٩، ص٢٠٦.

يسيئون معاملة أسراهم، فلما جاء الإسلام ضرب القدح المعلى في الرفق بالأسرى، والعناية بشأنهم[1]، فأمر بالرفق بالأسير وإطعامه والإحسان إليه حتى يحكم في شأنه إمام المسلمين، قال تعالى مبينًا صفات عباده المؤمنين وحاثًا عليها: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٨-١٠]، قال ابن جرير الطبري: "(وأسيرًا): هو الحربي من أهل دار الحرب، يؤخذ قهرًا بالغلبة، أو من أهل القبلة يؤخذ فيحبس بحق، فأثنى الله على هؤلاء الأبرار بإطعامهم هؤلاء تقربًا بذلك إلى الله، وطلب رضاه، ورحمة منهم لهم"[2]. وعن أبي عزيز بن عمير أخي مصعب بن عمير قال: كنت في الأسارى يوم بدر، فقال رسول الله ﷺ: «استوصوا بالأسارى خيرًا». وكنت في نفر من الأنصار، وكانوا إذا قدموا غداءهم وعشاءهم أكلوا التمر وأطعموني الخبز؛ بوصية رسول الله ﷺ إياهم[3]؛ لأن الخبز عندهم أطيب من التمر، قال أبو يوسف: "والأسير من أسرى المشركين لا بدَّ أن يُطعمَ ويُحسنَ إليه حتى يُحكمَ فيه"[4].

المثال الخامس: دفن قتلاهم:

السائد في حروب المسلمين مع أعدائهم أن يتولى كل فريق البحث عن قتلاه بعد انتهاء المعركة، ثم يأخذوهم ويقوموا بدفنهم، فإذا لم يقم العدو بدفن قتلاه، فإن المسلمين يقومون بذلك فيحفرون لهم حفرة ويوارونهم فيها؛ لئلا يتأذى المسلمون برائحته، ولا يتأذى أهله برؤيته، وليس هذا من باب إكرامه؛ لأنه كافر لا حرمة له، فيوارى كما وارى النبي ﷺ قتلى المشركين يوم بدر، حيث سُحبوا وأُلقوا في قليب بدر[5]. ومن سنته ﷺ أنه كان لا يمر بجيفة إنسان إلا أمر بدفنه، لا يسأل أمسلم هو أم كافر[6]. وهذا فيه إحسان إلى الميت وإلى الأحياء.

المثال السادس: عدم التفريق بين الأم وولدها بعد سبيهم:

قال الرسول ﷺ: «من فرق بين الوالدة وولدها فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة»[7]، قال ابن قدامة: "أجمع أهل العلم على أن التفريق بين الأم وولدها الطفل غير جائز" يعني في السبي[8]؛ لما فيه من الإضرار بالوالدة والولد.

لقد بلغ الإسلام من وسطيته وعدله ورحمته وسماحته وإحسانه وصدقه ومكارم أخلاقه هذا المبلغ، مع عدو لم يسالم، بل رضي بخيار القتال، فعاملَهُ هذِهِ المعاملةَ في وقتٍ السيفُ فيه هو سيدُ الموقفِ.

---

[1] انظر: الزحيلي، **آثار الحرب في الفقه الإسلامي**، ص٤٠٤.

[2] ابن جرير الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، ج٢٣، ص٥٤٣-٥٤٤.

[3] أخرجه الطبراني في **المعجم الكبير**، باب من يكنى أبا عزيز، ج٢٢، ص٣٩٣، رقم٩٧٧. وحسنه الهيثمي في **مجمع الزوائد**، ج٦، ص٨٩.

[4] أبو يوسف، **الخراج**، ص١٤٩.

[5] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، ج١٢، ص٢١٠، رقم١٧٩٤.

[6] أخرجه الحاكم في **مستدركه**، كتاب الجنائز، ج١، ص٥٢٦، رقم١٣٧٤؛ والدار قطني في **سننه**، كتاب السير، ج٤، ص١١٦، رقم٤١، والبيهقي في **السنن الكبرى**، كتاب الجنائز، باب وجوب العمل في الجنائز من الغسل والتكفين ...، ج٣، ص٥٤٢، رقم٦٦١٧. وصححه الحاكم.

[7] أخرجه الإمام أحمد في **مسنده**، ج٩، ص١٣٠، رقم٢٣٥٥٨؛ والترمذي في **جامعه**، أبواب البيوع، باب ما جاء في كراهية أن يفرق بين الأخوين أو بين الوالدة وولدها في البيع، ج٤، ص٥٠٤، رقم١٣٠١؛ والحاكم في **مستدركه**، كتاب البيوع، ج٢، ص٦٣، رقم ٢٣٣٤، وحسنه الترمذي، وصححه الحاكم.

[8] ابن قدامة، **المغني**، ج١٣، ص١٠٨.

المسألة الثانية: أمثلة على وسطية الإسلام في تعامله مع الكفار المعاهدين:

تقدم أن قولنا: (الكفار المعاهدين) يشمل: أهل الذمة وأهل الهدنة وأهل الأمان. وهؤلاء كلهم قد أمر الإسلام بالتعامل معهم تعاملاً مبنيًّا على العدل والإحسان والوسطية، وسنذكر بعض الأمثلة على ذلك فيما يأتي:

المثال الأول: الالتزام بالعهد ما داموا ملتزمين به:

ويدل لهذا قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧]. والنبي ﷺ لما عقد الصلح مع المشركين في الحديبية، ضرب ﷺ أروع أمثلة الصدق والوفاء بالعهد، حيث مثَّل المشركين في ذلك الصلح سهيل بن عمرو، وكان من ضمن شروط الصلح أن يرد المسلمون من جاءهم من المشركين وإن كان مسلمًا، **فبينما** هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: "هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلي". فقال النبي ﷺ: «إنا لم نقض الكتاب بعد»، قال: "فوالله إذًا لم أصالحك على شيء أبدًا". فقال النبي ﷺ: «فأجزه لي». قال: "ما أنا بمجيزه لك". قال ﷺ: «بلى فافعل». قال: "ما أنا بفاعل"، فقال أبو جندل: "أي معشر المسلمين! أرد إلى المشركين وقد جئت مسلمًا؟! ألا ترون ما قد لقيت؟!"، وكان قد عُذِّب عذابًا شديدًا في الله. ومع هذا رده النبي ﷺ على أبيه، وقال له ﷺ: «يا أبا جندل، اصبر واحتسب؛ فإن الله تعالى جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا فأعطيناهم على ذلك وأعطونا عليه عهدًا، وإنا لن نغدر بهم»، ولم يأت رسول الله ﷺ أحدٌ من الرجال إلا ردَّه في تلك المدة وإن كان مسلمًا. ولما رجع النبي ﷺ إلى المدينة جاءه أبو بصير رجل من قريش وهو مسلم، فأرسلت قريش في طلبه رجلين، فقالوا: "العهد الذي جعلت لنا". فدفعه ﷺ إلى الرجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: "والله إني لأرى سيفك هذا يا فلان جيدًا"، فاستله الآخر، فقال: "أجل، والله إنه لجيد، لقد جربت به ثم جربت"، فقال أبو بصير: "أرني أنظر إليه"، فأمكنه منه، فضربه حتى برد، وفرَّ الآخر حتى أتى المدينة، فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: «لقد رأى هذا ذعرًا»، فلما انتهى إلى النبي ﷺ قال: "قتل والله صاحبي، وإني لمقتول" فجاء أبو بصير، فقال: "يا نبي الله! قد والله أوفى الله ذمتك، قد رددتني إليهم ثم أنجاني الله منهم". قال النبي ﷺ: «ويل أمه مسعر حرب لو كان له أحد»، فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر. وانفلت منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجلٌ قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابةٌ، فوالله ما يسمعون بعير خرجت لقريش إلى الشام إلا اعترضوا لها

فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم لما أرسل فمن أتاه فهو آمن، فأرسل النبي ﷺ إليهم[1].

ومن كمال الوفاء بالعهد الذي أمرنا به الله تعالى مع الكفار المعاهدين، أننا إذا خفنا منهم خيانة –بأن ظهر من قرائن أحوالهم ما يدل على خيانتهم من غير تصريح منهم بالخيانة– أن نرمي عليهم عهدهم، ونخبرهم بذلك، ولا نغدر بهم في شيء مما منعه موجب العهد حتى نخبرهم بذلك، قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [الأنفال:٥٨]. أي: إن خفت من قوم قد عاهدتهم نقضًا لما بينك وبينهم من المواثيق والعهود فانبذ إليهم عهدهم على سواء، أي: أعلمهم بأنك قد نقضت عهدهم حتى يبقى علمك وعلمهم متساويين بأنك حرب لهم، وهم حرب لك، وأنه لا عهد بينك وبينهم[2].

المثال الثاني: تحريم قتل المعاهد بغير حق:

قد جاء الوعيد الشديد فيمن تعرض للمعاهد بالقتل، بقوله ﷺ: «من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإنَّ ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا»[3]. قال ابن حجر: "والمراد به مَن له عهدٌ مع المسلمين سواء كان بعقد جزية أو هُدنة من سلطان أو أمان من مسلم"[4]، بل إن قتله خطأ يجب فيه الدية والكفارة، قال الله ﷻ: ﴿وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٩٢]. فإذا كان قتله خطأ فيه الدية والكفارة، فكيف إذا قتل عمداً؟! فإن الجرم يكون أعظم، والإثم يكون أكبر. وهذا دليل صريح على أن المعاهد معصوم الدم، فلا يجوز قتله إلا بحق، ويدخل في عموم الآيات الدالة على تحريم قتل النفس بغير حق.

المثال الثالث: تحريم التعرض للمعاهد بأي نوع من أنواع الأذى:

قال ﷺ: «ألا من ظلم معاهدًا، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة»[5]، ولقوله ﷺ: «إن الله تعالى لم يحل لكم أن تدخلوا بيوت أهل الكتاب إلا بإذن، ولا ضرب نسائهم، ولا أكل

---

[1] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد ...، ج٢، ص٩٧٤، رقم٢٥٨١؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية، ج١٢، ص١٩٥، رقم١٧٨٥. وفي هذا السياق زيادات على ما في الصحيحين رواها أحمد في **مسنده**، ج٦، ص٤٨٧، رقم١٨٩٣٢؛ والبيهقي في **السنن الكبرى**، كتاب الجزية، باب الهدنة على أن يرد الإمام من جاء بلده مسلمًا من المشركين، ج٩، ص٣٨٠، رقم١٨٨٣١.

[2] انظر: السعدي، **تيسير الكريم الرحمن**، ص٢٨٥.

[3] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الجزية، باب إثم من قتل معاهدًا بغير جرم، ج٣، ص١١٥٥، رقم٢٩٩٥.

[4] ابن حجر، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ج١٢، ص٢٥٩.

[5] أخرجه أبو داود في **سننه**، كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب في تعشير أهل الذمة...، ج٨، ص٢١١، رقم٣٠٥٠؛ والبيهقي في **السنن الكبرى**، كتاب الجزية، باب لا يأخذ المسلمون من تجار أهل الذمة ولا أموالهم شيئًا بغير أمرهم إذا أعطوا ما عليهم ...، ج٩، ص٣٤٤، رقم١٨٧٣١. وحسنه ابن حجر في **موافقة الخبر الخبر**، ج٢، ص١٨٤، والألباني في **صحيح الترغيب والترهيب** للألباني رقم٣٠٠٦.

ثمارهم، إذا أعطوكم الذي عليهم»[1]؛ ولأن مضمون العهد الذي بيننا وبينهم ألا نتعرض لهم بأي نوع من أنواع الأذى، وقد قال ﷺ: «ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم، فمن أخفر مسلمًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه صرف ولا عدل» (سبق تخريجه)، والإخفار هو نقض العهد، والتعرض له بالأذى من نقض العهد الموجب للعنة والعذاب، وقد نص كثير من الفقهاء على ذلك[2].

المثال الرابع: الأمر بالبر والإحسان إليهم:

قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨]، وهذه الآية أصل في معاملة غير المسلمين من المعاهدين والمستأمنين والذميين، وحكمها باقٍ غير منسوخ[3]. قال سماحة الشيخ عبد العزيز ابن باز: "إنما معنى الآية المذكورة عند أهل العلم: الرخصة في الإحسان إلى الكفار، والصدقة عليهم، إذا كانوا مسالمين لنا بموجب عهد أو أمان أو ذمة"[4]. فأمرنا الله تعالى ببرهم، والبر هي كلمة جامعة لأعمال الخير[5]، فيدخل في ذلك بِرُّ الوالدين الكافرين؛ لقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٤-١٥]، ولما قدمت أم أسماء بنت أبي بكر -وهي مشركة- على ابنتها أسماء، استفتت أسماءُ النبيَّ ﷺ هل تصلها؟ فقال: «نعم صلي أمك»[6]، وكذلك صلة الرحم إن كان فيهم ذو رحم، وعيادة مرضاهم، كما عاد النبي ﷺ الغلام اليهودي الذي كان يخدمه، فأتاه النبي ﷺ فقعد عند رأسه، فقال له ﷺ: «أسلم»، فنظر الغلام إلى أبيه -وهو عنده-، فقال له أبوه: "أطع أبا القاسم". فأسلم الغلام، فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه بي من النار»[7]، وكذلك اتباع جنائزهم، وقد ذكر العلماء أنه لا بأس على المسلم أن يشيِّع جنازة قريبه الكافر ولكن يكون في ناحية، ولا يقم على قبره، ولا يدعو له؛ لأن الله تعالى نهى عن الاستغفار للكفار، كما في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة:١١٣]، وكذلك تعزيتهم عند المصيبة، فلا بأس أن يعزيهم ويأمرهم بتقوى الله

---

[1] أخرجه أبو داود في **سننه**، كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارة، ج٨، ص٢٠٩، رقم٣٠٤٨؛ والبيهقي في **السنن الكبرى**، كتاب الجزية، باب لا يأخذ المسلمون من ثمار أهل الذمة ولا أموالهم شيئًا بغير أمرهم إذا أعطوا ما عليهم ...، ج٩، ص٣٤٣، رقم١٨٧٢٨. قال ابن كثير في **إرشاد الفقيه**، ج٢، ص٣٤٣: "إسناده صالح"، وحسنه الألباني في **السلسلة الصحيحة**، رقم٨٨٢.

[2] انظر: ابن حجر، **فتح الباري**، ج٤، ص١٠٣؛ وابن قدامة، **المغني**، ج١٣، ص٧٥ و١٥٩ و٢٥٠؛ وابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، ج٢٨، ص٦٥٣؛ وابن الهمام، **فتح القدير**، ج٥، ص٤٤٦؛ وابن ضويان، **منار السبيل**، ج١، ص٢٨٢.

[3] انظر: ابن جرير الطبري، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، ج٢٢، ص٥٧٤.

[4] ابن باز، **نقد القومية العربية**، ص٣٦.

[5] انظر: الجصاص، **أحكام القرآن**، ج٣، ص٢٩٦.

[6] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الهبة، باب الهدية للمشركين، ج٢، ص٩٢٤، رقم٢٤٧٧؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب الزكاة، باب فضل النفقة والصدقة على الأقربين ...، ج٧، ص١٢٣، رقم١٠٠٣.

[7] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات ...، ج١، ص٤٥٥، رقم١٢٩٠.

تعالى وبالصبر، وأن يدعو لهم بالخير الذي أفضله الدخول في الإسلام، وكذلك قبول هداياهم، والإهداء لهم، وتهنئتهم بالزواج أو بالولد أو بقدوم غائب أو بالسلامة من مكروه ونحو ذلك، ولكن ليحذر من الوقوع فيما يقع فيه الجهال من الألفاظ التي تدل على رضاه بدينهم، كالتهنئة بشعائر الكفر المختصة بهم، فهذا حرام بالاتفاق[1]. وكذلك لا بأس بالإحسان إليهم بالقول والفعل، كمساعدة فقرائهم والمحتاجين منهم، وزيارتهم في منازلهم، وقبول دعوتهم، والدعاء لهم بالهداية، والتصدق عليهم ونحو ذلك، وهذا مما أجمع عليه المسلمون ولا مخالف لذلك ممن لهم رأي يعتد به. وكذلك الوصية لهم، والوقف عليهم بشرط أن تكون على معين أو جهة كالمساكين والفقراء وإصلاح الطرق والمصالح العامة أو على أولادهم ونحو ذلك، فيوصي لهم ويوقف عليهم على أنهم مساكين لا على أنهم كفار؛ لأن الكفر ليس موجبًا للاستحقاق، لأن جعله كذلك مضادٌّ لدين الله تعالى وحكمه، وهو في الوقت نفسه ليس مانعًا للاستحقاق للآية السابقة، ولا يشترط الموصي أو الواقف بقاءهم على الكفر؛ لأنه شرط مناقض لدين الإسلام. قال شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله تعالى–: "فبين أن عطية مثل هؤلاء إنما يعطونها لوجه الله، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: "في كل ذات كبد رطبة أجر"[2]، فإذا أوصى أو وقف على معين وكان كافرًا أو فاسقًا لم يكن الكفرُ والفسقُ هو سبب الاستحقاق، ولا شرطًا فيه، بل هو يستحق ما أعطاه وإن كان مسلمًا عدلاً، فكانت المعصيةُ عديمةَ التأثير، بخلاف ما لو جعلها شرطًا في ذلك على جهة الكفار والفساق، أو على الطائفة الفلانية بشرط أن يكونوا كفارًا أو فساقًا، فهذا الذي لا ريب في بطلانه عند العلماء"[3]. ومن أفضل الإحسان إليهم دعوتهم إلى الإسلام، كما دعا النبي ﷺ اليهودي الذي عاده في مرض موته، وكما دعا أيضًا عمه أبا طالب وقال له بتلطف: «يا عم! قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله»[4].

المثال الخامس: الأمر بالعدل في الحكم:

أمرنا الله تعالى بالعدل في الحكم على الكفار، سواء حكمنا فيما بيننا وبينهم أم فيما بينهم خاصة؛ قال تعالى لنبيه ﷺ في اليهود: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة:٨]. بل أُمرنا بالعدل معهم حتى في أخذ حقنا منهم، ونهينا عن الاعتداء والظلم؛ ولهذا لا يجوز تكليف أهل الخراج أو الجزية ما لا يقدرون عليه، ولا تعذيبهم على أدائها، ولا حبسهم وضربهم؛ ولهذا

---

[1] انظر: ابن القيم، **أحكام أهل الذمة**، ج١، ص٢٠٠ وما بعدها.

[2] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ج٥، ص٢٢٣٨، رقم٥٦٦٣؛ ومسلم في **صحيحه**، كتاب السلام، باب فضل ساقي البهائم المحترمة وإطعامها، ج١٤، ص٣٤٧، رقم٢٢٤٤.

[3] ابن تيمية، **مجموع الفتاوى**، ج٣١، ص٣١. وانظر: ابن القيم، **أحكام أهل الذمة**، ج١، ص٢٩٩.

[4] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الجنائز، باب إذا قال المشرك عند الموت: لا إله إلا الله، ج١، ص٤٥٧، رقم١٢٩٤؛ ومسلم، في **صحيحه**، كتاب الإيمان، باب الدليل على صحة إسلام من حضره الموت ما لم يشرع في النزع ...، ج١، ص٢٩٤، رقم٢٤.

لما مر هشام بن حكيم بن حزام على أناس من الأنباط[1] بالشام قد أقيموا في الشمس، وصب على رؤوسهم الزيت. فقال: ما شأنهم؟. قالوا: يعذبون في الخراج، -وفي رواية: حبسوا في الجزية-. فقال هشام: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا»[2]. ولما قَدِمَ أحد عمال عمر بن الخطاب ﷺ عليه بأموال الجزية، وجدها عمر ﷺ كثيرة، فقال لعامله: "إني لأظنكم قد أهلكتم الناس". قالوا: لا والله، ما أخذنا إلا عفوًا صفوًا. قال: بلا سوط ولا نوط؟[3]. قالوا: نعم. قال عمر: "الحمد لله الذي لم يجعل ذلك على يدي ولا في سلطاني"[4]. ولما تدانى الأجل بعمر بن الخطاب ﷺ لم يفُته أن يوصي المسلمين برعاية أهل الذمة فقال: فيما أوصى به الخليفة من بعده: "وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ﷺ، أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يُقاتَلَ من ورائهم، ولا يُكلَّفوا فوق طاقتهم"[5].

تنبيه:

هذه الأحكام الشرعية المتعلقة بالكفار، لا تتعارض مع أمرين نهانا عنهما ديننا الحنيف، وهما:

الأمر الأول: عدم إذلال الكفار:

الأمر بالعدل والإحسان إلى الكفار لا يعني أن نتذلل لهم، بل يجب على المسلم أن يعاملهم وهو معتز بدينه، قال النبي ﷺ: «لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام، وإذا لقيتم أحدهم في الطريق فاضطروه إلى أضيقه»[6] أي: لا تتنحوا لهم عن الطريق الضيق تذللاً لهم وإكرامًا لهم. وليس المعنى: إذا لقيتموهم في طريق واسع فألجئوهم إلى حرفه حتى يضيق عليهم؛ لأن ذلك أذى لهم وقد نهينا عن أذاهم بغير سبب[7]. قال شيخنا محمد العثيمين في شرح الحديث: "والمعنى: لا تتوسعوا لهم إذا قابلوكم حتى يكون لهم السعة ويكون الضيق عليكم، بل استمروا في اتجاهكم وسيركم، واجعلوا الضيق إن كان هناك ضيق على هؤلاء، ومن المعلوم أن هدي النبي ﷺ لم يكن إذا رأى الكافر (كاليهود الذين في المدينة) ذهب يزحمه إلى الجدار حتى يرصه على الجدار، ولم يفعل ذلك الصحابة ﷺ بعد فتوح الأمصار، فالمعنى: أنكم كما لا تبدؤونهم بالسلام لا تفسحوا لهم، فإذا لقوكم فلا تتفرقوا حتى يعبروا، بل استمروا على ما أنتم عليه واجعلوا الضيق عليهم إن كان في الطريق ضيق، وليس في الحديث تنفير عن الإسلام، بل فيه إظهار لعزة المسلم، وأنه لا يذل لأحد إلا لربه عز وجل"[8].

---

[1] الأنباط: هم فلاحو العجم. انظر: النووي، **شرح صحيح مسلم**، ج١٦، ص٢٥٤.

[2] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب البر والصلة والآداب، باب الوعيد الشديد لمن عذب الناس بغير حق، ج١٦، ص٢٥٣، رقم٢٦١٣.

[3] قوله: "بلا سوط ولا نوط" أي: بلا ضرب ولا تعليق. انظر: ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ص٩٤٧.

[4] أخرجه أبو عبيد في كتابه **الأموال**، باب اجتباء الجزية والخراج وما يؤمر به من الرفق بأهلها ...، ج١، ص١٠٠، رقم١١٨، وقد تناقله عنه الفقهاء في كتبهم، مثل: ابن قدامة في **المغني**، ج١٣، ص٢٥٣؛ وابن القيم في **أحكام أهل الذمة**، ج١، ص٣٥.

[5] أخرجه البخاري في **صحيحه**، كتاب الجنائز، باب ما جاء في قبر النبي ﷺ وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ج١، ص٤٦٩، رقم١٣٢٨.

[6] أخرجه مسلم في **صحيحه**، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام ...، ج١٤، ص٢١٠، رقم٢١٦٧.

[7] ابن حجر، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، ج١١، ص٤٠.

[8] ابن عثيمين، **مجموع الفتاوى**، ج٣، ص٣٨.

الأمر الثاني: عدم مودتهم وموالاتهم:

نهانا الله تعالى عن مودة الكفار وموالاتهم، قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة:٢٢]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:٥١]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ [الممتحنة:١]؛ والنهي عن مودة الكافر وموالاته لا يتعارض مع الأمر بالإحسان إليه، كما لا يلزم من الإحسان إليه مودته وموالاته؛ لأننا أُمرنا بحسن التعامل معهم في الظاهر، ونهينا عن مودتهم وموالاتهم في الباطن، قال الشنقيطي: "قوله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:١٥] هذه الآية الكريمة تدل على الأمر ببر الوالدين الكافرين، وقد جاءت آية أخرى يفهم منها خلاف ذلك وهي قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة:٢٢]، ثم نص على دخول الآباء في هذا بقوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ﴾ [المجادلة:٢٢]، ووجه الجمع بينهما: أن المصاحبة بالمعروف أعم من المودة؛ لأن الإنسان يمكنه إسداء المعروف لمن يوده ومن لا يوده، والنهي عن الأخص لا يستلزم النهي عن الأعم، فكأنّ الله حذر من المودة المشعرة بالمحبة والموالاة بالباطن لجميع الكفار، يدخل في ذلك الآباء وغيرهم، وأمر الإنسان بأن لا يفعل لوالديه إلّا المعروف، وفعل المعروف لا يستلزم المودة؛ لأن المودة من أفعال القلوب لا من أفعال الجوارح، ومما يدل لذلك: إذنه ﷺ لأسماء بنت أبي بكر الصديق أن تصل أمها وهي كافرة"[1]. وقال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز: "الصلح مع اليهود أو غيرهم من الكفرة لا يلزم منه مودتهم ولا موالاتهم، بل ذلك يقتضي الأمن بين الطرفين، وكف بعضهم عن إيذاء البعض الآخر وغير ذلك، كالبيع والشراء، وتبادل السفراء وغير ذلك من المعاملات التي لا تقتضي مودة الكفرة ولا موالاتهم. وقد صالح النبي ﷺ أهل مكة، ولم يوجب ذلك محبتهم ولا موالاتهم، بل بقيت العداوة والبغضاء بينهم، حتى يسر الله فتح مكة عام الفتح ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وهكذا صالح النبي ﷺ يهود المدينة لما قدم المدينة مهاجرًا صلحًا مطلقًا، ولم يوجب ذلك مودتهم ولا محبتهم، لكنه عليه الصلاة والسلام كان يعاملهم في الشراء منهم والتحدث إليهم، ودعوتهم إلى الله، وترغيبهم في الإسلام، ومات ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في طعام اشتراه لأهله ... وهكذا المسلمون من الصحابة ومن بعدهم، وقعت الهدنة بينهم -في أوقات كثيرة- وبين الكفرة من النصارى وغيرهم فلم يوجب ذلك مودة، ولا موالاة ... ومما يدل على أن الصلح مع الكفار من اليهود وغيرهم إذا دعت إليه المصلحة أو الضرورة لا يلزم منه مودة، ولا محبة ولا موالاة: أنه ﷺ لما فتح خيبر صالح اليهود فيها على أن يقوموا على النخيل والزروع التي للمسلمين بالنصف لهم والنصف الثاني للمسلمين، ... وروي عن عبد الله بن رواحة ﷺ أنه لما خرص عليهم الثمرة في بعض السنين قالوا: "إنك قد جرت في الخرص"، فقال ﷺ: "والله إنه لا يحملني بغضي لكم ومحبتي للمسلمين أن أجور عليكم، فإن شئتم أخذتم بالخرص الذي

[1] الشنقيطي، **دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب**، ص١٨٢.

خرصته عليكم، وإن شئتم أخذناه بذلك". وهذا كله يبين أن الصلح والمهادنة لا يلزم منها محبة، ولا موالاة، ولا مودة لأعداء الله، كما يظن ذلك بعض من قل علمه بأحكام الشريعة المطهرة"[1].

هذا هو الإسلام، وهذه هي وسطيته وعدله وإحسانه مع أعدائه، أمر بالتعامل معهم تعاملاً بلا غلو فيه ولا جفاء، ولا إفراط فيه ولا تفريط. فأمر بالعدل فيهم ونهى عن ظلمهم والاعتداء عليهم بغير حق. وأمر الإحسان إليهم ونهى عن التذلل لهم وعن مودّتهم وموالاتهم، وأمر بقتال من يستحق أن يقاتل منهم ونهى عن الاعتداء على من ليس أهلاً للقتال منهم وهكذا. قال جوستاف لوبون: "ما عرف التاريخ فاتحًا أعدل ولا أرحم من العرب"[2]، يريد: المسلمين. والحق ما شهدت به الأعداء.

نسأل الله تعالى أن يعز دين، وأن يعلي كلمته، وأن يبرم لهذه الأمة أمرًا رشدًا، يعز فيه أهل الطاعة، ويهدى فيه أهل المعصية، ويؤمر فيه بالمعروف، وينهى فيه عن المنكر، إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الخاتمة:

وأبرز النتائج التي توصلت إليها من خلال البحث، وكذلك التوصيات، هي كما يأتي:

١- أن معنى (الوسطية) في النصوص الشرعية هي: العدالة والخيرية والتوسط بين الإفراط والتفريط، كما هو معناها عند العرب.

٢- أن الوسطية المحمودة التي جاء بها الإسلام هي الوسطية بين باطلين، وأما الوسطية المذمومة التي ينادي بها أهل الأهواء فهي الوسطية بين الحق والباطل.

٣- أن الكفار ينقسمون إلى أربعة أقسام: أهل حرب، وأهل ذمة، وأهل هدنة، وأهل أمان. وأن الأقسام الثلاثة الأخيرة يسمون أهل عهد، بخلاف القسم الأول؛ لأنه لا عهد بيننا وبينهم، وعلى هذا يكون الكفار منقسمين باعتبار العهد وعدمه إلى: أهل حرب وأهل عهد. وتختلف أحكام القسمين في كثير من الأحكام كعصمة الدم والمال وغير ذلك مما هو موضح في هذا البحث.

٤- أن الإسلام عامل أعداءه من الكفار الحربيين معاملة مبنية على الوسطية والعدل والإحسان، سواء كان قبل قتالهم كدعوتهم إلى الإسلام، أو بذل الجزية، أم كان في أثناء قتالهم كعدم الغدر بهم، وعدم التمثيل بقتلاهم، وعدم قتل من ليس أهلاً للقتال، وكإكرام رسلهم، أم كان بعد قتالهم كالإحسان إلى أسراهم، ودفن قتلاهم، وعدم التفريق بين الولد ووالدته بعد السبي.

---

[1] على موقعه التالي: http://www.binbaz.org.sa/mat/١٩٤٨

[2] انظر: الزحيلي، **آثار الحرب**، ص١٤٥.

٥- أن الإسلام عامل أعداءه من الكفار المعاهدين أيضًا معاملة مبنية على الوسطية والصدق والعدل والإحسان، فمن صور الصدق: الالتزام بالعهد ما داموا ملتزمين به، ومن الالتزام به: عدم التعرض لهم بالقتل أو الإيذاء بغير حق، ومن صور العدل: الحكم بينهم بالعدل. ومن صور الإحسان إليهم: بِرُّ الوالدين الكافرين، وصلةُ الأرحام الكفار، والإحسانُ إلى فقرائهم، وزيارتُهم، والإهداءُ لهم، وقبولُ هديتهم، وعيادةُ مرضاهم، وتشييعُ جنائزهم وغيرُها من صور الإحسان.

٦- أن أمر الشرع بمعاملة الكفار بالعدل والإحسان لا تتعارض مع نهيه عن أمرين: التذلل والخنوع لهم، ومودتهم وموالاتهم.

وفي ختام هذا البحث: أوصي العلماء وطلبة والعلم والباحثين والمراكز البحثية بالاعتناء في بحث هذا الموضوع (وسطية الإسلام في معاملته الكفار)، وتجليته وتوضيحه للناس كافة، سواء كان ذلك عن طريق تأليف الكتب والبحوث والمقالات أم كان عن طريق وسائل الإعلام المختلفة؛ لتتضح صورة الإسلام الحقيقة لهم، الصورة التي شوهت بين تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

المصادر والمراجع:

١. ابن الأثير، المبارك بن محمد الجزري، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، (الدمام: دار ابن الجوزي، ط١، ١٤٢١هـ).

٢. ابن باز، عبد العزيز بن عبد الله بن باز، **نقد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع**، (الرياض: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، ط٦، ١٤١١هـ).

٣. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم الحراني، **السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية**، تحقيق: بشير محمد عيون، (الرياض: مكتبة المؤيد، ط٢، ١٤١٣هـ).

٤. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم الحراني، **مجموع الفتاوى**، جمع وترتيب الشيخ/ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وساعده ابنه/ محمد، (المدينة: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، د.ط، ١٤١٦هـ).

٥. ابن جرير الطبري، محمد بن جرير، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، (القاهرة: دار هجر، ط١، ١٤١٢هـ/٢٠٠١م).

٦. ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، تصحيح سماحة الشيخ/ عبد العزيز بن باز، تحقيق/ محب الدين الخطيب، (القاهرة: المكتبة السلفية، ط٣، ١٤٠٧هـ).

٧. ابن حجر، أحمد بن علي العسقلاني، **موافقة الخبر الخبر في تخريج أحاديث المختصر**، تحقيق: حمدي بن عبدا لمجيد السلفي وآخر، (الرياض: مكتبة الرشد، ط٣، ١٤١٩هـ).

٨. ابن ضويان، إبراهيم بن محمد، **منار السبيل في شرح الدليل على مذهب الإمام المبجل أحمد بن حنبل**، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط٤، ١٣٩٩هـ).

٩. ابن عابدين، محمد أمين، **حاشية رد المحتار على الدر المختار**، (مكة: المكتبة التجارية، مصطفى أحمد الباز).

١٠. ابن عثيمين، محمد بن صالح العثيمين، **شرح العقيدة الواسطية**، خرَّج أحاديثه واعتنى: سعد الصميل، (السعودية، الدمام: دار ابن الجوزي، ط٢، ١٤١٥هـ).

١١. ابن عثيمين، محمد بن صالح العثيمين، **مجموع الفتاوى**، جمع وترتيب: فهد بن ناصر السليمان، (الرياض: دار الوطن للنشر، ط الأخيرة، ١٤١٣هـ).

١٢. ابن فارس، أبو الحسين أحمد، **معجم مقاييس اللغة**، (بيروت: دار الجيل، د.ط، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

١٣. ابن قدامة، عبد الله بن أحمد بن محمد المقدسي، **المغني**، تحقيق: د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، ود/ عبد الفتاح الحلو، (القاهرة: دار هجر، ط١، ١٤١٢هـ).

١٤. ابن القيم، محمد بن أبي بكر، **أحكام أهل الذمة**، تحقيق: د/ صبحي الصالح، (لا توجد معلومات عن الطباعة).

١٥. الكاساني، أبو بكر بن مسعود، **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع**، تحقيق: محمد عدنان ابن ياسين درويش، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط٢، ١٤١٩هـ).

١٦. ابن كثير، إسماعيل بن عمر الدمشقي، **إرشاد الفقيه إلى معرفة أدلة التنبيه**، تحقيق: بهجة يوسف أبو الطيب، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤١٦هـ).

١٧. ابن كثير، إسماعيل بن عمر الدمشقي، **تفسير القرآن العظيم**، قدم له: د/يوسف المرعشلي، (بيروت: دار المعرفة، د.ط، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م).

١٨. ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، ط١، ١٤١٠هـ).

١٩. ابن الهمام، محمد بن عبدالواحد السيواسي، **فتح القدير**، (بيروت: دار الفكر، ط٢، د.ت).

٢٠. أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني، **السنن**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م).

٢١. أبو عبيد، القاسم بن سلام، **الأموال**، تحقيق: أبو أنس سيد بن رجب، قدم له وعلق عليه الشيخ أبو إسحاق الحويني، (مصر: دار الهدي النبوي، ط١، ١٤٢٨هـ).

٢٢. أبو يوسف، القاضي يعقوب بن إبراهيم، **الخراج**، (بيروت: دار المعرفة، د.ط، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).

٢٣. الألباني، محمد ناصر الدين، **السلسلة الصحيحة**، (الرياض: مكتبة المعارف، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م).

٢٤. الألباني، محمد ناصر الدين، **صحيح الترغيب والترهيب**، (الرياض: مكتبة المعارف، ط١، ١٤٢١هـ).

٢٥. الألباني، محمد ناصر الدين، **صحيح سنن أبي داود**، (الرياض: مكتبة المعارف، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م).

٢٦. أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، **المسند**، تحقيق: صدقي العطار، (بيروت: دار الفكر، ط٢، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).

٢٧. البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري **الصحيح**، تحقيق: مصطفى ديب البغا، (دمشق: دار اليمامة، ط٤، ١٤١٠هـ).

٢٨. البيهقي، أحمد بن الحسين، **السنن الكبرى**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م).

٢٩. الترمذي، محمد بن عيسى، **الجامع**، وهو مطبوع مع شرحه (تحفة الأحوذي)، تحقيق: عبد الرحمن محمد عثمان، أشرف على مراجعة أصوله وتصحيحه: عبد الوهاب عبد اللطيف، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، د.ط، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م).

٣٠. الجصاص، أبو بكر أحمد بن علي الرازي، **أحكام القرآن**، (بيروت: إحياء التراث العربي، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

٣١. الحاكم، محمد بن عبد الله، **المستدرك على الصحيحين**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١١هـ).

٣٢. الحموي، ياقوت، **معجم الأدباء**، تحقيق: فريد عبد العزيز الجندي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٤١٠هـ).

٣٣. الدار قطني، علي بن عمر، **السنن** وبذيله التعليق المغني لأبي الطيب العظيم آبادي، تحقيق: السيد عبد الله هاشم يماني المدني، (القاهرة: دار المحاسن للطباعة، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م).

٣٤. الزحيلي، د/ وهبة، **آثار الحرب في الفقه الإسلامي دراسة مقارنة**، (دمشق: دار الفكر، ط٣، ١٤١٩هـ).

٣٥. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، **تيسير الكريم الرحمن**، تقديم: الشيخ عبد الله بن عقيل والشيخ محمد العثيمين، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م).

٣٦. الشنقيطي، محمد الأمين، **دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب**، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية، ط١، ١٤١٧هـ).

٣٧. الشوكاني، محمد بن علي، **نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار**، تحقيق: طه عبد الرءوف سعد، ومصطفى محمد الهواري، (القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، د.ط، د.ت).

٣٨. الشيرازي، إسحاق إبراهيم بن علي، **المهذب** وهو مطبوع مع شرحه كتاب المجموع للنووي، تحقيق: محمد نجيب المطيعي، (جدة: مكتبة الإرشاد، د.ط، د.ت).

٣٩. الطبراني، سليمان بن أحمد، **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي السلفي، (الموصل: مكتبة الزهراء، ط٢، ١٤٠٤هـ).

٤٠. مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري، **الصحيح**، وهو مطبوع مع شرحه للنووي، (القاهرة: مطبعة المدني، توزيع مؤسسة قرطبة، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م).

٤١. الندوة العالمية للشباب الإسلامي، **الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة**، (الرياض: من مطبوعات الندوة العالمية للشباب الإسلامي، ط٢، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).

٤٢. الهيثمي، علي بن أبي بكر، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، تحقيق: حسام الدين القدسي، (بيروت: مؤسسة المعارف، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

وسطية المعاملة والأخلاق في القرآن الكريم
دراسة موضوعية – تطبيقية لواقع المجتمع الماليزي – ولاية ترنجانو (نموذجًا)

سراج محمد محمود آدم*

ملخص البحث:

يهدف البحث إلى الإشارة إلى الفائدة المرتجاة من تلك الوسطية في هذا المجتمع الماليزي، ودراسة تلك المعالم على هُدى علماء التفسير والمختصين بعلوم القرآن وتسهيل الرجوع إليها، واستثارة النفوس إلى التمسك بتلك الصفات الوسطية الكريمة، وتشمل هذه الدراسة مجالات متعددة: الزيارات، الحوارات، وغيرها؛ فيجد كل ذي شأن (الدعاة، المفكرون، الزائرون والسياح المسلم العادي، ...) ما يعينه، وإتاحة الفرصة للتعرف على طيف واسع من عادات وتقاليد سلميَّة وصفات إسلامية وسطية كريمة لمجتمع ماليزيا في مكان واحد. واتبعت فيه المنهج الوصفي والاستقرائي.

المبحث الأول
مفهوم الوسطية ومعالمها

المطلب الأول: تعريف الوسطية لغة واصطلاحا

أولا: تعريف الوسطية في اللغة:

إنّ أول ما يتبادر إلى الذهن عند سماع لفظ "الوسط" هو المنتصف بين طرفي الشيء، ويقفز إلى الذهن معنى كلمة "بَيْن" الظرفية. وهي "وَسَطَ" متحركة السين و"وَسْطَ" ساكنة السين، فالأولى اسم والثانية صفة.

جاء في تاج العروس: "الوَسَطَ بالتَّحْرِيكِ: اسمٌ لِمَا بَيْنَ طَرَفَيْ الشَّيْءِ وهُوَ مِنْهُ كقَوْلِكَ: قَبَضْتُ وَسَطَ الحَبْلِ وكَسَرْتُ وَسَطَ الرُّمْحِ"[1]. والوسَطُ ليست مقتصرة لما بين الطرفين فقط، فأنت تقول: جلسْتُ في وَسَطِ القَومِ، وفي وَسَطِ رَأْسِهِ دُهْنٌ"[2] كما يقول ابن منظور.

قال صاحب القاموس: "ووَسَطُ الشيء، محركةً: ما بين طَرَفَيْهِ، كأَوْسَطِهِ. فإذا سُكِّنَتْ، كانَتْ ظَرْفاً، أو هُمَا فيما هو مُصْمَتٌ كالحَلْقَةِ، فإذا كانتْ أجْزَاؤُهُ مُتَبَايِنَةً، فبالإسكَانِ فقطْ"[3].

---

* سراج محمد محمود آدم، جامعة ملايا – كوالالمبور– ماليزيا.

[1] مرتضى الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، ج٢٠، ص١٧٤.

[2] ابن منظور، **لسان العرب**، ج٧، ص٤٢٨.

[3] الفيروزآبادى، **القاموس المحيط**، ج١، ص٦٩٢.

والحاصل أن المعنى اللغوي لكلمة وسط، متحركة العين أو ساكنتها، يشير إلى التوسط وإلى أن المتكلم عنه كائن في منتصف شيئين أو عدة أشياء، سواء أريد بذلك التوسط الوجود المادي الملموس أو الصفة. وتستعمل أي منهما مكان الأخرى، وإن غلب استعمال "وَسَطَ" باعتبارها اسما، و"وَسْطَ" باعتبارها ظرفا.

وقال ابن منظور: "وقيل كل منهما يَقَع مَوْقِعَ الآخر، قال وكأَنه الأَشبه"[1].

وعندما يَمتدح الناس وسط العقد إنما يعتبرون الميزة أو الصفة التي يكتسبها ذلك الموضع؛ قال في مختار الصحاح: "وَاسطَةُ القِلاَدة الجَوْهرُ الذي في وَسَطها وهو أَجْوَدُها"[2]. "والوَسَطُ من الشيْءِ: أعْدَلُه وأفْضَلُه. وفلانٌ وَسِيْطُ الدّارِ والحَسَبِ في قَوْمِه"[3]. وفي "القاموس المحيط": "الوَسَطُ، محركةً، من كلِّ شيء أعْدَلُهُ.. وهو وسِيطٌ فيهم، أي: أوسَطُهُمْ نَسَباً، وأرفَعُهُمْ مَحَلاً"[4].

ثانيا: تعريف الوسطية في الاصطلاح:

تستمد كلمة "وسط" معناها الاصطلاحي من المدلول اللغوي المادي ثم تجرده إلى مفهوم معنوي قائم بالمحل المتكلم عنه؛ باعتباره صفة قائمة بالشيء المتحدث عنه لا بعين الشيء. وعلى ضوء هذه المعاني ينظر إلى كلمة "وَسَطَ"، و"وسْطَى"، و"أَوْسَط" في القران الكريم والسنة النبوية.

يقول صاحب إرشاد العقل السليم: "الوسط في الأصل اسم لما تستوي نسبة الجوانب إليه كمركز الدائرة، ثم استعير للخصال البشرية المحمودة؛ لكون تلك الخصال أوساطا للخصال الذميمة المكتنفة بها من طرق الإفراط والتفريط"[5]. ويقول د. الصلابي: "استقر عند العرب أنهم إذا أطلقوا كلمة (وسط) أرادوا معاني الخير والعدل والجودة والرفعة والمكانة العالية"[6].

وتكاد تتفق كلمة المفسرين على ثلاثة معانٍ للوسطية؛ هي: العدل والخيار والتوسط (البينية).

يقول شيخ المفسرين الإمام الطبري في تفسير قوله تعالى:

﴿وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً﴾ [البقرة:١٤٣]، إن الله تعالى إنما وصفهم بأنهم"وسَط"، لتوسطهم في الدين، فلم يغلو فيه كالنصارى الذين ترهبوا وغالوا في عيسى عليه السلام حتى عبدوه. ولم يُقصّروا فيه، كاليهود الذين بدَّلوا كتابَ الله، وقتلوا أنبياءَهم، وكَذَبُوا على ربهم، وكفروا به. وقال رحمه الله: "وأما التأويل، فإنه جاء بأن"الوسط" العدلُ. وذلك معنى الخيار، لأن الخيارَ من الناس عُدولهم".

---

[1] ابن منظور، **لسان العرب**، ج٧، ص٤٢٩

[2] الرازي، **مختار الصحاح**، ج١، ص٣٣٨.

[3] الصاحب بن عباد، **المحيط في اللغة**، حرف السين.

[4] الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، ج١، ص٦٩٢.

[5] أبو السعود، **إرشاد العقل السليم**، ج١، ص١٧٢.

[6] الصلابي، **الوسطية في القرآن**، ص١٩.

وفي "الجواهر الحسان" للثعالبي: "وسطا أي : عدولاً؛ روي ذلك عن رَسُولِ اللَّه ﷺ؛ وتظاهَرَتْ به عباراتُ المفسِّرين ، والوَسَط : الخيارُ والأعلى من الشيء"[1].

وهذا الحديث الذي أشار إليه أخرجه البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «يُجاء بنوح يوم القيامة فَيُقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم يا رب، فتُسألُ أمتُهُ: هل بلغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير، فيقول: من شهودك؟ فيقول: محمد وأمته، فيجاء بكم فتشهدون، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وكذلك جعلناكم أمة وسطا﴾؛ قال: عدلا»[2].

وعلى ذات المعاني سار المفسرون المعاصرون. يقول الشيخ رشيد رضا: "الوسط هو العدل والخيار، فالزيادة على المطلوب إفراط، والنقص عنه تقصير وتفريط، وكلا الأمرين ميل عن الجادة القويمة"[3]. وبعد كلام طويل يقول: "ومن خلال هذا العرض يتبين لنا فهم واضح محدد لمعنى الوسطية المذكورة في صفة هذه الأمة وكونها أمة وسطا. وهذا الفهم يتحدد في معنيين هما:

الأول: الخيرية والأفضلية.

الثاني: التوازن والعدل والقيام بالحق ، والبينية بين الإفراط والتفريط"[4].

والامام ابن عاشور تحدث عن أن "الوسط" فيه معنى العزة والصيانة؛ ذلك أن الشئ المتصف بها يكون محاطا من جميع نواحيه، وأنه ليس إلى بعض تلك الجوانب أقرب منه إلى البعض الآخر. ثم قال: "وأما إطلاق الوسط على الصفة الواقعة عدلا بين خلقين ذميمين فيهما إفراط وتفريط، كالشجاعة بين الجبن والتهور، والكرم بين الشح والسرف، فذلك مجاز بتشبيه الشيء الموهوم بالشيء المحسوس، فلذلك روي حديث: (خير الأمور أوسطها) وسنده ضعيف[5]، وقد شاع هذان الإطلاقان حتى صارا حقيقتين عرفيتين. فالوسط في هذه الآية فسر بالخيار؛ لقوله تعالى: ﴿وكنتم خير أمةٍ أُخرجت للناس﴾ [آل عمران:١١٠]، وفسر بالعدول، والتفسير الثاني رواه الترمذي في «سننه» من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ"[6].

ويقول عنها شيخنا الدكتور القرضاوي بأنَّها من أبرز خصائص الإسلام وقد يعبّر عنها أيضا بالتوازن. وهي تعني التوسط أو التعادل بين طرفين متقابلين أو متضادّين، بحيث لا يأخذ أحد الطرفين أكثر من حقّه، فيطرد الآخر ويحيف عليه. ثم مثُّل لتلك الأطراف المتقابلة أو المتضادة: بالروحية والمادية، والفردية والجماعية، والواقعية والمثالية، والثبات والتغير وما شابهها[7].

---

[1] الثعالبي، **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، ج١، ص٣٢٧.

[2] البخاري، **الصحيح**، ج١، ص١٠٧.

[3] رشيد رضا، **تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)**، ج٢، ص٤.

[4] **المرجع السابق**.

[5] **الألباني، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، ح٧٠٥٦**.

[6] ابن عاشور، **التحرير والتنوير، ج٢، ص١٧**.

[7] القرضاوي، **الخصائص العامة للإسلام**، ص١١٥ (بتصرف).

ويعرفها الدكتور محمد عمارة بأنّها العدسة التي تجمع أشعة المنهج الإسلامي وزاويته التي يُرى من خلالها. وهي الحق بين باطلين، والاعتدال بين طرفين، وطوق النجاة من الانشطارية في المتقابلات المتناقضة التي حدثت في الأمم الأخرى. وليست هي انعدام الموقف الواضح أمام مشكلات، إنما خلافها بين المتقابلين أو المتناقضين أنها لا تنحصر على سمات أحدهما[1].

وبذات المعاني هذه جاء تفسير كلمة "اوسط" في قوله تعالى: ﴿فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ [المائدة:٨٩]، وتفسير كلمة "أوسطهم" في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾، [القلم: ٢٨].

وعليه؛ يمكن القول: إنّ معنى الوسطية في القرآن يجمع ثلاث صفات: العدل، والخيار، والتوسط "البينونة".

المطلب الثاني: معالم الوسطية في القرآن الكريم

١- اليسر ورفع الحرج:

إن معاني العدل والخيرية والبينية التي تشير إليها كلمة الوسط ليست وحدها التي تحدد معالم الوسطية في الإسلام. فليست المشكلة في جذر المصطلح وإنما في المدلول ، لذلك فأن مما يتبادر إلى الذهن عند ذكر الوسطية أيضا هو معنى التيسير ودفع المشقة.

فماذا نقصد باليسر ورفع الحرج؟ قال ابن منظور: (اليسر: اللين والانقياد، وتيسر الشيء واستيسر: تسهَّل، واليسر: ضد العسر)[2]، وهذا هو مدار علماء اللغة.

أما في الاصطلاح: فقد قال الإمام الزمخشري: في تعريف اليسر والوسع: (الوسع هو ما يسع الإنسان ولا يضيق عليه، ولا يحرج فيه، فالله لا يكلف النفس إلا ما يتسع فيه طوقُها وتيسير عليها ، دون مدى غاية الطاقة والمجهود)[3].

وكما نقل القاسمي في تفسيره: "اليسر عمل لا يجهد النفس ولا يثقل الجسم"[4]. وقال الشنقيطي: "هي الحنيفية المبنية على التخفيف والتيسير"[5].

أما رفع الحرج ففي لسان العرب: ﴿أضيقُ الضِّيق، وحَرَجَ فلانٌ على فلان: إذا ضيَّق عليه. ومَكانٌ حَرَجٌ وحَرِجٌ، أي مكان ضيِّقٌ كثير الشجَر﴾[6].

وفي تفسير قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج:٧٨]، يقول مقاتل: "لم يضيق الدين عليكم، ولكن جعله واسعا لمن دخله؛ وذلك أنه ليس مما فَرَض عليهم فيه إلا وقد ساق إليهم عند الاضطرار فيه رخصة"[7].

---

[1] قرة علي، **معالم المنهج الإسلامي**، مجلة الرشاد العدد ١١، مارس ٢٠٠١م.

[2] ابن منظور، **لسان العرب**، ج٥، ص٢٩٦.

[3] الزمخشري، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، ج١ص٣٣٢.

[4] القاسمي، **محاسن التأويل (تفسير القاسمي)**، ج٢، ص٢٦.

[5] الشنقيطي، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، ج٥، ص٣٠٠.

[6] ابن منظور، **لسان العرب**، ج٢، ص٢٣٤.

[7] ابن أبي حاتم، **تفسير القرآن العظيم**، ج٨، رقم١٤٠٣٦.

وقال ابن كثير: "ما كلفكم ما لا تطيقون، وما ألزمكم بشيء يشق عليكم إلا جعل الله لكم فرجا ومخرجا"[1].

ويُعرّف الدكتور صالح بن حميد الحرج بأنه: "كل ما أدى إلى مشقة زائدة في البدن أو النفس أو المال حالا أو مآلا"[2].

والشواهد على أنّ الإسلام دينُ يُسرٍ وتَخفيفٍ كثيرةٌ في القران والسنة.

يقول تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، ويقول عز وجل: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٨]، ويقول سبحانه: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ﴾ [الأحزاب:٣٨]، وفي البخاري عن النبي ﷺ: ﴿إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ وَلَن يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلَّا غَلَبَهُ﴾[3].

هذه بعض ملامح الوسطية في الإسلام، وقد بسط فيها العلامة القرضاوي فأوصلها إلى ثلاثين ملمحا. ومن تلك التي أشار إليها: الفهم الشمولي للإسلام، وضع التكاليف كما شُرعت، الموازنة بين الثوابت والمتغيرات، التجديد من أهله وفي محله، وغيرها.

وعليه وكما قلنا سابقا فليست الوسطية مسخ للدين حتى يصير بلا معالم تميزه عن غيره، ولا هي منطقة وسطى تجعل المسلمين بلا رأي واضح وإنما تبعٌ همهم إرضاء الجميع.

فهي، كما ينادي بها دعاتها، موصولة بالأصل وليست منقطعة عن العصر. تجمع الخير من طرفيه، فلا تمالي في دينها ولا تعجز عن المدافعة في أمور دنياها.

٢- العدالة والمعاصرة:

وإذا كانت معظم الفلسفات تعْتَبِرُ القيم من حيث بُعدَها المطلق ومواكبتها للحاضر، فالإسلام في قيمه الخالدة ومراحله المعاصرة كشريعة عالمية إنسانية عادلة، هو الحل الأمثل لما يُطرح من أفكار عن مستقبل الإنسان والمجتمع، وله في ذلك أمثلةٌ غاية في الرقي والحضارة، بشهادة الأعداء.

فتعاليم الإسلام بسيطة وسهلة وأحكامه الشرعية تتسم بالمرونة، ولها قابلية التجديد والتمشي مع مقتضيات العصر والمسائل المستجدة، رحمة بالناس. وضابط هذه الأوامر الربانية كلها، قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

---

[1] ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، ج٣، ص٢٣٦.

[2] صالح بن حميد، **رفع الحرج في الشريعة الإسلامية**، ص٤٨.

[3] البخاري، **الصحيح**، ج١، ص١٦، رقم٣٦.

المبحث الثاني

وسطية الأخلاق والمعاملة في القرآن الكريم

المطلب الأول: وسطية الأخلاق في القرآن الكريم

١- معنى الأخلاق:

لغة: الأخلاق جمع خُلُقٌ أوخُلْقٌ -بِضمٍّ أو سكون- هو والطبع والسجيَّة، حقيقته أنه صورةُ الإنسانِ الباطنة، وهي نفْسُهُ وأوصَافُها ومَعانِيها المختَصَّةُ بها، بمنزلةِ الخَلْقِ لِصُورتِهِ الظَّاهرة وأوصافها[١]. وكما قال الرَّاغب: الخَلْقُ يختصُّ بالصور والأشكال المدركة بالبصر، والخُلُقُ يختصّ بالسجايا والقوى المدركة بالبصيرة[٢].

اصطلاحًا: عرَّف الجرجاني الخلق بأنَّه: "عبارة عن هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر ورويَّة، فإن كان الصادر عنها الأفعال الحسنة كانت الهيئة خلقًا حسنًا، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي مصدر ذلك خلقًا سيئًا"[٣].

ونحوا من ذلك عرفها ابن مسكويه، وقَسَّمها إلى أخلاق جِبليّة من أصل المزاج: كالغضب لأدنى سبب أو الفزع من أدنى صوت. والقسم الثاني أخلاقٍ تُكتَسبُ بالعادة والتدرب يكون مبدؤها الرويَّةُ والفكرُ، ثم شيئا فشيئا، حتى تصير ملكة وخلقًا؛ كالصدق، والكرم ونحوه[٤].

أما من وجهة النظر الإسلامية فعرفها بعض الباحثين بأنها: "مجموعة المبادئ والقواعد المنظمة للسلوك الإنساني التي يحددها الوحي، على نحو يحقق الغاية من وجوده في هذا العالم على أكمل وجه"[٥].

ولأهمية الأخلاق وجليل مكانتها في الإسلام قال المصطفى ﷺ: «إِنَّ خِيَارَكُمْ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا»[٦]. وقال ﷺ: «أكمل المؤمنين إيمانا أحاسنهم أخلاقا، الموطئون أكنافا، الذين يألفون ويؤلفون، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»[٧].

٢- شواهد وسطية الأخلاق في القرآن:

مدح المولى سبحانه وتعالى رسُولَه ﷺ بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم:٤] هذا الخُلُقُ الذي عندما سُئلَتْ عنه أُمُّ المؤمنين عائشة قالت: "كان خُلُقه القرآن".

---

[١] ابن منظور، **لسان العرب**، ج١٠، ص٨٦.

[٢] الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، ص٢٩٧.

[٣] الجرجاني، **كتاب التعريفات**، ص١٠١.

[٤] ابن مسكويه، **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق**، ص٤١.

[٥] مقداد يالجن، **جوانب التربية الإسلامية**، ج١، ص٢٨٧.

[٦] البخاري، **الصحيح**، رقم٦٠٣٥.

[٧] الطبراني، **المعجم الصغير**، رقم٦٠٥.

فما شواهد هذه الأخلاق التي ينبغي التخلق بها وتبنيها في سلوكنا، مع قوله سبحانه وتعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ الآية.

ولكن قبل ذلك نشير إلى بعض السمات التي تتميز بها الأخلاق في الإسلام بحسب وجهة نظر الدكتور مجدي محمد باسلوم في كتابه "الوسطية في الفكر الإسلامي"[1] وهي:

- أنها ربانية؛ لاتخضع للأمزجة أو الأهواء ولا تحابي طبقة دون الأخرى.
- أنها واقعية؛ تراعي نزوات الإنسان كما تراعي وأشواقه.
- أن سلطانها يتعدى الأمر الظاهر إلى بواطن الأنفس. وقد قال ﷺ: «إنَّما الأعمال بالنيات».
- أنها تقنع العقل؛ فما من خلق حثّ عليه الإسلام أو حذّر منه تجده يتعارض مع العقل.

نقول من بعض هذه الشواهد:

١- قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٨].

فالإسلام سلك بنا مسكا وسطا؛ فلم نُفرِّط في ديننا ولم نُفْرِط في عدواتنا.

قال العلامة الشنقيطي: "علاقة النسب بين المشرك والمؤمن تستدعي الإحسان وطيب المعاشرة، واختلاف الدين يستدعي المغاضبة. وانما خص الوالدين لقربهما، ويكون ما دونهما أولى بالحكم"[2].

كما في سورة لقمان: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٥)﴾.

قال السعدي: إن الشدائد التي يلاقيها الوالدان في سبيل أولادهم مع عظم محبتهما لهم يستوجب هذه التوصية بهما وتمام الإحسان إليهما، إلا أن الإشراك بالله لا يدخل ضمن هذا الإحسان؛ ذلك أن حق الله مقدم على حق كل أحد. فنحن إذا نسلك أعدل الأمور وأخيرها؛ فنجمع بين خيري الدنيا والآخرة؛ فنحسن إلى والدينا ولا نتهاون في ديننا.

٢- يقول تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩]. هذه الآية جامعة لحسن الخلق مع الناس؛ ذلك أن الأخلاق ثلاثة: عقلية، وشهوية، وغضبية. فالعقلية الحكمة، ومنها الأمر بالمعروف، والشهوية العفة ومنها أخذ العفو، والغضبية الشجاعة ومنها الإعراض عن الجاهلين[3].

والعفو في الآية هو ما تسمح به النفوس ويسهل على الأخلاق، ويكون فيه ترك الاستقصاء على الآخرين في المعاملات، وقبول العذر ونحوه. والعفو هنا كما قيل عام يستغرق جميع أفراده وأجناسه.

---

[1] باسلوم، **الوسطية في الفكر الإسلامي**، ص١٤٣-١٤٤.

[2] ابن عاشور، **التحرير والتنوير** [قال أبو الليث: لم أجده في الأضواء للشنقيطي، ولا في التحرير لابن عاشور].

[3] المرجع السابق.

وأمّا العرف فما تعارف عليه الناس ولا يُنكر على من وقع منه. وإعراضك عن الجاهل هو وعدم مقابلته بجهله، فلا تؤذي ولا تحرم، وإنما تصل وتعدل وتعفو. أو كما قال الشيخ رشيد رضا: "بترك معاشرتهم وعدم مماراتهم، ولا علاج أوقى لأذاهم من الإعراض عنهم"[1].

وإنّ من أظهرِ صُوَرِ العفو ما تخلَّق به سيدنُا يوسف ﷺ مع إخوته، بعد كل ذلك المكر الذي فعلوه معه. فقد عفا عنهم دون كلمة عتاب واحدة، بل والتمس لهم العذر بأنهم كانوا جاهلين. فقال كما حكى القران: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف:٩٢]، وقال قبلها: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ﴾ [يوسف:٨٩].

٣- وعن خلق التواضع يحكي القران من وصايا لقمان لابنه: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ [لقمان:١٨]، والمَرَحُ كما قال الشنقيطي: شدة ازدهاء المرء وفرحه بحاله في عظمة الرزق[2]. هذا المرح لن تخرق به الأرض ولن تطاول به الجبال، كما قال تعالى في سورة الإسراء. لكن تنال بغض الله قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾.

وفي المقابل احتفى الله بالذين يتخلَّقون بالتواضع وسمَّاهم عباد الرحمن؛ فقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان:٦٣].

وقد حُكِي أنَّ أبا بكر الصديق ﷺ كان يحلب للحي أغنامهم، فلما ولي الخلافة قالت جارية منهم: الآن لا يحلب لنا منايح الغنم. فسمعها أبو بكر، فقال: بلى لعمري، لأحلبنَّها لكم.

والمنيحة: أَن يجعل الرجلُ لبنَ شاتِهِ أَو ناقتِهِ لآخر فيشرب لبنها ثم يردُّها إذا ذهب دَرُّها[3].

- وفي الزكاة مروءة وكرم؛ يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ [البقرة:٢٦٤]، والمنُّ هو التذكير بالنعمة، والأذى هو التكبّر والتطاول بسبب العطاء. وكلاهما خلقٌ مذموم.

- وهناك خُلُقُ الحياء الذي قال عنه النبي ﷺ: «الْحَيَاءَ مِنْ الْإِيمَانِ»[4].

وهو خلقٌ يمنع صاحبه من إتيان ما يُلام ويذمُّ عليه. وهو وسط بين الفظاظة والوقاحة. والفرق بينه والخجل أنّه مما سيقع، بينما الخجل مكابدة المذمة واللوم مما وقع. وأثنى الله على نبيه ﷺ فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران:١٥٩].

لذلك رجّح النبي ﷺ جانب العفو في حقه عندما أطال أصحابه المكث عنده، وهو بين أن يغلظ عليهم حتى ينصرفوا وبين وجدانه عدم الراحة مع أهله، قيل: فخرج حياء منهم. فكفاه الله مؤونة ذلك، فقال: ﴿إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب:٥٣].

---

[1] المرجع السابق.

[2] المرجع السابق، ج٨، ص٢٣٢.

[3] ابن منظور، **لسان العرب**، ج٢، ص٦٠٢.

[4] البخاري، **الصحيح**، ج١، ص٢٤، رقم٢٤.

وعندما تحدّث القرءان عن ابنة سيدنا شعيب عليه السلام حين جاءت إلى سيدنا موسى عليه السلام ركّز على هذا الخلق تعظيما له فقال تعالى: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ [القصص:٢٥].

وعلى للاستعلاء، وقد قال الشاعر:

هذا، وهناك الكثير من الآيات التي تتحدث عن مكانة الأخلاق وتحضُّ عليها: كالصبر، والصدقُ، والوفاء، وغيرها. وقد أحصاها بعضهم بأكثر من ثلاثمائة (٣٠٠) موضع في القرآن الكريم. وأعدل الناس من قام بحدود هذه الأخلاق معرفة وفعلا.

المطلب الثاني: وسطية المعاملة في القرآن

١- تعريف المعاملة لغة واصطلاحا:

لغة: غالب معاجم اللغة تورد لفظة "معاملة" وتقصد بها ما يقوم به الشخص من حرفة أو نحو ذلك. فيكون قولهم عاملت الرجل أي استخدمته لأداء العمل. لذلك يقول صاحب اللسان: "عاملت الرّجل أعامله معاملة، والمعاملة في كلام أهل العراق: هي المساقاة في كلام الحجازيّين"[١].

حتّى إن أهل الفقه عندما يتحدثون عن المعاملات يعنون بها البيوع والإجارة ونحو ذلك. أمّا "المعاملة" بمعنى التعايش والتواصل بين الناس فقد أشير إليها في "التهذيب": "يقال: عاملت الرجل أعامله معاملة في المبايعة وغيرها"[٢]. وكذا في "معجم لغة الفقهاء" قال: "المعاملة التعامل مع الغير"[٣].

اصطلاحا: قال التّهانويّ: المعاملة هو الموقف الحسن الثّابت الصّادق الّذي يتّخذه المؤمن أثناء تعامله مع الآخرين في سائر المعاملات على ما يكفل الرّفق بالمتعاملين[٤]. وعرفها بعضهم بقوله: المعاملات في الاصطلاح هي الأحكام الشرعية المتعلقة بأمور الدنيا كالبيع والإجارة وغير ذلك.

وإن كان هذا المفهوم يُعبّر عنه العلماء بالسلوك، وفي القران بكلمة "العمل". يقول الدكتور مصطفى رجب: "يعرَّف السلوك في علم النفس الحديث بأنه: أخلاق الفرد وتعامله مع الآخرين. ويعبَّر عنه في القرآن بمصطلح (العمل). والعمل هو النشاط الصادر عن الإنسان، ويترتب على هذا النشاط جزاء عند الله سبحانه وتعالى. فالعمل الصالح يقابل السلوك المرغوب فيه، والعمل غير الصالح يقابل السلوك غير المرغوب فيه"[٥].

٢- شواهد وسطية المعاملة في القرآن الكريم:

الإنسان بطبعه يميل إلى مخالطة الناس والتعامل معهم، وهو بحاجة إلى ذلك بحكم المصالح المشتركة، فلا يمكن للإنسان أن يستغنيَ عن الآخرين. هذه الحقيقة التي جاء بها القرآن ونبّه إليها في عدد من الآيات.

---

[١] ابن منظور، **لسان العرب**، ج١١، ص٤٧٦.

[٢] عوض مرعب، أحمد بن الأزهري، **تهذيب اللغة**، ج٢، ص٢٥٥.

[٣] رواس قلعجي، صادق قنيبي، **معجم لغة الفقهاء**، ج١، ص٤٣٩.

[٤] التهانوي، **اصطلاحات الفنون**، ج٣، ص١٠٣٦. وراجع **المقدمة**، ج١، ص٣٢.

[٥] موقع: www.imanway.com

١- يقول تعالى: ﴿وَإِن كانَ ذُو عُسْرَةٍ فنَظِرَةٌ إِلى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨٠]. وهذه قمة التعامل ومراعاة المشاعر، ولها دور إيجابي في توثيق عرى المحبة بين الناس. فالمعاملة الحسنة تخترق الحواجز النفسية، وتصل بسهولة إلى قلوب الآخرين.

٢- ومن العدل وحسن المعاملة ما جاء بالأمر بالوفاء بالكيل. يقول تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء:٣٥]. وتوعَّد القرآن الذين يستوفون حقَّهم وبالمقابل يبخسون الآخرين، توعدهم بالويل دلالة على عظم هذه الجريمة وخطورة عاقبتها. قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ (١) الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ (٢) وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ (٣)﴾ [المطففين]. يقول العلامة الشنقيطي عن آية الإسراء: لأن الخطاب كان للمسلمين جاءت (إذا) الشرطية التي تتضمن الاعتناء بالأمر المطلوب في كل وقت. بينما لم ترد في حديث سيدنا شعيب عليه السلام تعريضا بقومه المشركين في سوء تشريعهم. قال تعالى: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلا تبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف:٨٥].

٣- وعن شريحة اليتامى سلك القرآن مسلكا وسطا يهتدي به من يباشرون التعامل معهم، خاصة في شؤونهم المالية. فقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾ [البقرة:٨٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فلْيَسْتعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:٦].

٤- حتَّى في حالة الرغبة في تعدد الأزواج فأنت بين الإباحة التي قال عنها سبحانه: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ﴾ [النساء:٣]، وبين هذا الحكم القطعي من قوله تعالى: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء:١٢٩]، فماذا هو الحل الوسط والعدل والأخير الذي لا يحرمك ما طيَّبه لك ويجنّبك الوقوع فيما حُرّم عليك؟ هو قوله تعالى: ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء:١٢٩].

٤- وفي حالات الخلافات الزوجية وقبل أن تنفصل تلك الآصرة، يرشد الله إلى حكم وسط لعلاج تلك المشكلة فيقول تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا﴾ [النساء:٣٥].

٥- وحالة الوسطية تتجلى كذلك في الاعتراف بحق المواطنة (كما يقال) لغير المسلم في المجتمع المسلم. فهو مساو لهم في الحقوق والواجبات، ما لم يكن محارب لك أو نصيرا لعدو لكم.

يقول تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة:٨].

فالبر والقسط مطلوبان من المسلم للناس جميعا، ولأهل الكتاب منزلة خاصة، حيث نهى الله عن مجادلتهم في دينهم إلا بالتي هي أحسن فقال: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٦].

ثم انظر إلى الإنصاف في الجدال معهم: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥)﴾ [سبأ].

بل أباح الله الزواج منهم: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة:٥].

ثم أرشد إلى ضرورة العدل معهم في حالة الخصومة، فقال سبحانه: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة:٨].

٦- ومن الأخلاق الاجتماعية التي حرص عليها القرآن أيضا ضرورة اللين للمسلمين. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [المجادلة:١١].

٧- ومن السلوك الوسطي ما يتعلق بالانفاق. فهو وسط بين أفراط الإسراف وتفريط التقتير. فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء:٢٩].

أي فلا تمسك يدك عن الإنفاق في سبيل الخير، ولا تسرف في الإنفاق فيلومك الناس ويذمّوك. وفي هذا المعنى قوله عز وجل: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قوامًا﴾ [الفرقان:٦٧]، فهم لم يتجاوزوا الحد في العطاء، ولم يضيّقوا في النفقة، فكان إنفاقهم وسطًا.

٨- ومن الأخلاق التي أمر الله بها الزوج عند الطلاق، هو حسن المفارقة حيث قال: ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِتَعْتَدُوا﴾ [البقرة:٢٣١].

٩- وما حضّ عليه القران أن لا يأخذ المسلم مال أخيه إلا عن طيب نفسه منه؛ فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ﴾ [النساء:٢٩].

قيل هذا الباطل على وجهين: أن يأخذه بغير طيب نفس: كالسرقة، والغضب، والخيانة. أو بطيب نفس لكن بوسيلة محرمة: كالقمار والغناء، وثمن الخمر.

١٠- ومن المشاكل الاجتماعية التي عالجها القرآن ظاهرة الشائعة، التي لها تأثير سلبي خطير في علاقات الأفراد والأسر. فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات:٦].

وقد وقف ﷺ في حادثة الإفك موقفاً وسطاً؛ فلم ينفِ ولم يثبت، مع انه كان متيقناً في قرارة نفسه من براءة زوجه أم المؤمنين عائشة-رضي الله عنها. ودليل ذلك قوله ﷺ: «فو اللّه ما علمْتُ على أهْلي إلا خيراً، ولكنه انتظر وحي السماء الذي فصل في الأمر وبرأها».

المبحث الثالث

التعريف بالدولة الماليزية وعاداتها وتقليدها

المطلب الأول: التعريف بالدولة:

أولا: نبذة تعريفية عامة عن ماليزيا[1]

تتكون دولة ماليزيا من ١٤ ولاية، بمساحة تقارب ٣٣٠ ألف كيلومتر مربع، ممتدة على جزأين يتوسطهما بحر جنوب الصين. الجزء الغربي (وبه العاصمة كوالا لمبور) يقع جنوب تايلاند وشمال سنغافورة، والجزء الشرقي يجاور إندونيسيا وبروناي.

ثانيا: السكان:

بحسب تعداد ٢٠١٣م يتجاوز عدد السكان ٢٩ مليونا، ويتكون من ٣ أعراق رئيسية، هي:

- الملايو (السكان الأصليون) ونسبتهم ٥٨% من السكان، يحكمون في تسع ولايات[2].
- الصينيون ونسبتهم ٢٦%.
- الهنود ونسبتهم ٧%.
- وأعراق أخرى تشكل ٩%.

ثالثا: الدين واللغة:

يدين الغالبية العظمى من السكان بالإسلام، وتليه البوذية ثم الهندوسية والمسيحية، وهناك ديانات أخرى. ويشكل المسلمون (وفقًا لتعداد ٢٠١٠م)حوالي ٦١,٤% من مجموع سكان ماليزيا. والدين الإسلامي هو أكثر الأديان انتشارًا في الجزيرة، والمادة الثالثة من الدستور تنص على أن الإسلام هو "دين الاتحاد (الماليزي)"، بل ويربط القانون والدستور بين تنازل المواطن الملاوي عن ديانته الإسلامية وبين تنازله عن عرقيته ومزاياها.

غير أن القانون والتشريع الماليزيين يعتمدان بالأساس على القانون الإنجليزي العام. ولا تطبق الشريعة الإسلامية إلا على المسلمين، ويقتصر تطبيقها على مسائل الأسرة والشعائر الدينية، مما أدى إلى جدل كثير حول هوية ماليزيا، وهل هي دولة علمانية أم دولة إسلامية؟

وفي لقاء مع تنكو عبد الرحمن (أول رئيس وزراء لماليزيا) نشر في جريدة "ذا ستار" صرح عبد الرحمن أن "سكان الدولة من خلفيات عرقية متعددة ولهم معتقدات دينية متنوعة. ولا بد أن تظل ماليزيا دولة علمانية مع بقاء الإسلام دينًا رسميًا لها"[3].

---

[1] عبد العزيز برغوث، **مناهج الدعوة**، ص١٧٥-١٩٩.

[2] **كلانتان وترنجانو وبهنج وقدح وبراق وبرليس وسلانغور وجوهور ونجري سمبيلن**. انظر مناهج الدعوه فوقه.

[3] جريدة (ذا ستار) عدد ١٩٨٣/٢/٩م.

أما اللغة الرسمية للدولة فهي هي اللغة الملايوية؛ وتستعمل في الدوائر الحكومية، ثم تليها اللغة الإنجليزية والتي يتكلم بها معظم السكان وتستعمل في التعليم والتجارة، ثم هناك لغات محلية أخرى.

رابعا: تاريخ الإسلام في ماليزيا:

اختلفت نظريات الباحثين حول كيفية وصول الإسلام إلى ماليزيا، فمنهم من أرجعه إلى التجار العرب من خلال رحلاتهم التجارية خلال القرن السابع الميلادي. ومنهم من أرجعه إلى التجار المسلمين من الهند؛ لوجود علاقة قديمة معها. وكان ذلك في القرن الثاني عشر الميلادي، في زمان سلطان قدح مظفر شاه الأول (١١٣٦ و١١٧٩م) آخر ملوك الهندوس، والذي تحول من الهندوسية إلى الإسلام وأسس سلطنة قدح.

وقيل: دخل الإسلام عبر ميناء ملاكا في زمن (بارا مِسْوارا) أول سلاطين ملاكا، وتوالى اعتناق سكان الموانئ التجارية الساحلية في كل من ماليزيا وإندونيسيا للإسلام بطريقة سلمية، حتى أصبح الإسلام بحلول القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين هو الدين الغالب على شعب الملايو.

وعلى كلّ، فالآثار التاريخية تدل على وجود قديم للإسلام في ماليزيا. من ذلك شاهد لقبر اكتُشِفَ في ولاية قدح مكتوب عليه الشيخ "عبدالقادر بن حسين" عام ٢٩١هـ (٩٠٣م). وعثر أيضا في ولاية (كلنتن)، في العام ٥٧٧ هجري (١١٨١م)، عُثِرَ على دينار ذهبي مكتوب على أحد وجهيه "المتوكِّل". بل عثر على حجر ويسمى (باتو بيسورات) ومعناها حجر الرسالة وحوله كثير من الروايات والأساطير المختلفة، مكتوب عليه بالأحرف الجاوية أي الأحرف العربية أحكام الشريعة الإسلامية فيما يخصّ الجنايات والديون المعاملات المالية، وذلك في ولاية (ترنجانو) في العام ٧٠٢هـ (١٣٠٣م).

خامسا: التعريف بولاية ترنجانو:

تعتبر من الولايات الماليزية الجميلة ، ذات الطراز الإسلامي الحديث، وهي عبارة عن ماليزيا مصغرة، لجمعها لكل مكونات الشعب الماليزي. وتقع ترنجانو جنوب شرق ماليزيا على ضفاف بحر الصين الجنوبي، مع حدود ولاية كلنتان، وعدد سكانها ١١٣٠٠٠٠ نسمة (تعداد ٢٠١٣م). بها ثلاثة جامعات والكثير من الكليات الجامعية والمعاهد العلمية ومراكز البحوث.

وهي كغيرها من الولايات الماليزية تنعم بأفضل الخدمات التي يحتاجها مواطنها في معاشه ومسكنه، موزعة توزيعا عادلا على كل الولاية ومقاطعاتها. وبها أكثرمن ٤٨٥ مسجدا حديثا، وعلى رأس سلطنة ترنجانو سمو السلطان: ميزان زين العابدين بن السلطان محمود المكتفي بالله شاه، وأسرته الكريمة. ((وحاكمها الإداري الحالي: هو فضيلة الأستاذ: داتو أحمد رازيف بن عبد الرحمن)).

ومن أهم معالمها قصر السلطان (الإستانة الماذية) أو القصر الماسي، وهو الذي تقام فيه المراسيم السلطانية منذ قديم الزمان. ومن معالمها كذلك (مسجد تنكو زهرة) المسجد المهيب المبني على منصة عائمة في مصب نهر تيرينجانو، الذي يجمع

بين حداثة التصميم الغربي والتأثير الإسلامي. وبها أول مجمع ضمّ في داخله جميع أمجاد العالم الاسلامي ومعالمه وتاريخه، وهو مجمع الحضارة الإسلامية أو كما يشار إليه في اللغة الماليزية بـ "تمدن إسلام". وبها الكثير من المناطق والجزر السياحية.

٢- شواهد وسطية الماليزيين في أخلاقهم وتعاملهم:

من هذه الشواهد والعادات الوسطية عند الماليزيين وهي كثيرة جدا، نكتفي منها بمثال واحد، وهو (الزواج).

ويمر الزواج عند الماليزيين بثلاث مراحل: هي التعارف والخطبة والعقد (الزواج الرسمي)،كغيرها من البلدان العربية. ولكن تتجلى الوسطية في إظهار التواضع واستقبال الضيوف وضيافتهم بالمألوف من الطعام والشراب. ولا يكون الزواج سببا للمفاخرة ﴿وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:٣١].

وكما قلنا لتلافي أسباب الطلاق ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا﴾ يُطلبُ من كل راغب في الزواج حضور كورسات تعرفه بهذه العلاقة وكيفية معالجة مشكلاتها.

وتطبيقا للتوجيه بعدم الإيذاء بالمن بالصدقة، تصل المشاركة المالية للعروسين في مظاريف بدون كتابة الاسم أو المبلغ. وهي في بعض البلدان كانها دَيْنٌ يؤرق العروسين حتى يؤدّوا مثله أو أكثر منه.

الخاتمة:

تبين من خلال هذا البحث أن الوسطية هي جوهر هذا الدين الإسلامي، وإن أخلاق المعاملات وفق الأوامر والنواهي الشرعية هي روح العبادة ولبابها، بل هي برهانها وشاهد صدقها، ولو كان الدين إيمانا وعبادة فحسب دون اعتبار للمعاملات، ما كان لدعوة النبي ﷺ جاذبية ولا أثر على الناس، بل إن الإسلام يسمو بالمسلم في علاقاته مع الخلق أجمعين، حتى مع الحيوان، فكانت الجنة جزاء امرأة بغي من بني اسرائيل رق قلبها رحمة ،فسقت كلبا أوشك على الموت عطشا، بينما كانت النار مصير امرأة أخرى قال النبي ﷺ عنها: «دخلت امرأة النار في هرة حبستها فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض»[١]. إن الإسلام انتشر في بلدان آسيا كالصين واندونيسيا وماليزيا وفي إفريقيا وغيرها بسبب أخلاق المهاجرين والتجار المسلمين الذين ما كانوا فقهاء ولا علماء ولا متخرجين من معاهد إعداد الدعاة، إنما كانوا على الإسلام الصحيح الذي تشهد به أخلاقهم في معاملاتهم للناس بالحق والعدل والإحسان، فكانوا بها قدوات طيبة مقنعة وفاعلة، ترغب في فضيلة الاسلام والاقبال عليه.

نتائج البحث:

توصل البحث إلى النتائج التالية:

أولا: إن قضية التعامل مع الآخرين هي قضية بالغة الأهمية والخطورة، وقد جعل الإسلام الالتزام بالدين في قسم كبير منه متوقف على الوسطية والأدب وحسن المعاملة.

ثانيا: إن الإنسان مدني بطبعه يجنح إلى تكوين العلاقات وبناء الروابط مع بني جنسه والتعامل معهم.

[١] النووي، **شرح الأربعين النووية**، ج٦، ص٤١.

ثالثا: إن المجتمع الماليزي يحتفظ بشحنة كبيرة من التمايز عن المجتمع الغربي، لذلك يندر في الشباب الماليزي أن تجد فيهم المقلد في ملابسه للغرب، قد يكون الكثير من الشباب مستهوياً للموسيقى الغربية والأفلام الأمريكية ولكن العجيب!! أن لديهم اعتزازاً كبيراً بالزي الماليزي الذي غالباً ما يكون بنطلوناً واسعاً عادياً وقميصاً فضفاضاً وطاقية الرأس التي تعتبر شيئاً مقدساً عند الماليزيين، وخاصة عند الذهاب إلى المسجد، وإن النسيج الاجتماعي الموجود في ماليزيا ما زال محل دراسة العديد من الباحثين، فهو بحق يشكل فسيفساء متعددة الألوان، ولكن اللون الغالب عليها هو اللون الإسلامي، فماليزيا بلد إسلامي بكل المقاييس.

التوصيات:

يوصي الباحث بتعميق البحوث والدراسات المتأنية في هذا المجتمع الماليزي في كل المجالات حتى تعم فوائده للمجتمعات الإسلامية الأخرى، فهو جدير بالبحث فيه لمايتميز به من صفات إسلامية كريمة، كصفة الصبر – والأمانة – والصدق – وغيرها.

المصادر والمراجع:

١. ابن أبي حاتم الرازي، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، **تفسير القرآن العظيم**، (السعودية: مكتبة نزار مصطفى الباز، ط٣، ١٤١٩هـ).

٢. ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد التونسي، **التحرير والتنوير**، (تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٣م).

٣. ابن عباد، الصاحب أبو القاسم اسماعيل بن عباد بن العباس، **المحيط في اللغة**، (بيروت: عالم الكتب، ١٩٩٤م).

٤. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل القرشي الدمشقي، **تفسير القرآن العظيم**، (بيروت: دار المعرفة، ١٩٦٩م).

٥. ابن مسكويه، أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب، **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق**، (مكتبة الثقافة الدينية، ط١).

٦. ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، ط٣، ١٤١٤هـ).

٧. الأزهري، أبو منصور، **تهذيب اللغة**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ٢٠٠١م).

٨. الألباني، محمد ناصر الدين، **سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة**، (الرياض: دار المعارف، ط١، ١٩٩٢م).

٩. باسلوم، مجدي محمد سرور، **الوسطية في الفكر الإسلامي**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤م).

١٠. البخاري، **الصحيح**، (دار طوق النجاة ط ١، ١٤٢٢هـ).

١١. برغوث، د. عبدالعزيز، **مناهج الدعوة**.

١٢. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة، **السنن**، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٨م).

١٣. التهانوي، **اصطلاحات الفنون**.

١٤. الثعالبي، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف، **الجواهر الحسان في تفسير القرآن**، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط١، ١٤١٨هـ).

١٥. الجرجاني، بن محمد بن علي الزين الشريف، **التعريفات**، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٣م).

١٦. الرازي، زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر، **مختار الصحاح**، (بيروت: المكتبة العصرية، ط٥، ١٩٩٩م).

١٧. الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، **المفردات في غريب القرآن**، (دمشق: دار القلم، ط١، ١٤١٢هـ).

١٨. رشيد رضا، **تفسير المنار**، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠م).
١٩. الزمخشري، أبو القاسم جار الله، **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط٣، ١٤٠٧هـ).
٢٠. الشنقيطي، محمد الأمين محمد المختار، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، (بيروت: دار الفكر، ١٩٩٥م).
٢١. صالح بن حميد، **رفع الحرج في الشريعة الإسلامية**، (دار الاستقامة).
٢٢. الصلابي، محمد علي، **الوسطية في القران**، (بيروت: شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر، ٢٠١٠م).
٢٣. الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب، **المعجم الصغير**، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط١، ١٩٨٥م).
٢٤. الفيروزآبادى، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط٨، ٢٠٠٥م).
٢٥. القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم، **التفسير**، (بيروت: دار الكتب العلميه، ط١، ١٤١٨هـ).
٢٦. القرضاوي، يوسف، **الخصائص العامة للإسلام**، (مكتبة وهبة، ط٤ ١٩٨٩م).
٢٧. محمد رواس قلعجي وحامد صسدق قنيبي، **معجم لغة الفقهاء**، (بيروت: دار النفائس، ط٢ ١٩٨٨م).
٢٨. **مختصر صحيح البخاري**، (المكتب الإسلامي، ط٢، ١٩٨١م).
٢٩. مرتضى الزبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق، **تاج العروس من جواهر القاموس**، (تحقيق مجموعة، دار الهداية).
٣٠. مقداد يالجن، **جوانب التربية الإسلامية**، (بيروت: مؤسسة دار الريحاني، ط١، ١٩٨٦م).
٣١. نور الدين قرة علي، **معالم المنهج الإسلامي**، (مجلة الرشاد العدد ١١ مارس ٢٠٠١م).